نِسَاءٌ وَرَاءَ الأَحداثِ

الأستاذ الدكتور

عبد الصبور شاهين

الأستاذة

إصلاح عبد السلام الرفاعى







تأليف

الأستاذ الدكتور

عبد الصّبور شاهين

الأستاذة

إصلاح عبد السّلام الرفاعى



اسم الكتاب: نساء وراء الأحداث.

المؤلف: أ.د. عبد الصبور شاهين.

أ. إصلاح عبد السلام الرفاعي.

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم.

تاريخ النشر: الطبعة الأولى - أغسطس 2006م.

رقم الإيداع: 2006 / 15101

الترقيم الدولي: ISBN 977-14-3545-0

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434(02)-3472864(02) فاكس: 3462576(02) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكتروني للمطابع: Press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة - ص.ب: 96 الفجالة - القاهرة.
ت: 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08002226222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: Sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدي)
ت: 5462090 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

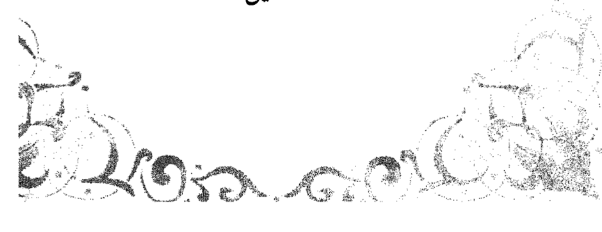
موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



الإهداء

إلى السيدة التى ولدت رسالة الإسلام فى حجرها، فكانت أول شهود ميلاده، وأول سابق إلى الإيمان به وأعظم المدافعين عن دعوته، وقالت وهى تعبر عن يقينها بصدق محمد زوجها وحبيبها: «والله، لا يخزيك الله أبدًا».

إلى السيدة خديجة.. أم المؤمنين، وأعظم نساء العالمين.





مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد..

فإن التاريخ هو أعظم الصناعات فى وجود الإنسان على هذه الأرض، فمنذ كان الإنسان بدأ التاريخ، فهو إذن صناعة منسوبة إلى واقع وجودنا.

أما بقية الصناعات فهى منسوبة إلى تاريخ الإنسان، فيقال مثلاً: إن السحر صناعة ظهرت فى مرحلة معينة من التاريخ الإنسانى، أو يقال: إن الكتابة صناعة تاريخية... وهكذا.

وأحداث التاريخ هى ثمرة سعى الإنسان على الأرض، حتى ما كان من هذه الأحداث إلهى المصدر.. كالدين، فهو رسالة الله إلى الناس، ومع ذلك نجد أن ما جَدَّ من الأحداث نتيجة نزول الدين ـ هو من صنع الإنسان، أو صناعته، فالدين إرادة، ورسالة إلهية، وواقع الدين على الأرض صناعة إنسانية، يسهم فى سيرتها الرجال والنساء، على سواء.

غير أن الرجال غلبوا النساء على أنفسهن، فزعموا أنهم ـ وحدهم ـ صناع التاريخ، وتنحّت المرأة جانبًا، مكتفية بوجودٍ على هامش الرجل، ربما لأنها أضعف.. ربما لأنها أكثر تواضعًا، مع أنها فى الحقيقة لا تقل عنه أهمية وإسهامًا فى تلكم الصناعة الوجودية، وما من رجل إلا هو صادر عن امرأة...

لذلك الاعتبار وغيره ـ أردنا أن نرد الأشياء إلى ميزانها، بإبراز دور المرأة فى صناعة تاريخ الإسلام، باعتباره الخيمة التى تظلنا جميعًا، وتضمنا رجالاً ونساءً، مع المحافظة على المسافة بين الطرفين، فللرجل قوامته وهيمنته، وللمرأة طاقتها النسبية ومسئوليتها.

إن الجيل الذى حمل إلى الدنيا رسالة الإسلام كان موكبًا من رجال ونساء، وقد حظى الرجال بالكثير من التعريف بهم، وتمجيد أدوارهم، ولكن المرأة قليلاً ما التفت إليها الكتاب والمؤلفون، ومن ثم ندبنا أنفسنا لهذه المهمة: مهمة الكشف عن المهمات فى صناعة التاريخ الإسلامى.



لقد قام بالدور الأول فى هذه المهمة نساء ممن صحبن رسول الله ﷺ، وشرفن بهذه الصحبة، فقدمنا عن أعلام ذلك الجيل النسائى - أمهات المؤمنين - كتابنا الأول بعنوان (موسوعة أمهات المؤمنين).

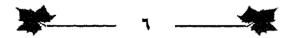
ثم ثنينا بتقديم كتابنا (صحابيات حول الرسول)، وخصصناه لمن أسهمن فى رواية السنة وحملن الأمانة، سواء أكن راويات أم مرويًا عنهن.

وجاء أخيرًا دور بقية النساء، وهن خليط من التابعيات، ومن تبعهن على مر القرون حتى زماننا هذا.

لقد اخترنا من النساء من كان لهن دور مؤثر فى أحداث التاريخ، فى مراحله المختلفة، ونعنى بالدور المؤثر أن يكون لهن دور إيجابى أو سلبى، فليس من الضرورى أن نكتب عن الوليات القانتات، فهؤلاء ظفرن بعناية ممتازة فى كتب طبقات الصوفية، وإنما حاولنا أن نبحث عمن كان لهن دور فى السياسة، أو فى الحكم، أو فى توجيه الأحداث، وذلك فى محاولة لوصف الحياة الإسلامية فى مختلف العصور، من خلال شهادات أولئك النسوة - على عصورهن.

ومن الواضح أننا سرنا مع الموكب التاريخى، ترتيبًا ونقدًا، فاخترنا من كل مرحلة شاهدةً ذات دور وراء الأحداث؛ ولذلك سوف نقدم هذه الموسوعة (نساء وراء الأحداث)، والتى بدأت بنائلة بنت الفرافصة:

الاسم	الموطن	الدولة	التاريخ
نائلة بنت الفرافصة زوج عثمان بن عفان	الحجاز	الخلافة الراشدة	٣٠ للهجرة - ٦٥٠ للميلاد
عاتكة بنت يزيد (زوج عبد الملك بن مروان)	الشام	العصر الأموى	٥٠ للهجرة - ٦٧٠ للميلاد
أم سلمة بنت يعقوب	الشام - العراق	العصر الأموى والعباسى	١٢٥ للهجرة - ٧٤٢ للميلاد
الخيزران (زوج المهدى)	الشام	العصر العباسى	١٣٠ للهجرة - ٧٤٧ للميلاد



زبيدة (زوج الرشيد)	العراق	العصر العباسى	١٤٥ للهجرة ـ ٧٦٢ للميلاد
العباسة (أخت الرشيد)	العراق	العصر العباسى	١٥٥ للهجرة ـ ٧٧١ للميلاد
أم المعتز (زوج المتوكل)	الشام ـ العراق	العصر العباسى	٢٠٠ للهجرة ـ ٨١٥ للميلاد
ست الملك (أخت الحاكم بأمر الله)	مصر	الدولة الفاطمية	٣٥٠ للهجرة ـ ٩٦١ للميلاد
اعتماد الرميكية (زوج المعتمد بن عباد)	الأندلس	أواخر حكم الطوائف للأندلس	٤٢٥ للهجرة ـ ١٠٣٣ للميلاد
زمرد خاتون (زوج عماد الدين زنكى)	الشام	أوائل دولة بنى أيوب	٤٦٥ للهجرة ـ ١٠٧٢ للميلاد
شجرة الدر (زوج الملك الصالح)	مصر	أواخر الدولة الأيوبية	٦٤٠ للهجرة ـ ١٢٤٢ للميلاد
ممتاز محل (زوج شاه جهان)	الهند	دولة المغول	١٠٠٤ للهجرة ـ ١٥٩٥ للميلاد
خناثة بنت بكار (زوج مولاى إسماعيل)	المغرب	دولة المرابطين	١٠٧٩ للهجرة ـ ١٦٦٨ للميلاد
فاطمة بنت إسماعيل	مصر	الدولة العلوية	١٢٨٠ للهجرة ـ ١٨٦٤ للميلاد

وقد فرض علينا اختيار هؤلاء الأعلام دورُهن فى المجتمع، وقوة شخصيتهن، حتى فرضن سيرهن على التاريخ، بحيث لا يمكن إغفالهن، أو تجاوز أدوارهن وراء الأحداث. وقد نضيف إليهن سيرًا أخرى ممن ترشحهن أعمالهن الباقيات، مع العلم بأن القاعدة التى حكمت اختيارنا هى أن النموذج لم يتكرر، فكل منهن أنموذج مستقل، بما تمثل من قيم عصرها، وبما تعكس مرآتها من صورة، فمنهن من كانت حياتها هى الخير المحض، ومنهن من كانت شرًّا خالصًا، وإذا كنا قد

اخترناهن من بين النساء القريبات من السلطة، فإن بعضهن كان وجودها صلاحًا وإصلاحًا، فى حين أن وجود أخريات كان فسادًا للسلطة، وإفسادًا لحياة المجتمع. غير أنهن جميعًا كن صورًا من الصراع السياسى، والاجتماعى.. الدامى أحيانًا، والمتلفع بنسائم الطيب ولمسات الحب أحيانًا أخرى؛ ولذلك نستطيع أن نجد فى سيرهن التاريخ بكل مقوماته وعناصره، حيث تتكامل على هذه الصفحات صور الرجال والنساء.. الصناع الحقيقيين للتاريخ.

إن الدور الذى قامت به المرأة خلال أحداث التاريخ الإسلامى دور خلاق، له فاعليته، وله رسالته، ولا شك أن النماذج التى وقع عليها اختيارنا ليست الفريدة فى مسار التاريخ الإسلامى، وإنما هى أمثلة أردنا بالكتابة عنها أن نقدم عينات من النساء اللاتى صنعهن الإسلام، والهدف من ذلك:

أولاً: أن نبرز دور المرأة فى صناعة التاريخ، وتوجيه الأحداث، وهو دور خلاق، يبنى، ولا يهدم، يؤثر ولا يستسلم.

ثانيًا: أن نؤكد للنسوة المعاصرات مدى الخطأ الذى يتورطن فى وحله، حين يعتقدن أن الإسلام قد حجر على المرأة، وحبسها فى بيتها، وسلبها كل حقوقها، فما كان ذلك إلا خلال العصر الجاهلى، فأما حين أشرق الإسلام فقد بدد بنوره ظلمات الجاهلية، وأطلق كل القيود التى كانت تكبل حركة المرأة، فصارت تنافس الرجال فى ميادين الجهاد، وتبذل دمها دفاعًا عن الإيمان، وتشارك فى معارك بدر، وأحد، والخندق، وخيبر، وغيرها بقدر ما تؤهلها تجاربها وخبراتها.

غير أن الإسلام صان المرأة من أن تبتذلها أو تتعاورها الأيدى الفاحشة فى أسواق الفوضى الأخلاقية أو فى النخاسة، فكانت دائمًا المرأة العفيفة، أو الجارية الطاهرة، تصونها أحكام الشريعة، وقيود المثالية الأخلاقية.

لقد شهد عصرنا ألوانًا من الفوضى، وأسواقًا للرذيلة، تتخذ من المرأة سلعة للتجارة باسم الفن، والحرية الكاذبة، وتفشى الوباء الأخلاقى حتى صار الشواذ ينافسون السواقط فى الاحتراف، وذلك باسم الحرية، ولدينا على الساحة بعض

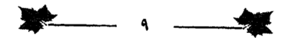


النساء اللاتى تخصصن فى هجاء الفضيلة الإسلامية، والدعوة إلى الانحلال وتجارة الأعراض، باسم الدفاع عن حقوق الإنسان، وكل اهتمامهن أن تزول الفوارق بين الرجل والمرأة، أو بين الذكور والإناث، حتى ولو كان ذلك على حساب أحكام الشريعة!!

والعجيب أن هؤلاء النسوة يجدن سوقًا رائجة فى قنوات الإعلام، وترحيبًا بأفكارهن الجاهلة، فيتحقق لهن بذلك الذيوع والانتشار، والشهرة هى الهدف الأول من نشاطهن المعادى للإسلام، رغم انتمائهن الصورى إلى عقيدته.

إننا فى هذا الكتاب نقدم مجموعة من النماذج الإسلامية الجادة، اللاتى كان لهن دور بارز فى توجيه أحداث التاريخ الإسلامى، عسى أن تقرأ المرأة المعاصرة بعض ما ينبغى أن تلتزم به من أخلاقيات العمل السياسى، والتحرك الإيجابى فى المجتمع الإسلامى، وعسى أن يكون لدى الأجيال القادمة رصيد من الأخلاقيات التى تفاخر بها المرأة، وهى تتابع سير السابقات من النساء اللاتى جاهدن دفاعًا عن العقيدة، وإسهامًا فى صنع المستقبل، كما يسهم الجندى المجهول، لا يبتغى بجهاده غير وجه الله.

المؤلفان





١

نائلة بنت الفرافصة

(زوج عثمان بن عفان)



تمهيد

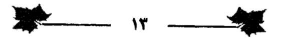
تعتبر نائلة بنت الفرافصة، زوج أمير المؤمنين عثمان بن عفان ـ طليعة الشوط الثالث فى تناولنا لسير المرأة المسلمة، بدءًا بموسوعة أمهات المؤمنين، التى تناولنا فيها نساء البيت النبوى، وقد كن يمثلن قمة الموكب النسوى، الذى تولى رسول الله ﷺ تقويمه وتربيته، وتولين بأنفسهن وحضورهن أداء الشهادة على عظمة المثل الأعلى المحمدى.

ثم جاء بعد ذلك دور الصحابيات (الراويات أو المروى عنهن)، فى كتابنا الثانى عن المرأة المسلمة: (صحابيات حول الرسول).

وهن يمثلن الجيل الذى حمل أمانة تبليغ الدعوة، من الزاوية التى بلغنها باجتهادهن، أو انتهت إليهن، ومنهن من تحدث عنها القرآن، فى مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

وقد تميز هذان الجيلان، بما أفاض الله عليهما، من معايشة النبى صلوات الله وسلامه عليه، أو صحبته، والرواية عنه.

ثم انفتح باب الحديث عن المرأة المسلمة، بعد انتهاء جيل الصحابيات، ليبدأ جيل المرأة المسلمة، وهو الجيل الذى استمر يحمل أمانة الدعوة، ويسهم فى مسئولياتها الدينية والسياسية والاجتماعية بدءًا «بنائلة زوج عثمان ـ الخليفة الثالث»، وهى من أوائل التابعيات، اللواتى التحم دورهن بجيل الصحابيات، وكان لها شرف معايشة أحد كبار الصحابة، وحياته فى الإسلام ـ كما سيأتى ـ تمتد منذ بداية الدعوة حتى منتصف عام ٣٥ للهجرة، أى إنه عاش فى الإسلام قريبًا من ثمان وأربعين سنة، تذوقت نائلة رحيق هذه السنين، فى الفترة التى قضتها زوجًا مخلصة لزوجها، حتى شهدت نهايته بين أيدى قاتليه، واختلط دمه بدمها، وهى ترى تناوش سيوف القتلة، فتغيب عن وعيها، ولا تحس بأن أصابع يدها قد تقطعت، وهى تدفع عن زوجها، وحبيبها، وأبى بناتها، خليفة المسلمين، وأمير المؤمنين.



يا له من مشهد هائل، لا نملك قدرة نفسية أو لغوية على وصفه، ولذلك ندعو القارئ إلى أن يعيش هذه الرحلة مع السيدة نائلة، كما عشناها، وبكينا مع نائلة على أمة الإسلام، التى نسأل الله أن يبرئها من داء التفرق والانقسام، الذى حاول ابن السوداء، عبد الله بن سبأ، غرسه فى أرضية الأمة، وما زالت آثار فتنته تحتاج إلى مقاومة بالمبيدات الإيمانية، لتعود أمة الإسلام (أمة واحدة) رغم كيد الكائدين، الذين: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

* * *

نائلة بنت الفرافصة[1]

هى إحدى زوجات أمير المؤمنين عثمان بن عفان الخليفة الثالث بعد الرسول ﷺ وهى آخرهن زواجًا به، وكان لهذه السيدة الجليلة دور كبير فى أواخر حياة الخليفة، وهذا الدور هو الذى جعلنا نلقى بعض الضوء على حياتها، وخاصةً أننا لم نشر إليها من قريب أو من بعيد فى كتابنا (صحابيات حول الرسول)، فهى كما وصفها ابن سعد من التابعيات؛ أى: إنها لم تلق رسول الله ﷺ، ولأنها لم ترو أحاديث عن رسول الله ﷺ لم نوردها ضمن التابعيات الراويات.

ولابد أن نقدم هنا فى سياق سيرة هذه المرأة الجليلة نبذة تاريخية عن شخصية الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ لأن كثيرًا من الأحداث التى تبدو نائلة فى خلفيتها.. بل كل الأحداث سوف ترتبط فى سيرتها بشخصية زوجها ومواقفه، وهى الأحداث التى سوف يطلق عليها فى التاريخ (الفتنة الكبرى).

* * *

(١) الفرافصة: هو الرجل الشجاع أو القصير (الوسيط)، والكلمة بفتح الفاء الأولى، وكسر الثانية، ولم يرد فى العرب من تسمى بهذا الاسم غيره.

ترجمة عثمان

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى، يلتقى مع الرسول ﷺ فى الجد الخامس - عبد مناف -، وجدته أروى بنت كريز من بنى عبد شمس أيضًا، أما جدته من ناحية أمه فهى توأم عبد الله بن عبد المطلب والد رسول الله ﷺ، واسمها البيضاء أم حكيم[1]، فعثمان قريب لرسول الله ﷺ من جميع الجهات، ولد على أغلب الأقوال بعد عام الفيل بست سنوات على الأقل، والله أعلم، وهو رابع من دخل الإسلام بعد خديجة، وعلىٍّ، وأبى بكر.

تزوج رقية ابنة النبى ﷺ، ولما ماتت عام اثنين للهجرة، تزوج أم كلثوم، فكان لذلك يدعى: ذا النورين، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين سماهم عمر بن الخطاب - عندما طعن - ليختار المسلمون منهم الخليفة، فاختاروا عثمان.

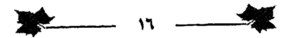
كان عثمان غنيًا شريفًا فى الجاهلية، وعندما دخل الإسلام صار من الأسس التى يعتمد عليها الدين الجديد. وكان سخى اليد كريمًا.. يصل الرحم، ويطعم الجائع، ويغيث الملهوف.

وفى غزوة تبوك، فى العام التاسع للهجرة، كان له دور رائع؛ فقد أسهم فى تجهيز نصف الجيش - الذى سمى: جيش العسرة - بالمال والإبل والخيول، ومن أعماله الخيرة أيضًا: شراؤه الآبار.. مثل بئر رومة، وجعلها وقفًا للمسلمين فى المدينة.

تولى عثمان رضي الله عنه الخلافة بعد استشهاد عمر بن الخطاب فى آخر عام ٢٣ للهجرة، وكانت بداية عهده أول محرم عام ٢٤ للهجرة (نوفمبر عام ٦٤٤ ميلادى)، قال بذلك ابن الأثير.

وسار على طريقة صاحبيه فى العدل والقسطاس، وتشجيع الجهاد ونشر الإسلام، حتى فتحت فى أيامه أرمينية والقوقاز وخراسان وكرمان وسجستان - من ناحية الشرق، أما من ناحية الغرب فقد وصل قواده إلى أقصى بلاد المغرب، ولا ننسى أن فى عهده كان خروج أول جيش بحرى إسلامى وكانت أول غزوة بحرية هى غزوة ذات الصوارى التى وقعت بين المسلمين والروم فى البحر الأبيض، وقائد المسلمين فيها عبد الله بن أبى السرح، أخو عثمان فى الرضاعة، وذلك فى سنة ٣١ للهجرة، وقد انتصر فيها المسلمون.

(١) لم يرد أنها أسلمت.



زواج عثمان بنائلة

تزوج عثمان اثنتين من بنات الرسول ﷺ هما رقية، ثم أختها أم كلثوم، وتزوج بعد وفاتهما خمس زوجات هن: فاختة بنت غزوان بن جابر بن قيس عيلان ولدت له عبد الله الأصغر، وتزوج أم عمرو بنت جندب بن الحارث بن الأزد ولدت له عمرًا وخالدًا وأبان وعمر ومريم، والثالثة فاطمة بنت الوليد بن عبد شمس بن المغيرة من مخزوم، ولدت له الوليد وسعيدًا وأم سعيد، والرابعة أم البنين بنت عيينة بن حصن من فزارة، ولدت عبد الملك، أما الخامسة فهى رملة بنت شيبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، ولدت له عائشة وأم أبان وأم عمرو[1].

وكان الصحابى عبد الرحمن بن عوف أول قرشى تزوج امرأة من قبيلة (كلب) اسمها تماضر بنت الإصبع[2] بن عمرو بن ثعلبة[3]، وأرادت أن تهدى الخليفة الطيب عثمان إحدى بنات عمومتها، فعرضت عليه عروسًا من بنات الفرافصة بن الأحوص بن عمرو بن ثعلبة وقالت له: ابنة عم لى بكر، جميلة، ممتلئة الخلق، أسيلة الخد، أصيلة الرأى. كانت تعنى بذلك نائلة بنت الفرافصة التى ولدت ـ فيما نقدر ـ أوائل عهد عمر، فسنها فى ذلك الوقت كانت تناهز السادسة عشرة.

ترعرعت نائلة فى مرابع قبيلتها (كلب) التى تسكن صحراء السماوة بين الشام وجزيرة العرب، أما دين رجال قبيلتها فكان النصرانية، شأنهم شأن القبائل المقيمة بين الشام والحجاز، وبعد الفتوحات الإسلامية لبلاد الشام أيام عمر بن الخطاب دخل الإسلام كثير منهم، وكانت نائلة وأخوها (ضب) ممن دخلوا فى دين الله، وإن كان المؤرخ الطبرى قد اعتبر إسلامها بعد خطبتها لعثمان رضي الله عنه.

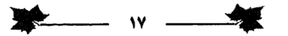
ووافق الخليفة عثمان على الزواج، وكان قد سمع أن الصحابى سعيد بن العاص، واليه على الكوفة، قد تزوج من قبيلة كلب أيضًا، من امرأة قريبة لزوج

---

(١) الطبقات ٣/٥٣.

(٢) قال ابن الزبير: صالح عثمان تماضر بنت الإصبع إحدى نساء عبد الرحمن ـ وكان طلقها فى مرضه حين اشتدت علته ـ بعد وفاته على ربع الثمن فأصابها مائة ألف دينار (الذخائر ٢٠٤) توفى عبد الرحمن ابن عوف عام ٣٢ للهجرة.

(٣) الطبقات ٣/١٢٨.



عبد الرحمن بن عوف، فأسرع بالكتابة إليه قائلاً: أما بعد فقد بلغنى أنك تزوجت امرأة من كلب، فاكتب إلىَّ بنسبها وجمالها ـ أى نائلة.

فكتب إليه سعيد: أما بعد، أما نسبها فهى ابنة الفرافصة بن الأحوص وأما جمالها فبيضاء مديدة والسلام[1].

ولابد أن نشير هنا إلى أن الزواج ـ ولا سيما زواج الخلفاء والقادة فى ذلك العهد ـ لم يكن مقصودًا لذاته.. بل كان طريقًا إلى نشر الإسلام، وبسط النفوذ، وتوسيع الصلات، وتكثير الأنصار، ولعله كان فى موضوعنا هذا وسيلة إلى اختراق تلك القبيلة النصرانية لتدخل كلها فى الإسلام حين يدخل الإسلام فيها. وخاصة أن الخليفة رضي الله عنه كان قد نَيَّفَ على السبعين ـ على أغلب الروايات.

واطمأن الخليفة للعروس، فبعث إلى سعيد موكلاً إياه فى تزويجه من ابنة الفرافصة، وعرض سعيد على الفرافصة طلب الخليفة، فوافق على هذه المصاهرة، وكان الفرافصة لا يزال على النصرانية فطلب من ولده ضب الذى دخل فى الإسلام أن يتولى تزويجها، والذهاب بها إلى المدينة عاصمة الخلافة. يقول صاحب نسب قريش: وكان ضب مسلمًا، وكان أبوه نصرانيًا؛ أمره أبوه بحملها إلى عثمان وقال: أنت على دينه[2].

والغالب أن أم نائلة كانت قد تُوُفِّيَت؛ لأن التاريخ لم يذكرها فى هذه المناسبة، وإنما ذكر لنا وصية الفرافصة لابنته، تمامًا كوصية أمامة بنت الحارث لابنتها عند زواجها ـ فى الجاهلية.

واستعدت العروس للسفر لتزف إلى أمير المؤمنين، وقبل أن يتحرك الركب أراد الفرافصة أن يوصيها فقال لها: إنك تقدمين على نساء من نساء قريش هن أقدر على الطيب منك فاحفظى عنى خصلتين: فتكحلى وتطيبى بالماء حتى يكون ريحك ريح شن أصابه مطر[3].

أما صاحب الموشى فقال: حتى تكون ريحك كريح الشباب المطهرين.

---

(١) أعلام النساء ١٤٧/٥.

(٢) نسب قريش ١٠٥.

(٣) أعلام النساء ١٤٧/٥ والشن: القربة الصغيرة يكون الماء فيها أبرد من غيرها.



وقد عرفنا أن أمامة قالت لابنتها من قبل: عليك بالتعهد لموقع عينه، والتفقد لموقع أنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح والكحل أحسن الحسن، والماء أطيب الطيب.

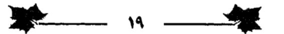
وسار الركب جنوبًا تجاه المدينة، وبينما القافلة تسير لاح لنائلة المستقبل الذى اختارته والغربة التى ستعيش فيها وبعدها عن الأهل والأقارب والخلان، فأخذت تدندن شعرًا يعبر عما فى نفسها من قلق وحيرة أمام توقع الاحتمالات عند لقائها برجل عظيم هو خليفة المسلمين، وبيته لا يخلو من المسلمين، وفى بيته زوجات أخريات، وتمثلت مخاوف أبيها وكيف لم تلتفت إليها حين عزمت على الهجرة إلى هذا الزواج المثير، قالت فيما روته كتب التاريخ:

ألست ترى يا ضب بالله أننى
مصاحبة نحو المدينة أركبا
إذا قطعوا حزنًا[1] تَحُتُّ ركابهم
كما زعزعت ريح يراعًا[2] مثقبا
لقد كان فى أبناء حصن بن ضمضم
لك الويل ما يجزى الخباء المحجبا[3]
قضى الله حقًّا أن تموتى غريبة
بيثرب لا تلقين أمًّا ولا أبا[4]

ووصلت عروس الخليفة إلى المدينة فى يوم من أيام عام ٢٨ للهجرة، ودخلت إلى البيت المعد لها، وتقول المصادر: إن عثمان رضي الله عنه كان فى السادسة والسبعين، وإن كنا نرى أنه كان أقل من ذلك ـ فى الخامسة والستين تقريبًا، والله أعلم.

وقد وصفت كل كتب التاريخ اللقاء الأول بينهما وما دار من حديث كله ود وحب امتد حتى آخر يوم من هذه العلاقة الرائعة. وكان أول شىء فعله عثمان هو أنه خلع

(١) الحزن: الأرض الوعرة.
(٢) اليراع: القلم.
(٣) وفى رواية: ما يغنى الخباء المطنبا.
(٤) أعلام النساء ١٤٨/٥.



عمامته فبدا صلعه فقال لها: يا ابنة الفرافصة لا يهولنك ما ترين من صلعى، فإن وراءه ما تحبين، فردت عليه بذكاء: أما ما ذكرت من الصلع فإنى من نساء أحب بعولتهن إليهن السادة الصلع، فقال لها: لعلك تكرهين ما ترين من شيبى؟ فقالت: والله يا أمير المؤمنين إنى من نسوة أحب أزواجهن إليهن الكُهَّل[1]. قال: إنى قد جزت الكهولة وأنا شيخ. قالت: أذهبْت شبابك مع رسول الله ﷺ فى خير ما ذهبت به الأعمار.

وفى رواية لابن طيفور، قالت نائلة: أبليْت عمرَك فى الإسلام ونصرة رسول الله ﷺ فى خير ما أفنيت فيه الأعمار[2]. وهذا يشير إلى أنها قد أسلمت من قبل بزمن، وعرفت كل شىء عن زوجها الخليفة. وكانت تجلس على سرير بالقرب من سرير الخليفة فسألها: إما أن تقومى إلىّ وإما أن أقوم إليك؟ فردت ردًا كله عقل وأدب ولطف قالت: فوالله إن ما تجشمت من جنبات السماوة لأبعد مما بينى وبينك، بل أقوم إليك، فقامت فجلست إلى جنبه.. قال صاحب أعلام النساء: فمسح عثمان رأس نائلة ودعا لها بالبركة ثم قال لها: اطرحى عنك رداءك، فطرحته، ثم قال: اطرحى خمارك، فطرحته، ثم قال لها: انزعى درعك، فنزعته، ثم قال: حلى إزارك فقالت: ذاك إليك[3].

وعاشت نائلة فى قمة السعادة فى كنف زوج عظيم تُكِنُّ له الحب والوفاء والإخلاص والطاعة حتى حظيت عنده وكانت من أحب نسائه إليه، وأقربهن إلى نفسه.

وما لبثت أن أنجبت لعثمان ثلاث بنات زهرات كما قال صاحب نسب قريش هن: أم خالد وأروى وأم أبان، وقد زاد ابن سعد بنتًا أخرى لنائلة قال: مريم بنت عثمان أمها نائلة بنت الفرافصة[4].

أما الطبرى فقال: قال هشام الكلبى: ولدت نائلة عنبسة، وزعم الواقدى أن لعثمان ابنة تدعى أم البنين بنت عثمان من نائلة قال: وهى التى كانت عند عبد الله بن يزيد بن أبى سفيان[5].

وعلى ذلك يترجح لدينا أن نائلة لم تلد لعثمان سوى مجموعة من البنات فى حدود خمس، على اختلاف الروايات.

---

(١) الكهَّل: جمع كهل وهو ما بين الثلاثين والأربعين.
(٢) بلاغات النساء ١٣٨.
(٣) أعلام النساء ٥/١٤٨.
(٤) الطبقات ٨/١٥٤.
(٥) الطبرى ٤/٤٢١.

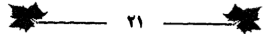


بوادر الفتنة

ولى عثمان بن عفان الخلافة لمدة اثنتى عشرة سنة، منها ست سنوات سار فيها سيرة طيبة سوية، على نهج سابقيه: أبى بكر وعمر، ثم بدأ فى التجاوز عن هذه الطريقة واهتم بأقاربه فجعل لهم المراكز والولايات والأعمال، دون غيرهم من الأكفاء، فمثلاً فى مصر استبعد عمرو بن العاص، فاتحها وولى أخاه فى الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبى السرح، وولى على الكوفة سعيد بن العاص ابن عمه، ومن قبل ولى عليها الوليد بن عقبة بن أبى معيط أخاه من أمه، وعلى البصرة عبد الله بن عامر بن كريز ابن خاله، وعلى الشام ابن عمه معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس، كذلك فرّق جزءًا كبيرًا من أموال المسلمين على أقاربه ووسع على عياله، ثم استن سنة لم تكن موجودة من قبل، وهى: استحلاله كل أرض جلا أهلها عنها - أن يستعمرها العربُ والمسلمون، وتكون لهم، فوجدنا كبار الصحابة بعد أن كانوا مقتدين برسول الله ﷺ وصاحبيه فى الزهد والقناعة بدأوا يغيرون طريقتهم ومواقفهم فى بناء الدور، وشراء الضياع واقتناء الخيل والإبل والأغنام فى تلك الأراضى، ومن أمثلة هؤلاء الصحابة الزبير بن العوام، الذى كان له دار فى كل مصر من الأمصار.. دار فى البصرة، وأخرى فى الكوفة، وثالثة فى مصر، ورابعة فى الإسكندرية، غير داره الأساسية فى المدينة. وطلحة بن عبيد الله كانت غلّته - كما ذكر المسعودى - فى اليوم الواحد من العراق فقط ألف دينار. وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وزيد بن ثابت والمقداد وغيرهم.

لقد تغيرت أحوال أولى الأمر، وقارن الناس بين الزمنين: زمن ابن الخطاب وزمن ابن عفان، وذكروا حج عمر وإنفاقه فيه ستة عشر دينارًا، ثم ندمه وقوله لولده: لقد أسرفنا فى نفقتنا فى سفرنا هذا، ثم يرون ما ينفقه كبار الصحابة فى عهد عثمان وما يملكون من ذهب وفضة تكسر قطعها بالفئوس، وكأنها قطع من الأحجار.

وكان من الصحابة من لم تعجبه هذه التصرفات الفردية مثل: أبى ذر الغفارى رضي الله عنه، الصحابى الزاهد، الثائر ضد مظاهر الترف، وأشكال البذخ التى



غرق فيها بعض الصحابة، وكان أولى بهم أن يكونوا أسوة فى الناس.. زهدًا، أو اعتدالاً، فكان يقاوم السلطة، لكنه فى النهاية مات فى الربذة بعيدًا عن مركز الخلافة. قال ابن سعد: لما ولى عثمان عاش اثنتى عشرة سنة أميرًا فعمل ست سنين لا ينقم الناس عليه شيئًا، وإنه لأحب إلى قريش من عمر بن الخطاب؛ لأن عمر كان شديدًا عليهم فلما وليهم عثمان لان لهم ووصلهم، ثم توانى فى أمرهم، واستعمل أقرباءه وأهل بيته فى الست الأواخر وكتب لمروان بن الحكم بخمس مصر، وأعطى أقرباءه المال[1].

ولم يكن المسلمون قد اعتادوا مثل هذا التبذير، فنفروا من تلك السياسة التى تعتبر شذوذًا عن سنن الخليفتين.. بل عن سنة عثمان فى السنين الأولى من خلافته، وتلقف البغاة الذين كانوا على موعد مع الشيطان هذه النهزة؛ ليوقدوا فتيل الفتنة، ويوقعوا بين المسلمين لسنوات، ويسيلوا الدماء أنهارًا، وذلك بعد أن سقط الخليفة صريع هذه الفتنة التى لم يشهد لها الإسلام مثيلاً.

* * *

ولابد هنا أن نتساءل عن السر فى هذا التحول الذى بدا فى سياسة عثمان، وهو ما وصفه ناقدوه بأنه تقديم لقرابته على سائر الصحابة، حتى اشتعلت الفتنة، بسبب تلك المحسوبية (بلغة عصرنا)... لقد تصدى الأستاذ السيد محب الدين الخطيب ـ الكاتب والمفكر الإسلامى لهذا الادعاء، ودفع عن عثمان رضي الله عنه هذه التهمة، فى بحثه عن (ذى النورين)، فأورد ما يمكن أن يمثل الرأى الآخر:

قال: «روى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن أبيه، قال: لقد عتبوا على عثمان أشياء، لو فعلها عمر ما عتبوا عليه. ولعله يشير إلى تولية عثمان أقاربه من بنى أمية؛ وهم كانوا أهل كفاءة، وبراعة فى صناعة الحكم، حتى إن رسول الله ﷺ كان أول من وَلَّى هذه الأسرة الأحكام، وبولايتهم كان الخير والرزق والسعة والعدل، وسائر ما وصف به الحسن البصرى المجتمع الإسلامى، أيام

(١) الطبقات ٣/ ٦٤.

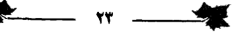


خلافة عثمان، فرجال عثمان كانوا بين فاتح ظافر لا نظير له، وبين حاكم حليم عادل لا مثيل له.. ثم قال الأستاذ الخطيب: إن إدارة عثمان العادلة، وطريقته الرحيمة فى الحكم، وتوسعه الباهر فى الجهاد والفتوح، وإدخال الأمم فى دين الله أفواجًا ـ قد جعل مدة خلافة عثمان لا يكاد يكون لها نظير فى إذاعة الإسلام وهذا هو اللائق بعثمان... إلخ»[1].

وهذا هو الذى أحنق صدور اليهودية، فتحركت لإشعال الفتنة، كما سيأتى الحديث عنه، ويكفى فى دفع اتهام كبار الصحابة بأنهم قالوا بقتله ـ يكفى فى تكذيب هذه الرواية قول على رضي الله عنه: «من تبرأ من دين عثمان فقد تبرأ من الإيمان، والله ما أعنت على قتله، ولا أمرت، ولا رضيت»[2].

* * *

(١) ذو النورين / ١٥.
(٢) السابق / ١٦.



اليهودى سبب الفتنة

كان عبد الله بن سبأ اليهودى اليمنى، الملقب بابن السوداء ـ قد دخل فى الإسلام فى زمان عثمان وقيل فى آخر زمن عمر بن الخطاب، لحاجة فى نفسه، ولنيّة مسبقة أسرّها فى قلبه: وهى أن يخرب هذا الدين بتفريق أهله، وتمزيق شملهم، وهى سياسة اتبعها اليهود على طول الزمن، سياسة توجه عناصر اليهودية إلى أحشاء المجتمعات الأخرى لتخريبها من الداخل، وهو ما فعله عبد الله بن سبأ، فأخذ يتنقل فى بلدان المسلمين لمحاولة ضلالتهم، فبدأ بالحجاز، ثم البصرة، ثم الكوفة، ثم الشام، وكان يخرج من كل بلد منبوذًا مطرودًا، فذهب أخيرًا إلى مصر، فوجد فيها ضالته..

قال ابن الأثير: نزل عبد الله بن سبأ الكوفة فأخرجه منها عبد الله بن عامر، فدخل البصرة ثم أخرج منها فأتى إلى مصر واستقر بها وجعل يكاتب أصحابه فى البصرة والكوفة، وتختلف الرجال بينهم[1]، والغريب أن يتمكن من التنقل فى هذه الأقطار كلها دون أن تستوقفه سلطة أو تقيد حركته التخريبية شرطة، لم تكن أجهزة الأمن والمخابرات قد نشأت بعد، ولا كانت هناك أجهزة حماية الدولة ترصد الأنفاس وتحصيها على من يستراب فى أمرهم.. لقد استغل هذا المتآمر الأفّاق مناخ الحرية والأمان الذى كان يسود المجتمع الإسلامى، وهو مناخ لم يكن يعرف التآمر أو يسعى إلى الفتن، وكان قصاراه أن ينشر دعوة الإسلام فى المجتمعات الجديدة، إلى جانب ما يستثمره بعض أفراده فى التجارة والزراعة. وفى هذا الجو الآمن تنقل الرجل بدعوته أو بمؤامرته.

استقر أخيرًا فى مصر وبدأ بوضع أسس خطته التخريبية، وأولها قوله: إن عليًّا وصىُّ محمد ﷺ، ولما قبلها الناس انتقل إلى نقطة جديدة وقال: من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ، ووثب على وصىِّ رسول الله، وتناول أمر الأمة، ثم رسم للناس خطة الدفاع عن حق علىّ، قال الطبرى: قال لهم بعد ذلك: إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصى رسول الله ﷺ، فانهضوا فى هذا الأمر، وحركوه، وابدءوا فى الطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر[2].

---

(١) الكامل ٣/٤٦.
(٢) الطبرى ٣/١٣٤١.



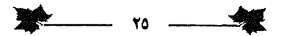
لقد بدأت الشرارة على يد هذا اليهودى اللعين، والجو مناسب، فبعض الناس ناقمون على الخليفة حبه وتفضيله لأقاربه، وإيثاره كبار الصحابة دون الآخرين، وكان قد قال ذلك بصراحة فيمن جاءوا له من مصر، قال: ألا إنه لا مال لكم عندنا إنما هذا المال لمن قاتل عليه، ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب رسول الله ﷺ، فغضب الناس وقالوا: هذا مكر بنى أمية[1].

ولابد هنا أن نقول رأيًا يزن الأمور كيف كانت؟ وكيف صارت إلى ما صارت إليه؟! فمن الواضح أن الدولة الإسلامية كانت عند بدايتها فى تلك المرحلة تحتاج إلى أمرين: الأول: المثل الأعلى، والثانى: الإدارة القوية المنظمة، ولا شك أن عهد الخليفتين أبى بكر وعمر كان عهد الهيمنة والمثل الأعلى، وقد استمر هذا العهد حتى منتصف فترة الخليفة الثالث، ثم بدأت هذه الهيمنة للمثل الأعلى فى الهبوط تدريجيًا مع افتقار شديد إلى الإدارة المنظمة، وهنا تفاقمت الأمور واشتعلت الفتنة التى لم تخمد نارها حتى التهمت أمير المؤمنين. ولا ريب أن آثارها مازالت باقية حتى الآن.

ونعود إلى مسرح الأحداث، ففى شوال سنة ٣٥ للهجرة، خرج ستمائة رجل من مصر ومعهم الداهية ابن السوداء عبد الله بن سبأ، وخرج من الكوفة مائتان، ومن البصرة مائتان، واتجهوا إلى المدينة قاصدين الخليفة، طالبين منه عزل الأمراء المغضوب عليهم،، وإبعاد مروان بن الحكم ومن معه، وتجمع الصحابة وتفرقوا، ثم أشاروا على الخليفة بأمور كثيرة، وهو فى حيرة من أمره، وكانت نائلة أقرب زوجاته إليه ترى ما هو فيه من حيرة، وتسانده، وتقف معه، وتشجعه، وكان من رأيها أن يسمع الخليفة لرأى على بن أبى طالب، ولا يسمع لمروان بن الحكم. وقالت له: اسمع لمشورة علىّ فهو ابن عمك، وكان علىّ قد أشار على عثمان أن يكلم الناس كلامًا يعتذر لهم فيه ويتوب عما بدر منه فى حقهم، فيقتل الفتنة فى مهدها، وأطاع عثمان وخرج للناس وقال: أنا أول من اتعظ، وأستغفر الله عما فعلت وأتوب إليه، فمثلى نزع وتاب، اللهم إنى أتوب إليك، اللهم إنى أتوب إليك، اللهم إنى أتوب إليك، فإذا نزلت فليأتنى أشرافكم فليروا فىَّ رأيهم.... فوالله لأعطينكم الرضا، ولأنحينّ مروان وذويه، ولا أحتجب عنكم.

---

(١) الطبرى ٤/ ١٣٥٥.



وفرحت نائلة عندما سمعت الخليفة يعتذر للناس، ورأت كيف تجاوب الناس معه، وبكوا وبكى، وظنت أن الأمور ستسير إلى خير زوجها الخليفة، وتعود المياه إلى مجاريها، لكن مروان لم يسكت، فأسرع ليكون فى استقبال عثمان فى بيته عندما يعود من مسجد الرسول ﷺ، ودخل عثمان فوجده ومعه رجال من بنى أمية، وخافت نائلة من كلامهم مع الخليفة، فوقفت لهم بالمرصاد، لكن طيبة عثمان وثقته بمروان جعلت الصورة تتغير، وهذا ابن الأثير يذكر الحوار الذى دار بين نائلة ومروان، عندما دخل عثمان بعد الخطبة، قال مروان: يا أمير المؤمنين أتكلم أم أسكت؟ فقالت نائلة: بل اصمت فإنهم والله قاتلوه ومؤثموه، إنه قد قال مقالة لا ينبغى له أن ينزع عنها. فقال لها مروان: ما أنتِ وذاك، فوالله لقد مات أبوك وما يحسن يتوضأ. فقالت: مهلاً يا مروان عن ذكر الآباء، تخبر عن أبى وهو غائب، تكذب عليه، وإن أباك لا يستطيع أن يدفع عن نفسه، أما والله لولا أنه عمه ـ عم الخليفة ـ وأنه يناله غمه لأخبرتك عنه ما لن أكذب عليه، فأعرض عنها مروان[1].

واتجه مروان إلى الخليفة يحاول أن يثنيه عما قال، ويصرفه عما أراد، حتى لان له عثمان، وخرج مروان يشتم الناس حول دار عثمان.. قال: شاهت الوجوه... جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا.. اخرجوا عنا والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم، ولا تحمدوا غب رأيكم، ارجعوا إلى منازلكم، فإنا والله ما نحن بمغلوبين على ما فى أيدينا[2]. وعلم على بن أبى طالب بما كان فدخل غاضبًا على عثمان واتهمه قائلاً: أما رضيت من مروان ولا رضى منك إلا بتحريفك عن دينك، وعن عقلك، مثل جمل الظعينة يقاد حيث يسار به، والله ما مروان بذى رأى فى دينه ولا نفسه.. وما أنا بعائد بعد مقامى هذا لمعاتبتك، أذهبت شرفك، وغلبت على أمرك..[3] وخرج ولم يعد.

لقد تجلت فى هذا الموقف المسافة الهائلة بين سلبية عثمان الخليفة الهرم، واستسلامه لعدوانية مروان بن الحكم.. الأنانى الذى دفع الأمور إلى التفاقم بتحديه لأولئك الثوار، لقد كان مروان يمثل فيما خاطب به الناس بعد خطاب أمير المؤمنين ـ المصالح لهم ـ الاتجاه العرقى القبلى المهيمن على السلطة، يعتبرها خصوصية

---

(١) الكامل ٥٦/٣.

(٢) المرجع السابق.

(٣) أعلام النساء ١٤٩/٥، وجمل الظعينة: أى المسافرة على جمل يقوده رجل.

له لا ينازعه فيها أحد، ولا سيما ما بأيديهم من أموال المسلمين. وكان هذا الموقف هو الفتيل الذى أشعل نار الفتنة، ولقد حاولت نائلة بكل قواها أن تحول بينه وبين التفاقم، وأن تحافظ على زوجها فى تلك اللحظات الأخيرة الحرجة، فكانت تدافع مروان بكل قواها، وكان مروان مصرًا على أن تبلغ الأمور أقصى مداها، وقد كان.

وشتان بين موقف كهذا، وموقف علىٍّ بن أبى طالب، الذى محض النصح لعثمان، وكشف له أبعاد الخطر الذى يحيط به، وكانت نائلة من رأى علىٍّ.

ولقد صارحت الخليفة قائلة: لقد أطعت مروان يقودك حيث يشاء، ويسألها عثمان: فما أصنع؟ فتقول: تتقى الله، وتتبع سنة صاحبيك من قبلك، فإنك متى أطعت مروان قتلك، ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة، وإنما تركه الناس لمكانه منك.

يقول ابن الأثير: فبلغ مروان مقالة نائلة فيه فجلس بين يدى عثمان فقال: يا ابنة الفرافصة..، فقال عثمان: لا تذكرنها بحرف فأسود وجهك، فهى والله أنصح لى منك، فكف مروان[1].

وواضح هنا أن مروان كان يتحدث باسم القبيلة، لا باسم الإسلام، ولعله كان يطمح إلى استبقاء الخلافة فى بنى أمية فيكون هو خليفة بعد عثمان؛ لأنه قابض على ناصية السلطة إلى درجة أنه يتحدث فيلغى ما قاله عثمان للثوار، ويمحو نفحة التصالح التى بدت فى حديث أمير المؤمنين إليهم، ونحسب أن مروان لم يكن وحده فى هذا الطموح، فقد كان هنالك أطراف كثيرة تنظر إلى الثمرة وهى تكاد تسقط، فتفتح أفواهها تحت الشجرة لتسقط فيها تلك الثمرة، لم يكن مهمًا فى تلك الظروف أن ينجو الخليفة، ولكن كان المهم أن ينتهى الموقف المتأزم، وتنكشف غمته بأى ثمن، حتى ولو كان هذا الثمن روح الخليفة الطاهر عثمان بن عفان.

لقد كان حظ عثمان أنه تولى الخلافة فى فترة بدأ فيها جيل الصحابة الكبار الذين يعرفون له قدره وسابقته.. بدأ هذا الجيل يرحل.. ما بين شهيد ومهاجر، وبدأ جيل الشباب يكبر ويشعر بضرورة أن تتوافق الأوضاع الحاكمة مع طموحاته، فإذا تزامن هذا الوضع مع كيد عبد الله بن سبأ، الذى أدرك بلا شك ذلك العامل النفسى المحرك للأطماع والأطماح - تلاقت عوامل الإثارة والهيجان، وكانت الكارثة.

---

(١) الكامل ٣/٥٧.



مشهد النهاية

وتتابعت الأحداث وتسارعت فقد أجمع الصحابة على مصالحة كل الثائرين من مصر والكوفة والبصرة والمدينة أيضًا، وفعلاً خرج إليهم على بن أبى طالب ومحمد بن مسلمة، واتفقا معهم على الرجوع إلى ديارهم، ولكن النار ما زالت متوهجة، فعادوا وحدثت أمور وتطور الموقف إلى حصار الخليفة فى داره ومنعه من الصلاة فى المسجد، ووصل الأمر إلى منع الماء عنه وحصره ومن معه من أهله، يقول ابن سعد: وكانوا يدخلون على عثمان وهو محصور، فيقولون له: أنْزِعْ لنا، فيقول: لا أنزع سربالاً سربلنيه الله[١].

لقد وضحت نيتهم، وهى إبعاد الخليفة، وليكن ما يكون بعد ذلك، وأحس الخليفة باقتراب أجله فأعتق عشرين مملوكًا، وجعل كل همه فى المصحف والصلاة والصيام، وأمر المحيطين به من الصحابة وأولادهم بعدم القتال حتى لا تراق قطرة دم فى سبيله، وقال لهم: إنى لا آمر أحدًا بقتال، فمن قاتل دونى فإنما قاتل بغير أمرى.

ولما واجهه الثوار صراحة بأنهم قاتلوه قال: والله لئن قتلتمونى لا تتحابون بعدى أبدًا، ولا تصلون جميعًا بعدى أبدًا، ولا تقاتلون بعدى عدوًا جميعًا أبدًا[٢].

وكانت هذه الكلمات آخر ما قاله ﵁ للناس.

وجاء يوم انتقاله إلى الرفيق الأعلى، قالت نائلة: أغفى عثمان، فلما استيقظ قال: إن القوم يقتلوننى، قالت: فقلت: كلا يا أمير المؤمنين، قال: إنى رأيت رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر فقالوا: أَفْطِرْ عندنا الليلة[٣].

وأطرقت نائلة، وتساقطت من عينيها الدموع أمام ذلك الهول الهائل!! بل بين يدى الحبيب الراحل!!

---

(١) الطبقات ٣/٧٣.
(٢) الطبرى ٤/٣٧٢.
(٣) الطبقات ٣/٧٥.



وبعد عصر ذلك اليوم تسور القتلة جدار الدار من خلف، ودخلوا على الخليفة وهو جالس يقرأ في المصحف، وأمامه زوجه المحبة نائلة، وكل الموالي والعبيد والأهل مشغولون بالقتال أمام الدار، وجاءت الساعة الرهيبة، والرجال في أيديهم السيوف، ويتجهون إلى الخليفة، فتصرخ نائلة، وتنشر شعرها لعلهم يستحيون فيرجعوا، ويناديها عثمان: خذى خمارك، فلعمرى لدخولهم عليّ أعظم من حرمة شعرك.

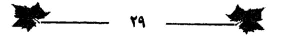
وفي لحظات ينكب القتلة على الخليفة وتسرع نائلة تدفعهم عنه، وترمي نفسها عليه تفديه بروحها، فيصيبها أحدهم بسيفه ويقطع أصابعها، وتصرخ طالبة النجدة، فلا يسمعها إلا واحد من العبيد وزوج لعثمان هي رملة بنت شيبة ابن ربيعة، ويدخل العبد ويضرب أحد الرجلين فيقده، ولكن بعد أن كان قد ضرب الخليفة ضربات قاضية جعلته يسلم الروح، وتخرج نائلة صارخة: قتل أمير المؤمنين. وتسمع أحد القتلة يقول: أيحل دم عثمان ولا يحل ماله؟ وينطلق إلى بيت المال ويتبعه آخرون ينهبون كل ما أمامهم، ويقول ابن سعد: فقامت نائلة وقالت: لصوص ورب الكعبة... يا أعداء الله، ما ركبتم من دم عثمان أعظم، أما والله لقد قتلتموه صوامًا قوامًا يقرأ القرآن في ركعة[1]. وضاع صوتها في زحام أصوات اللصوص والقتلة، الذين كان همهم استحلال دم عثمان وماله، فنهبوا كل شيء حتى ملاءة نائلة، وأرادوا أن يسخروا منها سخرية تمس شخصها فعاجلهم بعض غلمان عثمان.

واستشهد الخليفة الثالث ـ على أغلب الأقوال ـ يوم الجمعة ١٨ من ذي الحجة عام ٣٥ للهجرة (الموافق ١٧ يونية عام ٦٥٦ للميلاد).

وفي ليلة السبت اجتمع عند نائلة رجال كانت قد بعثت إليهم ليقوموا بدفن الخليفة الإمام، وأكثرهم من الشيوخ، وأمهلوها حتى تغرب الشمس حتى لا يراهم أحد، ومن هؤلاء الرجال: جبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، وأبو جهم بن حذيفة، وعبد الله بن الزبير، وخرجوا بالخليفة، ولم يغسل ولم يكفن؛ فهو شهيد، واتجهوا ناحية البقيع ليدفن فيه، ولكن حيل بينهم وبين ذلك، وكان رضي الله عنه قد اشترى موضعًا بجدار البقيع لتوسيعه فاتجهوا إلى هذا المكان واسمه (حُش كوكب) أي بستان كوكب، وكوكب: رجل من الأنصار، وكانت معهم نائلة لتكون في وداع

---

(١) الطبقات ٣/٧٤.



زوجها الحبيب حتى آخر لحظة، وأمسكت فى يدها السراج تسير أمامهم، ولما وصلوا إلى البستان صلى عليه حكيم بن حزام، ودخلت نائلة القبر ومعها زوجة لعثمان أخرى هى أم البنين بنت عيينة بن حصن... وعادت بعد أن تركت حبيبها الخليفة وتمثلت بأبيات من الشعر منها:

ألا إن خير الناس بعد ثلاثة[1]

قتيل التجيبى[2] الذى جاء من مصر

ومالى لا أبكى وتبكى قرابتى

وقد غيبوا عنى فضول أبى عمرو[3]

وفى رواية الطبرى قوله: قتل عثمان رضي الله عنه يوم الجمعة ضحوة، فلم يقدروا على دفنه، وأرسلت نائلة بنت الفرافصة إلى حويطب بن عبد العزى وجبير بن مطعم وأبى جهم بن حذيفة وحكيم بن حزام ونيار السلمى فقالوا: إنا لا نقدر أن نخرج به نهارًا وهؤلاء المصريون على الباب، فأمهلوا حتى كان بين المغرب والعشاء، فدخل القوم فحيل بينهم وبينه، فحمل إلى البقيع وتبعتهم نائلة بسراج استسرجته بالبقيع وغلام لعثمان حتى انتهوا إلى نخلات عليها حائط، فدقوا الجدار، ثم قبروه فى تلك النخلات، وصلى عليه جبير بن مطعم، فذهبت نائلة تريد أن تتكلم، فزبرها القوم وقالوا: إنا نخاف من هؤلاء الغوغاء أن ينبشوه، فرجعت نائلة إلى منزلها[4]. وإن كانت بعض المراجع ذكرت أنه رضي الله عنه لم يدفن إلا بعد ثلاث ليال.

وفى الصباح خرجت نائلة إلى مسجد الرسول ﷺ، وأرادت أن تلقى للناس خطبة، يقول طيفور: غدت نائلة ابنة الفرافصة الكلبية زوجته متسلبة[5] فى أطمار[6]، معها نسوة من قومها وغيرهم، إلى مسجد رسول الله ﷺ، فاستقبلت القبلة بوجهها، ووجهت إحدى نسوتها تستنهض الناس لها، فتقوضت الحلق

---

(١) هم: الرسول ﷺ وأبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب.

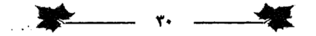
(٢) كنانة بن بشر التجيبى هو الذى ضرب عثمان رضي الله عنه بعمود على رأسه.

(٣) مروج الذهب ٢/٣٥٧ وأبو عمرو كنية عثمان.

(٤) تاريخ الطبرى ٤/٤١٣.

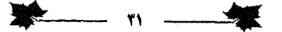
(٥) لابسة ثيابًا سوداء.

(٦) الأثواب البالية.



حولها، وقد سدلت ثوبها على وجهها، وألقت كمها على رأسها، حتى آذنوها باجتماع الناس، فحمدت الله وأثنت عليه وصلّت على النبى ﷺ، ثم قالت: عثمان ذو النورين، قتل مظلومًا بينكم بعد الاعتذار[1]، وإن أعطاكم العتبى[2]، معاشر المؤمنة، وأهل الملة، لا تستنكروا مقامى ولا تستكثروا كلامى، فإنى حرَّى[3] عبرى[4]، رزئت جليلاً، وتذوقت ثكلاً[5] من عثمان بن عفان، ثالث الأركان[6]، من أصحاب رسول الله ﷺ فى الفضل حين تراجع الناس فى الشورى يوم الإرشاد، فكان الطيب المرتضى المختار، حتى لم يتقدمه متقدم، ولم يشك فى فضله متأثم، ألقوا إليه الأزمّة[7]، وخلوه والأمة حين عرفوا له حقه، وحمدوا مذاهبه وصدقه، فكان واحدهم غير مدافع وخيرتهم غير منازع، لا ينكر له حسن الفناء، ولا عنه سماح النعماء، إذ وصل أجنحة المسلمين حين نهضوا إلى رءوس أئمة الكفر حيث ركضوا، فقلدوه الأمور إذ لم يكن فيهم له نظير، فسلك بهم سبيل الهدى، وبالنبى وصاحبيه اقتدى، مخسئًا[8] للشيطان مداحره[9]، مقصيًا للعدوان إلى مزاحره[10]، تنقشع منه الطواغيت[11]، وتزايل عنه المصاليت[12]. امتد له الدين واتصل به السبيل المستقيم[13]، ولحق الكفر بالأطراف قليل الأُلاَّف والأحلاف، فتركه حين لا خير فى الإسلام فى افتتاح البلاد، ولا رأى لأهله فى تجهيز البعوث[14]، فأقام يمدكم بالرأى ويمنعكم بالأدنى، يصفح عن مسيئكم فى إساءته، ويقبل من محسنكم بإحسانه، ويكافيكم بماله، ضعيف الانتصار منكم، قوى المعونة لكم،

(١) تشير للخطبة التى اعتذر فيها الخليفة عما فعله وتاب فيها إلى الله ثلاثًا.
(٢) العتبى: الرضا.
(٣) حزينة والهة.
(٤) العبرى: الباكية.
(٥) فقد الحبيب.
(٦) تريد الخلفاء الراشدين.
(٧) جمع زمام.
(٨) مبعدًا له.
(٩) جمع مدحر وهو مكان البعد والطرد.
(١٠) أصوله.
(١١) جمع طاغوت وهو الشيطان وكل رأس ضلال.
(١٢) اللصوص.
(١٣) المقصود: استقام.
(١٤) الجيوش.



فاستلنتم عريكته حين منحكم محبته وأجركم أرسانكم[1]، آمنًا جرأتكم وعدوانكم، فأراكم الحقُّ إخوانًا وأراكموه الباطل شيطانًا فى عقب سيرة من رأيتموه فظا وعددتموه غليظًا[2]، قهركم منه بالقمع، وطاعتكم إياه على الجدع[3]..

وكان والله أعلم بآدابكم ومصالحكم، فوالله هو كأن كان قد نظر فى ضمائركم وعرف إعلانكم وسرائركم، فحين فقدتم سطوته، وأمنتم بطشته، ورأيتم أن الطرق قد انشعبت[4]، والسبل قد اتصلت بكم؛ ظننتم أن الله يصلح عمل المفسدين، فعدوتم عدوة الأعداء وشددتم شدة السفهاء، على التقى النقى، الخفيف بكتاب الله عز وجل لسانًا[5]، الثقيل عند الله ميزانًا، فسفكتم دمه وانتهكتم حرمه، واستحللتم منه الحرم الأربع: حرمة الإسلام، وحرمة الخلافة، وحرمة الشهر الحرام[6]، وحرمة البلد الحرام، فليعلمن الذين سعوا فى أمره، ودبوا فى قتله ومنعونا عن دفنه، اللهم إن بئس للظالمين بدلاً، وإنهم شر مكانًا وأضعف جندًا، لتتعبدنكم الشبهات ولتفرقن بكم الطرقات، ولتذكرن بعدها عثمان ولا عثمان، وكيف بسخط الله من بعده، وأين كنتم كعثمان ذى النورين منفس الكرب زوج ابنتى رسول الله ﷺ وصاحب البرمد ورومة[7]، هيهات!!

والله ما مثله بموجود، ولا مثل فعله بمعدود، يا هؤلاء إنكم فى فتنة عمياء صماء، طباقة[8] السماء، ممتدة الحيران[9]، شوهاء العيان فى لُبس من الأمر، قد توزع كلُّ ذى حق حقَّه، ويئس من كل خير أهله، فلهوات[10] الشر فاغرة، وآيات السوء كاشرة وعيون الباطل خزر[11]، وأهلوه شُزر، ولئن نكرتم أمر عثمان ويشعتم الدعة لتنكرن غير ذلك من غيره، حين لا ينفعكم عقاب، ولا يسمع منكم استعتاب.

---

(1) جعلكم قادة أنفسكم.

(2) تقصد عمر بن الخطاب.

(3) كناية عن الذل.

(4) صارت ذات شعب.

(5) فى الأصل لسان.

(6) قتل عثمان رضي الله عنه فى ذى الحجة، والأشهر الحرم هى: رجب وذو القعدة وذو الحجة ومحرم.

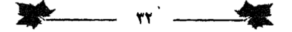
(7) بئران اشتراهما عثمان وأوقفهما للمسلمين.

(8) كناية عن ارتفاعها.

(9) من حرنت الدابة فهى حرون وهى الدابة التى تقف حين يطلب جريها وترجع القهقرى (المعجم الوسيط).

(10) جمع لهاة داخل الحلق ومعناه فتح الشر فاه وأوسعه.

(11) أى تخازر جفنه وضيقه ليحدد النظر.



ثم أقبلت بوجهها على قبر النبى ﷺ، فقالت: اللهم اشهد ثم تمثلت بقولها:

أيا قبر النبى وصاحبيه
عذيرى[1] إن شكوت ضياع ثوبى[2]
فإنى لا سبيل فتنفعونى
ولا أيديكم فى منع حوبى[3]

ثم انصرفت باكية مسترجعة[4]، وتفرق الناس مع انصرافها[5].

ولم تجد نائلة رد فعل لخطابها، فلم يتحرك من أهل المدينة أحد، فقررت أن تشرك معاوية بن أبى سفيان ـ أمير الشام ـ فى الأمر، فكتبت إليه كتابًا فيه كل تفاصيل الحادث المروع، وبعثت به مع الصحابى الجليل النعمان بن البشير الأنصارى[6]، ومع الكتاب قميص عثمان الذى قتل فيه ممزقًا ومضرجًا بالدم، كذلك وضعت فى زر القميص خصلة من شعر ذقنه التى نتفوها عند قتله، كذلك أصبعين من أصابعها المقطوعة، مع شىء من الكف ونصف الإبهام، وطلبت من معاوية أن يكون حكمًا بينها وبين قتلة زوجها خليفة المسلمين، ونص خطابها كما جاء فى العقد الفريد:

(من نائلة بنت الفرافصة إلى معاوية بن أبى سفيان. أما بعد... فإنى أدعوكم[7] إلى الله الذى أنعم عليكم، وعلمكم الإسلام، وهداكم من الضلالة وأنقذكم من الكفر، ونصركم على العدو، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، وأنشدكم الله وأذكركم حقه وحق خليفته أن[8] تنصروه بعزم الله عليكم، فإنه قال: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]، فإن أمير المؤمنين بُغى عليه، ولو لم يكن لعثمان عليكم

(١) نصيرى.
(٢) كناية عن فقدها زوجها، فالزوج والثوب ستر.
(٣) الحوب: الحزن والوحشة.
(٤) أى: وهى تقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.
(٥) بلاغات النساء: ٧٢.
(٦) وقيل مع عبد الرحمن بن أبى بلتعة، والنعمان هو أول مولود فى الأنصار بعد الهجرة، قتله مروان بن الحكم عام ٦٥ للهجرة.
(٧) فى أعلام النساء: أذكركم بالله.
(٨) فى أعلام النساء: الذى لم تنصروه.

حق الولاية، على كل مسلم يرجو إمامته[1] أن ينصره، فكيف وقد علمتم قدمه فى الإسلام، وحسن بلائه، وأنه أجاب الله وصدّق كتابه، واتبع رسوله، والله أعلم به إذا انتخبه فأعطاه شرف الدنيا وشرف الآخرة.

وإنى أقص عليكم خبره، إنى شاهدة أمره كله[2]: إن أهل المدينة حصروه فى داره، وحرسوه ليلهم ونهارهم، قيامًا على أبوابه بالسلاح يمنعونه من كل شىء قدروا عليه، حتى منعوه الماء، فمكث ومن معه خمسين ليلة، وأهل مصر قد أسندوا أمرهم إلى على[3] ومحمد بن أبى بكر[4] وعمار بن ياسر وطلحة[3] والزبير، فأمروهم بقتله[3]، وكان معهم من القبائل خزاعة وسعد بن بكر وهذيل وطوائف من جهينة ومزينة وأنباط[5] يثرب، فهؤلاء كانوا أشد الناس عليه، ثم إنه حصر فرشق بالنبل والحجارة فجرح ممن كان فى الدار ثلاثة نفر كانوا معه، فأتاه الناس يصرخون إليه ليأذن لهم فى القتال فنهاهم، وأمرهم أن يردوا إليهم نبلهم، فردوها عليهم، فما زادهم ذلك فى القتال إلا جرأةً، وفى الأمر إلا إغراقًا[6]، فحرقوا باب الدار، ثم جاء نفر من أصحابه فقالوا: إن ناسًا يريدون أن يأخذوا بين الناس بالعدل فاخرج إلى المسجد يأتوك، فانطلق فجلس فيه ساعة وأسلحة القوم مطلة عليه من كل ناحية، فقال: ما أرى اليوم أحدًا يعدل، وكان معه نفر ليس على عامتهم سلاح، فلبس درعه وقال لأصحابه: لولا أنتم ما لبست اليوم درعى، فوثب عليه القوم، فقام إليهم ابن الزبير[7]، وأخذ عليهم ميثاقًا فى صحيفة بعث فيها إلى عثمان: عليكم عهد الله وميثاقه أن لا تقربوه بسوء حتى تكلموه وتحرجوا، فوضع السلاح، ولم يكن إلا أنْ وضعه حتى دخل عليه قومه يقدمهم محمد بن أبى بكر، فأخذ بلحيته ودعوه باللقب، فقال: أنا عبد الله وخليفته عثمان، فضربوه على

---

(١) فى أعلام النساء: يرجو أيام الله.

(٢) زيادة فى أعلام النساء: حتى قضى الله عليه.

(٣) زيادة فى العقد الفريد.

(٤) محمد بن أبى بكر، ابن أسماء بنت عميس، ولد فى حجة الوداع سنة ١٠ للهجرة، وتربى فى حجر علىّ بن أبى طالب بعد زواجه من أسماء، سبب تغيره على عثمان هو الكتاب الملفق على الخليفة الذى وجدوه مع عبد لعثمان يأمر فيه ابن أبى السرح بقتل محمد بن أبى بكر.

(٥) أخلاط الناس من غير العرب (المعجم الوسيط).

(٦) فى أعلام النساء: إغراءً.

(٧) عبد الله بن الزبير.



رأسه ثلاث ضربات وطعنوه فى صدره ثلاث طعنات، وضربوه على مقدم العين فوق الأنف ضربة أسرعت فى العظم، فسقطت عينُه وقد أثخنوه وبه حياة، وهم يريدون أن يقطعوا رأسه ليذهبوا به، فأتتنى ابنة شيبة بن ربيعة[1] فألقت بنفسها معى فوطئنا وطئًا شديدًا، وعرينا من حلينا[2]، وحرمة أمير المؤمنين أعظم، فقتلوا أمير المؤمنين فى بيته مقهورًا على فراشه.

وقد أرسلت إليكم بثوبه عليه دمه، فإنه والله إن كان أثم من قتله فما سلم من خذله، فانظروا أين كنتم من الله؟ وأنا أشتكى كل ما مسنا إلى الله عز وجل وأستصرخ بصالحى عباده، فرحم الله عثمان، ولعن قتلته، وصرعهم فى الدنيا مصارع الخزى والمذلة وشفى منه الصدور)[3].

والذى نتردد فى قبوله من نص هذا الخطاب هو إقحام اسم علىّ كرم الله وجهه ومعه مجموعة من كبار الصحابة، وأنهم قد أمروا بقتله، ونحسب أن ذلك من إضافات الرواة الكذابين، وقد سبق نفيه.

وبعد أن وصل الكتاب الشام وتسلمه معاوية، حدثت أمور جسام لا موضع لذكرها الآن فى قصة نائلة.

وعاشت نائلة بعيدًا عن الأعين، غير أنها لم تغب بطولتها عن رجال قدروها، فكانت تُخطب وتأبى وتقول: والله لا يقعد منى رجل مقعد عثمان أبدًا، ولعل أبرز من خطبها أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان، ولا شك فى أنه أراد أن يجزل مكافأتها بالزواج منها، ولكنها أبت عليه مع جليل قدره، واختارت أن تعيش محجوبةً عن الأعين تبذل قصاراها بتربية بناتها من عثمان حتى تزوجن جميعًا، فتزوجت أم خالد من عبد الله[4] بن خالد بن أسيد بن أبى العاص بن أمية

---

(١) رملة بنت شيبة بن ربيعة بن عبد شمس، كانت من المهاجرات، كانت زوجة لعثمان، عيرتها عند إسلامها بنت عمها هند بنت عتبة وقالت:

ندين لمعشر قتلوا أباها

أقتل أبيك جاءك باليقين

(نسب قريش ١٥٦).

(٢) المتاع والزينة، فى أعلام النساء ثيابنا.

(٣) العقد الفريد ٤/ ٣٠١.

(٤) ابن عم عثمان رضي الله عنه.



ابن عبد شمس الذى كان زوجًا لأختها أم عثمان بنت عثمان، وبعد أن ماتت، أما أروى فقد تزوجت خالد بن الوليد[١] بن عقبة بن أبى معيط، أما أم أبان فقد قال صاحب نسب قريش[٢] إنها لم تتزوج، ولكن صاحب المحبر قال: كانت تحت مروان بن الحكم[٣]. ثم ماتت نائلة دون أن يدرى أحد متى ماتت، فلم تذكر مراجع التاريخ شيئًا من ذلك، ومضت إلى ربها راضيةً مرضية حيث التقت هناك بحبيبها الشهيد عثمان بن عفان.

* * *

(١) أمه أخت عثمان، اسمها آمنة بنت عثمان.
(٢) صفحة ١١٥.
(٣) المحبر ٥٥.



نائلة والمسئولية

ولابد فى مواجهة هذا التحرك الذى قامت به السيدة نائلة ـ أن نتساءل عن مدى مسئوليتها عن اشتعال الفتنة الكبرى، تلك الفتنة التى أكلت من المسلمين ما يربى على تسعين ألفًا، ما بين معارك الجمل وصفين والنهروان وحروراء، كما أوقفت زحف الإسلام سبع سنين، بدءًا بعام ٣٦ للهجرة، وانتهاءً بعام الجماعة، عام ٤١ للهجرة، حين استأنف المسلمون زحفهم على بلاد كانوا فتحوها قبل الفتنة، ثم أعادوها إلى الإسلام بعدها. وليس هذا ـ حَسْبُ ـ هو حصيلة الفتنة، فإن جراح النفوس أشد إيلامًا من جراح الأجسام، وجراح التاريخ أبشع هولاً!!

هل تتحمل نائلة مسئولية هذه الفتنة وأوزارها؟

الواقع أن حجم هذه الأقدار لم يكن بوسعها أن تتخيله، وربما لو كشفت الأستار عن تلك الأقدار ما خطت نائلة خطوة واحدة فى طريقها بعد أن ووري عثمان التراب، ولكنها كانت امرأة شغلها أمر القصاص من قتلة زوجها، وهى ولية دمه، فى غيبة من يحملون هم هذه الولاية، وكل ما كانت تريده؛ أن ترى مجموعة القتلة يلقون مصيرهم جزاء ما اقترفوا، وهو ما قالته فى رسالتها إلى معاوية، وقد اعتبرت نفسها غير مسئولة عن شىء بعد تلك الرسالة، على حد قول الشاعر:

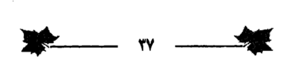
فألقت عصاها واستقر بها النوى

كما قر عينًا بالإياب المسافر

وقد آل أمر أولئك القتلة إلى القتل أيضًا، وانتهى أمر القصاص منهم.

فأما تداعيات أحداث الفتنة بعد ذلك فقد كانت فيما نرى ـ تصفية لمجموعة من التناقضات التى فرضتها اعتبارات شخصية وقبلية، سخرتها المؤامرة اليهودية التى استهدفت القضاء على الإسلام، ولا علاقة لنائلة بتلك الأحداث التى شوهت وجوه الجيل كله.. بل كانت أسوأ ما شوه وجه الإسلام.

* * *



خاتمة

ولختام هذا الموضوع نسجل هنا ملاحظتين:

الأولى: تتعلق بشخصية نائلة، وهى شخصية تبهرنا بذكائها وثقافتها وحضورها، وهى صفات يتميز بها من قطعوا شوطًا كبيرًا فى التعلم وصقل الملكة العقلية.

ونائلة وأمثالها من النساء كثيرات فى المجتمع الإسلامى، لم تتعلم فى مدرسة ولا نالت شهادة الدكتوراه فى العلوم السياسية، ومع ذلك فهى تتحدث كأرقى ما يفكر السياسيون فى مشكلة تواجههم، وواضح أنها كانت متمكنةً فى لغتها؛ تقول الشعر فى مناسبتها الدامية، فتبكى العيون والقلوب، وهذه لعمر الله ميزة فريدة لم تكن إلا فى نساء ذلك الجيل ممن عايش رسول الله ﷺ أو واحدًا من صحابته الكبار، وتعتبر نائلة متفردةً فعلاً بين نساء الصحابة الكبار.

صحيح أنها لم يذع أمرها باعتبارها شاعرة أو خطيبة قبل مقتل عثمان، ولا اشتهرت بين فصيحات النساء فى ذلك الوقت، ولكن بشاعة الجريمة أنطقتها بهذا الكلام أو قريب منه ولا مانع أن يتدخل الرواة فى مثل هذه المناسبة ببعض المقاطع والجمل التى تكمل فى نظرهم رؤيتها للحدث، وتعبيرها عن بشاعة الجرم، وعلى أية حال فإن ما حدث بعد ذلك يوحى بخطورة ما تقدم من أحداث وأقوال.

والملاحظة الثانية: أن قصة نائلة فيها كل العناصر المثيرة فى تلك الفترة من العهد الإسلامى، ونحب أن نهدّئ قارئ هذه السيرة، وأن نرده إلى التوازن المطلوب فى هذا الموقف بالذات، فقد سقط كثيرون فى هذا الخلاف، وأقحموا أنفسهم بين أطرافه.. ينصرون طرفًا على طرف، ويشايعون فريقًا ضد فريق، ونحسب أنهم جميعًا قد أخطأوا الاختيار فى مواقفهم، وهنا نذكر جملةً من المنطلقات الحاكمة فى هذه الفتنة:

أولاً: أكثر عناصر هذه الفتنة ـ كما يمكن أن نسميها ـ هم من صحابة رسول الله ﷺ، وهؤلاء الصحابة بلا استثناء هم من أهل الجنة ـ سواء أكانوا مهاجرين أم أنصارًا ـ وقد نص القرآن على ذلك، ويكفى فيهم قوله تعالى:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

ثانيًا: أن التربية المحمدية كما نهض بها المنهج القرآني قد صاغت من كل منهم شخصية مستقلة ممثلة لرأيها الملتزم بالحق من وجهة نظرها.

ثالثًا: أن الإسلام لم يجعل القداسة إلا لله ورسوله، أما بقية المؤمنين فهم أكفاء بعضهم لبعض.. سواسية كأسنان المشط في حق إبداء الرأى، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإذا اختلفوا في ضوء هذه الاعتبارات، فإن اختلافهم أمر طبيعى لا حرج فيه ولا تثريب، لأن لكل منهم حقه فى أن يكون له رأيه، وهذا الاختلاف فى النهاية يراد به إصلاح شئون الدنيا، وهو ليس اختلافًا فى العقيدة ومفرداتها، وهو الاختلاف الذى يفضى إلى الكفر، كما يزيد فى درجة الإيمان.

لقد اتسع الموقف الإسلامى لاختلاف هؤلاء جميعًا ولا حرج على المختلفين طبقًا للمنهج الإسلامى، ولابد أن نحترم هؤلاء جميعًا دون استثناء؛ إعظامًا لموقفهم وإكبارًا لتلك الحرية التى كانوا يعيشونها فى مواجهة ما يرون أنه خطأ، وهذا حق لا ينازعهم فيه أحد، أما الآخرة فشأنها بالنسبة إليهم جميعًا قول الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٧ ـ ٤٨]، فهم إلى الجنة صائرون بفضل الله، فقد اختارهم لصحبة نبيه ونصرة دينه، ورفع لواء التوحيد خفاقًا فى الدنيا كلها، وقد أدوا الأمانة فى هذا الجانب كاملة غير منقوصة.. بلغوا الرسالة.. حملوا القرآن إلينا وإلى الدنيا، وشادوا الحضارة الإسلامية، وهذا حسبهم من فضل الله عليهم، فليس من شأننا أن نلوم أحدًا أو أن نغمزه، فتلك فى الحقيقة جريمة لا يستطيع أن يتحمل جريرتها من يقترب منها، ورضى الله عنهم أجمعين، وألحقنا بهم جميعًا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.



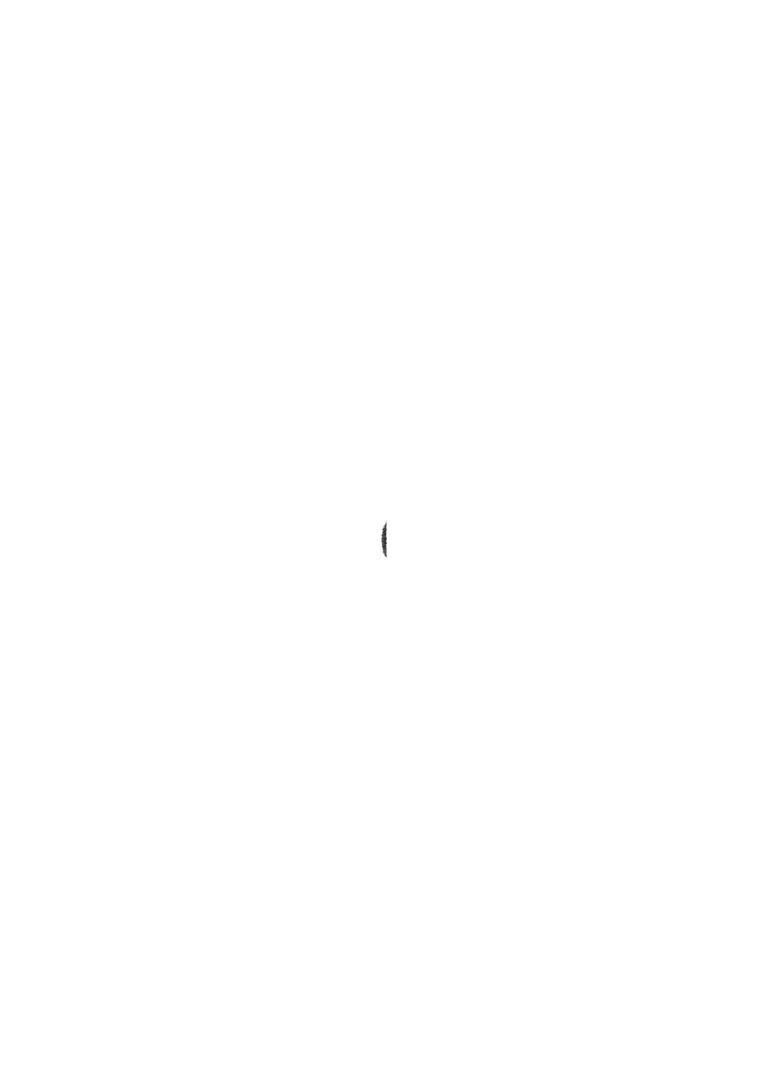
وكل ما يضايقنا من جو الخلاف بينهم أنه انتهى باللون الأحمر (إراقة الدماء) على ذلك النحو الرهيب، لكن صحابة رسول الله ﷺ ما كان لهم أن تنطوى قلوبهم على إرادة ذلك الشر، وإنما هى فتنة أشعلتها العناصر اليهودية، وظلت تنفخ فى نارها حتى أهلكت الحرث والنسل وأحرقت الأخضر واليابس، والقوم آنذاك حديثو عهد بالسياسة، والحيل والخدائع والمؤامرات، التى حذقتها ومردت عليها تلك الحيات من بنى إسرائيل، حتى ساقت القوم إلى مصائرهم، وأشعلت الحريق فيما بينهم. وما زالت روائح هذا الحريق الهائل تزكم أنوف الأمة الإسلامية فى انقساماتها الطائفية، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

* * *

٢

عاتكة بنت يزيد

(زوج عبد الملك بن مروان)



تمهيد

إن تقديم هذه السلسلة من السير الذاتية أو القصص التاريخى لا يهدف ـ فى تقديرنا ـ إلى تسلية القارئ، وتزجية فراغه، ومع أن هذا هدف يمكن أن يستهدفه الكاتب، وإنما الغاية التى نتغيّاها بما نكتب عن هذه الشخصيات التى كانت وراء الأحداث هى أن نعالج مشكلات معاصرة فى ضوء قديم، وأن نسوق العبرة بأسلوب تاريخى تعليمى، على نحو ما حدد القرآن من أهداف القصص فى قوله تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فليس القصص للقصص.. بل القصص لمزيد من الوعى بسلامة الموقف، والاطمئنان إلى الحق، والاعتبار بما مضى من أمثلة أو مَثُلات، وذكرى للمؤمنين.

وعلى الرغم من أن أحداث التاريخ الإنسانى تتشابه فى الفحوى، وتتقارب فى المضمون، إلا أن لكل حدث ذاتيته، ووجهته، وسيرته، ولعل هذا هو الذى يبرر تكرار الأحداث، فهى تبدو وكأنها جديدة، مع أنها قد سبقت، ولكن برواية أخرى.

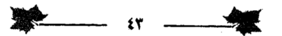
هل نحن بحاجة إلى مثال يوضح هذه الفكرة؟....

حسنًا!! فلنأخذ مثالاً صريح الدلالة، وشديد الحساسية فى آن!!

تخضع الشعوب دائمًا لنظم حاكمة، فى شكل أفراد، أو أسرات، أو جماعات حزبية، أو قبلية، وقد اصطلح الناس منذ كانوا على الخضوع لهذه النظم الحاكمة تحقيقًا لمصلحة المجتمع أولاً وأخيرًا...

بيْد أن كل النظم التى حكمت منذ فجر التاريخ، وحتى يوم الناس هذا، تقع فى غلطة مكررة دائمًا، إلا فى أندر الأحوال، ولظروف استثنائية.. خاصة.

والغلطة تتمثل فى تصور الحاكمين أو تخيلهم أنهم يملكون رقاب الناس، وأموالهم، وحياتهم.. من خلال تربعهم على سدة الحكم.. ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾.



وحين يتسلم النظام الحاكم مقاليد السلطة تنشأ على التوّ فكرة الملكية المستبدة بكل شيء، وتستولى هذه الفكرة على الحاكم وأعوانه، فإذا بهم يستولون من الثروات على ما ليس لهم بحق، ويرونه حقًا لهم، ويرون أيضًا أنه ليس من حق أحد أن يعترض على ذلك بأى ذريعة يتذرع بها، ويمضى الفساد معربدًا.. مسنودًا بضراوة الفاسدين، وصمت المحكومين الخائفين، أو قل الصابرين حتى يأذن الله بالفرج، وتلحق النهاية بالبداية، وهكذا دواليك....

لم نجد استثناء لهذه القاعدة إلا فى عهود قليلة، على رأسها عهد النبى ﷺ، وعهدا أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، وفترات متقطعة من خلافة عثمان وعلىّ، وعمر بن عبد العزيز (فى الدولة الأموية)، وربما وجدنا شيئًا من هذا القبيل فى فترة حكم صلاح الدين الأيوبى (إبان الحروب الصليبية).

إن شخصية هذه القصة (عاتكة بنت يزيد) وهى امرأة عاصرت جملة من الأحداث، أو عكست سيرتها وقائع يختلط فيها الفساد بالعظمة، ويضطرب ميزان العقل بالكثير من الأهواء، وتطغى الأنانية على الغيرية، أو الأثرة على الإيثار، وقد كانت الدولة الأموية هى التجربة الأولى لنظام الحكم الدنيوى الذى عدل عن نهج الخلفاء الراشدين إلى نهج آخر انتهى بأصحابه إلى ما هو معروف من سقوط الدولة بعد تسعين عامًا من السلطان.

وسقطت الدولة لتقوم على أنقاضها دولة أخرى بهدف إصلاح الأحوال، وضبط المعايير، ولكن للفساد أحكامه وجبروته الذى يطغى على النوايا الحسنة، والشعارات المعلنة، وجهود المصلحين!!.

لو لم يكن الشيطان موجودًا فى هذه الحياة لتحيرنا فى نسبة ما حدث، وما هو حادث، وما سوف يحدث.. فى غد قريب أو بعيد، ولكن إرادة الله وضعت حدًّا لحيرتنا، حين أرشدتنا إلى مصدر الفساد والانحراف فى سلوك البشر، منذ كان الإنسان خليفة فى الأرض، وإلى أن يرث الله هذه الأرض ومن عليها.

فهذا الشيطان ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾، فالشيطان فى كل حال راكب، وهؤلاء جميعًا مراكيب!!



وصدق الله العظيم حين قال: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

على أية حال؛ فإننا نسوق هذه القصص من باب.. ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾....

فلعل وعسى....

* * *

عاتكة بنت يزيد

هي السيدة عاتكة بنت الخليفة الأموى الثانى يزيد بن الخليفة معاوية بن أبى سفيان بن حرب القرشى.

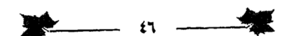
ولدت عاتكة فى حوالى منتصف القرن الأول الهجرى فى دمشق، حياةَ جدها الخليفة معاوية.. أول خلفاء بنى أمية الذى آل إليه حكم الدولة الإسلامية عام الجماعة (عام ٤١ للهجرة)، عندما تنازل له الحسن بن علىّ بن أبى طالب، وبدأ المسلمون يستعيدون زمام المبادرة فى التعامل مع القوى الخارجية، فأخذت الفتوحات الإسلامية طريقها، وانتشر المسلمون يحملون راية التوحيد، ويخوضون المعارك فى البر والبحر.. تأمينًا لفتوحاتهم، وتدعيمًا لسيطرتهم على تلك البلدان المفتوحة..

لقد خمدت نار الخلاف مؤقتًا، فلم تعد إلا سلطة واحدة، هى تلك التى تسيطر على توجيه الأمور، ويهيمن عليها تلك الشخصية السياسية النادرة: معاوية بن أبى سفيان.. جد عاتكة.

وأم عاتكة هى: أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن عبد شمس، فهى قرشية أبًا وأمًا.

تربّت عاتكة فى قصر الخلافة وسط إخوتها الثمانية عشر[1]، حتى وصلت لسن الزواج فى الوقت الذى كانت فيه الدولة الإسلامية المترامية الأطراف تموج بأحداث شتى، وأمور جسام، وخلافات شديدة بين شيعة وسُنة وأمويين وعلويين وزبيريين وطالبيين وخوارج وذلك بعد وفاة الخليفة معاوية، وتولى الخلافة من بعده ولده يزيد سنة ٦٠ للهجرة والذى كان أقل كفاءة فى إدارة دفة الحكم من أبيه، فاستطاع أعداؤه النيل منه بتشويه سيرته، رغم أنه كان من القادة المقاتلين فى حركة الفتوحات، وهو أول من حاصر القسطنطينية عام ٤٩ للهجرة، وكان معه فى الجيش جماعة من صحابة رسول الله ﷺ، ومنهم

(١) كان ليزيد ١٣ ذكرًا وست إناث.



أبو أيوب الأنصارى، الذى مات أثناء هذا الحصار، وأوصى بأن يدفن فى أرض الأعداء، فحمله القائد يزيد إلى أن بلغ به أقصى مكان بلغه من أرض العدو، بجوار سور القسطنطينية، وهنالك دفنه[1].

وعلى الرغم من هذه السيرة الناصعة ليزيد بن معاوية، فإن أعداءه افتروا عليه كثيرًا، وشنعوا بسيرته، وألصقوا به كل نقيصة، وعلى أية حال فإن خلافته لم تدم طويلاً.. بل انتهت بموته فى صفر عام ٦٤ للهجرة (سبتمبر عام ٦٨٣ للميلاد).

وتبعه فى الخلافة ابنه معاوية الثانى[2]، ولكنه لم يلبث إلا أربعين يومًا حتى خلع نفسه من الخلافة، واضطربت أحوال بنى أمية وخاصة بعد أن بايع الناس لعبد الله بن الزبير فى كل من مصر والحجاز والعراق، وتعيينه ولاة من قِبَلِه على أكثر الأمصار.

وخاف ابن الزبير من سلطة مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية، فهو شيخ بنى عبد مناف، وكبيرهم، فتصرف تصرفًا سريعًا، ولكن عاقبته كانت وبالاً عليه فيما بعد.. وذلك أنه أخرج مروان بن الحكم من المدينة هو وأهله وذووه، فاتجهوا إلى الشام، وهناك لمّوا شملهم، وجمعوا قوتهم، ثم حدثت منازعات ومقاتلات بالسيف بينهم وبين خصومهم، مثل عمرو بن سعيد بن العاص، والضحاك الفهرى... وأخيرًا استتب أمر خلافة المسلمين لمروان بن الحكم فى عام ٦٥ للهجرة (أغسطس عام ٦٨٤ للميلاد)، بعد معركة مرج راهط التى قتل فيها الضحاك.

وكان لمروان أحد عشر ولدًا ذكرًا أكبرهم عبد الملك[3]، الذى يعتبر أول من تسمَّى بهذا الاسم فى الإسلام.

وقد أراد مروان أن يؤلف قلوب بنى عمه، من السفيانية، فتزوج هو من أم خالد أرملة يزيد بن معاوية، وأحب أن يصهر أحد أولاده فى بيت معاوية وابنه.

---

(١) فى نفس الموضع أقام السلطان محمد الفاتح ضريحًا ومسجدًا، وأصبح من تقاليد الخلافة العثمانية تقليد الخليفة الجديد سيف عثمان فى هذا المسجد، وأبو أيوب هو الذى نزل بداره رسول الله ﷺ عندما قدم المدينة، وكانت القسطنطينية قد فتحت عام ٩٠١هـ ١٤٩٥م.

(٢) ولد عام ٤١ للهجرة.

(٣) ولد عام ٢٦ للهجرة وهى نفس السنة التى ولد فيها يزيد بن معاوية بن أبى سفيان.

وسمع أن عاتكة بنت يزيد عروس، فخطبها لعبد الملك بكْرِه، وتزوجها، وبذلك اجتمع شمل السفيانيين والمروانيين، ببركة زواج عاتكة بعبد الملك. وكانت العروس في حوالى السادسة عشرة، أما عبد الملك ففى حوالى الأربعين، فهو فى سن أبيها، وله أولاد من نساء أخريات حرائر وإماء، ولم تمر سنتان حتى ولدت عاتكة ولدين.. أسمت الكبير: مروان، والصغير: يزيد[1]، إلا أن ابن كثير ذكَرَ لها أولادًا أكثر.. قال: ولدت عاتكة لعبد الملك يزيد، ومروان، ومعاوية ـ درج ـ وأم كلثوم[2]، وكان أولاد عبد الملك ستة عشر ذكرًا، وقيل: سبعة عشر.. صار أربعة منهم خلفاءَ بعد ذلك، أحدهم ابن لعاتكة، فقد حرص عبد الملك لحبه الشديد لها أن يجعل الخلافة فى أحد ابنيها.

قال المصعب الزبيرى: كان عبد الملك قد أخذ عهدًا على ابنه سليمان حين بايع له بولاية العهد بعد أخيه الوليد ـ لَيُبَايِعَنّ لأحد ولدى عاتكة وهما: يزيد ومروان، فبويع ليزيد[3]، وقال في موضع آخر: وأما يزيد فبايع له سليمان بن عبد الملك بعد عمر بن عبد العزيز، فولى الخلافة بعد عمر[4]، إذ كان مروان ـ الأكبر ـ قد مات بعد أن حج مع أخيه الخليفة الوليد بن عبد الملك عام ٩٣ للهجرة (عام ٧١١ للميلاد)، وجرت بينهما محاورة فتغاضبا، وكظم مروان غيظه فمات لتوه، ودفن بوادى القرى، قرب مكة.. قاله البغدادى فى المحبّر.

وَعَوْدٌ إلى عقيلة بنى أمية.. عاتكة بنت يزيد، التى وصفها المؤرخون بربة السؤدد والمجد والرفعة والعظمة والحسن والجمال، وذكروا أنها الوَحِدَة من بنات الملوك التى عددوا اثنى عشر خليفة مَحْرَمًا لها، فجدّها معاوية بن أبى سفيان[5]، وأبوها يزيد بن معاوية بن أبى سفيان[6]، وأخوها معاوية بن يزيد بن معاوية[7]، وزوجها عبد الملك بن مروان[8]، وحموها مروان بن الحكم[9]، وبنو زوجها:

---

(١) ولد يزيد عام ٧١ للهجرة، وقيل ٦٤ للهجرة وقيل ٦٢ للهجرة، وهو الأصوب، وكان مروان أكبر منه.
(٢) البداية والنهاية ٦٨/٩، درج: مات صغيرًا.
(٣) نسب قريش ١٦٢، تولى يزيد بن عبد الملك عام ١٠١ للهجرة.
(٤) نسب قريش ٢٠١.
(٥) تولى الخلافة عام ٤١ للهجرة.
(٦) تولى الخلافة فى رجب عام ٦٠ للهجرة.
(٧) تولى الخلافة فى صفر عام ٦٤ للهجرة.
(٨) تولى الخلافة فى رمضان عام ٦٥ للهجرة.
(٩) تولى الخلافة فى محرم عام ٦٥ للهجرة.



الوليد[1]، وسليمان[2]، وهشام[3]، وابنها: يزيد بن عبد الملك[4]، وابن ابنها: الوليد بن يزيد[5]، وابنا ابن زوجها: يزيد[6] وإبراهيم[7] ابنا الوليد بن عبد الملك.

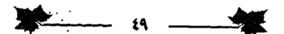
عاشت عاتكة ابنة يزيد، وزوج الخليفة عبد الملك في دمشق، تتعلم حديث رسول الله ﷺ وترويه لمن حولها، وتعلمه ولديها: مروان ويزيد، ولحفظها وروايتها لحديث رسول الله ﷺ صنفها الفقهاء من الطبقة الثالثة من المحدّثات.. جاء في كتاب (نسب قريش): حَدّثت وروى عنها مهاجرٌ الأنصاري.. قال أبو زرعة: فيمن حَدّثت بالشام من النساء عاتكة بنت يزيد[8]، ولم تكتف بتعلم الحديث، إنما تعلمت كل ما أتيح لها من أخبار العرب، وتاريخهم، وأيامهم، وشعرهم، وقد اهتمت كثيرًا بالشعر والشعراء، فحفظت شعر الأقدمين، وسمعت من المحدثين، وأجزلت العطاء لمن أعجبها شعرهم.. شأنها في ذلك شأن عظيمات النساء في عصرها، وعقيلات البيوت القرشية، أمثال: عائشة بنت طلحة، وسكينة بنت الحسين، وغيرهما.

لقد كان مجال عائشة وسكينة ما بين الحجاز والعراق، أما عاتكة فقد كان مجالها في الشام، حيث عاصمة الخلافة الأموية في دمشق، التي ولدت وعاشت وماتت ودفنت فيها.

وكان لهذا العصر طابعه الخاص الذي يتميز به عن عصر الخلفاء الكبار .. حيث كان التصون والتعفف أدبًا عامًا يحكم علاقات الناس بعضهم ببعض، فلم نعرف أحدًا شبب بامرأة في عصر عمر أو عثمان، فضلاً عن عصر عليّ الذي امتلأ بالحروب، فلم يكن لدى الناس فسحة يلتقطون فيها أنفاسهم، ويفرغون لِلَهْوِهم وتعابثهم.

---

(1) تولى الخلافة في شوال عام ٨٦ للهجرة.
(2) تولى الخلافة في جمادى الآخرة عام ٩٦ للهجرة.
(3) تولى الخلافة في شعبان عام ١٠٥ للهجرة.
(4) تولى الخلافة في رجب عام ١٠١ للهجرة.
(5) تولى الخلافة في ربيع الأول عام ١٢٥ للهجرة.
(6) تولى الخلافة في جمادى الآخرة عام ١٢٦ للهجرة.
(7) تولى الخلافة في ذي القعدة عام ١٢٦ للهجرة.
(8) نسب قريش ٢٩٤.



أما في الفترة التي نتحدث عنها فقد أخذ الشعراء يتنفسون غزلاً وتشبيبًا بعظيمات النساء، ووجدوا في أنفسهم الجرأة طموحًا إلى أمثال سكينة بنت الحسين، وعائشة بنت طلحة، وغيرهما، وقد كُنّ رموز المرأة في ذلك العصر.

ولا يبعد أن نتصور أن هؤلاء النساء كن يحمدن في أعماقهن صنيع الشعراء من التشبيب بهن، وهو ما أشار إليه أحمد شوقي، في بعض أبياته من صفات النساء، قال:

خدعوها بقولهم حسناء

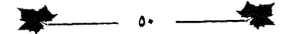
والغواني يغرهن الثناء

ولعلهن كنّ يريْن في ذلك ما يغير أزواجهن، أو ما يذيع ذكرهن، وقد بقي فعلاً ذلك الشعر في ذاكرة الزمان.. يحدث الأجيال عن أولئك الجميلات الشريفات، اللاتي حملْن تاج الجمال في المجتمع الإسلامي آنذاك، ولم تكن عاتكة وحدها هي التي شبب بها الشعراء، فمن قبلها في بني أمية شبب عبد الرحمن بن حسان ابن ثابت[1] بعمتها رملة بنت معاوية بن أبي سفيان، فغضب لذلك أخوها يزيد بن معاوية، وعرض الأمر على أبيه، يستشيره فيما ينبغي أن يكون ردًا على هذا التجرؤ على ابنة أمير المؤمنين، وسأل معاوية ابنه عن رؤيته لهذا الموقف، فقال يزيد: نبعث إليه من يأتيك برأسه، فقال معاوية الحليم الداهية: يا بني لو فعلت ذلك لكان أشد عليك؛ لأنه يكون سببًا للخوض في ذكره، فيكثر مكثر، ويزيد زائد، اضرب عن هذا صفحًا، واطوِ دونه كشحًا[2]، فسكنت نفس يزيد.

ومن المؤكد أن معاوية وَجَدَ في هذا المذهب الجديد نوعًا من الملهاة التي يشغل بها أبناء الأجيال الجديدة، بعيدًا عن الخوض في أوحال السياسة، وقضاياها المعقدة، الشديدة الحساسية، فإذا لم يكن من تشبيب الشعراء بأولئك النسوة إلا هذا لكفى الحكام.. بل إنه هدف تستأجر في سبيله قرائح الشعراء، وتطلق عقائرهم في كل مكان، وقد كانوا يعيشون عصرًا ليس فيه قنوات فضائية، ولا فنون سينمائية أو مسرحية، وحسب معاوية ـ بَلْهَ كلَّ حاكم ـ في هذا المقام أن يردد قول الله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٦]، ونحسب أن معاوية كان أول

(١) أمه سيرين المصرية، أخت مارية القبطية.

(٢) كناية عن الإعراض.



من وظّف الشعر والقصص فى تلهية الجماهير فى التاريخ الإسلامى، وقفًى على أثره كل الحكام.. فى كل الأزمان.

ومرت سنوات، ولكن الحدث نفسه تكرر فى خلافة يزيد، وبعد وفاة معاوية، ولكن بصورة أخرى، فالشاعر غير الشاعر والفتاة غير الفتاة، كان المشَبَّبُ بها هذه المرة هى عاتكة ابنة الخليفة يزيد، والشاعر هو عبيد الله بن قيس الرقيات، وكانت عاتكة فتاة فى ربيع عمرها، وذلك حين شَبّب بها ابن قيس الرقيات، فوضع على صدرها وسامًا من شعره، كان حريًا أن يثير غضب أبيها الخليفة يزيد، لكنه تذكر نصح أبيه معاوية له، بمناسبة تشبيب عبد الرحمن بأخته رملة، فضرب عن ذلك صفحًا.

والقصة مذكورة فى العقد الفريد بالتفصيل.. قال ابن عبد ربه: قال عبيد الله بن قيس الرقيات[1] يشبب بعاتكة بنت يزيد:

أعاتِكَ يا بنتَ الخلائف عَاتِكَا
أَنِيلى فتًى أمسى بحبكِ هالكَا

تبدَّت وأترابٌ لها فقتلْنَنِى
كذلك يقتلْنَ الرجالَ كذالكا

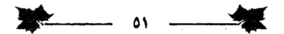
يُقَلِّبْنَ ألحاظًا لهن فَوَاتِرًا
ويحملْنَ من فوقِ النعالِ السَّبَائِكا

إذا غفلَتْ عنا العيونُ التى نَرَى
سلكْنَ بنا حيثُ اشتهيْنَ المسالكا

وقلن لنا لو نستطيع لزاركُمْ
طبيبانِ منا عَالِمَانِ بِدَائِكا

فهل من طبيب بالعراق لعله
يداوى سقيمًا هالكًا متهالكًا

(١) شاعر أموى اسمه: عبيد الله بن قيس بن شريح من بنى عامر بن لؤى خرج مع مصعب بن الزبير ولما قتل قصد الشام وطلب الأمان من الخليفة عبد الملك فأمنه، شعره ما بين الغزل والمدح والفخر توفى سنة ٨٥هـ، سبب تسميته الرقيات لأنه كان يتغزل فى ثلاث نسوة اسم كل واحدة رقية.



فلم يعرض له يزيد للذى تقدم من وصاية أبيه معاوية فى رملة[1].

وقد أدرك يزيد حينئذ أهمية أن ينشغل المجتمع بالشعر والقصص عن السياسة.. بل ربما شعر بضرورة أن يكون هنالك شعراء يقومون بهذه المهمة باعتبارها جزءًا من إدارة دفة الحكم.

ولعل من أطرف ما يذكر عن علاقة خلفاء بنى أمية بالشعر وقائليه، ما ذكره ياقوت الحموى عن عبد الملك بن مروان من أنه دخلت عليه ذات يوم عزة كُثَيِّر[2] وبثينة جميل[3]، فانحرف إلى عزة، وقال: أنت عزة كثير؟

قالت: لست لكثير بعزة، ولكنى أم بكر.. قال: أتروين قول كثير:

وقد زعمت أنى تغيرت بعدها

ومن ذا الذى يا عزُّ لا يتغير

تغير خلقى والمودة كالذى

عهدت ولم يخبر بسرك مخبر

قالت: لست أروى هذا ولكنى أروى قوله:

كأنى أنادى أو أكلم صخرة

من الصم لو تمشى بها العُصم زلّتِ

صفوحًا فما تلقاك إلا بخيلة

فمن ملّ منها ذلك الوصل ملّتِ

ثم انحرف إلى بثينة فقال: أأنت بثينة جميل؟ قالت: نعم.. قال: ما الذى رجا فيك جميل حتى لهج بذكرك من بين نساء العالمين؟ قالت: الذى رجا فيك الناس فجعلوك خليفتهم؛ قال: فضحك حتى بدا ضرسٌ له أسود لم يُرَ من قبل ذلك،

---

(١) العقد الفريد ٥/٣٢٤.

(٢) شاعر مشهور متيم من أهل المدينة من خزاعة، كان من شعراء بنى أمية، ومن غلاة الشيعة، أحب عزة حبًا عنيفًا، توفى عام ١٠٥ للهجرة.

(٣) شاعر مشهور من قضاعة، من بنى عذرة، صاحب بثينة، خطبها وهو صغير، مات فى مصر بعد مرض العشق عام ٨٢ للهجرة.

وفضّل بثينةَ على عزة فى الجائزة، ثم أمرهما أن تدخلا على عاتكة، فدخلتا عليها، قالت لعزة: أخبرينى عن قول كثير:

مضــى كــل ذى دَيــن فــوفَّــى غــريــمــه

وعــزَّة مــمــطـولٌ مـعـنَّــى غـريـمُــهــا

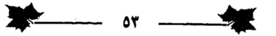
ما كان دَيْنُه، وما كنت وعدتِهِ؟ قالت: كنت وعدته قبلة ثم تأثمت منها، قالت: وددتُ أنك فعلت، وأنى تحملت إثمها عنك، ثم ندمت عاتكة، واستغفرت الله، وأعتقت عن هذه الكلمة أربعين رقبة[1].

والذى يفيدنا من سَوْقِ هذه القصة أن نتصور شخصية عاتكة بنت يزيد.. كيف كانت؟ .. فى مرحها، وتدينها.. فى ترخصها حين داعبت عزة تلك المداعبة الطريفة المعجبة الذكية، وفى تأثمها حين أدركت أنها ربما قالت ما يحسب عليها بين يدى الله، وما قد يمس تقواها التى عُرفت بها، فهى فى الحالة الأولى لم تملك أن تحبس النكتة لتضحك جليساتها، ومنهن عزة، وهى فى الموقف الثانى كانت تحاسب نفسها حسابًا شديدًا، وترى فيما قالته ذنبًا أشدَّ من الإفطار عمدًا فى رمضان، أو من قتل الخطأ، أو من اليمين الغموس؛ وكل هذه الآثام يكفر عنها بعتق رقبة واحدة، فإذا هى ترى أن كلمتها هذه لا يكفرها إلا عتق أربعين رقبة!!

إلى هذا الحد بلغ إيمانها، وحساسية هذا الإيمان، وحرصها على أن تراقب كل ما يصدر عنها من قول أو فعل.. يعد فى نظرنا من الفضول، ويعد فى نظرها من الكبائر.. أية امرأة هذه؟! وأى ضمير كان يعيش وسط الجو المشحون بالأحداث الجسام، وبالكبائر السياسية والاجتماعية التى كان يقع فيها القابضون على السلطة؟!

* * *

(١) وفيات الأعيان ١/ ٤٨١.



أموال عاتكة

ورثت عاتكة عن أبيها الخليفة يزيد أموالاً وضياعًا كثيرة لو قيست بزمانها، أما لو قورن ما كان عند خلفاء بنى أمية بما صار عند خلفاء بنى العباس، وبنى عبيد من الفاطميين - مثلاً - بعد ذلك، لوجدنا الفارق هائلاً، فصورة الثراء المتواضع لا تذكر أمام الثراء الفاحش، والغنى الباهظ الذى ظهر بعد ذلك، فقد كان بنو أمية مع ثرائهم ملتزمين، والسبب فى هذا الالتزام أن بنى أمية كانوا قريبى عهد بالنبى ﷺ وبصحابته، وخاصة الذين عمروا منهم، فكانوا مصابيح الهدى للعامة من الناس، ولأولى الأمر من خلفاء وأمراء، ومهما بدا ما ذكر لعاتكة من أموال فإننا لا نصل إلى شيء بالنسبة لما كان فى حوزة بوران، أو ست الملك، أو أم المعتز، أو غيرهن.. من الأموال والدنانير، التى كانت تعد بآلاف الآلاف، والجواهر واللآلئ التى كانت تكال بالأرادب.

ومع ذلك نرى عبد الملك يرقب أموال زوجته، ويخاف أن تبذرها وتهدرها هنا وهناك، فيطلب منها أن تهبها فى حياتها لابنيها يزيد ومروان ابنى عبد الملك، وألح فى الطلب، ولكنها أخيرًا ردت عليه ردًا أسكته ولم يفكر فى مراجعتها ثانية.

قال طيفور: قال عبد الملك لعاتكة بنت يزيد: إن ابنيك - يزيد ومروان - قد بلغا، فلو أشهدت لهما بميراثك من أبيك كانت لهما فضيلة على سائر إخوتهما، فقالت: اجمع لى شهودًا من مواليّ ومواليك.. قال المدائنى: فجمعهم وأدخل معهم روح بن زنباع الجذامى[1]، وكانت بنو أمية تدخله على نسائها مداخل مشائخها، وأهلها، وقال له: رَغِّبها فيما صنعت وحَسِّنه لها، وأخبرها برضائى عنها، فدخل عليها فتكلم ثم قال ما قاله عبد الملك، فقالت: يا رَوْح؛ أتراني أخشى على ابنيّ العيلة[2] وهما ابنا أمير المؤمنين؟ أشهدتك أنى تصدقت بمالى على فقراء آل بنى سفيان.

---

(١) من جذام من اليمن.. أمير فلسطين.. سيد اليمانية فى الشام، وقائدها، وخطيبها، قيل: له صحبة، وقال ابن الأثير: لا تصح له صحبة، ولأبيه زنباع رؤية. كان عبد الملك يقول عنه: جمع روح طاعة أهل الشام، ودهاء أهل العراق، وفقه أهل الحجاز. روى عن رسول الله ﷺ أحاديث.

(٢) الفقر.

فخرج القوم وأقبل روح يجر رجليه، فلما نظر عبد الملك قال: أما أنا فأشهد أنك قد أقبلت بغير الوجه الذى أدبرت فيه، قال: يا أمير المؤمنين إنى تركت معاوية بن أبى سفيان فى الديوان جالسًا ـ يريد أن عاتكة كجدها معاوية فى الدهاء ـ وأخبره الخبر.. قال المدائنى: فغضب عليها عبد الملك وتوعّدها، فقال له روح: مهلاً يا أمير المؤمنين، فوالله لهذا العقل فى ابنيها خير لك من مالها، فكف عنها[1].

لقد فكرت عاتكة بسرعة فى إخوتها وأخواتها وأولادهم، وفتشت عن الفقراء منهم، ووزعت عليهم أكثر أموالها، ولما توفى أخوها عبد الله بن يزيد، ترك بنتين، فكانت عاتكة هى الكفيلة لهما.. قال صاحب الذخائر:

مات عبد الله بن يزيد بن معاوية، وخلف ابنتين له، يقال لإحداهما عبدة، والأخرى عثامة، فكفلتهما عاتكة بنت يزيد بن معاوية عمتهما، وكانت تحت عبد الملك بن مروان، فلما ماتت عاتكة، أوصت قبل ذلك لهما بتركتها، فقسّم عبد الملك تركتها بينهما، وتزوج عثامة، وتزوج عبدة هشامُ بن عبد الملك[2].

ونعلق هنا على قول القاضى الرشيد: فلما ماتت عاتكة.. تزوج عبد الملك عثامة.

وهذا قول مخالف لما ذكره المصعب الزبيرى.. قال: أم عثمان ـ أو عثامة ـ بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية.. تزوجها عبد الملك، دخل عليها وهى عند عمتها عاتكة بنت يزيد زوجته وأم ابنيه مروان ويزيد، فأعجبته فطلق عاتكة وتزوجها[3].

والعجيب أن كل الأخبار أثبتت أن الخليفة عبد الملك توفى عام ٨٦ للهجرة (عام ٧١٥ للميلاد)، وأما عاتكة فقد توفيت بعده فى عام ١٢٥ للهجرة (عام ٧٤٢ للميلاد)، أى بعد موت زوجها بقرابة أربعين سنة، وأثبتت كذلك أن عبد الملك مات فى قصر عاتكة بضواحى دمشق.

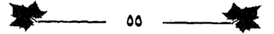
ونحن نرجح أن عبد الملك تزوج من عاتكة وعاش معها بكل الحب والوئام فى قصرها دون قصور ضرائرها، وأن الذى تزوج أم عثمان هو أحد أولاد عبد الملك السبعة عشر كهشام ابنه الذى تزوج من عبدة أختها.

---

(١) بلاغات النساء ١٣٠.

(٢) الذخائر والتحف ٩٣.

(٣) نسب قريش ١٣٢.



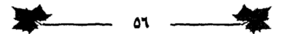
أو ربما جاءت لعبد الملك نزوة فطلق عاتكة وتزوج ابنة أخيها؛ حتى لا يجمع بين البنت وعمتها، ثم عاش معها فترة، ثم طلقها أو ماتت، وعاد بعد ذلك لحبه الكبير عاتكة، وخاصة أنه لم يرد لنا شيء بالنسبة إلى أم عثمان بنت عبد الله، ولا تاريخ وفاتها، والله أعلم.

وإن كنا نحبذ الرأى الأول؛ لأن الأخبار عن حياة الزوجين ـ عبد الملك وعاتكة ـ كلها أخبار تشير إلى ما كان بينهما من حب ووئام وتعاطف وتآلف، وعدم صبر أحدهما على فراق الآخر.

فهذه قصة رواها المسعودى عن حرص عبد الملك على قرب عاتكة، وقلة صبره على بعادها.. قال: كانت عاتكة بنت يزيد بن معاوية تحت عبد الملك، فغضبت عليه فطلب رضاها بكل شيء، فأبت عليه، وكانت أحب الناس إليه، فشكا ذلك إلى خاصته، فقال له عمرو بن بلال؛ رجل من بنى أسد كان قد تزوج بنت زنباع الجذامي: مالى عليك إن أرضيتها؟ قال: حكمك. فخرج وجلس ببابها يبكى، فقالت له خاصتها: مالك تبكى أبا حفص؟ قال: فَزِعْتُ إلى ابنة عمى، فاستأذنوا لى عليها، فأذنت له وبينهما ستر، فقال: قد عرفت حالى مع أمراء المؤمنين معاوية ويزيد ومروان وعبد الملك، ولم يكن لى غير ابنين فعدا أحدهما على الآخر فقتله، فقال أمير المؤمنين: أنا قاتل المعتدى، قلت له: أنا ولىّ الدم وقد عفوت، فأبى علىَّ، وقال: ما أحب أن أعوِّد رعيتى هذا، وهو قاتله بالغداة. فأنشدك الله إلا ما طلبته فيه، فقالت: لا أكلمه، قال: ما أظنك تكسبين شيئًا هو أفضل من إحياء نفس، ولم يزل بها خواصها وخدمها وحاشيتها، فقالت: علىّ بثيابى[1]، فلبست، وكان بينها وبين عبد الملك باب، وكانت قد ردمته، فأمرت بفتحه، ثم دخلت فأقبل الخصى يشتد، فقال: يا أمير المؤمنين هذه عاتكة، قال: ويلك ورأيتها؟، قال: نعم، إذ طلعت وعبد الملك على سريره فسلمت فسكت، فقالت: أما والله لولا مكان عمرو ابن بلال.. وَحَكَت قصته.. فأخذت بيده، فأعرض عنها، فأخذت برجليه فقبلتهما، فقال: هو لك، وتراضيا واصطلحا.

---

(١) وفى رواية: فلم يزلن حتى دعت بثيابها فأجمرتها أى: بخرتها.



وراح عبد الملك، فجلس مجلسه للخاصة، فدخل عمرو بن بلال، فقال: يا أبا حفص، ألطفت الحيلة في القيادة ولك الحكم، قال: يا أمير المؤمنين ألف دينار ومزرعة بما فيها من الآلات والرقيق، قال: هي لك، قال: وفرائض[1] لولدي وأهل بيتي، قال وذلك كله.

وبلغ عاتكة الخبر فقالت: ويلي على القوَّاد إنما خدعني[2].

إن قصة كهذه تدعونا إلى عدم تصديق الخبر الوارد بشأن زواج عبد الملك من عثامة، وتطليقه لعاتكة، فنحن هنا أمام زوج لا يطيق أن تفارقه زوجه، فضلاً عن أن تقاطعه وهو يتوسل إلى مصالحتها بكل وسيلة حتى بذلك التمثيل الكذاب الذي تكلفه عمرو بن بلال، وكم في التاريخ من أخبار أماتت أناسًا وهم أحياء، وفرقتهم وهم جميع، وأدانتهم وهم أبرياء.

* * *

(١) الفرائض (ج) فريضة، وهي هنا: الركوبة.

(٢) مروج الذهب ٣/١٢٦.

حج عاتكة

كان لبعض النساء فى ذلك العصر نفوذ ومكانة وسلطة وجاه، لم تكن لنديداتهن أيام الراشدين، فمثلاً روى أن عاتكة بنت يزيد أرادت أن تحج، واستعدت لهذا الخروج استعدادًا عظيمًا ظهر فيه البذخ والسرف إلى حد غير معقول، ومع ذلك لم تصل نفقات حجها إلى ما وصلت إليه نفقات حاجَّة أخرى من العراق - فى نفس الموسم - هى عائشة بنت طلحة[1] التى كانت زوجًا لمصعب بن الزبير أمير العراق من قبل أخيه عبد الله بن الزبير.

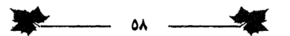
وهذه رواية تصف لنا هذا الحج المترف الباذخ، تقول: استأذنت عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجها عبد الملك الخليفة فى الحج، فأذن لها، وقال: ارفعى حوائجك واستظهرى فإن عائشة بنت طلحة تحج، ففعلت، وجاءت بهيئة جهدت فيها، فلما كانت بين مكة والمدينة، إذا موكب قد جاء، فضغطها وفرق جماعتها، فقالت: أرى هذه عائشة بنت طلحة، فسألت عنها فقالوا: هذه خازنتها، ثم جاء موكب أعظم من ذلك فقالوا: عائشة عائشة... فضغطهم، فسألت عنه فقالوا: هذه ماشطتها، ثم جاءت مواكب على سننها، ثم أقبلت كوكبة فيها ثلاثمائة راحلة عليها القباب والهوادج، فقالت عاتكة: ما عند الله خير وأبقى[2].

ولقد نشعر حين نقرأ وصف هذه المواكب بالكثير من الدهشة والاحتجاج على هذا الإسراف المجنون!! فما كانت هذه الأموال التى تسفك فى موسم الحج إلا أموال المسلمين، وكان حريًا بهؤلاء أن ينفقوها فى مصالح المسلمين أيضًا، ولكن هكذا كان، وليس بوسعنا أن نكذِّب رواية التاريخ أو أن نعدل وصف تلك المواكب، ويبقى أن نتقبلها كما هى، وأن نلمح من وراء هذه المواكب موقفًا أشبه بالمظاهرة السياسية التى تستخدم فيها النساء، وقد كانت الظروف التاريخية آنذاك تفرض المظاهرة للتعبير عن الموقف المتعقد بين حكومة الخلافة فى الشام، وحكومة الخلافة الزبيرية فى مكة والعراق، ولا شك أن مثل هذه المواكب

---

(١) التابعية الجليلة عائشة بنت طلحة بن عبيد الله، بنت أخت أم المؤمنين عائشة، أحد أزواجها مصعب بن الزبير، أمهرها ألف ألف دينار.

(٢) أعلام النساء ٣/١٥٠.



كانت بمثابة لغة الحوار بين النظامين المتعاديين اللذين انتهيا بتصفية خلافة عبد الله بن الزبير تصفية دموية.

لكن السؤال الملح هو: كيف سمح عبد الملك بن مروان لزوجة مصعب بن الزبير بهذه المظاهرة، وقد كان بوسعه أن يعترضها فى مرحلة من مراحل الرحلة؟! ولكن الإجابة عن هذا السؤال تستحضر جلال الحج فى موسمه، كما تستحضر أهمية شخصية عائشة بنت طلحة، وهى من هى حسبًا وسيرةً وموضعًا؛ لذلك كان تركيب المظاهرة السياسية واضحًا فى محاولة لإبراز قوة السلطة وثرائها، وهو ما كان يتناسب مع لغة العصر آنذاك.

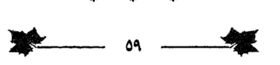
أما تعليق عاتكة بنت يزيد على ما شاهدته من أبهة الموكب القادم من العراق، فهو إن دل على شىء فإنما يدل على ما أصابها من بهر حين رأت الموكب العراقى، ورجعت إلى ما يشبه التسليم بالهزيمة فى شكل مهذب ترجو به المثوبة من عند الله.

لكنه يؤكد أيضًا أن ما قصد إليه عبد الملك زوجها من معارضة موكبها بموكب عائشة بنت طلحة كان هو الهدف الأول لدى أهل الشام، ولدى أهل العراق أيضًا، ويرحم الله الجميع.

وعلى أية حال فإن مظاهر الترف الجنونى فى ذلك الزمان تهون إذا ما قيست بمظاهر الترف فى عصرنا، الذى نرى فيه الأعاجيب، فالمشكلة الآن ليست فيما يتمتع به الحكام من بذخ، قد تتطلبه مكانتهم ومواقعهم.. بل المشكلة الآن أن كثيرين من السفلة والأوغاد صاروا يمارسون صنوف التهور الباذخ.. ثمرة لممارساتهم الوضيعة، وتجاراتهم الشنيعة.. لقد صارت فنون الانحلال والرقص والغناء والخلاعة وتجارة السموم طريقًا إلى تمكين أصحابها من الموبقات، وصنوف الترف الفاجرة، وقد اختلطت فى زماننا هذا معايير الحلال والحرام.. بل لقد ظهرت طبقة ممن يحلِّون الحرام، ليحصلوا على بعض المغانم، وهم فى الواقع يشاركون فى ارتكاب كثير من الجرائم والمآثم.

ومهما ارتفعت أصوات الدعاة والمصلحين فإن أصواتهم تذهب سدًى، وتضيع فى زحام مواكب النفاق، وضوضاء الغوغاء، المدافعين عن فساد الحياة.

* * *



عاتكة ومصعب بن الزبير

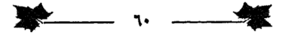
تسلم عبد الملك الخلافة من أبيه مروان عام ٦٥ للهجرة (عام ٦٨٤ للميلاد)، ولما يستتب له الأمر بعد، فهناك الخوارج يقودهم أبو حمزة الشارى، والزبيريون وقائدهم عبد الله بن الزبير، والعلويون بزعامة المختار الثقفى، وقد ظهر هذا الخلاف جليًا فى موسم الحج عام ٦٨ للهجرة، حيث اجتمعت أربعة ألوية فى عرفات: لواء بنى أمية، ولواء الزبيريين، ولواء الخوارج، ولواء الشيعة، لكن بدون حرب، فهم فى الحرم، وفى الأشهر الحرم.

وأخذ عبد الملك يدخل فى محاولات من مناوشات تارة، ومصالحات تارة أخرى، ليستقر أمر الخلافة، ويتفرغ لمحاربة الروم الذين ينتهزون كل فرصة لمحاولة استرداد ما فتحه المسلمون، ونجح، فقد قضى على أكثر مخالفيه الواحد تلو الآخر، ولم يبق إلا عبد الله بن الزبير الذى بويع له بالخلافة على الحجاز والعراق والمشرق، ثم جعل أخاه مصعب بن الزبير أميرًا على العراق من قبله.

وأراد عبد الملك أن يبدأ بالحسنى والمصانعة، فبعث لمصعب بطلب البيعة، ولكنه رفض، فهدده فلم يسمع، فما كان من عبد الملك إلا قرار الحرب، وجمع مستشاريه، فأشار بعضهم عليه بالقعود، وأشار آخرون بالحرب.. قال أبو الفرج الأصفهانى: استشار عبد الملك بن مروان كلاً من يحيى بن الحكم[١] ومحمد بن مروان[٢] وعبدالله بن خالد بن أسيد[٣]؛ لملاقاة مصعب بن الزبير فى العراق، فكل أشار عليه بالقعود إلا محمدًا، فقد قال له: شمِّر فإن الله ناصرك، فأمر الناس فاستعدوا للمسير[٤].

وتجهز عبد الملك للخروج، ودخل على زوجاته وأبنائه لتوديعهم، ثم اتجه إلى عاتكة للسلام عليها، وعلمت بمقصده فوقفت ضد هذا الرأى.. يقول الأصفهانى: فلما أخذ جهازه، وأراد الخروج أقبلت عاتكة بنت يزيد فى جواريها، وقد تزينت

(١) عم عبد الملك.
(٢) أخو الخليفة ووالد آخر خلفاء بنى أمية مروان بن محمد.
(٣) ابن عم عبد الملك.
(٤) الأغانى ٢٠/١٢٤.



بالحلى، فقالت: يا أمير المؤمنين لو قعدت فى ظلال ملكك، ووجهت إليه رجلاً من رجالك لكفاك أمره، فقال: هيهات، أما سمعت قول بعضهم:

قـوم إذا مـا غـزوا شـدوا مـآزرهـم

دون الـنسـاء ولـو بـاتت بـأطـهـار[1]

وهناك روايات أخرى فى هذه القصة.. مثلاً: قال صاحب (أعلام النساء): قالت عاتكة لعبد الملك لما أراد أن يباشر الحرب بنفسه: يا أمير المؤمنين لا تخرج السنة لحرب مصعب، فإن آل الزبير ذكروا خروجك، فوجِّه الجنود وأقم، فليس الرأى أن يباشر الخليفة الحرب بنفسه، فقال: لو وجهت أهل الشام كلهم، فعلم مصعب أنى لست معهم، لهلك الجيش كله[2].

وقد كان رأى عاتكة بعدم الخروج ناتجًا عن حبها للخليفة، وخوفها عليه، وضنها به، وقد عبَّرت عن رأيها بذكاء ووعى، فالأمر الطبيعى ألا يخرج الخليفة للحرب والقتال؛ لأنه رأس الأمة، وولى الأمر فيها، ولا يصح أن يعرض نفسه للخطر حتى لا يعرض أمته للهلاك بالخلاف عند فقده، وخاصة أن ولى عهده ما زال صغيرًا، ولكن عبد الملك رفض رأيها، وأصر على الخروج بنفسه، ومع ذلك لم تيأس عاتكة.. بل اتجهت إلى سلاح آخر كثيرًا ما يؤثر فى الرجال؛ سلاح الدموع، لكن دون جدوى، فقد قرر عبد الملك الخروج ولم يثنه شىء.. قال ابن الأثير: لما عزم عبد الملك على المسير لقتال مصعب، ودّع زوجته عاتكة، فبكت وبكى جواريها لبكائها، فقال: قاتل الله كثيّر عزة.. لكأنه يشاهدنا حين يقول:

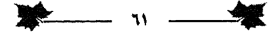
إذا مـا أراد الـغـزو لـم يـثـن هـمَّـه

حَصَانٌ[3] عليهـا عقد درّ يزينهـا

نـهـتـه فـلـمـا لـم تـر الـنـهـى عـاقـه

بـكت وبـكـى مـمـا عـنـاهـا قـطـيـنـهـا[4]

(١) الأغانى ٢٠/١٢٤.
(٢) أعلام النساء ٧/١٢١.
(٣) الحصان: المرأة الشريفة.
(٤) الخدم والحشم.



وفى رواية ابن طباطبا قوله:

نهته فلما لم تر النهى نافعًا

بكت فبكى مما شجاها قطينها[1]

وسار عبد الملك إلى العراق[2].

ولم يكن خروج عبد الملك إلا لجمع كلمة المسلمين على خليفة واحد، فقد سُمع وهو يقول عند خروجه: اللهم إن مصعبًا أصبح يدعو لأخيه، وأصبحت أدعو لنفسى، اللهم فانصر خيرنا لأمة محمد ﷺ[3].

وكان خروج عبد الملك صوب العراق لقتال مصعب أواخر عام ٧٠ للهجرة (منتصف عام ٦٩٠ للميلاد)، وتلاقى الجيشان على أرض العراق عدة مرات بين مناوشات ومهادنات، حاول أثناءها عبد الملك إعطاء الأمان لمصعب وولده، ولكنهما رفضا، وأصرا على القتال، حتى قتل الابن والأب، وتبدد الجيش العراقى فى معركة (دير الجاثَليق)[4]، وأحضر رأس مصعب إلى خيمة الخلافة، ولإعجاب عبد الملك بمصعب قال عندما رأى الرأس: متى تلد قريش مثل مصعب؟

وبانتصار عبد الملك صار العراق والمشرق كله تحت حكمه، وأراد أن يظهر ذلك لأهل الشام، ومصر، فأمر بدفن جسد مصعب، ثم حمل رأسه معه.. يقول ابن الأثير: لما قتل مصعب بن الزبير بعث عبد الملك رأسه إلى الكوفة، أو حمله معه إليها، ثم بعث به إلى أخيه عبد العزيز بن مروان بمصر، فلما رآه وقد قطع السيف أنفه، قال: رحمك الله، أما والله لقد كنت من أحسنهم خلقًا، وأشدهم بأسًا، وأسخاهم نفسًا، ثم سيّره إلى الشام فنصب بدمشق[5].

---

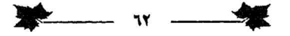
(١) الفخرى ١٠٠.

(٢) الكامل ٤/ ١٠٤.

(٣) مروج الذهب ٣/ ١١٣.

(٤) دير قديم البناء رحب الفناء قرب بغداد فى غربى دجلة، فى رأس الحد بين السواد وأرض تكريت، وقال الشابشتى: دير الجاثليق عبر باب الحديد قرب دير الثعالب فى وسط العمارة وقعت عنده معركة حامية سنة ٧١هـ بين عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير قتل فيها وولده عيسى ودفنا فى المكان الذى وقفا فيه.. وقبره ظاهر عليه مشهد وقبة يقصد لزيارته. (الديارات ٣٥٢).

(٥) الكامل ٤/ ١١٠.



لقد طاف الرأس بالعواصم.. من العراق إلى مصر، واستقر أخيرًا فى دمشق حيث نصب على بوابة المسجد الأموى.

وسمعت نساء الخليفة، وهن فى قصوره بدمشق، بحكاية الرأس المنصوب، الذى يراه الناس فحزنت عاتكة، أو تألمت لما يجرى، فبينها وبين مصعب صلة قرابة، فجدة عاتكة ـ والدة يزيد ـ هى ميسون بنت بحدل بن أنيف الكلبية، وأم مصعب بن الزبير اسمها رباب بنت أنيف الكلبية، ولذلك حزنت عاتكة وبكت عند سماعها بمقتله، وبرغبة عبد الملك فى أن يطاف برأسه ـ أى مصعب ـ فى كل مدن الشام، وثغورها، وليس فى العاصمةُ وحدها، وتدخلت عاتكة لتوقف هذا العمل الذى اعتبرته ظلمًا.. بعيدًا عن الإنسانية.. قال البغدادى: فأخذته ـ أى الرأس ـ عاتكةُ بنت يزيد بن معاوية فغسلته، وحنطته، ودفنته[1].

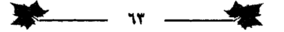
وزاد ابن الأثير فى الرواية فقال: وأرادوا أن يطوفوا به نواحى الشام، فأخذته عاتكة بنت يزيد ـ زوجة عبد الملك بن مروان ـ وهى أم يزيد بن عبد الملك، فغسلته، ودفنته، وقالت: أما رضيتم بما صنعتم، حتى تطوفوا به فى المدن؟ هذا بغى[2].

والواقع أن ما حدث من عبد الملك بن مروان من إرسال رأس مصعب إلى بعض الأمصار، لم يكن الهدف منه التشنيع بمصعب، أو التمثيل به، بقدر ما كان يهدف إلى إرهاب البقية الباقية فى مكة من دولة الزبيريين، ولذلك لم نجده يلتفت إلى ما صنعته عاتكة، ولم يمنعها، فقد تحقق الهدف من الإعلام بنهاية دولة الزبيريين فى العراق[3]، ولم يبق إلا مواراة رأس مصعب التراب، وهو ما فعلته عاتكة بدافع من دينها، ومن إنسانيتها أيضًا.

لكنه موقفٌ لعاتكة ينم عن شرف نفسها، وعمق تدينها، فقد وجدت فى هذا الطواف برأس مصعب نوعًا من التمثيل المحرّم، وهى التى تفتحت عيناها على حفظ أحاديث رسول الله ﷺ وروايتها، فهى هنا تقرن القول بالفعل، وتوقف تلك المهزلة من التشنيع على رجل مهما يكن موقفه السياسى، وخصومته للدولة، فإن له كرامة ينبغى أن تصان، وذِكْرًا ينبغى ألا يهان.

---

(١) المحبّر ٤٩٢.
(٢) الكامل ٤/١١٠.
(٣) ذكر الشابشتى أنه قد بويع لعبد الملك فى دير الجاثليق بعد قتل مصعب. (الديارات ٣٥٣).



ولقد نلاحظ هنا أن الإعجاب بمصعب كان قاسمًا مشتركًا بين عبد الملك وزوجه عاتكة، ولذلك لم يختلفا فى شىء، فعبد الملك يقول: (متى تلد قريش مثل مصعب؟)، وهى عبارة تنم عن إعجاب فارس بفارس، رغم أنهما متحاربان، كما تنم عن معنى من شرف النفس لا يختلف مع موقف عاتكة التى كرمت الفارس الصريع بمواراة رأسه، وطى هذه المأساة.

* * *

عاتكة أم خليفة وجدة خليفة

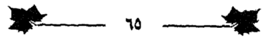
توفى عبد الملك بن مروان فى ١٤ من شوال عام ٨٦ للهجرة (أكتوبر من عام ٧٠٥ للميلاد)، بعد أن حكم العالم الإسلامى فى أطول خلافة فى بنى أمية، فقد تولى إحدى وعشرين سنة وقرابة شهرين، وترك من الأولاد الذكور سبعة عشر. منهم أربعة من أمهات أولاد، وكان عبد الملك حريصًا على تربية أولاده، وتنشئتهم على الحب والفضيلة، فكثيرًا ما أوصاهم بتقوى الله ويمكارم الأخلاق، واصطناع المعروف، والتجمع لا التفرق، ونهاهم عن البغى والتحاسد لأن بِهِمَا هلك الملوك الماضون، وكان دائمًا يتمثل لهم بقوله:

إن القداح إذا اجتمعن فرامها
بالكسر ذو حنق وبطش باليد
عزّت فلم تكسر وإن هى بُددت
فالوهن والتكسير للمتبدد[١]

وقبل أن يموت، رتب بيت الخلافة، فأوصى بأن يلى من بعده من أولاده: الوليد[٢] أولاً، ثم سليمان[٣] ثم أحد أبناء عاتكة ـ مروان أو يزيد ـ قال الزبير بن بكار: وكان عبد الملك قد أخذ على سليمان حين بايع له بولاية العهد، ليبايعن لأحد بنى عاتكة، فأما يزيد فبايع له سليمان بن عبد الملك بعد عمر بن عبد العزيز، فَوَلِى الخلافة بعد عمر[٤].

ولا ريب أن عبد الملك قد اختار من يخلفه من بين أبنائه السبعة عشر، على أساس التقدم فى السن من أبناء الحرائر، دون أبناء أمهات الأولاد، وقد توسم الخير فيمن اختارهم، ولا يبعد أنه كان يريد أن يرضى زوجه الحبيبة عاتكة بهذا الاختيار.

(١) وصية عبد الملك لأولاده كاملة فى مروج الذهب ٣/ ١٧٠.
(٢) ولد عام ٥٣ للهجرة.
(٣) ولد عام ٦٠ للهجرة.
(٤) معجم بنى أمية ٢٠١.



وقد عاشت عاتكة بعد موت زوجها عبد الملك بعيدًا عن مشكلات الحكم والخلافة، وذلك طيلة مدة حكم الوليد التى دامت قرابة عشر سنين، وانتهت بموته عام ٩٦ للهجرة (٧١٤ للميلاد)، ثم خلافة سليمان التى دامت قرابة ثلاث سنوات وانتهت فى صفر عام ٩٩ للهجرة، ثم خلافة عمر بن عبد العزيز، الذى ولى بدون عهد تقدم، وإنما عهد إليه ابن عمه سليمان عندما حضرته الوفاة، وذلك بدون علمه، وكان ثلاثة من أبناء عبد الملك تشرئب أعناقهم للخلافة، هم: سعيد وهشام ويزيد، وهم من أمهات شتى، ولذلك أصر سليمان فى نفسه على إخفاء خبر مبايعته لعمر من بعده بولاية العهد، ولما توفى سليمان، وفرغ الناس من دفنه، قام القاضى الزهرى وقال: أرضيتم من سماه أمير المؤمنين سليمان فى وصيته؟ قالوا: نعم[1].

لقد بايع الناس لما هو مكتوب، ولكنهم شرطوا أن يكون فى الوصية أحد من بنى عبد الملك، وقد كان؛ لقد حدد سليمان البيعة لعمر بن عبد العزيز بن مروان، ثم ليزيد بن عبد الملك، ثم لهشام بن عبد الملك، وكان أول من بايع عمر هو يزيد ابن عبد الملك ابن عاتكة.

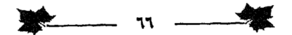
وفى ٢٥ من رجب لعام ١١٠ للهجرة (ديسمبر عام ٧١٩ للميلاد)، انتقل عمر ابن عبد العزيز إلى الرفيق الأعلى، وتولى يزيد بن عبد الملك فى نفس اليوم.

وصار ابن عاتكة خليفة، ولعلها كانت تؤمل فيه خيرًا، وأن يكون استمرارًا لمن سبقه فى حسن السيرة، وعدالة الحكم، غير أنه كان منصرفًا تمامًا عن أن يكون له هدف من وراء الخلافة، اللهم إلا أن يتمتع بكل ما يستطيع الحصول عليه من الجوارى، واللهو بهن، والشرب، والغناء وغير ذلك، وقد نصحه فى ذلك أخوه مسلمة، وقال له: إنما مات عمر أمس، وقد كان عدله ما قد علمت، فينبغى أن تظهر للناس العدل وترفض هذا اللهو، فقد اقتدى بك عمالك فى سائر أفعالك وسيرتك.

فارتدع يزيد عما كان عليه، وأظهر الإقلاع والندم، وأقام على ذلك مُدَيْدَةً... وعاد بعد ذلك إلى لهوه[2].

---

(١) مروج الذهب ١٩٣/٣.
(٢) مروج الذهب ٢١٨/٣.



وكان دائم التفكير فى جاريتين، إحداهما سلاَّمة[1] جارية سهيل بن عبد الرحمن بن عوف، والثانية حبَّابة المكية، ولما تولى الخلافة، بعث فاشتراهما، وقيل: إن زوجته أم سعيد بنت عبد الله بن عفان مع جدته هما اللتان اشترتاهما له، فلما اجتمعتا عنده قال: أنا الآن كما قال القائل:

فألقت عصاها واستقر بها النوى

كما قرَّ عينًا بالإياب المسافرُ

ولأن الناس دائمًا على دين ملوكهم فقد تبارى علية القوم فى عهد يزيد فى شراء الجوارى، والتمتع بهن، وبصوتهن، وغنائهن، ولها الناس وازدادوا انغماسًا فى الشهوات والملاهى فى الوقت الذى كان فيه بنو العباس يحفرون قبر بنى أمية، ويعدون العدة لاقتحام سدة الخلافة بعد أعوام قليلة.

والعجيب أننا لا نجد لعاتكة أى أثر فى توجيه ابنها الذى آلت الخلافة إليه، مع أنها كانت تحاول أن يكون لها موقف فى عهد زوجها، ويبدو أنها عزفت عن أداء هذا الدور، وتركته لإحدى زوجات ابنها التى لم يكن لها بكل أسف عقل عاتكة، ولا حكمتها، وربما لم تظهر فى الصورة؛ لأن ابنها كان قد اقترب من الأربعين حين تولى الخلافة، فقد بلغ رشده بما فيه الكفاية.. لقد عاش عيشة العاشق المتيم، لا عيشة الخليفة المسئول عن الأمة.

لقد ذكرت أغلب الروايات كيف عاش مع حبَّابة، وكيف مات حزنًا عليها بعدها بأيام[2].. يقول ابن تغرى بردى: فلما كانت بعض الليالى، شرقت حبابة، فماتت، فحزن عليها يزيد حزنًا عظيمًا، وخلاَّها ثلاثة أيام لم يدفنها، وهو ينظر إليها، ثم دفنها بعد خمسة أيام، فلم يطق ذلك فنبشها، وأخرجها من القبر، وجعل يُقَلّبها ويبكى، فقوى عليه الحزن حتى قتله بعد سبعة عشر يومًا[3].

ومن نعمة الله على المسلمين أن عمره لم يطل فى هذا العبث واللهو، وكان موته حزنًا على جارية.

---

(١) توفيت عام ١٣٠ للهجرة.

(٢) توفى فى شعبان عام ١٠٥ للهجرة، وكان قد تولى فى رجب عام ١٠١ للهجرة.

(٣) النجوم الزاهرة ١/٢٥٦.



أما عاتكة أم يزيد فقد مضى بها قطار العمر، حتى أوصلها إلى مرحلة أخرى، هى مرحلة حفيدها الوليد بن يزيد، الذى تولى الخلافة عام ١٢٥ للهجرة، بعد أن بايع له أبوه يزيد الثانى، بعد عمه هشام بن عبد الملك، الذى مكث فى الخلافة قرابة العشرين سنة، أما الوليد فلم تطل مدة خلافته، فقد قُتِلَ، وقُتِلَ معه ولداه الحكم وعثمان، فى جمادى الثانية من السنة التالية؛ لأن الناس نقموا عليه، فقد عاش أيام حكمه فى تَدْمُر بعيدًا عن العاصمة؛ لينتهك الحرمات، ويعبث ويلهو كما يشاء، لكنَّ بنى أمية غضبوا عليه، وقتلوه ومثّلوا به.. يقول البغدادى: نصب يزيد بن الوليد بن عبد الملك رأس الوليد بن يزيد حفيد عاتكة فى مسجد دمشق مما يلى باب الفراديس[1].

أما عاتكة فقد كانت حين قتل حفيدها قد تخطت الثمانين من عمرها، ولم يكن لها دور يذكر، وعاشت فى قصرها، فى أرض عاتكة، خارج باب الجابية بدمشق، فى نفس القصر الذى مات فيه عبد الملك من قرابة أربعين سنة.

وقد تأهبت لرحلة النهاية، فماتت فى نفس العام الذى قتل فيه حفيدها الوليد، وحملت إلى مثواها الأخير.

لقد كتب الله لعاتكة أن تعيش عمرًا مديدًا، شهدت خلاله أعظم أيام ملك بنى أمية، كما عايشت إرهاصات النهاية الأليمة لهذا الملك، عاصرت عاتكة أعظم الأيام فى حياة عبد الملك، وأسوأ الأيام فى حياة ابنها يزيد وحفيدها اللذيْن غرقا فى المجون، وذهلا عن مسئولية الحكم، وانقطعت صلتهما بالسلف الصالح من خلفاء المسلمين، فكانا محصلة للفساد الذى بدأ يستشرى فى كيان الدولة الأموية.

ولم تمض سوى ست سنوات على موت الوليد حفيدها حتى سقطت الدولة بأكملها فى بؤرة الفساد، الذى كان من عناصره حبًابة وسلامة، وما إليهما من الجوارى.

والملاحظة الأساسية تؤكد أن بين الملك والشهوات علاقة تبادلية، بحيث لا يمكن أن يتم المُلك وتقوى الدولة إلا بانعدام الشهوات والابتعاد عنها.. بل مقاومتها، فأما إذا سادت الشهوات، فإن الملك يضعف، ثم يهوى إلى هوة النهاية.

---

(١) المحبَّر ٤٩٣.

وهكذا ضاع ملك بنى أمية، وسقطت دولتهم التى أسسها كبار الرجال، ثم أسقطها صغارهم من أمثال يزيد بن عبد الملك، والوليد بن يزيد.

ويرحم الله عاتكة التى عاشت العهدين، وتعذبت فى النهاية كما تمتعت فى البداية.

والغريب أن هذه السنّة ثابتة راسخة رسوخ الجبال، ومع ذلك لم نجد حاكمًا فى التاريخ قد اتعظ بمن سبقوه ومصائرهم، فما زالت تحت أعيننا نماذج من الحكام والدول.. يعشش فيها الفساد، ويثرى فيها السفهاء، ويجمع الطغاة الأموال، وكأنها أنفاسهم اللاهثة، ولكنهم سرعان ما يرحلون عنها، بعد أن يخربوا اقتصاد شعوبهم، ويتركوا هذه الأموال للصغار والعبثة والمجّان من أبنائهم وذراريهم، ولهذه السياسات المكرورة نتائج خطيرة على المستوى العام، فكل فساد فى المجتمع يرجع إلى سوء إدارة المال، واستيلاء السفهاء عليه، بكل ما ينشأ عن ذلك من أحقاد طبقية، ومؤامرات سياسية، يكاد الإنسان العاقل يقرأ أخبارها قبل أن تحدث، ويلمح أمارات وجودها.. بل حتمية حدوثها، ولكن أحدًا من الغارقين فى الشهوات لا يكاد يفيق حتى يتبصر العواقب، ويحاول إصلاح الأحوال، وتلكم هى سنة الله المقررة فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، ولله فى خلقه شئون.

لقد حدث فى عهد الدولة الأموية أن قام عمر بن عبد العزيز حين تولى الخلافة بتجريد الطغاة من أبناء الحكام السابقين من كل ما اعتبره اغتصابًا من المال العام، واستيلاءً على ثروات المسلمين، وإضرارًا بمصالح الشعب.. جرّدهم من الأموال والعقارات والضياع، وتركهم (على الحديدة)، ورد كل الأموال إلى بيت المال، وبدأ يعالج مشكلات المجتمع وأمراضه وعِلَله، ولكنه لم يلبث أن فتك به المفسدون ليوقفوا مسيرة الإصلاح، ويقضوا على أمل أشرق فى حياة المسلمين، وسرعان ما غرب، فخلف وراءه نكسة خطيرة حيث استرجع الطغاة أموالهم فى عهد ابن عاتكة الذى تولى الخلافة بعده، والذى اتهمه التاريخ بأنه كان ضالعًا فى مؤامرة قتل عمر بن عبد العزيز.

وذهب عمر، ويبدو أن قصة بنى أمية هذه وما تلاها من نتائج وأحداث تاريخٌ يعيد نفسه دائمًا.. فالأحداث هى الأحداث، مع تغير الأزمان والأشخاص.

كل حاكم يتولى السلطة فى عالمنا الإسلامى، يجعل همه دائمًا تركيز الثروة فى أبنائه وأحفاده وأقربائه، ثم يرحل الحاكم، ويلقى الأبناء والأخلاف مصائرهم بعده، إما فى السجون، أو فى المنافى، حيث يهربون بأموالهم، وينخلعون من أوطانهم.

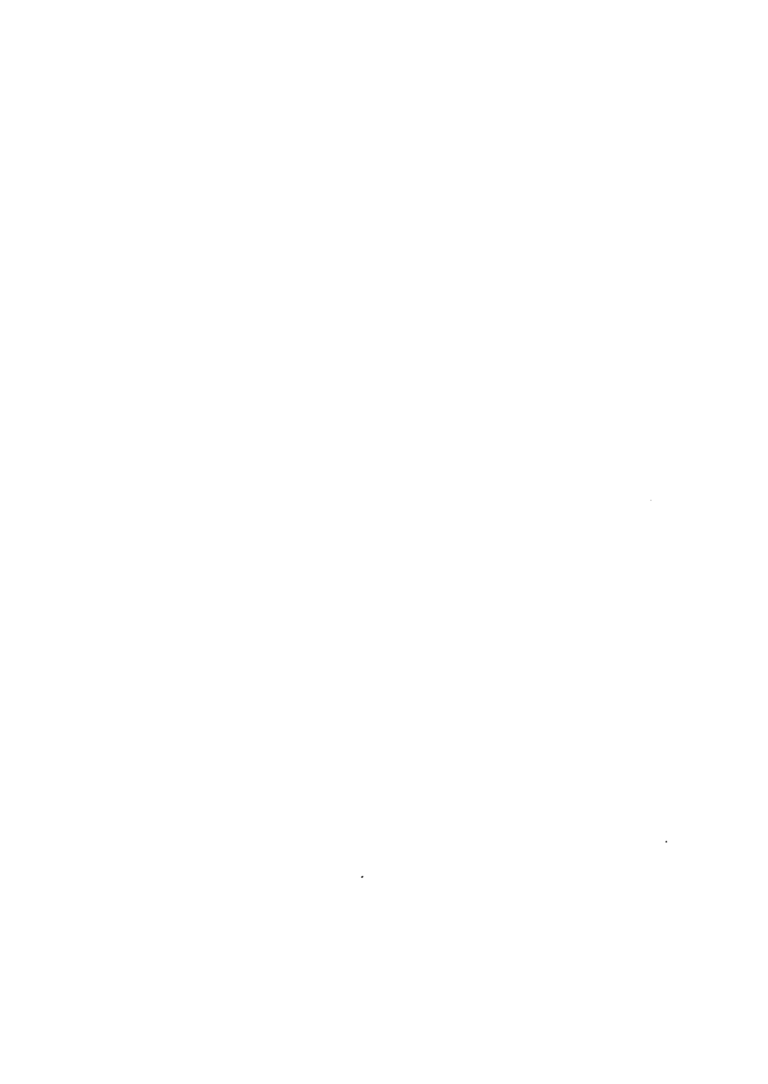
وتاريخ بنى أمية يصرخ فى كل من تولوا السلطة بعدهم.. يصرخ فى بنى العباس، وفى بنى أمية فى الأندلس، وفى العصر الوسيط، وفى العصر الحديث، وفى كل بلد.. بل فى كل رقعة وبقعة من بقاع العالم الإسلامى.. يصرخ فيهم جميعًا أن يقرأوا أحداثه، وأن يتأملوا عواقبه، وأن يؤمنوا أن البقاء ليس لأحد إلا لله وحده، وأن دوام الحال من المحال، وأن كل ما له بداية له نهاية، ومع ذلك يبقى الإنسان هو هذا المخلوق الغبى الذى لا يريد أن يتعظ، وسبحان من له الدوام.

* * *

٣

أُم سَلَمَة بنت يعقــــوب

(زوج أبي العباس السفاح)



تمهيد

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد..

هذه قصة سيدة من أهم نساء القرن الثانى الهجرى، عايشت أخطر حدثين فى ذلك القرن؛ هما سقوط الدولة الأموية، وقيام الدولة العباسية.

لم تكن السيدة أم سلمة شخصية متآمرة - وإن بدت كذلك، ولكن الأقدار اختارتها لمعايشة تلكم الأحداث الهائلة، فكانت دائمًا على المستوى المطلوب، وهو ما جعل اسمها يتصدر هذه المجموعة من (نساء وراء الأحداث).

ليس معنى ذلك أن الساحة خلت من نساء أخريات، لهن أدوار ذات قيمة، وذات خطر، وقد نعاود فنختار منهن ذوات الأهمية فى تسيير ما عاصرن من أحداث، ولكننا نقف أمام المرأة وكمية الخطر الذى عايشته؛ حرصًا على استجلاء وجود المرأة إلى جانب الرجل فى إدارة الأزمات، وقيادة دفة الحكم، ومن أخطرهن السيدة أم سلمة بنت يعقوب المخزومية.

ولعلنا حين نستعرض بعض أعلام النساء فى دولة بنى أمية - لعلنا نعثر على نماذج لا تقل جدارة بأن تذكر ضمن هذه السلسلة، ولكن الفرق يتمثل فى الموقع التاريخى الذى تحتله الشخصية النسوية المترجم لها.. ولدينا فى الأعلام الأموية شخصيات ذوات وزن تاريخى، مثل:

ميسون بنت بحدل الكلبية (زوج معاوية بن أبى سفيان).

وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان (زوج عمر بن عبد العزيز).

وآمنة بنت عمر بن عبد العزيز.

ورملة وصفية ابنتا معاوية.

ورملة وعاتكة ابنتا مروان بن الحكم.

وأمية بنت عبد العزيز بن مروان بن الحكم.

وزينب بنت هشام بن عبد الملك.



وعائشة بنت عبد الملك بن مروان.

وعاتكة بنت يزيد بن عبد الملك.

وهؤلاء جميعًا كانت لهن أدوار وأدوار، في إدارة أحداث عصرهن، وتوجهها وجهة الخير، غير أننا في هذه السلسلة نفضل أن نقدم الصورة المثيرة لامرأة في عصرها، وهو ما نؤكد في هذه المقدمة أن أم سلمة كانت من ذلك النوع المثير، وتبلغ الإثارة مداها في سيرة هذه المرأة التي استطاعت أن تنفرد بقلب زوجها، واشترطت عليه ألا ينكح - طول حياتها معه - أية امرأة أخرى.. حرة أو جارية، وهو أمر يبدو لنا غريبًا في سلوك رجال ذلك العصر ونسائه، فما من رجل آنذاك إلا وقد جمع من الحرائر والجواري ما يُكَثِّر بهن أولاده؛ توفيرًا للقوة والنصرة، وما من امرأة آنذاك، كان يمكن أن تظن بنفسها القدرة على الانفراد بالزوج، ولا سيما إذا كان ذا قدرة على اقتناء الجواري، نفسيًّا وماليًّا.

كيف تخلفت هذه القاعدة في حياة أم سلمة مع أن زوجها - أبا العباس السفاح - كان قادرًا على أن تكون له أكثر من زوج، وأكثر من سُرِّيَّةٍ؟

بل كيف خضع لشرط زوجه أم سلمة، فوعد ولم يخلف وعده؟

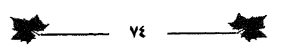
ولو أن أبا العباس اتخذ العديد من الزوجات والسراري لما لامه أحد، ولكنه في مسلكه الملتزم كان يبدو رجلاً يعيش في غير عصره؛ رجلاً يعيش في عصرنا - مثلاً - الذي مال فيه الرجال إلى توحيد الزوجة، رغم ما في ذلك من عنت أحيانًا!!

إن في قصص الماضين من المواقف ما يبدو غريبًا في عصورهم، أليفًا مع عصورنا، فهي مواقف تقدمت عصرها، وإن كانت من صنع الأسلاف.

وفي التاريخ - لو ندري - عظات ودروس تتألق فيها حقائق الوجود، وسننه الثوابت، مهما بلغ اختلاف الزمان والمكان:

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾.

* * *



أم سلمة بنت يعقوب

هى أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن الوليد بن المغيرة من مخزوم من قريش، حفيدة الصحابى الجليل الوليد بن الوليد، أخى سيف الله المسلول خالد بن الوليد، وهى إحدى عقيلات وأميرات البيت المخزومى، ثم الأموى، ثم على رأس البيت العباسى.

وقد سميت بهذه الكنية؛ تبركًا باسم جدتها أم سلمة[١] زوج رسول الله ﷺ التى كانت من بنى مخزوم.

ولدت أم سلمة بنت يعقوب فى أواخر القرن الأول الهجرى أو فى العقد الأول من القرن الثانى تقريبًا، ونشأت بالشام حيث كان آباؤها بين الفاتحين الذين استقروا بالشام، وهناك شبت عن الطوق، حتى إذا بلغت مبلغ النساء، تزوجت فى سن مبكرة من الأمير عبد العزيز[٢]، ابن سادس خلفاء بنى أمية: الوليد بن عبد الملك، ولم يعش معها طويلاً، فمات عنها، فتزوجت من ابن عمه الأمير مَسْلَمَة[٣] ابن الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك، ولما توفى عاشت فى قصرها، ومعها المال الكثير، والجوهر، والمتاع، والخدم والحشم، وهو ما ورثته عن زوجيها أميرى البيت الأموى، وكان ذلك فى أول العقد الثالث من القرن الثانى الهجرى.

---

(١) هى أم المؤمنين هند بنت سهيل بن المغيرة بن عبد الله المخزومى.

(٢) كان عبد العزيز من عقلاء بنى أمية، تولى دمشق لأبيه الوليد ولعمه سليمان، وهو ابن أخت عمر بن عبد العزيز، جاء فى تاريخ دمشق أنه كان غائبًا عندما مات سليمان بن عبد الملك عام ٩٩ للهجرة، ولم يعلم بمبايعة الناس لعمر بن عبد العزيز، فبايع من معه لنفسه، ثم أقبل يريد دمشق ليأخذها، فبلغه أن عمر بن عبد العزيز قد بويع له بعهد من سليمان، فأقبل حتى دخل عليه فقال له عمر: قد بلغنى أنك كنت بايعت من قبلك، وأردت دخول دمشق، فقال: قد كان ذلك، وذلك أنه لم يبلغنى أن الخليفة قد عقد لأحد، فقال عمر: والله لو بويعت وقمت بالأمر ما نازعتك، ولقعدت فى بيتى، فقال عبد العزيز: ما أحب أنه ولى هذا الأمر غيرك. وبايع عمر. (معجم بنى أمية ١٠٧).

(٣) قال البغدادى فى المحبَّر ٤٤٥: زوجها هو عبد الله بن عبد الملك، ونحن نستبعد؛ لأن عبد الله بن عبد الملك توفى عام ١٠٠ للهجرة كما جاء فى معجم بنى أمية. وجاء فى نفس المعجم أن مسلمة كان شريفًا ممدحًا، ولى فى أيام أبيه الموسم وغزو الصائفة، واستعمله أبوه على الحج عام ١٠٦ للهجرة، فأحسن لأهل المدينة، وأغزاه أبوه عام ١٢١ للهجرة هو وأخوه يحيى بن هشام. (المرجع السابق ١٦٥).

وعاشت فترة خلية بلا زوج، وذات يوم وهى فى قصرها فى دمشق وقع بصرها على شاب يسير فى الطريق جميل الطلعة، وسيم المحيا، أبيض الوجه، طوال، أجعد الشعر، حسن اللحية، مهيب الشكل، تبدو عليه أمارات الذكاء والدهاء، كل ذلك جعلها تنجذب ناحيته، وتلفت نفسها إليه، وسألت عنه فعرفت أنه: عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب وكنيته أبو العباس، ووجدت فيه كفئًا لها، فهو قرشى من بنى هاشم، وهى قرشية من بنى مخزوم، ولا بأس أن تتزوج شابًا من بنى هاشم بعد أن جربت الزواج من رجلين من بنى أمية، وحين بعثت إليه بعض جواريها تختبره، وتلفت نظره إليها، كشف عن فقر وإملاق شديدين، وأنه لا يملك حتى تكلفة الزواج المتواضع، فكيف بالزواج بابنة الحسب والنسب والجاه والمال، ولكنها أسرعت وكفته تدبير هذه التكاليف، وأرسلت إليه تعرض عليه تزويده بما يلزم الزواج من نفقة فى الصداق والهدايا، فلن تكلفه شيئًا.

وكان العرض سخيًا مَغْرِيًا، فقد وجد الشاب فى يده فجأة ـ وهو الفقير المملق ـ سبعمائة دينار!!

فبادر إلى أخيها (أيوب المخزومى) يخطبها، وأمهرها خمسمائة دينار، وأهداها بمائتين، وأغلب الظن أنهما كانا من حيث السن متقاربين، فهو فى حوالى العشرين[1]، وهى كذلك، رغم أنها سبقته فى الزواج مرتين، إلا أن البنات فى ذلك العصر كن يتزوجن فى سن مبكرة بمجرد البلوغ، ولا سيما حين تكون الفتاة ذات نسب عريق، وذات جمال وبريق.

وقد كانت أم سلمة من ذلكم النوع الفاخر الباهر، فإذا أضيف إليها جانب الغنى الفاحش الذى آل إليها من زوجيها السابقين، وقد كانا يملكان الملايين ـ آنذاك ـ أدركنا أن الزواج بها ـ بالنسبة إلى هذا الشاب الفقير المملق كان صفقة خرافية، فلم يفلتها حين تقدمت إليه مستسلمة خاطبة، وذلك أيضًا يحسب لعبد الله فى رصيد ذكائه، فالفرصة لن تتكرر، وقد عرفنا من أخلاق هذا الفتى أنه كان يتبنى مبدأ سار عليه فى حياته كلها، وقد أثر عنه قوله: الأناة محمودة إلا عند إمكان الفرصة[2]، وقد أمكنته الفرصة فى أم سلمة ـ العروس، فلم يجد موضعًا للأناة. كما يحسب لأم سلمة إقبالها وجرأتها فى رصيد رؤيتها المستقبلية وفراستها.

(١) ولد أبو العباس عام ١٠٤ للهجرة.
(٢) وفيات الأعيان ٢/٢١٦.

وقد وصفت المراجع ما جرى ليلة الزفاف، وكأنها تنقل صفحات من ألف ليلة وليلة.. بل أين هذه الليالى بما حوت من خيال ـ من تلك الليلة العجيبة التى التقى فيها العروسان، يقول المسعودى: ودخل عليها من ليلته، وإذا هى على منصة، فصعد عليها، فإذا كل عضو فيها مكلل بالجوهر، فلم يصل إليها، فدعت بعض جواريها، فنزلت وغيرت لبسها، ولبست ثيابًا مصبغة، وفرشت له فراشًا على الأرض دون الذى كانت عليه، فلم يقدر يصل إليها، فقالت: لا يضرك هذا، كذلك الرجال كان يصيبهم مثل ما أصابك، فلم يزل بها حتى وصل إليها من ليلته، وحظيت عنده[1].

ولابد أن نتخيل هذا الموقف الذى كان يمثله كلا الطرفين فى هذا الزواج، فالطرف الأول: الزوج وهو شاب خام لا دراية له من قبل بالنساء، ولا علاقة له بما كان يجتذب أمثاله من الشباب من ولوع بالفتيات والجوارى، فقد كان أعلى همة من أن يغرق نفسه فى مثل هذا العبث، أو يبحث عن هذه اللذة، أما الطرف الثانى فهو تلك المرأة التى استهلكت قبله رجلين، فتحصلت لديها خبرات أنثوية هائلة، وضعت زوجها الجديد فى قلب عالمها المسحور، وأرته من فنون النساء ما كان يخيل إليه أنه مكتشف الدنيا الجديدة، واستطاعت المرأة الماهرة الباهرة أن تضع الشاب فى عُبّها، وأن يعاهدها وهو فى منتهى الاستسلام لها على ألا يتزوج غيرها ما عاش.. حرة أو جارية.. زواجًا أو تسرِّيًا[2].. بل إنه صار لا يقطع أمرًا دونها، ولا ينفذ شيئًا إلا بأمرها.

ولنا أن نتخيل أيضًا عمق تأثير هذه المرأة فى خطا هذا الشاب الذى أسلمها زمامه، وهو يعمل فى طريق هائلة سيترتب عليها انقلاب هائل فى تاريخ المجتمع الإسلامى، حتى تسقط دولة بنى أمية على يديه، وتقوم دولة بنى العباس بذراعيه، وقد عُرِفَ هذا الشاب فيما بعد بأنه (أبو العباس السفاح).

---

(١) مروج الذهب ٣/٢٧٥.

(٢) أشبهتها فى هذا أم موسى بنت منصور من ولد ذى رُعَين من ملوك حِمْيَر، زوج أبى جعفر المنصور والتى أنجبت له ولديه جعفر والمهدى، وبقيت معه وحدها حتى توفيت عام ١٤٦ للهجرة، بعد عشر سنين من توليه الخلافة، وبعد أكثر من عشرين سنة من زواجه بها. والطريف أنه بعد أن دفنها أهديت إليه مائة جارية من الأبكار.

إننا نكاد بتأريخنا لهذه المرأة أن نضع أيدينا على مصدر تمويل حركة العباسيين ضد الأمويين، لقد كانت فى الحقيقة ثروة الزوجين اللذين سلفا فى حياة أم سلمة، وهما ابنا خليفتين من كبار خلفاء بني أمية: هشام[1] والوليد ابنى عبد الملك.. أى إن الثروة الأموية هى التى أنفقت فعلاً على حركة العباسيين حتى استطاعت أن تقوض سلطان بنى أمية، وتقيم دولة بنى العباس.

لقد جهل التاريخ دور المرأة التى ساقها القدر هذا المساق، ووضعها فى طريق الشاب الوسيم، وهى لا تدرى أنها بذلك قد أصبحت أقوى الحلقات فى محاربة الأمويين فى عقر دارهم بالشام.

ولعل دور أم سلمة فى تقويض ملك الأمويين يذكرنا بدور امرأة أخرى سبق الحديث عنها فى إقامة ملكهم، ونعنى بذلك دور نائلة بنت الفرافصة، فهى التى أشعلت برسالتها إلى معاوية نار الفتنة، حتى جد فى سعيه إلى طلب الثأر، وأفضى به ذلك إلى إقامة ملك بنى أمية.

لقد كان وراء إقامة تلك الدولة موقف امرأة، وكان من وراء انهيار تلك الدولة موقف امرأة أخرى، الأولى بغضبتها من أجل زوجها، حتى نقلت النار التى أحرقت قلبها فى مشهد زوجها الشهيد إلى الشام، وكأن أصابعها المقطوعة كانت تشير إلى حيث تتحرك الأقدار، والثانية بذكائها، حيث التقى المال والشباب والتدبير المحكم والهمة التى أقامت ملك بنى العباس.

* * *

(١) جاء فى كتاب التحف والذخائر (صفحة ٢١٢): خلف هشام بن عبد الملك أحد عشر ذكرًا وأحد عشر ألف ألف دينار لخاصته، فخص كل واحد من ولده ألف ألف دينار، وكان هشام قد توفى عام ١٢٥ للهجرة، أما الوليد فقد توفى عام ٩٦ للهجرة.

الخليفة أبو العباس السفاح

ولابد هنا أن نذكر شيئًا عن بداية الدولة العباسية التى كان أول خليفة لها هو زوج أم سلمة، قيل: إن رسول الله ﷺ قال لعمه العباس رضي الله عنه : إن الخلافة تؤول إلى ولده، فلم يزل ولده يتوقعون ذلك، وينتظرونه ويحلمون بذلك الأمر، وشاع الخبر، وانتشرت الإشاعة فى خلافة هشام بن عبد الملك، يقول ابن خلكان: دخل علىّ[1] أبو محمد بن عبد الله بن العباس - على هشام[2] بن عبد الملك، ومعه ابنا ابنه الخليفتان وهما (السفاح والمنصور) فيما بعد... فأوسع له على سريره وبرَّه، وسأله عن حاجته، فقال: ثلاثون ألف درهم علىَّ دين، فأمر بقضائها، ثم قال له: وتستوصى بابنىّ هذين خيرًا، ففعل، فشكره، وقال: وصلتك رحم.

فلما ولّى علىّ، قال هشام لأصحابه: إن هذا الشيخ قد اختل وأسن وخلط فصار يقول: إن الأمر سينقل إلى ولده، فسمعه علىّ فقال: والله ليكونن ذلك، وليملكن هذان[3].

وأخذ يردد هذه المقولة حتى ضرب بالسوط، وداروا به على بعير، ووجهه مما يلى ذنب البعير، وأتاه رجل وسأله عن سبب الضرب، وما نسب إليه من كذب، فقال: بلغهم عنى أنى أقول: إن هذا الأمر سيكون فى ولدى، والله ليكونن فيهم.

وتوفى علىّ عام ١١٨ للهجرة على أغلب الأقوال، وكان قد ولد فى الليلة التى قتل فيها علىّ بن أبى طالب، فى ١٧ من رمضان عام ٤١ للهجرة.

ولما كبر ابنه محمد حفيد حبر الأمة عبد الله بن عباس، وصار إمامًا، ورأى بنظره الثاقب ما عليه الدولة الأموية من ضعف وتخاذل وتمزق، واقتراب من الأفول - لم يُعْلِن كما فعل أبوه.. إنما كان تقبله لأمر الولاية عمليًا، وفكر بسرعة ونظر إلى المشرق والمغرب، ثم تخير الأماكن المناسبة لوضع الخطط، وتنظيم الأمور، ومقابلة الأعوان.

---

(١) أنجب على بن محمد اثنين وعشرين ذكرًا، وإحدى عشرة بنتًا كلهم من أمهات أولاد إلا محمدًا الذى سمى (أبو الخلائف) فأمه العالية بنت عبيد الله بن العباس.

(٢) تاسع خلفاء بنى أمية، ومن أعظمهم وأعفهم، ولد عام ٧٢ للهجرة، وتولى الخلافة يوم وفاة يزيد أخيه فى شعبان عام ١٠٥ للهجرة، وتوفى يوم ١٠ ربيع آخر عام ١٢٥ للهجرة.

(٣) وفيات الأعيان ٢٧٦/٣. والسفاح هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس، والمنصور هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس (نسب قريش).



قال الدكتور أحمد شلبي: جعل محمد المحور لدعوته (الحُمَيْمَة ـ الكوفة ـ خراسان)، فتكون الحميمة مكان التدبير والتنظيم، وتكون الكوفة نقطة الاتصال يلتقي فيها الذين يحملون الأوامر والتوجيهات من الحميمة، أما مقر العمل فليكن خراسان[1]، ثم اتفق مع رجل من خراسان أن يدعو في الشرق إلى الرضا من آل البيت والدعوة لهم، ولا يسمى أحدًا. وسبب اختياره لخراسان وضحه في خطبة لذويه قال فيها: أما الكوفة وسوادها فشيعة عليٍّ، أما البصرة وسوادها فعثمانية، وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان، وطاعة بني مروان، وعداوة راسخة وجهلاً متراكمًا، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بأهل خراسان فإن هناك العدد الكثير، والجلد الظاهر، وهناك صدور سليمة، وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء، ولم يتوزعها الدغل[2]، وهم جند لهم أبدان وأجسام، ومناكب وكواهل وهامات، ولحى وشوارب، وأصوات هائلة، ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة، وبعد؛ فإني أتفاءل إلى المشرق، وإلى مطلع سراج الدنيا مصباح الخلق[3].

لقد حدد الإمام محمد مكان الدعوة ثم شرح طريقتها لدعاة أخلصوا وتحمسوا وانتشروا بين الناس في العالم الإسلامي كله آنذاك، يدعون للخلاص من الأمويين وتولية أحد من أهل البيت دون التركيز على شخص معين.

ثم مات محمد وكان قد أوصى بالإمامة لابنه إبراهيم[4]، الذي وثق صلته برجل آخر من خراسان هو إبراهيم بن عثمان بن يسار، وقلده أمر الدعوة لبني العباس ونصرة آل البيت، وندبه إلى المضي إلى خراسان، بعد أن غير اسمه إلى عبد الرحمن أبي مسلم الخراساني، وزوّجه وهو في التاسعة عشرة من العمر، وذلك عام ١١٩ للهجرة (عام ٧٣٧ للميلاد)، وكان بخراسان فتن وحروب، فالقليل مع بني أمية، والكثير ضدهم، وانتهز أبو مسلم الفرصة، ودعا دعوته،

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ٣/ ٣٠. والحميمة في الشام، والكوفة في العراق، وخراسان في المشرق.
(٢) الدغَل: عيبٌ في الأمر يفسده. (المعجم الوسيط).
(٣) السيادة العربية ٩٤.
(٤) تقول بعض الروايات: إنه وصى للسفاح بالإمامة أيضًا بعد إبراهيم.



وضرب بسيفه فى المسلمين حتى أسال الدماء بحارًا فى أغلب مدن الشرق، من خراسان ومرو ونيسابور، وكان على اتصال دائم بإمامه الذى يعيش فى الحُمَيْمَة[1] بوساطة الكتب.

ووقع فى يد آخر خلفاء بنى أمية: مروان بن محمد أحدُ هذه الكتب من إبراهيم الإمام إلى أبى مسلم يأمره فيه بقتل كل من يتكلم بالعربية بخراسان، وذكر ابن الأثير أحد الكتب التى بعثها إبراهيم لأبى مسلم عام ١٢٩ للهجرة (عام ٧٤٧ للميلاد) قال: إنك رجل من أهل البيت احفظ وصيتى... واقتل من شككت فيه، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم العربية، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله[2].

فقبض مروان بن محمد على إبراهيم الإمام، وحبسه حتى مات فى السجن[3]، ثم فتش عن أولاده وإخوته فلم يجدهم، وذلك لأن إبراهيم الإمام عندما أحس بالخطر، بعث إليهم، وأمرهم بالهروب على أن يولوا الإمامة من بعده لأخيه ابن الحارثية[4].

والذين هربوا من الحُمَيمة إلى الكوفة كما ذكرهم ابن خلدون: أبو العباس ومن إخوته أبو جعفر المنصور وعبد الوهاب ومحمد ابن أخيه إبراهيم الإمام، وأعمامه داود وعيسى وصالح وإسماعيل وعبد الله[5] وعبد الصمد بنو على بن عبد الله بن العباس، وابن عمه داود بن على وابنه موسى وابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن على ويحيى بن جعفر بن تمام بن عبد الله بن عباس[6].

---

(١) من أعمال عمّان فى أطراف الشام كانت منزل بنى العباس، وكان الوليد بن عبد الملك قد أخرج عليّ بن عبد الله بن عباس من دمشق، وأنزله الحميمة فى عام ٩٥ للهجرة، ولم يزل ولده بها، إلى أن زالت دولة بنى أمية، وولد له بها نيّف وعشرون ولدًا ذكرًا؛ قاله الطبرى. وزاد صاحب نسب قريش (٢٩) بأن ذكر أسماء أولاد عليّ بن عبد الله وسماهم، وهم اثنان وعشرون ذكرًا، وإحدى عشرة أنثى.

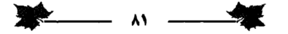
(٢) الكامل ٥/٢١.

(٣) خرج أربعة عشر نفرًا يطلبون الإمامة بعد مقتل إبراهيم الإمام، وحدثت حروبٌ ومنازعات حتى استقر الأمر شيئًا ما.

(٤) هو أبو العباس عبد الله بن محمد، أمه اسمها ريطة بنت عبيد الله بن عبد المدان الحارثية، تزوجت عبد الملك بن مروان، وولدت ولدًا اسمه الحجاج، ولما توفى تزوجت محمد بن على بن عبد الله بن العباس، وولدت عبد الله السفاح وعبيد الله وداود وميمونة.

(٥) هو الذى حارب مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية، وقتله فى بوصير، فى مصر.

(٦) تاريخ ابن خلدون ٣/٢٧٥.



ووصلوا الكوفة فى صفر عام ١٣٢ للهجرة، واختفى عبد الله أبو العباس بن محمد وذووه عند رجل من نقبائهم ـ المُسَوِّدَة ـ [١] اسمه أبو سلمة الخَلاَّل[٢]، فى سرب أى (سرداب) تحت الأرض، حتى آن أوان الظهور فخرجوا، يصف الذهبى هذا اليوم، قال:.. وكان أبو مسلم قد استولى على خراسان، وعين لهم يومًا يخرجون فيه، فخرجوا فى جمع كثيف من الخيّالة والحمّارة والرجّالة، فنزل الخلاّل السرداب وصاح: يا عبد الله مد يدك، فتبارى إليه الأخوان: عبد الله أبو العباس وعبد الله أبو جعفر المنصور، فقال: أيكما الذى معه العلامة؟ قال المنصور: فعلمت أنى أخِّرْت لأنى لم يكن معى علامة ـ كلمة السر ـ فتلا أخى العلامة وهى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً . .﴾[٣] [القصص: ٥]، فبايعه أبو سلمة وأبو مسلم، وخرجوا جميعًا إلى جامع الكوفة للمبايعة العامة، ووقف أبو العباس بعد البيعة ليخطب الناس إعلانًا لقيام الخلافة الجديدة، قال ابن خلكان: لما تولى الخلافة، وأصعده أبو مسلم المنبر، أُرتج[٤] عليه، فقال:

فإن لم أكن فيكم خطيبًا فإننى
بسيفى إذا جد الوغى لخطيب

وأخذ سيفه فى يده ونزل، فعجب الناس من بلاغته وإصابته المعنى[٥].

---

(١) كان أبو مسلم الخراسانى هو الذى ابتدع السواد لبنى العباس، فأطلق عليهم المُسَوِّدة، وكان شعار بنى أمية البياض، وظلوا بهذا الشعار حتى نهاية دولتهم عام ٦٥٦ للهجرة.

(٢) أبو سلمة الخلاّل: هو حفص بن سليمان الهمدانى الخلال، أول من لقب بالوزارة فى الإسلام، كانت إقامته بالكوفة، وأنفق أموالاً كثيرة فى سبيل الدعوة العباسية، وكان يفد إلى الحميمة فى أرض الشراة فيحمل كتب إبراهيم الإمام ابن محمد إلى النقباء فى خراسان، وصحبه مرة أبو مسلم الخراسانى تابعًا له، ولما استقام الأمر للسفاح استوزره، وكان يسمر كل ليلة عند السفاح وهو فى الأنبار، والسفاح يأنس به، لما فى حديثه من إمتاع وأدب وعلم بالسياسة والتدبير، واستمر أربعة أشهر، واغتاله أشخاص وهو خارج ليلاً فقطعوه بأسيافهم، قيل: إن أبا مسلم دسَّهُمْ له؛ للشحناء بينهما، وقيل إن السفاح توهم فيه الميل لآل علىّ، فسلط عليه أبا مسلم، وكان يطلق عليه وزير آل محمد، ويطلق على أبى مسلم أمين آل محمد. (الأعلام).

(٣) بقية الآية: ﴿. . وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.

(٤) أُغْلِقَ عليه فنسى.

(٥) وفيات الأعيان ٢/٢١٦.



ثم تكلم عمه داود بن عليّ بعد أن وقف على المنبر، وقال: ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين عليّ بن أبى طالب، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد، وأشار بيده إلى أبى العباس[١].

وبعد سويعات حانت صلاة الجمعة، فخطب أبو العباس الناس خطبة الجمعة[٢]، وكان من قوله: فأملى الله لبنى أمية حينًا، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، ورد علينا حقنا، فأنا السفاح المبيح، والثائر المبير[٣].

وكان ذلك أول ربيع عام ١٣٢ للهجرة (أكتوبر عام ٧٤٩ للميلاد)، وقال المسعودى: كان يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر.

وكما نرى فقد سمى الشاب الهادئ الرزين نفسه بالسفاح، وكأن هذه النفس قد اختزنت الأحقاد والضغائن حتى أظهرتها فى لحظة البيعة، ويقول السفاح: رد علينا حقنا، فقد مرَّ على بنى العباس أكثر من مائة وعشرين سنة وهم ينتظرون هذا اليوم، وقد صدق قوله فى هذه التسمية، فبعدها وعلى يديه سالت الدماء، ونُهبت الأموال، وسُبيت الحرائر، وانتُهكت الحرمات، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وهو أمر مألوف فى ظروف كهذه، سقطت فيها دولة، وقامت أخرى على أنقاضها.

أما أبو سلمة الخَلاَّل فقد قتله أبو مسلم بأمر من السفاح، وسبب قتله أن أبا سلمة كانت تراوده نفسه فى بيعة أحد ثلاثة ليسوا من بنى العباس، هم: جعفر بن محمد الصادق[٤]، أو عبد الله بن الحسن بن على[٥]، أو عمر بن زين العابدين[٦]، ورفضوا، وعرف السفاح بذلك فيما بعد، فقضى عليه بعد قيامه بدعوتهم أحسن قيام، وكان السفاح قد استوزر أبا سلمة وهو أول وزير فى الدولة الإسلامية، وكان يقال له وزير آل محمد، وكان قتله بعد خلافة السفاح بأربعة أشهر فى رجب ١٣٢ للهجرة، وعندما سمع السفاح بقتله أنشد:

---

(١) تاريخ الطبرى ٧/٤٢٨.

(٢) خطب واقفًا، فضج الناس وقالوا: أحييت سنةً يا بن عمّ رسول الله ﷺ، وكان بنو أمية يخطبون قعودًا، كذلك لبس خاتم الخلافة فى يمينه، كما كان يفعل رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون، أما معاوية بن أبى سفيان، ومن جاء بعده من الأمويين، فقد جعلوه فى يسارهم.

(٣) سير أعلام النبلاء ١/٧٨. والمبير: المهلك.

(٤) أبو عبد الله جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب.

(٥) أبو محمد عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب.

(٦) عمر بن زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب.

إلــى الــنــار فــلــيــذهب ومــن كــان مــثــلــه

عــلــى أى شــىء فــاتــنــا مــنــه نــأسف؟

قال عنه ابن خِلِّكان: كان أبو سلمة الخلال الهمدانى ذا يسارٍ، وأنفق أموالاً كثيرة فى إقامة دولة بنى العباس[1].

وفى هذه البيعة بالخلافة نقطة تثير انتباهنا، فقد وجدنا أن الذى بويع هو أبو العباس، وليس أبا جعفر، الذى كان أسن منه بحوالى تسع سنوات، فقد ولد أبو جعفر عام ٩٥ للهجرة، وولد أبو العباس عام ١٠٤ للهجرة، ولا ندرى سبب اختيار إبراهيم لأبى العباس دون أبى جعفر، إلا أن يكون سببًا يتعلق بأصل كلٍّ منهما، فأبو العباس يتوفر لأصله من جهة أمه نصرة مجموعة من قبائل بنى الحارث، يعتمد على سيوفهم عندما يحتاج إليهم فى نصرته، أما أخوه الكبير أبو جعفر فأمه أم ولد بربرية اسمها سلاّمة، فلا يجد سندًا لدعواه ممتدًا فى قبيلة معينة، ولذلك قدّم إبراهيم الإمام فى عهده لهما الصغير على الكبير، حرصًا على مصلحة القضية التى يعملان لها.

وهناك نقطة أخرى لابد من الإشارة إليها، وهى التزام أولى الأمر والأئمة فى هذه الدولة الناشئة بأعظم قدر من السرية والكتمان، فمنذ زواج أم سلمة بالسفاح وهى لا تعرف ما يخطط، هو ومن معه بالحميمة، مع إحساسها بأن هناك أمورًا عظيمة يدبر لها، ولما وصلت فى صحبة زوجها إلى الكوفة، تأكدت أن هناك شيئًا خطيرًا سوف يحدث، وأن أمرًا مهمًا ينتظر زوجها، وخصوصًا لما رأت اهتمام البيت العباسى كله بالسفاح، وطاعتهم له مع صغر سنه، ووقوفهم خلفه..

لقد أعانته بمالها من أول أيام زواجها، وها هى ذا تقف معه بكل كيانها، حتى أُعلنت الخلافة، بعد أربعين يومًا وهم مختفون فى السرداب[2]، لقد صور أبو مسلم نجاحهم فى الوصول إلى مرادهم، وأرجعه إلى ذلك التكتم والسرية.. قال:

أدركت بــالــحــزم والــكــتــمــان مــا عــجــزت

عــنــه مــلــوك بــنــى مــروان إذ حــشــدوا

مــا زلت أســعــى بــجــهــدى فــى دمــائــهــمُ

والــقــوم فــى غــفــلــة بــالــشــام قــد رقــدوا

(١) وفيات الأعيان ١٩٦/٢.

(٢) قالت بعض الروايات: بعد شهرين.



حـتـى طـرقـتـهـم بـالسـيـف فـانـتـبـهـوا
مـن نـومـة لـم يـنـمـهـا قـبـلـهـم أحـد
ومـن رعـى غـنـمًـا فـى أرض مـأسـدة
ونـام عـنـهـا تـولـى رعـيـهـا الأسـد[1]

ونزل الخليفة الجديد قصره[2] فى الكوفة فى العراق، واستعد للقضاء نهائيًا على مروان بن محمد وشيعته، فبعث عمه عبد الله بن عليّ فى جيش استطاع أن يجهز على مروان فى ٢٧ من ذى الحجة عام ١٣٢ للهجرة ـ ١٥ أغسطس ٧٥٠ للميلاد ـ ويقضى على آخر خلفاء بنى أمية مع ثلة كبيرة منهم ويعث عبد الله إلى ابن أخيه برأس مروان بن محمد.. تقول الرواية: فسجد لله وقال: أخذنا بثأر الحسين[3] وآله، وقتلنا مائتين من بنى أمية بهم، وفى رواية قال: الحمد لله الذى أظفرنى بك وأظهرنى عليك، ما أبالى متى طرقنى الموت وقد قتلت بالحسين وبنى أبيه من بنى أمية مائتين، وأحرقت شِلْو[4] هشام[5] بابن عمى زيد[6] بن عليّ، وقتلت مروان[7] بأخى إبراهيم[8]، وتمثل قائلاً:

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى ٣/٤٣. والأرض المأسدة: التى تسكنها الأسود.
(٢) عاش فى الكوفة، حتى اشترى موضعًا بجوار الأنبار، وقسمه خططًا، ووزعها على قواده وأهل بيته، وابتنى مدينة، أطلق عليها (الهاشمية)، وانتقل إليها عام ١٣٤ للهجرة (٧٥١ للميلاد).
(٣) بعد وفاة معاوية بن أبى سفيان عام ٦٠ للهجرة، خرج الحسين بن علىّ بن أبى طالب على يزيد بن معاوية، وامتنع عن مبايعته، وتلاقى مع جيش أموى بقيادة عبيد الله بن زياد فى كربلاء فى العراق. واستشهد فى العاشر من محرم عام ٦١ للهجرة، واستشهد معه عدد من آل علىّ بن أبى طالب منهم إخوته جعفر وعتيق ومحمد والعباس وابناه علىّ وعبد الله.
(٤) توفى هشام فى ربيع آخرَ عام ١٢٥ للهجرة، قال عمر بن هانئ الطائى، خرجت مع عبد الله بن علىّ، لنبش قبور بنى أمية، فى أيام أبى العباس السفاح، فانتهينا إلى قبر هشام، فاستخرجناه صحيحًا، ما فقدنا منه إلا خورمة أنفه، فضربه عبد الله ثمانين سوطًا، ثم أحرقه. (مروج الذهب ٣/٢١٩). والخورمة هى أرنبة الأنف. ويا له من ثأرٍ أسود قبيح. الشلو: العضو والقطعة من اللحم، (الجمع): أشلاء. (الوسيط)
(٥) هو هشام بن عبد الملك بن مروان سابع خلفاء بنى أمية، ولد عام ٧٥ للهجرة، وولى الخلافة بعد وفاة أخيه يزيد فى ٢٥ شعبان عام ١٠٥ للهجرة، توفى فى ربيع آخر عام ١٢٥ للهجرة، فتحت فى أيامه بلاد كثيرة فيما وراء النهر وأرمينية ومالطة وحصون فى بلاد الروم.
(٦) إليه تنسب طائفة الزيدية، وهى فرقة من الشيعة، وهو ابن الحسين بن علىّ، خرج فى الكوفة على هشام ابن عبد الملك، وبايعه جمعٌ كثير، فقتله محمد بن يوسف الثقفى؛ لأنه خرج عن الطاعة وذلك عام ١٢٢ للهجرة. (معجم بنى أمية ١٨٥).
(٧) هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، آخر خلفاء بنى أمية.
(٨) هو إبراهيم الإمام المؤسس الحقيقى لدولة بنى العباس، وهو الذى عهد للسفاح بولاية العهد، مات فى سجن مروان بن محمد أول عام ١٣٢ للهجرة.

لـو يشـربـون دمـى لـم يـرو شـاربـهـم

ولا دمـاؤهـم لـلـغـيـظ تـرويـنـى[1]

وذكر صاحب المحبَّر بعضًا ممن قتلهم وصلبهم أبو العباس، قال: منهم ثمانون رجلاً فى مجلس واحد، منهم الغمر[2] بن يزيد بن عبد الملك، وصلب سهيل بن عبد العزيز بن مروان، والوليد بن معاوية بن مروان، ويزيد[3] بن معاوية بن مروان، وعبد الجبار[4] بن يزيد بن عبد الملك، وسليمان[5] بن هشام بن عبد الملك وابنيه[6]، وسليمان بن حبيب بن المهلب، وسليمان بن سالم بن كيسان[7].

وكانت هزيمة مروان بن محمد على يد عبد الله بن علىّ فى معركة الزاب الأعلى[8] فى جمادى الآخرة عام ١٣٢ للهجرة (يناير عام ٧٥٠ للميلاد)، فَفَرَّ جنوبًا حتى كان مقتله، فى كنيسة فى قرية بوصير فى بنى سويف[9] بمصر فى السابع والعشرين من ذى الحجة.

* * *

(١) مروج الذهب ٣/ ٢٧١.

(٢) قال عنه صاحب تاريخ دمشق: أحد الأجواد الممدّحين فى بنى أمية، قتله عبد الله بن علىّ بن عبد الله بن العباس عام ١٣٢ للهجرة، قتله بنهر أبى فطرس فى فلسطين، وقيل بل حُمِلَ إلى السفاح فصلبه، وقد قتل معه ثمانون من بنى أمية.

(٣) كان واليًا على دمشق عندما فتحها العباسيون، تزوج بنت مروان بن محمد، قتله عبد الله بن على فى رمضان عام ١٣٢ للهجرة فى دمشق.

(٤) أخذ عبد الله بن علىّ حين دخل دمشق كلاً من عبد الجبار بن يزيد وعبد الله بن عبد الجبار بن يزيد ويزيد بن معاوية بن مروان، وبعث بهم إلى أبى العباس فصلبهم. (معجم بنى أمية ٨٧).

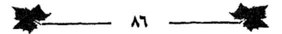
(٥) أبو أيوب له شعر جيد، خرج على الوليد بن يزيد فسجنه، ثم خرج على مروان بن محمد وبعث إليه مروان جيشًا فهزمه، ومضى إلى حمص، وتحصن بها، غزا فى زمن أبيه أرض الروم، وحج بالناس عام ١١٣ للهجرة، وكان معه الزهرى إمام التابعين. (معجم بنى أمية ٧٠).

(٦) هما أيوب وداود، قتلهما السفاح صبرًا مع أبيهما، قاله صاحب معجم بنى أمية.

(٧) المحبّر ٤٨٥. وسليمان بن حبيب وسليمان بن سالم قائدان من قواد بنى أمية.

(٨) الزاب الأعلى نهرٌ من روافد دجلة بين الموصل وإربل فى العراق على حدود الشام.

(٩) وقيل فى بوصير الجيزة.



أم سلمة وثروات بنى أمية

وحمل عبد الله بن علىّ جواهر الأمويين[1]، ومتاعهم وأموالهم من الشام، وبعثها لابن أخيه فى الكوفة يتصرف فيها كيف يشاء، فأجزل العطاء للقواد والمحاربين فى الشرق والغرب، ووصل القريب والبعيد من قريش إلا بنى أمية، فقد استأصل شأفتهم، صلبًا وحرقًا وقتلاً، ولم يبق منهم إلا النساء والأطفال ومن هرب إلى الأندلس، وقليل ممن عفا عنهم، أما أموالهم فقد وزعها..

يقول ابن خلكان: وصل عبد الله الحسن بن الحسن بن علىّ بألفى ألف درهم، وهو أول خليفة وصل بهذه الجملة[2].

وبدهىٌّ أن يعم الخير ذويه من إخوته وأعمامه وأخواله، وأقرب الناس إليه زوجُه الْوَحِدَةُ أم سلمة وولداها منه: محمد وريطة[3]، لقد صاحبته هذه الزوج ووقفت معه طوال رحلته من الشام إلى العراق، ولذلك كان يعرض عليها كل ما يبعث به عمه من ثروات بنى أمية، وتأخذ منها ما تختاره، وكأنه يرد لها الجميل الذى أسدته إليه أيام إملاقه وفقره.

وكنا قد افترضنا أن لأم سلمة دورًا كبيرًا فى تمويل حركة العباسيين ضد الأمويين، بعد زواجها من عبد الله، ولقد رأينا فى كثير من المراجع ما يؤكد هذا الافتراض، فقد ظهر الآن ولعها بجمع الجواهر والحلىّ.. لقد كانت كأنما تريد أن تعوض ما أنفقته من ثروة طائلة قبل تولى زوجها الخلافة، فكان حرصها على أن تجمع ما سبق أن رأته على صدور نساء بنى أمية وفى حوزتهن.

ذكر القاضى الرشيد بن الزبير صاحب كتاب الذخائر والتحف قصةً تصف لنا شخصية أم سلمة كأننا نراها الآن، قال: مات عبد الله[4] بن يزيد بن معاوية وخلف

---

(١) كان مما حمله عبد الله لابن أخيه: البردة، والقضيب، والمخصرة الخاصة برسول الله ﷺ، وكانت البردة يلبسها كل خليفة يوم توليته الخلافة، ويمسك القضيب، ويضع المخصرة فى وسطه.

(٢) وفيات الأعيان ٢/٢١٦.

(٣) تزوجت ريطة من الخليفة المهدى بن المنصور، ابن عمها، عام ١٤٤ للهجرة، وولدت له عليا وعبيد الله، وماتت أول عهد الرشيد، أما محمد فقد صار بعد ذلك من كبار قواد المهدى والرشيد.

(٤) كان يقال له الأسوار، لجماله. (معجم بنى أمية ١٨٤).



ابنتين له.. يقال لإحداهما: (عَبْدة)[1]، ويقال لأخرى: عثامة، فكفلتهما عاتكة بنت يزيد بن معاوية عمتهما، وكانت تحت عبد الملك بن مروان، فلما ماتت عاتكة كانت أوصت قبل وفاتها لهما بتركتها، وتزوج عبدةَ هشامُ[2] بن عبد الملك، وذات يوم كان ينظر إليها فرأى فى نحرها خالاً، فقال: إنك أنت هى، فقالت: وما معنى هذا القول منك؟ قال: إنّا نرى أن امرأة منّا من أولاد الخلافة، وامرأة خليفة فى نحرها خالٌ تذبح، فقالت: لئن كان الأمر كذلك فما لى حيلة فى رد القضاء، وإن لم يكن، فما معنى التعجيل بالغم؟

فلما قتل عبد الله بن علىّ[3] بنى أمية، وبعث بجوهر الخلافة إلى أبى العباس السفاح، عرضه على أم سلمة بنت يعقوب المخزومية امرأته، وكانت ـ كما علمنا ـ قبل ذلك عند مسلمة بن هشام بن عبد الملك، فقالت: ما لى لا أرى بدنة[4] عبدة فيه؟ فكتب إلى عبد الله بن علىّ عام ١٣٢ للهجرة فى البعثة إليه بها، فبعث إليه ببَدَنَة وكتب: إنها هى، فعرضها على أم سلمة، فقالت: كلا... ما هى بدنة عبدة، هى بدنة الرائقة جارية هشام بن عبد الملك، وإن حبةً من الحب الذى فى بدنة عبدة خير من هذا كله، ولقد كانت تلبسها فى الليل فيعرف بها موضعها من حسنها، وكانت ممزوجة من حبٍّ وفى وسطها مثل الخط من ياقوت أحمر من أولها إلى آخرها.

فكتب أبو العباس إلى عبد الله يقسم عليه فى البعثة بها، فقالت أم سلمة: اكتب إليه فليبعث عبدة. فكره عبد الله أن يبعث بها فتقرّ بها، فبعث بعبدة ودسَّ إليها بعض جنده وقال لهم: إذا صارت فى بعض الطريق اقتلوها[5]، فلما صارت فى موضع بالشام، يعرف (بِجُبِّ عبدة)، أرادوا قتلها فقالت: إن كنتم عزمتم على قتلى، فدعونى أستتر، فتركوها، فلفت على بدنها ورجليها ثوبها، وأبدت عن حلقها، فذبحوها، وكتب عبدالله أنه كان بعث بها، وأن بعض الأعراب عرضوا لها فقتلوها[6].

---

(١) سماها صاحب كتاب (نسب قريش): المذبوحة.

(٢) أنجبت منه: عبد الله، وعائشة، وتزوجت عائشة عبيد الله بن مروان بن الحكم.

(٣) عم السفاح والمتولى القضاء على بنى أمية فى الشام.

(٤) البدنة: قميص لا كمَّين له، مرصعٌ بالجواهر واللآلئ. (المعجم الوسيط).

(٥) بعد أن استولى هو على بدنة عبدة.

(٦) التحف والذخائر ٩٤.



ولم تظفر أم سلمة ببغيتها من حلية عبدة، التى طالما حلمت بلبسها، فقد كانت حلية تتحدث عنها النساء فى كل مكان حتى قيل: لم ير فى الإسلام مثلها، ولا مثل الحبّ الذى كان فيها، ولا يعرف قيمتها ولا قدرها، وكان فى صدرها وظهرها خطان من ياقوت أحمر، وباقيه من الدر الكبار الذى ليس له مثيل... لقد ضاعت التحفة من يد أم سلمة إلى الأبد.

وقد وصفت بعض المراجع رحلة هذه التحفة النادرة، وما آلت إليه، فبعد أن توفى السفاح وتولى أبو جعفر المنصور، أوقع بعمه عبد الله بن علىّ فى عام ١٣٧ للهجرة، واستولى على كل ما جمعه، وأخذ منه البدنة، ووضعها فى خزائن الخلافة، حتى تزوج الرشيد من ابنة عمه زبيدة عام ١٦٥ للهجرة، وأراد أن يتحفها فألبسها بدنة عبدة، وأبقتها زبيدة فى حوزتها مع جواهرها حتى تزوج المأمون ابن زوجها فأسرعت وأهدتها لعروسه بوران بنت الحسن بن سهل يوم زفافها فى شوال عام ٢١٠ للهجرة، ثم أعيدت إلى خزائن الخلافة، وتولى بعد المأمون المعتصم فالمتوكل الذى أخرجها من الخزانة ليهديها إلى بنت طاهر[1] ابن عبد الله بن طاهر، التى زوجها للمعتز ولده عام ٢٤٧ للهجرة.

والغالب أن هذه التحفة كانت تعار للعروس تلبسها ثم تعاد مرة أخرى إلى خزينة الدولة فى الحفظ والصون، حتى انتقلت إلى آل طاهر فلم يعرف مصيرها بعد.

* * *

(١) جدها عبد الله بن طاهر، من أشهر ولاة العباسيين، أصله من خراسان، كان المأمون يعتمد عليه بعد أن تبناه ورباه، ولاه خراسان والشام ومصر، قال الزركلى: البطيخ الأصفر المعروف بمصر بالعبدلاوى منسوب إليه، وكانوا يطلقون على عبد الله: رجل المهام الصعبة

سلطان أم سلمة على السفاح

وعوْدٌ إلى الأميرة أم سلمة التى كانت مولعة، بل مجنونة بجمع الجواهر، وخاصة اليتيمة منها، وما كان ذلك يكفيها فقط.. بل أكثر ما يهمها إحكام القبضة على الخليفة زوجها، والاستيلاء عليه شخصيًا، والتحكم فيه، مع علمنا بسطوته وعنفه، وجبروته وجنونه بسفك الدماء، حتى تسمى بالسفاح، غير أن بعض الرجال قد يتصفون بالضعف أمام المرأة، رغم أنهم جبابرة، وكأنهم يشعرون أحيانًا بفداحة ما يحملون من أثقال العنف والقسوة، فإذا بهم يلقون بذلك كله جانبًا، ثم يرتمون فى منتهى الضعف والاستسلام إلى أحضان المرأة التى تموج بالحنان، وتريحهم لحظة من شقاء ممارسة الظلم والطغيان، وقد (وافق شَنٌّ طبقة).

تروى لنا المراجع طرفة عن علاقة أم سلمة بزوجها وتحكمها فيه، حتى بعد أن تربع على كرسى الخلافة، ودانت له الدنيا وممالكها، من شاطئ المحيط الأطلسى حتى شاطئ المحيط الهادى عند الصين والهند.. يقول المسعودى: فلم يكن يدنو إلى النساء غيرها، لا إلى حرة ولا إلى أمة، ووفى لها بما حلف ألا يغيره، فلما كان ذات يوم فى خلافته، خلا به خالد بن صفوان[1]، فقال: يا أمير المؤمنين، إنى فكرت فى أمرك، وسعة ملكك، وقد ملكت نفسك امرأة واحدة، واقتصرت عليها، فإن مرضَت مرضْت، وإن غابت غبت، وحرمت نفسك التلذذ باستظراف الجوارى، ومعرفة أخبارهن، والتمتع بما تشتهى منهن، فإن منهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء[2]، وإن منهن البضة البيضاء، والعتيقة الأدماء[3]، والدقيقة السمراء، والبربرية العجزاء[4]، والمولدات من البصريات والكوفيات ذوات الألسن العذبة والقدود المهفهفة والأوساط المخصرة.. والعيون المكحلة.، وأين أمير المؤمنين من بنات الأحرار، والنظر إلى ما عندهن، وحسن الحديث لهن؟

(١) التميمى من فصحاء العرب المشهورين، جالس عمر بن عبد العزيز، وهشام بن عبد الملك، وحظى عند السفاح، وكان لفصاحته أقدر الناس على مدح الشيء وذمه، توفى عام ١٣٧ للهجرة. (الأعلام).

(٢) الغيداء: طويلة العنق.

(٣) الأدماء: شديدة السمرة.

(٤) العجزاء: عظيمة العجز.

وجعل خالد يجيد في الوصف ويكثر في الإطناب بحلاوة لفظه وجودة وصفه، فلما فرغ من كلامه قال له أبو العباس: ويحك يا خالد، ما صك مسامعى والله قط كلامٌ أحسن مما سمعت منك، فأعد على كلامك، فقد وقع منى موقعًا، فأعاد عليه خالد أحسن مما ابتدأه، ثم انصرف، وبقى أبو العباس مفكرًا فيما سمع منه، فدخلت عليه أم سلمة امرأته، فلما رأته مفكرًا مغمومًا قالت: إنى لأنكرك يا أمير المؤمنين، فهل حدث أمر تكرهه؟ أو أتاك خبر ما ارتعبت له؟، قال: لم يكن من ذلك شيء، قالت: فما قصتك؟، فجعل ينزوى عنها، فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد، فقالت: فما قلت لابن الفاعلة؟ قال لها: سبحان الله!! ينصحنى وتشتمينه، فخرجت من عنده مغضبةً، وأرسلت إلى خالد جماعة من النجارية، ومعهم (الكامركوبات)[1]، وأمرتهم ألا يتركوا منه عضوًا صحيحًا.

قال خالد: فانصرفت إلى منزلى، وأنا على السرور، بما رأيت من أمير المؤمنين، وإعجابه بما ألقيته إليه، ولم أشك فى أن صلته ستأتينى، فلم ألبث أن صار إلى أولئك النجَّارية، وأنا قاعد على باب دارى، فلما رأيتهم قد أقبلوا نحوى، أيقنت بالجائزة، والصلة، حتى وقفوا علىّ فسألوا عنى، فقلت: هأنذا خالد، فسبق إلىّ أحدهم بهراوة كانت معه، فلما أهوى بها إلىّ، وثبت فدخلت منزلى، وأغلقت الباب علىّ واستترت، ومكثت أيامًا على تلك الحال، لا أخرج من منزلى، ووقع فى خلدى أنى أُتيت من قِبَلِ أم سلمة.

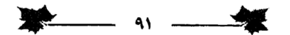
وطلبنى أبو العباس طلبًا شديدًا، فلم أشعر ذات يوم إلاَّ بقوم قد هجموا علىّ، وقالوا: أجِب أمير المؤمنين، فأيقنت بالموت، وركبت وليس علىّ لحمٌ ولا دم، فلم أصل إلى الدار حتى استقبلنى عدة رسل، فدخلت عليه، فألقيته خاليًا، فسكنت بعض السكون، فسلمت، فأومأ إلىَّ بالجلوس، ونظرت، فإذا خلف ظهرى باب عليه ستور قد أرخيت، وحركة خلفها.

فقال لى: يا خالد لم أرك منذ ثلاث، قلت: كنت عليلاً يا أمير المؤمنين.

قال: ويحك، إنك كنت وصفت لى فى آخر دخلة من أمر النساء والجوارى ما لم يخرق مسامعى قط كلامٌ أحسن منه، فأعده علىّ، قلت: نعم يا أمير المؤمنين،

---

(١) الكامركويات أو الكافر كوبات: كلمة أعجمية لم نهتد إلى تحقيقها، معناها: أداة قتل فيها مسامير حديد. (الطبرى ٩/٣٠٩).



أعلمتك أن العرب اشتقت اسم الضَّرَّة من الضَّر، وأن أحدهم ما تزوج من النساء أكثر من واحدة إلا كان فى جهد.

فقال: ويحك لم يكن هذا فى الحديث، قلت: بلى والله يا أمير المؤمنين، وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأثافى[1] القدر يغلى عليهن.

قال أبو العباس: برئت من قرابتى من رسول الله ﷺ إن كنت سمعت هذا فى حديثك، قلت: وأخبرتك أن أربعًا من النساء شرٌ مجموع لصاحبهن يشيِّبنه ويهرمْنه ويسقمْنه.

قال: ويلك والله ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا الوقت، قال خالد: بلى والله يا أمير المؤمنين.

قال: ويلك وتكذِّبنى؟.. قال خالد: وتريد أن تقتلنى يا أمير المؤمنين؟

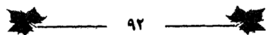
قال: مُرَّ فى حديثك، قال خالد: وأخبرتك أن أبكار الجوارى رجالٌ ولكن لا خصىً لهن، قال خالد: فسمعت الضحك من وراء الستر، قلت: نعم وأخبرتك أيضًا، أن بنى مخزوم ريحانة قريش، وأن عندك ريحانة من الرياحين، وأنت تطمح بعينك إلى حرائر النساء، وغيرهن من الإماء.

قال خالد: فقيل من وراء الستر: صدقت والله يا عماه، وبررت، بهذا حدثت أمير المؤمنين، ولكنه بدّل وغيّر ونطق عن لسانك.

فقال لى أبو العباس: مالك قاتلك الله وأخزاك، وفعل بك وفعل؟ قال: فتركته وخرجت وقد أيقنت بالحياة، وما شعرت إلا برسل أم سلمة قد صاروا إلى ومعهم عشرة آلاف درهم وتخت[2] وبرذون[3] وغلام[4].

لقد كان تأثير أم سلمة فيما يبدو عميقًا فى سلوك أبى العباس السفاح، فلم يعرف عنه أنه سامر النساء أو الجوارى، كعادة كل الخلفاء، الذين كانوا يأنسون إلى

(١) أحجار ثلاثة يوضع عليها القدر فوق النار.
(٢) التخت: وعاء تصان فيه الملابس. (الوسيط).
(٣) يطلق (البرذون) على غير العربى من الخيل والبغال، من الفصيلة الخيلية، عظيم الخلقة، غليظ الأعضاء، قوى الأرجل، عظيم الحوافر. (الوسيط).
(٤) مروج الذهب ٣/٢٧٨.



الغناء وإلى اللهو والسمر، أما هو فكان يحب مسامرة الرجال، ولا سيما العلماء، ربما وفاءً لأم سلمة بعهده معها حتى أصبح ينفر بفطرته من الجلوس إلى النسوة.

وإن كنا نرى أن طبيعة الرجل كانت خشنة، تنبو عن المسالك الناعمة، فقد هيأته الظروف لأداء أقسى مهمة، وهى تأسيس دولة بنى العباس، بما يصاحب ذلك من عنف، واستعلاء على سفساف الأمور، وأخذ بناصية الجد فيها، ولعل الأقدار وضعت فى طريقه تلك المرأة المقنعة لزوجها، الخبيرة بصنوف التعامل مع الطبائع المختلفة:

فـلـم تـك تـصـلـح إلا لـه

ولـم يـك يـصـلـح إلا لـهـا

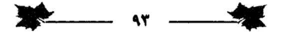
ولولا أم سلمة، التى أغنت أبا العباس عما سواها من النساء، وملأت قلبه وعينه، فربما انزلق الرجل فى مهاوى العبث والمجون كغيره ممن سبقوه ولحقوه، ولسجل التاريخ فى تلكم الحقبة الحاسمة مهزلة أى مهزلة، تفتح الطريق أمام أطماع الأعداء من حول الدولة، وما كان أكثرهم فى ذلك الزمان.

يقول رضا كحالة: ولم يكن أحد من الخلفاء يحب مسامرة الرجال مثل أبى العباس السفاح، وكان كثيرًا ما يقول: إنما العجب ممن يترك أن يزداد علمًا ويختار أن يزداد جهلاً، فقال له جليسه: ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين؟ قال: يترك مجالسة مثلك، وأمثال أصحابك، ويدخل إلى امرأة أو جارية، فلا يزال يسمع سخفًا، ويروى نقصًا، فقال له: لذلك فضلكم الله على العالمين، وجعل منكم خاتم النبيين[1].

هكذا كان رأى أبى العباس فى المرأة ومجالستها آنذاك، وهكذا حرص على تجنب السخف، والنقص الذى لا يليق بأمير المؤمنين، مؤسس الدولة، وناشر الرعب فى قلوب أعدائها، وهذا هو السر فيما أثر عنه، من استقامة الشخصية، وعدم الميل إلى المعابثة والفجور.. بل إنه كان يترفع فى مسامرته للرجال عن أن يجالسهم مباشرة.. بل كان يضع سترًا بينه وبينهم، وهو مسلك لم تذكره كتب التاريخ لأحد غيره من خلفاء الإسلام[2]، ولعله نقل هذا التقليد عما أُثِرَ عن تقاليد أحد ملوك الفرس، وهو أردشير بن بابك، فقد كان هو أيضًا يطرب من وراء الستر.

(١) أعلام النساء ٣/٢٣٩.

(٢) قلده فى ذلك المنصور فيما بعد لوقت ثم عاد فأزال الستر بينه وبين ندمائه.



لقد كان السفاح يسمع الغناء، ويرى المغنين، ولا يرونه، وإذا طرب صاح بالمغنى أو بالموسيقىّ قائلاً: أحسنت والله... أعد هذا الصوت.

وكان يحب سماع أخبار العرب ومفاخرهم من نزار وعدنان وقحطان، ويقضى ليله فى السماع والمحادثة، وقد أفاض المسعودى فى ذكر تفاصيل هذه الأخبار والأسمار والمحادثات.

ومن المؤكد أن أبا العباس كان بهذه الصفات، هو الرجل الأمثل الذى اختاره القدر لإقامة دولة بنى العباس، وقد عرفنا ما كان من أمر الخلافة الأموية عندما اقتربت نهايتها، فقد غرق الخلفاء آنذاك فى المجون والفجور، وقتل بعضهم بعضًا، فعصفت الريح بالدولة، وأحالتها قاعًا صفصفًا، هذا هو الدرس الذى حفظه أبو العباس، وسكن فى أعماقه، وهو يؤسس دولته الجديدة على أنقاض الأمويين.

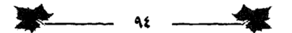
ولم تنعم أم سلمة بمقعدها السنى بجوار الخليفة أبى العباس سوى أربع سنين، هى التى قضاها على رأس الدولة العباسية، ولم يسجل التاريخ له فيها مخالفةً لأمرها، أو خروجًا على مشورتها، إلا فى حادثة واحدة، أخفر فيها عهده معها، وذلك حين أجارت أخا زوجها السابق: سليمان بن هشام بن عبد الملك وولديه أيوب وداود، وقبل هو إجارتها، وصاروا فى حاشيته، وبينما هم فى مجلسه يومًا، إذ دخل أحد الشعراء ونظر إليهم، ثم أنشد شعرًا مخاطبًا أبا العباس، فأوغر بذلك صدره، وأنساه عهده لأم سلمة وقتلهم لساعته.

قال أبو جعفر البغدادى: وقتل أمير المؤمنين أبو العباس سليمان بن هشام بن عبد الملك وابنيه بعدما أمّنهم، وكانت أم سلمة - زوجته - كلمته فيهم، فلما حض عليهم سديف بن ميمون[1] فى شعره، قتلهم وصلبهم[2].

---

(١) هو سديف بن إسماعيل بن ميمون، مولى بنى هاشم، شاعر حجازى، كان أعرابيًا بدويًا حالك السواد، شديد التحريض على بنى أمية، متعصبًا لبنى هاشم، عاش إلى زمن المنصور العباسى، فتشيع لبنى هاشم فقتله عامل المنصور بمكة عام ١٤٦ للهجرة. (الأعلام).

(٢) المحبّر ٤٨٦.



وقال ابن طباطبا: دخل عليهم سديف الشاعر فأنشد السفاح:

لا يغرنك ما ترى من رجال ... إن تحت الضلوع داءً دويا

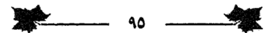
فضع السيف وارفع السوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها أمويا

فالتفت إليه سليمان وقال: قتلتني يا شيخ...[1].

وإن المرء ليعجب من سرعة رد الفعل لدى هؤلاء الخلفاء، حين يلجئون إلى السيف، فقد كان أبو العباس فى غنى عن قتل هؤلاء المستجيرين به، والذين أنسوا إلى جواره، بشفاعة زوجه أم سلمة، وما كان بقاؤهم يضره فى شىء، ولا موتهم يفيده، ولكنه حمق اللحظة، وانفعال الفجاءة، الذى أهاج عنده هذا الحقد، حتى تنكر لعهده، وأغضب بلا شك زوجه الأثيرة عنده، والتى ما كانت تتوقع من زوجها هذا الصنيع، ولكنه السفاح!!

* * *

(١) الفخرى ١٢٠. وفى بعض المراجع: فَضَعِ السَّيْفَ وارفَعِ العَفْوَ.



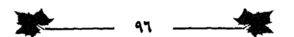
أم سلمة بعد السفاح

ومات السفاح ـ قيل بحمّى الجدرى ـ فى يوم الأحد ١٢ من ذى الحجة عام ١٣٦ للهجرة (يونيو ٧٥٤ للميلاد).. مات شابًا لم يكمل السادسة والثلاثين، ودفن فى الهاشمية، المدينة الجديدة التى وضع أساسها عاصمة لملكه ولم يكمل بناءها بعد، بجوار الأنبار، وقد اندثرت ولم يبق بها شىء حتى آثار قبره.

مات السفاح ولم يترك خلفه شيئًا يورث، من مثل ما تركه سابقوه ولاحقوه، يقول ابن الأثير: ترك السفاح تسع جباب، وأربعة أقمصة، وخمسة سروالات، وأربعة طيالسة[١]، وثلاثة مطارف[٢] خز[٣].

لكن ينبغى ألا نغفل عن تركة السفاح الحقيقية التى خلفها للخلفاء من بعده، لقد كان بيت المال متخمًا بما جمع العباسيون من ثروات بنى أمية، والسفاح نفسه وهب مثلاً لعبد الله الحسن حفيد علىّ بن أبى طالب ألفى ألف درهم من الثروات التى آلت إليه من تصفية الوجود الأموى فى الشام، ولعلنا نرى فى زهادة ما خلف من ورائه أحد أمرين، فإما أنه كان مشغولاً بتأسيس الدولة وتشييد الملك على قواعد من الحزم والبأس الشديد، فلم يتفرغ للنظر فى المجوهرات والمقتنيات كما فعل الخلفاء من بعده ابتداء من أخيه أبى جعفر المنصور، وإما أنه مات وهو شاب، وأعجلته المنية عن أن يلتفت إلى الكنز، وهى حالة يمكن تبريرها أولاً بأنه لا يرى مسافة بين ذمته وبيت المال، فبيت المال هو ذمته وهو تركته، وإما بأنه كان يؤمل أن يمتد به العمر حتى إذا فرغ من إرساء قواعد الأمن والأمان فى الدولة، وقضى على كل أثر لأعدائه من بنى أمية، تفرغ حينئذ للتمتع بما آل إليه من تراث أعدائه البائدين، وإن كنا لا نحرم هذه الشخصية الفذة من بعض المقومات المتميزة فى شخصه كعلو الهمة والترفع عن صغائر الأمور، وعفة النفس عن الأطماع المالية، وإن كان أشد الناس شراهة وتعطشًا إلى الدماء، فلم يكن يعنيه أن يتكثر من الجبب والأقمصة والسراويل، إذ لا وقت عنده لملاحظة الفرق بين متاع ومتاع ما دام منهمكًا فى مهماته الخطيرة،

(١) جمع طالِسان، وهو الوشاح، ويعرف فى العامية المصرية بالشال.
(٢) جمع مِطرَف، وهو رداءٌ أو ثوبٌ مربعٌ ذو أعلام. (المعجم الوسيط). والخز: نوعٌ من الحرير.
(٣) الكامل ٥/٩٩.



وحسبه من الدنيا حضن أم سلمة على حد قول المثل العربى: يكفيك من الزاد ما بلغك المحل، وقد قامت أم سلمة بدورها فى حياة أبى العباس السفاح خير قيام.

غفر الله للسفاح.. كان آخر كلامه فى صحوة الموت: إليك يا ربٍّ لا إلى النار.

أما أم سلمة، فقد خرجت من هذه المحنة بثروة لا بأس بها، ساعدتها على استئناف حياتها فى حضن زوجٍ جديد ينسيها أهوال التجربة الهائلة، هو: عبد الله ابن عبد الحميد المخزومى، ويبدو أنها وفاءً لمبدئها الذى سارت عليه مع أبى العباس، اشترطت على هذا الزوج المخزومى، ألا يعاشر حرةً أو جارية غيرها، ويبدو أيضًا أن الرجل لم يلتزم بهذا العهد، فوقع الخلاف بينهما.

يقول رضا كحالة عن كتاب (الأغانى): ثم تزوجت بعبد الله بن عبد الحميد المخزومى، فمالت إليه كل الميل، فأعطته عطاءً جزيلاً، جعله موسرًا، يعطى الشعراء فيجزل، ثم اتهمته بجارية لها، فاحتجبت عنه، فلم تعد إليه حتى مات[1].

أما البغدادى فقد ذكر لها زوجًا آخر، هو إسماعيل[2] بن علىّ بن عبد الله بن عباس[3].

ودخلت أم سلمة[4] بعد ذلك غياهب التاريخ، لا يدرى أحد متى ماتت؟ ولا كيف انتهت حياتها؟

غير أنها فى الواقع، نموذج فريد بين نساء عصرها.. بل نساء كل العصور، فقد جمعت فى حياتها بين الأضداد، وعاشت أحداثًا هائلة، صاحبت سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، وتقلبت حياتها فى أحضان رجال بعضهم لبعض عدو، وكانت مع هذا قادرة على التوازن.. بل الاندماج فى الدور الذى كانت تقوم به، ولولا أن التاريخ أثبت لها كل هذه الأدوار لما صدقنا أن امرأة واحدة يمكن أن تقوم بها - حتى فى مجال التمثيل!!

إن مؤهلات هذه المرأة العقلية والنفسية، مؤهلات متفوقة تثير الإعجاب، ولو أنها عاشت فى زماننا، وكتبت مذكراتها، لأذهلت الدنيا بحكاية كثير من الأسرار، التى دفنت معها فى قبرها المجهول.

---

(١) أعلام النساء ٣/ ٢٣٩.

(٢) هو أحد أبناء علىّ بن عبد الله بن عباس الاثنين والعشرين ذكرًا، وعم السفاح، ولاه السفاح إمارة الموصل عام ١٣٢ للهجرة، وبقى عليها زمن المنصور حتى عام ١٤٥ للهجرة، فعزله وولاها ابنه جعفرًا.

(٣) المحبر ٤٤٥.

(٤) أطلق اسم أم سلمة على موضع بالكوفة، قال ياقوت الحموى فى (معجم البلدان ٣/ ٣٩٤): صحراء أم سلمة موضع بالكوفة، ينسب إلى أم سلمة بنت يعقوب المخزومية.

خاتمـة

هكذا أوجزنا القول فى تتبع سيرة السيدة أم سلمة بنت يعقوب المخزومية، تلك السيدة التى أتيح لها ما لم يتح لسيدة أخرى سبقتها، أو لحقتها، فقد عاشت دولتين كبريين فى تاريخ الإسلام، الدولة الأموية فى مرحلتها الأخيرة، والدولة العباسية فى طلقتها الأولى.

وأهم ما فى تجربة هذه المرأة أنها شهدت بنى أمية بعد أن انتكسوا فى سياساتهم المالية، حين عاودوا الاستيلاء على أموال المسلمين، التى كان انتزعها من أيديهم الخليفة عمر بن عبد العزيز، فلما توفى عمر ـ فى سن مبكرة ـ عادوا إلى التخوض فى مال الله، وقاموا (يقضمون مال الله قضمة الإبل نبتة الربيع)[1] ـ إلى أن انتكسوا وأجهز عليهم عملهم، وكبت بهم بطنتهم، وكانت نهاية حكمهم على تلك الصورة الرهيبة.

لقد عاشت أم سلمة فى ذلك الجو الوبىء، وتزوجت من أميرين من أمراء بنى أمية، واحدًا تلو الآخر، وكان زوجاها حفيدين لعبد الملك بن مروان، وقد ورثت عن الزوجين ثروة طائلة.

والعجيب أننا لا نجد فى سيرتها ذكرى حزن على فقد زوج، مع أن فقد الزوج هو أشد الأحداث إيجاعًا للمرأة، وسرعان ما تتلفت حولها بحثًا عن زوج ثالث تلقيه الأقدار بين يديها، وكأنها فى زيجتيها السابقتين لم تجد مقنعًا يلبى طموحها، ويشبع رغائبها، فهى دائمًا طُلَعَةٌ إلى ضالتها، حتى عثرت عليه فى شخص أبى العباس، وربما كانت قرأت بين عينيه الغيب المقدور له، ففعلت أقصى ما فى وسعها لتصل إليه، وحين وصلت أنشبت فى كيانه أنيابها وأظافرها، وأدمجت روحها بروحه، فلم تدعه يفلت من يديها إلى أيةٍ من بنات حواء حرةً أو سُرِّيَّةً جاريةً، وظلت هكذا زوجًا مسعدة لزوجها، تشاركه أفراحه وهمومه، حتى آخر حياته.

---

(١) تعبير لعلىّ بن أبى طالب من خطبة قالها عرفت بالشقشقية (انظر: نهج البلاغة).



ومن المؤكد فى تقديرنا أن زواجها بعد ذلك لم يكن سوى ملء للفراغ بعد أن رحل الفارس المغوار، أبو العباس، إذ لم يكن من المألوف فى تلك العصور أن تبقى امرأة بلا زوج، مهما تكن مكانتها، أو مكانة زوجها المتوفى عنها، ما عدا أمهات المؤمنين، وقد منع زواجهن بعد النبى ﷺ بنص القرآن، أما غيرهن فقد تزوجن بمجرد انتهاء عدتهن فى غالب الأمر، اللهم إلا ﴿الْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ [النور: ٦٠].

وهكذا تزوجت أم سلمة زواجها الأخير الذى ختمت به حياتها. ولله فى خلقه شئون.

*   *   *



٤

الخيزران

(زوج الخليفة المهدي)



تمهيد

لم تكن الخيزران بنت عطاء حين عُرضت للبيع فى سوق النخاسة ـ تدرك أنها سوف تصبح الرحم العباسية التى تلد كل خلفاء بنى العباس حتى نهاية دولتهم فى عام ٦٥٦ للهجرة، على أيدى التتار.

كانت مجرد فتاة جميلة ترجو لنفسها أن تأوى إلى بيت هادئ، ينهى رحلة عذابها بين أيدى النخاسين والجَسّاسين.

ولكن القدر ساقها إلى عينى الخليفة المهدى ـ ثالث الخلفاء العباسيين، فانتقاها، وقدمها على غيرها لجمالها وذكائها معًا، وهو يرجو أن يرزق منها أولادًا أذكياء يرثون العرش، ويحافظون على الدولة، وقد كان.

فمن ولدها هارون الذى ولد المعتصم، ومنه تتابعت السلالة التى حملت الخلافة حتى نهايتها، منتصف القرن السابع الهجرى، أى: طيلة خمسة قرون.

ولقد كانت للخيزران كمية من المواهب العقلية جعلتها تسيطر على زوجها المهدى، وولديها فى خلافتهما، الهادى ثم الرشيد، وهى فترة طويلة من المجد والسؤدد، لم تعشها امرأة قبلها، مع توفر العقل والاعتدال وإرادة الخير العام.

ونحسب أن هذا النموذج من النساء لا يظهر فى ساحة السلطة إلا بمساعدة من ضعف الحاكم الزوج، فحين تشم المرأة من زوجها رائحة الضعف، أو التخلخل، أو (الاستئسار) الجنسى ـ فإنها سرعان ما تتقدم إلى فرصتها السانحة، لتشاركه فى الحكم، وتفرض إرادتها، أو رغباتها، أو نزواتها التى تعبر عن شهوة الحكم والتسلط، وهذا هو ما سنجده فى الخيزران، كما سنجده فى تصادمها مع ولدها الهادى حتى مات كمدًا أو قتلاً، ثم نجده بشكل مهادن فى علاقتها بولدها الرشيد.

تغير الرجال فى عهود ثلاثة، والخيزران هى كما هى.

ومع ذلك فقد عاشت هذه المرأة فى مرحلة الازدهار العباسى، والدولةُ شبابٌ، فكانت شخصيتها عنصرًا من عناصر الاستقرار والقوة معًا فى بغداد.

ولقد عشنا فى زماننا هذا أحوالاً من تسلط المرأة على زوجها الحاكم، بلغ حد التآمر عليه، والعمل فى داخل المؤسسة الحاكمة لحساب أعدائه، وأعداء شعبه، ولكن من رحمة الله أنه جعل عمر الخيانة قصيرًا، فسرعان ما تغيرت الأحوال، واختفت الأشباح، وصار كل شىء نسيًا منسيًّا، وتبعثر المسرح ليعاد بناؤه من جديد بشخوص آخرين، يختلف المشخصون والرواية واحدة.

لكن قصة الخيزران نموذج آخر لامرأة صالحة وراء الأحداث.

* * *

الخيزران
زوج الخليفة المهدى

الخيزران من أكبر الشخصيات النسائية فى العصر العباسى، وقد كانت فى الأصل جارية، ولابد أن نشير إلى أن تطورًا ـ فى أول الدولة العباسية ـ قد حدث لمفهوم الرقّ، لقد كان الرقّ يضع العبيد والجوارى فى أسفل السلم الاجتماعى ـ حيث الذل والهوان ـ فإذا به يرتقى بهم إلى مستوى كان يطمح إليه الأحرار، ولذلك لا يستبعد آنذاك أن يكون أمل الفتاة الجميلة غير العربية أو العربية أحيانًا، أن تسترق فى بيت ذى علاقة بالسلطة، ومعنى ذلك أنها ستصبح عما قريب أمًّا لأمير أو خليفة، ثم يصبح لها من خلال هذا الوضع، نفوذها الذى أهلتها له مرحلة الاسترقاق.

لقد رأينا خلفاء بنى أمية لا يعهدون بولاية الخلافة لبنى أمهات الأولاد، لأن الناس كانوا يستهينون بهم، وكانوا هم يرون أن زوال ملكهم سيكون على يد ابن أم ولد، فمثلاً أنجب عبد الملك بن مروان سبعة عشر ذكرًا، كان مسلمة ابنه، ابن جارية ولذلك لم يتول الخلافة، مع كونه أعظم إخوته وأحسنهم.

قال ابن عبد ربه: لم يكن لعبد الملك ابنٌ أسدُّ رأيًا، ولا أذكى عقلاً، ولا أشجع قلبًا، ولا أسمح نفسًا، ولا أسخى كفًّا من مسلمة، وإنما تركوه لهذا المعنى[1].

وقد سجل عبد الملك هذا الرأى عندما سابق بين ابنيه سليمان ابن الحرة ومسلمة ابن الجارية، فسبق سليمان، فقال عبد الملك:

ألم أنهكم أن تحملوا هُجَنَاءكم
على خيلِكم يوم الرهان فتدركُ
وما يستوى المرآن هذا ابنُ حرةٍ
وهذا ابنُ أخرى ظهرها متشركُ[2]

(١) العقد الفريد ١/ ١٣١.
(٢) المرجع السابق.

أما فى العصر العباسى فوجدنا العكس، فالحظوة للجوارى، وولاية العهد لأولادهن.

ولسنا نستبعد هنا عنصر الجمال الذى كان أساسًا فيمن تكون جارية فى بيت خليفة أو مرشح للخلافة. لكن لابد من عنصر آخر إلى جانب الجمال، هو القدرة على الإنجاب، وهذا هو الذى يفسر أن أغلب الخلفاء فى العصر العباسى كانوا أبناء جوارٍ، وأنهم شرفوا بهذا الأصل، وتفوقوا به على أبناء الحرائر، وعليه نفترض أن تجار الرقيق في ذلك الزمان قد تحولوا إلى ما يشبه تجارة التحف والذخائر، يعرفون من أين تُستجلب وفى أى مكان تُسوَّق.

وقد أحصينا خلفاء بنى العباس عبْر قرنين من الزمان، من عام ١٣٢ للهجرة (الموافق عام ٧٤٩ للميلاد) حتى عام ٣٣٤ للهجرة (الموافق عام ٩٤٥ للميلاد)، بداية الانقسامات والانفصال عن الدولة الأم، ونشأة الدويلات الصغيرة، مثل البويهية والطولونية وغيرهما - فوجدنا أن عدد الخلفاء اثنان وعشرون خليفة منهم ثلاثة فقط لأمهات حرائر، والباقون ولدوا لأمهات من الجوارى.

أما باقى خلفاء بنى العباس من ٣٣٤هـ: ٦٥٦هـ نهاية الدولة كان عددهم خمس عشرة خليفة كلهم أبناء جوارٍ.

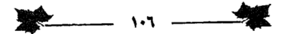
ومن هؤلاء الجوارى كانت (الخيزران) التى نحن بصدد الحديث عنها الآن، ولا تسبقها إلا أم أبى جعفر المنصور (سلاَّمة البربرية).

والخيزران هى السيدة الأولى بالتعبير الحديث، فى عهد كلٍّ من الخلفاء: المهدى[1] والهادى[2] وصدر خلافة الرشيد[3].

جاء فى الموسوعة العربية الميسرة فى التعريف بها: زوجة المهدى وأم الهادى والرشيد، ملكة متفقهة حازمة[4].

اسمها الخيزران بنت عطاء، قيل من جُرْش، من خلائف اليمن، وقال بعض المؤرخين: بل من البربر من المغرب، وقال الذهبى: من مولدات المدينة.

(١) هو المهدى محمد بن أبى جعفر المنصور بن محمد بن على بن عبد الله العباس، ولد عام ١٢٣ للهجرة، وتولى الخلافة فى ٨ من ذى الحجة عام ١٥٨ للهجرة، وتوفى عام ١٦٨ للهجرة. أمه حميرية من اليمن.
(٢) الهادى بن المهدى، ولد عام ١٤٤ للهجرة، وتولى الخلافة عام ١٦٩ للهجرة، وتوفى عام ١٧٠ للهجرة.
(٣) الرشيد بن المهدى، ولد عام ١٤٨ للهجرة، وتولى الخلافة عام ١٧٠ للهجرة، وتوفى عام ١٩٣ للهجرة.
(٤) الموسوعة العربية الميسرة ٤٧٠.



اشتراها محمد بن عبد الله المهدى حوالى عام ١٤٣ للهجرة[١]، أثناء ولايته لعهد أبيه الخليفة أبى جعفر المنصور، ومن طريف ما يذكر أنها لما عرضت على المهدى ليشتريها، أعجبته إلا ما لاحظ من دقة فى ساقيها، فقال لها: يا جارية، إنك لعلى غاية المنى والجمال، لولا دقة ساقيك وخموشهما[٢]، فقالت: يا أمير المؤمنين[٣]، إنك أحوج ما تكون إليهما لا تراهما، فاستحسن جوابها واشتراها وحظيت عنده جدًا[٤].

وولدت الجارية الخيزران ولدين، موسى عام ١٤٤ للهجرة (الموافق ٧٦٣ للميلاد)، وهارون عام ١٤٨ للهجرة (الموافق ٧٦٧ للميلاد)، وبنتًا واحدة هى الباثوقة أو البانوقة أو الياقوتة، ماتت صغيرة.

قال عنها ابن الأثير: وكان المهدى معجبًا بها، لا يطيق الصبر عنها، حتى إنه كان يلبسها لبسة الغلمان، ويُركبها معه، فلما ماتت وَجَدَ عليها[٥].

وقال الطبرى: كانت ابنته البانوقة تسير بينه وبين صاحب الشرطة فى هيئة الغلمان، عليها قباءٌ أسود، ومنطقة وشاشية، متقلدة السيف، قال الراوى: وإنى لأرى ثدييها قد رفعا القباء، وكانت سمراء، حسنة القدّ حلوة، ولما ماتت وذلك فى بغداد - أظهر عليها المهدى جزعًا لم يسمع بمثله[٦].

أما الولدان موسى وهارون فكان لهما شأن فيما بعد سنذكره بالتفصيل إن شاء الله.

غير أن ما تحقق للمهدى من تسريه بالخيزران لم يغنه عن أن يتزوج من بعض الحرائر، ذكر التاريخ أنه تزوج من ريطة بنت عمه السفاح عام ١٤٤ للهجرة، التى أنجبت له ولدين هما علىّ وعبيد الله، كما تزوج من رقية بنت عمرو أحد أحفاد عمرو بن العاص.

(١) احتمال أنها ولدت فى عام ١٢٨ للهجرة.
(٢) خموشة الساقين: خشونتهما.
(٣) لم يكن أميرًا للمؤمنين بعد، ولكن ربما قالت له ذلك على اعتبار ما سيكون.
(٤) البداية والنهاية ١٠/١٦٣.
(٥) الكامل ٥/٢٦٣. وجد: حزن حزنًا شديدًا.
(٦) الطبرى ٨/١٨٦.



ويدهيٌ أن تتحرر الخيزران على إثر إنجابها، فقد صارت أم ولد، ولكن المهدى لم يعلن زواجه منها، ودخولها محررة فى البيت العباسى إلا بعد وفاة أبيه المنصور وتوليه الخلافة أول عام ١٥٩ للهجرة (الموافق عام ٧٧٥ للميلاد).

قال ابن العماد الحنبلى: فى عام ١٥٩ للهجرة، بنى المهدى مسجد الرصافة وتزوج الخيزران[1].

لقد صارت أميرة، ونسبت إلى البيت العباسى، وسكنت قصر الخلد، الذى بناه المنصور فى الجانب الغربى لدجلة فى وسط مدينة الرصافة التى بناها خصيصًا لابنه المهدى، مع ملاحظة أن الخيزران قد تمتعت بحريتها منذ خمسة عشر عامًا حين ولدت أول أولادها موسى الهادى.

ولا ريب أن ما ارتقى بمكانة الخيزران عند المهدى، كان مزيجًا من ذكائها، وجمالها، وإنجابها. لقد كانت متربعة على قلب المهدى، حين تربعت على عرش الجمال، وكانت كذلك أيضًا لإنجابها ولديه اللذين ورثا الملك بعده موسى الهادى وهارون الرشيد.

من أجل ذلك كان المهدى لا يرد لها كلمة، ولا يسفه لها رأيًا، حتى ولو بدا أنها لم تلتزم أمره فى بعض المواقف، لقد تزوج المهدى وتسرّى بكثيرات، حرائر وإماء، لكن وضعه مع الخيزران كان شيئًا آخر، إن للحب أحكامًا قاهرة تتجاوز قيود العقل، ولا يلام محبٌّ إذا هو خضع لأحكام حبه.

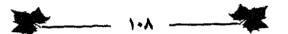
ونبادر إلى تقديم صورة عن نظام البيت العباسى فى ذلك الزمان، فقد كان لكل امرأة فيه مقام محفوظ، وكانت أعلى النساء مرتبة فى هذا البيت هى السيدة زينب بنت سليمان بن علىّ بن عبد الله بن عباس، زوج إبراهيم الإمام عم المهدى ومؤسس الدولة العباسية الحقيقى.

قال رضا كحالة: كان المهدى قد تقدم إلى الخيزران بأن تلزم زينب بنت سليمان بن علىّ، وقال لها: اقتبسى من آدابها، وخذى من أخلاقها، فإنها عجوز قد أدركت أوائلنا[2].

وهذا باب من تعليم البروتوكول فى عصرنا، أو ما يمكن أن يطلق عليه ثقافة القصور، وقد بلغت الخيزران فى هذا مبلغًا عظيمًا أعجب زوجها حتى غفر لها بعض تجاوزاتها.

---

(١) شذرات الذهب ١/ ٢٤٥.
(٢) أعلام النساء ٥/ ٥٠.



ويروى المسعودى لنا مثالاً لهذه التجاوزات، وكيف تصرف المهدى معها، قال: كانت الخيزران أم الهادى والرشيد، فى دارها المعروفة اليوم بأشناس[1]، وعندها أمهات أولاد الخلفاء، وغيرهن من بنات بنى هاشم، وهى على بساط أرمنى، وهن على نمارق أرمنية، وزينب بنت سليمان بن علىٍّ[2] أعلاهن مرتبةً، فبينا هُنَّ كذلك إذ دخل خادمٌ لها فقال: بالباب امرأة، تروم الدخول عليكن.. فقالت الخيزران للخادم: ائذن لها، فدخلت امرأة ذات بهاءٍ وجمال، فى أطمار رثة، فتكلمت، فأوضحت عن بيان على لسان، فقالوا لها: من أنت؟، قالت: أنا مزنة[3]، امرأة مروان بن محمد، وقد أصارنى الدهر إلى ما ترين، ووالله ما الأطمار الرثة التى علىَّ إلا عارية، وإنكم لما غلبتمونا على هذا الأمر[4]، وصار لكم دوننا لم نأمن مخالطة العامة على ما نحن فيه من الضرر... فقصدناكم لنكون فى حجابكم على أية حالٍ كانت، حتى تأتى دعوة من له الدعوة، فاغرورقت عينا الخيزران، ونظرت إليها زينب بنت سليمان، فقالت لها: لا خفف الله عنك يا مزنة، أتذكرين وقد دخلت عليك بحرَّان[5]، وأنت على هذا البساط بعينه، ونساء قرابتكم على هذه النمارق، فكلمتك فى جثة إبراهيم الإمام، فانتهرتِنِى وأمرت بإخراجى، وقلت: ما للنساء والدخول على الرجال فى آرائهم؟

فقالت مزنة: والله ما أظن هذه الحالة أدتنى إلى ما ترينه إلا بالفعال التى كانت منى، وكأنك استحسنته، فحرضت الخيزران على فعل مثله، وإنما كان يجب

---

(١) حى من أحياء بغداد، نسبة إلى أحد كبار الترك الذين استجلبهم الخليفة المعتصم. وقد توفى المسعودى المؤرخ عام ٣٤٦ للهجرة.

(٢) توفيت بعد زوجها باثنتين وسبعين سنة، فقد توفيت عام ٢٠٤ للهجرة، وكان إبراهيم الإمام قد قتل فى سجن مروان بن محمد عام ١٣٢ للهجرة.

(٣) وقيل: مزينة.

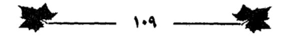
(٤) سقطت الدولة الأموية عام ١٣٢ للهجرة، بعد قتل مروان بن محمد فى بوصير بمصر، على يد العباسيين.

(٥) مدينة عظيمة فى ديار مضر على طريق الموصل والشام والروم، كان إبراهيم الإمام فى سجنها، قال ابن خلكان: قال سديف الشاعر:

قد كنت أحسبنى جلدا فضعضعنى

قبرٌ بحران فيه عصمة الدين

ويريد إبراهيم الإمام، وكان قد مات بها بعد شهرين فى الطاعون (معجم البلدان).



أن تحضيها على فعل الخير، وترك المقابلة بالشر، لتحرز بذلك نعيمها، وتصون به دينها، ثم قالت لزينب: يا بنت عم، كيف رأيت صنيع الله بنا فى العقوق، فأحببت التأسى بنا؟، ثم ولت باكية.

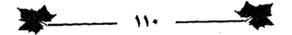
وكرهت الخيزران أن تخالف زينب فيها، فغمزت بعض جواريها، فعدلن بها إلى بعض المقاصير، وأمرت الخيزران بتغيير حالها والإحسان إليها.

فلما دخل المهدى عليها ـ وقد انصرفت زينب، وكان من شأنه الاجتماع مع خواص حرمه فى كل عشية ـ قصت عليه الخيزران قصتها، وما أمرت به من تغيير حالها، فدعا بالجارية التى ردتها، فقال لها: لما رددتِها إلى المقصورة، ما الذى سمعتها تقول؟، قالت: لحقتها وهى تبكى فى خروجها مؤتسية وهى تقرأ ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، ثم قال للخيزران: والله والله لو لم تفعلى بها ما فعلت، ما كلمتك أبدًا، وبكى بكاءً كثيرًا، وقال: اللهم إنى أعوذ بك من زوال النعمة، وأنكر فعل زينب[(١)]، وزادت زينب فواز فى الرواية قالت: وقالت لها الخيزران: من وراءك ممن تعنين به؟ قالت: ما خارج هذه الدار من بينى وبينه نسب. فقالت الخيزران: إذن قُومى حتى تختارى بنفسك مقصورة من مقاصيرنا وتحولى لها جميع ما تحتاجين إليه ثم لا نفترق إلى الموت... وقالت: احملوا إليها خمسمائة ألف درهم... وقال المهدى للخادم: احمل إليها مائة بدرة[(٢)] وادخل إليها وأبلغها منى السلام... وأقامته عند الخيزران إلى أن قضى المهدى وأيام الهادى وصدر من أيام الرشيد وكان لا يفرق بينها وبين نساء بنى هاشم، فلما قضت جزع عليها الرشيد والخدم جزعًا شديدًا وأخرجها بمشهد يليق بمثلها[(٣)].

وفى هذه القصة من الدلائل على طيب شمائل الخيزران، وشمائل زوجها المهدى، وإعجابه بها، حتى أجاز تصرفها وإن خالفت فيه توجيهه لها بالتزام زينب العجوز.

---

(١) مروج الذهب ٣/ ٣٢٤.
(٢) ألف دينار من ذهب.
(٣) الدر المنثور ١٨٩.



إن الخصومة السياسية لا تعنى تجويع الخصوم المهزومين وإذلالهم، فقد كفل الله سبحانه الرزقَ لكل عباده، سواء فى ذلك مؤمنهم وكافرهم ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

ولو تخلق الناس بأخلاق الله لأحسنوا إلى خصومهم، ولالتزموا بشرف الخصومة، ولخفت شراسة العداوة على حسب التوجيه الإلهى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

ولكن سمع الحاكم الطاغية حين يصم عن توجيه الله، ويصغى إلى صوت الشيطان تستبد به روح الانتقام، وتستولى عليه الرغبة فى التنكيل بخصومه، فيمنع عنهم الضروريات، ويحرمهم من حقوقهم، حتى يلحسوا التراب، وتبيع نساؤهم العروض والأعراض لتوفير اللقمة للصغار، ومع ذلك فليست هذه نهاية المطاف، فإن فوق الخلق ربًا خالقًا سريع الحساب، سوف تنتهى بين يديه مسيرة المخلوقين، وتمثل أمامه مواكب الطغاة والمجرمين.

ولات حين مناص.

ولات ساعة مندم.

* * *

أم ولى العهد

إن فى حياة الزوجين، المهدى والخيزران، قصصًا وحكاياتٍ تدل على مدى ما كان بينهما من الحب والإعجاب، وسوف نقف عند حكايةٍ واحدةٍ منها، ما نظن أن تأثير الخيزران قد غاب عنها، بل لعل هذا التأثير كان العامل الحاسم فى الموقف، ألا وهو توجيه زوجها الخليفة المهدى إلى أن ينتزع ولاية العهد من ابن عمه عيسى بن موسى بن علىّ ليجعلها فى ولديه من الخيزران[1]: الهادى والرشيد على التوالى، لقد حاول المهدى فى ذلك محاولات كثيرة منذ تولى الخلافة، مرة بالترغيب وأخرى بالترهيب، إلى أن تنازل عيسى عن ولاية العهد، لتكون فى ذرية المهدى مقابل مكافأة ضخمة قدرتها بعض المراجع بعشرين ألف ألف (مليون)، وبهذا التنازل صارت الخيزران زوجًا لأمير المؤمنين، وأمًّا لأميرين من بعده، هما: موسى وهارون.

قال ابن كثير: وألح المهدى على عيسى بن موسى فى أن يخلع نفسه، وتوعده إن لم يفعل، ووعده إن فعل، فأجابه إلى ذلك، فأعطاه أقطاعًا عظيمة، وأعطاه من المال عشرة آلاف ألف، وقيل عشرين ألف ألف، وبايع المهدى لولديه من بعده، موسى الهادى ثم هارون الرشيد، وذلك لثلاث بقين من محرم عام ١٦٠ للهجرة (الموافق ٧٧٦ للميلاد)... وكتب على عيسى بن موسى مكتوبًا، مؤكدًا بالأيمان البالغة من الطلاق والعِتاق، وأشهد عليه جماعة الأمراء والوزراء وأعيان بنى هاشم[2].

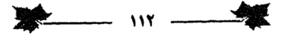
وهكذا كانت الخيزران السيدة الأولى فى قصر المهدى، مع وجود زوجات ومحظيات أخريات[3]، على رأسهن ريطة بنت أبى العباس السفاح، أول خلفاء بنى العباس. لقد كانت الخيزران تحس بهذه المكانة، فيزيد دلالها وتتيه على المهدى بجمالها وحظوتها عنده.

---

(١) الجوارى اللواتى ولدن خليفتين عدا الخيزران هن: الولادة بنت العباس العبسية زوج عبد الملك بن مروان، ولدت الوليد وسليمان، وشاه فرند بنت فيروز بن يزدجرد ولدت للوليد بن عبد الملك خليفتين هما: يزيد وإبراهيم. (شذرات الذهب ١/ ٢٨٠).

(٢) البداية والنهاية ١٠/ ١٣١.

(٣) كان للمهدى عدد كبير من الزوجات ومن الأولاد.



ذكر ابن كثير قصة رواها الواقدى[1] تبين مكانة الخيزران عند المهدى، قال: دخلت على المهدى يومًا، فحدثته بأحاديث، فكتبها عنى ثم قام فدخل بيوت نسائه ثم خرج، وهو ممتلئ غيظًا.

فقلت: ما لك يا أمير المؤمنين؟، فقال: دخلت على الخيزران فقامت إلىَّ، فمزقت ثوبى وقالت: ما رأيت منك خيرًا، وإنى والله يا واقدى، إنما اشتريتها من نَخاس، وقد نالت عندى ما نالت، وقد بايعت لولديها بإمرة المؤمنين من بعدى.

فقلت: يا أمير المؤمنين، إن رسول الله ﷺ قال: «**إنهن يغلبن الكرام، ويغلبهن اللئام**» وقال: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهله، وقد خلقت المرأة من ضلع أعوج، إن قومته كسرته**»، وحدثته فى هذا الباب بكلام حضرنى، فأمر لى بألفى دينار، فلما وافيت المنزل إذا رسول الخيزران قد لحقنى بألفى دينار إلا عشرة دنانير، وإذا معه أثواب أُخَر، وبعثت إلىَّ تشكرنى وتثنى علىَّ معروفًا[2].

لقد تأثر المهدى بكلام الواقدى، وصالح الخيزران وطيب خاطرها، وعلمت هى سبب رضا المهدى عنها، فبعثت للواقدى بالدنانير، عرفانًا منها بصنيعه وكلامه، ولكن لم يفتها أن تسجل فى عطائها لمحة من لمحات ذكائها، فأنقصت عطاءها عشرًا، بالنسبة إلى عطاء زوجها، فما ينبغى أن تسامى زوجها وهو أمير المؤمنين، بل تبقى له التفوق على كل عطاء، ولاسيما فى نظر الرعية، وهو ملحظ قد يفوت الكثيرين ممن لم يتعلموا هذا الأدب.

لقد عاش الزوجان حياة كلها حبٌّ وعشقٌ وهيام، وكان كل واحد منهما يقدم هدايا للآخر فى كل مناسبة حتى ينتعش هذا الحب ويزدهر، كما قال رسول الله ﷺ: «**تهادوا تحابوا**».

ذكر صاحب الذخائر والتحف طرفة فى حياة الخيزران، وكيف تقبلت هدية من زوجها، قال: وافتصدت[3] الخيزران فى يوم من أيام خلافة المهدى بالله، فأهدى

---

(١) محمد بن واقد مولى الأسلميين، أحد أوعية العلم، وصاحب التصانيف الكثيرة، سمع مالك بن أنس، كان يروى ثلاثين ألف حديث غريب، قيل عنه: الواقدى أمين الناس على الإسلام، ولد عام ١٣٠ للهجرة، وتوفى فى ذى الحجة عام ٢٠٧ للهجرة، دفن فى مقابر الخيزران. (معجم الأدباء ١٠/ ٢٨١).

(٢) البداية والنهاية ١٠/ ١٥٤.

(٣) الفصد: إخراج مقدار من دم الوريد بقصد العلاج. (الوسيط).



لها ألف وصيفة، مع كل وصيفة جام[1] ذهب، في وسطه ألف درهم، وألف وصيف، مع كل وصيف جام فضة فيه ألف دينار، ثم دخل إليها ليأكل طعامه عندها، فما انقضى المجلس بينهما حتى قالت له في بعض ما جرى: وأي خير رأيت منك؟![2].

وعجيب أمر الخيزران، إنها نموذج للمرأة في أعجب صفاتها المتناقضة، فهي قد وصلها من زوجها هذا العطاء السخي، تريد أن تقول له إنني أريدك أنت، فلا شيء يغني عنك، حتى ولو كان أضعاف ما أرسلته إليّ، وكان ذلك أصدق تعبير في رأيها عن دِلِّها بمكانتها، وغرورها بنفسها.

وبرغم هذا الدلال والتيه والعُجب عند الخيزران، فإن زوجها الخليفة المهدي كان متيمًا بها، شغوفًا بحياته معها، متعلقًا بها وبولديها، ولم يكن يخجل من إعلان هذا الحب، ولم يحاول إخفاء هذه العلاقة الحالمة الرومانسية، لقد كان دائم التحدث بذلك أمامها ومن ورائها.

ذكر ابن كثير قصة تفضح شوق المهدي وحنينه إلى الخيزران، عندما ذهبت إلى الحج وتركته في بغداد، قال: حجت الخيزران مرة في حياة المهدي، فكتب إليها وهي في مكة يستوحش لها ويتشوق إليها بهذا الشعر:

نحن في غايةِ السرورِ ولكِنْ

ليس إلا بكم يتمُّ السرورُ

عيبُ ما نحنُ فيه يا أهلَ ودي

أنكم غُيَّبٌ ونحنُ حضورُ

فأجِدُّوا في السير بل إن قدرتُم

أن تطيروا مع الرياح فطِيروا

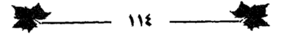
فأجابته أو أمرت من أجابه:

قد أتانا الذي وصفتَ من

الشوق فكدنا وما قدرنا نطيرُ

(١) إناء للشراب والطعام من فضة ونحوها. (الوسيط)، جمعها: جامات وأجوام.

(٢) التحف والذخائر ١٨.



لـــيت أن الـــريـــاحَ كُـــنَّ يـــؤديـــنَ

إلـــيـــكـــم مـــا قـــد يُـــكِـــن الـضـــمـــيـــرُ

لـــم أزل صـــبَّـــةً فـــإن كـــنـت بـــعـــدى

فـــى ســـــرورٍ فـــــدامَ ذاك الســـــرورُ[1]

وهذا فيما نرى أرق تعبير عن الشوق والحنين بين زوجين، لم يفارقا حالة الغرام التى بدأت منذ سنوات فى حياتهما، لقد يذكرنا هذا الأسلوب بالأشواق الطائرة فى حياة المحبين، الذين لم يتذوقوا طعم الوصال، فأما بين زوجين متعايشين فى قصر واحد، ومتواصلين دائمًا فهو أمرٌ غريب، وحالة نحسبها فريدة أو نادرة الحدوث، فالعادة جرت أن يهدئ الزواجُ لواعج الشوق وعواصف الهوى، ولكن هذه الحالة خروج عن المألوف، وهى تتحدث بمنتهى الصدق، وبكل بساطة، سواء كانت الأشعار لهما أم لغيرهما من الشعراء الذين يجازون بمثل هذه المناسبة.

والمعانى التى وردت فى رسالة المهدى وإجابة الخيزران، هى نفس المعانى التى نجدها فى رسائل الشوق والتعبير عن الحنين.

ونذكر فى هذا الصدد رسالة أمير الشعراء أحمد شوقى التى كتبها من منفاه بالأندلس[2] عام ١٩١٧ للميلاد، وبعث بها إلى شاعر النيل حافظ إبراهيم، ورد حافظ إبراهيم عليها.

قال شوقى:

يـــا ســـاكـــنـــى مصـــر إنـــا لا نـــزال عـــلـــى

عـــهـــدِ الـــوفـــاءِ وإن كـــنـــا مـــقـــيـــمـــيـــنـــا

هـــلا بـــعـــثـــتـــم لـــنـــا مـــن مـــاءِ نـــهـــرِ كـــمـــو

شـــيـــئـــا نـــبـــلُّ بـــه أحشـــاءَ صـــاديـــنـــا[3]

---

(١) البداية والنهاية ١٠/١٦٣.

(٢) نفى شوقى إلى الأندلس (إسبانيا) من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩١٨.

(٣) الصادى: الظمآن.

كـل الـمـنـاهـلِ بـعـدَ الـنـيـلِ آسـنـةٌ[1]
مـا أبـعـدَ الـنـيـلَ إلا عـن أمـانـيـنـا[2]

وقال حافظ ردًا على هذه الرسالة:

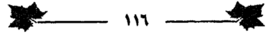
عـجـبت لـلـنـيـل يـدرى أن بـلـبـلـهُ
صـادٍ وَيسـقـى رُبـا مصـرٍ ويسـقـيـنـا

والله مـا طـابَ لـلأحـبـابِ مـوردُهُ
ولا ارتضَـوا بـعـدَكـم مـن عـيشِـهـمِ لِيـنـا

لـم تـنـأ عـنـه وإن فـارقت شـاطـئـه
وقـد نـأيـنـا وإن كُـنـَّا مـقـيـمـيـنـا[3]

* * *

(١) آسنة: المتغيرة الطعم واللون.
(٢) ديوان حافظ إبراهيم ١/١٨٦.
(٣) المرجع السابق.



وفاة المهدى

ومرت ست وعشرون سنة فى حياة هذا الزواج السعيد، وفى الثالث والعشرين من المحرم عام ١٦٩ للهجرة، انتقل أمير المؤمنين المهدى إلى الرفيق الأعلى فى جورجان[١].

وكان سبب سفره كما قال الذهبى: إنه عزم على تقديم ولاية العهد للرشيد وتأخير الهادى، فغضب الهادى، ومضى إلى جورجان وتبعه المهدى، فمات هناك مسمومًا[٢]، قيل من قطائف أكلها، وقيل من إنجاص (كمثرى).

قال ابن طباطبا: سبب موته أن جارية وضعت السم لجارية أخرى، فأكل منه وهو لا يعلم فمات[٣].

هذه روايات فى وفاته، وهناك روايات أخرى ذكرها الطبرى والذهبى.

قال الطبرى: وفى عام ١٦٩ للهجرة، بويع لموسى بن محمد بن عبد الله بالخلافة، يوم توفى المهدى، وهو مقيم بجورجان، يحارب أهل طبرستان، وكانت وفاة المهدى بماسبذان ومعه ابنه هارون[٤].

وقال الذهبى: كان المهدى فى طبرستان وجورجان فى حرب كانت هناك[٥].

وهاتان الروايتان أرجح فى نظرنا فى التعبير عن نهاية المهدى ثالث خلفاء العباسيين.

وتولى الخلافة ولده موسى الهادى، ابن الخيزران الأكبر وله من العمر خمس وعشرون سنة، وقد أخذ البيعة له فى بغداد أخوه هارون، ولما عاد الهادى وتربع على العرش، كانت الخيزران إلى جواره، تسوس وتحكم، وتشاركه فى الأمور الكبيرة والصغيرة فى الحكم.

---

(١) مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان وهى تتبع إيران.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/٣١٩.

(٣) الفخرى ١٤٦.

(٤) الطبرى ٨/١٨٧. وماسبذان: بلد بفارس، فتحها سعد بن أبى وقاص عام ١٦ للهجرة.

(٥) سير أعلام النبلاء ٣/٣٣٤.



لقد كان الهادى قاسى القلب، شرس الأخلاق، صعب المراس، شديدًا، كما قال ابن الحنبلى فى شذرات الذهب[1]، إلا أنه كان عطوفًا على أمه، محبًّا لها، ولكنه كان شديد الغيرة عليها وعلى حريمه، وقد علمت الحاشية بهذه الصفة فيه، فكانت ترعى ذلك فى تعاملها معه.

وصف الطبرى حال البلاد بعد سماع الناس بخبر المهدى وتولى الهادى، قال: وطالبوا بالأرزاق، وضجوا، وقدم هارون بغداد، فبعثت الخيزران إلى الربيع[2] وإلى يحيى بن خالد[3] تشاورهما فى ذلك، فأما الربيع فدخَلَ عليها، وأما يحيى فلم يفعل ذلك لعلمه بشدة غيرة موسى[4].

لقد كان الهادى مطيعًا لأمه سامعًا لكل ما تأمره به، دائم الوصل لها، كاسيًا لها مع غناها.

قال المسعودى: كانت غلتها مائة ألف ألف وستين ألف ألف درهم، ومع ذلك كانت تطلب الكساء من ابنها، قال ابن كثير: جاءته جاريتها «خالصةُ» مرة قائلة: سيدتى تستكسيك، فأسرع وبعث لها بخزانة مملوءة كسوة[5].

وكان دائم الزيارة لها، لا يمنعه عنها إلا الأمر الشديد، ذهب لزيارتها مرة، وفى الطريق ـ يقول الطبرى ـ اعترضه عمر بن بزيع القاضى، فقال له: يا أمير المؤمنين، ألا أدلك على وجه هو أعود عليك من هذا؟، فقال: وما هو يا عمر؟، قالَ: المظالم لم تنظر فيها منذ ثلاث، فأومأ إلى المطرّقة[6] أن يميلوا إلى دار المظالم، ثم بعث إلى الخيزران بخادم من خدمه يعتذر لها عن تخلفه، وقال: قل لها إن عمر ابن بزيع أخبرنا من حق الله بما هو أوجب علينا من حقك، فملنا إليه ونحن عائدون إليك غدًا إن شاء الله[7].

---

(١) شذرات الذهب ١/ ٢٧١.

(٢) هو الربيع بن يونس وزير المهدى ثم الهادى فيما بعد.

(٣) هو يحيى بن خالد البرمكى، قيِّم الرشيد ووزيره بعد ذلك.

(٤) الطبرى ٨/ ٢١٢.

(٥) البداية والنهاية ١٠/ ٢٠٥.

(٦) الحرس.

(٧) تاريخ الطبرى ٨/ ٢١٦.



وهذا ـ فيما نرى ـ ملمح من التوازن السلوكى الذى يلزم أن يكون خلقًا دائمًا للحاكم؛ أن تتضح فى تقديره الأولويات.

كذلك كان الهادى مجيبًا للخيزران فيما تسأله من حوائج الناس، فلم يرد لها طلبًا ولم يمنع عنها حاجة، ولذا تزاحَمَ الناس على بابها، يطلبون مساعدتها وبرها، ويرجون حاجاتهم عندها، ويطمعون فى خيرها.

قال الذهبى: وأخذت المواكب تغدو وتروح، فلا تخلو من بابها، وقال فيها أحد الشعراء:

يــا خــيــزرانُ هَــنــاكِ ثــم هَــنــاكِ

إن الــعــبــادَ يســوسُــهــم ابــنــاك[1]

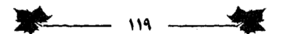
ولكن الخيزران امرأة تملكها عواطفها، وتحكمها نوازعها، فقد تمادت فى الأمر والنهى، وسلكت مع ابنها مسلكها مع زوجها المهدى فى الاستبداد ببعض الأمور، وزادت بالتدخل فى كل صغيرة وكبيرة، فى شئون السياسة والدولة، كل ذلك فى الأربعة الأشهر الأولى من خلافة ابنها الهادى، الذى ما لبث أن تغير عليها بعد تدخلها فى أمور خاصته من الأمراء ورؤساء الجيش، ومطالبته بتوليتهم أو إقصائهم، وقال مرة: ما للنساء والكلام فى أمور الرجال؟!

ثم كانت القشة التى قصمت ظهر البعير ـ كما يقولون ـ فقد طلبت منه تولية خاله الغطريف[2] أمر اليمن، فرفض، فتركته ثم قصدته يومًا آخر فى مطلب من المطالب الخاصة ببعض الناس، ورفض الهادى إجابة هذا الطلب أيضًا، وألحت عليه قائلة: لابد من إجابتى، ورد بالرفض، واحتد معها، حتى قامت غاضبة. لقد تكرر رفضه لطلبها وصار معها إلى سياسة أخرى.

وهذا الطبرى يذكر آخر لقاء بينهما، ويروى ما دار فيه من حديث، بعد ذلك الرفض المتكرر، قال: قالت الخيزران: إذًا والله لا أسألك حاجة أبدًا، قال: إذًا والله لا أبالى، وحمى وغضب، فقامت مغضبة، فقال: مكانك تستوعبى كلامى

(١) سير أعلام النبلاء ٣/٣٣٥.

(٢) ولى الرشيد خاله الغطريف بن عطاء إمارة خراسان فى عام ١٧٥ للهجرة. (تاريخ الطبرى ٨/٢٤١)، واسمه خالد، والغطريف لقبه.



والله، وإلا فأنا نفى من قرابتى من رسول الله ﷺ لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو أحد من خاصتى أو خدمى لأضربن عنقه، ولأقبضن ماله، فمن شاء فليلزم ذلك، ما هذه المواكب التى تغدو وتروح إلى بابك فى كل يوم؟ أما لك مغزل يشغلك؟ أو مصحف يذكرك؟ أو بيت يصونك؟ إياك ثم إياك ما فتحت بابك لملى أو لذمى.

فانصرفت ما تعقل ما تطأ، فلم تنطق عنده بحلوة أو مرة بعدها[1]، كأنها أصيبت بصدمة هائلة عقلت لسانها، وشلت تفكيرها.

وبدأت العلاقة بين الخيزران وابنها الخليفة فى التخلخل، بعد أن انفض من على بابها الرواد وطالبو الحاجات، وبدأت هى فى الانزواء، لكنْ على مضض، فقد مردت على السيطرة والنفوذ والاستبداد بعظائم الأمور، وسياسة الدولة، والأمر والنهى ولو على كبار رجال الدولة وعلى رأسهم الخليفة نفسه، لقد كان من المعروف عن المهدى أنه سمح رضى الخلق صفى النفس، قليل الأذى، وكانت الخيزران امرأة قوية تحب السيطرة والنفوذ والسلطان، ووافقت أخلاق المهدى طبيعتها الصلبة، أما ابنها الهادى فكان على خلاف أبيه، فهو صعب المراس، سيئ الظن، كثير الغيرة، ولذلك أسرعت المنافرة إليهما، ودب بينهما الشقاق.

ولم يكتف الهادى بمواجهتها برأيه فيها، وإنما جمع قواده وكبار دولته وسألهم: أيما خيرٌ أنا أو أنتم؟ قالوا: بل أنت يا أمير المؤمنين.

قال: فأيما خيرٌ أمى أو أمهاتكم؟ قالوا: بل أمك يا أمير المؤمنين.

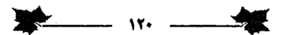
قال: فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه فيقولوا: فَعَلَتْ أم فلان، وصنعَتْ أم فلان، وقالت أم فلان، قالوا: ما أحد منا يحب ذلك.

قال: فما بال الرجال يأتون أمى فيتحدثون بحديثها؟!

قال الطبرى: فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها ألبتة، فشق ذلك عليها فاعتزلته، وحلفت ألا تكلمه فما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة[2].

---

(١) تاريخ الطبرى ٨/٢٠٦.
(٢) السابق ٨/٢٠٧.



ولقد كان الحق ـ فى رأينا ـ مع الهادى، رغم قسوة القطيعة بينه وبين أمه الخيزران.

وإذا كانت الخيزران قد تعودت على ممارسة التدخل فى السياسة أيام المهدى، فهو زوجها، يرضى منها الكثير نظرًا إلى طبيعة العلاقة بين الزوجين، وقد كانت ذات مذاق خاص، ومهما بلغ تدخلها فى شئون الدولة فإن أحدًا لن يلوم الرجل على شىء، وهو يتجاوز عن الكثير، طاعة لهواه، وتمتعًا بحبه، فأما الهادى فإنه ولدها، وله حقه فى أن يستقل بمسئولياته، بعيدًا عن أمه، فهو قد بلغ سن الفطام، ولم يعد بحاجة إلى ثديها، بصرف النظر عن واجبه الأخلاقى حيالها، من البر والإحسان إليها.

وقد آل ذلك كله إلى مأساة بين الجانبين، ذاق كل منهما قساوتها فى صمت، حتى وضعت الأحداث لمسات النهاية.

* * *

وفاة الهادى

ومرت الأيام سراعًا، وتوفى الخليفة المهدى فى قصره فى عيساباذ فى الجانب الشرقى من بغداد، كان فيها قصر للخلافة اسمه القصر الأبيض.

وكان الهادى عند وفاته لم يكمل السادسة والعشرين[1]، فقد ولد عام ١٤٤ للهجرة (عام ٧٦١ للميلاد)، وتوفى فى ١٨ من ربيع الأول عام ١٧٠ للهجرة. ولم تزد مدة خلافته عن سنة وشهر، ولم يترك المؤرخون حادث وفاته وهو شاب يمر دون تعليق، وإنما تحدثوا فيه وأفاضوا حتى إننا لم نجد خليفة اختلف المؤرخون فى سبب وفاته أكثر مما أحاط بنهاية موسى الهادى، ولكلٍ رأى من الآراء ما يستند إليه من سيرته إبان خلافته القصيرة.

فقالت أغلب المراجع إنه لم يمت حتف أنفه، بل قُتل، وقاتلته هى أمه الخيزران، وسوف نستعرض أقوال المؤرخين فى هذه الميتة، ونعرض رأينا أيضًا فى هذا الحادث المأساوى.

قال الطبرى: كانت وفاته من قرحة كانت فى جوفه[2].

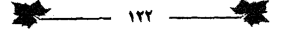
وقال أيضًا: .. وخافت الخيزران على هارون منه، فدست إليه من جواريها لما مرض من قتله بالغمّ، والجلوس على وجهه[3].

وقال الذهبى: يقال هلك الهادى بعد أن سمته أمه الخيزران لما أجمع على قتل أخيه الرشيد[4].

وقال ابن طباطبا معلقًا على موت الهادى: لم تطل مدة الهادى، فيقال إن أمه الخيزران أمرت جواريها بقتله[5].

---

(١) جاء فى بعض المراجع: كانت سنه عند وفاته ثلاثة وعشرين عامًا.
(٢) تاريخ الطبرى ٨/٢٠٥.
(٣) السابق ٨/٢٠٦.
(٤) سير أعلام النبلاء ٧/٤٤٤.
(٥) الفخرى ١٢٥.



وقال رضا كحالة: وأما الخيزران فقد أوقدت فيها معاملة ولدها جذوة الحقد والانتقام، فأمرت جواريَ لها بقتله بدس السم إليه، وبذلك انتهت المعركة السياسية بينهما، وتخلصت من عدوها اللدود، الذى كان فيما مضى فلذة كبدها، وأحب الخلق إليها[1].

وكان الهادى على خلاف الرشيد، خاصة أن الرشيد كان محبًا للشعر والشعراء والغناء، وكان الهادى على عكسه، وطالما حذر أخاه بالبعد عن المجالس التى فيها اللهو والعبث، ولذلك خرج هارون بعيدًا عن بغداد ومعه شعراؤه وندماؤه وعلى رأسهم أبو العتاهية، أما أخوه الآخر المغنى الموسيقى: إبراهيم فقد اختفى صوته، ولم يظهر طوال حياة الهادى الخلافية.

وربما كانت هذه الشدة فى معالجة الانحراف، ووقوفه ضد الرشيد ومن حوله جعل المؤرخين ينسبون إلى أمهما قتله.

وقد أشار بعض المؤرخين إلى أن رغبة كل من الخيزران والهادى فى التخلص من الآخر كانت متبادلة، فقد حاول الهادى قتل أمه ليستريح من تدخلها فى شئونه.

قال الطبرى: قال يحيى بن الحسن: وحدثنى أبى قال: سمعت خالصة ـ جارية الخيزران ـ تقول للعباس بن الفضل بن الربيع: بعث موسى إلى أمه الخيزران بأرزِة[2]، وقال: استطبتها فأكلت منها، فكلى منها، قالت خالصة: فقلت لها: أمسكى حتى تنظرى، فإنى أخاف أن يكون فيها شىء تكرهينه، فجاءوا بكلب فأكل منها، فتساقط لحمه، فأرسل إليها بعد ذلك: كيف رأيت الأرزِة؟، فقالت: وجدتها طيبة، فقال: لم تأكلى، ولو أكلت لكنتُ قد استرحتُ منك، متى أفلح خليفة له أم؟[3].

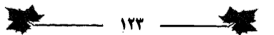
وأرجع المؤرخون أيضًا سبب قتل الخيزران ابنها الهادى إلى ما علمت من تفكيره فى قتل الرشيد، ثم تراجعه، وتفكيره فى إبعاده عن ولاية العهد ليعطيها لابنه جعفر، الذى لم يكمل الخامسة من العمر.

---

(١) أعلام النساء ١/٣٩٨.

(٢) أكلة بالأرز، وفى الكامل: الأرز.

(٣) تاريخ الطبرى ٨/٢٠٨.



قال الطبرى: إن سبب موت الهادى كان أنه لما جدّ فى خلع هارون، والبيعة لابنه جعفر، وخافت الخيزران على هارون منه، دست إليه من جواريها لما مرض من قتله بالغم، والجلوس على وجهه[1]، كما سبق.

والظاهر أن خلافًا دب بين الهادى والرشيد بسبب رؤيا رآها أبوهما المهدى قبيل وفاته، قال المهدى: رأيت فى منامى، كأنى دفعت إلى موسى قضيبًا، وإلى هارون قضيبًا، فأما قضيب موسى فأورق أعلاه قليلاً، وأما قضيب هارون فأورق من أوله إلى آخره. فقص الرؤيا على أحد المفسرين، فقال له: يملكان جميعًا، فأما موسى فتقل أيامه، وأما هارون فيبلغ آخر ما عاش خليفة، وتكون أيامه أحسن الأيام، ودهره أحسن الدهور.

وما أن سمع الهادى هذه الرؤيا وتعبيرها حتى تغير على أخيه، وانتهز كل فرصة فى التنقيص من قدره أمام الجماعة، حتى يجتنبوه ويكرهوه، فيسرع ويقيل الرشيد، ويولى عهده ابنه جعفرًا ذا الخمس سنوات، ولكن وقف ضد هذه البيعة يحيى البرمكى الذى استشاره فى ذلك، فرد عليه قائلاً: يا أمير المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان، هانت عليهم أيمانهم، وإن تركتهم على بيعة أخيك، ثم بايعت لجعفر من بعده، كان هذا أوكد لبيعته، فقال له الهادى: صدقت ونصحت.

وأظهر الهادى الموافقة، لكنها موافقة على دخن، فقد كان كل همه أن يبعد هارون عن كرسى الخلافة، حتى لا تتحقق رؤيا والده، وحدث حوار بين الأخوين قبل وفاة الهادى ذكره الأخباريون، قال موسى لهارون أخيه: كأنى بك تحدث نفسك بتمام الرؤيا وتؤمل ما أنت عنه بعيد... أتؤمل الخلافة؟

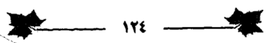
قال الراوى: فبرك هارون على ركبته، وقال: يا أمير المؤمنين[2] إن تجبرت وُضعت، وإن تواضعت رفعت، وإن ظلمت خُتلت[3]، وإن وصل الأمر إلىَّ، وصلت من قطعت، وبررتُ من حرمت، وصيرتُ أولادك أعلى من أولادى، وزوجتهم بناتى، وقضيت بذلك حق الإمام الهادى.

---

(١) تاريخ الطبرى ٨/٢٠٦.

(٢) وفى رواية: يا موسى من تكبر وضع، ومن تواضع رفع، ومن ظلم خذل.

(٣) قتلت.



فانجلى عن موسى الغضب، وبان السرور على وجهه، وقال: ذلك الظن بك يا أبا جعفر، ادنُ منى؛ فقام هارون، فقبّل يده، ثم ذهب ليعود إلى مجلسه، فقال الهادى: لا والشيخ الجليل، والملك النبيل، أعنى أباك المهدى، لا جلست إلا معى، وأجلسه فى صدر المجلس، ثم قال: يا حرانى احمل إلى أخى ألف ألف دينار، وإن افتتح الخراج فاحمل إليه النصف ....[1].

وطبيعى أن يقصد بالخراج نصيب الهادى من الخراج وليس خراج الدولة.

وعادت المياه إلى مجاريها، وآمن الهادى بقضاء الله حتى لو تحقق منام المهدى، فهو مطمئن أن أخاه إذا تولى الخلافة لن يبخس أولاده حقوقهم، وإنما سينصفهم، وقد كان، فلما أفضت الخلافة لهارون زوّج ابنته حمدونة من جعفر بن موسى[2]، وفاطمة الابنة الأخرى من إسماعيل بن موسى، ووفى بكل ما قاله لأخيه.

وقد ذكر القاضى ابن الزبير سببًا آخر لتغير الهادى على الرشيد، قال: كان عند الرشيد خاتم فضة ياقوت أحمر مجنبذ مصوغ على ذهب، كانت الخيزران تتختم به، فلما قلد المهدى الرشيد ولاية العهد بعد موسى وهبت له الخيزران أشياء منها هذا الخاتم، فلما مات المهدى وجه موسى إلى الرشيد أن وجّه إلى الخاتم... ورمى الرشيد بالخاتم بين سفينتين من سفن الجسر.. فهم الهادى بقتل الرشيد..[3].

وهذه الرواية تشير إلى تأكد الهادى من أن أمه تفضل الرشيد عليه بهديتها له دونه، فكان ما كان من تغيره على أخيه.

لقد استند المؤرخون القائلون بقتل الخيزران ابنها الهادى إلى هذه الأخبار:

أولاً: موقف الهادى من الخيزران نفسها وصده لها، وإبعاده إياها عن التدخل فى السلطة، ثم محاولة قتلها.

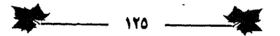
ثانيًا: تفكيره فى التخلص من هارون بعد فشله فى خلعه، وكان هارون قد وافق على الخلع، لولا إصرار يحيى البرمكى وتشجيعه هارون على البقاء على البيعة، ولم تسكت الخيزران فقد خافت على ابنيها من دخول الشيطان بينهما، وحبذت لو تنازل هارون لأخيه كما يريد.

---

(١) مروج الذهب ٣/ ٣٤٤. وتاريخ الطبرى ٨/ ٢١١.

(٢) كان لموسى الهادى سبعة ذكور، وبنتان كلهم من أمهات أولاد.

(٣) الذخائر والتحف ١٨٢.



يقول الطبرى: قال يزيد مولى يحيى: بعثت الخيزران عاتكة - ظئرًا[1] كانت لهارون - إلى يحيى فشقت جيبها بين يديه، تبكى إليه، وتقول له: قالت لك السيدة: الله الله فى ابنى لا تقتله، ودعه يجيب أخاه إلى ما يسأله، ويريده منه فبقاؤه أحب إلى من الدنيا بجُمع ما فيها، فصاح بها وقال: وما أنت وهذا؟! إن يكن ما تقولين، فإنى وولدى وأهلى سنقتل قبله[2].

لقد تصور بعض المؤرخين أن الخيزران قد خطر لها خاطر فى هذه الظروف، وهو أن موت الهادى وتولية الرشيد سوف يرجعها لماضى عزها ومجدها السياسى الذى قضى عليه الهادى فى السنة التى تولاها، فما تكاد تسمع بشدة مرض ابنها حتى تبعث إلى يحيى البرمكى قيم الرشيد تُعلمه أن الهادى فى طريق النهاية، وتأمر يحيى بالاستعداد لما ينبغى، قال الطبرى: فأحضر يحيى الكُتَّابَ، وجمعوا فى منزل الفضل بن يحيى، فكتبوا ليلتهم كتبًا من الرشيد إلى العمال بوفاة الهادى، وأنهم قد ولاهم الرشيد ما كانوا يتولون، فلما مات الهادى، أنفذوها على البُرُد[3].

والغريب أن هناك روايات أظهرت الخيزران غير مبالية عند سماعها خبر ابنها الهادى.

فمثلاً رُوِىَ أن عجوز بنى العباس زينب بنت سليمان[4] قالت: لما مات موسى بعيساباذ أخبرتنا الخيزران الخبر ونحن أربع نسوة أنا وأختى وأم حسن وعائشة بنيات سليمان ومعنا ريطة[5] أم على، فجاءت خالصةُ فقالت لها: ما فعل الناس؟ قالت: يا سيدتى مات موسى ودفنوه. قالت: إن كان موسى مات فقد بقى هارون، هات لى سويقًا فجاءت بسويق فشربت وسقتنا... ثم قالت: ما فعل ابنى هارون؟ قالت: حلف ألا يصلى الظهر إلا فى بغداد، قالت: هاتوا الرحائل فما جلوسى ها هنا، وقد مضى؛ فلحقته ببغداد.

---

(١) مرضع.
(٢) تاريخ الطبرى ٨/ ٢١٠.
(٣) تاريخ الطبرى ٨/ ٢١٢.
(٤) زوج إبراهيم الإمام، عم المهدى.
(٥) بنت أبى العباس السفاح وأم سلمة المخزومية، كانت زوجًا للمهدى، وأم ابنيه علىٍّ وعبيد الله.

والرواية الثانية تروى أن الخيزران كانت قد حلفت ألا تكلم موسى الهادى وانتقلت عنه، فلما حضرته الوفاة وأتاها الرسول فأخبرها بذلك، قالت: ما أصنع به؟، فقالت لها خالصة[1]: قومى إلى ابنك أيتها الحرة، فليس هذا وقت تعتب ولا تغضب، فقالت: أعطونى ماءً للوضوء للصلاة[2].

وهذه الروايات كما نرى أظهرت الخيزران الغاضبة من ابنها بمظهر الثبات وقلة الجزع وبعدم المبالاة، ونحن لا نصدق ذلك فمن المؤكد أنها حزنت، وتأثرت بعد موت ابنها، وخاصة وهو فى سن الشباب، أما أن تكون فعلت غير ذلك، فهذا ما نستبعده تمامًا عن تلك الشخصية السوية العاقلة، وقد زادت إحدى الروايات أنها قالت عندما سمعت الخبر: أما إنا كنا نتحدث أنه يموت فى هذه الليلة خليفة، ويملك خليفة، ويولد خليفة. قال الراوى: فمات موسى، وملك هارون، وولد المأمون.

وقال الفضل راوى القصة: فحدثت بهذا الحديث، فقيل: فمن أين للخيزران هذا العلم؟، قال: إنها سمعت من الأوزاعى[3].

أيمكن أن نتصور أن الخيزران، وهى زوج خليفة تتلمذت على يد الإمام الأوزاعى ـ أيمكن أن نتصور أنها تقتل ابنها الشاب، أو تسخر عند سماعها خبر وفاته؟ ذلك ما لا سبيل إلى تصديقه.

وأخيرًا بعد سردنا أقوال بعض المؤرخين عن قتل الخيزران لابنها، لابد أن نحاول إنصافها، وإظهار الحقيقة التى ربما غابت عن كثيرين، وذلك من خلال روايات رويت عن المسعودى، والذهبى وابن تغرى بردى، وهى أقرب إلى التصديق، ففى الرواية الأولى قيل إنه مات إثر حادثة، وفى الثانية والثالثة إنه مات بعد مرض شديد، وربما كانت إحداها هى حقيقة ما حدث بعينه.

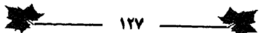
تقول الرواية الأولى التى رواها ابن حزم، قال: كان سبب موته أنه دفع نديمًا له فى جرف على أصول قصب قد قطع، فتعلق به النديم، فوقع معه، فدخلت قصبة فى دبره، فكان ذلك سبب موته، فهلكا جميعًا[4].

(١) جارية الخيزران، كانت الجارية الخاصة بالمنصور.

(٢) تاريخ الطبرى ٢١٢/٨.

(٣) تاريخ الطبرى ٢١٢/٨. الأوزاعى: توفى عام ١٥٧ للهجرة، كان رأسًا فى العلم والعمل جم المناقب، قيل: عالم الأمة، وأفضل أهل زمانه، دفن ببيروت، وهو من دمشق.

(٤) سير أعلام النبلاء ٤٤٢/٧.



والرواية الثانية ذكرها ابن تغرى بردى، قال: كان موت الهادى من قرحة أصابته[1].

أما الثالثة فقد أظهرت بنوة الهادى، وأمومة الخيزران رغم ما شاب هذه العلاقة من ضباب.

يقول الراوى: ومرض الهادى، وثقل فى العلة، فلم يجسر أحد من الناس على الدخول عليه إلا صغار الخدم، ثم أشار إليهم أن يحضروا الخيزران أمه، فصارت عند رأسه فقال لها: أنا هالك فى هذه الليلة، وفيها يلى أخى هارون، وأنت تعلمين ما قضى به أصل مولدى بالرى[2]، وقد كنت أمرتك بأشياء ونهيتك عن أخرى، مما أوجبته سياسة الملك، لا موجبات الشرع من برِّك، ولم أكن بك عاقًا، بل كنت لك صائنًا وبرًّا وواصلاً، ثم قضى قابضًا على يدها، واضعًا لها على صدره[3].

وبهذا المشهد المؤثر انتهت حياة موسى الهادى.

ولا مانع فى رأينا من الجمع بين الروايتين على أساس أن موسى الهادى أثر فيه الحادث المشار إليه، وألزمه فراش المرض حتى قضى نحبه، وبذلك نصدر حكمًا ببراءة الخيزران مما نسب إليها من قتل ولدها.

وبدأت مرحلة أخرى فى حياة السيدة الجليلة، سوف نتابعها من خلال أخبار الخلافة فى عهد ولدها هارون الرشيد ما بقى لها من حياتها.

* * *

(١) النجوم الزاهرة ٢/٦٤.

(٢) يذكرها برؤيا المهدى، والرى مكانها (طهران) عاصمة إيران اليوم.

(٣) مروج الذهب ٣/٣٤٣.



الخيزران فى خلافة الرشيد

تولى هارون الرشيد فى ١٨ من ربيع أول عام ١٧٠ للهجرة[١] (الموافق عام ٧٨٦ للميلاد)، وسنه اثنتان وعشرون سنة، فقد ولد أول المحرم[٢] عام ١٤٨ للهجرة (الموافق عام ٧٦٥ للميلاد).

وكان أول عمله هو إقالة وزير أخيه الهادى عمر بن بزيع، وإحضار يحيى بن خالد بن برمك، وتقليده الوزارة، فالعلاقة بين يحيى والرشيد قوية منذ مولد الثانى، فقد ولد الرشيد بعد الفضل بن يحيى بسبعة أيام.

قال الطبرى: فجعلت أم الفضل للرشيد ظئرًا، وهى زينب[٣] بنت منير، فأرضعت الرشيد بلبان الفضل، وأرضعت الخيزران الفضل بلبان الرشيد[٤].

وفى هذا يقول الشاعر مروان بن أبى حفصة[٥] مخاطبًا الفضل:

كــفــى لك فــخــرًا أن أكــرمَ حُــرَّةٍ

غَـذَتْـكَ بــثــدى والــخــلــيــفــةَ واحِـدِ

وصار يحيى بن برمك أبا الرشيد، ولا يناديه إلا بأبى، حتى ولاه الوزارة صباح توليته الخلافة، ودعاه قائلاً: قد قلدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنقى إليك، فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، واعزل من رأيت، وامض فى الأمور على ما ترى[٦].

(١) هناك طرفة ذكرها ابن العماد الحنبلى، قال: بويع للرشيد، ومن الاتفاق العجيب أن الرشيد سلم عليه بالخلافة عمه سليمان بن المنصور، وعم أبيه المهدى وهو العباس بن محمد، وعم جده المنصور وهو عبد الصمد بن على. (شذرات الذهب ١/ ٢٧٤).

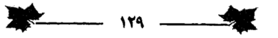
(٢) وقيل فى أول محرم عام ١٤٩ للهجرة، وهناك رواية قالت فى آخر ذى الحجة عام ١٤٥ للهجرة، والله أعلم.

(٣) وقيل زبيدة من مولدات المدينة.

(٤) تاريخ الطبرى ٨/ ٢٣٠.

(٥) شاعر عباسى، كان جده مولى لمروان بن الحكم، فأعتقه يوم الدار، وقيل كان جده يهوديًا أسلم على يد عثمان أو يد مروان، نشأ فى العصر الأموى، وعاش حتى مدح المهدى والرشيد، كان رسم بنى العباس أن يعطوه بكل بيت يمدحهم به ألف درهم، كان من أبخل الناس مع يساره، وقيل أخذ الشعر عن جده لأمه النابغة الجعدى. (الأعلام).

(٦) تاريخ الطبرى ٨/ ٢٣٠.



لم ينس الرشيد فضل يحيى، فهو يقول له: يا أبت أجلستنى فى هذا المجلس ببركتك، ويمنك وحسن تدبيرك، وقد قلدتك الأمر[١].

وسلمه خاتم الدولة على ألا يُتم أمرًا بدون رأى الخيزران، ولا يحكم حكمًا إلا بعد مشورتها، ولا يصدر قانونًا إلا بعد عرضه عليها.

قال ابن كثير: أمر هارون الرشيد يحيى بن خالد وزيره أن لا يقطع أمرًا إلا بمشورة والدته الخيزران، فكانت هى المشاورة فى الأمور كلها، فتُبرم وتحل وتمضى وتحكم[٢].

وقال ابن تغرى بردى: كان الهادى قد حجر على أمه الخيزران، فردها الرشيد إلى ما كانت عليه وزادها، فكان يحيى بن خالد يشاورها فى الأمور[٣].

وقد أرجع د. شلبى هذه المشاورة لتعظيم يحيى للخيزران واحترامه لها، قال: وكان يحيى يحظى بعطف الخيزران، وإقبالها عليه، وتحبيب ابنها الرشيد فيه، ومن أجل هذا كان يحيى يعرض عليها أمور الدولة، ويورد ويصدر من أمرها، فلما ماتت الخيزران استقل يحيى بالأمر، وأصبح يورد ويصدر عن رأيه[٤].

لقد كان يحيى والخيزران يتشاوران فى أمور الدولة، فلا يصدر أحدهما أمرًا دون إذن الآخر.

ذكر الجهشيارى أمرًا هامًا بعد تولى الرشيد اختلفت فيه وجهة نظر الخيزران ويحيى، ثم أقنعها يحيى برأيه فسارت عليه، قال: وأمرت الخيزران أن يقتل من كان تسرَّعَ إلى خلع الرشيد، ودعا إلى بيعة جعفر بن الهادى، فقال لها يحيى: أو خير من ذلك؟، قالت: ما هو؟، قال: يرمى بهم فى نحور الأعداء، فإن دفعوا عن أنفسهم كان لهم فى الدفع عنها شغل، وإن أصابهم العدو كنت قد استرحت منهم فأذنت له فى ذلك فخلص القوم جميعًا[٥].

(١) وفيات الأعيان ٢/٣١٧.
(٢) البداية والنهاية ١٠/١٦٠.
(٣) النجوم الزاهرة ٢/٦٥.
(٤) موسوعة التاريخ الإسلامى ٣/ ٢٩٠.
(٥) كتاب الوزراء والكتاب ١٧٨.

ومن الواضح أن الرشيد ـ بصرف النظر عن احترامه لأمه، وتقديره لرجاحة عقلها ـ قد وعى الدرس الذى تلقاه من حياة أخيه موسى، وتتابع الأحداث خلالها، ودور أمه الذى اختلفت فيه تقديرات المؤرخين وتفسيراتهم، فوضع الأمر حين تولى الخلافة فى يد أبيه من الرضاعة، حتى يضعف دور أمه فى إدارة شئون الخلافة، ثم سمح لها بدور استشارى؛ تقديرًا لها، وتقييدًا لحرية وزيره البرمكى، وبذلك يكون قد أراح نفسه من الصراع حول السلطة، وما يجره هذا الصراع من صداع، ثم وكل بقية التتابعات والنتائج إلى مرور الأيام، فلا شك أن الزمن جزء من العلاج، ولا سيما فى مثل هذه الظروف التى تبدو مستعصية، وكأنه جعل من كل منهما رقيبًا على تصرفات الآخر.

ولعل الخيزران فى هذا الوضع الجديد شعرت بأن يدها لم تعد مطلقة، ولا مباشرة للسلطة كما كانت الحال أيام زوجها المهدى وأول أيام ابنها الهادى، فاستدارت لتقوم بجملة من أعمال الخير التى ما زال التاريخ يذكرها، وكان ذلك اعتمادًا على ما تدره أملاكها من غلات ضخمة قدرها بعض المؤرخين بستة وستين مليونًا من الدراهم، وقدرها آخرون بمائة مليون درهم.

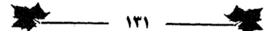
كانت تنفق أكثرها فى أبواب الخير، والبر، ومعونات الناس، وصدقات المحتاجين، ومساعدة الأرامل واليتامى والمرضى، وفى حفر بعض الأنهار لرى الناس، مثل: نهر المجدود قرب الأنبار فى الشمال الغربى من العراق.

ولم تنس الخيزران نفسها، وأناقتها، ومظهرها؛ فهى السيدة الأولى فى العالم الإسلامى آنذاك، فاشترت أغلى الملابس، وتحلت بأجمل الجواهر، وجعلت فى قصرها من مختلف الإماء والعبيد ما لا يحصى.

وقد ذكر المؤرخون مثلاً أن الخيزران لما ماتت وُجِدَ فى خزائنها من قراقر الوشى ثمانية عشر ألف قرقر[1].

* * *

(١) القرقر: من لباس المرأة.



حج الخيزران

وجاء عام ١٧١ للهجرة، فخرجت الخيزران من بغداد متجهة إلى الحج فى شهر رمضان، وأقامت بين مكة والمدينة توزع الصدقات، وتحفر الآبار، وتبنى المنازل للحجاج على طريق مكة والمدينة، كذلك تساعد المحتاجين من الحجاج أو السكان المقيمين فى مكة والمدينة وما حولهما، وتركت بعض الأعمال الخيرة فى مكة والمدينة منها: دار بمكة لاستقبال الحجاج الفقراء، والإنفاق عليهم بأوقاف جعلتها لهم.

قال ابن العماد: وإليها تنسب دار الخيزران بمكة(١).

كذلك قامت بعمل جليل آخر فى مكة ذكره صاحب العقد الثمين، قال: من مآثرها فى مكة أنها جعلت الموضع الذى ولد فيه النبى ﷺ مسجدًا، وأخرجته من دار محمد بن يوسف الثقفى أخى الحجاج بن يوسف الثقفى، وكان قد باعها له بعض ولد عقيل بن أبى طالب، لأن عقيلاً كان قد استولى على ذلك المكان لما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة(٢).

وبينما هى فى زيارة مقام رسول الله ﷺ سمعت رواية أعجبتها وتصرفت بسرعة تصرفًا يوحى بالكرم والبر والإيمان.

جاء فى كتاب التراتيب الإدارية: أتى سعد بن عبادة(٣) رسول الله ﷺ بصحفة أو جفنة مملوءة مخًّا، فقال: يا أبا ثابت ما هذا، قال: والذى بعثك بالحق، لقد نحرت أو ذبحت أربعين ذات كبد، فأحببت أن أشبعك من المخ، فأكل ودعا له النبى ﷺ بالخير.

قال إبراهيم بن حبيب: سمعت أن الخيزران حدثت بهذا الحديث، فقسمت قسمًا من مالها على ولد سعد بن عبادة، وقالت: أكافئ ولد سعد عن فعله برسول الله ﷺ(٤).

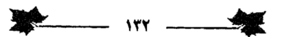
---

(١) شذرات الذهب ١/٢٦٥.

(٢) العقد الثمين ٨/٢١٤. وهذه الدار اليوم مكتبة عامة، وصارت داخل حدود الحرم الشريف، ولكنها مغلقة.

(٣) أنصارى من بنى ساعدة، من الخزرج، كان أحد السبعين أنصاريًا فى بيعة العقبة الثانية، كان ذا سيادة ورياسة وكرم، دعا له الرسول ﷺ مرة، وقال: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة. سار إلى الشام بعد موت الرسول ﷺ، وعاش فى حوران من دمشق، حتى توفى عام ١٥ للهجرة.

(٤) التراتيب الإدارية ٢/٤٢٢، ويا له من حب عميق لرسول الله ﷺ ملأ قلبها، وغمر حياتها – ما علمنا له نظيرًا فى دنيا الناس.



وعادت الخيزران إلى بغداد بعد أن أدت ما عليها من فرض فى الحج والصدقات التى أغدقتها على ذوى الحاجات من سكان الحرمين، وعاشت فى كنف ولدها أمير المؤمنين هارون الرشيد متخلية عما كان من صلاحياتها فى توجيه سياسة الرعية شيئًا فشيئًا، حتى توفاها الله فى ليلة الجمعة فى السابع والعشرين من جمادى الآخرة عام ١٧٣ للهجرة، وحزن عليها الرشيد حزنًا شديدًا، ومشى فى جنازتها حافيًا.

قال الطبرى: قال يحيى بن الحسن: رأيت الرشيد يوم ماتت الخيزران، وذلك فى سنة ثلاث وسبعين ومائة، وعليه جبة سعيدية وطيلسان خرق أزرق قد شد به وسطه، وهو آخذ بقائمة السرير حافيًا يعدو فى الطين، حتى أتى مقابر قريش[١] فغسل رجليه، ثم دعا بخف، وصلى عليها، ودخل قبرها[٢].

ولما خرج من قبرها تمثل بقول متمم بن نويرة[٣] فى أخيه عند موته، قال:

وكُنَّا كندمَانَى جَذِيمَة حقبة
من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأنِّى ومالكا
لطول اجتماعٍ لم نَبِتْ ليلةً معا

قال ابن تغرى بردى: ثم تصدق عليها بمال عظيم، ولم يغير على جواريها وحواشيها شيئًا مما كان لهم[٤].

إن صورة العلاقة بين الرشيد وأمه نادرة فى كل زمان، لقد سبق لنا أن تابعنا موقفه منها عقب توليه الخلافة، وها نحن أولاء نتابع مسيرته معها عقب وفاتها، فهو كما رأينا يحمل نعشها ويسير فى جنازتها حافيًا، يخوض الوحل، وهى صورة رائعة من خفض الجناح الذى أوصى الله به فى معاملة الوالدين،

---

(١) نسبت المقابر التى فى الجانب الشرقى من مقابر بغداد إلى الخيزران حيث دفنت بها، فيقال: مقابر الخيزران.
قال ابن خلكان: وهذه المقبرة أقدم المقابر بالجانب الشرقى. (وفيات الأعيان ٤/٢٧٧).
أما الحنبلى فقد قال: نسبت المقبرة إليها لأنها أقدم من دفن فيها. (شذرات الذهب ١/٢٣٠).
(٢) تاريخ الطبرى ٨/٢٣٨.
(٣) من قبيلة تميم، كان خالد بن الوليد قد قتل أخاه مالكًا فى حروب الردة عام ١١ للهجرة.
(٤) النجوم الزاهرة ٢/٧٣.



ثم إنه يكشف بعد ذلك عن منتهى الرعاية لجانبها، والالتزام بما يرضى خاطرها، فيدعو الفضل بن الربيع[1]، ويقول له: وحق المهدى - وكان لا يحلف به إلا إذا اجتهد - إنى لأهم لك من الليل بالشىء من التولية[2]، وغيرها فتمنعنى أمى فأطيع أمرها، فخذ الخاتم من جعفر[3].

إن الرشيد لم يستطع أن يتجاوز رأى أمه إلا بعد أن وُسدت التراب، ولم يعد يستطيع أن يستشيرها، وحينئذ فقط قال ما قال.

إن الخيزران لم تكن فى حياتها تتولى منصب أمير المؤمنين، ولكنها كانت فى الواقع أعلى بكثير من هذا المنصب، وما نظن أنها وهى فى بداية حياتها كانت تحلم بما تحقق لها، ولكن النفس ذات القوى الفائقة والمقومات العالية تستطيع أن تفعل الكثير، ولا سيما إذا كانت لأنموذج من تلك النماذج الخالدة من أمثال الخيزران بنت عطاء.

* * *

(١) صار وزير الرشيد بعد القضاء على البرامكة عام ١٨٧ للهجرة.
(٢) تولى الفضل نفقات العامة والخاصة، أى المسئولية المالية.
(٣) تاريخ الطبرى ٨/٢٣٨. ويقصد جعفر بن يحيى البرمكى.

٥

زبيدة
(زوج هارون الرشيد)



تمهيد

زبيدة بنت جعفر بن عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس، وجدها (عبد الله) لم يعرف بهذا الاسم، بل غلبت عليه كنيته (أبو جعفر المنصور)، كما غلب عليها لقب (زُبيدة)، ولم يعرف لدى العامة أن اسمها هو (أمة العزيز).

ويبدو أن اختيار هذا اللقب كان لوصفها.. وهى بَضَّة سمينة حلوة، وكان اختيار صيغة التصغير (زبيدة) تدليلاً لها، وهى تستأثر بعطف كل من حولها، بعد أن مات أبوها جعفر، ولما تكمل العام الأول من عمرها.

وإذا سرح الخيال إلى طفولة (زُبيدة) تخيلناها تلك (الدمية) التى تتخطفها أيدى أعضاء الأسرة العباسية، من رجال ونساء، يرقصونها، ويتغنون بخفة دمها (وطعامتها)، وهى رائحة زكية من أبيها الراحل، وهى فى نفس الوقت ريحانة فى حجر جدها أبى جعفر المنصور..

غير أن (زبيدة) المرأة والتاريخ كانت اسمًا على مسمى، ففيها من صفات (الزبد) دسمه، واكتنازه، ومذاقه، وطيبه، ومعناه.

وقد كانت (زبيدة) شخصية دسمة البناء، فى اعتدال ووثاقة ورشاقة، وكانت كنز القيم والأخلاق الأرستقراطية التى كانت عماد البيت العباسى، وكانت تمثال الجمال وإشعاعه وعبقه، حتى لقد فُتن بها ابنُ عمها هارون الرشيد، وكانت عنده أعلى قدرًا من أى شىء آخر، حتى الخلافة، وكان على وشك أن يتخلى عن حقه فى الخلافة فى مقابل أن يعيش مع (زبيدة) تحت سقف واحد، وحسبه من الدنيا نظرة من عينيها، وبسمة من شفتيها، ورشفة من عطرها ورضابها ورضاها، وعلى الدنيا وما فيها العفاء.

أية امرأة كانت هذه المرأة الساحرة الباهرة؟!

المرأة التى فرضت تأثيرها على عصرها، وأبقت أثرها على جبين كل العصور، فى أطهر بقعة من بقاع الأرض وأزكاها.



وإذا كانت (زبيدة) قد اصطدمت بمأساة ابنها ووحيدها (محمد الأمين)، فقد أبدت من متانة اليقين، وثبات الإيمان، والقدرة على تحمل البلاء الهائل ـ ما يعتبر مثلاً أعلى بين النساء، والرجال أيضًا.

إنها قصة تعرض بين سطورها (بانوراما) العصر العباسى، فى قمة ازدهاره، فقد جمع بين المتناقضات: الفرح والحزن، والسعادة والشقاوة، والأخوة والعداوة، والواقعية والمثالية، كل ذلك، وأكثر منه فى هذه القصة الرائعة التى تبرز لنا دورًا مهمًّا لامرأة وراء الأحداث.

* * *

زبيدة بنت جعفر

امرأة من أعظم نساء البيت العباسى، دينًا وخلقًا وفضلاً وفصاحة وعقلاً وتدبيرًا وحكمة وجمالاً وبهاءً ومكانة ورفعة، حتى إن صاحب المحبر عدَّد لها تسعة من الخلفاء كلهم محرم لها، قال: زوجها هارون الرشيد، وابنها الأمين، وابنا زوجها المأمون والمعتصم، وابنا ابن زوجها الواثق والمتوكل، وعمها المهدى، وجدها المنصور، وعم أبيها أبو العباس ـ السفاح[1].

ولدت زبيدة فى قصر أبيها فى الموصل حوالى عام ١٤٩ للهجرة، حيث كان أبوها جعفر واليًا على الموصل من عام ١٤٥ للهجرة، وهناك بنى قصره الكبير أسفل المدينة، وسماه: قصر حرب، عاش فيه مدة ولايته من قبل أبيه أبى جعفر المنصور، حتى توفى عام ١٥٠ للهجرة، فانتقلت الطفلة إلى حيث جدها الخليفة أبو جعفر الذى كفلها ورباها، وكان يحبها حبًّا جمًّا، وكثيرًا ما كان يداعبها ويرقصها، ولأنها كانت سمينة بيضاء لطيفة فقد لقبها (بزبيدة)، وبمرور الوقت اشتهرت بهذا اللقب، ونسى الاسم (أمة العزيز)، أما كنيتها فهى أم جعفر، وأم الواحد.

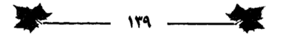
ولم تكن زبيدة ذات عراقة فى النسب من ناحية أبيها فقط، بل من ناحية جدتها أم أبيها أيضًا، التى كانت من بنات ملوك حمير من اليمن، فقد تزوج أبو جعفر المنصور أروى بنت منصور بن عبد الله الحميرى، وأنجب منها ولديه جعفرًا والد زبيدة، والمهدى والد الرشيد، وطالما مدح الشعراء زبيدة بعراقة نسبها العدنانى والقحطانى، فهذا أبو نواس[1] يشيد بذلك الأصل قائلاً:

وما مثلُ منصوريكِ منصورِ هاشمٍ
ومنصورِ قحطانٍ إذا عزَّ مفخرُ

---

(١) المحبر ٤٠٥.

(١) أبو نواس الحسن بن هانئ، شاعر عباسى، ولد بالبصرة عام ١٤٦ للهجرة، مدح بعض خلفاء بغداد، خرج إلى دمشق ومصر، وعاد إلى بغداد، وتوفى فيها عام ١٩٨ للهجرة، قال عنه الإمام الشافعى: لولا مجون أبى نواس لأخذت عنه العلم، وقال الجاحظ: ما رأيت رجلاً أعلم باللغة العربية ولا أصلح لهجة من أبى نواس. (الأعلام).



فَمن ذا الذى يَرمى بسهميك فى الورى

وعــبــدُ مــنــافٍ والــداكِ وحِــمــيَــرُ[1]

ويقول لها فى مكان آخر:

فــجــداك هــذا خــيــرُ قــحــطــان واحــدًا

وهـــذا إذا مـــا عُـــدَّ خـــيـــرُ نـــزارِ[2]

ولما مات المنصور[3] كفلها عمها المهدى ثالث خلفاء بنى العباس، حتى بلغت السادسة عشرة تقريبًا، فاختار لها المهدى ابنه هارون الرشيد[4] ليكون زوجًا لها.

وفى بغداد، وفى يوم من أيام عام ١٦٥ للهجرة، استعد الناس للزفاف العظيم الذى فاق الوصف والخيال، وقد شهدت بغداد - كما سنرى - خلال قرن ونصف من الزمان ثلاثَ حفلاتِ زفافٍ لم يشهدها العالم الإسلامى كله، مما أنفق فيها من مال وذهب وفضة وجواهر، ومما استعمل فيها من صندل وعنبر وزعفران، ومما استهلك فيها من فرش وملابس وزينة وطعام وشراب.

وكان أول هذه الحفلات: زفاف زبيدة عام ١٦٥ للهجرة (الموافق عام ٧٨١ للميلاد)، ثم زفاف بوران بنت الحسن بن سهل عام ٢١٠ للهجرة (الموافق ٨٢٥ للميلاد) إلى الخليفة المأمون، وثالثها زفاف قطر الندى بنت خمارويه، المصرية، إلى الخليفة المعتضد العباسى عام ٢٨١ للهجرة (الموافق ٨٩٦ للميلاد).

وحتى لا نطيل فى وصف (جهاز) زبيدة وحفل زفافها سوف ننقل بعض ما قاله القاضى رشيد بن الزبير فى وصف جزء من هذا الحفل، قال: ولما دخل الرشيد بالله بزوجته زبيدة أم جعفر بن أبى جعفر المنصور فى قصره المعروف بالخلد[5] ببغداد عام ١٦٥ للهجرة (٧٨١ للميلاد)، كان أبوه زوَّجه بها، وهى ابنة

(١) ديوان أبى نواس ٤٢٦.

(٢) المرجع السابق ٤٣٦.

(٣) توفى المنصور فى ٦ من ذى الحجة عام ١٥٨ للهجرة.

(٤) كان الرشيد من أعظم ملوك الزمان من عرب وعجم، قال عنه القلقشندى: هارون مالك الدنيا، كان يستلقى على ظهره، وينظر إلى السحابة المارة، ويقول: اذهبى حيث شئت، فسيأتينى خراجك (صبح الأعشى ١٢٧/٣).

(٥) قصر بناه المنصور على شاطئ دجلة عام ١٤٩ للهجرة (الموافق ٧٦٦ للميلاد).

أخيه وبنت عم هارون الرشيد ـ استعد لها ما لم يستعد لامرأة قبلها من الآلة وأصناف الجوهر والحلى والتيجان والإكليل وقباب الفضة والذهب والطيب والكسوة والخدم والوصائف، وأعطاها بدنة عبدة[1].

قال القاضى ابن الزبير: وحشر الناس من الآفاق، وفرّق فيهم من الأموال أمرًا عظيمًا، وكانت الدنانير والدراهم وأحقاق المسك، وجماجم العنبر[2]، وأحقاق الغالية المصنوعة من الزجاج، كُلٌّ ذلك يوزع على الناس، ويخلع عليهم خلع الوشى المنسوجة بالذهب، وأوقد بين يديه فى تلك الليلة شمع العنبر فى أتوار الذهب[3]، وأحضر نساء بنى هاشم جميعًا، وكان يدفع إلى كل واحدة منهن كيسًا فيه دنانير وكيسًا فيه دراهم، وصينية كبيرة فيها طيب، ويخلع عليها خلعة وشى مثقلة[4]، فلم يُرَ فى الإسلام مثلُه، وبلغت النفقة فى هذا العرس من بيت المال ـ سوى ما أنفق هارون من ماله الخاص ـ خمسين ألف ألف دينار[5].

وقيل دخل بها فى دار محمد بن سليمان[6] بن المنصور، التى صارت للعباسة[7] فيما بعد، ثم انتقل إلى قصره المسمى الخلد.

وأحب الرشيد زوجه زبيدة حبًا فاق الوصف، وهام بها هيامًا عظيمًا، واعتبرها هى كنزه فى الدنيا، فقد رأى فيها كل ما يسمو بها من خلق ورقة ودين ومعاملة حسنة وجمال تحدثت عنه العامة والخاصة، ومن شدة هذا الحب فضلها على كل شىء حتى مجرد تفكيره فى الخلافة والملك والسلطان.

---

(١) عبدة هى ابنة عبد الله بن يزيد بن معاوية، امرأة هشام بن عبد الملك، وهى البدنة اللؤلؤية الأموية كما كان يطلق عليها، التى لم ير مثلها ومثل الحب الذى كان فيها، ولا يعرف قيمتها عظمًا، وكان فى ظهرها وصدرها خطان من ياقوت أحمر، وباقيها من الدر الكبار الذى ليس له مثل (وقد ذكرنا رحلة هذه البدنة فى قصة أم سلمة المخزومية).

(٢) جماجم: جمع جمجمة، وهى القدح، أو الحق من الخشب.

(٣) جمع تور، وهو الموقد، وهو إناء كبير يصنع من نحاس أو حجارة، وشمع العنبر نوع من شمع العسل العنبرى.

(٤) بالجوهر واللؤلؤ.

(٥) التحف والذخائر ٩٢.

(٦) ابن عم الرشيد.

(٧) أخت الرشيد وزوج محمد بن سليمان.

قال د. أحمد شلبى: يروى الجهشيارى: كان الرشيد يحب زوجته زبيدة ويجد بها وجدًا شديدًا، وأنه لما عرض عليه الهادى أن يقطعه إقطاعًا كبيرًا على أن يخلع نفسه من ولاية العهد، قبلَ ذلك العرض، وقال: إذا نزلت على الهنىِّ والمرىِّ، وخلوت بابنة عمى، فما أريد شيئًا[1].

لكن يحيى البرمكى لم يوافقه على ترك ولاية العهد، وعندما قال: وأعيش مع ابنة عمى، قال يحيى: وأين هذا من الخلافة؟

لقد عاش الرشيد مع زبيدة قصة حب من أول يوم، وكلما شاب هذه القصة بعض الشوائب فإنهما لا يلبثان أن يسرعا بالعودة إلى عش الحب مرة ثانية.

فمثلاً روت كتب التاريخ قصة خلاف حدث بين الرشيد وزبيدة، كاد أن يؤدى إلى الفراق، فأقام الرشيد الدنيا ولم يقعدها، حتى اطمأن أنه لن يفارقها، وهذه القصة برواية مصعب الزبيرى، قال: خاصم الرشيد زوجته أم جعفر زبيدة، فقالت له: والله لا رأيت الجنة ولا دخلتها، فقال لها: إن لم أكن من أهل الجنة فأنت طالق ثلاثًا، فأشخص مالك بن أنس[2] من المدينة وسفيان بن عيينة[3] من مكة، وإسماعيل بن عباس[4] من حمص، والليث بن سعد[5] من مصر، وسألهم عن ذلك، فما أفتاه أحد منهم غير الليث بن سعد، فإنه قال له: يا أمير المؤمنين تصدُقنى عما أسألك عنه؟، قال: نعم، قال: هل تخاف مقام الله؟، قال: نعم، قال: فليست لك جنة واحدة، لك جنتان، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾، [الرحمن: ٥٥]، راجع زوجتك فلا حنث عليك، فأمر له بعشرة آلاف دينار، وأقطعه ضيعة بريف مصر تعرف بقرقشندة[6].

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى ٣/١٥٦.

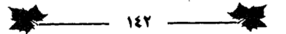
(٢) مالك بن أنس الحميرى، إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة، مولده عام ٩٣ للهجرة، ووفاته عام ١٧٩ للهجرة فى المدينة، صنف للمنصور كتابًا سماه الموطأ، يضع للناس كتابًا يحملهم على العمل به، له عدة كتب. (الأعلام).

(٣) سفيان بن عيينة الهلالى الكوفى، كان حافظًا ثقة، ولد عام ١٠٧ للهجرة، وتوفى عام ١٩٨ للميلاد، قال عنه الشافعى: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز، حج سبعين حجة. (الأعلام).

(٤) إسماعيل بن عباس العنسى، عالم الشام ومحدثها، ولد عام ١٠٦ للهجرة، وتوفى عام ١٨٢ للهجرة فى حمص.

(٥) إمام وفقيه مصرى، توفى عام ١٧٥ للهجرة عن ٨٢ سنة، مدفون بالقرب من الإمام الشافعى.

(٦) الذخائر والتحف ٢٢٤. وقرقشندة: قرية فى القليوبية، تعرف الآن بقلقشندة.



وقد زادت د. سعاد ماهر فى الرواية، فقالت: فأمر له بمكافأة قدرها خمسة آلاف دينار، فردها ـ الليث ـ زاهدًا فيها، وقال للخليفة: ادفعها لمن هو أحوج إليها منى[1].

وتغاضب الرشيد وزبيدة مرة أخرى، وتهاجرا، فقال شاعر أبياتًا كانت سببًا فى رضاهما.

يقول ابن خلكان: ووقع بين الرشيد وزبيدة شر، فعمل داود بن رزين مولى عبد القيس شعرًا وهو:

زمنٌ طيبٌ ويومٌ مَطيرُ ... هذه روضةٌ وهذا غديرُ

إنما أمُّ جعفرٍ جنةُ الخُلـ ... ـدِ رضاها، والسخطُ منها السعيرُ

أنتَ عبدٌ لها ومولى لهذا ... الخلق طرا وليس فى ذا نكيرُ

فاعتذِر يا خليفةَ الله فى الأر ... ض إليها وتَرْكُ ذاك كبيرُ

فصار إليها عندما وقف على الأبيات، وسألت عن سبب مجيئه، فعرفت، وأوصلت إلى داود مائة ألف درهم فى وقتها، وأضعافها بعد ذلك[2].

وكان سبب هذا الخلاف طرفة أوردها رضا كحالة، قال: كان الرشيد كثير الشغف (بدنانير[3]) فأكثر المسير إلى مولاها يحيى البرمكى، فكان يقيم عندها ويبرها ويفرط، فوهب لها هبات سنية، منها أنه وهب لها فى ليلة عيد عقدًا قيمته ثلاثون ألف دينار، فلما علمت أم جعفر زبيدة خبره معها، شكته إلى أهله وعمومته، فصاروا جميعًا إليه، فعاتبوه، فقال: ما لى فى هذه الجارية من أرب فى نفسها، وإنما أربى فى غنائها، فاسمعوها، فإن استحقت أن يؤلف غناؤها، وإلا فقولوا ما شئتم.

---

(١) مساجد مصر ٢/ ٢١٤.

(٢) وفيات الأعيان ١/٣١٥.

(٣) مغنية كانت لجعفر بن يحيى البرمكى.



فأقاموا عنده، ونقلهم يحيى حتى سمعوها عنده، فعذروه، وعادوا إلى أم جعفر، فأشاروا عليها أن لا تَلُومَ فى أمرها، فقبلت ذلك، وأهدت إلى الرشيد عشر جوار، منهن: مارية أم المعتصم، ومراجل أم المأمون، وماردة أم صالح[1].

ولم يكن هذا الحب من طرف الرشيد فقط، إنما كانت زبيدة تبادله نفس المشاعر، وطالما تحرت عما يعجبه، فتقدمه له، وما يغضبه فتبعده عنه.

ذكر ابن تغرى بردى رواية تبين مدى تعلقها به، قال: قال الرشيد للمفضل[2]: أخبرنى عن أحسن ما قالت العرب فى الذئب، ولك هذا الخاتم، وشراؤه ألف وستمائة دينار، فقال: أحسنُ ما قيل:

ينامُ بإحدى مقلتيهِ ويتَّقى

بأخرى المنايا فهو يَقظانُ نائمُ[3]

فقال الرشيد: ما ألقى الله هذا على لسانك إلا لذهاب الخاتم، ورمى به إليه.

فبلغ زبيدة فبعثت إلى المفضل بألف وستمائة دينار، وأخذت الخاتم، وبعثت به إلى الرشيد، وقالت: كنت أراك تعجب به، فألقاه إلى المفضل ثانيًا، وقال له: خذه، وخذ الدنانير، ما كنت لأهب شيئًا، وأرجع فيه[4].

وتأخرت زبيدة فى حملها، فلم يفكر الرشيد حتى فى أن يعرس بحرة أو بجارية سواها، حتى مرّت زُهَاءُ أربع سنين، وبدأ الرشيد فى السؤال والاستفسار.

قال المسعودى: كانت أم جعفر لا تعلق بالرشيد، فشاور بعض مجالسيه من الحكماء، وشكا ذلك إليه، فأشار عليه بأن يُغِيرَهَا، فإن إبراهيم عليه السلام كانت عنده سارة، فلم تعلق منه، فلما وهبت له هاجر علقت منه بإسماعيل، فغارت سارة عند ذلك، فعلقت بإسحق[5].

---

(١) أعلام النساء ١/٤١٧.

(٢) المفضل الضبى، راوية وعلامة بالشعر والأدب وأيام العرب، لزم المهدى، وصنف له كتابه (المفضليات) وهو ١٢٨ قصيدة مختارة، توفى عام ١٦٨ للهجرة. (الأعلام).

(٣) قائله الفرزدق، الشاعر الأموى.

(٤) النجوم الزاهرة ٢/٦٩.

(٥) مروج الذهب ٣/٤٠٠.



وأسرع الرشيد إلى الجوارى فاختار منهن واحدة أعجبته اسمها (مراجل[1])، وتعمل فى مطبخ القصر، أصلها من (بادغيستان[2])، وما إن دخل بها حتى حملت بوليد، وسمعت زبيدة بذلك، وكانت مشيئة الله فغارت كما غارت من قبل سارة زوج إبراهيم.

وولد للرشيد ولدان فى سنة واحدة، الأول: عبد الله المأمون ولد فى منتصف ربيع الأول عام ١٧٠ للهجرة (الموافق شهر سبتمبر عام ٧٨٦ للميلاد) فى نفس اليوم الذى توفى فيه عمه الهادى، وتولى الرشيد الخلافة، أما مراجل أمه فقد توفيت فى نفاسها، والثانى: محمد الأمين، ولد فى شوال من نفس العام (الموافق شهر أبريل عام ٧٨٧ للميلاد) بعد أخيه بستة أشهر، وأمه سيدة القصر الهاشمية العباسية زبيدة بنت جعفر.

لقد كانت ولادةُ ابن زبيدة فرحةً على العامة والخاصة، ولا سيما الشعراء الذين كانوا يتقربون إلى زبيدة بقصائد فى مدح محمد الوليد، ثم الطفل، وخاصة عندما أعلن وهو فى الثالثة أنه سيكون وليًا للعهد قبل أخيه المأمون الذى لم يشعر به أحد من يوم مولده ووفاة أمه فى نفاسها حتى كبر، لقد تسابق الشعراء لنيل رضا زبيدة وهارون بمدحهم ولى العهد المنتظر.

قال مروان بن أبى حفصة[3] مادحًا زبيدة وابنها:

لله درك يا عقيلةَ جعفرِ
ماذا ولدت من الندى والسؤددِ

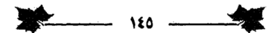
إنَّ الخلافةَ قد تبيَّنَ نورُها
للناظرينَ على جبينِ محمَّدِ

إنى لأعلَمُ أنه لخليفةٌ
إن بيعةٌ عُقِدت وإنْ لم تُعقَدِ

فأمر له هارون بثلاثة آلاف دينار، وأمرت زبيدة أن يُحشى فوه جوهرًا، فكانت قيمته عشرة آلاف دينار[4].

---

(١) الرواية السابقة تقول إنها من جوارى زبيدة، والله أعلم.
(٢) من ولايات خراسان، وهى الآن غرب أفغانستان.
(٣) شاعر عباسى، كان جده مولى لمروان بن الحكم، أعتقه يوم الدار، ولد عام ١٠٥ للهجرة، وتوفى عام ١٨٢ للهجرة، مدح المهدى والرشيد، وكان رسم بنى العباس أن يعطوه بكل بيت يمدحهم به ألف درهم. (الأعلام).
(٤) وفيات الأعيان ٢/٣١٢.



ثم قال شاعر آخر هو: أبو الهذيل مادحًا الطفل محمدًا:

مَلِكٌ أبوهُ وأمُّه من نبعةٍ[1]

منها سراجُ الأمة الوهَّاجُ

شَرِبَتْ بمكةَ من ذرى بطحائها

ماءَ النبوةِ ليسَ فيه مزاجُ[2]

وقال سلم الخاسر بعد مبايعته وهو فى الثالثة:

قد بايع الثقلانِ فى مهد الهدى

لمحمَّدِ بن زبيدةَ ابنةِ جعفرِ[3]

نشأ محمد الأمين فى قصور آبائه، وفى كنف أمه التى كل همها توصيله إلى عرش الخلافة، ومع ذلك كانت تعامله بكل عطف ورفق ورحمة ورأفة، حتى إنها استاءت عندما سمعت أن معلمه يغلظ عليه، ويعنفه.

قال رضا كحالة: بعثت زبيدة خالصة[4] جاريتها إلى الكسائى[5] مؤدب ولدها الأمين، وكان شديدًا عليه، فقالت الجارية: يا كسائى، إن السيدة تقرأ عليك السلام، وتقول لك حاجتى أن ترفق بابنى محمد، فإنه ثمرة فؤادى، وقرة عينى، وأنا أرِقُّ عليه رقةً شديدة، فقال الكسائى لخالصة: إن محمدًا مرشح للخلافة بعد أبيه، فلا يجوز التقصير فى تأديبه[6].

ومن الواضح أن الأمين كان يُعامَلُ بطريقتين مختلفتين، طريقة الأم التى كانت تُدَلِّله، وتخشى عليه من خطرات النسيم، وتوصى مؤدبه وشيخه أن يعامله بالرقة اللازمة لأمثاله، وطريقة الأب الذى كان يوصى هذا المؤدب بأن يقوِّم من

(١) النبعة: الشجرة الضخمة.

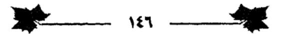
(٢) مروج الذهب ٣/ ٤٠٥.

(٣) تاريخ الطبرى ٨/ ٢٤٠.

(٤) كانت الجارية الخاصة للخليفة المهدى، ثم انتقلت إلى زوجه الخيزران، ولما ماتت، صارت إلى زبيدة زوج الرشيد.

(٥) الكسائى على بن حمزة الأسدى بالولاء، الكوفى المولد، أصله فارسى، إمام فى اللغة والنحو والقراءة، مؤدب الرشيد وابنيه الأمين، والمأمون قال الجاحظ: كان أثيرًا عند الخليفة حتى أخرجه من طبقة المؤدبين إلى طبقة الجلساء والمؤانسين، له تصانيف، توفى عام ١٨٩ للهجرة. (الأعلام).

(٦) أعلام النساء ٢/ ٢٠.



عوجه، ويهذب من سلوكه، ويأخذه بالواجب فى تربية أمثاله، لقد وضح الرشيد للكسائى الطريقة المثلى فى التأديب والتعليم، ومن هذه الوصية قوله: يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصيِّر يدك عليه مبسوطة، وطاعتك عليه واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين... وامنعه الضحك إلا فى أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا إليه... وقوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإنْ أباهما فَعليكَ بالشدة والغلظة[1].

وليس أضر على غلام فى مثل سن الأمين آنذاك من أن تتضارب توجيهات الأبوين، وتتناقض بمرأى ومسمع من الغلام، فإذا أضفنا إلى ذلك ما يكون فى قصور الخلافة من إجلال وتقديس فى نفوس الخدم والحشم لذلك الصبى النابت ـ اجتمعت حينئذ عليه كل عوامل الفشل التربوى، فإن الصبى حينئذ يميل إلى الجهة التى تطلب له اللين والرقة، ويرفض كل توجيهات الانضباط والخشونة اللائقة بمن سيتحمل مسئولية الدولة بعد أبيه.

لقد كان الأمين بعكس أخيه المأمون، الذى نال من توجيهات المؤدبين ما قوَّم سلوكه، دون أن تكون له أم تدلِّله وتفسده.

* * *

(١) مروج الذهب ٣/٣٦٢.

ولاية العهد

كبر الأمين والمأمون، وتبعهما أولاد[1] كُثرٌ من أمهات أولاد شتى، فقد تزوج الرشيد من ثلاث نساءٍ حرائر، وتسرى بأكثر من عشرين جارية، وعدد أولاده الذكور كما جاء فى الطبرى ـ اثنا عشر ذكرًا، والبنات: أربع عشرة.

وقد تولى الخلافة من بعده ثلاثة من أبنائه: الأمين فالمأمون فالمعتصم، وبقيت الخلافة فى نسل المعتصم حتى نهاية الدولة العباسية عام ٦٥٦ للهجرة.

تلفت الرشيد حوله وتتبع حال الإسلام والخلافة منذ انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى حتى زمانه، واعتلجت فى ذهنه الهواجس، وفكر فى حال المسلمين من بعده، وأسر يومًا إلى سميره الأصمعى[2] بما يدور بخلده.

قال الأصمعى: بينما كنت أسامر الرشيد ذات يوم، إذ رأيته قد قلق قلقًا شديدًا، فكان يقعد مرة، ويضطجع مرة، ويبكى أخرى، ثم أنشأ يقول:

قَلِّد أمورَ عبادِ الله ذا ثقةٍ

مُوحَّدَ الرأيِ لا نِكْسٌ ولا بَرِمُ

واترُك مقالةَ أقوامٍ ذوى خَطَلٍ

لا يفهمونَ إذا ما معشرٌ فهِموا

---

(١) هناك روايات تذكر أن ابنًا بكرًا لهارون اسمه أحمد، أخذته أمه بائعة الفخار، وربته بعيدًا عن القصر، ولم يعرف عنه شىء بعد ذلك.

وتقول رواية أخرى إنه تفقه فى الدين، وتصوف وتزهد، وربما كانت زبيدة هى سبب انقطاع هذا الابن وأمه عن بيت الخلافة.

وقالت رواية أخرى عنه: فى عام ١٨٤ للهجرة توفى أحمد ابن الخليفة الرشيد، وكان زاهدًا متنسكًا، لا يأكل إلا من عمل يده فى صناعة البناء، ولا يملك إلا مجرفة وزنبيلا. (حوليات الإسلام ٢٠٥).

(٢) الأصمعى عبد الله بن قريب بن على الباهلى، راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعراء والبلغاء، ولد عام ١٢٢ للهجرة بالبصرة، ومات بها عام ٢١٦ للهجرة، كان كثير التطواف بالبوادى، أخباره كثيرة، كان الرشيد يسميه شيطان الشعر، واعتبره نديمه وسميره، له تصانيف عديدة منها (الأصمعيات)، جمع فيها القصائد التى تفرد هو بروايتها.

فلما سمعت ذلك علمت أنه يريد أمرًا عظيمًا، ثم قال لمسرور الخادم: عليَّ بيحيى[1]، فما لبث أن أتاه، فقال: يا أبا الفضل، إن رسول الله ﷺ مات فى غير وصية، والإسلام جذع[2] والإيمان جديد، وكلمة العرب مجتمعة، أمنها الله بعد الخوف، وأعزها بعد الذل، فما لبث أن ارتد عامة العرب على أبى بكر، وكان من خبره ما قد علمت، ثم إن أبا بكر صيَّر الأمر إلى عمر، فسلَّمت الأمة له، ورضيت بخلافته، ثم صيَّرها عمر شورى، فكان بعده ما قد بلغك من الفتن، حتى صارت إلى غير أهلها، وقد عنيت بتصحيح هذا العهد، وتصييره إلى من أرضَى سيرته، وأثقُ بحسن سياسته، وآمن ضعفه ووهنه[3].

ويتضح من ذلك اقتناع هارون بطريقة أبى بكر فى عهده لمن يخلفه بالتعيين، دون الطريقة الأخرى التى اختارها عمر، غير أن الشق الآخر من موقف أبى بكر، وهو أنه لم يعهد إلى ابن من أبنائه، فقد كان لا يرى أن الخلافة إرث ينحصر فى العصبية العرقية، فاختار الأصلح لها، والأقدر على حمل مسئوليتها باختيار عمر.

أما هارون فقد شغل بولاية العهد، وبمن سيخلفه فى إمرة المسلمين، ولكنه كان مقيدًا بفكرة توريث الخلافة، على نحو ما سن فيها آباؤه وأجداده، بل على نحو ما سن للمسلمين معاوية مؤسس الملك العضوض، بعد الخلافة الراشدة، وبعد لأى انحصر اختيار هارون فى اثنين من أولاده، الأول: الأمين الهاشمى ابن الهاشمية[4]، والثانى المأمون ابن الجارية.

ولكن نظرته لكل منهما كانت سبب حيرته، ومحاولته مشاورة أهل الرأى، من أمثال: الأصمعى، ويحيى الوزير ثم مشاورة زوجه زبيدة بعد ذلك.

إن هناك اعتبارات كثيرة يضعها أمامه عند الاختيار، أولها: أن بنى هاشم مع الأمين قلبًا وقالبًا، مع ما به من صفات تقلل من كفاءته باعتباره خليفة ومسئولاً، كانقياده لهواه وعبثه ولعبه وتبذيره، وخفة تصرفاته الرعناء التى اشتهر بها.

---

(١) يحيى بن خالد البرمكى، كان وزيره.

(٢) الجذع: القوى الجديد الفتىّ.

(٣) مروج الذهب ٣/٣٦٣.

(٤) لم يتول هاشمى ابن هاشمية خلافة المسلمين إلا على بن أبى طالب، والأمين بن الرشيد.

أما المأمون فتبدو عليه أمارات النجابة والذكاء والعقل الرزين، حتى إن الرشيد كثيرًا ما كان يقول: إنى لأتعرف فى عبد الله حزم المنصور، ونسك المهدى، وعزة نفس الهادى، ولذلك كان يؤثره، فهو مقتنع به قلبًا وعقلاً، لولاية العهد؛ لأنه جمع كل الصفات المحمودة التى اتصف بها أسلافه من أئمة العباسيين وقادتهم، لكن الرشيد كان فى حيرة، فكثيرًا ما كان يقول: فإن مِلتُ إلى عبد الله أسخطت بنى هاشم، وإن أفردت محمدًا بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية.

حيرة انتابت الرشيد تبعتها مشاورات مع كبار القوم، وأخيرًا استقر على أن يقسم بين ولديه البلاد فى حياته قبل ولاية العهد، فجعل لمحمد مصر والشام والجزيرة العربية والعراق، ولعبد الله الشرق كله بما فيه من مشاغبات ومشاحنات وحروب.

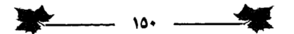
ولم يعجب هذا التقسيم زبيدة، وقالت له: ما أنصفتَ ابنك محمدًا، حيث وليته العراق، وأعريته من العدد والقواد، وصيرت ذلك إلى عبد الله دونه، فقال لها: ما أنت وتمييز الأعمال، واختيار الرجال؟ إنى وليت ابنك السلم وعبد الله الحرب، وصاحب الحرب أحوج إلى الرجال من المسالم، ومع هذا فإنا نتخوف ابنك على عبد الله، ولا نتخوف عبد الله على ابنك إن بويع[1].

وكأن زبيدة كانت تتقلد بتصرفات حماتها الخيزران، وما دأبت عليه من تدخل فى شئون الدولة، وفى اختيار رجال السلطة.

ولكن الرشيد الذى عاش تجربة أمه الخيزران، ومازال يذكر مشكلاتها مع أخيه الهادى - صدها عن هذا التدخل، وسكتت زبيدة، ولكن إلى حين، فلما سمعت أن نفس الرشيد تراوده فى مبايعة عبد الله لولاية العهد - فهو دائمًا يذكر المأمون ويقرظ أفعاله - تحركت وخاصة حين تأكدت أن تفكير الرشيد صار عزمًا، وأعلنت رغبته فى تقديم المأمون على ابنها، واغتمت غمًّا عظيمًا، ودخلت عليه تعاتبه أشد المعاتبة، وتؤاخذه أعنف المؤاخذة، فرد عليها الرشيد ردًّا أفحمها، قال: ويحك، إنما هى أمة محمد، ورعاية من استرعانى الله تعالى مطوقًا بعنقى، وقد عرفت ما بين ابنى وابنك، ليس ابنكِ يا زبيدة أهلاً للخلافة، ولا يصلح للرعية.

---

(١) من الطريف أنه بايع للرشيد رجال كبار من أهله، يقول ابن عماد الحنبلى: سلم على الرشيد بالخلافة عمه سليمان بن المنصور، وعم أبيه المهدى وهو العباس بن محمد، وعم جده المنصور وهو عبد الصمد ابن على. (شذرات الذهب ١/ ٢٧٤).



قالت: ابنى والله خير من ابنك، وأصلح لما تريد. وأخذت تمدح ابنها، وتقول: وهو أسخى من ابنك نفسًا، وأشجع قلبًا، فقال هارون: ويحك، إن ابنك قد زينه فى عينيك ما يزين الولد فى عين الأبوين، فاتقى الله، فوالله إن ابنك لأحبّ إلىّ، إلا أنها الخلافة لا تصلح إلا لمن كان لها أهلاً، ولها مستحقًا، ونحن مسئولون عن هذا الخلق، ومأخوذون بهذا الأنام، فما أغنانا أن نلقى الله بوزرهم، وننقلب إليه بإثمهم.

ولما أحست أنها لن تستطيع أن تثنيه عن عزمه، ذهبت إلى أخيها عيسى بن جعفر، وأطلعته على أمر الأمين، ورغبتها فى توليته، وفكرا سويًا فى المشكلة، واهتديا إلى حل.

أسرع عيسى إلى أخى الرشيد فى الرضاعة الفضل بن يحيى البرمكى، وقال له: أنشدك الله لما عملت فى بيعة لابن أختى - محمد - فإنه ولدك، وخلافته لك. فوعده أن يفعل، واقتنع الفضل بولاية الأمين.

لقد فكر فى مصلحته هو، وخيره هو، فوقوفه مع الأمين يجعله يأمن جانب بنى هاشم، ومعهم أم الأمين زبيدة، ومع أن الفضل فارسى، والمأمون فارسى الأم، إلا أنه سيضمن للمأمون الخلافة بعد الأمين، فيكون هو الرابح أولاً وأخيرًا.

وسعى لدى الرشيد حتى وافق موافقة مبدئية، فالأمين مازال صغيرًا، وأكثر الناس لا يعجبهم ذلك الاختيار.

قال الطبرى: فلما بايع الرشيد له أنكر بنو العباس البيعة؛ لصغر سن الأمين[1]، وذلك عام ١٧٥ للهجرة (الموافق عام ٧٩١ للميلاد).

وشاع الخبر فى الناس، وانتشر، وعلم الناس بتفكير الرشيد فى هذه التولية، ولأن ولى العهد صغير، فقد أثار ذلك الجند وعلية القوم، فما كان هناك شيء يسكتهم إلا المال والنفقات.

قال ابن تغرى بردى: فى عام ١٧٥ للهجرة، عقد الرشيد البيعة بالخلافة من بعده لابنه محمد بن زبيدة، ولقب بالأمين، وعمره خمس سنين، وكانت أمه زبيدة حرضت الرشيد، وأرضوا الجند بأموال عظيمة، حتى سكتوا[2].

(١) الطبرى ٨/ ٢٤٠. كان عمر الأمين آنذاك خمس سنوات.

(٢) النجوم الزاهرة ٢/ ١٨١.

ومع ذلك لم يسترح الرشيد، وكان دائم القلق، غير مستقر لإحساسه بعدم أهلية الأمين، ولكن زبيدة لم تتركه، فإلحاحها ورجاؤها استمرا سنين طويلة، حتى بلغ الصبيان سن السادسة عشرة تقريبًا، وظهرت شخصية كل منهما، وأراد الرشيد يومًا أن يكشف لزبيدة حال ابنها وابن ضرتها، وقال لها: اقعدى حتى أعرض عليك ما بين ابنى وابنك، فقعدت معه على الفراش، ودعا ولديه المرشحين محمدًا وعبد الله كلاً على حدة ليريها ويسمعها كل واحد منهما، حتى تحكم بنفسها من يستحق ولاية العهد عن جدارة.

قال رضا كحالة: ودخل عبد الله المأمون أولاً، فلما صار بباب المجلس سلم على أبيه بالخلافة، ووقف طويلاً وقد طأطأ برأسه وأَغَضَّ ببصره ينتظر الإذن، حتى كادت قدماه ترمان[1]، ثم أذن له بالجلوس، فجلس، فاستأذن بالكلام، فأذن له، فتكلم، فحمد الله على ما منّ به عليه من رؤيه أبيه، ورغب إليه فى تعجيل الفرج مما به، ثم استأذن فى الدنو من أبيه، فدنا منه، وجعل يلثم أسافل قدميه، ويقبل باطن راحتيه، ثم انثنى ساعيًا إلى زبيدة، فأقبل على تقبيل رأسها، ومواضع ثدييها، ثم انحنى على قدميها. ثم رجع إلى مجلسه، فحمد الله إليها فيما منّ به عليها من رضا أبيه عنها، وحسن رأيه فيها، ويسأله تعالى العون لها على بره، وأداء المفروض عليها من حقه..

فقال الرشيد: يا بنى، إنى أريد أن أعهد إليك عهد الإمامة، وأقعدك مقعد الخلافة، فإنى قد رأيتك لها أهلاً، وبها حقيقًا.

فاستعبر عبد الله المأمون باكيًا، وصاح منتحبًا يسأل الله العافية من ذلك، ويرغب إليه أن لا يريه فقد أبيه، فقال له: يا بنى إنى أرانى لما بى، وأنت أحق، وسلم الأمر لله وارض به، واسأله العون عليه، فلابد من عهدى يكون فى يومى هذا.

فقال عبد الله المأمون: يا أبتاه، أخى أحق منى، وابن سيدتى، ولا إخال إلا أنه أقوى على هذا الأمر منى، وأشد استطلاعًا، عرض الله لك ما فيه الرشاد والخلاص وللعباد الخير والصلاح. ثم أذن له فقام خارجًا.

(١) فى الأصل ترم.



ثم دعا هارون بابنه محمد الأمين، فأقبل يجر ذيله، ويتبختر فى مشيته، فمشى داخلاً بنعله، قد أنسى السلام، وذهل عن الكلام نخوة وتجبرًا وتعظمًا وإعجابًا، فمشى حتى صار مستويًا مع أبيه على الفراش.

فقال هارون: ما تقول أى بنى، فإنى أريد أن أعهد إليك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، ومن أحق بذلك منى، وأنا أسن ولدك وابن قرة عينك؟ فقال هارون: اخرج يا بنى.

ثم قال لزبيدة: كيف رأيت ما بين ابنى وابنك؟، فقالت: يا أمير المؤمنين، ابنك أحق بما تريد، وأولى بما لديك، فقال هارون: فإذ أقررت بالحق، وأنصفت ما رأيت، فأنا أعهد إلى ابنى ثم إلى ابنك من بعد[1].

ورضيت زبيدة بما عزم عليه الرشيد، ولكن حبها الشديد لابنها جعلها تعلن رغبتها فى تولية الأمين، وعاودت الإلحاح، حتى استقر أمر الرشيد، وجعل ولاية العهد لابنه الهاشمى الأبوين (الأمين)، ثم لابنه المأمون من بعده، وكان الإعلان النهائى فى آخر عام ١٨٦ للهجرة (الموافق عام ٨٠٢ للميلاد).

وفى موسم الحج عام ١٨٦ للهجرة، اجتمع الخليفة هارون الرشيد، وابناه محمد وعبد الله مع القواد والوزراء والقضاة، وقضوا مناسكهم، ووزعوا أعطياتهم بسخاء فى كل من مكة والمدينة حتى قيل قد بلغت هذه الأعطيات ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار.

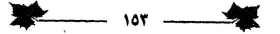
ثم كتبوا ثلاثة كتب، علق اثنان منها داخل الكعبة، أحدها خاص بالأمين، وما اشترط عليه من الوفاء بما فيه من تسليم ولى العهد التالى عبد الله من الأعمال، وأن يصيّر إليه من الضياع والغلاّت والجواهر والأموال الخاصة به.

والثانى نسخة البيعة التى أخذها هارون على الخاصة والعامة والشروط لعبد الله على محمد.

أما الكتاب الثالث فمن هارون الرشيد إلى عماله فى جميع الأمصار بما استقر عليه أمر البيعة، وكان ذلك بعد أن قسم العالم الإسلامى عليهما ـ كما عرفنا ـ فى حياته.

---

(١) أعلام النساء ٢/١٩.



وكتب الأميران البيعتين بخطوط أيديهما، وبمحضر ممن شهد الموسم من أهل بيت الخليفة والقواد والقضاة وحَجَبَةِ الكعبة، وعلق الكتابان داخل الكعبة فى يوم السبت ٢٣ من المحرم عام ١٨٧ للهجرة (الموافق ٢٢ من يناير عام ٨٠٣ للميلاد)، وقد زادت بعض الروايات: أنه جعل وليًا للعهد ثالثًا هو المؤتمن.

وكان من بنود العهدين أن الغادر منهما خارج من الأمر، وأيهما غدر بصاحبه، فالخلافة للمغدور به، وكأنما كان الرشيد يحدس بما يدور فى نفس ابنه الأمين من غدر بأخيه، وبعد الأيمان داخل الكعبة.

فهذا الجهشيارى فى كتابه (الوزراء) يروى حوارًا هامسًا على باب الكعبة بعد أن تمت المبايعة، وتليت نصوصها وأشراطها، ووقع الشهود عليها، وعلقت على حائط الكعبة من الداخل، يحكى الفضل بن الربيع أن محمدًا (الأمين) قال عند خروجه من بيت الله: يا أبا العباس، هو ما أجد من نفسى أن أمرى لا يتم، فقال له: ولم ذاك، أعز الله الأمير؟ قال: لأنى كنت أحلف وأنا أنوى الغدر، قال له الفضل: سبحان الله!! أفى هذا الموضع؟ فقال الأمين: هو ما قلت لك[١].

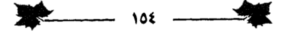
وربما سمع هذا الحوار الهامس جعفر بن يحيى البرمكى أو سمعه غيره من الحاضرين، ونقله إليه، ولذا لم يسكت جعفر، وإنما أسرع وراء محمد وهو خارج من باب الكعبة، وقال له: فإن غدرت بأخيك، خذلك الله. ثم كرر عليه ذلك ثلاثًا.

قال المسعودى: وبهذا السبب اضطغنت أم جعفر على جعفر بن يحيى، فكانت أحد من حرّض الرشيد على أمره، وبعثته على ما نزل به[٢].

وما دمنا قد ذكرنا البرمكى والبرامكة، فليست هذه الواقعة وحدها التى أحنقت صدر زبيدة على البرامكة، فزبيدة لا تنسى الحوار الذى دار بين الرشيد ويحيى: كان الرشيد قد طاب نفسًا بالخلع ـ من الخلافة ـ فقال له يحيى: لا تفعل، فقال: أليس يترك لى الهنىء والمرىء، فهما يسعاننى، وأعيش مع ابنة عمى، وكان هارون يجد[٣] بأم جعفر وجدًا شديدًا، فقال له يحيى ـ فى حياة الهادى ـ: أين هذا من الخلافة؟[٤].

---

(١) كتاب الوزراء ٢٩٢.
(٢) مروج الذهب ٣/ ٣٦٤، اضطغنت: حقدت.
(٣) يحبها ويهيم بها.
(٤) الطبرى ٨/ ٢٠٨.



وكأنها كانت ترى نفسها أغلى من الخلافة!!

وقد زاد هذه العلاقة توترًا، عندما صار هارون خليفة، وأعطى يحيى مقاليد الأمور، فكان يتصرف معها تصرفًا غير لائق بها، فهى ربة القصر، وزوج الخليفة، والسيدة الأولى، فقد كان يحيى يأمر بقفل أبواب الحريم بالليل، ويمضى بالمفاتيح إلى منزله، وشكته إلى الرشيد، ولكن الرشيد لم يزد عن ذكر هذه الشكاية أمام يحيى على سبيل الإخبار فقط.

وسوف نفصل أمر هذه العلاقة، وما آل إليه حال البرامكة فى حديثنا عن العباسة أخت الرشيد إن شاء الله.

وقد نكب الرشيد البرامكةَ بعد خدمتهم لبنى العباس أكثر من نصف قرن، فقتل جعفر بن يحيى، وحبس كلاً من يحيى وأبنائه الفضل ومحمد وموسى، وأخذ كل أموالهم، وذلك عام ١٨٧ للهجرة.

وبايع الناس للأمين والمأمون، ولكنهم لم يكونوا على رأى واحد، فقد عظم بعضهم هذا العمل، واعتبره عملاً جليلاً من وجهة توحيد كلمة المسلمين فى العالم الإسلامى.

قال سلم[1] الخاسر قصيدة طويلة تمدح هذا العمل، منها قوله:

بايع هارون إمام الهدى
لذى الحجى والخلقِ الفاضلِ

فتمَّ للمأمون نورُ الهدى
وانكشفَ الجهلُ عن الجاهلِ

ويشيد أبو العتاهية[2] بهذا العهد، فيقول مادحًا الخليفة:

وراعٍ يراعى الليلَ فى حفظ أمةٍ
يدافعُ عنها الشرَّ غيرُ رقودِ

(١) شاعر خليع ماجن، من البصرة، من الموالى، سكن بغداد، ومدح المهدى والرشيد، شعره رقيق رصين، سمى الخاسر لأنه باع مصحفًا، واشترى بثمنه طنبورًا، (آلة موسيقية نفخية) توفى عام ١٨٦ للهجرة. (الأعلام).

(٢) إسماعيل بن القاسم العنزى، شاعر عباسى، مكثر مبدع، من المولدين، أكثر شعره فى الزهد والمديح، ولد فى الكوفة عام ١٣٠ للهجرة، اتصل بالخلفاء، توفى فى بغداد عام ٢١١ للهجرة. (الأعلام).

بـألـويـةِ جـبـريـلُ يـقـدمُ أهـلَـهـا
وراياتِ نصرٍ حـولَـه وبـنـودِ
وشـدَّ عـرى الإسلامِ مـنـه بـفـتـيـةٍ
ثـلاثـةِ أمـلاكٍ ولاةِ عـهـودِ
هـمُ خـيـرُ أولادٍ لـهـم خـيـرُ والـدٍ
لـه خـيـرُ آبـاءٍ مضت وجـدودِ[1]

واعترض بعض الناس، ولكن سرًا، وقالوا: لقد قسم الأرض بين أولاده، فألقى بأسهم بينهم.

وسجل أحد الشعراء رأيه فى بيتين يحدس فيهما بالبلاء والدماء، قال:

رأى الـمـلـكُ الـمـهـذَّبُ شَـرَّ رأىٍ
بـقـسـمَـتِـهِ الـخـلافـةَ والـبـلادا
سـتـجـرى مـن دمـائـهـم بـحـورٌ
زواخـرُ لا يـرون لـهـا نـفـادا[2]

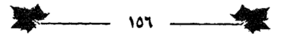
والواقع أن ما فعله الرشيد لم يكن شاذًا من الناحية الإجرائية، فالمشكلة لم تكن مشكلة علاقات بين الأخوين، ولكنها كانت مشكلة علاقات بين معسكرين يريد كل منهما أن يستأثر بالسلطة دون الآخر، ولقد كان لكل معسكر قوته سعةً وامتدادًا وعتادًا، وهذا هو الذى يتراءى فى بيتى الشاعر السابقين، وهو يتنبأ بأن الدماء سوف تجرى بينهما بلا نفاد.

وغريب ألا يدرك الرشيد ملامح هذا الخطر الكامن، ولكن قد يلتمس له عذر فى فرط ثقته بولديه ويمن حوله، وقد أخذ عليهم عهد الله وميثاقه فى أطهر بقعة، وأشرف مكان فى الدنيا، ومن الصعب فى مثل هذه الحال التنبؤ بشىء.

فبقى أن نقول فى التعليق على هذا الموقف إنها إرادة الله أن يبرم الأمر على هذا النحو، تمهيدًا لما سيأتى من أحداث جسام.

---

(١) ديوان أبى العتاهية ٢٢٤.
(٢) الطبرى ٨/٢٧٧.



زبيدة بعد موت الرشيد

فى عام ١٩٣ للهجرة (الموافق عام ٨٠٨ للميلاد) وفى شهر جمادى الأولى منه اتجه الرشيد[١] رغم مرضه إلى خراسان لقتال أحد الخارجين عليه اسمه: رافع ابن الليث، ووصل إلى طوس[٢]، واشتدت عليه العلة، ومات فى ليلة السبت الثالث من جمادى الآخرة، ودفن هناك، فبويع للأمين بالخلافة، وكان قائمًا مقام أبيه فى بغداد، وبايعه الخاصة والعامة.

قال ابن خلدون: وبايعه جملة أهله، ووكل سليمان بن المنصور، وهو عم أبيه وأمه، بأخذ البيعة على القواد وغيرهم[٣].

وبعث فى الآفاق بخبر استخلافه، وكان المأمون فى مرو عاصمة خراسان عند موت الرشيد، فبايع لأخيه، وخطب باسمه الجمعة.

وبعد تولى الأمين الخلافة، كانت أمه زبيدة فى الرقة[٤] فى قصر الرشيد فجمعت كل ما لها هناك من عبيد وجوار وتحف وأموال، واتجهت إلى بغداد عاصمة ولدها الأمين.

قال ابن خلدون: وكان معها خزائن الرشيد[٥].

وخرج إليها الأمين مرحبًا، ومعه جميع من كان ببغداد من الأكابر والأمراء لاستقبالها بالأنبار.

وبدأ الشعراء يتوافدون على قصر الخلافة لينالوا عطاء الخليفة وأمه، فهذا مروان بن أبى حفصة يمدح الأمين.

---

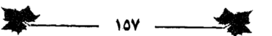
(١) تولى الخلافة فى ربيع أول عام ١٧٠ للهجرة، وعمره اثنتان وعشرون سنة، ولد فى الرى (طهران) عام ١٤٨ للهجرة.

(٢) طوس: أصبح اسمها «مشهد»، وهى موطن عالم الكيمياء الفيلسوف جابر بن حيان الذى توفى عام ٢٠٠ للهجرة، ومحمد رضا النفس الزكية ثامن زعماء الشيعة الإثنى عشرية عام ٢٠٢ للهجرة، ودفن بها بعد ذلك الإمام الغزالى عام ٥٠٥ للهجرة.

(٣) ابن خلدون ٣/٤٩٠.

(٤) مدينة مشهورة على الفرات، إلى الجانب الشرقى منه، وفى الجانب الغربى بلدة اسمها رقة واسط، كان بها قصران لهشام بن عبد الملك، وبالرقة قصر للرشيد مازالت آثاره باقية للآن.

(٥) ابن خلدون ٣/٤٩٠.



(قال ابن عبد ربه: كتب أبياتًا فى مدح الأمين، ورفعها إلى زبيدة) وفيها يقول:

لله درك يا عقيلة جعفرِ

ماذا ولدت من العلا والسؤددِ

إن الخلافة قد تبيَّنَ نورُها

للناظرين على جبينِ محمدِ

فأمرت أن يُملأ فمه درًّا[1].

وفى وفيات الأعيان ذكر ابن خلكان قصة الأبيات وهارون الرشيد حى.

وقال أبو نواس:

إنَّ الخلافةَ لم تَزَلْ

تزهو وتفخرُ بالأمين

جاءت به ابنةُ جعفرِ

قمرًا جلا ظُلَمَ الدجون

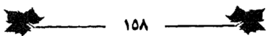
فهدية خير النساءِ

كذا ابنُها خيرُ البنين[2]

ولم يتغير حال الخليفة الأمين، فمازال منشغلاً باللهو واللعب والمسامرة والصيد، وأهمل أمور الدولة، وسلم كل شىء للفضل بن الربيع[3] والوزير على بن عيسى بن ماهان.

قال الطبرى: أمر ببناء مجالس لمنتزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه بقصر الخلد والخيزرانية وبستان موسى وقصر المعلى ..[4].

(١) العقد الفريد ١/ ٣١٤.
(٢) ديوان أبى نواس ٤١١.
(٣) كان أبوه حاجبًا للمنصور والمهدى والهادى، ثم صار حاجبًا فوزيرًا للرشيد بعد نكبة البرامكة التى كان أحد أسبابها، توفى فى ذى القعدة عام ٢٠٨ للهجرة بعد أن عفا عنه المأمون لأنه كان السبب الأول فى الفتنة التى قامت بين الأمين والمأمون، وراح ضحيتها الأمين وجمع من المسلمين.
(٤) الطبرى ٨/ ٥٠٩.



لقد لها وعبث وأنفق الأموال[١] فيما هو بعيد عن مصلحة الناس وصلاح أحوالهم ومن نوادره أنه ابتنى السفن الكبيرة ليس لغزو البحر كما كان يفعل الرشيد، فقد كان الرشيد يغزو عامًا ويحج عامًا، وإنما للعبث واللهو فى نهر دجلة، قيل: ابتنى سفينة عظيمة أنفق عليها ثلاثة آلاف ألف درهم، واتخذ أخرى على خلقة شىء يكون فى البحر، يقال له الدُلفين، فقال فى ذلك أبو نواس الشاعر:

قد ركب الدلفينَ بدرُ الدجى
مقتحمًا فى الماءِ قد لججا

فأشرقت دجلةُ من نورِهِ
وأشرق الشَّطَّان واستبهجا

خصّ به الله الأمين الذى
أضحى بتاج المُلكِ قد توجا[٢]

لقد أضاع وقته كله فى اللعب والصيد والشرب والأنس حتى إنه فى صبيحة يوم البيعة أمر ببناء ملعب كبير حول قصر أبى جعفر المنصور المسمى بالخلد ليلعب ومن معه بالكرة والصولجان.

وكانت زبيدة تراقب هذه الأفعال، وتخشى على سمعته من هذه التصرفات الشاذة، ولهوه ليل نهار، فاصطنعت له حيلة أقرب شىء إلى الإخراج المسرحى.

قال رضا كحالة: ولما أفضى الأمر إلى ولدها، قدم الخدم، وآثرهم، ورفع منازلهم ككوثر وغيره من خدمه، فلما رأت أم جعفر شدة شغفه بالخدم، واشتغاله بهم، اتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه وعممت رءوسهن، وجعلت لهن الطرر والأصداغ الأفقية، وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق، فبانت قدودهن، وبرزت أردافهن، وبعثت بهن إليه، فاختلفن فى يديه فاستحسنهن، واجتذبن قلبه إليهن، وأبرزهم للناس من الخاصة والعامة، واتخذ الناس من الخاصة والعامة الجوارى المطمومات، وألبسوهن الأقبية والمناطق، وسموهن الغلاميات[٣].

---

(١) ترك الرشيد تسعين ألف ألف دينار فى بيت المال.
(٢) ديوان أبى نواس ٤١١.
(٣) أعلام النساء ٢/٢٩.

وإذا صح هذا فإن زبيدة تكون قد اتخذت الداء دواء، على المذهب النواسى الذى قال: (وداونى بالتى كانت هى الداء)!!

وما هكذا كان يليق بها، لولا عاطفة الأمومة الحمقاء!!

وهذه عريب[1] المغنية تقول: كنت لمحمد الأمين وصيفة فى عداد الوصائف، ألبس قباء ومنطقة، وأقوم على رأسه، وربما سقيته، وسنى إذ ذاك سبع عشرة سنة، وكان أحسن خلق الله، لم نر ذكرًا أو أنثى مثله جمالاً وحسنًا مع حسن الخلق[2].

لقد كانت سيرة الأمين مجالاً تنافس فيه القصاص والرواة، ونسبوا إليه صدقًا أو كذبًا كثيرًا من الموبقات التى أساءت إليه وصورته على أنه فاسق عربيد، فنحن لا نستطيع أن نعتمد هذه الأخبار فى مجموعها لتفسير ما حدث من صراع بين الأخوين، فالصراع فى جوهره كما نتصور كان صراعًا على الحكم، وقد حاول مستشار الأمين أو وزيره الفضل بن الربيع أن يقلب الموازين بنقض كل العهود كما سيأتى، وهذا هو الذى أشعل الحرب والصراع بين الأخوين على صولجان الخلافة.

وبقدر ما كان عليه الأمين من إهمال وغفلة ولعب ولهو وعبث وضياع، كان المأمون فى يقظة وفقه وورع وحسن سيرة، وذلك لخلق فيه أصيل، فقد تربى تربية سوية بعيدة عن تدليل الأم التى لم يرها، وعبث الخدم والجوارى، حتى إن المأمون كان كلما اعتمد الأمين حركة ناقصة، اعتمد هو حركة سديدة كما قال ابن طباطبا، كذلك كان من أسباب نجاح المأمون أمانة مستشاريه، وخاصة الفضل بن سهل[3]، الذى قال له: قرأت القرآن، وسمعت الأحاديث، وتفقهت فى الدين، فالرأى أن تبعث إلى من بالحضرة من الفقهاء فتدعوهم إلى الحق والعمل به، وإحياء السنة.. وترد المظالم[4].

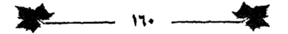
---

(١) من أشهر مغنيات العصر العباسى، روى عنها ألف صوت فى الغناء، توفيت عام ٢٧٧ للهجرة عن ٩٦ سنة، وهى شاعرة ومغنية أديبة، من أعلام العارفات بصناعة الغناء والضرب على العود، ولدت عام ١٨١ للهجرة فى بغداد، قيل: هى بنت يحيى البرمكى، نشأت فى قصور الخلفاء، اشتراها الأمين ثم انتقلت إلى المأمون.

(٢) الديارات ١٦٦.

(٣) أسلم الفضل بن سهل وأخوه الحسن عام ١٩٠ للهجرة على يد المأمون أيام الرشيد، وكان مجوسيًا.

(٤) الطبرى ٨/٣٧٢.



وهكذا سار المأمون على طريق مستقيمة سوية، فأكرم القواد والملوك، وقرّب رءوس القبائل، ثم حط عن خراسان وما حولها ربع الخراج، فاستمال بذلك العامة، وقالوا: ابن أختنا[1]، وابن عم رسول الله ﷺ، ولذلك أحبه أهل خراسان وأقبلوا عليه، حتى إن رافع بن ليث الخارجي، الذى خرج هارون الرشيد لحربه من سنة مضت ـ لما سمع ما عليه المأمون من صلاح وتقوى وعدل، جاءه منقادًا طائعًا وأكرمه المأمون وقرّبه.

كذلك كان المأمون محافظًا على عهد أخيه، ويقف منه موقف الوالى المخلص من الخليفة العظيم، فهو يتابع كتبه له، ويملأها بعبارات الإجلال والتعظيم، ثم يواصل إرسال الهدايا العظيمة إليه.

لقد أخذ الناس يقارنون بين الأخوين، حتى اقتنع أغلبهم بأن المأمون أولى بالخلافة من هذا الذى يسمعون عنه، وعن غفلته فى بغداد.

لم تدم الريح رخية للأمين إلا قرابة سنة بعد وفاة الرشيد، وبدأت النار بين الأخوين بشرر صغير، ثم استشرت حتى أتت على الأخضر واليابس.

ففى ربيع أول عام ١٩٤ للهجرة، فجر الأمين مفاجأته بأن جعل لابنه موسى ذى الخمسة الأعوام ولاية العهد بدل عمه المأمون، ولقبه الناطق بالحق، وعين صاحب أمره والمشرف عليه على بن عيسى بن ماهان، وكان صاحب هذه الفكرة والمشجع الأمين عليها مستشاره الأول الفضل بن الربيع، فخلع أخاه المأمون، ومنع ذكر اسمه فى الخطبة حينئذ، ونبتت بذرة الشقاق بين الأخوين.

ولنعد بسرعة لنبين السبب الطارئ الذى زرع الجفوة بين الأخوين، إنه عودة الفضل ابن الربيع من طوس[2] بعد أن نكث عهوده التى كان الرشيد أخذها عليه لابنه عبد الله المأمون، فاشترك مع على بن عيسى فى التأثير على الأمين فى تهوين أمر خلع المأمون، وخاف الأمين من هذه الخطوة، فاستشار كل من حوله من كبار القوم، فلم يوافقوه، وقالوا له: يا أمير المؤمنين، لا تكن أول الخلفاء من نكث عهده، ونقض ميثاقه، واستخف بيمينه، ورد رأى خليفة قبله، ولكن الفضل ومحاولاته هى التى انتصرت.

---

(١) على اعتبار أن أم المأمون من ولاية من ولايات خراسان اسمها بادغستان، وهى تقع اليوم غرب أفغانستان.

(٢) كان مع الرشيد عند وفاته، وأمره بالذهاب للمأمون، والوقوف معه.

يقول الطبرى: لم يكن ذلك من رأى محمد ولا عزمه، ولكن الفضل أخذ يصغّر فى عينه شأن المأمون، ويزين له خلعه، حتى أزاله عن رأيه، وبعث الفضل للحاجب حاجب الكعبة - أن يرسل له كتابى هارون من داخل الكعبة، فلما صار بالكتابين إلى محمد، قبضهما منه وأجازه بجائزة عظيمة، ومزقهما، وأبطلهما[1].

وصدق الشاعر الذى صور حال الدولة آنذاك، بقوله:

أضاع الخلافةَ غِشُّ الوزير

وفسق الأمير وجهل المشير

ففضلٌ وزيرٌ وبكرٌ[2] مشير

يريدان ما فيه حتفُ الأمير[3]

لقد كان من الممكن أن يتجنب المسلمون ويلات حرب بين الأخوين، لكنها دسيسة الفضل المستشار الوزير وخيانته.

يقول د.أحمد شلبى: فلو أن الفضل أرجأ هذا التغيير[4] بعض الوقت، وسعى فى إصلاح ما بين الأخوين، وحث الأمين أن يستجيب إلى رغبة المأمون فى التقريب والتحبب، لكان من المحتمل أن تتحسن الأحوال، وأن تصفو العلاقات[5].

لكنا رأينا الوزير قد تعجل الفتنة .... إن نقل ولاية العهد من شخص لشخص ليس جديدًا، فقد قام به المنصور من قبل، بأن نقل ولاية العهد من ابن عمه عيسى بن موسى إلى ابنه المهدى، ولكن هذا النقل تم بعد أحد عشر عامًا من وجوده فى الخلافة، وبعد أن استقرت الأمور له، أما ما يحدث الآن فإنه تصرف أحمق من المستشار الفضل ابن الربيع، وقد نتج عن هذه الرغبة الجامحة ثورة الناس، وخروج بعض عمال الأمين عليه، مثل عيسى بن موسى واليه على مكة، وسليمان بن موسى واليه على المدينة، ولذلك حاول الأمين استرضاء من حوله، مرة بشراء من رفض هذه البيعة بالأموال، ومرة بالعطايا والهبات، أو بالوظائف العليا كما فعل فى مصر.

---

(١) الطبرى ٨/٣٨١.

(٢) بكر بن المعتمد، تابع الأمين.

(٣) القصيدة كاملة فى الطبرى ٨/٣٩٦.

(٤) يقصد ولاية عهد ابن الأمين.

(٥) موسوعة التاريخ الإسلامى ٣/٣١٦.

تقول د. سعاد ماهر: على إثر وفاة الرشيد، ونشوب الخلاف بين ولديه الأمين والمأمون، عاد أعراب الشرقية إلى ثورتهم القديمة، لأن الأمين كان قد تحبب إليهم بأن عهد ببعض الوظائف الكبرى إلى رؤسائهم، فضمن بذلك ولاءهم إلى حين[1].

وكانت الفتنة قد اشتعلت بين الأخوين على إثر المراسلات بين الأمين والمأمون، وبدأت بكتاب يستدعى فيه الأمين أخاه إلى بغداد، ولكن المأمون لم ينخدع، بل كتب يعتذر، واستمرت الكتب تحمل إلحاح الأمين على أخيه بمبايعة ابنه، حتى أوشك المأمون على طاعته بخلع نفسه، ومبايعة ابن أخيه الطفل، ولكن مستشاره وأقرب الناس إليه فى خراسان الفضل بن سهل شجعه على الامتناع، وضمن له الخلافة، وقال له: هى فى عهدتى، ونهض الفضل بهذا الأمر، فرد على قطع الأمين الخطبة للمأمون بقطع الخطبة للأمين، وأطلق على المأمون إمام الهدى، وسرى الشر بين الأخوين بعد هذه الكتب التى بدأها الأمين، وختمها الأمين أيضًا، ولكن بالحرب.

قال الطبرى: قال الحسن بن سهل إن المأمون قال لذى الرياستين ـ الفضل بن سهل: إن ولدى وأهلى ومالى الذى أفرده الرشيد لى بحضرة محمد وهو خمسون ألف ألف درهم[2]، وأنا إليها محتاج، وهى قبله، فما ترى؟، فقال: تكتب كتبًا طالبًا لحقك، وتوجيه أهلك على ما لا يوجب عليه المنع نكثًا لعهدك، فإن أطاع فنعمة وعافية، وإن أبى، لم تكن بعثت على نفسك حربًا[3].

وكأنما أحس الفضل بأن الحرب لابد آتية، ولذلك طلب من المأمون ألا يكون هو البادئ، وبعد عدة مراسلات كان الفضل بن الربيع ينفخ فى النار، فأثر على الأمين الذى أسرع فجهز جيشًا لحرب أخيه، قوامه خمسون ألفًا، معهم السلاح والعدة والأموال، وعلى الجيش علىّ بن عيسى، وخرج الجيش من بغداد فى نصف جمادى الآخرة عام ١٩٥ للهجرة.

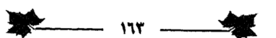
ورأت زبيدة الجيش الكثيف، وتأكدت من نصر ولدها على أخيه، لكن أخلاقها ومروءتها جعلتها تتوجه لقائد الجيش، وتملى عليه بعض الوصايا عندما جاءها

---

(١) مساجد مصر ٢/١٦.

(٢) قال بذلك أيضًا ابن خلدون، أما فى أغلب الروايات: فألف ألف.

(٣) الطبرى ٨/٣٨١.



لتوديعها، قالت: يا عليّ، إن أمير المؤمنين ـ وإن كان ولدى، وإليه انتهت شفقتى، وعليه تكامل حذرى ـ فإنى على عبد الله ـ تعنى المأمون ـ منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى، وإنما ولدى ملك نافس[1] أخاه فى سلطانه[2]، فاعرف لعبد الله حق ولادته وأخوته، ولا تَجْبَهْهُ بالكلام، فإنك لست نظيرًا له، ولا تقتسره اقتسار العبيد، ولا توهنه بقيد أو غل، ولا تمنع عنه جارية أو خادمًا، ولا تعنف عليه فى السير، ولا تساوه فى المسير، ولا تركب قبله، ولا تستقل على دابتك حتى تأخذ بركابه إذا ركب، وإن شتمك فاحتمل منه، وإن سفه عليك فلا تراده. ثم دفعت إليه قيدًا من فضة، وقالت: إذا صار إليك فقيده بهذا القيد. فقال: سأفعل[3].

وزاد الطبرى: سأقبل بأمرك، وأعمل فى ذلك بطاعتك.

هكذا كان موقف زبيدة وسط المأساة، تتنازعها بل تتناهشها عوامل متضاربة، فهى التى عاشت مع الرشيد، وشهدت توثيق هذه العهود على يد ولدها الذى جاهدت ليكون العهد له أولاً، وها هى ذه ترى فيما يراه النائم اليقظان: عبد الله المأمون، وقد جيء به مكبلاً ليمثل بين يدى ولدها الأمين، فتصل بها أحلامها إلى أن تختار له القيد الفضى، وربما تخيلته جاثيًا على ركبتيه يلتمس من أخيه ـ ولدها ـ أن يعتق رقبته، إنها حقًا مأساة امرأة استولت عليها الكوابيس.

وسمع المأمون بخروج الجيش، فأعد جيشًا دون جيش أخيه، عليه طاهر بن الحسين الخزاعى[4] ومعه أربعة آلاف فارس (فى مواجهة خمسين ألفًا)، وتقابلا، واقتتلا قتالاً شديدًا، كانت الغلبة فيه للقلة.

وندهش عندما نرى أن الفارق بين الأخوين حين سماع خبر هزيمة على بن عيسى ومقتله.

فنرى المأمون عند سماعه بخبر هزيمة جيش أخيه، يأمر بإحضار أهل بيته والقواد ووجوه الناس، فدخلوا، وسلموا عليه بالخلافة، وذلك لأن الشرط الذى كتبه الرشيد فى العهد أن من غدر تسلب منه الخلافة، وتعطى للمغدور به.

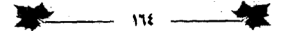
---

(١) كأنما أحست الآن فقط بسوء عاقبة تولى ابنها.

(٢) وغاره على ما فى يده، والكريم يأكل لحمه ويمنعه غيره. (زيادة فى الطبرى ١٠/٤٠٦).

(٣) الفخرى ١٧٦.

(٤) من كبار قواد العصر العباسى.



أما الأمين، فقد بلغه الخبر وهو فى بغداد، فى قصره، يصطاد السمك، ويسمع نعى قائده على بن عيسى، فيرد على الذى أخبره بذلك: دعنى، كوثر قد اصطاد سمكتين، وأنا إلى الآن ما اصطدت شيئًا ـ وكان كوثر هذا خادمًا من المقربين إليه.

ولما انتهى من صيده، بعث إلى وكيل المأمون فى بغداد وخازنه، واستولى منه على الألف ألف التى كان الرشيد قد أعطاها للمأمون، وقبض على ضياعه وغلاته بالسواد.

قال ابن الأثير عن هذا العطاء: فى عام ١٨٩ للهجرة، شخص الرشيد إلى (قرماسين)[١] ومعه المأمون، وأشهد على نفسه من عنده من القضاة والفقهاء أن جميع ما فى عسكره من الأموال والخزائن والسلاح والكراع وغير ذلك للمأمون، وجدد له البيعة[٢].

لم يكتف الأمين بذلك، إنما ولى عمالاً من قبله على الأمصار، وخاصة ما حول خراسان من كابل وقزوين وهمذان والتبت وغيرها.

وأعد جيشًا آخر بقيادة عبد الرحمن بن جبلة، الذى ما لبث أن قُتِلَ بعد لقائه بطاهر بن الحسين، وأخيرًا أخذت البيعة للمأمون بالخلافة فى بغداد.

ووصف الطبرى يوم انتقال الخلافة من الأمين للمأمون فى عاصمة الخلافة، قال: فخلع طاهر بن الحسين الأمين يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من رجب عام ١٩٦ للهجرة، وأخذ البيعة لعبد الله المأمون من غد يوم الإثنين إلى الليل، وغدا إلى محمد يوم الثلاثاء، فوثب بعد الوقيعة.. ودخل عليه، فأخرجه من قصر الخلد إلى قصر أبى جعفر، فحبسه هناك إلى صلاة الظهر، ثم وثب العباس بن موسى بن عيسى على أم جعفر، فأمرها بالخروج من قصرها إلى مدينة أبى جعفر، فأبت، فدعا لها بكرسى، وأمرها بالجلوس فيه، فقنعها بالسيف، وساءها، وأغلظ لها القول فجلست فيه، ثم أمر بها، فأدخلت المدينة مع ابنها[٣].

---

(١) أو قرميسين يقول ياقوت فى معجمه (٤/ ٣٣٠): بلد معروف وهو تعريب كرمان شاهان بين همدان وحلوان.. وبها قصر شيرين والطاق الذى فيه صورة شبديز فرى أبرويز وشيرين جاريته، وبقرمسين الدكان الذى اجتمع فيه ملوك الأرض منهم: فغفور ملك الصين وخاقان ملك الترك وداهر ملك الهند وقيصر ملك الروم عند كسرى أبرويز وهو دكان مربع مائة ذراع فى مثلها من حجارة مهندسة مسمرة بمسامير من حديد لا يبين فيها ما بين الحجرين فلا يشك من رآه أنه قطعة واحدة.

(٢) الكامل ٥/٣٢٦.

(٣) الطبرى ٨/٤٢٩.

وكادت زبيدة أن تنهار بعد أن أحست باقتراب النهاية، وليس بيدها ما تعمله، قال المسعودى: لما أحيط بمحمد، دخلت عليه أم جعفر باكية، فقال لها: مه، إنه ليس بجزع النساء وهلعهن عقدت التيجان، وللخلافة سياسة لا تسعها صدور المراضع، وراءك[1].

ورجعت زبيدة، وليس بيدها حيلة تنقذ بها وحيدها.

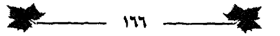
لقد أحس الأمين بعد فوات الأوان بمدى تهوره وتسرعه فى محاربة أخيه، وندم على ما كان منه من نكث عهد أبيه فى خلع أخيه، ولات حين مناص.

وتوالت الأحداث مسرعة، وتتابعت النكبات، ونسى الأمين كل شيء إلا محاولة الخلاص بعد أن حاصر طاهر بن الحسين بغداد، وحبسه وأمه وأولاده يومين، ومنع الدقيق والماء عنهم، حتى ضاقت عليه الدنيا، وباع ما فى خزائنه من جواهر وتحف سرًا ليفرق على ما بقى له من جند عندما كثرت مطالبهم، ولم يبق معه ما يعطيهم، وضيق عليه طاهر بن الحسين، حتى قال محمد: وددت أن الله قتل الفريقين جميعًا، فما منهم إلا عدو: من معى، ومن علىّ، أما هؤلاء فيريدون مالى، وأما أولئك فيريدون نفسى[2].

ودام القتال الشديد بين الدروب والحارات والطرق والشوارع، وضرب قصور الخلافة على جانبى دجلة بالمنجنيق، وكثر الحريق والهدم، حتى ضاعت معالم بغداد، وضاقت بأهلها، ونزل بها ما لم ينزل قط منذ بناها المنصور من قرابة أربعين سنة، وتعطلت المساجد، وتركت الصلاة، واشتد الأمر بين الخليفة المخلوع، وقائد المأمون الذى حاصر محمدًا فى قصره، وأمر بإحراق كل مجالسه وبسطه وفرشه.

يقول المسعودى: وكثر القتل فى الطرق والشوارع.. فكان الفوز لمن نجا بنفسه من رجل أو امرأة، وضاقت النفوس وأيسوا من الفرج، واشتد الجوع، وسُر من سار إلى حيّز طاهر، وأسف من بقى مع المخلوع[3].

(١) مروج الذهب ٣/٤٠٤.
(٢) المرجع السابق ٤١٨.
(٣) المرجع السابق ٣/٤٠٨.



وقد فصل ابن الأثير فى وصف هذه الليالى السوداء، التى دخل فيها جيش المأمون بقيادة طاهر بن الحسين بغداد، وقال عن الليلة التى سبقت قتل الأمين: فى الأربعاء ٢٢ من محرم عام ١٩٨ للهجرة، تقدم طاهر إلى المدينة والكرخ[١]، فقاتل هناك قتالاً شديدًا، فهزم الناس... ودخل طاهر بالسيف، وأمر مناديه فنادى: من لزم بيته فهو آمن. ووضع بسوق الكرخ وقصر الوضاح جندًا على قدر حاجته، وقصد مدينة المنصور، وأحاط بها، وبقصر زبيدة وقصر الخلد من باب الجسر إلى باب خراسان وباب الشام... ونصب المجانيق بإزاء باب زبيدة وقصر الخلد، وأخذ الأمين وأمه وأولاده إلى مدينة المنصور، وتفرق عامة جنده وخصيانه وجواريه فى الطريق لا يلوى أحد على أحد[٢].

وفى ليلة الجمعة ٢٣ من محرم عام ١٩٨ للهجرة (٢٣ من سبتمبر عام ٨١٣ للميلاد)، وبعد حصار وحرب فى بغداد دامت أربعة عشر شهرًا قتل الأمين وهو يحاول الهرب عن طريق دجلة، قتله جنود طاهر، وهو يصيح: إنا لله وإنا إليه راجعون، أنا ابن عم رسول الله ﷺ وأخو المأمون، الله الله فى دمى!! وضاع صوته ونفذ قضاء الله، وحزت رأسه، ووضعت بين يدى طاهر بن الحسين، فقرأ قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وحمل الرأس إلى خراسان، إلى المأمون، وعندما رآه استرجع وبكى واشتد تأسفه عليه، ثم أعاد الرأس لتدفن مع الجسد بعد أن رفعها مدة.

كذلك بكى وزير المأمون الفضل بن سهل، وقال: سلَّ علينا طاهر سيوف الناس وألسنتهم، أمرناه أن يبعث به أسيرًا، فبعث به عقيراً - أى قتيلاً.

ونودى بالمأمون خليفة للمسلمين، وبايعه العامة لأن الخاصة بايعوه يوم انتصر طاهر على علىّ بن عيسى بن ماهان، لقد قُتِل الأمين، ولكن ليس على رغبة المأمون وإرادته.

قال ابن تغرى بردى: قتل طاهر الأمين من غير إذن المأمون، وحقد عليه المأمون لذلك، ولم يسعه إلا السكوت[٣].

---

(١) حى من أحياء بغداد، والحى المقابل له على دجلة اسمه: الرصافة.

(٢) الكامل ٥/٤٠٠.

(٣) النجوم الزاهرة ٢/٢١٤.

وقد أحس بذلك طاهر بن الحسين، فاختفى عن عين المأمون، وأخذ حذره منه، ولم يلقه، حتى مات، مع أنه صار عامله على المشرق فيما بعد.

أما فى بغداد، فقد سجل الشعراء أيام الحرب السوداء يومًا بيوم، حتى كانت نهاية الأمين، فأفاضوا فى رثاء الأمين أو هجائه، والأبيات كلها فى أمهات الكتب.

ولأن أهم شخصية فى بيت الخليفة المخلوع هى أمه زبيدة، فقد قام طاهر بن الحسين بوضع حراسة على أبواب المدينة، وعلى باب قصرها المسمى القرار، وهى بداخله، ومعها حفيداها موسى وعبد الله، ثم أمر بتحويل الثلاثة إلى قصر الخلد، فحولوا ليلة الجمعة الثانى عشر من ربيع أول، بعد قرابة شهرين من قتل الأمين، وأخيرًا أمر بحمل موسى وعبد الله إلى عمهما المأمون فى خراسان، وبقيت زبيدة فى بغداد، وعاشت أيامًا سوداء كلها معاناة وكرب، ولم تستطع الصبر على هذا الذل والحصار، فحاولت الاتصال بالشعراء ليكتبوا على لسانها الشعر، ويبعث به إلى المأمون فى خراسان.

قال ابن عبد ربه: لما قتل محمد الأمين، أرسلت أمه زبيدة أم جعفر إلى أبى العتاهية أن يقول أبياتًا على لسانها للمأمون، فقال:

ألا إن ريبَ الدهرِ يدنى ويُبعدُ
وللدهرِ أيامٌ تُذمُّ وتُحمدُ[1]

أقولُ لريبِ الدهرِ إن ذهبت يدٌ
فقد بقيَت والحمدُ لله لى يدُ

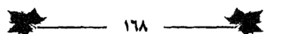
إذا بقىَ المأمونُ لى فالرشيدُ لى
ولى جعفرٌ لم يهلكا ومحمدُ[2]

ولم تكتف بذلك، بل أتبعتها برسالة أخرى من شاعر آخر[3] على لسانها، قالت فيها:

(١) وفى رواية: ويمتع بالآلاف طورًا ويفقد.

(٢) العقد الفريد ٢/٢٦٢، وجعفر هو أبوها، ومحمد ابنها.

(٣) هو خزيمة بن الحسن.



لخير إمام من خلاصة معشر
وأكرم بسام على عود عنبر
كتبتُ وعيني تستهلُ دموعُها
إليكَ ابنَ بعلى من دموعى ومحجرى
فُجِعنا بأدنى الناس منكَ قرابةً
ومن زلَّ عن كبدى فقلَّ تصبُرى
أتى طاهرٌ لا طهَّرَ الله طاهرًا
وما طاهرٌ من فعلِهِ بمطهَّرِ
فأبرَزنى مكشوفةَ الوجهِ حاسرًا
وأنهبَ أمَوالى وأحرَقَ آدرى[1]
يعزُّ على هارونَ ما قد لقيتُهُ
وما نابَنى من ناقصِ الخلقِ أعورِ[2]

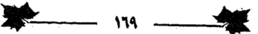
وزاد الطبرى فى عدد أبيات القصيدة، ومنها:

لوارثِ علمِ الأولينَ وفهمِهم
وللملكِ المأمونِ من أمِّ جعفرِ

ثم تشرح ما أصابها وتقول:

وقد مسنى ضرٌ وذُلٌ كآبةٍ
وأرَّقَ عينى يا ابن عَمِّى تفكُّرى
وهمتُ لما لاقيتُ بعد مُصابِهِ
فأمرى عظيمٌ منكرٌ جدُّ مُنكَرِ

(١) الآدر: جمع دار.
(٢) العقد الفريد ٢/٢٦٢، كان طاهر بن الحسين أعور العين.



سأشكو الذى لاقيته بعد فقده

إليكَ شَكاةَ المُستهام[1] المُقهَّرِ

وأرجو لما قد مرَّ بى مُذْ فقدتُهُ

فأنت لبنىَّ خير ربٍّ مخيَّر

وتذكره برحمة قائلة:

فإن كان ما أسدى بأمرٍ أمرتَهُ

صبرتُ لأمرٍ من قديرٍ مقدرِ

تذكَّر أميرَ المؤمنينَ قرابتى

فديتُكَ من ذى حُرمةٍ متذكِّرِ[2]

وبعثت بكتاب آخر فيه القصة من أولها حتى قتل ولدها، بدأتها بقولها:

سبحانَ ربك رَبِّ العزةِ الصمدِ

ماذا أُصبنا به فى صبحةِ الأحدِ[3] .

وختمته بقولها:

هذا حديث أمير المؤمنين وما

نقصتُ من أمره حرفًا ولم أزدِ

لازلت أندبُهُ حتى المماتِ وإن

أخنى عليه الذى أخنى على لُبَدِ[4]

والتف بعض الناس حول زبيدة، ودعاها بعضهم إلى الأخذ بثأره، وقال لها أحدهم: ما يجلسك، وقد قتل أمير المؤمنين؟، قالت: ويلك، ما أصنع؟، فقال: تخرجين، فتطلبين بثأره، كما خرجت عائشة تطالب بدم عثمان، فقالت: اخسأ، لا أم لك، ما للنساء وطلب الثأر ومنازلة الأبطال؟!

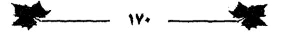
---

(١) التائه الذاهب عقله.

(٢) الطبرى ٨/٥٠٦.

(٣) المعروف أن الأمين قتل ليلة الجمعة، صباح السبت، وقولها صبحة الأحد عندما انتشر الخبر، وعرف الناس بما حدث.

(٤) الطبرى ٨/٥٠٦. واللبد: المال الكثير، وأخنى عليه: أهلكه وأتى عليه.



لا وجه للمقابلة بين استشهاد عثمان على يد البغاة، ومقتل الأمين وهو خائن لعهد أبيه، وما نظن هؤلاء الداعين للمطالبة بثأر الأمين إلا جماعة من الدساسين الآكلين على كل مائدة، المنتفعين بكل كارثة.

وصبرت زبيدة وتحملت وانتظرت رد المأمون، الذى وصلت إليه كتب زبيدة الواحد تلو الآخر، فبكى، وقال: اللهم إنى أقول كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرّم الله وجهه لما بلغه قتل عثمان: والله ما قتلت، ولا أمرت، ولا رضيت، اللهم جلل قلب طاهر حزناً[1].

وأسرع بالكتابة إلى زبيدة، ومواساتها، وتعزيتها فى فقيدها، وأمر ولاته فى بغداد أن يعيدوا لها كل ما أخذوه منها من جوارٍ وأموال وضياع، وطلب منها أن تتوجه إليه فى خراسان، ولكنها قبلت كل عطاياه، ورفضت الخروج من بغداد، حيث وحيدها مدفون، وعاشت تبكيه وترثيه، قالت مرة:

لما رأيتُ المنايا قد قصدنَ لهُ
أصبنَ منه سوادَ القلبِ والراسا

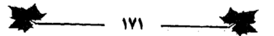
فبتُ متكئًا أرعى النجومَ لهُ
أخالُ سنته فى الليلِ قرطاسا

والموتُ كان به والهمُّ قارنه
حتى سقاهُ التى أودى بها الكاسا

رزئتهُ حينَ باهيتُ الرجالَ به
وقد بنيتُ به للدهرِ آساسا[2]

وطالما كانت تتذكر وتحكى لمن حولها الرؤى التى رأتها يوم حملت بالأمين، ويوم ولدته، ويوم تم فصاله، كانت تقول: رأيت يوم علقت بمحمد، كأن ثلاث نسوة دخلن على، فقعدت اثنتان عن يمينى، وواحدة عن يسارى، فدنت إحداهن، وقالت: ملك فخم عظيم البذل، ثقيل الحمل، نكد الأمر.

(١) مروج الذهب ٣/٤٢٤.
(٢) أعلام النساء ٢/٢١.



ثم قالت الثانية: ملك ناقص الجد، مغلول الحد، ممزوق الود.

وقالت الثالثة: ملك قصاف عظيم الإتلاف، كثير الخلاف، قليل الإنصاف، فاستيقظت وأنا فزعة.

فلما كانت الليلة التى وضعت فيها محمدًا، دخلن علىَّ وأنا نائمة، كما كن دخلن، فقعدن عند رأسى، ونظرن فى وجهى، ثم قالت إحداهن: شجرة نضرة، وريحانة حسنة، وروضة زاهرة.

ثم قالت الثانية: عين غدقة قليل لبثها، سريع فناؤها، عَجِلٌ ذهابها.

وقالت الثالثة: عدو نفسه، ضعيف فى بطشه، سريع إلى غشه، مزال عن عرشه، فاستيقظت من نومى وأنا فزعة بذلك، وأخبرت بذلك بعض قهارمتى[1]، فقالت: بعض ما يطرق النائم، وعبث من عبث التوابع.

فلما تم فصاله، أخذت مرقدى ليلة ومحمد نائم أمامى فى مهده، إذ بهن قد وقفن على رأسى، وأقبلن على ولدى محمد، فقالت إحداهن: ملك جبار، متلاف مهذار، بعيد الآثار، سريع العثار.

ثم قالت الثانية: ناطق مخصوم، ومحارب مهزوم، وراغب محروم، وشقى مهموم.

وقالت الثالثة: احفروا قبره، ثم شدوا لحده، وقدموا أكفانه، وأعدوا جهازه، فإن موته خير من حياته، فاستيقظت وأنا مضطربة وجلة، وسألت مفسرى الأحلام والمنجمين، فكل يخبرنى بسعادته، وحياته، وطول عمره، وقلبى يأبى ذلك، ثم زجرت نفسى، وقلت: وهل يدفع الإشفاق والحذر والاحتراز واقع القدر، أو يقدر أحد أن يدفع عن أحبابه الأجل؟[2].

وما نحسب مثل هذه الرؤى إلا من تأليف القصاص، فأثر الصنعة باد على جملها، كما يبدو أثر التنجيم على أخبارها، وأغلب الظن أن ذلك قد لفق على لسان زبيدة بعد أن وقعت الواقعة، وتبدَّدَ ملك ولدها، ولله فى خلقه شئون.

---

(١) جمع قهرمانة، وهى متولية أمر القصر، أو الوصيفة.

(٢) مروج الذهب ٣/٣٩٨.

على أن الملاحظ أن ما أجراه القصاص على ألسنة شخوص الأحلام لم يكن من قبيل الرمز المنامى الذى يحتاج إلى تأويل أو تعبير، بل كان إخبارًا بما سيقع، وقراءة حرفية للغيب، وليست هذه طبيعة الأحلام، وإنما كما قلنا صنعة القصاص فى وصف ما جرى للأمين.

وجوهر المأساة أن زبيدة قد تحملت فى هذا الموقف الكثير من الآلام، وعانت الكم الهائل من الأحزان، ولم يكن أحد قادرًا على أن يأخذ بيدها آنذاك إلا ولد زوجها عبد الله المأمون.

ومرت ست سنوات، ودخل المأمون بغداد لأول مرة بعد أبيه وأخيه فى منتصف صفر عام ٢٠٢ للهجرة، وأول شىء بدأ به بعد أن رتب أمور الخلافة، أن جعل لزبيدة قصرًا فى دار الخلافة، وأقام لها الوصائف والخدم والجوارى، كما كانت أيام عزها حياة الرشيد والأمين، وجعل عطاءها كل سنة مائة ألف دينار وألف ألف درهم، ثم أسرع لملاقاتها، وتعزيتها فى أخيه وحيدها، وكان اللقاء الحار بين أم ثكلى وخليفة بار.

قال لها معزيًا: يا ستاه لا تأسفى عليه، فإنى عوضه لك، فقالت: يا أمير المؤمنين، كيف لا آسف على ولد خلّف أخًا مثلك؟، ثم بكت وأبكت المأمون حتى غشى عليه[1].

وأسرعت زبيدة وزارته فى قصره؛ لتهنئته بالخلافة، وقالت: أهنيك بخلافة قد هنأت نفسى بها عنك قبل أن أراك، ولئن كنت قد فقدت ابنًا خليفة، لقد عوضت ابنًا خليفة لم ألده، وما خسر من اعتاض مثلك، ولا ثكلت أم ملأت يدها منك، وأنا أسأل الله أجرًا على ما أخذ، وإمتاعًا بما عوض. وأكرمها المأمون، ووضعها فى مكانها الذى هى أهل له.

وزارته مرة فى قصره، وقالت له: الحمد لله الذى ادخرك لى لما أثكلنى ولدى، ما ثكلت ولدًا كنت لى عوضًا عنه، ولما خرجت، قال المأمون لجلسائه: ما ظننت أن نساء جبلن على مثل هذا الصبر[2].

(١) النجوم الزاهرة ٢/ ٢١٤.
(٢) العقد الفريد ٢/ ٢٧٤.



والتقى بها، وسألها عن الشعر الذى بعثت به إليه وهو فى خراسان، قال: من قائل الأبيات؟. قالت: أبو العتاهية. قال: وبكم أمرت له؟. قالت: بعشرين ألف درهم. قال المأمون: وقد أمرنا له بمثل ذلك.

وكان المأمون كلما قابل زبيدة، اعتذر لها، مؤكدًا أنه ليس بصاحب ولدها، ولا قاتله، وكانت تسكت، حتى كرر ذلك، فردت عليه ردًا جعله لا يذكر ذلك مرة أخرى، قالت: يا أمير المؤمنين، إن لكما يومًا تجتمعان فيه، وأرجو أن يغفر الله لكما[1].

ولابد أن نذكر هنا لمحة خاصة بالمأمون، فقد نظر إلى الأحداث، واعتبر منها، وأراد ألا يقع فى أخطاء من سبقوه، فهو أول خليفة عباسى ـ مع أنه السابع فيهم لم ينظر إلى الخلافة على أنها ملك خاص يتوارثه أبناؤه وأحفاده، بل نظر إليها على أنها وظيفة لمصلحة البلاد، ولخير الناس، ولذلك لم ينظر لأبنائه مع كثرتهم، وإنما عين أخاه المعتصم وليًا للعهد.

ومن تصاريف القدر، ما خرجنا به من إحصائية قمنا بها، فوجدنا أن عدد الخلفاء العباسيين من المأمون وحتى نهاية دولتهم فى منتصف القرن السابع عام ٦٥٦ للهجرة ـ وجدناهم واحدًا وثلاثين خليفة، كلهم أبناء وأحفاد المعتصم ابن هارون الرشيد، ولم يقترب من دست الخلافة أحد من ذرارى الأمين أو المأمون على كثرتهم، وسبحان مالك الملك.

وكان المأمون قد عقد على بوران بنت الحسن بن سهل أثناء عودته من خراسان إلى بغداد، وحان وقت الزفاف فى رمضان عام ٢١٠ للهجرة، وكانت زبيدة أم الأمين أول نساء بنى العباس اللائى شرفن العروس بحضورهن.

ذكر ابن كثير لمحة من هذا اليوم البهيج الذى استعادت به بغداد عزها وبهجتها، وتذكر الناس أيام الهناء والسرور، ولا سيما يوم زفاف زبيدة إلى هارون الرشيد من خمس وأربعين سنة.

قال ابن كثير: ويوم زفاف بوران بنت الحسن بن سهل عام ٢١٠ للهجرة فى رمضان أو شوال[2]، جاءت العروس ومعها جدتها، وزبيدة أم أخيه الأمين،

(١) العقد الفريد ٣/٢٦٢.
(٢) أغلب الروايات قالت فى رمضان.

فأجلست إلى جانبه، فصب فى حجرها جوهرًا عدده ألف درة، وقال: هذه نِحلةٌ ـ عطية ـ منى إليك، وسلى حاجتك. فأطرقت حياءً، فقالت جدتها: كلمى سيدك، وسليه حاجتك، فقد أمرك.

فقالت: يا أمير المؤمنين، أسألك أن ترضى عن عمك إبراهيم بن المهدى[1]. فقال: نعم.

قالت: وأم جعفر ـ تعنى زبيدة ـ تستأذنك فى الحج. قال: نعم.

فخلعت عليها زبيدة بذلتها الأميرية[2].

وهذه البذلة هى بدنة عبدة بنت عبد الله بن معاوية، زوج هشام بن عبد الملك، وكان الرشيد قد أهداها لها يوم زفافها. وقصة هذه البذلة بالتفصيل فى حديثنا عن أم سلمة بنت يعقوب.

وعاشت زبيدة فى بغداد فى ظل ابن زوجها المأمون، حتى توفيت معززة مكرمة عن إحدى وسبعين سنة، فى عام ٢١٦ للهجرة[3] (الموافق عام ٨٣١ للميلاد)، ودفنت فى بغداد، ومازال قبرها معلومًا إلى الآن.

قال رضا كحالة: كانت مدفونة فى مسجدها الكبير الذى بنته، واندثر عام ١١٩٥ للهجرة، ولما بنى سليمان باشا الكبير والى بغداد سور الجانب الغربى، استعملت أنقاضه فى بناء السور، ولم يبق سوى قبر زبيدة، عليه قبة مخروطية الشكل، من نوادر الفن المعمارى[4].

* * *

---

(١) كان إبراهيم المهدى قد خرج على المأمون، وأخذ لنفسه البيعة فى بغداد وما حولها، لمدة سنة وشهور، والمأمون فى خراسان، بعد مقتل الأمين، ثم هرب، واختفى، حتى عفا عنه المأمون، وأكرمه.

(٢) البداية والنهاية ٢٦٥/١٠.

(٣) قال ابن خلكان: كانت وفاتها فى جمادى الأولى عام ٢١٦ للهجرة ببغداد.

(٤) أعلام النساء ٢٨/٣.

شخصية زبيدة وأخلاقها وأعمالها

لم تعرف حياة القصور فى العصر العباسى وغيره شخصية أغنى من شخصية زبيدة زوج الرشيد، فهى فى كل ما مثلته على مسرح حياتها أسطورة تبهر رائيها، لقد عاشت زبيدة حياة أثرية، أغنت التاريخ بقصص مازالت تتناقلها الأخبار، وبأعمال خيرية بقى تأثيرها على الناس سنوات وسنوات.

كانت زبيدة شاعرة تحب الشعراء، وتعطف عليهم، وتقول الشعر ارتجالاً.

توفيت امرأة الأمين (فطيم[1])، ولما سمعت بجزعه عليها، وحزنه الشديد، قالت: احملونى إلى أمير المؤمنين، فحملت إليه، فاستقبلها، وقال: يا سيدتى، ماتت فطيم، فقالت ارتجالاً:

نفسى فداؤكر لا يذهب بك اللهَفُ

ففى بقائِكَ مما قد مضى خَلَفُ

عُوِّضت موسى فهانت كل مرزئةٍ

ما بعد موسى على مفقودةٍ أسفُ[2]

وطالما بكت على ابنها، ورثته شعرًا، كما عطفت على الشعراء، وأجزلت لهم، وخاصة الجادين منهم، مثل: أبى العتاهية والعباس بن الأحنف[3]، وغيرهما.

حدث الشاعر عمرو بن بانة، قال: كنا فى دار أم جعفر جماعة من الشعراء والمغنين، فخرجت جارية لزبيدة، وكمها مملوء دراهم، فقالت: أيكم القائل:

من ذا يُعيرك عينَه تبكى بها

أرأيتَ عينًا للبكاء تُعارُ

فأومئ إلى العباس بن الأحنف، فنثرت الدراهم فى حجره، فنفضها، فلقطها الفراشون[4].

---

(١) قيل نظم، وهى أم ابنه موسى.

(٢) مروج الذهب ٣/٤١٢.

(٣) العباس بن الأحنف، من بنى حنيفة اليمامى النجدى، شاعر غزل رقيق، نشأ فى بغداد، وتوفى بها عام ١٩٢ للهجرة، لم يمدح، ولم يهج، له ديوان شعر.

(٤) أعلام النساء ٢/١٣.

ولقد فتحت بابها لكل طالب حاجة، فهذا شاعر يقول فيها مدحًا وهى تسمع:

أزيـــــيـــدةَ ابـــنـــةَ جـــعـــفـــرِ
طـــوبـــى لـــزائـــرِكِ الـــمـــثـــابِ
تـــعـــطـــيـــهِ مـــن رجـــلـــيك مـــا
تـــعـــطـــى الأكـــفُ مـــن الـــرغـــابِ

ووثب الخدم يضربونه، فقالت: لا تفعلوا، فإنما أراد الخير، فأخطأ، ومن أراد الخير فأخطأ، أحب إلينا ممن أراد الشر فأصاب، وإنما أراد أن يقول على قول القائل:

(شمالك أجود من يمينك، وقفاك أحسن من وجه غيرك).

فظن أنه إذا ذكر الرجلين أنه أبلغ فى المدح، أعطوه ما أمل، وعرفوه ما جهل، وأمرت له بجائزة.

فقال أبو نواس: لقد ورد عليها شيء لو ورد على العباس بن عبد المطلب، ما كان عنده من الحلم والاحتمال وتسهيل الأمر أكثر مما كان عند هذه المرأة، وهى من بنات أبنائه، ولكن الله أعلم حيث يجعل رسالته[1].

ولم تصل زبيدة الشعراء فقط، وإنما شمل عطاؤها المستمر العلماء والفقهاء والأطباء والفقراء والمساكين وذوى الحاجات، ومسلوبى العقل وفاقدى الأهلية، فمثلاً كانت تعطى كل عام للطبيب جبريل بن بختيشوع خمسين ألف ألف درهم عدا الكسوة والطيب والدواب.

كذلك كان عندها جوار لا عمل لهن إلا قراءة القرآن الكريم.

يقول ابن كثير: كان لها مائة جارية كلهن يحفظن القرآن العظيم، غير من قرأ منه ما قُدِّرَ له، وغير من لم يقرأ، وكان يسمع لهن فى القصر دوى كدوى النحل، وكان ورد كل واحدة عُشر القرآن[2].

وكانت هى أيضًا كثيرة القراءة للقرآن الكريم.

(١) أعلام النساء ٢/٢٦.
(٢) البداية والنهاية ١٠/٢٧١.

يروى ابن خلكان طرفة، قال: ومن عجائب التنجيم، أن زبيدة فقدت خاتمًا بفص له قيمة فأحضرت رجلاً من أهل الصناعة، فأخذ الطالع، وقال: ما أخذ الخاتم إلا الله تعالى، وردد هذا القول، ولم يرجع عنه، فبعد مدة، فتحت زبيدة المصحف، فوجدت الخاتم فيه، وكانت قد جعلته علامة للوقف، وأنسيته[1].

ولقد عرف الفقهاء زبيدة، وأحبوا أن يكونوا عند حسن رضاها دائمًا.

روى أن أبا يوسف[2] - القاضى - دخل على الرشيد، وبين يديه جوهر لا يدرى أهو أحسن أم وعاؤه. فقال: يا أمير المؤمنين، ما صلح هذا مع كماله إلا أن تخص به أم جعفر مع كمالها. قال: ويلك يا يعقوب، هذا جوهر الخلافة، ولا يصلح أن يؤثر به غيرها.

ويلغ ذلك أم جعفر، فما شعر أبو يوسف إلا بخادم أم جعفر، فقال: السيدة تقرأ عليك السلام، وتقول: أحسن الله جزاءك عن ودنا، وميلك إلينا، وقد كافأناك بالعاجل، فأدخل خدمًا يحملون التخوت[3] والبدور والعطر فى الصوانى، والجوهر فى الأوانى، فوضعت بين يديه...[4].

وما نظن أن فقيهًا فى مكانة أبى يوسف كان يقصد بكلامه مع هارون الرشيد إرضاء السيدة زبيدة، فكلام أبى يوسف يستمد قوته من كونه فقيه الدولة ومفتيها، ولعله لم يجد لما رأى من الجواهر خيرًا من أن يكون بين يدى زوج أمير المؤمنين، فتوالت عليه بعد ذلك الهدايا من جانبها، تقديرًا له، ولما أفتى به.

وكانت زبيدة دائمًا مع الضعيف حتى ينتصر.

قال رضا كحالة: مرّ القاسم[5] بن الرشيد فى موكب عظيم، وكان من أَتْيَهِ الناس، وأبو العتاهية جالس مع قوم على ظهر الطريق، فقام أبو العتاهية حين رآه إعظامًا له، فلم يزل قائمًا حتى جاز، ولم يلتفت إليه، فقال أبو العتاهية:

---

(١) وفيات الأعيان ٢/٣١٧.

(٢) هو يعقوب بن إبراهيم الأنصارى الكوفى البغدادى، صاحب الإمام أبى حنيفة وتلميذه، وكان فقيهًا معدودًا من حفاظ الحديث، ولد بالكوفة عام ١١٣ للهجرة، ولى القضاء للمهدى والهادى والرشيد، أول من دعى قاضى القضاة، وقاضى قضاة الدنيا، له كتب ومصنفات، توفى فى بغداد عام ١٨٢ للهجرة. (الأعلام).

(٣) التخت: وعاء تصان فيه الملابس.

(٤) بلاغات النساء ١٤٦.

(٥) أمه أم ولد رومية، اسمها ماردة.



يــتــيــهُ ابــنُ آدم مــن جــهــلــه

كــأن رحــا الــمــوتِ لا تَــطــحــنــه

فسمع بعض من فى موكبه، فأخبر به القاسم، فبعث إلى أبى العتاهية، وضربه مائة مقرعة، وقال له: يا ابن الفاعلة، أتعرض لى فى مثل هذا الموضع. وحبسه فى داره.

فدس أبو العتاهية إلى زبيدة هذه الأبيات:

حــتــى مــتــى ذو الــتــيــه فــى تــيــهِهِ

أصــلــحــه الله وعــافــاهُ

يــتــيــهُ أهــل الــتــيــه مــن جــهــلــهــم

وهــم يــمــوتــونَ وإن تــاهــوا

مــن طَــلــبَ الــعــزَّ عــلــيــه الــتُّقى

فــإن عــزَّ الــمــرء تــقــواهُ

لــم يــعــتصِــم بــالله مــن خــلــقِــهِ

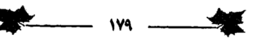
مــن لــيــس يــرجــوهُ ويــخــشــاهُ

وكتب إليها بحاله، وضيق حبسه، فرقت له، وأخبرت الرشيد بأمره، وكلمته فيه، فأحضره وكساه ووصله، ولم يرض عن القاسم حتى بر أبا العتاهية، وأدناه، واعتذر له[1].

وعندما يذكر الإنفاق والخير فى الحج، تذكر زبيدة على مر التاريخ، ومن يوم أذن رسول الله ﷺ للمسلمين بالحج، فقد حجت عدة مرات، وفى كل مرة تترك بصمتها على الطريق، وعلى الناس، وعلى المشاعر، وقد ظلت عين زبيدة فى مكة ينبوع الماء لأهل مكة حتى زمن قريب.

حجت زبيدة أول حجة بعد تولى الرشيد الخلافة عام ١٧٦ للهجرة (الموافق ٧٩٢ للميلاد)، وبلغت نفقتها فى ستين يومًا أربعة وخمسين ألف ألف (مليون)، ووجدت الماء قليلاً فى مكة، وفى المشاعر، حتى قيل كانت الراوية، أى: حمل

(١) أعلام النساء ٢/٢٤.



الماء ـ بدينار، فأمرت بحفر العيون والآبار، وأسالت الماء من الحل إلى الحرم، ومهدت السبل إلى وسط الجبال والوهاد والطرق الوعرة، لمسافة زادت على العشرين كيلو مترًا، وجعلت للحجاج والعمار عينًا خاصة بهم، كلفتها ألف ألف وسبعمائة ألف دينار.

وصفها اليافعى فى القرن الخامس الهجرى، قال: إن آثارها باقية، ومشتملة على عمارة عجيبة، مما يتنزه برؤيتها على يمين الذاهب إلى منى من مكة، ذات بنيان محكم فى الجبال، تقصر العبارة عن وصف حسنه، وينزل الماء منه إلى موضع تحت الأرض، عميق ذى درج كثيرة، لا يوصل إلى قراره إلا بهبوط كالبير...[1].

وجاء فى الموسوعة العربية: جلبت زبيدة ـ الماء لعين بمكة عرفت باسمها، من أقصى وادى نعمان، شرقى مكة[2].

وقال د. حسين مؤنس: منبع عين زبيدة بعد عرفة فى طريق الطائف[3].

ولم تكتف بهذه العين، إنما أنشأت كل ما يستلزم الطريق لتكون مطروقة مأهولة.

يقول ابن جبير[4] بعد أن ذكر المصانع والبرك والآبار والمنازل التى أنشأتها من بغداد إلى منًى: إن كل ذلك من آثار زبيدة، فانتدبت لذلك مدة حياتها، فأبقت فى هذه الطريق مرافق، ومنافع تعم وفد الله تعالى كل سنة، من لدن وفاتها إلى الآن، ولولا آثارها الكريمة فى ذلك لما سلكت هذه الطريق، والله كفيل بمجازاتها والرضا عنها[5].

وقد فصل صاحب كتاب أعلام النساء بعضًا من أعمالها، وحدد أماكنها، قال: وينسب إليها المحدث وهو منزل فى طريق مكة بعد النقرة، على ستة أميال منها،

(١) أعلام النساء ٢/٢٧.

(٢) الموسوعة العربية الميسرة ٩١٩.

(٣) أطلس الإسلام ٢٥٢.

(٤) محمد بن أحمد الأندلسى، رحالة أديب، ولد فى بلنسية عام ٥٤٠ للهجرة، برع فى الأدب، وقال الشعر، وزار المشرق لولعه بالترحال، ألف (رحلة ابن جبير) عام ٥٨١ للهجرة، مات بالإسكندرية عام ٦١٤ للهجرة (الموافق ١٢١٧ للميلاد)، له ديوان شعر. (الأعلام).

(٥) أعلام النساء ٢/٢٧.

فيه قصر، وقِبَاب متفرقة، وفيه بركة وبيران ماؤهما عذب، وينسب إليها العُنابة، وهى بركة لزبيدة بعد قِبَاب[1] على ثلاثة أميال تلقاء سميراء[2] - بين مكة والمدينة - وبعد توز[3] وماؤها ملح غليظ، وينسب إليها بركة أم جعفر، وهى فى طريق مكة بين المغيثة[4] والعذيب[5]، وينسب إليها القنيعة وهى بركة بين الثعلبية[6] والخزيمية[7] بطريق مكة، وينسب إليها الحسنىّ، وهى بئر على ستة أميال من قَرَوْرى قرب معدن النفرة[8]، وينسب إليها الزبيدية، وهى بركة بين المغيثة والعذيب، وبها قصر ومسجد عمرتهما زبيدة[9].

وقد نسب د.حسين مؤنس لزبيدة تعبيد الطريق للحجاج، وتمهيدها، قال: وفى أيام هارون الرشيد، قامت زوجته السيدة زبيدة بإنشاء طريق الحج من العراق إلى مكة والمدينة إنشاء جديدًا، فحفرت الآبار، وابتنت البُرد[10]، ومنازل الحجيج، وهذا هو العمل الجليل الذى يسمى بطريق زبيدة[11].

ولم يكن خيرها خاصًا بالحجاج فقط، وإنما عمَّ المشاركين فى هذه الأعمال الجليلة، فقد كانت لهم النبراس والقدوة الحسنة فى البذل والعطاء.

قال صاحب العقد الثمين: حضر إليها وكيلها فى بعض الأيام، وقال: قد انصرف إلى الآن نحو أربعمائة ألف درهم. فقالت له: ما أردتَ بهذا القول إلا أن تعنفنى، وتندمنى، وتمنعنى من الخير. انصرف وتمم العمل، ولو كان أضعاف ذلك، واقترحت عليه أشياء أُخر يعملها، فلما أنهت العمل، وأحضر العمال بين يديها ليكتبوا الحساب قدامها، قالت لهم: خلوا الحساب إلى يوم الحساب[12].

(١) القباب: موضع بنجد على طريق حاج البصرة. (معجم البلدان).
(٢) منزل بطريق مكة بعد توز مصعدًا.
(٣) منزل فى طريق الحج بعد فيه للقاصد إلى الحجاز، وهو جبل لبنى أسد.
(٤) منزل فى طريق مكة بعد العذيب نحو مكة.
(٥) ماء بين القادسية والمغيثة، بعد القادسية بأربعة أميال.
(٦) منزل بعد الكوفة بعد الشقوق.
(٧) منزل بعد الكوفة، وقيل الأجفر.
(٨) شرقى المدينة المنورة.
(٩) أعلام النساء ٢/٢٨.
(١٠) محطات فى الطريق للبريد.
(١١) أطلس الإسلام ٢٠٧.
(١٢) العقد الثمين ٨/٢٣٦.

وفى عمل آخر من أعمالها الخيرية فى طريق الحج، وبعد أن تم العمل، جاءها المحاسبون، فأخذت منهم الدفاتر، ورمتها فى دجلة، وقالت: من فضل عنده شيء، فهو له، ومن بقى له شيء أعطيناه، وألبستهم الخلع[1].

تقول زينب فواز: ولكثرة مال زبيدة وسعة نفقتها ضرب الحريرى[2] المثل بها فى قوله: لو حبتك شيرين[3] بجمالها وزبيدة بمالها[4].

والنظرة الشاملة إلى أعمال زبيدة تدلنا على أن هذه المرأة كانت ذات رؤية حضارية، فهى تفكر فى حل مشكلات المسلمين، كما تفكر فى شئون الغد القريب والبعيد بعقلية ذات بعد هندسى، لأن شق الطرق، وإجراء عيون الماء يعتبر من أعمال وزارات متخصصة بأعمال الهندسة والبناء، وقد تولت زبيدة مهمة الإنفاق على هذه المشروعات إلى جانب مهمة التفكير فيها أصلاً، وهى أعمال ما عهدنا أن تقوم بها النساء فى الدول السابقة والمعاصرة، اللهم إلا ما كان من حماتها الخيزران، وقد تفوقت زبيدة فى هذا المجال، إلى جانب ما عرف عنها من الكرم والسخاء.

وفى خاتمة حديثنا عن هذه المرأة العظيمة نذكر رؤيين رآهما رجلان لزبيدة بعد وفاتها ذكرهما ابن كثير، قال: قال عبد الله بن المبارك[5]: رأيت زبيدة فى المنام، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقالت: غفر الله لى من أول معول ضرب فى طريق مكة. ورآها آخر، وسألها عما كانت تصنعه من المعروف والصدقات، وما عملته فى طريق الحج، فقالت: ذهب ثواب ذلك كله لأهله، وما نفعنا إلا ركعات كنت أركعهن فى السحر[6].

رضى الله عن زبيدة وأرضاها.

* * *

---

(1) أخبار الأول ٧٣.

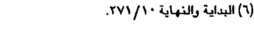
(2) الحريرى صاحب المقامات المشهور، له شعر حسن ومؤلفات، نشأ فى البصرة ومات بها، ولد سنة ٤٤٦هـ وتوفى سنة ٥١٦هـ (الأعلام).

(3) شيرين: جارية كسرى فارس ضرب بها المثل بالجمال الفاتن.

(4) الدر المنثور ٢١٧.

(5) التميمى شيخ الإسلام، ولد فى خراسان عام ١١٨ للهجرة، مجاهد وصاحب التصانيف، أفنى عمره فى الأسفار حاجًا، ومجاهدًا، وتاجرًا، أول من صنف فى الجهاد، وتوفى منصرفه من غزو الروم على الفرات عام ١٨١ للهجرة.

(6) البداية والنهاية ٢٧١/١٠.



٦

العباسة بنت المهدي
(أخت هارون الرشيد)

تمهيد

العباسة بنت المهدى، فتاة بنى العباس، علم من أعلام النساء وضعتها الظروف وراء الأحداث، رغم أنها لم يكن لها يد فيها، غير أنها كانت ولا شك ذات مواهب من الذكاء والجمال، حتى صارت عنصرًا أساسيًا فى مجلس أخيها الرشيد، إلى جانب الوزراء والندماء.

لم يكن للعباسة دور سياسى فى حياتها، ولكن القصاص ربطوا بسيرتها أخطر حدث سياسى وقع بعد وفاتها - عام ١٨٢ للهجرة - بخمس سنين، حيث نكب أخوها الرشيد البرامكة، وقضى عليهم عام ١٨٧ للهجرة، قالوا: إن ذلك كان بسبب علاقتها الزواجية بجعفر البرمكى، والعهد بالزواج أن يوثق الأواصر، ويقرب الأباعد، فكيف كان الزواج هنا نكبة النكبات؟ وكيف استكنَّ الحقد فى نفس الرشيد إلى أن تنفس بعد أن ظُنَّ أنه خمد وبرد؟

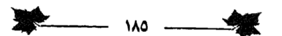
هل صحيح أن الرشيد عقد لأخته العباسة على وزيره ونديمه جعفر البرمكى، شريطة ألا يقربها؟ أى أن يكون زواجهما مجرد علاقة مجلسية، بحيث يتراءيان، ولا يتماسان؟

وهل عرف التاريخ مثل هذه العلاقة بين رجل وامرأة؟ زواج مع إيقاف التنفيذ!! فإذا تماسّا، انقلبت الدنيا، وطارت الرءوس، وجرت دماء البرامكة أنهارًا؟!

إذن، ماذا كانت القيمة السياسية أو الاجتماعية لهذا الزواج؟ لاسيما إذا علمنا أن العباسة تزوجت قبل جعفر بزوجين ماتا عنها!!

أيمكن أن يكون لهذه العلاقة الشفوية - كما رويت - معنى لدى امرأة فى عز شبابها؟! وفى شباب عزها؟!

وجعفر الزوج المزعوم... ما خبره؟ وما القيمة الفعلية لهذه العلاقة، وهى لم تزده مكانة عند الرشيد، فقد كان بلغ من النفوذ أعلى مكانة؟! وكان لديه من الزوجات والجوارى ما يملأ ساحته ويفيض؟!



لقد يفسَّر التاريخ أحيانًا بطريقة مستحيلة، خير منها الصمت عن التفسير، وهذا هو ما دفع بعض المؤرخين والنقاد إلى إنكار أن يكون شيء من ذلك قد حدث، بل هي مجرد ادعاءات كواذب، وتخبط في الظلمات!!

لكن خيال القصاص لا يتوقف عن التلفيق؛ لبناء (الدراما) بشكل مثير بعد أن زالت الدول، واختفت معالم الحقيقة، حينئذ تصبح المأساة ملهاة، وتتوالد الأقاصيص لأهداف سياسية أو اجتماعية، تسلية أو تلهية، فإذا بالقصة التي كانت في بيئتها مجرد حدث عادي لا يستلفت الانتباه - إذا بها مجمع الأبطال، وحديث الأجيال!!

هكذا كانت بالتأكيد قصص ليلى والمجنون، وبثينة وجميل، ولُبنَى وقيس، وعزة وكثيّر.. وأخيرًا العباسة وجعفر، وكل هذه القصص شتان فيها بين الواقع والمضمون القصصي، ولكنه الفن.

كان أسلافنا إذا أعياهم الجد، يتخففون من أعبائه وإعيائه ببعض الحديث عن الدنيا، ويرون أنهم حينئذ يتعاطون بعض الباطل، شيء من الهزل يطرى جمود الجد وقساوته.

وقصة العباسة تجمع في نظرنا بين الجد والهزل، بين المأساة والملهاة، بين حديث الحق، وحديث الباطل، ولعلنا بتقديمها ضمن هذه السلسلة نكون قد أنصفناها، بعد أن ظلمها المؤرخون والشعراء والفنانون.

* * *

العباسة[1] بنت المهدى

هى العباسة بنت الخليفة المهدى، ثالث خلفاء بنى العباس، وأخت الخليفة موسى الهادى، والخليفة هارون الرشيد.

وكان المهدى قد تزوج بحرتين، هما: ريطة بنت أبى العباس السفاح، ورقية بنت عمرو حفيد الصحابى الجليل الفاتح عمرو بن العاص.

وتسرى أيضًا بعدد كبير من الجوارى، ذكر بعضهن ابن عبد ربه، قال: وأول جارية ابتاعها (محيَاة) فرزق منها ولدًا، مات قبل استكمال سنة، وكان يبتاع الجوارى باسمها، ويقربهن إليها، وأول من حظى منهن عنده (رحيم) ولدت له العباسة، ثم تسرّى بالخيزران، فولدت له موسى الهادى وهارون الرشيد، والبانوقة[2]، ثم عرف جاريتين هما حُلة وحَسنة، وكانتا مغنيتين[3].

كذلك تسرى بجارية سوداء اسمها شَكْلة قال عنها الأصبهانى: رآها المهدى، فطلبها من محياة، فأعطته إياها، فولدت منه إبراهيم[4].

وتسرى كذلك بجارية اسمها مكنونة أنجب منها صبية اسمها عُلَيَّة، وكان بعض المؤرخين قد خلط بين العباسة وعُلَية، واعتبروهما شخصية واحدة، ولكن ذلك ليس صحيحًا كما سنرى.

ولدت العباسة قرابة عام ١٥٥ للهجرة (الموافق عام ٧٧١ للميلاد) بعد أخويها الهادى والرشيد[5].

ولم نسمع خبرًا عن رحيم أم العباسة، كما سمعنا عن الخيزران أم الهادى والرشيد، فلعلها ماتت والعباسة طفلة صغيرة، أو لعل شخصيتها لم تكن ذات أهمية كبيرة مؤثرة كالخيزران.

---

(١) معناها: المتجهمة الوجه. (جمهرة النساء ٥٠٠)، والعباس: الأسد تهرب منه الأسود. (الوسيط).

(٢) وقيل: الياقوتة وقيل: الباثوقة.

(٣) العقد الفريد ٥/١١٥.

(٤) الأغانى ٩٦/١٠. وكان ذلك عام ١٦٢ للهجرة، وإبراهيم هو الذى اشتهر بالغناء والألحان، وكان يقال له ابن شكلة ليفرق بينه وبين إبراهيم الموصلى المغنى الشهير.

(٥) ولد الهادى عام ١٤٤ للهجرة، وولد الرشيد عام ١٤٨ للهجرة.



عاشت العباسة فى قصر أبيها المهدى، وتربت مع بقية أطفال الأسرة، وتعلمت وتأدبت على أيدى المؤدبين والمعلمين، شأن أولاد الخلفاء، وأخذت من كل الفنون والآداب نصيبًا، حتى صارت ذات فضل وعلم وأدب، إلى جانب ما حباها الله به من حسن وجمال، فما إن بلغت سن الزواج حتى طلبها الخاطبون.

وفى عام ١٧٢ للهجرة (الموافق ٧٨٨ للميلاد) زوجها أخوها الخليفة الرشيد ابن عم أبيها محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس، ذلك على أغلب الروايات.

لكن رواية ابن كثير حدّدت وقتًا سابقًا لزواجها، يقول: كان محمد بن سليمان من رجالات قريش وشجعانهم، جمع له المنصور بين البصرة والكوفة، وزوجه المهدى ابنته العباسة[1]. أي: قبل تولى الرشيد الخلافة عام ١٧٠ للهجرة.

وفى عهد هارون الرشيد تولى محمد بن سليمان إمارة مصر ما بين عام ١٧٠ وعام ١٧١ للهجرة، ثم أعاده واليًا على البصرة.

ولما كان زوجها واليًا على البصرة جنوب العراق، كان لابد للعباسة من اللحاق به، فتركت بغداد، وانتقلت إلى البصرة، حيث عمل زوجها.

ولكن القدر لم يمهله طويلاً، ففى جمادى الآخرة عام ١٧٣ للهجرة، وفى نفس اليوم الذى ماتت فيه الخيزران - زوج أبيها المهدى - مات زوجها.

ولما كان محمد بن سليمان من وجوه بنى العباس، وسراتهم وأغنيائهم، فقد ترك ثروة لا حصر لها من ضياع وعبيد وأموال.

انتقل زوج العباسة إلى الرفيق الأعلى وله من العمر واحد وخمسون عامًا، ولم يترك أولادًا.

وبعد موته أخذت العباسة نصيبها من تركته (الربع)[2]، واستولى الرشيد على بقية التركة، ولم يعط جعفرًا أخا سليمان شيئًا، وكان من جملة التركة آلاف مؤلفة من الدنانير والدراهم.

قال ابن الزبير: خلف محمد بن سليمان بن على حين مات، وهو والى البصرة والعراقين عام ١٧٣ للهجرة مالاً عينًا سوى الضياع والدور والمُسْتغلات والرقيق

(١) البداية والنهاية ١٠/١٦٢.

(٢) للزوجة الربع ما دام الزوج ليس له ولد، وإن كان له ولد، فلها الثمن.



والجوهر والفرش والعطر والكسوة والآنية والدواب - ثلاثة آلاف ألف دينار، وخلف من ذلك شيئًا كثيرًا، وكان يغل كل يوم مائة ألف درهم، ويسمع دعاؤه فى المسجد: اللهم أوسع علىّ، فإنى لا يسعنى إلا الكثير[1].

ونعجب فى قصة هذا الرجل لأمرين، الأول: هذا المال الكثير والبخل والشح اللذين اتسم بهما سليمان، وأين ذهب كل ما كنز؟!! لقد قيل إنه كان يكنز ما لا يكنز، مثل: الجبن والسمك، فما بالك بما يكنز، وسبحان من له الدوام.

والأمر العجب الثانى هو تدخل الرشيد فى تركة سليمان، ووضع يده عليها كلها، لكن ابن تغرى بردى يشرح لنا عن سبب حرمان شقيق محمد من وراثته، قال: كان سبب أخذ الرشيد تركته أن أخاه جعفر بن سليمان كان يسعى به إلى الرشيد حسدًا له ويقول: إنه لا مال له ولا ضيعة إلا وقد أخذ أكثر من ثمنها ليقوى على ما تحدثه به نفسه - يعنى الخلافة - وإن أمواله حل طلق[2] لأمير المؤمنين، أى ما يرثه عن أخيه بعد موته.

وكان الرشيد يأمر بالاحتفاظ بكتبه، فلما توفى محمد بن سليمان، أخرجت الكتب الواردة من جعفر أخيه، واحتج الرشيد عليه بها فى أخذ أمواله، ولم يكن له أخ لأبيه وأمه غيره، فأقرّ جعفر بالكتب، فأخذ الرشيد جميع الأموال، ولم يعط جعفرًا منها الدرهم الواحد.

ويعلق ابن تغرى بردى قائلاً: انظر إلى شؤم الحسد وسوء عاقبته[3].

أما مصير المال، فأغلب الروايات قالت إنه وضع فى بيت مال المسلمين، كما حدد الحافظ ابن كثير الذى قال فى مصير أموال محمد بن سليمان: أمر الرشيد بالاحتياط على حواصله التى تصلح للخلفاء، فوجدوا من ذلك شيئًا كثيرًا من الذهب والفضة والأمتعة، وغير ذلك، فنضدوه ليستعان به على الحرب وعلى مصالح المسلمين[4].

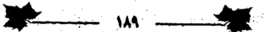
---

(١) الذخائر والتحف ٢٢٣.

(٢) حلال.

(٣) النجوم الزاهرة ٢/٧٥.

(٤) البداية والنهاية ١٠/١٦٢.



وهناك روايات تقول: إنه وزع أموال سليمان على المغنين والندمان، والله أعلم.

وأصبحت العباسة فى هذه السن المبكرة أرملة، لكنها حازت أموالاً طائلة، وضياعًا كثيرة تغل لها كل عام آلاف الدنانير، عدا الجواهر والعبيد الذين بلغ عددهم خمسة آلاف عبد وجارية.

وبمجرد انتهاء عدة العباسة، تزوجت من ابن عم زوجها إبراهيم بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس، فى شوال من عام ١٧٣ للهجرة.

قال البغدادى: وتوفى عنها محمد بن سليمان، وخلف عليها إبراهيم بن صالح ابن على[١]، وهو من أكابر بنى العباس، تولى للمهدى إمارة دمشق وفلسطين، ثم مصر من محرم عام ١٦٥ إلى آخر عام ١٦٧ للهجرة، كذلك تولى الجزيرة لموسى الهادى، ثم لهارون الرشيد الذى أبقاه فى الجزيرة واليًا، ثم نقله إلى مصر ثانيًا، ومكث بها مدة ثلاثة أشهر، من نصف جمادى الأولى حتى ٣ من شعبان عام ١٧٦ للهجرة، حيث توفى، ودفن فى سفح المقطم فى مصر.

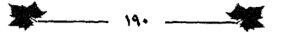
ومن طريف ما يحكى عنه أنه مرض فى بغداد وأعلنوا وفاته وحنطوه وكفنوه وتصادف وجود طبيب هندى اسمه صالح بن بهلة، فلما نظر إليه حكم بأنه ما زال حيًا وأمر بنزع أكفانه وغسيل حنوطه، ثم أمسك بإبهام يده اليسرى وغرز فيها إبرة كانت معه، فجذب إبراهيم يده وعالجه حتى قام.

يقول القفطى: فقال إبراهيم للرشيد: كنت نائمًا ورأيت فى منامى كأن كلبًا قد أهوى علىّ وعضنى فى يدى اليسرى أحس بوجعها.. وعاش إبراهيم بعد ذلك دهرًا، ثم تزوج العباسة بنت المهدى وولى مصر وفلسطين وتوفى بمصر وقبره بها[٢] وقيل عنه: مات ببغداد ودفن فى مصر.

ولم يثبت لنا مجىء العباسة إلى مصر لقصر المدة التى عاشها فيها زوجها، أو ربما جاءت معه فى مدة ولايته الأولى.

---

(١) المحبر ٦٠.
(٢) أخبار العلماء ١٤٧.



وكان إبراهيم خيرًا جوادًا دَيِّنًا ممدحًا يأتيه الشعراء، ويقصده المحتاجون لغناه وكرمه، فقد تزوجت العباسة البخل كله فى شخص محمد بن سليمان، ثم الكرم كله فى شخص إبراهيم بن صالح، ثم ما لبثت أن ترملت بعد زيجتين لم تطل مدتهما إلا بضع سنوات، ولكنها خرجت منهما بثروات طائلة جعلتها لا تفكر فى الزواج إلى حين.

وانتقلت إلى الحياة فى بغداد، وابتنت لها قصرًا فخمًا فى الميدان الكبير[1] بالمدينة، بدأت فيه المرحلة التالية من حياتها.

* * *

(١) انتقلت ملكية هذا القصر فيما بعد إلى ابن أخيها الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد.

العباسة الأرملة

ولا شك أن امرأة تتزوج مرتين فى مثل هذه الفترة الوجيزة، وفى تلك السن الصغيرة، ثم تفجع فى كلا الزوجين بالموت، يصيبها الخوف من أن تصادف فى المرة الثالثة موقفًا تعيسًا كالذى سبق فى حياتها، مهما كانت نتيجة التجربتين مثمرة مثرية، يكفيها أنها واجهت الترمل مرتين؛ ولذلك آثرت تأخير الزواج للمرة الثالثة إلى أن تستيقن من أن النحس نسيها وتخلى عن تعقبها، والترصد لها، وقنعت بأن تعيش فى ظل أخيها الخليفة هارون الرشيد الذى كان مجلسه ينسيها ولا شك - آلامها نتيجة الحرمان من الزوج كما كان يملأ حياتها بأمور أخرى أتيحت لها فى مجلس الرشيد من الأنس والبهجة.

وكان الرشيد يحبها حبًا عظيمًا، حتى إنه كان لا يفارقها إلا لمهمة من مهام الدولة، وكان لا يأنس بأخت من أخواته أنسه بها، فقربها إليه، وأجلسها معه فى جلسات أنسه وسمره واستمتاعه.

وكان لجعفر[1] بن يحيى البرمكى نفس المنزلة من الرشيد، فقد كان يدخل عليه بغير إذن، وربما دخل عليه وهو فى الفراش - وهذه وجاهة ومنزلة عالية - كما قال ابن كثير.

وكان جعفر عند الرشيد من أحظى العشراء، وقيل: على الشراب المسكر، وربما كان الرشيد يستعمل فى أواخر خلافته المسكر، كما ذكرت بعض الروايات، غفر الله له.

وإن كنا نستبعد ذلك، فقد كان للرشيد مكانة من العلم والدين، وحرص على العبادة وأوقات الصلاة، وكان يصلى مائة ركعة نافلة فى اليوم والليلة، ويصاحب العلماء والأولياء، ويبكى عندما يسمع مواعظهم، ويحج عامًا ويغزو عامًا، فكيف يوصم بمعاقرة الخمر، والجهر بها؟

---

(١) هو جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك، ولد عام ١٥٠ للهجرة، كان وأبوه وأخوه مستشارى الرشيد المقربين، وهم من أسرة كبيرة فارسية، أسلم عميدها الفضل فى عهد السفاح، وكان وزيرًا له، وللفضل هذا أخ هو خالد بن برمك البهرانى، ومنهما الأولاد الذين عظم شأنهم، وكثر عددهم، وتوزروا فى عهد الرشيد، حتى غلبوا على الخلافة، ثم كانت نهايتهم على يديه أيضًا كما سنرى. وهناك طرفة ذكرها إدوارد لين، المستشرق الإنجليزى فى كتابه (المصريون المحدثون)، قال فيها: إن أشهر الراقصات بمصر ينتمين إلى قبيلة متميزة تسمى (غوازى)، ويدعين الانتساب إلى أسرة البرامكة المشهورة. (إدوارد لين: ١٨٧).

قال ابن خلدون: وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق - مذهب أبى حنيفة - وفتاويهم فيها معروفة، وأما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه بها، فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرمًا من أكبر الكبائر عند أهل الملة[1].

حقًا كان الرشيد يحب جعفرًا، ويقربه لفصاحته وبلاغته وذكائه وكرمه، وصارت له مكانة عند الرشيد حتى علا قدره، ونفذ أمره، وعظم محله، وجلت منزلته، فخُلُقه السمح، ووجهه الطلق الباش، جعلا مكانته عند الناس رفيعة، وعند الرشيد على أعلى مستوى.

ومع أن الفضل شقيق جعفر كان أخًا للرشيد فى الرضاعة - فقد أرضعت الخيزران الفضل[2]، وأرضعت أم الفضل[3] الرشيد - فإنه لم تكن له هذه المنزلة الخاصة التى كانت لجعفر عند الرشيد.

قال ابن كثير: وكان الفضل أكبر مرتبة عند الرشيد من جعفر، وكان جعفر أحظى عند الرشيد منه وأخص[4].

وكان أبوهما يحيى لا يعجبه تكالب جعفر على الرشيد، وملازمته إياه، ومنادمته له، وطالما نهى ابنه عن هذه المنادمة، وكان يعلن عدم رضاه عن هذا التقارب.

قال مرة للرشيد: يا أمير المؤمنين، أنا والله أكره مداخلة جعفر معك، ولست آمن أن ترجع العاقبة فى ذلك علىّ منك، فلو أعفيته واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك، كان ذلك واقعًا بموافقتى، وآمن لك علىّ. قال الرشيد: يا أبت، ليس بك هذا، ولكنك إنما تريد أن تقدم عليه الفضل.

لقد كان الرشيد أعرف بطباع الأخوين، فالفضل لا يصلح لهذه المنادمات والمسامرات؛ إذ كان جادًا فى كل أمره، وقال مرة: لو علمت أن الماء ينقص من مروءتى ما شربته[5].

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٢٩.

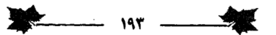
(٢) قال الشاعر مخاطبًا الفضل:

كفى لك فخرًا أن أكرم حرة ... غذتك بثدى والخليفة واحد

(٣) اسمها زبيدة بنت منير بن يزيد.

(٤) البداية والنهاية ١٠/٢١١.

(٥) الطبرى ١٠/٢٩٣.



زواج العباسة من جعفر!!

هل تزوجت العباسة من جعفر البرمكي؟ إن كانت تزوجت فإن قصة هذه الزيجة عجيبة وفريدة وغير مقنعة، ولكنا سنعرض ما جاء على ألسنة الرواة من وقائع هذه القصة، فمنهم من ذكرها بالتفصيل الدقيق، ومنهم من ذكرها إجمالاً، ومنهم من أشار إليها إشارة خفيفة، ومنهم من نفاها على الإطلاق.

وسننقل هنا عن المسعودى على اعتباره أنه من مؤرخى أوائل القرن الرابع الهجرى، وأقرب الكتاب من تاريخ وقوع الأحداث، قال: لما بلغ جعفر بن يحيى ابن خالد بن برمك، ويحيى بن خالد، والفضل وغيرهم من آل برمك ـ ما بلغوا من الملك وتناهوا إليه من الرياسة، واستقامت لهم الأمور حتى قيل: إن أيامهم عرس وسرور دائم لا يزول..

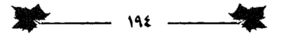
قال الرشيد لجعفر بن يحيى: ويحك يا جعفر، إنه ليس فى الأرض طلعة أنا بها آنس، ولا إليها أميل، وأنا بها أشد استمتاعًا وأنسًا منى برؤيتك، وإن للعباسة أختى منى موقعًا ليس بدون ذلك، وقد نظرت فى أمرى معكما، فوجدتنى لا أصبر عنك ولا عنها، ورأيتنى ناقص الحظ والسرور منك يوم أكون معها، وكذلك حكمى فيك فى يوم كونى معك دونها، وقد رأيت شيئًا يجتمع لى به السرور، وتتكاثف به اللذة والأنس.

فقال جعفر: وفقك الله يا أمير المؤمنين، وعزم لك على الرشد فى أمورك كلها.

قال الرشيد: قد زوجتكما تزويجًا تملك به مجالستها، والنظر إليها، والاجتماع بها فى مجلس أنا معكما فيه، لا سوى ذلك.

فزوجه الرشيد بعد امتناع كان من جعفر إليه فى ذلك، وأشهد له من حضره من خدمه وخاصة مواليه وأخذ الرشيد عليه عهد الله ومواثيقه وغليظ أيمانه أنه لا يخلو بها، ولا يجلس معها، ولا يظله وإياها سقف بيت إلا وأمير المؤمنين الرشيد ثالثهما، فحلف له جعفر على ذلك، ورضى به وألزمه نفسه، وكانوا يجتمعون على هذه الحالة التى وصفناها، وجعفر فى ذلك صارف بصره عنها، مُزْوَرٌّ بوجهه هيبة لأمير المؤمنين، ووفاء بعهده وأيمانه ومواثيقه على ما وافقه الرشيد عليه[1].

(١) مروج الذهب ٣/٣٨٤.



والحق أننا ما وجدنا موقفًا مشحونًا بالأعاجيب أكثر من هذا الموقف فيما يتعلق بكل أطرافه، فالرشيد أمير المؤمنين، وهو من هو فى عظمته وأبهته وفقهه وذكائه، ومع ذلك فهو يبتدع شكلاً من أشكال الزواج لم تعرفه مجتمعات الأرض كلها، من كل الأديان والأجناس، فالزواج لا يحتمل إلا تلك العلاقة الخصيصة بين الرجل وامرأته، فكيف تقف هذه العلاقة عند حدود التراثى فى مجلس الخليفة فقط، بل ربما لم يستطع الزوجان أن يتراءيا حياءً وخوفًا من أمير المؤمنين، وقد كنا وما زلنا نعلم أن مجلس الرشيد كان يحضره علماء وفقهاء وأئمة، فكيف أقر هؤلاء هذه العلاقة القشرية التى لا تعنى شيئًا من مفهوم الزواج، أى إنه زواج مع إيقاف التنفيذ!!

ومن ناحية العباسة، فقد كانت امرأة مترملة تدرك من أسرار الزواج ما جربته مع زوجين سابقين، فكيف قبلت أن ترتبط بتلك العلاقة الشفوية التى لا يتحقق من ورائها شىء من معنى الزواج الحقيقى؟!!

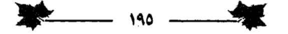
وأما جعفر فعلى الرغم من أنه كان يتمتع بالكثير من الجوارى والزوجات - فإن إرادة أمير المؤمنين ملكت عليه إرادته، وكان بين نارين: أن يقبل بما عرض عليه أمير المؤمنين وهو راغم، أو يعتذر عن ذلك، حيث لا يأمن سخط أمير المؤمنين عليه، فقد كان أشبه بالدمية التى لا إرادة لها ولا روح.

وعلى أى حال فإن هذا الزواج بالشكل المروى لا يحقق شيئًا جديدًا بين العباسة وجعفر، فقد كانا قبله يتجالسان فى مجلس الخليفة، ولا حرج على أحدهما إذا ما نظر إلى الآخر، فإنه فى حالة الالتزام بأدب الإسلام سوف يغض بصره، والأخبار تشير إلى أن هذا الأدب فى غض البصر كان مهيمنًا على جعفر بعد الزواج كما كان قبل الزواج.

إن هذه الأعاجيب تقود إلى أحداث أخرى فى قصة جعفر والعباسة، وسنسير مع الرواية رغم كل شىء إلى نهايتها.

فهذا المسعودى يشرح تفاصيلها العجيبة غير المنطقية، قال: وعلقت العباسة وأضمرت الاحتيال عليه، كتبت إليه رقعة، فرد رسولها وشتمه وتهدده، وعادت فعاد بمثل ذلك، فلما استحكم اليأس عليها قصدت لأمه[1]، ولم تكن

(١) هى: فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قحطبة، من اليمن، وقيل اسمها: عبادة.



بالحازمة، فاستمالتها بالهدايا من نفيس الجواهر والألطاف، وما أشبه ذلك من كثرة المال وألطاف الملوك، حتى ظنت أنها لها فى الطاعة كالأمة، وفى النصيحة والإشفاق كالوالدة.

ألقت إليها طرفًا من الأمر الذى تريده، وأعلمتها ما لها فى ذلك من حميد العاقبة، وما لابنها من الفخر والشرف بمصاهرة أمير المؤمنين، وأوهمتها أن هذا الأمر إذا وقع كان به أمان لها ولولدها من زوال النعمة وسقوط مرتبته، فاستجابت لها أم جعفر، ووعدتها بإعمال الحيلة فى ذلك، وأنها تلطف لها حتى تجمع بينهما.

فأقبلت أم جعفر يومًا فقالت: يابنى قد وصفت لى وصيفة من بعض القصور من تربية الملوك، قد بلغت من الأدب والمعرفة والظرف والحلاوة مع الجمال الرائع والقد البارع، والخصال المحمودة ما لم ير مثله، وقد عزمت على شرائها لك، وقد قرب الأمر بينى وبين مالكها.

فاستقبل جعفر كلامها بالقبول، وعلقت بذلك قلبه، وتطلعت إليها نفسه، وجعلت تمطله، حتى اشتد شوقه، وقويت شهوته، وهو فى ذلك يلح عليها بالتحريك والاقتضاء، فلما علمت أنه قد عجز عن الصبر، واشتد به القلق، قالت له: أنا مهديتها إليك ليلة كذا وكذا.

وبعثت إلى العباسة فأعلمتها بذلك، فتأهبت بمثل ما تتأهب به مثلها، وسارت إليها فى تلك الليلة، وانصرف جعفر فى تلك الليلة من عند الرشيد، وقد بقى فى نفسه من الشراب فضلة لما قد عزم عليه، فدخل منزله، وسأل عن الجارية، فخبر مكانها، فأدخلت عليها فتى سكران، لم يكن بصورتها عالمًا، ولا بخلقها واقفًا، فقام إليها فواقعها.

فلما قضى حاجته منها، قالت له: كيف رأيت حيل بنات الملوك؟ قال: وأى بنات الملوك تعنين؟ وهو يرى أنها من بعض بنات الروم.

فقالت: أنا مولاتك العباسة، بنت المهدى. فوثب فزعًا قد زال عنه سكره، ورجع إليه عقله، فأقبل على أمه، وقال: لقد بعتنى بالثمن الرخيص، وحملتنى على المركب الوعر، فانظرى ما يؤول إليه حالى.

وانصرفت العباسة مشتملة منه على حمل، ثم ولدت غلامًا، فوكلت به خادمًا من خدمها يقال له رياش، وحاضنة تسمى برة، فلما خافت ظهور الخبر وانتشاره، وجهت الصبى والخادم والحاضنة إلى مكة، وأمرتهما بتربيته"[1].

وقد زاد ابن خلكان فى بعض التفاصيل، وقال: إن العباسة لخوفها على طفلها، بعثت للخادم والحاضنة أن يخرجا بالصبى إلى اليمن، ولم يعرف للصبى خبر بعد ذلك[2].

أما الفقيه ابن الحنبلى فقد ذكر أن العباسة هى التى راودت جعفرًا عن نفسه، حتى حملت منه، قال: إن العباسة كتبت إلى جعفر قبل مواقعته إياها:

عزمت على قلبى بأن يكتم الهوى
فصاح ونادى إننى غير فاعل
فإن لم تصلنى بحت بالسر عنوة
وإن عنفتنى فى هواك عواذلى
وإن كان موت لا أموت بغصتى
وأقررت قبل الموت أنك قاتلى

فواقعها، وحملت منه وولدت سرًا[3].

وتذكر القصة أن هذا اللقاء وثمرته لم يعرفهما الرشيد حتى وقعت حادثة هى التى فجرت المشكلة، وكشفت المستور، وجعلت الرشيد يتصرف تصرفًا مازال نادمًا عليه حتى آخر حياته.

قال المسعودى: وطالت مدة جعفر، وغلب هو وأبوه وإخوته على أمر المملكة، وكانت زبيدة ـ أم جعفر زوج الرشيد ـ من الرشيد بالمنزلة التى لا يتقدمها أحد من نظرائها.

وكان يحيى بن خالد لا يزال يتفقد أمر حرم الرشيد، ويمنعهن من خدمة الخدم، فشكت زبيدة إلى الرشيد فقال ليحيى بن خالد: يا أبت، ما بال أم جعفر

(١) مروج الذهب ٣/٣٨٦.
(٢) وفيات الأعيان ١/٣٣٣.
(٣) شذرات الذهب ١/٣١٢.

تشكوك؟ فقال: يا أمير المؤمنين أمتهمٌ أنا في حرمك، وتدبير قصرك عندك؟ فقال: لا والله. فقال: لا تقبل قولها. قال الرشيد: فلست أعاودك.

فازداد يحيى لها منعًا وعليها فى ذلك غلظة، وكان يأمر بقفل أبواب الحرم بالليل، ويمضى بالمفاتيح إلى منزله، فبلغ ذلك بأم جعفر - زبيدة - كل مبلغ.

فدخلت ذات يوم على الرشيد، فقالت: يا أمير المؤمنين، ما يحمل يحيى على ما لا يزال يفعله من منعه إياى من خدمي، ووضعه إياى فى غير موضعى؟ فقال لها الرشيد: يحيى عندى غير متهم فى حرمى.

فقالت: لو كان كذلك، لحفظ ابنه مما ارتكبه. فقال: وما ذاك؟ فخبّرته بالخبر[1]، وقصت عليه قصة العباسة مع جعفر، فسُقط[2] فى يده، وقال لها: هل لك على ذلك من دليل أو شاهد؟ قالت: وأى دليل أدل من الولد؟ قال: وأين الولد؟ قالت: قد كان هـهنا، فلما خافت ظهور أمره وجهته إلى مكة. فقال لها: أفيعلم هذا أحد غيرك؟قالت: ما فى قصرك جارية إلا وقد علمت به.

فأمسك عن ذلك، وطوى عليه كَشْحًا، وأظهر أنه يريد الحج، فخرج هو وجعفر بن يحيى.. فلما قضى حجه، ورجع، أضمر فى البرامكة على إزالة نعمهم[3].

ولا ننسى هنا ونحن نقص حكاية البرامكة والرشيد دور الحاقدين الكارهين لهارون والبرامكة على السواء، هؤلاء الذين ينتهزون أى فرصة ليوقعوا بين رءوس السلطة، وليتفرجوا على ثمرات أحقادهم.

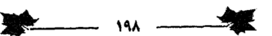
لقد حاول هؤلاء جعل حكاية العباسة وجعفر فضيحة الموسم، وأحدوثة العصر، فألفوا الأغانى الشعبية التى يتناقلها الصبية والسوقة فى جنبات البلاد، وخاصة فى عاصمة الخلافة (بغداد)، فكم من مرة سمع الرشيد أثناء تجواله المتخفى بعض الأطفال يرددون أراجيز منها:

---

(١) بعض الروايات تنفى إذاعة الخبر عن طريق زبيدة، وتنسبه إلى إحدى الجوارى.

(٢) أحس بالحيرة.


(٣) مروج الذهب ٣/٢٨٦.



كنـاسـة الـكـنـاسـة

يـهـيـم بـالـعـبـاسـة

وجـدهـا اشـتـراه

مـن تـاجـر الـنـخـاسـة[1]

هذه هى القصة كما جاءت على ألسنة بعض المؤرخين، وإن كنا قد رأينا مؤرخين آخرين يستنكرونها برمتها.

فهذا ابن خلدون يعتبر زواج العباسة من جعفر أمرًا مستحيلاً، يقول: ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين، ما ينقلونه كافة فى سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه، وأنه لكلفه بمكانهما من معاقرته إياهما الخمر أذن لهما فى عقد النكاح دون الخلوة حرصًا على اجتماعهما فى مجلسه، وأن العباسة تحيلت عليه فى التماس الخلوة به، لما شغفها من حبه، حتى واقعها، زعموا فى حالة سكر، فحملت، ووُشى بذلك للرشيد، فاسْتُغضب.

وهيهات ذلك من منصب العباسة فى دينها وأبويها وجلالها، وأنها بنت عبد الله بن عباس، ليس بينها وبينه سوى أربعة رجال هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده.

والعباسة بنت المهدى بن عبد الله أبى جعفر المنصور بن محمد السجاد بن على أبى الخلفاء بن عبد الله ترجمان القرآن بن العباس عم النبى ﷺ، ابنة خليفة، أخت خليفة، محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية، وصحبة الرسول وعمومته، وإمامة الملة، ونور الوحى، ومهبط الملائكة من سائر جهاتها... فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها، أو أين توجد الطهارة والزكاء إذا فقد من بيتها... وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالى الأعاجم على بعد همته وعظم آبائه؟ ولو نظر المتأمل فى ذلك نظر المنصف، وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها، وفى سلطان قومها، واستنكره ولجّ فى تكذيبه، وأين قدر العباسة والرشيد من الناس؟[2].

(١) تاجر الرقيق.

(٢) مقدمة ابن خلدون ٢٤.



إذن، فهناك اتجاهان قد تناولا القصة؛ اتجاه يسلم بها، ويجعل من العباسة وجعفر البرمكى بطلين من أبطال ألف ليلة وليلة، ويتجاهل ما لا يمكن تجاهله من أن العباسة كانت لصيقة بأخيها الرشيد، ولا يطيق أن تبتعد عنه، فكيف وقد حملت ووضعت دون أن يسأل عن سبب احتجابها، بل واختفائها؟ إلى أن يفاجأ بما يعد جريمة فى نظره، فيدخل فى عملية مطاردة من بغداد إلى مكة.. وربما إلى اليمن، ليمسك بتلابيب الطفل المسكين!!

والاتجاه الآخر يحترم العقل، ويحكم المنطق، ويرفض القصة شكلاً وموضوعًا.

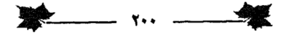
غير أن للشائعات طعمًا لذيذًا على ألسنة النَّقلة والمروجين، حتى تصل بها المبالغات إلى مستوى الحقيقة التى لا شك فيها، وكأن الراوى قد شاهد الأحداث عيانًا بيانًا!! وهو أمر معهود قديمًا وحديثًا على ألسنة السوقة والغوغاء، فيما يتناقلونه عن أحوال الطبقات الراقية، وأسرارها الدفينة!!!

ولئن كانت هذه القصة فى (سيناريو) مثبتيها قد صدمت مشاعر الرشيد بعمق، بما تضمنته من وقائع، فإننا لا نستطيع أن نعتبرها السبب الوحيد فى قرار الرشيد أن يقضى على البرامكة.

ذلك أن مضمون القصة المزعومة لا يعنى أكثر من اتصال زوج بزوجه بكل ما يترتب على هذا الاتصال من احتمال حدوث إنجاب، وهو فى حقيقته إنجاب مشروع، فما الذى يمكن أن يحدثه هذا الإنجاب من آثار خطيرة تمس اعتبارات الرشيد، أو تمس كيان الدولة؟! اللهم إلا إذا اعتبرنا هذه الحادثة ضمن جملة من الأحداث الكثيرة التى ضاق بها صدر الرشيد، وشعر من جرائها بأن ميزان السلطة يهتز بين يديه، وأن خيوط السلطان توشك أن تنفلت من بين أصابعه.

فإذا رأينا ما حدث من تنكيل بالبرامكة، رأينا فى صدره بروز هذه الحادثة التى كانت بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير.

وقد وقعت هذه الأحداث الناكبة عقب حج عام ١٨٦ للهجرة، وقد انتهزها الرشيد فرصة لإعادة ترتيب أوراق الخلافة وتوزيع السلطات بين الجماعة الجديدة التى سيعتمد عليها فى إدارة الملك فى عهده، وبعد أن يرحل إلى الآخرة، فقد كتب عهد ولاية الخلافة لولده الأمين، ثم لولده المأمون، وجعل نسخة العهدين داخل الكعبة.



وحين عاد بدأ الإجراءات التنفيذية التى لابد أن يتخذها بنفسه، وهى القضاء على الفريق الذى تقرر عزله من السلطة ليستريح من آلام الصداع السلطوى.

ويدأ عملياته بأقرب الناس إليه: جعفر، كأنما يريد بذلك أن يقول لكل البرامكة: لقد قطعت رأس أحبكم إلىّ، وأقربكم منى، فلا بقاء لكم بعده، وأنتم أهون منه قدرًا ومقامًا.

ثم أمر بحبس عميد الأسرة: يحيى البرمكى، ومعه أولاده الفضل وموسى ومحمد فى سجن الرقة، قال الشاعر:

وَأَشْرَقَتْ جعفرًا والفضلُ يَرْمُقُه

والشيخُ يَحْيى بريقُ الصارمِ الذكرِ[1]

ثم استولى هارون على جميع مالهم، وأمر بأن يمحى اسمهم من الوجود، حتى على الألسنة، فلم يجرؤ أحد على ذكر اسم أحدهم بعد ذلك، وكل من رثاهم، رثاهم سرًا، وكأنما كان الشاعر يحدس بما سيصير إليه أمر البرامكة لو حدث خلاف، فتتحول حياتهم أثرًا بعد عين، يقول:

الأمر صار ليحيى

والفضل والمأمون

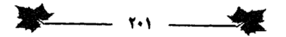
لو الخلاف تفشى

دارت رحى الطاحون

وهو يذكر المأمون هنا على اعتبار أنه من سلالة فارسية فتواطؤه مع يحيى وأولاده وارد، وإن كان ما زال صغيرًا.

ومهما اختلفت الأسباب التى احتكم إليها الرشيد فى قراره إبادة هؤلاء البرامكة، فإن السبب الوحيد الذى يجمع بينها جميعًا هو: الرغبة فى إعادة ترتيب نظم الملك، وإزالة أسباب الخوف عليه، بحيث تجتمع كل الخيوط فى يد الرشيد مرة أخرى.

(١) وفيات الأعيان ١/ ٣٣٤. وأشرقت فلانًا: أغصَصْتُه؛ أى: كأنما خنقته.



وقد لوحظ أن العباسة أخت الرشيد لم يرد لها ذكر مطلقًا في أي مرجع من المراجع بعد قتل جعفر البرمكي، فدخلت في طوايا النسيان، أو في مقبرة التاريخ، ولم يشر أحد من المؤرخين إلى نهايتها كيف كانت، ولا متى كانت على وجه الدقة، بل اضطربت أقوالهم، فمنهم قائل: إنها ماتت عام ١٨٢ للهجرة، أي: قبل النكبة بخمس سنوات، ومنهم من خلط بينها وبين أختها عُلَيَّة، وقال: إنها ماتت عام ٢١٠ للهجرة، وهو التاريخ الذي أجمعت كل المراجع على أنه تاريخ وفاة عُلَيَّة.

أما القاضي ابن الزبير فقال في وفاتها: خلفت العباسة بنت المهدي بالله ضياعًا كانت تبلغ غلتها في كل سنة أربعة آلاف ألف دينار، وماتت في سنة ١٨٢ للهجرة، وورثها أخواها إبراهيم والمنصور[1].

وقال عمر كحالة: وينسب إليها سويقة العباسة، وتوفيت عام ١٨٢ للهجرة بالرقة[2].

لقد ماتت إذن وهي لم تكمل الثلاثين من عمرها، رحمها الله.

وما زلنا نتابع آثار التلفيق في هذه القصة المختلقة، فإذا كان المرجح أن العباسة ماتت عام ١٨٢ للهجرة، فكيف ورثها أخواها إبراهيم والمنصور - دون الرشيد، وكان لايزال على قيد الحياة؟ مع أنه ورث زوجها؟

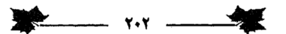
وإذا كانت العباسة هي السبب في نكبة البرامكة، فما الذي أنظر الرشيد خمس سنوات، من عام ١٨٢ للهجرة إلى عام ١٨٧ للهجرة بعد موتها حتى تحرك للانتقام من جعفر وآله على فعلته التي أغضبته، في حين أن العباسة وابنها (المزعوم) قد طواهما النسيان؟

كل هذا وغيره مما فات ملفقي القصة ملاحظته، فبقي سيناريو الإثارة مفككًا وشاهدًا على أن فن كتابة الأفلام المأساوية لم يكن متقدمًا آنذاك؛ فسقط الفيلم فنيًا وتاريخيًا.

* * *

(١) الذخائر والتحف ٢٣٥، وإبراهيم والمنصور أخواها وليسا الشقيقين كالرشيد تمامًا.

(٢) أعلام النساء ٣/٢٣٤. والرقة مدينة مشهورة على الفرات بين العراق والشام، وهناك رقة أخرى في الجانب الغربي من بغداد.



نكبة البرامكة

من الضرورى أن نقف أمام تفاصيل الأحداث التى وقعت للبرامكة كيما نتبين وجه الحق فيما جرى لهؤلاء القوم على يد الرشيد، وسوف نستعرض أهم الأسباب التى أدت إلى نكبتهم.

ونشير أولاً إلى أن هذه الأسباب لم تكن بنت لحظتها، وإنما لها جذور من سنين، وإن كان تغير الرشيد عليهم جاء بعد فترة من الرضا والحب، فقد كان يحيى بن خالد كاتبه ونائبه ووزيره قبل الخلافة، حتى إذا تسلم الخلافة أبقاه على مكانه، فنهض يحيى بأعباء الدولة، وأظهر الخلافة فى أروع مظهر، وتصدى لمهمات الإدارة والسياسة.

وكان الرشيد لا ينسى أن يحيى هو الذى منع الهادى من خلعه من ولاية عهد الخلافة ليبايع لابنه جعفر بن الهادى، ولكن دوام الحال من المحال، فقد انقلبت هذه العلاقة رأسًا على عقب، وتغيرت من صفاء وود إلى كراهية وحقد.

فهذا الطبيب بختيشوع[1] يقول: دخلت يومًا على الرشيد وهو جالس فى قصر الخلد من مدينة السلام، وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر[2]، وبينهم وبينه عرض دجلة، قال: فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد، فقال:

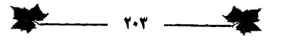
جزى الله يحيى خيرًا، تصدى للأمور وأراحنى من الكد، ووفر أوقاتى على اللذة.

ويسكت بختيشوع، ثم يحكى ما قاله الرشيد بعد مرور زمن، وهو جالس فى نفس مكانه، وأمامه نفس المناظر، يقول الطبيب: ثم دخلت إليه بعد أوقات، وقد شرع يتغير عليهم، فنظر فرأى الخيول كما رآها تلك المرة، فقال: استبد يحيى بالأمور دونى، فالخلافة على الحقيقة له، وليس لى منها إلا اسمها. قال: فعلمت أنه سينكبهم[3].

(١) ابن جرجس بن بختيشوع، أو عبد المسيح بالسريانية، طبيب اشتهر، وتقدم عند الخلفاء العباسيين، وخاصة هارون الرشيد الذى قربه، له كتاب فى الطب ألفه لابنه جبرائيل، توفى عام ١٨٤ للهجرة.

(٢) كانت بغداد مؤلفة من قسمين؛ أحدهما شرقى، والآخر غربى، تصل ما بينهما ثلاثة جسور، أهمها الجسر الذى يصل ما بين مدينة المنصور والرصافة.

(٣) الفخرى ١٧١.



وهذا إسحق بن على[1] بن عبد الله بن عباس، يقول: كنت أساير الرشيد يومًا، والأمين على يمينه، والمأمون عن شماله، فاستدنانى، وقدمهما أمامه، فسايرته، فجعل يحدثنى، ثم بدأ يشاورنى فى أمر البرامكة، وأخبرنى بما أضمر عليه منهم، وأنهم استوحشوه من أنفسهم، وأننى عنده بالوضع الذى لا يكتمنى شيئًا من أمرهم.

فقلت: يا أمير المؤمنين، لا تنقلنى من السعة إلى الضيق.

قال: إلا أن تقول فإنى لا أتهمك فى نصيحة، ولا أخافك على رأى ولا مشورة.

فقلت: يا أمير المؤمنين، إنى أرى نفاستك عليهم بما صاروا إليه من النعمة والسعة، ولك أن تأمر وتنهى، وهم عبيد لك بإنباتك إياهم، فهل يصنعون ذلك إلا بك؟

قال: فضِياعهم ليس لولدى مثلها، وتطيب نفسى بذلك لهم؟

فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الملك لا يحسد ولا يحقد ولا ينعم نعمة ثم يفسد نعمته. فرأيته قد كره قولى، وزوى وجهه عنى.

قال إسحق: فعلمت أنه سيوقع بهم.. وكان قتلهم بعد ست سنين من تاريخ ذلك اليوم[2].

لقد ارتفع شأن البرامكة، وكثرت أموالهم، واتسعت ضياعهم ومزارعهم، ولو قارنا بين ما كانوا يملكون وما يملك الخليفة لوجدنا تفوقهم وهيمنتهم، وخاصة جعفرًا، فكان الرشيد لا يمر ببلد ولا إقليم ولا قرية ولا مزرعة ولا بستان إلا قيل: هذا لجعفر.

قال ابن خلدون: لقد شاركوه فى سلطانه.... وعمروا مراتب الدولة وحصصها بالرؤساء من ولدهم.. ويقال: إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى ابن خالد خمسة وعشرون رئيسًا من بين صاحب سيف وصاحب قلم، زاحموا فيها أهل الدولة[3].

---

(١) ذكرت بعض الروايات أنه كان أحد أزواج العباسة.

(٢) العقد الفريد ٥/٦٦.

(٣) مقدمة ابن خلدون ٢٤.



لقد صارت قصة البرامكة شغل الناس الشاغل وحديثهم المتواصل، وفى ذات يوم وصلت الرشيد رقعة لم يعرف صاحبها، مكتوب فيها:

قــــل لأمــــيـــن الله فــــى أرضـــه
ومــن إلــيــه الــحــل والــعــقــد

هــذا ابــن يــحــيــى قــد غــدا مــالــكــا
مــثــلــك مــا بــيــنــكــمــا حــد

أمـــــرك مـــــردود إلـــــى أمـــــره
وأمـــــره لـــــيـس لـــــه رد

ونـــحـــن نـــخـــشـــى أنـــه وارث
مـــلـــكـــك إن غـــيـــبـــك الـــلـــحـــد

ولـــن يـــبـــاهـــى الـــعـــبـــد أربـــابـــه
إلا إذا بـــطـــر الـــعـــبـــد[1]

وقد أشار إبراهيم بن المهدى عم الخليفة إلى هذه المنزلة والمكانة التى وصل إليها جعفر عندما زاره فى داره التى ابتناها وسأله رأيه فيها فقال: الذى يعيبها عندى أنك أنفقت عليها نحوًا من عشرين ألف ألف درهم[2]، وهو شىء لا آمنه عليك غدا بين يدى أمير المؤمنين.

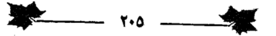
قال له جعفر: هو يعلم أنه وصلنى بأكثر من ذلك، وضعف ذلك..

ويرد عليه الرجل المحنك: إن العدو إنما يأتيه فى هذا من ألف جهة؛ أن يقول: يا أمير المؤمنين إذا أنفق على دار عشرين ألف ألف درهم (عشرين مليونًا) فأين نفقاته وصلاته؟ وأين النوائب التى تنوبه؟ وما ظنك يا أمير المؤمنين بما وراء ذلك؟

---

(١) شذرات الذهب ١/٣١٢.

(٢) هذا غير ما احتاجت إليه الدار من أثاث ورياش وخدم وحشم وما إلى ذلك من أسباب البذخ، وألوان الترف، وقالت بعض الروايات أن كل هذه الأموال أخذها من بيت مال المسلمين.



ويرد جعفر: إن سمع منى، قلت: إن لأمير المؤمنين نعمًا على قوم قد كفروها بالستر لها، أو بإظهار القليل من كثيرها، وأنا رجل نظرت إلى نعمته عندى فوضعتها على رأس جبل، ثم قلت للناس: تعالوا فانظروا[1].

أما هذا القصر، فقد كان تحفة فى البنيان والمعمار والأثاث والرياش، وقتل فيه جعفر، ولما تولى المأمون الخلافة، وعاد إلى بغداد عام ٢٠٢ للهجرة، سكن فيه وسماه المأمونى، حتى زف إلى عروسه بوران بنت الحسن بن سهل عام ٢١٠ للهجرة، فأنزلها فيه وسماه القصر الحسنى نسبة إلى أبيها، وعاشت بوران حتى توفيت فيه عام ٢٧١ للهجرة.

وفى عام ٢٨٠ للهجرة جدده الخليفة المعتضد، وسماه القصر المعتضدى، وزفت فيه عروسه المصرية قطر الندى عام ٢٨٣ للهجرة، وعاشت فيه حتى توفيت عام ٢٨٧ للهجرة.

وأخذ يتوارثه الخلفاء حتى جاء هولاكو، زعيم التتار، فى صفر عام ٦٥٦ للهجرة، وسكن القصر لمدة أربعين يومًا، حتى فرغ جنده من جمع النفائس والجواهر، وكل ما هو غال وثمين من جميع قصور بغداد ومساجدها، ثم أضرم النار فيها، فأتت على مبانيها بما فيها قصر جعفر.

ولم ينس الناس أنه كان قصر جعفر البرمكى مع مرور أربعة قرون، وكأن جعفرًا كان يحدس بالغيب حين قال عن القصر: إن بقى لى، فهو قصر جعفر، وإن شره السلطان إليه فى وقت من الأوقات، فهو قصر جعفر، وإن مضت عليه الأيام، فهو قصر جعفر، ويبقى اسمه وذكره، ولعله يمر به من لنا عنده إحسان، فيترحم علينا[2].

وقد رأينا أن الخليفة لم يسأل جعفرًا عن قصره، ومن ثمَّ لم يجب جعفر؛ لأن هارون أخذه على غرة، وترك الناس فى حيرة واندهاش، يسألون عن سبب هذه النكبة، وكلٌ له وجهة نظر.

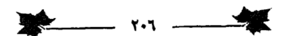
فمثلاً قال أبو محمد اليزيدى وهو أعلم الناس بأخبار القوم ـ كما قال الطبرى: من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بن عبد الله بن الحسن بغير سبب فلا تصدقه[3].

---

(١) الطبرى ٨/ ٢٩١.

(٢) تاريخ الإسلام السياسى ٢/ ٤٢٢.

(٣) ويحيى هو أخو محمد المهدى، الملقب بالنفس الزكية، الذى خرج على المنصور.



وقصة يحيى هذا، أن الرشيد قبض على خارج عليه علوى، وهو يحيى بن عبد الله المثنى، من أولاد على بن أبى طالب، وحبسه جعفر فى محبسه، ولكنه رق له لقرابته من رسول الله ﷺ.

قال ابن تغرى بردى: ثم دعا جعفر بن يحيى، وسأله عن أمره، فقال له: اتق الله فى أمرى. فرق له جعفر، وأطلقه، ووجه معه من أوصله إلى بلاده، فنم على جعفر الفضلُ بن الربيع[1] إلى الرشيد، وأعلمه القصة من عين كانت للفضل على جعفر، فطلب الرشيد جعفرًا على الطعام، وصار يلقمه، ويحدثه عن يحيى بن عبد الله، وجعفر يقول: هو بحاله فى الحبس. فقال: بحياتى؟ ففطن جعفر، وقال: لا وحياتك وقص عليه أمره. فقال الرشيد: نعم ما فعلت، ما عدوت ما فى نفسى. فلما قام عنه قال: قتلنى الله إن لم أقتلك[2].

وفى رواية الطبرى: قتلنى الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك. فكان من أمره ما كان[3].

لقد صمم الرشيد على الوقيعة بجعفر وأسرته بعد أن أثار الحَقَدَةُ حفيظته عليهم، وأشعلوا نار الغيرة والانتقام فى نفسه.

يقول ابن خلدون: دسوا للمغنين من الشعر احتيالاً على إسماعه للخليفة، وتحريك حفائظه لهم، وهو قوله:

ليت هندًا أنجزتنا ما تعد
وشفت أنفسنا مما نجد
واستبدت مرة واحدة
إنما العاجز من لا يستبد[4]

---

(١) صار وزيرًا للرشيد بعد جعفر، ثم وزيرًا للأمين، وكان الفضل - كما قال ابن خلكان - يروم التشبه بالبرامكة، ومعارضتهم، ولم يكن له من القدرة ما يدرك به اللحاق بهم، فكان فى نفسه إحن وشحناء. وإذا أراد الله تعالى هلاك قوم وزوال نعمتهم، جعل لذلك أسبابًا، فمن أسباب زوال أمر البرامكة تقصيرهم بالفضل بن الربيع، وسعى الفضل بهم. (وفيات الأعيان ٤/٥١٨).

(٢) النجوم الزاهرة ٢/١١٥.

(٣) الطبرى ١٠/٨٠.

(٤) القائل هو الشاعر الأموى عمر بن أبى ربيعة.



وأن الرشيد لما سمعها قال: إى والله إنى عاجز[1].

ونحن نقول: ربما كانت هذه نقاطًا أخرى أضافها الرشيد لسيئات جعفر، حتى تجمعت كلها، وكانت القاضية.

وروى ابن خلكان رواية أخرى، قال: كان الحسن بن على بن عيسى يقول: الشره قتل جعفر بن يحيى، فقيل له: إن الناس يقولون: إن ذنبه أمر بعض أخوات الرشيد، فقال: هذه رواية الجهال، من كان يجسر على الرشيد؟ إنما كان جعفر قد حاز ضياع الدنيا لنفسه. وكان الرشيد إذا سافر لا يمر بضيعة ولا بستان إلا قيل: هذا لجعفر[2].

وسوف نختم الحديث عن جعفر بقصة تبين مدى سلطة جعفر فى خلافة الرشيد، وكيف صار له سلطان وهيمنة كادت تقضى بظلها على الخلافة العباسية كلها، لولا استدراك الرشيد، وتسرعه بالقضاء على جعفر وذويه وإبادة اسم البرامكة من سجل الدولة.

والقصة أن عبد الملك[3] بن صالح بن المنصور عم الرشيد كان لا يشرب، حتى إن الرشيد اجتهد أن يشرب معه قدحًا، فلم يقدر عليه، رفعًا لنفسه.

جاء عبد الملك هذا لجعفر وهو فى جلسة مع ندمائه، وأكل معهم، وشرب ثلاثًا.

يقول ابن خلكان: ثم قال عبد الملك لجعفر: لتخفف عنى، فإنه شىء والله ما شربته قط. فتهلل وجه جعفر، وفرح، ثم التفت إليه فقال: جعلت فداك، قد تطولت وتفضلت وساعدت، فهل حاجة تبلغ إليها مقدرتى، وتحيط بها نعمتى، فأقضيها مكافأة لما صنعت؟

قال: بلى، إن فى قلب أمير المومنين علىّ هنة، فاسأله الرضا عنى. فقال له جعفر: قد رضى أمير المؤمنين عنك.

ثم قال: وعلىّ عشرة آلاف دينار. فقال: هى لك حاضرة من مالى، ولك من مال أمير المؤمنين ضعفها.

(١) مقدمة ابن خلدون ٢٦.
(٢) وفيات الأعيان ١/٤٧٣.
(٣) حبسه الرشيد فى عام ١٨٧ للهجرة، وظل مسجونًا حتى أخرجه الأمين بعد موت الرشيد.



ثم قال: وابنى إبراهيم، أحب أن أشد ظهره بصهر من أمير المؤمنين. قال: وقد زوجه أمير المؤمنين ابنته العالية.

قال: وأحب أن تخفق له الألوية على رأسه. قال: قد ولاه أمير المؤمنين مصر.

فانصرف عبد الملك بن صالح، قال إبراهيم بن المهدى: فبقيت متعجبًا من إقدامه على أمير المؤمنين من غير استئذان، وقلت: عسى أن يجيبه فيما سأل من الرضا والمال والولاية، فمتى أطلق لجعفر أو لغيره تزويج بناته؟

وسارع إبراهيم بن المهدى إلى الرشيد ـ بدافع من الفضول والتشوق ـ ليرى ويسمع كيف وصلت سلطة جعفر، وإلى أى مدى صار تصرفه مُجازًا لدى أمير المؤمنين، حتى وصل إلى تزويج بنات الرشيد من دونه.

وكان إبراهيم بن المهدى من الندماء، قال: قال جعفر: تعلقت قلوبكم بحديث عبد الملك، فأحببتم علم آخره. ثم حكى لهم كيف أمن الرشيد على كل ما حكم به جعفر، وأحضر القضاة والفقهاء[1]، وتم كل ما أمر به فى المساء.

قال إبراهيم: فوالله ما أدرى أيهم أكرم وأعجب فعلاً!. ما ابتدأه عبد الملك من المنادمة وشرب الخمر، ولم يكن يشرب قط، وكان رجل جد، أم إقدام جعفر على الرشيد بما أقدم، أم إمضاء الرشيد جميع ما حكم به جعفر عليه؟![2].

وكان ذلك الحدث عام ١٧٥ للهجرة، على ما ذكره ابن إياس، قال: تولى مصر الأمير إبراهيم بن عبد الملك بن صالح العباسى عام ١٧٥ للهجرة، وكان الرشيد زوجه بابنته غالية[3]، فلم تطل أيامه بها وعزل[4].

وفى هذا التاريخ كان البرامكة فى أوج عظمتهم ومكانتهم وسلطانهم، وسبحان مغير الأحوال.

على أن بعض المؤرخين كان يرى أن الخيزران أم الرشيد كان لها دخل فى تأخر نكبة البرامكة، ولما ماتت تغيرت الحال.

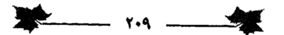
---

(١) قال ابن عبد ربه: فلم يلبث الخليفة أن دعا بأبى يوسف القاضى، ومحمد بن الحسن، وإبراهيم بن عبد الملك، فعقد له النكاح، وحملت البدر إلى عبد الملك، وكتب سجل إبراهيم على مصر. (العقد الفريد ٥/٧٣).

(٢) المستطرف ٣٨٩.

(٣) بدائع الزهور ١/١٣٧.

(٤) جاء فى العقد الفريد: ابنته عائشة الغالية.



يقول د. حسن إبراهيم: ويعزو بعض المؤرخين نكبة هذه الأسرة إلى حوادث ليست فجائية كالتى تقدمت، وإنما هى أمور جاءت متتابعة، منها أن الرشيد كان يميل كثيرًا إلى تولية الفضل بن الربيع بعض أمور الدولة، فكانت الخيزران أم الرشيد تحول دون ذلك، وكان الفضل يظن أن الذى حملها على ذلك إنما هو جعفر البرمكى، فلما ماتت[1]، ولى الرشيد الفضل الخاتم، وغير مما كان فى يد جعفر[2].

وما دامت المرأة قد عرض ذكرها، فلابد أن نذكر زبيدة وكرهها للبرامكة من أول يحيى بن خالد الذى كان يغلق باب الحريم، ويأخذ المفاتيح لبيته، إلى جعفر الذى أكد على ابنها الأمين، وهو خارج من باب الكعبة يوم العهد، أنه إذا غدر بأخيه المأمون فلا عهد له.

وأكدت زبيدة أن تأثير آل برمك على الرشيد هو الذى جعله يفكر فى تولية المأمون العهد لكونه فارسيًا مثلهم، وهذه النار الصغيرة كان الفضل بن الربيع يزيدها اشتعالاً، حتى قضت على هذه الأسرة التى خدمت العباسيين لأكثر من نصف قرن.

لقد كانت زبيدة تنتهز كل فرصة لتوقع بجعفر عند الرشيد، فمثلاً عندما بنى جعفر قصره المعروف دست أبياتًا من الشعر قرأها الرشيد، قالت فيها:

وقد بنى الدار التى ما بنى

الفرس لها مثلاً ولا الهند

الدرر والياقوت حصباؤها

وتربها العنبر والند[3]

وهناك خبر نورده هنا، يقول إن البرامكة قد اتهموا بالزندقة والكفر.

قال ابن خلكان: أرادت البرامكة إظهار الزندقة وإفساد الدولة، فقتلهم لذلك[4].

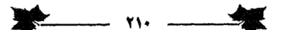
---

(1) تُوفيت فى جمادى الأولى عام ١٧٣ للهجرة.

(2) تاريخ الإسلام السياسى ١٦٩/٢.

(3) العباسة، لجورجى زيدان عام ٦٥١ للهجرة. والند: نوع من البخور الفاخر.

(4) وفيات الأعيان ٤٧٣/١.



قال د. حسن إبراهيم: كان البرامكة قد زينوا للرشيد أن يتخذ فى جوف الكعبة مجمرة[1] يتبخر عليها العود أبدًا، فعلم الرشيد أنهم أرادوا من ذلك عبادة النار فى الكعبة، وأن تصير الكعبة بيت نار، فكان ذلك أحد أسباب قبض الرشيد على البرامكة[2].

وقال الأصمعى راميًا إياهم بالكفر:

إذا ذكـــر الشـــرك فـــى مـــجـــلس
أضـــاءت وجـــوه بـــنـــى بـــرمك
وإن تـــلـــيت عـــنـــدهـــم آيـــة
أتـــوا بـــالأحـــاديث عـــن مـــزدك[3]

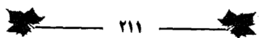
وإن كنا نرى براءتهم من هذه التهمة الشنيعة، فالمعروف أن ولاءهم لبنى العباس قد غطى على كل ولاء للنار أو لمزدك أو غيره.

يقول ابن خلدون: كان جعفر بن يحيى من أعظم الناس بيتًا وشرفًا بالانتساب إلى ولاء الرشيد وقومه، لا بالانتساب إلى الفرس... إذ المنقول أنهم ـ أى البرامكة ـ كانوا أهل بيت فى الفرس، من سدنة بيوت النار عندهم، ولما صاروا إلى ولاء بنى العباس لم يكن بالأول اعتبار[4].

وبعد، فقد استعرضنا أكثر الروايات التى غيرت الرشيد على أقرب الناس إليه، وأخلص الأتباع لبنى العباس، فقرر استئصال شأفتهم، ولما عاد من الحج عام ١٨٦ للهجرة، نزل الأنبار[5]، وفى أول صفر عام ١٨٧ للهجرة بعث إلى سيافه مسرور ليقتل جعفرًا[6]، وهو فى مجلس أنسه، ومغنيه أبو ذكا الأعمى يغنى:

---

(١) موقد للبخور.
(٢) تاريخ الإسلام السياسى ١٧٢/٢.
(٣) تاريخ الإسلام السياسى ١١٨/٢. ومزدك: إله من آلهة النار عند الفرس.
(٤) تاريخ ابن خلدون ٢٣٩/١.
(٥) على الفرات، غربى بغداد، عمرها السفاح، وأقام بها إلى أن مات، كان قد فتحها خالد بن الوليد عام ١٢ للهجرة.
(٦) كان عمر جعفر آنذاك ٢٧ عامًا.



فلا تبعد فكل فتى سيأتى

عليه الموت يطرق أو يغادى

وكل ذخيرة لابد يومًا

وإن كرمت تصير إلى نفاد

ثم يأمر الرشيد فى نفس اليوم بحبس يحيى البرمكى وأولاده الفضل وموسى ومحمد، ويطول حبس الأب يحيى وابنه الفضل حتى يموتا فى السجن.

كذلك قبض على بقية أهله وأصحابه، ثم وضع يده على كل ما فى حوزتهم من مال وضياع ودور، حتى قبض من سائر أموالهم سبعة عشر ألف ألف درهم[1].

ويزيد الحنبلى فيقول: ووجد لهم مما حباهم به اثنى عشر ألف ألف، ووجد من سائر أموالهم ثلاثين ألف ألف وستمائة ألف وستة وسبعين ألفًا، وأما غير الأموال من الضياع والغلات ـ التى وقعت تحت أيدينا ـ والأوانى فشىء لا يوصف أقله، ولا يعرف أيسره فضلاً عن جميعه، إلا من أحصى الأعمال، وعرف منتهى الآجال سبحانه الحى الباقى[2].

أما عبيد وإماء آل برمك فهم الذين استفادوا من هذه النكبة، فعلى كثرة عددهم أمر الرشيد بتحريرهم.

يقول د. الشريقى: أما أملاك البرامكة وأموالهم فقد صادرها الخليفة هارون، كما أعتق عبيدهم وإماءهم[3].

وصدق يحيى فى قوله عندما نكب: الدنيا دول، والمال عارية، ولنا بمن قبلنا أسوة، وفينا لمن بعدنا عبرة[4].

وسبحان الذى يغير ولا يتغير، فبعد أن زال النعيم والعز الذى كان فيه آل برمك احتاجت أم جعفر لسؤال الناس.

روى ابن تغرى بردى: قال محمد بن عبد الرحمن الهاشمى صاحب صلاة الكوفة: دخلت على أمى يوم النحر، وعندها امرأة فى أثواب رثة، فقالت لى أمى:

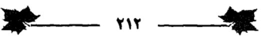
---

(١) قال القاضى ابن الزبير: وكان جميع ما وجد للبرامكة من المال، ولأتباعهم سبعة عشر ألف ألف درهم، بعد أن بحث الرشيد عن أموالهم، وتتبع ذلك، فما وجد لهم شيئًا.

(٢) شذرات الذهب ١/٣١٥.

(٣) التاريخ الإسلامى ١٢٩.

(٤) الكامل ٥/٢٣١.



أتعرف هذه؟ قلت: لا. قالت: هذه عبادة أم جعفر بن يحيى البرمكي. فسلمت عليها، ورحبت بها، ثم قلت: يا فلانة حدثينا بعض أمركم.

قالت: أذكر لك جملة فيها عبرة، لقد هجم عليَّ مثل هذا العيد، وعلى رأسي أربعمائة جارية، ونحرت في بيتي خاصة ثمانمائة رأس، وأنا أزعم أن ابني عاق لي، وقد أتيتكم الآن يقنعني جلد شاتين، اجعل أحدهما شعارًا[1]، والآخر دثارًا[2].

وزاد ابن خلكان في الرواية، قال الهاشمي: فدفعت إليها خمسمائة درهم، فكادت تموت فرحًا بها، ولم تزل تختلف إلينا، حتى فرق الموت بيننا[3].

فالدنيا لا تدوم على حال، وهذا الفضل بن مروان أحد كتاب الرشيد يقول: كنت أعمل في أبواب ضياع الرشيد الحساب، فنظمت في حساب السنة التي نكب فيها البرامكة، فوجدت ثمن هدية أهداها الرشيد إلى جعفر بن يحيى بضعة عشر ألف دينار، وفيه بعد شهور من هذه السنة ثمن نفط وقطن برسم حرق جثة جعفر درهم ونصف[4].

وهكذا انتهت قصة البرامكة وعلاقة العباسة بهم، وإن كانت لها بهم علاقة، ومهما يكن من أمر، فستظل هناك مساحة من الغموض تحجب عن نظر المؤرخين بعض أسباب هذه المأساة.

وربما ناسب هنا أن نذكر ما دار بين الرشيد وأخته عُليَّة يومًا، قالت له: يا سيدي ما رأيت لك يوم سرور تام منذ قتلت جعفرًا، فلأي شيء قتلته؟

فقال لها: يا حياتي، لو علمت أن قميصي يعلم السبب في ذلك لمزقته[5].

فهل هناك فعلاً سر لم يعرفه حتى الأقربون من الرشيد، وهم بمثابة قميصه الذي يلبسه، ومات الرشيد دون أن يصرح به؟، ذلك ما لا سبيل إلى الإجابة عنه.

وهذا أبو نواس[6] الشاعر يدلي بدلوه في تفسير هذه المأساة بأبيات ساخرة، سجلها له التاريخ، ولسنا معه فيها، قال:

---

(١) ثوب على جسد الإنسان والدثار فوق الشعار.

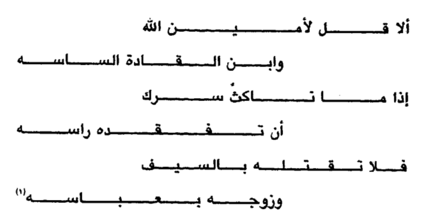
(٢) النجوم الزاهرة ٣/ ١٢٤.

(٣) وفيات الأعيان ١/ ٣٤١.

(٤) المرجع السابق ١/ ٤٧٣.

(٥) المرجع السابق ١/ ٣٣٦.

(٦) الحسن بن هانئ، ولد بالبصرة عام ١٤٦ للهجرة، مدح خلفاء بني العباس، خرج إلى مصر والشام، وعاد إلى بغداد، ومات بها عام ١٩٨ للهجرة، قال عنه الإمام الشافعي: لولا مجون أبي نواس لأخذت عنه العلم. وقال الجاحظ: ما رأيت أحدًا أعلم باللغة، ولا أفصح لهجة من أبي نواس.


ألا قل لأمين الله

وابن القادة الساسه

إذا ما ناكثٌ سرك

أن تفقده راسه

فلا تقتله بالسيف

وزوجه بعباسه[1]

هل كانت العباسة شؤمًا إلى هذا الحد، حتى يعتبر الزواج منها عقابًا يستحقه الناكثون؟ إن ذلك يعنى أن أبا نواس كان يهجو العباسة، ويضعها فى قلب أحداث وقعت بعد موتها، على فرض أنها ماتت عام ١٨٢ للهجرة!! فأين العباسة من تلك الأحداث الناكية؟!

وسوف نختم حديثنا عن نكبة البرامكة برأى للقاضى ابن خلدون فى هذه القصة، قال: وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة، واحتجافهم[2] أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال، فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره، وشاركوه فى سلطانه، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه، فعظمت آثارهم، وبعد صيتهم، وعمروا مراتب الدولة، وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنعائهم، واجتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم... واستولوا على القرى والضياع من الضواحى والأمصار فى سائر الممالك، حتى آسفوا البطانة، وأحقدوا الخاصة، وأغصوا أهل الولاية، فكشف لهم وجوه المنافسة والحسد ودبت على مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية[3].

وهو رأى ينتهى إلى أنه لا علاقة بين العباسة وما جرى للبرامكة على يد أخيها الرشيد، والله أعلم.

---

(١) ديوان أبى نواس ٥٢٠.

(٢) استخلاصهم.

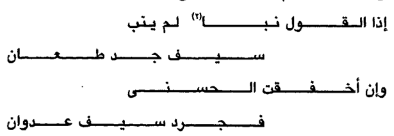
(٣) مقدمة ابن خلدون ٢٤.

العباسة فى قصص بعض المحدثين

كانت قصة العباسة موضوعًا مثيرًا خاض فيه أهل الفن القصصى والمسرحى، وحاولوا أن يضعوا تفسيرات حافلة بالإثارة تحقق لهم إقبال القراء على قصصهم، ورواج فنهم لدى الجماهير، ولم تكن قصة العباسة وجعفر منبع خيال للكتاب العرب فحسب، وإنما كانت مستقى لبعض كتاب الغربيين ـ كما قال الزريكلى ـ فنشرت عنها عدة قصص منها ما نشره (لا هارب) La Harpe بالفرنسية و(فون هامار) Von Hammer بالألمانية ولا حرج على الفن حين يعالج أمثال هذه الموضوعات، بل إن الفن يستمد حيويته من اختلاف وجهات النظر، بل اختلافها فى تفسير الأحداث بشكل مثير كما قلنا.

فهذا الشاعر عزيز أباظة[1] يتعرض لمعالجة قصة العباسة فى مسرحيته الشعرية (العباسة أخت الرشيد)، ويلتزم الرأى القائل بزواج العباسة من جعفر زواجًا معلقًا، ويبين فى الحوار أن دافع هارون إلى هذا الموقف دافع عرقى، ويرى أن الرجال من الأعاجم ليسوا أكفاء لشريفات العرب.

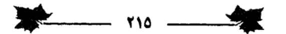
ثم أثرى عزيز أباظة المشاهد فى روايته بمجموعة من الخيالات التى تنمى الحدث المسرحى، فى شكل لقاءات بين الحبيبين العاشقين: العباسة وجعفر، ومحاولات الوقيعة بينهما، وكيد الحاقدين والدساسين للقضاء على خلافة العباسيين برمتها، ويظهر عزيز أباظة جعفرًا ثائرًا مفكرًا فى الخلاص من الرشيد، والهرب إلى خراسان إذا لم يعلن هذا الزواج، وذلك فى حضرة العباسة، فيقول:



إذا القول نبا[2] لم ينب
سيف جد طعان
وإن أخفقت الحسنى
فجرد سيف عدوان

(١) عزيز بن محمد بن عثمان أباظة، ولد عام ١٨٩٨ للميلاد (الموافق عام ١٣١٦ للهجرة) بالشرقية، تخرج فى الحقوق، وعمل بالمحاماة فالقضاء، ثم عضوًا بمجلس الشيوخ، له مؤلفات عدة، منها الشعرية مثل: (قيس ولبنى) و(العباسة)، و(عبد الرحمن الناصر)، و(شجرة الدر)، وآخر ما كتب (من إشراقات السيرة النبوية)، توفى عام ١٩٧٣ للميلاد (الموافق ١٣٩٣ للهجرة) (الأعلام).

(٢) لم يحقق الغرض منه.



متى نبلغ خراسان

قوينا بخراسان

همو أهلى وأنصارى

على الدهر وأعوانى

فلا العرش ولا التاج

إذا شئت منيعان

سئمت الصبر ما الصبر

سوى ضعف وإذعان

ويا بغداد هل نبأت

هارونك ما شانى؟

فما جعفر بالنكس[1]

ولا جعفر بالوانى[2]

وفى أحد هذه المشاهد الدرامية نرى حوارًا بين الرشيد وزوجه زبيدة عندما بلغه خبر اختلاء العباسة بزوجها جعفر، ولكن بشرط عدم التزاوج.

تقول زبيدة: أما زوجتها منه؟

الرشيد: إننى فعلت ولكنى نهيت ولكنى

زبيدة: إن كنت تنهى أنت والله آمر

فمن منكما نلقى له السمع خبرنى

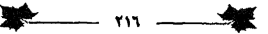
الرشيد: عصونى

زبيدة: أطاعوا الله هارون

---

(١) الجبان.

(٢) العباسة ٢٤٩.



الـــــرشـــــيــــــد: أمســــكـــــى

أتهــــــزأ بى أختى ويختلنى[1] خِدْنى[2]

غــدًا ســيــقــول الــنـــاس زوجت حـــرةً

قــريشــيــة مــن غــيــر كــفء ولا قِــرن[3]

وإن خـــدور الـــمـــجـــد مـــن آل هـــاشـــم

أبــيـــح حـــمـــاهـــا لــلأعــاجــم والــهــجــن[4]

وقد عبر الشاعر فى هذه الأبيات الحوارية عن جوهر الرأى الذى اختاره فى كتابة القصة، وهو يعتمد التفسير العرقى كما سبق أن قلنا.

وقد مثلت هذه المسرحية فرق شتى، وأول مرة مثلت على مسرح الأوبرا الملكية فى ٣ نوفمبر عام ١٩٤٥ للميلاد.

وما أشبه هذه القصة فى اختلاف المؤرخين والشعراء حول تفسيرها بقصة كليوباترا التى اختلف فى تفسير موقفها المؤرخون والشعراء والقصاصون، فمنهم من اعتبرها شخصية وطنية، ومنهم من رأى أنها امرأة لعوب، وآخرون ذهبوا إلى أنها خائنة، وكل ذلك لا يقصد منه تحرير الحقيقة التاريخية بقدر ما يراد به إثراء الحوار المسرحى ومغزاه.

وإذا كان ما قاله عزيز أباظة مقبولاً أو يمكن قبوله فى إطار المرويات التاريخية المختلفة ـ فإن ما لا يمكن قبوله فى حال هو مذهب الكاتب المعروف جورجى زيدان[5]، فقد تجاوز منطق الإثارة، فخلط بالأحداث الغنية التى كتبها

(١) يخدعنى.

(٢) صديقى.

(٣) ندًا لها، وفى مستواها الاجتماعى.

(٤) جمع هجين، وهو المختلط النسب. (العباسة لعزيز أباظة ٢٧٦).

(٥) جورجى بن حبيب بن زيدان، ولد عام ١٢٧٨ للهجرة (الموافق ١٨٦١ للميلاد)، وتعلم فى بيروت، ورحل إلى مصر، وأصدر مجلة الهلال عام ١٨٩٢ للميلاد لمدة ٢٢ عامًا، توفى بالقاهرة عام ١٣٣٢ للهجرة (الموافق عام ١٩١٤ للميلاد)، له تصانيف كثيرة مثل: تاريخ مصر الحديث، وتاريخ التمدن الإسلامى، وتاريخ العرب قبل الإسلام، وتاريخ الماسونية العام، وتراجم مشاهير الشرق، وتاريخ اللغة العربية، ومختصر تاريخ اليونان والرومان، ومختصر جغرافية مصر و٢٢ رواية مطبوعة. (الأعلام).



كمية من التعصب الدينى ضد التاريخ الإسلامى، ولم يكن ذلك مسلكه فى قصة العباسة وحدها، بل فى كل ما تناول من قصص تتصل بالحياة الإسلامية ورموزها وشخوصها.

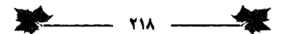
لقد كان يكتب عن هذه الشخصيات الإسلامية، وكأنها تعيش فى مجتمع مجرد من الأخلاق ومن المبادئ، متفرغ لمعايشة الغرائز والشهوات والأهواء، وهو ما نجح فيه أيما نجاح، وراجت بهذه الطريقة مجموعة رواياته عن تاريخ الإسلام من أمثال غادة كربلاء وعبد الرحمن الداخل وفتاة القيروان - حتى وجدنا أن جماهير القراء لم يكن يعنيها أن تجد فى القصة وقائع تاريخية صادقة، بقدر ما كانت تبحث فى جوانبها عن عناصر الإثارة، مهما امتلأت بالأكاذيب.

ولذلك لا يعتبر جورجى زيدان مؤرخًا بأى مقياس من المقاييس فى هذه الروايات، بل هو قصاص ماهر، حرص من وجهة نظره على الإساءة إلى الشخصيات التاريخية المعتبرة، فجعلها تبدو فى نظر من يقدسونها شخصيات مخمورة، تعيش بين الكاس والطاس، وتقضى حياتها عكوفًا على تملك الجوارى والغلمان والتمتع بفنون الطرب والغناء دون التفات إلى أى اعتبار آخر.

ولو أننا رجعنا إلى ما كتبه جورجى زيدان عن قصة العباسة أخت الرشيد، فسنجد أنه عمد إلى تشويه صورة الخليفة المسلم هارون الرشيد، الذى كان يحج عامًا ويغزو فى بلاد الكفر عامًا، والذى قرر له التاريخ المنصف حشدًا من المآثر والفضائل تألق بها سلطانه العظيم.

لقد حوله جورجى زيدان إلى مجرد سفاح حاقد غارق فى الشراب، والغ فى الدماء، واله بالنساء، وكأنه كان يعيش فى أحد كباريهات العصر الحديث.

فمثلاً نجد العباسة فى قصته تشكو همها لجاريتها، فتقول: إن غريمنا - تقصد أخاها هارون - ظالم مستبد صاحب سلطان مطلق، وقد انغمس فى ملذاته، وتمتع بكل ما تشتهيه نفسه، وأصبح لا يبالى سواء هلك عطشًا، أم مات جوعًا، أم ذاب لوعة. إنه رجل لا شفقة عنده، ولا رحمة، وإنما تهمه ملذاته.



فقالت عتبة ـ الجارية ـ: تلك حال الرجال كلهم يا مولاتى، فإنهم أصحاب السيادة، وقد فضلوا أنفسهم على المرأة، فحللوا لأنفسهم ما حرموها منه، وتمتعوا بما حظروه عليها، يتزوج الرجل عدة نساء، ويقتنى الجوارى والسرارى، ويمنع المرأة من أن تتزوج برجل تحبه ويحبها[1].

ولا يلتزم جورجى بأصل الرواية المزعومة القائلة بأن الرشيد قد زوجهما زواجًا مشروطًا، وإنما يزيد فيها بأن جعل جعفرًا يتردد عليها يوميًا فى قصرها، حتى تنجب ثلاثة أطفال، ثم تحمل الرابع.

فعندما سمع الرشيد أنهما يتقابلان، أتى بخادم العباسة (أرجوان)، وبسط له السيف، والنطع، ووقف مسرور سفاح الرشيد منتظرًا الإشارة.

يقول جورجى زيدان: فحدثته نفسه ـ أرجوان ـ أن يحافظ على سر مولاته، فداء لها بنفسه، لكن غريزة الضعف أمام الموت، غلبت عليه... وجمد ريقه فى فمه، وتلعثم من هول موقفه، ولحظ الرشيد تردده، فصاح فيه: قل أو أقتلك!! فقال وصوته يتلجلج: إن جعفرًا تزوج أختك العباسة منذ سبع سنين، وولدت منه ثلاثة بنين: أحدهم له ست سنين، والآخر خمس سنين، والثالث عاش سنتين، ومات من قريب، والاثنان أرسلا إلى مدينة الرسول، وهى حامل بالرابع.

وكان الرشيد يسمع كلامه، والشرر يكاد يتطاير من عينه، فلما فرغ أرجوان من كلامه، قال له الرشيد: كيف تعلم بهذا ولا تخبرنى؟

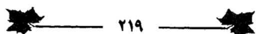
فتشدد أرجوان عند هذا السؤال، وقال: أنت أذنت لوزيرك بالدخول على أهل بيتك، وأمرتنى ألا أمنعه فى أى وقت شاء ليلاً أو نهارًا[2].

وإذا صح أن هارون الرشيد سمح لجعفر بأن يتردد على العباسة ليلاً أو نهارًا، فمن الخطأ بل من الحمق أن نصدق بأنه منعه من مواصلتها زوجيًا وجنسيًا، فكيف يمكن أن نجمع بين الأمرين، وأن نوافق أولئك الذين اعتبروا زواج جعفر بالعباسة زواجًا على الورق لا يجمع بين زوجين على فراش واحد؟

---

(١) العباسة لجورجى ٥١٠.

(٢) المرجع السابق ٦٦٢.



لم يكتف جورجي بذلك، وإنما جعل هارون الرشيد سفاحًا يقتل أخته وابنيها وزوجها، ثم يتخلص ممن شارك مسرورًا في هذا الفعل.

يقول في قتله أخته: ... أما الرشيد فصاح بمسرور: هل أوصدت أبواب القصر، وحبست أهله؟ قال: نعم يا مولاي. قال: وأين الخادمان والفعلة الذين أتيت بهم؟ قال: هم على مقربة منا، هل أدعوهم؟ قال: ادع الخادمين فقط.

فخرج ثم عاد، ومعه خادمان يحملان صندوقًا كبيرًا، فلما رأت العباسة ذلك تحققت أنها مقتولة، والتفتت إلى أخيها، فرأته قد حول وجهه عنها، وأشار إلى مسرور، فهجم عليها بالسيف... وولت وجهها شطر طريق الحجاز حيث تظن ابنيها يقيمان... وقالت: أستودعكما الله يا حسن ويا حسين، ثم حولت وجهها نحو الشماسية[1] كأنها تهم أن تناجي حبيبها، فسبقها مسرور بالسيف، فقتلها، والرشيد لا يلتفت.

فلما سقطت ميتة، أومأ مسرور إلى الخادمين فوضعاها في الصندوق، ثم جاء الفعلة، وهم عشرة من الرجال الأشداء يحملون المعاول والزنابيل، وقد حسروا سواعدهم، وشمروا عن سوقهم، فأمرهم أن يحفروا وسط المقصورة، فحفروا حتى بلغوا الماء، فقال: حسبكم، هاتوا الصندوق. فأتوا به ودلوه في الحفرة، ثم قال: ردوا التراب عليه، ففعلوا وسووا الموضع كما كان.

ثم أخرجهم، وأغلق الباب، فأخذ الرشيد المفتاح، وأمره أن يحرس القصر، ولا يدع أحدًا يخرج منه.. ثم قال له: خذ هؤلاء، وأعطهم أجرهم، ووافني إلى القصر.

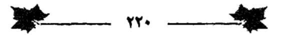
ففهم مسرور أنه يأمره بقتلهم، فأخذهم، وجعلهم في جواليق، بعد أن ثقلهم بالصخر والحصى، ورماهم في دجلة، وعاد إلى قصر الخلد...[2].

ثم واصل جورجي زيدان تكملة الملحمة البرمكية التي صور بها هارون الرشيد ولا عمل له إلا تتبع الناس لقتلهم، فجعله بعد أن قتل جعفرًا يتجه إلى الصبيين الحسن والحسين، ويقتلهما.

---

(١) الحي الذي يسكنه جعفر.

(٢) العباسة لجورجي ٦٧٦، وقصر الخلد: القصر الذي يسكنه الرشيد.



قال جورجي: فلما ارتاح باله من هذا القبيل، ذهب إلى زبيدة امرأته، فأخبرها بما كان، فاستحسنته، ولكنها تذكرت الصبيين، فقالت: لقد فعلت فعل أهل الحزم، وأنقذت الخلافة من الأعداء، ولكن ما الذى فعلته بالصبيين؟... إذا أردت محو العار الذى لحقنا، فبادر إلى إزالة أثره، لأن بقاء الصبيين وصمة باقية.

ثم دعا الرشيد بجماعة من الغلمان، وأمرهم أن يذهبوا مع مسرور إلى تلك الحجرة، ويحفروا فيها حفرة عميقة، وأومأ إلى مسرور أن يقتل الغلامين، ويدفنهما فيها.. فأطاعه ومضى بهما إلى الحجرة، ثم عاد وأخبر الرشيد بأنه قتلهما هناك، وقتل الرجال الذين ساعدوه فى ذلك[1].

وهكذا انتهت مسرحية الباطل ومهزلته، التى أفرزتها أحشاء جورجى زيدان، وتصوراته الدموية الشيطانية التى شوه بها سيرة الخليفة العظيم الصالح هارون الرشيد، الذى يمثل فى ميزان التأريخ الحق انطلاقة الدولة العباسية العملاقة على طريق الحضارة الإسلامية الشامخة، والذى يعتبر تاريخه أعطر مراحل تلك الدولة وأزهاها.

هكذا يفعل أحلاس المبشرين والمستشرقين وأذنابهم بتاريخنا الذى نباهى به الدنيا، فإذا صدقناهم فيما يقولون كان علينا أن نتوارى خجلاً من تلك الأحداث الرهيبة التى لا تحدث إلا فى مجزرة دامت فى نظر جورجى زيدان لأكثر من عشرين سنة.

غير أننا نحمد الله على أن جورجى زيدان لم يكن إلا كذابًا مزورًا، وأن الناس لا يحملون كلامه على محمل الجد والتصديق، بل يرونه مجرد عبث روائى يستهدف الإثارة والاستفزاز، دون أن يرعى حرمة الحقيقة، وأمانة التاريخ.

وهذا دليل آخر من أدلة كذب هذا الرجل يقدمه لنا الشيخ طنطاوى جوهرى[2]، العالم الثبت، والمفسر المجدد، من خلال تجربة روحية وضع فيها كتابه

---

(١) العباسة لجورجى ٦٩٨.

(٢) الشيخ طنطاوى جوهرى: عالم فاضل، له أشغال بالتفسير والعلوم الحديثة، ولد فى قرية من قرى الشرقية فى مصر عام ١٢٨٧ للهجرة (الموافق عام ١٨٧٠ للميلاد)، تعلم فى الأزهر، وعنى بدراسة الإنجليزية، ودرس فى دار العلوم، والجامعة المصرية، ناصر الحركة الوطنية، ووضع كتابًا (نهضة الأمة وحياتها)، انقطع للتأليف، صنف كتبًا أشهرها: الجواهر فى تفسير القرآن الكريم فى ٢٦ جزءًا، وجواهر العلوم، والنظام والإسلام، والتاج المرصع، ونظام العالم والأمم، والأرواح، وأين الإسلام؟ وأصل العالم، وجمال العالم، والحكمة والحكماء، وميزان الجواهر، وفى عجائب الكون، والفرائد الجوهرية فى الطرق النحوية، وبهجة العلوم فى الفلسفة العصرية، وتوفى عام ١٣٥٨ للهجرة (الموافق ١٩٤٠ للميلاد). (الأعلام).



(الأرواح) كما ألف كتابًا عن العباسة بعنوان (براءة العباسة أخت الرشيد)، ونحن نقتبس خلاصة رأيه من كتابه الأرواح.

قال: فذلك أننا كنا جالسين عند ذلك السرى[1] فى نحو عام ١٩٢٢ للميلاد، ونحن فى جلسة من تلك الجلسات، حضر زوج ابنته، ذلك الشاب الأديب، وهو يحسن الفرنسية، وكان يخاطب بها جان دارك[2] المشهورة، التى قالت (بواسطة الكتابة كما هو معلوم) أتحبون أن أحضر لكم روحًا عالية مسلمة؟ فقلنا جميعًا:... نعم.

فلم يمض إلا ثوان، حتى رأينا القلم يتحرك، وألفينا كتابة هى نفسها الكتابة الكوفية بخط جميل جدًا، يشبه ما نراه مكتوبًا فى المصاحف الأثرية، وما هو مكتوب على بعض المساجد الإسلامية... وأول ما كتبت هذه الجملة:

يا أستاذ طنطاوى:

ولما رأيت السيف جلل جعفرًا
ونادى مناد للخليفة: يا يحيى
أسفت على الدنيا وعاتبت أهلها
عليها وقلت: الآن لا تنفع الدنيا[3]

فقال: عوفيت يا أستاذ طنطاوى، أنت عقلك كبير، ولكنك حسن النية، استمر فى تأليفك، ولكن أنا أريد منك أمرًا فهل أنت فاعل؟ قلت: نعم.

قال: بحق الله، بحق النبى، بحق القرآن إلا فعلته. فكاد يغشى علىَ، والحاضرون دهشوا لهذه المفاجأة، ولماذا اختار فلانًا.

فأكدت له أنى أفعل ذلك، فقال: والله إن جعفرًا ما زنى بأختى العباسة، ولا زوجته لها، ولكنه رجل خاننى، فقتلته، فهل تعاهد أن تسهر الليل، وتجد بالنهار،

(١) لم يذكر اسمه، وقال إنه من أسرة تمت بصلة إلى الأسرة الحاكمة فى البلاد، وقد طلب منه عدم ذكر اسمه، حتى بعد وفاته.

(٢) جان دارك: بطلة فرنسية (من عام ١٤١٢: ١٤٣٠ للميلاد)، أعدمت بتهمة الهرطقة والسحر، نشرت حول سيرتها أساطير عديدة.

(٣) قول لدعبل الخزاعى يرثى البرامكة، ودعبل شاعر معاصر للأحداث، فقد مات عام ٢٤٦ للهجرة، عن ٩٨ عامًا.



وتقرأ فى الكتب، وتبحث فيها، حتى تؤلف كتابًا تطفئ به النار المتأججة فى الشرق والغرب، وتدفع الأكاذيب التى نشرها جورجى زيدان... يا أستاذ طنطاوى تذكر وصيتى.

فقلت: سأعمل بها، فكن مطمئنًا... وبيانه أنى بعد أن قمت من ذلك المجلس، بحثت، فوجدت فى المكاتب كتابًا اسمه (العباسة أخت هارون الرشيد)، وما كنت اطلعت عليه قبل ذلك، فاشتريته، ودرسته، وبحثت فى كتب التاريخ، فوجدت الرواية خيالية، والعلم يكذبها، فألفت فعلاً كتابًا هو الآن عندى اسمه: (براءة العباسة أخت هارون الرشيد)... ورأيت القول فى هذه الحادثة صادف الحقيقة - أى ما ذكرته الأرواح - فإنى بحثت، ورأيت جميع هذه القصة خيالية، ولم يحصل هذا من العباسة، وهى لم تر جعفرًا، والمسألة كلها سياسية بحتة.

إن قدماء الفرس لما رأوا صولة العرب تدخلوا بينهم، وقلبوا دولة الأمويين، ولما جاءت الدولة العباسية، ولم ينالوا مرادهم، أرادوا قلبها أيضًا، ففتك بأبى مسلم الخراسانى[1] أبو جعفر المنصور[2]، وبجعفر البرمكى هارون الرشيد لمقاصد سياسية، والكتاب قد شرح هذه النقطة شرحًا وافيًا، مستمدًا من جميع المؤرخين قديمًا وحديثًا[3].

وهذه النتيجة هى التى وصل إليها نظرنا فى وقائع القصة التى رواها المسعودى وابن الحنبلى وابن كثير والطبرى، وغيرهم من المؤرخين، والله أعلم.

إن هذه الرواية التى ساقها الشيخ طنطاوى جوهرى لا يمكن أن توصف بأنها مرجع علمى يثبت قضية أو ينفيها، ولكنها لدى من يؤمنون بتحضير الأرواح مصدر من مصادر المعرفة، بل هى فى نظرهم مصدر علوى يطمئنون إلى صدقه.

---

(١) أبو مسلم: من أعظم دعاة العباسيين، كان مولى فارسيًا، خدم إبراهيم الإمام أخا السفاح، دعا له فى خراسان، استولى على الشرق حتى بويع للسفاح عام ١٣٢ للهجرة، رأى فيه المنصور خطرًا عليه، فقتله عام ١٣٧ للهجرة (الموافق ٧٥٥ للميلاد).

(٢) أبو جعفر المنصور: ثانى خلفاء بنى العباس، ولد عام ٩٥ للهجرة، وتوفى بمكة عام ١٥٨ للهجرة، بنى بغداد، وقضى على ثورات كثيرة من العلويين وأصحاب أبى مسلم والراوندية، وقضى عليهم بحملات عدة، وحارب البيزنطيين، مكث فى الخلافة اثنتين وعشرين سنة حافلة بالأحداث.

(٣) الأرواح ٣٢٧.

وما جاء فى الرواية على أية حال موافق للروايات التاريخية المرجحة لدينا، وهى تبرئة ساحة العباسة مما نسب إليها الوضاعون والمزيفون، ومن نسج نسجهم، وسار على دربهم، وإنما جئنا بهذه القصة الروحية لأن مصدرها لا يرقى إليه الشك، وهو الشيخ طنطاوى جوهرى، العالم المفسر التقى، وقد وجدناه حريصًا على إثبات وقائعها، وكأنها شهادة يدلى بها تبرئة لذمته، ودفاعًا عن عرض امرأة مسلمة خاض فى سيرتها أعداء الإسلام لأسباب سياسية وتاريخية، فكان لابد من التصدى لهم بكل دليل يستمد من الوثائق المكتوبة، وغير المكتوبة، حتى و لو كان مصدره عالم الأرواح، وسبحان من يعلم السر وأخفى، وهو اللطيف الخبير.

* * *

٧

قبيحة

(زوج المتوكل)



تمهيد

هذا العنوان: (قبيحة: زوج المتوكل) ليس وصفًا لامرأة لعبت دورًا فى تاريخ مرحلة من مراحل الدولة العباسية، بل هو مجرد عَلَم عليها، ومهما ساق المؤرخون من المبررات، فإن هذا الاسم يثير كثيرًا من الاشمئزاز، فضلاً عما يثير من التساؤل والاستغراب.

لقد أهمنا أن نصل إلى تفسير لإطلاق هذا الاسم على فتاة عاشت ـ غالبًا ـ صدر شبابها لدى نخَّاس، لابد أنه كان يطلق عليها اسمًا جميلاً، يزيد فرصة تسويقها، وهو هدف كل النخاسين، فى أسواق الجوارى والعبيد، حتى وجدت تلك الجارية فرصتها لدى أمير المؤمنين (المتوكل)، وقد يذكرنا هذا المعنى بما قاله أحد مشايخ القبائل العربية حين سُئل عن السر فى إطلاق الأسماء الحسنة على العبيد، والأسماء الخشنة والمخيفة على الأبناء، بحيث يقال: مرجان، وسرور، وريحان للعبيد، ولكن يقال: أسد، ومرة، ووحش، وعباس للأبناء. قال الرجل: إننا نسمى الأبناء لأعدائنا، ونسمى العبيد لأنفسنا..!!

وهذا تعليل منطقى يضع الشىء فى موضعه، وقد عرفت العربية من أسماء الأسد: العباس، وأسامة، والغضنفر، وكلها تستخدم فى تسميات الأبناء، حتى إذا شب الابن عن الطوق، وبدأ يخوض غمرات القتال ضد الأعداء ـ كان لاسمه من الرعب ما يشق به صدور الأعداء!!

فأما «مسرور وريحان» فهما ينشران البهجة والعطر حيثما خطرا فى مجلس مولاهما، وهو المطلوب، ومن هذا الباب (ريحانة وجميلة والخيزران.. إلخ) لقد كانت (قبيحة) أجدر بأن يطلق عليها اسم جميل يليق بما اتصفت به من فتنة، وهى الجارية الرومية، ذات الجمال الأخَّاذ، الذى اختطف عقل أمير المؤمنين، فاشتراها، واختص بها نفسه.

أجل كانت جديرة بأن تسمى: وردة، أو ريحانة، أو ياسمين، ولو حدث ذلك لكان من باب إطلاق الاسم على المسمى، فأما أن يطلق عليها ذلك الاسم العجيب: (قبيحة) فهو ما لا نجد له مبررًا.. اللهم إلا أن يكون ذلك من باب إطلاق الاسم، وإرادة الضد، فتكون (قبيحة) بمعنى (جميلة)، كما قال بعض المؤرخين، وهو احتمال لا نصيب له من التصديق أو القبول فيما نرى!!



ونحن فى سبيل تعليل هذه التسمية بين عدة احتمالات:

أولها: أن اسمها كان بالرومية (كابيه)، فلما جاءت إلى الحياة العربية تحولت التسمية الرومية إلى (قبيحة) من باب المجانسة، وهى مجانسة سخيفة (قبيحة) أيضًا، حتى ولو كان السبب فيها استسهال النطق الصوتى.

وثانيها: أن يكون هذا الاسم أطلق عليها بسبب بعض مواقفها السيئة التى سجلها عليها التاريخ وهبطت بمكانتها، فكان ذلك من باب الذم لها على ما أبدت من الرأى الردىء، أو التصرف القبيح، وهو احتمال بعيد؛ لأنها عرفت بهذا الاسم منذ البداية، وقبل أن تكون لها مواقف سيئة أو حسنة.

وثالثها: أن تكون ضرائرها هن اللاتى أطلقن عليها هذه التسمية تشنيعًا بها، وتشويهًا لشخصيتها وغيرة منها لما كان لها من مكانة، وقد كانت ذات ضرائر كثيرات، بلغ عددهن فيما ذكر المسعودى: أربعة آلاف جارية كن فى ملك المتوكل، ويذكر المسعودى فى (مروج الذهب ٤/١٢٢) «أن المتوكل جامعهن كلهن» وهو خبر - إن صح - يثير وقوعه غيرة هذا الجيش من الجوارى بعضهن من بعض، كما تثير روايته كمًّا هائلاً من علامات الاستفهام؟؟؟

ولا نستطيع أن نقرأ هذا الخبر دون أن نتعرض للمغزى الدينى والتاريخى الذى يستوقفنا عند معالمه الخطيرة.

ولنبدأ القصة من أولها، فقد شاءت إرادة الله (تبارك وتعالى) أن تقوم العلاقة بين الرجل والمرأة - فى مستواها الإنسانى النهائى - على أحد شكلين من العلاقة، أو كليهما: إمّا الزواج، وإما مِلْك اليمين أو هما معًا، وقد كانت الحياة الاقتصادية تفرض العبودية على كثير من الناس، باعتبارها وسيلة إلى تحصيل القوت، حين تشح الوسائل الأخرى، فكانت تجارة الرقيق هى الطريق الوَحِيدَة لتحصيل القوت لكثير من الناس: كانوا يندفعون باختيارهم إلى العبودية، ويسعون إليها التماسًا للقوت، ولرغد المعيشة، وقد تعايش القادرون والمعدمون تحت مظلة الاسترقاق، وكان الرق بمثابة الطريق التى يسلكها الأرقاء لتقديم خدمتهم لمواليهم، فى مقابل ما ينالون من استمرار الحياة الوفيرة سواء أكانت الخدمة فى البيوت أم فى الحقول.

وكان الرجل إذا أراد شراء أرض أو بيعها تم ذلك بما يعيش عليها من العُبُد، وهو أسلوب شائع فى القرون القديمة والوسيطة.

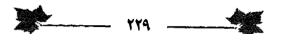


ومن ناحية أخرى كان الرجل هو الذى يواجه كل الأخطار، ويتصدى لكل عوامل الإبادة الناشئة عن الحروب والمعارك فى صراع البقاء، بل لقد كان الحكام الطغاة يعمدون إلى قتل الذكور من أعدائهم، واستبقاء الإناث منهم، إمعانًا فى إيقاع المذلة بهم، والمرأة لا تملك سبيلاً للمقاومة، ومن هذا الباب ما جاء فى القرآن عن فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٤].

ويبدو أن هذه كانت سُنَّة العصور القديمة، وهى التى زادت بسببها أعداد الإناث على أعداد الذكور، وفاض طوفان الإناث، حتى لم يعد تصريف المخزون منهن ممكنًا إلا عن إحدى طريقين: طريق الزواج المتعدد، أو طريق الالتحاق بمواكب الرقيق وما عدا ذلك فهو الفساد والدَّعارة، وقد كان الرجل إذا واجه أزمة معيشية باع غالبًا ابنته ليحل أزمته، وهكذا كان عدد الجوارى يتكاثر فى حوزة بعض القادرين، وكان من حق هؤلاء أن يستمتعوا بما فى حوزتهم من الجوارى، حتى ولو تجاوزن المئات عددًا؛ فهن رأس ماله، وملك يمينه.

ولذلك لا نستغرب إذا قرأنا فى العهد القديم خبرًا عن النبىِّ الملكِ سليمان بن داود وأنه تزوج ألفًا من النساء، فلا شك أن المجتمع آنذاك كان يشهد فيضانًا من الإناث، لا مفر من استيعابهن فى وعاء الزواج أو الرِّق، ومن لم تجد منهن أحد هذين الخيارين لم يكن أمامها سوى العلاقات الحرة، التى أطلق عليها اسم «الزنا أو البغى» فى دستور الحياة الدينية.

وقد كانت اليهودية أولى الديانات التى شرع أحبارها ورهبانها حدودًا للعلاقات المقبولة بين الجنسين، والأخرى المرفوضة، فحرموا الزنا باليهودية وأباحوه بغير اليهودية، طبقًا لما جاء فى العهد القديم فى نص الوصايا العشر: «لا تشته امرأة قريبك». فاشتهاء القريبة جريمة، وأما غير القريبة (أى: غير اليهودية) فعِرضها مباح، وهو ما أشار إليه القرآن فى وصفه لهذا السلوك اليهودى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فهم بمقتضى شريعتهم الكاذبة يستحلون أعراض الأميين (غير اليهود)، كما يستحلون نهب أموالهم، والاستيلاء على أراضيهم، وهى النظرية التى قامت على أساسها دولة إسرائيل: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].



وليس فى اليهودية تحديد لعدد الزوجات، كما تدل عليه نصوص العهد القديم، وأحكام المشنا.

ولذلك لا يدهشنا أن نجد بعض الكهنة يتزوج عددًا من النساء بعدد أيام السنة، (ثلاثمائة وخمس وستون امرأة).

بل إن من الكهنة من تزوج بأكثر من ألف من النساء، بحجة أنه يعولهن، وحينئذ لا حرج عليه فى أن يستمتع بهن، أو بمن تروقه منهن.

ومن أخبار اليهود أن (الرِّبى طرفون تزوج فى عام القحط ثلاثمائة امرأة يهودية، وكان يعولهن من أنصباء الكهنة). [انظر التلمود - باب عقود الزواج - ص ٥٨ ورقة أ].

ومعنى ذلك أن الشريعة اليهودية لم تكن تحرم تعدد الزوجات حتى القرن الحادى عشر الميلادى، إلى أن جاء الرِّبى جرشوم (فى فرنسا) فحرم تعدد الزوجات على اليهود أسوة بالوسط المسيحى الذى كان يعيش فيه.

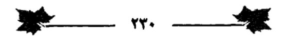
حتى إذا جاء موسى بن ميمون - وكان الطبيب الخاص لصلاح الدين الأيوبى - أباح لليهود التعدد فى حدود أربع زوجات، بشرط أن يعدل بينهن، بأن يعاشر كل واحدة منهن أسبوعًا فى الشهر.

وقد اتهمه اليهود بأنه دخل فى الإسلام فى آخر حياته (حوالى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى).

هذا عن الزوجات، أما عن السرارى والمحظيات فقد كان الكهنة يجمعون بينهن وبين الزوجات.

ولقد كان من حق الرجل اليهودى أن يبيع ابنته الصغيرة، فى حدود الثانية عشرة من عمرها، ليربح ثمنها، ويهرب من تكاليف تربيتها، وهى شريعة يهودية واردة فى (سفر الخروج - إصحاح ٢١، جملة ٧).

والدليل على أن الرق كان أصيلاً فى المجتمع اليهودى ما شاع فى اللغة العبرية من تسميات متعددة للمرأة المسترقة، مثل رَأْمَا - فليجش - شفحاه - وكل ذلك بمعنى (أَمَة).



وهكذا ظلت المرأة سلعة تتداولها شرائع الكهنة والأحبار، إلى أن جاء الإسلام بالتحريم القاطع للزواج بأكثر من أربع، وهو ما أخذ به الكاهن (موسى بن ميمون ـ المتوفى ٦٠١ هـ ـ ١٢٠٤م) نقلاً عن الشريعة الإسلامية.

لكن الإسلام ترك باب (مِلك اليمين) مفتوحًا رعاية لكرامة المرأة المتداولة فى أسواق النخاسة، وهو بذلك قد حقق هدفين:

الأول: إنقاذ المرأة من مباءة التداول السلعى، حين تدخل فى حمى من يشتريها، فتكون قد بدأت طريقها إلى الحرية بالاستيلاد.

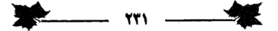
والثانى: الدفاع عن الأمن الأخلاقى للمجتمع الإسلامى، وقد حرم الإسلام استعباد خلق الله، ويكفى هنا أن نذكر قولة عمر بن الخطاب التى أعلنت هذا المبدأ: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟».

وبذلك اتجه الإسلام إلى سَدِّ منابع العبودية، وتحريم أسبابها، اللهم إلا ما يكونٍ نتيجة الأسْرِ فى الحرب، وهؤلاء الأسرى تتولى تحريرهم الإجراءات التى تصفى آثار المعارك بين المسلمين ومحاربيهم من الكفار.

وفى الوقت نفسه وسع الإسلام قنوات تصريف العبودية، فجعل (تحرير الرِّقاب) منٍ أعظم القربات والكفارات عن كثير من المخالفات الدينية، كالحِنث فى اليمين، والظِّهار، وقتل الخطأ إلى جانب تحرير أم الولد، وبذلك بدأت مسيرة الحرية والتحرير فى اتجاه تصفية العبودية، والقضاء على أسواق الرقيق فى المجتمع الإسلامى، وإن استمرت بعد ذلك فى المجتمع الغربى، حتى تكون المجتمع الأمريكى من قوافل العبيد المختطفين من قلب إفريقية!! إلى جانب جماعات المجرمين المنفيين من الحياة الأوروبية.

فإذا لاحظنا كثرة العبيد والجوارى فى ظل الدولة العباسية فى بغداد، وفى ظل الدولة الإسلامية فى الأندلس، فإننا نسجل هنا ملاحظة لتفسير هذه الظاهرة، وهى ملاحظة مزدوجة ذات صورتين:

الصورة الأولى: بالنسبة إلى الدولة العباسية، وقد اتجه الخلفاء العباسيون إلى الاستكثار من استقدام العبيد ـ وأغلبهم من الترك ـ ليستغنوا بهم عن العنصر العربى، حتى طغى هؤلاء على نظام الخلافة، واستبدّوا بكل شىء فيها، وكان ذلك تمهيدًا قدريًا لسقوط الخلافة نهائيًا عام ٦٥٦ هجرية على يد التتار، ويروى التاريخ



أن الخلفاء العباسيين جميعًا أبناء جوارٍ، ما عدا اثنين هما: أبو العباس السفّاح مؤسس الدولة، والأمين بن الرشيد، أما الباقون وعددهم خمسة وثلاثون خليفة فهم إنتاج الرقائق، وذلك بعكس الأمويين الذين منعوا أبناء الإماء من تولى الخلافة.

والصورة الثانية: بالنسبة إلى الخلافة الأندلسية ـ وقد تدفقت جموع الفرنجة من النساء والرجال على عواصم الأندلس، التماسًا للقوت الوفير، والحياة الرافهة، ولا سيما أن الخلفاء والولاة العرب كانوا مفتونين بالجمال الذى طالعتهم به الحياة الأندلسية، وقد أدى ذلك إلى امتلاء القصور بالنساء ذوات الشعور الصفراء، والعيون الزرقاء، والخصور النحيلة، والطلعة الجميلة، وكانت لهن وظائف داخل قصور الخلافة، أهمها نقل أسرارها إلى الأعداء، وتخريب الحياة الإسلامية من الداخل.

وعودة إلى الجارية (قبيحة) التى أنجبت للمتوكل عددًا من الأبناء، منهم عبدالله المعتز ـ وقصتها داخل هذه السيرة، ونحن نميل إلى تعليل إطلاق هذا الاسم عليها من جانب ضرائرها اللاتى بلغن أربعة آلاف، كان زوجها (الخليفة) مكبًّا على استقصائهن نكاحًا، وهى وحدها متربعة على العرش، تثير بتفردها غيرتهن، وحقدهن، أفلا تستحق أن يطلقن عليها هذا اللقب المعبر عما تُكِنُّ صدورهن تجاهها.

أما هذا الخليفة (المتوكل) فقد يكون الدافع إلى اقتنائه هذا العدد الهائل من الجوارى حرصه على إنقاذهن من الضياع والهلاك جوعًا، وهذا أمرٌ يحمد له.

غير أن ما قرره المؤرخ المسعودى بشأن علاقته بهن ـ إذا صح ـ أمر مذهل فكيف يتسنى له هذا الإعجاز الجنسي؟ وإذا قلنا: إنهن في مِلك يمينه، ومن حقه أن ينال منهن ما يريد، أفلا يعتبر هذا بكل المقاييس إسرافًا بشعًا؟.. والله سبحانه يقول: ﴿وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وهذا النهى عن الإسراف نهى تحريم، أى: «إن الإسراف فى الحلال حرام» ـ فيما نرى ـ وقد كان عصر المتوكل حافلاً بكثير من الفقهاء، ومع ذلك لم نسمع صوت واحد منهم يقول فى هذا الأمر كلمة واعظة.

إننا نميل إلى اعتبار ما ذكره المسعودى ـ الذى كان ميالاً إلى التشيع ـ مبالغة تحتاج إلى شيء من التحقيق، وقد كان للمتوكل موقف عظيم فى مواجهة فتنة



القول بخلق القرآن، وإخراج الإمام أحمد وغيره من السجن - يستحق من أجله أن ندافع عنه، ونستبعد عن سيرته هذا الغبار الذى يحجب عنا حقيقة ما كان فى ذلك الزمان.

فهذا الشاعر البحترى يمدحه قائلاً[1]:

ملكٌ أذلَّ المعتدين بوطأةٍ
ترسو على كَبِد النفاق وتثقل
فاسلمْ أميرَ المؤمنين لسُنَّةٍ
أحييتها والناس حَيْرى ضُلَّل
الله يشكرُ منك سعيًا صادقًا
فى حفظِها ثُمَّ النبىُّ المرسل

* * *

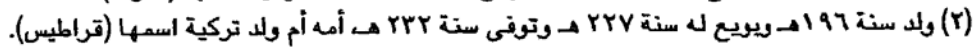
(١) الديوان ص ٢٦.



قبيحة الجارية

إذا كانت الدولة العباسية التى قامت سنة ١٣٢ هـ قد ظفرت بمجموعة من الخلفاء الأقوياء العظام الذين ساروا بها على طريق القوة وبسط السلطان حتى نهاية عهد ثامن الخلفاء المعتصم[1] سنة ٢٢٧ هـ ـ فإن هذه الدولة بدأت بعد مرور مائة سنة تقريبًا من نشأتها تتجه إلى الانحلال والضعف، لكن ذلك كان بالتدريج من خليفة إلى خليفة، نتيجة تدخل العناصر غير العربية، وتضارب مصالحها داخل مؤسسة الخلافة العباسية، لقد كان الصراع شديدًا بين العنصر العربى الحاكم والعنصر الفارسى فى شكل الموالى الذين كانت لهم اليد الطُولَى فى حاشية الخلفاء، حتى تولى المعتصم بن الرشيد الخلافة وتبعه من بعده الواثق[2] بن المعتصم ثم المتوكل بن المعتصم، فتغيرت الصورة فى عهدهم، وأهمل العنصر العربى والفارسى معًا، وسلطت الأضواء على عنصر آخر جديد استقدم من شمال أسيا، وهو العنصر التركى والفرغانى والقوقازى وغيرهم، وبمرور الوقت تزايد نفوذ هذه العناصر، وخاصة طغيانها على الناس فى مختلف عواصم الخلافة وكبريات مدنها، حيث انتشروا كالجراد وبسطوا سلطانهم وسلطتهم ما بين بغداد وسمرقند وبلاد أسيا الوسطى، ولأنهم حديثو عهد بالإسلام فلم يتمثلوا قيَمه ومبادئه، ولم يرعوا حرماته، فعاثوا فى الأرض فسادًا، وصاروا كالسوس ينخرون فى عصب الدولة ويتلاعبون بالخلفاء إزهاقًا لأرواحهم أو سَمْلاً لأعينهم أو سجنهم أو تعذيبهم، وظلت الحال على ذلك حتى تفتتت الدولة إلى جذاذات ورقاع، ما بين إدريسية فى المغرب وبويهية فى المشرق، وطولونية فى مصر وحمدانية فى الشام، وصفارية فى فارس وأغالبة فى تونس وزيدية فى اليمن وغيرها وغيرها.

وإذا نظرنا إلى بيوت الخلفاء وجدنا أن كل الخلفاء فى هذا الزمان من أبناء الجوارى، فلا عصبة تحميهم ولا أخوال يشدون من أزرهم وقد سبق أن أشرنا فى سيرة الخيزران أم الرشيد إلى أن خلفاء بنى العباس السبعة والثلاثين كلهم أبناء



(١) ولد سنة ١٧٨ هـ ويويع له سنة ٢١٨ هـ وتوفى سنة ٢٢٧هـ أمه تركية اسمها (ماردة).

(٢) ولد سنة ١٩٦هـ ويويع له سنة ٢٢٧ هـ وتوفى سنة ٢٣٢ هـ أمه أم ولد تركية اسمها (قراطيس).



جوارٍ ما عدا اثنين: السفاح[1] مؤسس الدولة الذى لم يمكث فى الخلافة سوى أربعة أعوام، والثانى الخليفة الأمين[2] بن الرشيد سادس الخلفاء ويقى فى سُدَّة الخلافة بضع سنوات قضاها كلها حروبًا ومشاحنات، ولاحظنا أيضًا أن هؤلاء الخلفاء قد جمعوا فى قصورهم أعدادًا هائلة من الجوارى، كنَّ فى الحقيقة عبئًا على الكيان الهش (الخلافة)، ووجدنا كذلك أن بعض النساء المحظيات المقربات من الخلفاء كن يلعبن دورًا خطيرًا لا يسير مع سياسات أزواجهن من الخلفاء، بل كانت أهواؤهن متحكمة فى كل شىء، ومنهن كانت شخصية هذه الدراسة واسمها (قبيحة) الجارية الرومية الجميلة الصارخة الجمال ومع ذلك أطلق عليها اسم (قبيحة)[3].

وقد ندهش لهذه التسمية التى لا تقبلها امرأة قط، فهى عنوان الدمامة والتشويه، اللهم إلا إذا كان من أطلقوا عليها هذا الاسم يريدون ذمَّها أو مدحها بالضد. قال القلقشندى: اسمها قبيحة سميت بذلك لحسنها، وهو من باب الأضداد كما يقال للغراب: أعور. لجِدَّة بصره[4].

وقد كانت قبيحة امرأة جميلة صارخة الجمال، وكأنها فيما وصفوا أجمل مما تدل عليه كلمة الجمال. فاختاروا لها هذا الوصف الغريب، ولعلها ـ وهى الباهرة ـ خيف عليها من الحسد، قال أبو هلال العسكرى: سميت بذلك عوذة من العين لخلوها من جميع العيوب[5]. وربما ـ وهى الرومية الأصل ـ لم يكن هذا الاسم المشوه مقصودًا بل له سبب آخر ذو طابع لغوى، وكان اسمها فى بلادها (كابيه ـ Capet) وهو لقب بعض الملوك القدماء على ما ذكره معجم (لاروس) وحين جاءت إلى المجتمع العربى نطق اسمها على هذا النحو دون قصد إلى المعنى واعتبرت من الناحية اللغوية تسمية «قبيحة» تعريبًا لكلمة (كابيه) وهو مسلك يشبه مسلكًا آخر، وهوأنهم كانوا يعمدون إلى الاسم الأجنبى فيترجمونه إلى معنى عربى جميل أو مقبول، ومن ذلك ما ذكره محمد عبدالله عنان عن الجارية (صبح) زوج الحاكم الأموى خليفة الأندلس قال: كانت جارية بشكنسية (نفارية) وإن صبح أو صبيحة ترجمة لكلمة (أورورا ـ Aurara) الإفرنجية ومعناها الفجر أو الصبح الباكر وهو الاسم النصرانى الذى كانت تحمله صبح[6].

---

(١) أمه ريطة بنت عبدالله الحارثية.

(٢) أم الأمين زبيدة بنت جعفر بن المنصور.

(٣) تضافرت المراجع كلها على هذا الاسم إلا قليلاً منها قالوا: فتيحة أو صبيحة.

(٤) مآثر الخلافة ١/٤٤٢.

(٥) الأوائل ١٩٨.

(٦) دولة الإسلام فى الأندلس ٢/٥٢٠.

المتوكل زوج قبيحة

ولد جعفر المتوكل فى ١١ شوال سنة ٢٠٦ هـ، وقبل أن يتم السابعة عشرة ولد له أول ولد سنة ٢٢٢ هـ هو محمد المنتصر[١] من جارية اسمها (حبشية) ثم تلتها جوار أخريات ولدن له ذكورًا وإناثًا، حتى أهلت سنة ٢٣٢هـ، وقبل شهور من وفاة الخليفة الواثق، ولدت جارية المتوكل الرومية الجميلة (قبيحة) صبيًا أطلقوا عليه محمد الزبير المعتز[٢]، لقد أنجب المتوكل ذكورًا أكثر صار منهم ثلاثة[٣] خلفاء فيما بعد، لكنا وجدنا الاهتمام كله والحظوة كلها لولد واحد وهو المعتز[٤]، حتى كانت الاحتفالات فى يوم مولده ويوم عذاره (ختانه) ويوم إتمام حفظه القرآن الكريم، ويوم وقوفه على المنبر؛ كلها أيام ذكرتها كتب التاريخ والتراجم لما حدث خلالها وما أنفق من أموال زادت عن الحد وفاقت الوصف، وذكرت الناس بأيام السعد حياة هارون الرشيد، وولده المأمون.

وتولى المتوكل[٥] الخلافة بعد وفاة أخيه الواثق[٦] فى ٢٣ من ذى الحجة سنة ٢٣٢ هـ - ٨٤٦م، وهو عاشر خلفاء بنى العباس، ولكنه الأول الذى تولى الخلافة باختيار أعيان الدولة وكبرائها، وليس بعد تعيينه وليًا للعهد كما جرت بذلك العادة، وبخلافة المتوكل بدأت الدولة العباسية قرنها الثانى فى حكم العالم الإسلامى.

---

(١) سماه ابن خلدون ومؤرخون (المستنصر).

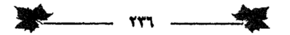
(٢) من نوادر هذا العصر أن محمدًا المعتز ولد له ولد سنة ٢٤٧ هـ وسماه أبوه عبدالله وكان عمر الأب لا يزيد عن خمسة عشر عاما، وقد تولى ابن المعتز الشاعر خلافة المسلمين لمدة يوم وليلة فى ١٠ ربيع الآخر سنة ٢٩٦ هـ وتلقب بالغالب ثم أخذ وقتل سرا، قال ابن خلدون فى تاريخه ٤/٤٩٣: بويع عبدالله بن المعتز يومًا أو بعض يوم، وكان ابن المعتز أديبًا أخذ الأدب عن المبرد، قال ابن النديم: واحد دهره فى الأدب والشعر (الفهرست ١٧٢).

(٣) هم: المنتصر، والمعتز، والمعتمد.

(٤) كان المعتز جميل الصورة صبوح المحيا، قال صاحب الديارات ص ٣٨١: لم يكن من خلفاء بنى العباس أحسن وجهًا من الأمين والمعتز يضرب بهم المثل فى الجمال.

(٥) ولد فى ١١ شوال سنة ٢٠٥ هـ.

(٦) هذه طرفة تبين مدى تحكم الترك فى الخلفاء، قال المتوكل: ركبت إلى دار الواثق أزوره فى مرضه الذى مات فيه. فإذا إيتاخ التركى ومحمد الزيات يأتمران فىَّ فقال محمد : نقتله فى التنور، وقال إيتاخ: بل ندعه فى الماء البارد حتى يموت ولا يرى عليه أثر القتل، وقال المتوكل: فبقى ما قاله الريات وإيتاخ فى نفسى فقتلتهما بما اعتزما به على قتلى. فقتلت ابن الزيات فى التنور وإيتاخ بالماء البارد. (وفيات الأعيان ١/٤٧٨).



قال فيه الشاعر:

كـــانت خـــلافـــة جـــعـــفـر كـــنـــبـــوة

جـــاءت بـــلا طـــلـــب ولا بـــتـــنـــحُـــل

وهب الإلـــه لـــه الخلافـــة مـــثـــلـــمـــا

وهب الـــنـــبـــوة لـــلـــنـــبـــى المرســـل

ودخل الخليفة المتوكل عاصمة الملك سامرا[1]، وبعد شهور قليلة ولدت له قبيحة بنتا شقيقة للمعتز سموها (قُرب) أم عبدالله، فرح بها المتوكل، قال القاضى الرشيد: ولدت قبيحة عبدالله المعتز للمتوكل فى آخر أيام الواثق أخيه، فلما ولى الخلافة[2] بعده، ولدت له بنتًا اسمها: أم عبدالله فقال لها: لئن فاتتنى بلوغ محبتى لك فى أبى عبدالله - المعتز - فلا يفوتنى فى أم عبدالله، وعمل لها خمسمائة جمل وخمسمائة بغل وفرس وحمار صياغة من خمسمائة ألف درهم فضة، وحمل كل واحد خرجًا فيه خمسمائة دينار وأهدى ذلك إليها[3].

لقد هام المتوكل بقبيحة هيامًا مجنونًا مع وجود زوجات أخريات. وملك يمين فاق عددهن، لقد أراد أن يسجل كل حركة من حركاتها وكل لفتة من لفتاتها، وكأن الحياة تجمعت كلها فى قبيحة وما يتصل بها، قال السيوطى: قال علىُّ بن الجهم[4]: كان المتوكل شغوفًا بقبيحة أم ولده المعتز لا يصبر عنها، فوقفت له يومًا - وقد كتبت على خدها بالغالية[5] (جعفرا) فتأملها وأنشأ يقول:

وكـــاتـــبـــة بـــالمسك فـى الـــخـد جـــعـــفـرا

بـــنـــفســـى محطُ المسك مـــن حـــيث أثَّـــرا

(١) مدينة مأخوذ اسمها من (سر من رأى) شرق نهر دجلة بينها وبين بغداد حوالى ١٠٠ كم، كان الرشيد قد حفر عندها نهرًا سماه الطاقول: وشيدها المعتصم لتكون عاصمة ملكه لما ضاقت بغداد بالترك الذين استكثر منهم، وظلت عاصمة له وللواثق والمتوكل ثم المنتصر الذى هجرها إلى العاصمة الأولى بغداد.

(٢) سلم على المتوكل بالخلافة ثمانية كل واحد منهم أبوه خليفة: منصور بن المهدى والعباس بن الهادى وأبو أحمد بن الرشيد وعبدالله بن الأمين وموسى بن المأمون وأحمد بن المعتصم ومحمد بن الواثق والمنتصر بن المتوكل (تاريخ الخلفاء: ٣٧٠).

(٣) الذخائر والتحف ٣٠.

(٤) شاعر عباسى رقيق الشعر من أهل بغداد، خص المتوكل العباس ثم غضب عليه فترك العراق وعاش فى حلب، مات سنة ٢٤٩هـ إثر جراحة.

(٥) أخلاط من الطيب كالمسك والعنبر والعود.



لــئــن أودعت سـطـرًا مـن المسك خـدهـا

لــقـد أودعت قـلـبـى مـن الـحب أسـطرا[1]

ولم يكتفِ بذلك بل توجه لشاعره ابن الجهم وقال له: يا عليُّ قال: لبَّيك يا أمير المؤمنين، قال: دخلت الساعة على قبيحة وقد كتبت بالمسك فى خدها اسمى، فوالله ما رأيت سوادًا فى بياض أحسن منه فى ذلك الخد، فقل فيه شعرا[2].

ومرت الأيام رخية هنية بالزوجين السعيدين، وحبا الطفل المعتز، وأرادوا ختانه وكان ذلك فى حوالى سنة ٢٣٢هـ، فبنى له أبوه قصرًا خاصًا فى سامرا على طراز قصور كسرى فى المدائن وأطلق عليه اسم القصر الوحيد، وليس بالوحيد، فقد شيد المتوكل قصورًا[3] عدة، ولنرجع للشابشتى الذى كتب عن هذه القصور بالتفصيل، ونقتطف بعضًا من وصفه لها قال:

كان المتوكل من أرباب الذوق والأنس لا يقعده عما يشتهيه مال، وقد انصرف انصرافًا عجيبًا إلى بناء قصور فخمة فى سامرا، كثر عددها حتى بلغت تسعة عشر قصرًا، أنفق فى سبيلها أموالا جسامًا تكاد تخرج عن حدود التصديق وفرة.. أولا البديع وهو بناء بديع للمتوكل بسرمن رأى.. والبرج وقيل أنفق عليه ألف ألف وسبعمائة ألف دينار.. وقصر البركة ذكره النويرى فى (نهاية الأرب) فى جملة قصور المتوكل.. وبركوارا.. قال ياقوت[4]: اسم قصر بناه المتوكل بسرمن رأى، وأنفق على بركوارا للمعتز عشرين ألف ألف درهم.. والأصح فى تسمية هذا القصر (بركوارا)، فقد جاء فى المعجمات الإيرانية أجمعها أن معنى «كوارا» هو الهانى أو الهنىء.. وقصر البهو أنفق عليه خمسة وعشرين ألف ألف درهم.. والجامع والجعفرى.. والجو سعد.. والسندان.. والشاه.. والصبيح.. والعروس.. والغريب.. والقصر.. وقصر المتوكلية.. والقلابة ولعل الصواب (القلائد) أنفق على بنائها خمسين ألف دينار، وجعل فيها أبنية بمائة ألف دينار.. واللؤلؤة والمتوكلية والمختار والمليح.. وقد اختفت هذه القصور وامَّحى أثر معظمها وما تبقى من أطلال بعضها كالمتوكلية وبركوارا[5].

---

(١) تاريخ الخلفاء ٢٧٠.

(٢) العقد الفريد ٤٠٢/٦.

(٣) أولها قصر بناه لقبيحة سماه العروس أنفق عليه ثلاثين ألف ألف درهم.

(٤) صاحب وفيات الأعيان.

(٥) الديارات ٣٧١.



لقد زالت كل قصور المتوكل تقريبًا، لكن بقى شىء واحد من آثاره فى سامرا، إنه مسجده ذو المئذنة العجيبة والتى بنى أحمد بن طولون مسجده ومئذنته فى مصر على غرارها، قال د. حسين مؤنس: إن مسجد المتوكل فى سامرا الذى بنى سنة ٢٣٢ هـ إلى سنة ٢٣٨ هـ ـ ٨٤٦م إلى سنة ٨٥٢م هو أكبر مسجد بنى فى الإسلام، فإن مقاييسه ٢٤٠ × ١٥٦ مترًا مما يجعل مساحته أربعين فدانًا[١] والعجيب أن هذا المسجد هو الأثر الباقى الوحيد لدولة بنى العباس[٢].

وعود إلى قصور المتوكل قال صاحب الذخائر: لما فرغ المتوكل من بناء قصره بقادسية سرمن رأى المعروف ببركوارا[٣] وهبه لابنه أبى عبدالله المعتز وجعل إعذاره فيه.. ولما صح عزمه على إعذار أبى عبدالله المعتز أمر وزيره الفتح ابن خاقان بالتأهب لذلك، وأن يلتمس فى خزائن الفرس بساطًا للإيوان فى طوله وعرضه، وكان طوله مائة ذراع[٤]، وعرضه خمسين ذراعًا، فلم يوجد إلا فيما قبض عن بنى أمية فإنه وجد فى أمتعة هشام بن عبدالملك[٥] على طول الإيوان وعرضه، وكان بساطًا لم ير لأحد مثله[٦]، ووصفه القاضى الزبير فى مكان آخر قال: إبْر يسمى غزر ذهب مفرد مغروز مبطن، فلما رآه المتوكل استحسنه، وأراد أن يعرف قيمته، فجمع عليه التجار، فذكروا أنهم ما رأوا مثله فى قديم ولا حديث[٧].

وتم ختان الصبى، وأفاض المؤرخون فى وصف احتفالات ليلة الختان، وما فرش فيها من بسط، وما شرب فيها من آنية من ذهب رصع بأصناف الجوهر، وما صب على الناس من دنانير ودراهم، وما نثر عليهم من جوهر ودر، وما أكل من أصناف نادرة[٨] وما خلع على من حضر من كبير وصغير عند انصرافه.

---

(١) عالم الإسلام ٣١٤.

(٢) لما دخل هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ هـ سوى قصور العراق بالأرض.

(٣) كلمة فارسية معناها القصر العظيم الكبير جدا.

(٤) الذراع ٧٥سم.

(٥) الخليفة الأموى العاشر ولد سنة ٧١ هـ وتولى الخلافة سنة ١٠٥هـ وتوفى سنة ١٢٥ هـ.

(٦) الذخائر والتحف ١١٣.

(٧) السابق ١٢١ والإبريسم نوع من الحرير.

(٨) قال آدم متز: أضاف القرن الثالث الهجرى إلى الفواكه التى كانت موجودة فى المملكة الإسلامية فاكهتين: هى الأترج والنارنج وكلاهما كان يقدم للناس فى الاحتفال بختان المعتز بن المتوكل، وذلك إلى جانب ما عز من الفواكه الغالية (الحضارة الإسلامية ٢/٣٠٥).

والغريب فى الأمر أن المؤرخين لم يذكروا من نساء المتوكل إلا قبيحة، وخاصة فى أيام الاحتفالات، يقول القاضى ابن الرشيد: فتوافى الناس ببركوارا قبل ذلك بثلاثة أيام، وضربوا المضارب، وانحدر المتوكل غداة ذلك اليوم، ومعه قبيحة ومن اختص به واختصه من الحشم[1].

وطبيعى أن تفخر «قبيحة» بذلك وتزهى وتتباهى على ضرائرها وعلى كل نساء القصر، فنراها تشمخ وتتعالى، وتأمر بضرب دراهم مكتوب عليها (بركة من الله لإعذار أبى عبدالله المعتز بالله) - فصاغوا لها من الفضة ألف ألف درهم، ونثرت على المزين ومن فى حيزه والغلمان والشاكرية[2] وقهارمة القصر، والخدم والخاصة من البيضان والسودان. سأل أحدهم المزيد «أبا حرملة» فى هذا اليوم: كما صار إليك إلى أن وضع الطعام؟

قال: نيف وثمانون ألف دينار سوى الصياغات والخواتيم والدهون والعدات[3]. وقد وصف القاضى ابن الرشيد هذه الاحتفالات وصفا دقيقا، نلخص منه جزءًا بسيطًا حتى يرى القارئ الاحتفال بإعذار المعتز ابن الحبيبة قبيحة، قال: وقصد المتوكل والناس جلوس، وهو على السرير، وحضر الأمراء والقواد والندماء وأصحاب المراتب، فأجلسوا على مراتبهم، ووضعت بين أيديهم صوانى الذهب مرصعة بأصناف الجواهر فيها شرابهم، وجعل بين صوانيهم من الجانبين والسماط فرجة، وجاء الفراشون بزبل[4] قد غشيت بأدم مملوءة دنانير ودراهم نصفين، وصبت فى تلك الفرج حتى ارتفعت على الصوانى.. ووقف غلمان فى آخر المجلس فصاحوا: إن أمير المومنين يقول لكم: ليأخذ من شاء ما شاء، فمد الناس أيديهم إلى المال فأخذوه.. وخلع على سائر من حضر ثلاث خلع بعد أن صليت الظهر خلعا حسانا على مراتبهم، وكذلك بعد أن صليت العصر والمغرب.. وأعتق المتوكل عن المعتز بالله ألف عبد وأعطى كل واحد منهم مائة درهم وثلاثة أثواب[5].

---

(١) السابق ١٢١.

(٢) فرقة من الجند ظهرت فى أيام المتوكل ثم المهتدى واستفحل أمرها أيام المستعين.

(٣) الديارات ١٥٦.

(٤) الزبل: القفة وكذلك الزبيل والزنبيل.

(٥) الذخائر والتحف ١١٥.

ولما انتهت الاحتفالات والدعوات أمر المتوكل كاتبه الخاص أن يعمل حساب ما أنفق فى هذا الإعذار، ويعرضه عليه ففعل، قال القاضى الرشيد: فاشتمل العمل على ستة وثمانين ألف ألف درهم ونيف، وكان الناس يستعْظمون ما أنفق الحسن بن سهل فى عرس ابنته بوران على عبدالله المأمون[1]، حتى أرخ ذلك فى الكتب، وسميت دعوة الإسلام.. فأتى من دعوة المتوكل فى إعذار ولده ما أنسى ذلك[2].

وقد عدد القاضى الرشيد من غنوا فى هذا الحفل الأسطورى قال: عريب المأمونية، وبدعة جاريتها، وسراب وشارية وجواريها، وندمان ومنعم ونجلة وتركية وفريدة ووافد وعرفان، وحدائق[3].

ولك أن تتخيل الحفل الذى غنت فيه اثنتا عشرة مغنية من كبريات مغنيات العالم الإسلامى آنذاك.

ولم تنتهِ الدعوات الخاصة بختان المعتز، وإنما تبعتها دعوات أخرى منها، عندما بدأ الصبى فى حفظ القرآن الكريم ثم ختمه، وأراد المتوكل الاحتفال بهذه المناسبة.. وحدد الموعد، وتوافد الناس قبل الاحتفال بثلاثة أيام ليشهدوا، ويفرحوا وينالوا كل الخير من بركات ذلك اليوم، الذى وصف بعد ذلك بأنه من أحسن أيام المتوكل.

قال القاضى الرشيد: وانحدر المتوكل غداة ذلك اليوم ومعه قبيحة، وجلس فى إيوان على منصة وأخرج منبر أبنوس مضبب بذهب فنصب وسط الديوان.. وخرج المعتز من باب الإيوان حتى صعد المنبر، فخطب فلما فرغ من خطبته دفعت الصينية إلى محمد بن عمران المؤدب ونثر الخدم ما كان معهم من الصوانى وغيرها فالتقط الناس، وأقام المتوكل ببركوارا فرحا مسرورًا أيامًا مع قبيحة، وكان يومًا لم ير مثله[4].

---

(١) كان العرس من اثنين وعشرين سنة فى شوال سنة ٢١٠ هـ.
(٢) الذخائر والتحف ١١٩.
(٣) السابق ١١٧.
(٤) الذخائر والتحف ١٢٠.

أما ابن كثير فقد وصف ذلك اليوم عن ابن عساكر قال:

إن المعتز لما حذق القرآن فى حياة أبيه المتوكل اجتمع أبوه والأمراء لذلك. وكذلك الكبراء والرؤساء بسرمن رأى واختلفوا لذلك أيامًا عديدة، ومرت أحوال عظيمة، ولما جلس وهو صبى على المنبر، وسلم على أبيه بالخلافة، وخطب الناس، نثرت الجواهر والذهب والدراهم على الخواص والعوام بدار الخلافة، وكان قيمة ما أنفق من الجواهر[1] يساوى مائة ألف دينار، ومثلها ذهبًا، وألف ألف درهم، غير ما كان من خلع وأسمطة وأقمشة مما يفوق الحصر، وكان وقتًا مشهودًا؛ ولم يكن سرور بدار الخلافة أبهج منه ولا أحسن، وخلع الخليفة على أم ولده المعتز قبيحة خلعا سنية، وأعطاها وأجزل لها العطاء، وكذلك خلع على مؤدب ولده محمد بن عمران، أعطاه الجواهر والذهب والفضة والقماش شيئًا كثيرًا جدًا[2].

لقد عاشت قبيحة وزوجها الخليفة عيشة كلها عواطف جياشة وحب متبادل تشويه الرومانسية والمشاعر المرهفة، وكأنها الزوجة الوحدة فى حياة الخليفة، فالودُّ والغرام يظللهما ولا يستطيع أحدهما البعد عن الآخر، قال على بن الجهم: دخلت على المتوكل، وقد بلغنى أنه كلم قبيحة جاريته فأجابته بشىء أغضبه فرماها بمخدة، فأصابت عينها فأثرت فيها فتأوهت وبكت وبكى المعتز لبكائها، فخرج المتوكل وقد حُمَّ من الغم والغضب، فخرجت إليه فضل الشاعرة بأبيات أمرتها قبيحة أن تقولها عنها فقرأها فإذا بها:

لأكتمن الذى بالقلب من حُرَقِ

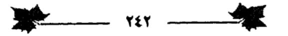
حتى أموت ولم يعلم به الناس

ولا يقال شكا من كان يعشقه

إن الشكاة لمن تهوى هى الياس

(١) قال شفيع الخادم: توجهنا إلى أحمد بن حباب الجوهرى فأقمنا معه أيامًا حتى صنعنا جوهرا فى عشر صوانى فضة، فى كل صينية من الجوهر الأحمر ومن الزمرد الأخضر والحب اللؤلؤ بقيمة مائة ألف دينار (الذخائر والتحف).

(٢) البداية والنهاية ١١/١٧.



ولا أبـــوح بشــــيء كــــنت أكــــتمـــــه

عــنـد الجلـوس إذا مـا مـا دارت الـكـاس

فقـال المتـوكل: أحسنت يـا فضل، وأمـر لـهـا بـعشرين ألف درهـم، ودخل إلى قبيحة فترضاها[1].

ولم يكن هذا الحب مجردًا بالكلام، إنما بالهدايا المتبادلة والمجاملات الكثيرة، فهذا المتوكل يغدق على قبيحة الهدايا فى كل مناسبة طيبة خاصة بها أو بابنها، وتحسن قبيحة التصرف فتسرع فى الرد على كل هدية بأحسن منها وأكثر، وهو ما كان ينعش دائمًا جو الحب بين الزوجين، ويرفع درجة حرارته، فهذا يزيد بن المهلبى يذكر هدية بعثت بها قبيحة لزوجها عندما عاد من دمشق مع خادم اسمه (شُنيف)، قال القاضى الرشيد: أورد الهدايا من عند السيدة قبيحة وقيمتها أربعمائة ألف دينار، فعرضت عليه وجلساؤه حضور معه، قال يزيد الراوى: فإذا عشرة أفراس سروج ذهب، ولجم ذهب وعشر شهارى[2] بمثل ذلك فضة، وعشر نجائب[3] عليها قباب محلاة بذهب، وعشرة أبغل عليها قباب محلاة فضة، ومائة تخت عليها ألف ثوب من أصناف الثياب من كل صنف مائة، وعشرة غلمان وعشرة خدم فى المناطق الذهب، ومائة صينية ذهب، وزن كل صينية ألف دينار وفيها ألف درهم مسبغة ومائة صينية فضة وزن كل صينية ألف درهم فى كل صينية ألف دينار مسبغة[4]، وسفط فيه جوهر، ومسبحة حب جوهر لا يعرف لها قيمة، وعشر جوار بأصناف الحلى معهن عشرون وصيفة إلا أنهن لم يعرضن بحضرة الحاضرين، وثلاثون جلدا سمورا قال المهلبى: فحلفت أنه ما أهدى إلى عربى ولا عجمى مثل هذه الهدية[5].

وللأسف لم يدم هذا الجو الحالم، والحب المتوهج، ولابد لهذا التوهج من الخمود، ولهذا البذخ من نهاية، والنهاية هنا لها أسباب. وأول هذه الأسباب عندما

(١) الأغانى ١٠/ ٢١٥.
(٢) ضرب من البرذون.
(٣) من خيار الإبل.
(٤) ما كانت جوانبه نقية من النقش.
(٥) الذخائر ٣٢.

وقع المتوكل فى خطأ كان قد وقع فى مثله بعض الخلفاء من قبل، ولم يعتبر بعاقبته السيئة، وذلك أنه سنة ٢٣٦هـ بايع لثلاثة من أولاده بولاية العهد متتابعين ثم قسم الدولة الإسلامية عليهم وكان ذلك يوم السبت لثلاثٍ بقين من ذى الحجة ٢٣٥هـ، قال الطبرى: ضم إلى ابنه محمد المنتصر[١] إفريقية والمغرب كله من عريش[٢] مصر إلى حيث بلغ سلطانه من المغرب وجند قنسرين، والعواصم والثغور الشامية وديار مضر وديار ربيعة والموصل وهيت وعانات والخابور وقرقيسيا وتكريت وطساسيج[٣] السواد وكور دجلة، والحرمين واليمن وعك وحضرموت واليمامة والبحرين والسند[٤].. وإن كان ابن خلدون اعتبر هذه الولايات كانت للمنتصر عندما عينه أبوه وليًا للعهد، ثم غيَّر النظام بعد ذلك. ثم عقد لابنه الثانى المعتز[٥] خراسان وطبرستان والرى وأرمينية وأذربيجان وكورفارس. أما الابن الثالث إبراهيم[٦] المؤيد فقد قسم له جزءًا من أذربيجان وبلاد ما وراء النهر. وفى رواية الطبرى ضم ولايات أخرى هى: جند دمشق وجند حمص وجند الأردن وجند فلسطين[٧].

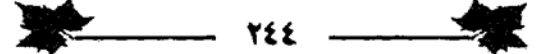
وجاءت السنة التالية سنة ٢٣٧هـ فأقر هذه البيعة والولاية، قال حميد الله: أشخص المتوكل القضاة إلى الولايات إلى أخذ البيعة، وكان عقد لكل منهم لواءين: أسود وهو لواء العهد وأبيض وهو لواء العمل[٨].

أما القلقشندى فقد قال: أخذ المتوكل البيعة لأولاده الأربعة:

محمد المنتصر ثم الزبير ثم المعتز ثم إبراهيم المؤيد فى ذى الحجة سنة ٢٣٥هـ[٩].

---

(١) كانت سنه آنذاك أربعة عشر عاما.
(٢) أول عمل مصر ناحية الشام على ساحل بحر الروم فى وسط الرمال (معجم البلدان).
(٣) (ج) طسوج وهو القرية.
(٤) الطبرى ١٧٦/٦.
(٥) كان عمر المعتز أربع سنوات.
(٦) أمه رومية اسمها إسحق كان عمره آنذاك أقل من ثلاث سنوات.
(٧) الطبرى ١٧٦/٩.
(٨) حوليات الإسلام ٢٧٧.
(٩) مآثر الإنافة ٢٢٩/١.



ونرى أن الأمر قد اختلط على القلقشندى لأن الزبير هو المعتز فهم ثلاثة فقط ولم تمر هذه البيعة على الشعراء الذين أدلوا بدلوهم، فى مدح الخليفة على فعلته هذه، فهذا البحترى[1] يؤيد المتوكل قائلاً:

حاط الرعية حين ناط أمورها
بثلاثة بكروا ولاة عهود
قدامهم نور النبى وخلفهم
هدْى الإمام القائم المحمود
فاسلم أمير المؤمنين ولا تزل
مستعليًا بالنصر والتأييد[2]

وينشد على بن الجهم فى مدح هذه البيعة:

لما أردت صلاح دين محمد
وليت عهد المسلمين محمدا
وثنيت بالمعتز بعد محمد
وجعلت ثالثهم أعز مؤيدًا

أما الأمير ابن المدبر[3] فيقول:

يا بيعة مثل بيعة الشجرة[4]
فيها لكل الخلائق الخيرة
أكدها جعفر وصيرها
إلى بنيه الثلاثة البررة[5]

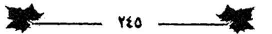
(١) هو الوليد أبو عبادة بن عبيد الطائى أحد فحول الشعراء فى العصر العباسى ولد بمنبج سنة ٢٠٦ هـ وتوفى بها سنة ٢٨٤هـ، له ديوان شعر وديوان حماسة (الأعلام).

(٢) ديوان البحترى ١٠.

(٣) هو إبراهيم بن محمد بن عبدالله بن المدبر وزير تولى وزارة المعتمد العباسى توفى سنة ٢٧٩ هـ وتولى مصر للمستعين، انحط خراج مصر فى أيامه حتى رحل غالب أهلها من الظلم وكاد أمرها يؤول للخراب، عزله المستعين بأحمد بن طولون سنة ٢٥٥ هـ.

(٤) بيعة الرضوان فى الحديبية التى بايع فيها المسلمون النبى ﷺ سنة ٦ هـ.

(٥) مروج الذهب ٤/ ٨١.



ولم يكتف المتوكل بتقسيم العالم الإسلامى على بنيه الثلاثة، إنما ميز المعتز ابن الحبيبة بأشياء وهو دون العاشرة قال ابن خلدون: فى سنة ٢٤٠ هـ ضم المتوكل إلى المعتز خزن بيوت الأموال فى جميع الآفاق ودور الضرب. وأمر أن يرسم اسمه على السكة[1]. والعجيب أن هذا المسئول المشارك أباه فى الحكم والإشراف على المال والثروة وكتب اسمه على الدنانير ـ لم تزد سنه عن ثمانى سنوات.

* * *

(١) ابن خلدون ٣/ ٦٣٥ والسكة: العملة.

قبيحة أم ولى العهد

لقد أساء المتوكل التصرف عندما قسم الدول الإسلامية بين بنيه الثلاثة، وزاد على ذلك بأن سجل شروطًا فى البيعة يلتزم بها المنتصر عند توليته الخلافة، قال الشيخ الخضرى: كتب المتوكل كتابًا جعل لابنيه المعتز والمؤيد تمام الاستقلال فى أعمالهما إذا آلت الخلافة للمنتصر، بحيث لا يجوز أن يشرك فى شىء من أعمال أحدهما أحدًا، ولا يوجه عليه أمينًا ولا كاتبًا ولا بريدًا، ولا يضرب على يده فى قليل أو كثير[1].

ومن الواضح أن المرأة كانت وراء كل هذه الأخطاء الفادحة التى عصفت بمهابة الخلافة كما سنرى، لقد أراد المتوكل تحجيم سلطة ولده المنتصر إذا ما تولى الخلافة قبل أخويه: المعتز والمؤيد بحيث لم يجعل له قدرة على التصرف أو الحكم فيما تحت أيديهما من بقاع العالم الإسلامى الشاسعة، وكأنه افترض أن يكون خليفة يحكم ثلث العالم الإسلامى، وهى عملية تقطيع لأوصال هذا العالم، ونقول ونحن مطمئنون: إن المتوكل كان مغلوبًا على عقله واقعًا تحت تأثير حبه لقبيحة وإيثاره لولدها، ومن ثم انصراف قلبه عمن سواها، وفكر المتوكل أكثر واعترض على تعيينه ولى عهده ابنه المنتصر ولماذا لا يكون ولى العهد المعتز؟ ونرى أصابع قبيحة ونسمع وسوسات شيطانها التى جعلت المتوكل يقلب ظهر المجن لابنه المنتصر ابن ضرتها، لقد عزم على تعديل ولاية العهد ورسم لذلك خطة ويدأ فى تنفيذها وهى أولاً إحراج المنتصر والاستهزاء به والسخرية منه أمام الحاشية ورجال القصر، ثم دخل فى مرحلة ثانية وهى التهديد والوعيد حتى يجعل ابنه ينزل عن العهد الذى قد كتبه له، وأخذ البيعة على أساسه فى الآفاق من العامة والخاصة، وقد زادت بعض الروايات فى جعله يفكر فى التخلص من المنتصر ليخلو الجو للمعتز.

ويفسر ابن خلدون هذه الجفوة بين الابن والأب تفسيرًا سياسيًا وذلك أن المنتصر كان ينتقد موقف أبيه من رفضه منهج التشيع والاعتزال، وعبارة ابن خلدون هى: وكان المنتصر ينكر على أبيه انحرافه عن سنن سلفه فيما ذهبوا إليه

---

(١) محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية ٢٦٨.



من مذهب الاعتزال والتشيع[1] لعليّ، وربما كان الندماء فى مجلس المتوكل يفيضون فى ثلب عليّ فينكر المنتصر ذلك ويتهددهم ويقول للمتوكل: إن عليًا هو كبير بيتنا، وشيخ بنى هاشم فإن كنت لابد ثالبه فتول ذلك بنفسك[2].

وقد أفاض الشيخ الخضرى فى بيان كراهة المتوكل لعليٍّ وشيعته قال: كان المتوكل فى سنة ٢٣٧ هـ قد أمر بهدم قبر الحسين بكربلاء وهدم ما حوله من المنازل والدور، وأن يحرث ويبذر ويسقى موضع قبره وأن يمنع الناس من إتيانه[3]. وهذا الكلام ذكره ابن طباطبا أيضًا فى كتاب (الفخرى) وإن كان بعض المؤرخين أرجع ذلك العمل إلى أن أناسًا جعلوا قبر الحسين بديلاً عن الكعبة، وصاروا يحجون إليه ويطوفون حوله ونحن نميل إلى اعتماد هذا الرأى.

لقد سارت علاقة الابن بأبيه وولى العهد بالخليفة فى طريق مسدود، وخاصة أن المتوكل عاش فى هذه الفترة وسط كارهين للمنتصر فالفتح[4] بن خاقان الوزير وابن أخيه عبيد الله بن يحيى بن خاقان وقبيحة كلهم أجمعوا رأيهم للخليفة بضرورة تقديم المعتز، يقول الشيخ الخضرى: عبيد الله بن خاقان والفتح ابن خاقان نديم المتوكل كانا منحرفين عن المنتصر مائلين إلى المعتز، فأوغرا قلب أبيه عليه حتى هم أن يعزله، ويقال: إن المتوكل اتفق مع الفتح بن خاقان على الفتك بالمنتصر[5].

كانت هذه حال المتوكل فى قصره لا يسمع إلا وسوسات قبيحة، وذكرها ابنها، وفى مقعد الخلافة أو فى مجلس الأنس لا يكون حديث للحاشية أو الندماء إلا عن المعتز وعظمته والحط من شأن المنتصر، وخاصة عندما أعلن المتوكل صراحة خلعه للمنتصر، يقول الطبرى: التفت المتوكل إلى الفتح بن خاقان وقال له: برئت

---

(١) يقصد بالاعتزال: ما دار حوله الصراع أو الحوار الدامى حول قضية القول بخلق القرآن على ما ذهب إليه الشيعة والمعتزلة، وكان ذلك أواخر عصر المأمون سنة ١٨ هـ ومدة حكم المعتصم والواثق وحين جاء المتوكل سنة ٢٣٢ هـ وجد أن هذه الفتنة يجب أن تتوقف وهنا كان الخلاف بينه وبين ابنه، أما التشيع لعليٍّ فقد أعلن المأمون فى الآفاق أن على بن أبى طالب أحسن خلق الله بعد رسول الله ﷺ وسار على هذا الرأى من جاء بعده من خلفاء، حتى جاء المتوكل ومنع ذلك.

(٢) ابن خلدون ٣/ ٥٩١.

(٣) محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية ٢٥٩.

(٤) ابن أحمد بن غرطوج أديب وشاعر فارسى الأصل من أبناء الملوك اتخذه المتوكل أخًا واستوزره، وجعل له إمارة الشام، وكان يقدمه على أهله وولده، اجتمعت له خزانة كتب حافلة من أعظم الخزائن، له كتب فى الصيد والملوك، قتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ هـ (الأعلام).

(٥) محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية ٢٦٨.



من الله ومن قرابتى من رسول الله ﷺ إن لم تلطمه - يعنى المنتصر- فقام الفتح ولطمه مرتين، يمر يده على قفاه، ثم قال المتوكل لمن حضر: اشهدوا جميعًا أنى قد خلعت المستعجل، ثم التفت إلى المنتصر وقال: سميتك المنتصر فسماك الناس لحمقك المنتظر، ثم صرت الآن المستعجل، فقال المنتصر: يا أمير المؤمنين، لو أمرت بضرب عنقى كان أسهل علىّ مما تفعله بى[1].

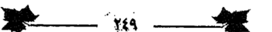
وازدادت هوة الجفاء اتساعًا حتى كانت آخر جمعة فى رمضان سنة ٢٤٧ هـ فكانت القشة التى قصمت ظهر البعير، فقد شاع الخبر أن الخليفة المتوكل سوف يصلى الجمعة بالناس فى المسجد الكبير، وخرج بنو هاشم وكبار القوم لكن الخليفة لم يحضر لأن الفتح وعبيد الله أشارا على الخليفة بأن يأمر أحد ولاة العهد (الثلاثة) بالصلاة بدلاً منه لأنه كان يشكو من ضيق فى الصدر وأشارا بطرف خفى للمعتز الذى يفوق الجميع طلاقة لسان وحب الناس.

ومع أن المتوكل كان قد أمر المنتصر بالصلاة، إلا أن الكلام الساحر وحب قبيحة غيرا رأيه، وأمر المعتز بالصلاة، ووقف رجل بعد الصلاة وبعد استئذان الخليفة وقال: والله يا أمير المؤمنين قد رأيت الأمين والمأمون والمعتصم صلوات الله عليهم ورأيت الواثق بالله فوالله ما رأيت رجلاً على منبر أحسن قوامًا ولا أحسن بديهًا ولا أجهر صوتًا ولا أعذب لسانًا ولا أخطب من المعتز بالله.

وسمع المنتصر وأحس بالطعنات، واستيقظ الشيطان بداخله، ورسم له أن مبتغاه يكون بالقوة، وأن كرامته لن تسترد فى أعين الناس إلا بالقضاء على سلطة أبيه، وبدأت الخطة بأن يجتذب لمعسكره كل تركى من حاشية أبيه بالمال والمصانعة، حتى استمال قلوب كثير منهم وخاصة قريبى العهد بخدمة المتوكل، أو من الذين كانوا فى الثورة ضد المتوكل سنة ٢٤٤ هـ ولكنها لم تنجح. ونجح المنتصر فى استقطاب أحد كبار رجال المتوكل وهو وصيف التركى. قال ابن خلدون: أخذ المتوكل ضياعه بأصفهان والجبل وأقطعها الفتح بن خاقان[2].

واتفق المنتصر ووصيف على قتل المتوكل، واشتريا باغر التركى أقرب حارس للمتوكل، يقول البحترى الشاعر: ابتيع للمتوكل سيف من اليمن بعشرة آلاف درهم

(١) تاريخ الطبرى ٩/٢٢٥.
(٢) ابن خلدون ٢/٥٩٢.



فسر بوجوده، وقال للفتح بن خاقان: اطلب لي غلامًا تثق بنجدته وشجاعته أدفع له هذا السيف ليكون واقفًا به على رأسى لا يفارقنى فى كل يوم ما دمت جالسًا. قال الفتح: يا أمير المؤمنين، هذا باغر التركى وقد وصف لى بالشجاعة والبسالة وهو يصلح لما أراد أمير المؤمنين. فدفع إليه السيف، قال البحترى: فوالله ما انتضى ذلك السيف، ولا خرج من غمده من الوقت الذى دفع إليه إلا فى الليلة التى ضربه فيها باغر بهذا السيف[1].

لقد حفر المتوكل قبره بيده عندما ميز ابن الزوجة الحبيبة الأثيرة، وأبعد ابنه الآخر الذى عينه وليًا للعهد ثم سحب هذه الولاية ليرضى ابنه المقرب وأمه المحظية. قال ابن خلكان: كان سبب موت المتوكل أنه قدم المعتز على المنتصر، والمنتصر أسن منه، وكان يتوعده ويسبه ويسب أمه، ويأمر الذين يحضرون مجلسه من أهل السخف بسبه، فسعى فى قتله، ووجد الفرصة فى تلك الليلة[2].

ونتجه إلى الشاعر البحترى الذى كان حاضرًا ووصف حادث قتل المتوكل وصفًا دقيقًا من أول ليلة الخميس الثالث من شوال سنة ٢٤٧هـ حتى مطلع فجرها، حيث لُف جسد المتوكل وجسد وزيره فى البساط لاختلاط لحمهما قال: اجتمعنا ذات ليلة مع الندماء فى مجلس المتوكل.. إذ أقبل خادم من خدم قبيحة ومعه منديل وفيه خلعة وجهت بها إليه قبيحة فقال له الرسول: يا أمير المؤمنين، تقول لك قبيحة: إنى استعملت هذه الخلعة لأمير المؤمنين واستحسنتها ووجهت بها لتلبسها، قال: فإذا فيها دراعة[3] حمراء لم أر مثلها قط ومطرف[4] خز أحمر كأنه دبيقى[5] من رقته.. فأخذه ولفه ودفعه إلى خادم قبيحة الذى جاء بالخلعة، وقال: قل لها احتفظى بهذا المطرف عندك ليكون كفنا لى عند وفاتى[6].

وهذا الطبرى يذكر قصة هدية قبيحة وماذا فعل بها المتوكل، يقول على لسان أحد شهود هذه الحادثة: ولم يكن أمير المؤمنين فى يوم من الأيام أسر منه فى

---

(١) مروج الذهب ١١٩/٤.
(٢) وفيات الأعيان ٣٥٠/١.
(٣) ثوب من صوف أو جبة مشقوقة من المقدم.
(٤) رداء أو ثوب من خز مربع ذو أعلام.
(٥) ثياب رقيقة تنسب إلى (دبيق) وهى قرية بمصر.
(٦) مروج الذهب ١٢٠/٤.

ذلك اليوم، وأخذ مجلسه ودعا بالندماء والمغنيين فحضروا وأهدت إليه قبيحة أم المعتز مطرف خزٍّ أخضر لم ير الناس مثله حسنًا فنظر إليه وأطال النظر فاستحسنه وكثر تعجبه منه، وأمر به فقطع نصفين وأمر برده عليها، ثم قال لرسولها: والله إن نفسى لتحدثنى أنى لا ألبسه وما أحب أن أُلبسه أحدًا بعدى وإنما أمرت بشقه لئلا يلبسه أحد بعدى[1].

وعود إلى البحترى واصف هذه الليلة الليلاء قال: فبينما نحن كذلك وقد مضى على الليل نحو ثلاث ساعات إذ أقبل باغر ومعه عشرة نفر من الأتراك[2].. وأقبلوا نحو المتوكل حيث صعد باغر ومعه آخر من الأتراك على السرير وضربه بالسيف الذى كان المتوكل دفعه إليه.. وأقبل الفتح يمانعهم عنه فبعجه واحد منهم بالسيف[3].

وفر البحترى ومن معه هاربين، وبعد أن هدأت نفسه وعرف بمشاركة المنتصر فى هذه الجريمة فقال واصفا غدر المنتصر:

أكان ولىّ العهد أضمر غدرة
فمِن عجب أن وُلى العهد غادره

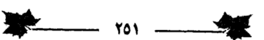
فلا ملّىَ الباقى تراث الذى مضى
ولا حملت ذاك الدعاء منابره

ثم يرد على من عابه عندما هرب فيقول:

أدافع عنه باليدين ولم يكن
ليثنى الأعادى أعزل الليل حاسره

ولو كان سيفى ساعة الفتك فى يدى
درى القاتل العجلان كيف أساوره[4]

(١) الطبرى ٩/٢٢٤.
(٢) ذكرت المراجع بعض أسماء القتلة منهم: بغلون التركى، وباغر وموسى بن بغا، وهارون بن صوارتكين وبغا الشرابى الصغير.
(٣) مروج الذهب ٤/١٢٠.
(٤) ديوان البحترى ٤٥.



ويعلق الشيخ الخضرى على هذه الفاجعة فيقول: هذه الحادثة أول غرس المعتصم فإنه ملك الخلافة قومًا لا حلوم[1] لهم وليس لهم من الأخلاق ما يمنعهم مما فعلوا، ولا من العصبة ما جعل جانبهم مأمونًا، وأجل من ذلك أن يكون ولى العهد شريكًا فى دم أبيه[2].

ومن النادر أن نجد فى أحداث التاريخ حقدًا أبشع من هذا الحقد ولا قلبا أسود من قلب هذا الابن نحو أبيه، وممكن أن نعتبر هذه الحادثة بذاتها نموذجًا لما يمكن أن يحدثه ظلم الأب لابنه، وبغض الابن لأبيه، وهو تركيب غريب لقيم الشر الشيطانية التى جسدتها حادثة قتل المتوكل، ولا شك أن عناصر هذه الجريمة تحتاج إلى يد فنان يحولها إلى صورة للمأساة الإنسانية حين تبلغ ذروتها.

* * *

(١) العقول يقصد الأتراك الذين استكثر منهم المعتصم.

(٢) محاضرات فى تاريخ الأمم ٢٧٠.

خلافة المنتصر

لما قتل المتوكل دفن في سامراء، وفي مقابرها مجموعة من الخلفاء السابقين واللاحقين، وهم الواثق والمتوكل والمنتصر والمعتز والمهتدي والمعتمد، وبمقابرها أيضًا إمامان من أئمة الشيعة: علي بن محمد العسكري، وابنه الحسن ابن علي وبسامرا أيضًا السرداب الذي تزعم الشيعة أنه يخرج منه المهدي المنتظر.

أما مقتل المتوكل فكان في الجعفرية المدينة التي بناها ليجعلها عاصمة له وهي من ضواحي سامرا وكان اسم المكان الماخورة[1]، ومن العجائب أنه نفس الموضع الذي قتل فيه شيرويه أباه أبرويز كسرى الفرس أيام رسول الله ﷺ من قرابة قرنين ونصف من الزمان، ولما عرف المنتصر ذلك قرر الرحيل إلى سامرا بعد سبعة أيام فقط من ولايته بعد أن خربه، قال ابن طباطبا : وبويع للمنتصر[2] بالخلافة[3] وجلس على بساط لم ير الناس مثله، وعليه كتابة عجيبة بالفارسية، فنظر إليها المنتصر واستحسنها.. واستحضر رجلاً أعجميًا وأمر بقراءتها، فقال الرجل : على هذا البساط مكتوب: أنا شيرويه بن كسرى قتلت أبي فلم أتمتع بالملك بعده إلا ستة أشهر. فتطير المنتصر من ذلك.. ولم تتم له بعده إلا ستة أشهر حتى مات في ربيع آخر سنة ٢٤٨هـ[4].

لم تدم خلافة أبيه إلا ستة أشهر، محا خلالها كل أثر لأبيه، حتى البيعة التي عقدها أبوه للمعتز والمؤيد ضرب بها عرض الحائط وأمرهما بخلع نفسيهما بعد أربعة وأربعين يومًا من توليه الخلافة. ثم حبسهما بناء على أمر الأتراك المحيطين بالخليفة، فقد قال بعضهم لبعض: إنا لا نأمن الحدثان[5]، وأن يموت أمير المؤمنين فيلي الأمر المعتز فلا يبقى منا باقية ويبيد خضراءنا والرأي أن نعمل على خلع هذين الغلامين، قبل أن يظفرا بنا .. قال ابن كثير: في ٢٣ صفر

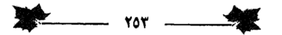
(١) قال الطبري: هو الماخوزة.

(٢) عندما قتل المتوكل لم يكن قد نقل ولاية العهد رسميًا إلى المعتز.

(٣) كان نقش خاتمه: «يُؤتى الحذر من مأمنه»، قاله ابن عبد ربه في العقد الفريد ١٢٣/٥.

(٤) الفخري ١٩٦.

(٥) مفاجآت الزمن.



سنة ٢٤٨ هـ خلع أبو عبيد الله المعتز[١] وإبراهيم المؤيد نفسيهما من الخلافة، وأشهدا عليها بذلك وأنهما عاجزان عن الخلافة والمسلمون فى حِلٍّ من بيعتها، وذلك بعد ما تهددهما أخوهما المنتصر وتوعدهما بالقتل إن لم يفعلا ذلك، ومقصوده تولية ابنه عبدالوهاب بإشارة الأمراء الأتراك بذلك.. وخطب بذلك على رءوس الأشهاد بحضرة القواد والقضاة وأعيان الناس والعوام، وكتب بذلك إلى الآفاق ليعلموا بذلك ويخطبوا بذلك على المنابر .. والله غالب على أمره[٢].

والعجيب أن هؤلاء الأتراك لم يظهروا الخوف من هذين الأميرين فقط، إنما تملكهم الخوف من كل خليفة أو أمير صغير ضعيف، وهذا التركى بغا يقول حكمة استخلصها من طول تجاربه مع الخلفاء والأمراء العباسيين ذكرها الشيخ الخضرى قال: نجىء بمن نهابه ونفرقه ـ أى نخافه ـ فنبقى معه وإن جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضا، وقتلنا أنفسنا[٣].

وفى يوم الخميس ٢٥ ربيع أول مرض المنتصر ـ قاتل أبيه ـ واختلف فى سبب هذا المرض، قيل الذبحة فى حلقه. وقيل: ورم فى معدته. وقيل: سُمٌّ فى أذنه، وقيل: مرض بسبب توبيخ ضميره للاشتراك فى قتل أبيه، وقيل: إنه وجد حرارة فدعا بعض من كان يطببه وأمره بفصده ففصده بمبضع مسموم .. وذلك أن الأتراك تحيلوا على طبيبه الخاص ابن طيفور[٤] ودسوا له ثلاثين ألف دينار فأشار بفصده. ثم فصده بريشة مسمومة فمات، وقد وقع ابن طيفور فى نفس الحفرة التى حفرها للخليفة قال السيوطى: مرض ابن طفيور فأمر غلامه بفصده ففصده بتلك الريشة فمات بها[٥]، وقيل: إن سبب مرض المنتصر أنه كان يكثر إذا سكر ذكر قتل أبيه وعلاقته به وبالأتراك فسموه بالكمثرى، المهم أن الأتراك الذين قتلوا المتوكل كانوا سببًا فى قتل المنتصر الذى اشتدت به العلة، وزارته أُمُّه (حبشية) فسألته عن حاله فقال: ذهبت والله منى الدنيا والآخرة، عاجلت أبى فعوجلت ثم تمثل ببيت شهير:

---

(١) كان المعتز فى السادسة عشرة والمؤيد فى الخامسة عشرة.
(٢) البداية والنهاية ١٠/ ٣٥٤.
(٣) محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية ٢٧٨.
(٤) إسرائيل بن زكريا الطيفورى متطبب الفتح بن خاقان وكان المعتمد يعتمد عليه (طبقات الأطباء ٢٢٥).
(٥) تاريخ الخلفاء ٣٧٨.

فما فرحت نفسى بدنيا أخذتها

ولكن إلى الرب الكريم أصير

وزاد ابن العماد فى الرواية وقال هذا البيت وبيتا بعده :

وما لِيَ شىء غير أنى مسلم

بتوحيد ربى مؤمن وخبير[1]

ولما مات فى يوم الأحد الخامس والعشرين من ربيع آخر غير مأسوف عليه، طلبت أمه إظهار قبره، فكان أول خليفة عباسى عرف قبره، وكانوا لا يحفلون بقبور موتاهم - كما قال السيوطى[2].

واجتمع أصحاب الحَوْل والطَّوْل من قادة الأتراك ليختاروا خليفة جديدا، وتشاوروا فى الأسماء المعروضة عليهم والعجيب أننا لا نرى أثرًا لواحد من بنى العباس مع كثرتهم، فقد أحصى[3] المأمون ولد العباس من خمسين سنة فوجدهم ثلاثة وثلاثين ألفًا ما بين ذكر وأنثى، ولكنهم - وللأسف - لا قيمة لهم فقد صاروا كغُثاء السيل، وصارت الغلبة والقوة والسلطة والكلمة المسموعة للأتراك الذين أجمعوا أمرهم على عدم تولية أحد من بنى المتوكل؛ ولذلك اختاروا أحمد بن محمد بن المعتصم ولقبوه المستعين بالله وذلك فى السادس من جمادى الأولى سنة ٢٤٨ هـ.

وأول عمل قام به الخليفة الجديد هو تجريد المعتز من كل ما يملكه وإعطاؤه القليل من الدنانير وكذلك المؤيد فقد استولى على دورهما وقصورهما وضياعهما وفرشهما، ولم يكتف بذلك إنما أمر بمواصلة حبسهما فى «سر من رأى» ونزل هو بغداد مدينة المنصور.

* * *

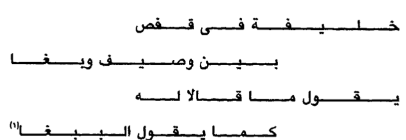
(١) شذرات الذهب ٢/١١٩.

(٢) أخبار الخلفاء ٣٧٧.

(٣) أمر بعمل هذه الإحصائية سنة ١٩٩ هـ

قبيحة أم الخليفة

بعد موت المنتصر اجتمعت كلمة كبار الأتراك وصيف وبغا الصغير على تولية المستعين بعد قتل باغر قاتل المتوكل وموت المنتصر، فالأمر كله بأيديهما حتى قال الشاعر:



خليفة فى قفص
بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له
كما يقول الببغا[1]

لقد صار الخليفة فى يد زعماء الترك أسيرًا، إن شاءوا أبقوه وإن شاءوا خلعوه وإن شاءوا قتلوه.

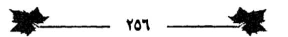
وفكر الخليفة الجديد فى طريقة يتخلص من هذين التركيين المسيطرين عليه، وأتى بتركيين آخرين هما أوتامش وشاهك، وقربهما لنفسه وزاد بأن ضم لهما أمه «مخارق» الصقلبية، وأعطى لهم سلطة لم تعط لأحد، وذلك بأن أطلق أيديهم الثلاثة فى بيت مال المسلمين، قال الطبرى: فكانت الأموال التى ترد على السلطان من الآفاق إنما يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة، وعمد أوتامش إلى ما فى بيوت الأموال من الأموال فاكتسحها[2].

وغضب على طريقة (أوتامش) بقية الأتراك فاتفقوا على التخلص منه. فقتلوه سَمًّا، ثم استداروا إلى المستعين، واختلقوا مسألة اختلفوا مع الخليفة عليها، وهى رغبتهم فى العيش فى سامرا، ورفض المستعين وأصر على البقاء فى بغداد، وأجمعوا أمرهم على إخراج المعتز من سجنه ويكفى أن قبيحة أمه ستكون معهم، وهم يعلمون أن قبيحة أغنى شخصية فى العراق، وسوف ينالهم خيرها إذا هم عينوا ابنها خليفة.

---

(١) مروج الذهب ٤/١٤٥.

(٢) الطبرى ٩/٢٦٣.



وجاء المحرم سنة ٢٥١ هـ وعادت إلى الأذهان صورة الخلاف بين الأمين والمأمون من أكثر من خمسين سنة، وانتهى بغلبة المأمون وقتل الأمين، لكن هذه المرة الخلاف فيها بين أبناء العم المستعين ومعه أتراك بغداد، والمعتز ومعه أغلب الترك فى سامرا، وانتهز المعتز الفرصة وبعث بجيش إلى بغداد لخلع المستعين، ودارت الحرب برًا فى شوارع بغداد وطرقاتها وفى مياه دجلة طوال أشهر السنة، حتى أوائل السنة التالية، وفى أول محرم أيضًا تنازل المستعين، وبويع للمعتز بالخلافة، وتسلم الشعار: القضيب والبردة[١] والخاتم، وصار المعتز الخليفة الثالث عشر فى دولة بنى العباس وله من العمر سبع عشرة سنة، قال الأصفهانى: فلما انقضت البيعة قال:

تـوحـدنـى الـرحـمـن بـالـعـز والـعـلا

وأصـبـحـت فـوق الـعـالمين أميرا[٢]

وكان أول عمل للخليفة الجديد هو تحديد إقامة الخليفة السابق فى واسط، ثم تعيين أخيه المؤيد لولاية العهد، قال ابن خلدون: وأخذ طاهر[٣] البيعة للمعتز على أهل بغداد، وخطب له بها، وبايع له المستعين، وأشهد على نفسه بذلك فنقله إلى الرصافة إلى قصر الحسن بن سهل ومعه عياله وأهله[٤].

وأراد المعتز أن يتقرب إلى العامة بإعطائهم المال والمنح، ولكن يده كانت مغلولة من قلة ما معه، يقول الطبرى: أمر المعتز للناس برزق عشرة أشهر للبيعة فلم يتم المال فأعطوا شهرين لقلة المال عندهم[٥].

وعود إلى أم الخليفة الجديد (قبيحة) فقد تنفست الصعداء، وعادت لها مكانتها بعد أن انزوت فى الظل قرابة خمس سنوات، وبدأت فى استرداد ما أخذ من زوجها، وبعثت إلى المستعين لتسترد منه الجوارى والعبيد والجواهر التى

(١) البردة كانت للنبى ﷺ كان الخلفاء يتوارثونها ويلبسونها يوم الاحتفال بتوليتهم، وهى بردة كعب بن زهير عندما خلعها عليه رسول الله ﷺ بعد إنشاده قصيدته الشهيرة: بانت سعاد.. وتوارثها أولاده حتى اشتراها الخليفة معاوية بن أبى سفيان وتوارثها الخلفاء حتى وصلت للسفاح أول العباسيين.

(٢) الأغانى ٩/٣٢٢.

(٣) ابن عبدالله بن طاهر بن الحسين الذى كان كبير قواد المأمون.

(٤) ابن خلدون ٣ / ٦١٣.

(٥) الطبرى ٩/ ٣٦٤.



استولى عليها، وكان هناك ثلاث جوار قد تزوجهن المستعين، فنزل عنهن وجعل أمرهن لهن. وأحصت الجواهر التى كانت فى خزن الخليفة زوجها ووجدت خاتمين مفقودين اسم أحدهما البرج والآخر الجبل وهما للرشيد، وافتقدت كذلك جوهرة نادرة؛ يقول الطبرى واصفا هذه الجوهرة: ياقوتة بهية أربع أصابع طولا فى عرض وقد كتب عليها اسمه.. فدفعت كلها إلى قرب[1].. جارية قبيحة - وفى رواية إلى ابنتها أخت المعتز.

وبدأت من جديد تزاول مهمتها فى الوسوسة، فهذا ابنها الخليفة المعتز يسرع فى النصف الثانى من ربيع أول سنة ٢٥٢ بعزل أخيه غير الشقيق (المؤيد) من ولاية العهد، بعد أن اتهمه بالتآمر عليه وحبسه ثم قتله بعد أقل من ثلاثة شهور فى رجب[2]، وبمقتل ولى العهد وشغر مكانه أمرت قبيحة ابنها أن يعين ابنها إسماعيل ابن المتوكل، والعجيب أن نجد الشعراء يتسابقون فى إطراء هذا العمل، وهو قتل الأخ لأخيه، فتلك كانت مهمتهم لأنهم أبواق الإعلام فى الدولة كما يفعل الإعلام الآن، فإذا قتل الخليفة أخاه أو أباه صوروا ذلك للعامة عملاً بطوليًا جريئًا.

وإذا صفح الخليفة عن أخيه أو أبيه جعلوا ذلك موقفًا أخلاقيًا، وهم يفعلون ذلك فى مقابل ما يتقاضون من عطاء الدولة، وهذا شأنهم فى كل عصر بلا استثناء.

ويسرع الشاعر محمد بن مروان حفيد الشاعر الكبير مروان بن أبى حفصة - يمدح المعتز فى قتل أخيه فى قصيدة من ثمانية وعشرين بيتًا منها:

أنت الذى يمسك الدنيا إذا اضطربت

يا ممسك الدين والدنيا إذا اضطربا

ما كنت أول رأس خانه ذنب

والرأس كنت وكان الناكث الذنبا

لما أراد وثوبًا من سفاهته

أمسى عليه إمام العدل قد وثبا[3]

(١) الطبرى ٩/٣٤٩.

(٢) قال الطبرى : ضرب أخاه المؤيد أربعين مقرعة وذكر أنه أدرج فى لحاف سمور ثم أمسك طرفيه حتى مات، وقيل: إنه أقعد فى حجر من ثلج ونضدت عليه حجارة الثلج فمات بردًا (الطبرى ٩/٣٦٢).

(٣) السابق ٣٦٤.



ولم يكتف المعتز بقتل المؤيد.. بل حبس أخاه غير الشقيق الآخر أبا أحمد الذى وقف معه ضد المستعين يقول السيوطى: ثم خلع خلعة الملك على أخيه وتوجه بتاج من ذهب وقلنسوة مجوهرة ووشاحين مجوهرين وقلده سيفين ثم عزله من عامه[1]. والمؤيد وأبو أحمد ابنا أم واحدة هى إسحق.

ولم تهجع قبيحة بعد أن وجدت ابنها فى سدة الخلافة والابن الآخر على كرسى ولاية العهد، وإنما التفتت إلى أعداء ابنها وقتلة زوجها. تحصدهم ثم تفكر فى الطريقة المثلى فى القضاء عليهم، وبدأت بالمستعين وعزمت على قتله بواسطة أحد الأتراك الموالين لها ولابنها المعتز، على أن يكون قريبًا من المستعين، كما قتل زوجها المتوكل من حارسه الخاص، وفتشت فى السر ووقع اختيارها على تركى قريب جدًّا من المستعين هو أحمد بن طولون المتولى لأمور المستعين قال رضا كحالة: وقوى الخوف فى نفسها من المستعين وعزمت على قتله، فحضر الأولياء وتشاوروا فى ذلك فأشاروا به، فكتبت قبيحة إلى أحمد بن طولون[2]: «إذا قرأت كتابى فجئنى برأس المستعين وقد قلدتك واسط». فلما وصل إليه الكتاب اغتم غمًّا عظيمًا، وكتب إليها يقول: «والله لا يرانى الله عز وجل أقتل خليفة له فى رقبتى بيعة وأيمان مغلظة أبدًا»[3].

وكان هذا الموقف من أحمد بن طولون محل إكبار وإعزاز واحترام من كبار الأتراك، ولذا طلبوا من ابن طولون تسليم حراسة المستعين إلى سعيد الحاجب قال ابن خلدون: ولما اعتزموا على قتل المستعين ـ بعثوا إلى أحمد بن طولون أن يمضى ذلك فتفادى منه، فبعثوا سعيدًا الحاجب فسَمَله ثم قتله ودفنه ابن طولون وعظم محله بذلك عند أهل الدولة[4].

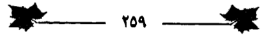
لقد أصدرت قبيحة حكمًا بالإعدام على المستعين ونفذ سعيد المهمة، وبعث لابن طولون بأمر جديد وهو أن ينصرف من واسط إلى (سرَّ مَن رأى) ومنها إلى مصر حيث ولاه المعتز ابنها الديار المصرية والشامية والثغور مع زوج أمه

(١) أخبار الخلفاء ٣٨٢.

(٢) ابن زوجة بايكباك أحد كبار الترك، تولى أمر مصر بعد ذلك واستقل بها وأنشأ الدولة الطولونية، وكان المعتز هو الذى ولاه أمرها.

(٣) أعلام النساء ٣/ ١٨٦.

(٤) تاريخ ابن خلدون ٤/٦٣٧.



«بايكباك». قال جورجى زيدان: قال أحمد بن طولون بعد استيلائه على مصر: وعدت بولاية واسط على أن أقتل المستعين فأبيت محافظة على القَسَم الذى أقسمته، ومازلت فى تقوى الله، وقد كافأنى من فضله بولاية مصر وسوريا ولا يفلح الظالمون[١].

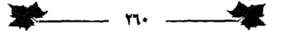
أما ابن العماد فقد أورد فى موسوعته خبرًا عن مقتل المستعين[٢] يبين مدى استهتار واستخفاف المعتز قال: بعد قتل المستعين - فى شوال سنة ٢٥٢ - أتى المعتز برأسه وهو يلعب الشطرنج فقيل: هذا رأس المخلوع. فقال: ضعوه هناك حتى أفرغ من الدست[٣]، فلما فرغ دَعَا بِه ونظر إليه ثم أمر بدفنه، وأمر لسعيد بن صالح - قاتله - بخمسين ألف درهم وولاه البصرة[٤].

وهدأت نفس قبيحة بعد مقتل المستعين، ولكن هناك أناسا مازالت تخاف منهم وتحسب حسابهم مازالوا على قيد الحياة، إنهم قتلة المتوكل ولابد أن يلاقوا حتفهم ويلحقوا بالمستعين، وأخذ وسواسها يطارد المعتز ليل نهار طالبًا الأخذ بالثأر، ولكنه أخذ يراوغها ويسوّف إجابته وتعاود هى الطلب فى استئصال شأفتهم والقضاء عليهم، وتحدد له شخصياتهم وترسم له الخطط، ويمنيها هو بالاستجابة ولكن الخوف من هؤلاء الأتراك جعله يحجم عن التعرض لهم، وجاءته قبيحة مرة بشىء يثير فيه الحماس. قال ابن خلكان: فأبرزت قبيحة يوما للمعتز قميص المتوكل الذى قتل فيه، ومزج بدمه، وجعلت تبكى وتحرضه على الطلب بدمه. فقال: يا أمى ارفعى وإلا صار القميص قميصين، فعندها أمسكت ولم تعد[٥].

ترى هل كان هذا الموقف من المعتز خوفًا على نفسه؟ أم كان خوفًا على الملك؟ أو كان نوعًا من السياسة التزم به حتى يتمكن من رقاب هؤلاء دون أن يتمكنوا منه، لأن الغدر كان أساس طباع العصر؟

نحسب أن ذلك كله كان نصب عين المعتز، وهو الذى رأى رءوس من قبله تتطاير بسيف الخيانة والختل والخديعة، ولا شك أن نفسه كانت قد عشش فيها

(١) تاريخ مصر الحديث ١/١٤٩.
(٢) كان بين خلعه وقتله تسعة أشهر ويوم.
(٣) لعبة الشطرنج والقمار وهى مصطلح جاهلى (الوسيط).
(٤) شذرات الذهب (٢/١٢٦).
(٥) وفيات الأعيان ١/٤٧٩ .



مركب من الرعب والمكر وطول البال والمداهنة، وكل ذلك هو ما نسميه فى عصرنا بالسياسة، ولم يكن هؤلاء الأقدمون يجهلون ضرورة أن يتخلقوا بهذه الأخلاق ما داموا يتعاملون باسم السلطة، وهكذا.

أدركت قبيحة وهى الأرملة التى تبكى زوجها - مدلول الرسالة التى قالها المعتز (ارفعى وإلا صار القميص قميصين) فرفعت القميص وطوته دون أن تنشره مرة أخرى، وكل علاقتها بابنها بعد ذلك أنها تممت زيجته من ابنة أحد قواد بنى العباس هى بنت محمد بن طاهر بن عبدالله بن طاهر ومحمد هو والى خراسان من قبل المتوكل الذى خطب لابنه المعتز ابنة محمد قبل أن يقتل، وأقامت قبيحة حفلات الزفاف الرائعة وأرادت أن تذكر الناس بأيام أفراح الرشيد والمأمون وحفلات ختان المعتز وحفظه للقرآن ووقوفه على المنبر، ثم أهدت العروس بدنة عبدة[1] والبدنة هى صدارى من الجواهر قال عنها ابن الزبير: لم ير فى الإسلام مثلها ومثل الحب الذى كان فيها، ولا يعرف قيمتها عظمًا، وكان فى ظهرها وصدرها خطان من ياقوت أحمر.. ولقد كانت تلبسها فى الليل فيعرف بها موضعها[2] وقد انتقلت هذه البدنة من خزائن خلفاء بنى أمية إلى حيازة بنى العباس سنة ١٣٢ هـ، وأعطاها الخليفة هارون الرشيد لزوجته زبيدة هدية زواجها سنة ١٦٥ هـ ثم وهبتها زبيدة لبوران بنت الحسن بن سهل زوج المأمون سنة٢١٢ هـ، وبقيت بعد ذلك فى خزائن الخلافة، حتى جاءت قبيحة وأهدتها إلى عروس ابنها سنة ٢٥٣هـ، ومن بعدها اختفى خبر هذه التحفة الثمينة، وإن كان الاحتمال الأغلب أن «هولاكو» قائد التتار - قد استولى عليها فيما استولى على كنوز بنى العباس سنة ٦٥٦هـ

وتفرغت قبيحة بعد زواج ابنها لجمع كل ما تستطيع من صنوف الجواهر الثمينة، والأحجار الكريمة واللآلئ النادرة، وكأنها فقدت أملها فى ولدها وثأره، فانكفأت على الدنيا تجمعها تأمينا لوجودها حتى صارت من أغنى أغنياء ذلك الزمان.

---

(١) عبدة بنت عبدالله بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، تزوجت ثلاثة من الخلفاء الوليد بن عبدالملك وهشام أخاه ثم مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية (مآثر الإنافة ٣٦٣/٣).

(٢) الذخائر والتحف ٩٥ .

الصراع بين المعتز والأتراك

عرفنا أن المستعين قد استولى على أموال المعتز كلها، وترك له شيئًا يسيرًا، ولأن همّ الأتراك الوحيد هو المال: فقد أخذوا يطالبونه بأرزاقهم، وهو يماطل لعدم وجود مال كاف عنده، واتجه إلى المغاربة[1] والفراغنة[2] ليقفوا معه جبهة ضد الأتراك منتهزًا فرصة تصارعهم وتطاحن كبارهم على السلطة والرياسة، وفى شهور قليلة قتل ثلاثة من كبرائهم وهم وصيف وبندار وبغا الشرابى، ولكن ظهر تركى آخر هو صالح بن وصيف أمسك بزمام الأتراك وترأس أمرهم واستفحل وجوده حتى صار الخليفة فى يده كقطعة الشطرنج، وبدأ الصدام بينه وبين الخلافة، بأن قبض على ثلاثة من الشخصيات المهمة فى القصر أولهم: أحمد بن إسرائيل كاتب المعتز أو مدير شئونه، والحسن بن مخلد كاتب قبيحة أم الخليفة وعيسى بن إبراهيم المشرف على بيت المال، وحبسهم ثم عذبهم وطالبهم بالأموال التى فى حيازتهم وحاولت قبيحة وابنها الخليفة أن يتدخلا فى الإفراج عنهم، لكن لا فائدة وإنما أمر بضربهم بالسياط والمقارع أمام الناس، وأطلق عليهم لقب الكتاب الخونة، ثم استولى صالح على ما تحت أيديهم وأيدى أولادهم وأقاربهم.

وأراد الأتراك اللعب على الحبلين فاتجهوا إلى المعتز قائلين: أعطنا أرزاقنا حتى نقتل لك صالح بن وصيف بعد أن صار عبئًا علينا وعليك.

وتحير المعتز فليس فى بيته ولا بيت المال ما يكفى مطالبهم، وفكر فى أمه لعلمه بأموال قارون التى تخبئها، وبعث إليها أن تقرضه بعض المال ليعطى جنده أرزاقهم، وحدد لها المقدار: خمسين ألف دينار فقط، فكان ردها: ما عندى شىء، وكرر الطلب لتأكده من امتلاء خزائنها، وخوفها من بطش الأتراك والجواب واحد: ما عندى شىء.

وهنا نتساءل: أين أموال الدولة المترامية الأطراف؟ أين خراج العالم الإسلامى؟ بل أين تلك الأموال التى حرصت قبيحة الأم على جمعها وتكديسها فى تلك المرحلة الحاسمة من تاريخ حياتها؟

---

(١) من جاءوا إلى بغداد من مصر والمغرب.

(٢) من جاءوا إلى بغداد من الشرق الأقصى.



إنه موقف منها يندى له جبين التاريخ. ونجيب: إنه السفه وسوء التقدير واللصوصية وإسراف الخليفة نفسه، يشير ابن خلدون منوهًا للحياة التى كان يعيشها الغِرُّ المعتز يقول: اتفق المؤرخون على أن من سلف من خلفاء بنى أمية وبنى العباس إنما كانوا يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة فى المناطق والسيوف واللجم والسروج، وأن أول خليفة أحدث الركوب بحلية الذهب هو المعتز ابن المتوكل[1].

خليفة سيوفه وسروجه من الذهب لا يجد خمسين ألف دينار يعطيها للجند، ولذلك أصيب الأتراك بخيبة الأمل واتفقوا مع كل الأغراب فى بغداد من فراغنة ومغاربة وفرس وترك على أن يخلعوا المعتز ويولوا ابن عمه: محمد بن الواثق بن المعتصم وسموه المهتدى.

* * *

(١) مقدمة ابن خلدون ٢٩.

قتل المعتز

سيطر الأتراك سيطرة تامة على الحكم والدولة حتى تندر الناس بأن السلطة فى يدهم هم، ولا أثر للخليفة فى ذلك، تقول طرفة أوردها ابن طباطبا قال: لما جلس المعتز على سرير الخلافة، قعد خواصه وأحضروا المنجمين، وقالوا لهم: انظروا كم يعيش؟ وكم يبقى فى الخلافة؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال: أنا أعرفُ من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته، فقالوا له: فكم تقول أنه يعيش وكم يملك؟ قال: مهما أراد الأتراك. فلم يبق فى المجلس إلا من ضحك[1].

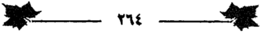
فِعلاً هى إرادة الأتراك ففى آخر رجب سنة ٢٥٥ هـ عزل المعتز ولم تمر خمسة أيام حتى كان قد قتل، وهذه رواية الطبرى التى وصف بها الساعات الأخيرة للمعتز قال: وإذا صالح بن وصيف وبايكباك ومحمد بن بغا قد دخلوا فى السلاح.. وبعثوا للمعتز أن اخرج إلينا، فبعث إليهم: إنى أخذت الدواء أمس.. فإن كان أمر لابد منه فليدخل بعضهم فليعلمنى.. فدخل إليه جماعة من أهل الكرخ فجروه برجله إلى باب الحجرة.. وتناولوه بالضرب بالدبابيس[2]، فخرج وقميصه مخرق فى مواضع وآثار دم على منكبيه فأقاموه فى الشمس فى الدار فى وقت شديد الحر، وقال الراوى: فجعلت أنظر إليه يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذى أقيم فيه ورأيت بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده ويقولون: اخلعها[3].

لقد كان الجو شديد الحرارة فقد حدث ذلك فى شهر يوليو (تموز).

وزاد ابن كثير فى الرواية قال: مازالوا عليه بأنواع العذاب حتى خلع نفسه من الخلافة، وولى بعده المهتدى بالله ثم سلموه إلى من يسومه سوء العذاب بأنواع المثلات، ومنع من الطعام والشراب ثلاثة أيام حتى جعل يطلب شربة من ماء البئر فلم يسق[4].

---

(١) الفخرى ١٩٩ .
(٢) (ج) دبوس عمود على شكل هراوة مدملكة الرأس (الوسيط).
(٣) الطبرى ٩/ ٣٩٠ ويقصد بخلعها أى الخلافة.
(٤) البداية والنهاية ١١/١٦ .



ويلخص آدم متز قصة المعتز من أولها إلى آخرها قائلا: كان أكبر عيد بقصر الخلافة في القرن الثالث الهجرى عيد ختان عبدالله المعتز، ويقال: إن المتوكل أنفق فى ذلك ٨٦ ألف ألف درهم وهو مقدار يشبه ما يقال فى القصص الخيالية، ولكن مصرف الأقدار شاء أن يقتل هذا الولد الذى بلغ من محبة أبيه له وسروره به هذا المبلغ بعد حكم قصير، وأن يقضى ابنه آخر أيام حياته فى فقر وآلام، وأن يكون أميرا مغضوبًا عليه[١].

لقد كانت نهاية المعتز مأساوية بمعنى الكلمة، فبعد ضربه أجبروه على خلع نفسه فخلع ولكن شرط شرطًا واحدًا أن يكون فى أمان هو وأمه وأخته أم عبدالله وابنه عبدالله، ولكن الأتراك لا عهد لهم فبعد أن اطمأنوا على خلع نفسه عذبوه بمنع الطعام والشراب ثم بنوا عليه سردابًا بالجص الثخين، وفى صباح الثانى من شعبان سنة ٢٥٥ هـ الموافق ١٧ يوليو سنة ٨٦٩م وجدوا المعتز ميتا فى السرداب ولمّا يتم الرابعة والعشرين من العمر.. وقد اختلف فى كيفية موته فالسيوطى قال بموته عطشًا عندما منعوا عنه الماء فهو يعتبره أول ميت مات عطشًا. أما جورجى زيدان فقال بموته جوعًا فى قوله: وأودعوه السجن وقطعوا عنه الغذاء فمات جوعًا بعد ستة أيام[٢]. وقال آدم متز: والأشهر بين من عنى بأخبار العباسيين أنه حقن بالماء الحار المغلى، فمن أجل ذلك وجد جوفه وارمًا حين أخرج للناس[٣].

وهذا القلقشندى يرسم لنا صورة سريعة لحال خلفاء ذلك الزمان يقول: قال الحسين ابن يحيى الكاتب : لما ولى المعتز لم تمض إلا مدة حتى أحضر الناس وأخرج المؤيد فقيل: اشهدوا أنه دعى فأجاب وليس به أثر، ثم مضت أشهر فأحضر الناس وأخرج المستعين[٤] فقال: إن منيته أتت عليه وها هو لا أثر فيه فاشهدوا، ثم مضت مديدة

(١) الحضارة الإسلامية ١/ ٢٥٠.

(٢) تاريخ مصر الحديث ١/ ١٥١.

(٣) الحضارة الإسلامية ٢/ ١٩٦.

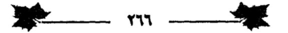
(٤) ابن محمد بن المعتصم بن هارون الرشيد الخليفة الثانى عشر بويع له فى ٤ ربيع آخر سنة ٢٤٩ هـ وخلع فى ٤ محرم سنة ٢٥٢ وقتل بعدها بتسعة أشهر فى القادسية .

واستخلف المهتدى[1] فأخرج المعتز[2] ميتًا وقيل: اشهدوا أنه مات حتف أنفه ولا أثر به، ثم لم تكمل السنة حتى استخلف المعتمد[3] فأخرج المهتدى ميتا وقيل اشهدوا أنه مات حتف أنفه من جراحاته، فتعجب الناس من تلاحقهم فى مدة يسيرة[4].

وسبحان من له الدوام.

* * *

(١) الخليفة الرابع عشر: ابن الواثق بن المعتصم قتل فى سر من رأى فى رجب سنة ٢٥٦هـ.
(٢) المعتز بن المتوكل وهو الخليفة الثالث عشر قتل أول شعبان سنة ٢٥٥هـ.
(٣) ابن المتوكل مات فى جمادى سنة ٢٧٩.
(٤) مآثر الإنافة ٣/ ٢٧١.



قبيحة بعد المعتز

ويبدو أن قبيحة لم تكن تظن أن الأتراك سوف ينفذون تهديدهم فى ابنها بهذه السرعة.. وما إن سمعت بقتله حتى اختفت عن الأنظار قرابة الشهر، والكل يفتش عنها فى قصورها وقصور أبنائها ، حتى وجدوا فى أحد القصور سردابًا فدخلوه فوجدوه مؤديًا إلى الخارج، فأيقنوا من هروبها مع وجود حراس عليها، ولم ييئس زعماء الأتراك، فالكل يعرف ما عندها من كنوز وجواهر وأموال ولذلك تتبعوا آثارها.

ووضعوا العيون والأرصاد، وبعد لأى عرفوا أنها مختفية عند زعيمهم صالح ابن وصيف نفسه، وهذا ابن كثير يروى سبب اختفائها عند صالح قال: وقد كان الأمراء قد طلبوا من المعتز خمسين ألف دينار تصرف فى أرزاقهم وضمنوا له أن يقتلوا صالح بن وصيف، فلم يكن عنده شيء فطلب من أمه قبيحة ـ قبحها الله ـ فامتنعت أن تقرضه ذلك، وأظهرت الفقر والشح، وأنه لا شيء عندها، ثم لما قتل ابنها .. كانت مختفية عند صالح بن وصيف عدو ابنها ثم تزوجت به[1].

امرأة قادرة عجيبة تسلم ابنها للقتل خوفًا من أن تعطيه قطرة من مالها المتراكم المخبأ فى السراديب والصناديق، لا يعرف عده من كثرته، يقول القاضى الرشيد: كانت غلة ضياعها فى كل سنة عشرة آلاف ألف دينار، ووجد لها دواويج[2] كانت تستعملها فقوم الدواج منها بأكثر من ألف دينار، كانت تؤخذ له جلود السمور فيحلق ما عليها من الوبر ويرمى بالجلود فإذا اجتمع الدواج نثر فيه فتيت المسك والعنبر، وجعل بين البطانة والظهارة مكان القطن، وضرب، وكانت وجوهها من ملحم[3] خراسان أخف شيء وأدفأه[4]. وقال فى موضع آخر : قال أحمد بن إسرائيل ـ كاتب المعتز ـ: احتجت ليلة أن أنام فى بعض دور قبيحة لأعمال أرادوها، وكان ذلك فى كانون ـ يناير ـ والبرد أشد ما يكون فَفُرِشَتْ فُرشٌ

(١) البداية والنهاية ١١/ ١٦.

(٢) (ج) دواويج وهو المعطف الغليظ (الوسيط).

(٣) جنس من الثياب يختلف نوع سداه عن نوع لحمته كالصوف والقطن أو الحرير والقطن (الوسيط).

(٤) الذخائر والتحف ٢٣٧.

طرح عليها دواج واسع إلا أنه خفيف جدًا، فلما أردت النوم لم أجد غيره، فقلت فى نفسى : سينال البرد منى منالاً، ثم أخذته علىَ ونمت، فانتبهت وقد عرقت من الكرب، وكأن لا شىء فوقى من خفة الدواج[1].

لقد كان زوج قبيحة صالح بن وصيف يعرف أن عندها من الأموال الكثير، ولكنه لا يعرف أين تخبئه، وبعد البحث والرصد والمتابعة عرف أنها وضعت أموالها فى سراديب تحت الأرض، يقول رضا كحالة: وظفروا لها بخزائن تحت الأرض فيها أموال كثيرة، ومن جملتها دار تحت الأرض فيها ألف ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار[2]، ويقول الإسحاقى المنوفى: وصادر صالح قبيحة وعذبها حتى أخذ منها ألف ألف دينار، ونصف أردب لؤلؤ ومثله زمرد، وسدس أردب ياقوت أحمر[3].

الجواهر تقوَّم عند قبيحة بالأرادب وليس بالجرام والقيراط كما نقومها نحن الآن، وسبحان الحى الباقى.

وكان صالح كلما اكتشف كنزًا من كنوزها ضغط عليها حتى تقر بمكان كنز آخر، فيجد بعد الكشف ما لم يكن يخطر على بال أحد، وكلما رأى هذه الكنوز المخبأة يسبها ويلعنها ويقول : فعل الله بها وفعل، عرضت ابنها للقتل فى مقدار خمسين ألف دينار، وعندها مثل هذا فى خزانة واحدة من خزائنها. وهذا الطبرى يروى لنا ما شاهده أحد الباحثين عن الكنوز يقول: فجىء بنا إلى دار صغيرة معمورة نظيفة، فدخلنا ففتشنا فى كل موضع عنها فلم نجد شيئًا .. وأخذ رجل فأسًا ينقر به الحيطان يطلب موضعًا قد ستر فيه المال، فلم يزل كذلك حتى وقع الفأس على مكان فى الحائط، فهدمه فإذا من ورائه باب ففتحناه ودخلنا إليه، فأدنانا إلى سرداب وصرنا إلى دار تحت الدار التى دخلناها على بنائها وقسمتها، ووجدنا من المال على رفوف فى أسفاط[4] زهاء ألف ألف دينار.. ووجدنا ثلاثة أسفاط؛ سفطًا فيه مقدار مكوك زمرد إلا أنه من

(١) السابق ٢٣٦.
(٢) أعلام النساء ٣/١٨٧ .
(٣) أخبار الأول ٩١ .
(٤) جمع سفط وهو وعاء يوضع فيه طيب أو أشياء النساء (الوسيط).

الزمرد الذى لم أر والله للمتوكل مثله ولا لغيره، وسفطًا دونه فيه نصف مكوك حب كبار[1] لم أر والله للمتوكل ولا لغيره مثله، وسفطا فيه مقدار كيلة ياقوت أحمر، لم أر مثله ولا ظننت أن مثله يكون فى الدنيا، فقومت الجميع على البيع فكانت قيمته ألفى ألف دينار، فحملناه كله إلى صالح[2].

وقال د. عادل الألوسى : وجد فى خزانة واحدة لقبيحة مليون دينار، وفى أخرى تحف بمليونى دينار، وكانت غلة ضياعها فى كل سنة عشرة ملايين دينار[3].

كل هذه الاكتشافات والملايين المخبأة وأرادب الجواهر، وأين الخليفة المهتدى؟ لا شأن له ولا رأى فيما جمع من أموال تحت الأرض، فهو لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم، وكل ما علق عليه قوله: أما أنا فليس لى أم، أحتاج لها إلى غلة عشرة آلاف ألف دينار فى كل سنة لجواريها وخدمها المتصلين بها، وما أريد لنفسى وولدى إلا القوت[4].

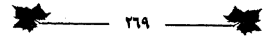
هكذا كان خلفاء ذلك الزمان، ضعافًا، ألعوبة فى يد أولى الأمر من الأتراك، فلا حول ولا طول ولا قوة للخليفة المهتدى، وكل ما عمله أنه صدق على طرد القبيحة من العاصمتين : بغداد وسر من رأى. فأخرجت إلى مكة كما طلبت، وخرج معها حفيدها عبدالله بن المعتز وابناها إسماعيل بن المتوكل وطلحة بن المتوكل وعبدالوهاب بن المنتصر، خرجوا جميعًا منفيين إلى مكة.

أما زوجها صالح فقد استولى على هذا الكم الهائل من الأموال، ولم يترك فرصة إلا يسبها ويلعنها ولا يسمع إلا وهو يقول: عرضت ابنها للقتل فى خمسين ألف دينار وعندها هذه الأموال؟!

* * *

---

(١) ربما من لؤلؤ.
(٢) الطبرى ٩/٣٩٥ .
(٣) الرأى العام ٧٠ .
(٤) الطبرى ٩/٣٩٦ .



قبيحة فى المنفى

عاشت قبيحة فى مكة بين الحزن على المال الضائع وبين الندم على تسليمها ولدها ليقتله الهمج من الترك المحيطين به، وبين الحقد على ذلك الذى خدعها حين أوهمها بأنه تزوجها، وما كان يرجو من ورائها إلا الاستيلاء على ثروتها التى اكتنزتها فى السراديب، وهى تظن أن أحدًا لن يصل إليها، يا له من قلب محترق بنار الحزن والحقد والندم، هو قلب لم يعمره الدين لحظة ولا خالطه الإيمان أبدًا، لقد جفت منه المشاعر الإنسانية والمراحم الدينية، وظل يختلج فى صدرها وهى تدعو حول الكعبة بذلك الدعاء المصور لحالتها النفسية بكل أبعادها تدعو على صالح بن وصيف الذى شردها، هى ومن بقى من أولادها وتقول بصوت يسمعه الناس:

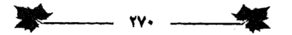
«اللهم أخز صالح بن وصيف[1] كما هتك سترى وقتل ولدى وبدد شملى وأخذ مالى وغربنى عن بلدى وركب الفاحشة منى».

وقد يلفت نظرنا فى هذا الدعاء العبارة الأخيرة التى تقول إنه ركب الفاحشة منها، فهل زعم لها صالح أنه تزوجها ولم يكن كذلك ثم زنا بها؟ أم إنه اعتبرها جارية مسترقة فأعادها إلى أصلها واستباح نكاحها؟ وهى ترى أنها حرة لا تسترق، ولكنه ركب الفاحشة منها، لسنا نستطيع أن نجزم بشىء من ذلك، ولكنها الأجواء الكئيبة التى كانت تحكم الدولة فى تلك الفترة المظلمة من خلافة بنى العباس.

ولم تمر سنة حتى خلع الأتراك الخليفة المهتدى، فى رجب سنة ٢٥٦ هـ؛ نتيجة لاختلاف رءوس الترك بعضهم مع بعض فمنهم القائل: اخلعوا هذا الرجل الضعيف، ويردد آخرون : أتقتلون رجلاً صوامًا قوامًا لا يشرب الخمر ولا يأتى الفواحش؟ واختلفوا، لكنهم اتفقوا على قتل زعيمهم صالح بن وصيف متهمين إياه بالقضاء على الخليفة المعتز وسلب أموال أمه قبيحة، وذلك بعد

---

(١) وقع خلاف بين زعماء الأتراك قتل فيه ابن وصيف متهمًا باغتيال المعتز وسلب أموال أمه وذلك سنة ٢٥٦هـ



شهور من نفيها إلى مكة، ثم التفتوا إلى الخليفة المهتدى وحكموا عليه بالقتل بعد أن قتل زعيمهم الجديد بايكباك، وقبل قتله صفعوه بالأيدى والأرجل وعذبوه بدون سبب أو جريرة.

والغريب أنهم لما دخلوا على المهتدى لخلعه وقتله قال لهم: إنه قد بلغنى ما أنتم عليه من أمرى، ولست كمن تقدمنى مثل أحمد بن محمد المستعين، ولا مثل ابن قبيحة، والله ما خرجت إليكم إلا وأنا متحنط ـ أى مستعد للموت ـ وقد أوصيت أخى بولدى.

وقتل المهتدى كما قتل سابقوه ولم يكمل سنة فى الحكم.

ويا لها من فترة سوداء حالكة السواد، حافلة بالخزى والعار مما أحدثه أولئك المجلوبون لحماية الخليفة والخلافة فإذا هم ينتهكون الحرمات ويسحقون الرءوس!

وتولى الخامس عشر من خلفاء بنى العباس: المعتمد[1] أحمد بن المتوكل فى ١٣ رجب سنة ٢٥٦ هـ ـ مايو سنة ٨٧٠م، وبعد مدة من توليته فكر فى زوج أبيه قبيحة المنفية فى مكة، فبعث إليها ليعيدها إلى العراق، ولما عادت أكرمها ورد لها شيئًا من أموالها، وعاشت فى سر من رأى تجتر ذكريات العز أيام زوجها المتوكل وأيام ابنها المعتز حتى انتقلت إلى رحمة الله فى أول ربيع سنة ٢٦٤ هـ غفر الله لها.

وقد لخص ابن كثير حياة قبيحة كلها فى سطرين قال: فى ربيع أول سنة ٢٦٤ هـ توفيت إحدى حظايا المتوكل، وقد جمعت من الجواهر واللآلئ والذهب المصاغ ما لم يعهد لمثلها، ثم سلبت ذلك كله، وقتل ولدها لأجل نفقات الجند وشحت عليه بخمسين ألف دينار[2].

ونظرة إلى حياة تلك المرأة تدفعنا إلى الظن بأن هذا الاسم الذى أطلق عليها لم يكن أسوأ ما فيها، ونتصور أن القدر اختار لها هذا الاسم تلخيصًا لحياتها القبيحة فعلا، لقد كانت حياتها أشبه شىء بقطعة من الخشب ألقيت فى بركة ماء راكد ترسب أحيانًا إذا قل ماء البركة وتطفو إذا زاد ماؤها، وهى بين الرسوب والطفو

---

(١) أمه أم ولد اسمها فتيان وهو ثالث أولاد المتوكل الذين تولوا الخلافة.

(٢) البداية والنهاية ١١/١٧.



مجرد لعبة يلعب بها أولئك المتسلطون على الخلافة من الأتراك وغيرهم، فلا يمكن مقارنة دور قبيحة بأى دور من الأدوار التى تحدثنا عنها من قبل لنساء عظيمات عرفن أقدارهن، وأدين أدوارهن بمنتهى الذكاء، فأما هذه فقد حالفها الشؤم فى حياتها كلها، إلى أن ماتت غير مأسوف عليها من أحد وغير تاركة سوى اسمها الذى يثير العجب من ظهور هذه النماذج الرديئة للتحكم فى خلافة الأمة الإسلامية فى غفلة من الزمن، ولا ريب أن هذه المرحلة التى شهدت جيوشًا من الجوارى والمرتزقة من الجند وأغلقت الباب أمام العنصر العربى، هى التى مهدت للمرحلة التالية من حياة الدولة العباسية حيث تفتتت الدولة إلى كثير من الدويلات، ولكل دويلة خليفة أو ما يشبه الخليفة حتى كانت نهاية الدولة[1] عام ٦٥٦هـ، أى إن فترة الانحلال التى نحن بصددها قد استغرقت أربعة قرون، والسبب الرئيس فى هذا الانهيار الذى أدى إلى اختفاء الخلافة هو الاستكثار من الجوارى الذى كان بمثابة سرطان يأكل جسد الدولة ويقضى على عافيتها.

* * *

(١) سقطت الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ على يد التتار بقيادة هولاكو حفيد جنكيز خان.



٨

سِتُّ المُلْكِ
أُختُ الحَاكِمِ بِأَمرِ الله وَقَاتِلَتُهُ

تمهيد

كان من الخصائص التى تحققت على يد رسول الله محمد ﷺ فى حياته ثلاثة أمور: أولها: أنه بلَّغ الرسالة كاملة، وثانيها: أنه بنى الأمة المسلمة، وثالثها: أنه أقام الدولة التى تطبق شريعة الله.

وقد حرص النبى فى حياته على تأكيد تمام دوره، بالسؤال المشهور: ألا هل بلَّغت؟ اللهم فاشهد، ولَحِق صلوات الله عليه بالرفيق الأعلى، ونَهَضَ أصحابه من بعده بحمل الأمانة، فاختاروا لهم رئيسًا، لم يصفوه بالرياسة، بل اختاروا له لقب الخليفة؛ إبقاء على تمثُّل وجود النبى بين ظهرانيهم، وما هؤلاء الذين جاءوا من بعده إلا خلفاء عنه، كما قال القرآن: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الحجرات:٧]، وهو ما نبَّه إليه الرسول قبل وفاته: «**تركت فيكم ما إن تمسَّكتم به لن تضلوا بعدى أبدًا؛ كتاب الله وسنتى**».

وقد استمرت الدولة فى قيادة الأمة، وتطبيق الشريعة، فكانت تعيش فى عز دائم، وسلطان منيع، تستمده من وحدة أبنائها، تحت لواء الخلافة الواحدة.

وقد استمرت هذه الوحدة فى عهد الخلافة الراشدة، وحين وقعت أحداث الفتنة خرجت منها إلى وحدة أخرى فى ظل الأمويين، ثم فى ظل العباسيين، ولكن دوام الحال من المحال، فقد تحولت الوحدة الإسلامية إلى أقسام ودول، بفعل النّعرة الشعوبية.

وانفتح الباب على مصاريعه كلها نتيجة ضعف الخلافة المركزية، فظهرت دول يقودها المغامرون من ذوى النوايا الحسنة والسيئة على سواء.

وتحركت حينئذ أطماع الأعداء من الصليبيين، شرقًا وغربًا، شرقًا فى الشام وفلسطين، وغربًا فى الأندلس، وكان ما كان من حروب وصراعات لم يهدأ لها صارخ حتى الآن، وصدق الله العظيم: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة:١٥١].



لقد كان من صور الصراع الداخلى تكون جماعات سرية، تتنامى وهى تدعى انتماءها إلى النسب الشريف، وتنتقى لتحقيق أطماعها نقطة ضعيفة فى أرض الإسلام، فتعلن عن قيام دولتها، وهى بذلك تمثل انشقاقًا فى جدار الوحدة الإسلامية، وكلما نجح فريق فى إدراك مآربه أضيف إلى العديد من دول الصغار دويلة أخرى، حتى قامت دويلات على أساس العرقية، وأخرى على أساس الشعوبية، وثالثة على أساس العصابة، كالبابلية والخُرَّمية والقَرَامِطَة والزِّنْج، وقد تجمع دويلة أكثر من صفة فهى تملك الادعاء العِرقى، وهى فى الواقع عصابة من المتآمرين، الباحثين عن نقاط الضعف فى الأرض الإسلامية لإقامة كيان يحكمونه، ويأكلونه.

والدولة الفاطمية من تلك الدويلات التى تأسست على العرقية، ونهضت بها عصابة من المتآمرين المشكوك فى أصولهم، وقد لجأ داعيتهم إلى جبال المغرب، تدفعه قوى التآمر اليهودية، وتنتقى له ما لذَّ وطاب من أرض الإسلام، وسرعان ما جمع القبائل حوله، وجمع المال الهائل، وكانت خطوته الثانية أن يتوجه إلى مصر، وهى فى ذلك الزمان تترنحً فى حيازة الحكم الإخشيدى، فجاء القائد الفاطمى جوهر الصقلى، ودخلها دون حرب أو معركة، وأقام الدولة الفاطمية، ولم يكن لتلك الدولة من مقومات سوى القوة المادية التى عبر عنها الخليفة الفاطمى الرابع (المعز لدين الله) حين سئل عن نسبه وحسبه، فنثر الذهب على سائليه الحاضرين، وقال: هذا نَسَبِى، وأخرج سيفه من جرابه وقال: وهذا حَسبِى.

ومنذ ذلك اليوم أصبح دستور الحكم: المال والقوة، المال للراغبين، والقوة للمتمردين، والسلام والأمان للخاضعين الخانعين، فى كل وقت وحين.

لقد كان من فصول المهزلة الفاطمية فى مصر اعتلاء المجنون، الملقب بالحاكم بأمر الله، عرش الخلافة، وممارساته خلال حكمه أغرب من أن تُصدّق، وأشهر من أن تُعَرَّف، بيد أنَّ رحمة الله دبرت له أختَه (ست الملك) التى قامت بدور خطير وراء الأحداث، حاولنا استقصاء تفاصيله فى هذه القصة، وهى ذات دلالة على الصدق المطلق للعبارة القرآنية فى مخاطبة النساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨].



إن الكاتب يتحير فى وصف (ست الملك) حين يطالع مواقفها فى حسم مشكلة أخيها فهو قد ينسبها إلى العقل وإلى الخير، وقد ينسبها إلى الدهاء وإلى الشر، وهو فى كلتا الحالتين مضطرب الحكم، لكنها طبيعة النظام الحاكم آنذاك فى مصر، إذا ما لاحظنا أن الدنيا لم تكن تعرف وقتها المؤسسات الحاكمة، التى تتولى عزل السلطان إذا ما بلغ مستوى جنون الحاكم، فقيض الله لمصر فى ذلك الزمان امرأة بمثابة «مؤسسة» تتولى العَزْلَ والقتل وملء الفراغ بسلطان جديد، وهذه المرأة هى «ست الملك».

وقد يتساءل القراء عن أصل هذه الكلمة «ست»، والبحث عن أصلها لم يفت العلماء السابقين، فمنهم من قال «إنها عامية»، ومنهم من قال: إن أصلها فصيح، ولكن أجمل الأقوال هو ما يرى أن الرجل حين ينادى امرأة: يا ستى - فإنما يعنى: يا مالكتى من الجهات الست: اليمين والشمال، والأمام والخلف، والفوق والتحت، وهو معنًى جميل، يجب أن يعرفه الرجال، بشرط أن يخفوه عن النساء، حتى لا يركبهن الغرور، وتظن كل واحدة منهن أنها «ست الملك»، وإن كانت كذلك على وجه التحقيق.

وقد يُعتِق الرجلَ من سطوتها ألا يقوم بدور «الحاكم» فيدوم فى حياته الأمن والأمان.

* * *

مدخل إلى قيام الدولة الفاطمية

تُوفى كافور الإخشيدى(١) فى جمادى الأولى عام ٣٥٧هـ، وبموته انفرط عقد الإخشيديين، بعد حكم دام أربعة وثلاثين عامًا وأربعة عشر يومًا.

وانتهز المعز لدين الله(٢) العبيدى الفاطمى الفرصة، وأعدَّ عدته لغزو مصر، واقتطاعها من الخلافة العباسية، وضمها إلى خلافته الفاطمية فى المغرب، فجهز الجيش، وجعل على قيادته كبير قواده جوهرًا(٣) الرومى، أو الصقلى كما اشتهر.

وقبل أن نرحل مع جوهر ـ قائد المعز ـ إلى مصر لابد أن نلقى بعض الضوء على حال البلاد فى شمالى إفريقية آنذاك.

فقد فتحت هذه البلاد على يد قلة من الصحابة، على رأسهم عقبة بن نافع الفهرى(٤)، الذى اتخذ القيروان عاصمة للشمال كله، وكانت تحت راية السلطة

---

(١) هو أبو المسك كافور، عتيق أبى القاسم محمد بن طغج الإخشيد، عينه وصيا على ولده أناجور، تولى حكم مصر من عام ٣٥٥ – ٣٥٧هـ، وهو الذى هجاه أبو الطيب المتنبى. قال عنه جورجى زيدان فى (تاريخ مصر الحديث) ١٩١/١ : كان يدعى لكافور على المنابر بمكة والحجاز جميعًا، والديار المصرية، وبلاد الشام من دمشق وحلب وأنطاكية وطرسوس وغيرها. وقال آدم ميتز فى (الحضارة الإسلامية) ٢٩٧/١: كان كافور خصيًا، اشترى عام ٣١٢ هـ (الموافق عام ٩٢٤م) بثمانية عشر دينارًا.

(٢) هو معد أبو تميم المعز لدين الله بن المنصور بالله إسماعيل بن القاسم بأمر الله محمد بن المهدى عبيد الله العبيدى، ولد فى ١١ من رمضان ٣١٩هـ فى عاصمة ملكهم (المهدية).

(٣) مملوك رومى رباه المعز وصيره وزيرًا، فتح له الممالك، حتى وصل إلى فاس على المحيط الأطلسى، كبر شأنه عند المعز فولاه فتح مصر، وفى عهد العزيز والد ست الملك، بقى على مكانته، توفى فى ٢٣ من ذى القعدة عام ٣٨١ هـ «الموافق ٢٠ من مارس عام ٩٩١م» ، ووجد عنده من الأموال ما لا يحصى: من الذهب العين ستمائة ألف ألف دينار، ومن الدراهم الفضة أربعة آلاف ألف، ومن اللؤلؤ الكبار واليواقيت أربعة صناديق، ومن الزمرد ألف قصبة .. ووجد عنده لعبة من المسك والعنبر الخام – إذا نزع ثيابه ألبسها عليها، ووجد فى داره عدَّة مسامير من الذهب، على كل مسمار عمامة لون، ووجد عنده من الملاعق الذهب والفضة ثلاثة آلاف ملعقة، ووجد عنده عشرة آلاف زبدية (طبق) صينى وبلور وفضة، وأربعة قدور من الذهب، وزن كل قدر مائة رطل من الذهب .. ووجد عنده سبعمائة خاتم بفصوص من الزمرد والياقوت والماس – كما قال ابن إياس.

(٤) فاتح من كبار القادة فى صدر الإسلام، ولد قبل الهجرة بعام ، شهد فتح مصر مع ابن خالته عمرو بن العاص، ووجهه عمرو لفتح إفريقية عام ٤٢هـ وولاه معاوية إفريقية استقلالا عام ٥٠ هـ بلغ بفتوحاته المغرب الأقصى عند المحيط، أنشأ مدينة القيروان وبنى بها جامعه الذى ما زال موجودًا، قتله الفرنج عام ٦٣ هـ بالقرب من القيروان. (الأعلام).



المركزية للأمويين فى دمشق، ثم انتقلت إلى سلطة العباسيين فى بغداد، وفى عام ١٨٤هـ (الموافق عام ٨٠٠م) انقسم الشمال الإفريقى إلى المغرب الأقصى، والأوسط، والأدنى.

وكانت دولة الأغالبة أول دولة انفصلت وتمركزت فى تونس، ولكن ظل لها شيء من الولاء للعباسيين.

وفى عام ٢٨٨ هـ ظهر داعية اسمه أبو عبدالله الحسين بن أحمد الشيعى، أخلص لآل البيت، ودعا لعبيد الله، من نسل على بن أبى طالب[١]، كان يقيم فى شمال الشام، قبل أن ينتقل إلى المغرب، حيث حبس.

وتقوّى أبو عبدالله، وزحف بجيوشه حتى أخرج عبيد الله من السجن، وانتصر على آخر ملوك الأغالبة، وبايع لعبيد الله فى القيروان ولقبه بالمهدى.

ومن أسباب تغلبه على ملك الأغالبة ـ يقول د. الشريقى: جمع حوله الحاقدين على الأغالبة، وانضم إليه جماعات كثيرة من البربر والعرب، شكل منهم قوة هجم بها على مدينة رقادة عام ٢٩٦ هـ، واستدعى عبيد الله، أحد أئمة الشيعة، ونادى به خليفة للدولة الفاطمية الجديدة، ولقبه بالمهدى[٢].

ومن المهازل أن عبيد الله فى السنة التالية لخلافته، وهو عام ٢٩٧هـ أوجس خيفة من أبى عبدالله، مؤسس دولته الحقيقى، فقبض عليه وعلى أخيه، وقتلهما فى السجن.

وظل عبيد الله المهدى خليفة على المغرب حتى توفى عام ٣٢٢ هـ (الموافق عام ٩٣٤م) وتولى ابنه القائم، ثم تلاه المنصور عام ٣٣٤ هـ، وبنى مدينة المنصورية، وجاء رابع خلفاء الفاطميين عام ٣٤١هـ، وهو المعز لدين الله، وهو جد الشخصية التى يدور حولها حديثنا الأميرة:« ست الملك».

* * *

---

(١) جاء فى كتاب الفخرى ٢١٤ تسلسل هذا النسب قال: هو أبو محمد عبيد الله ابن أحمد بن إسماعيل الثالث ابن أحمد بن إسماعيل الثانى بن محمد بن إسماعيل الأعرج بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على. وقد روى نسبهم على صورة أخرى، وفيه اختلاف كثير: أنهم علويون إسماعيليون، صحيحو الاتصال. وقد ولد عبيد الله بسلميّة عام ٢٠٦ هـ.

(٢) التاريخ الإسلامى ص ١٧٤، ورقادة مدينة بالقرب من القيروان.

فتح الفاطميين لمصر

فى يوم السبت، الرابع عشر من ربيع الأول عام ٣٥٨ هـ «الموافق الثالث والعشرين من يناير عام ٩٦٩م)، خرج جوهر الصقلى من القيروان، ومعه من الأموال والخزائن ما لا يحصى، ومن الذهب ما تحمله الجمال لكثرته، حتى قيل: كان معه ألف حمل من الذهب. أما الجنود فكانوا مائة ألف مقاتل، ما بين راكب وراجل، وخرج المعز بنفسه لتوديع قائده.

قال المقريزى: فقام جوهر بين يديه، وقد اجتمع الجيش، والتفت المعز إلى المشايخ، الذين وجههم مع جوهر وقال: والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر، وليدخلنها بالأردية من غير حرب، ولينزلن فى خرابات ابن طولون، ويبنى مدينة تسمى القاهرة - تقهر الدنيا[1].

ثم أمر المعز بإفراغ الذهب ظاهرًا للعيان، ثم عبئ فى الصناديق[2]، وأمر إخوته وأولاده، وولى العهد، وسائر أهله أن يمشوا فى خدمة جوهر وهو راكب، وأخذ الشعراء والخطباء يتبارون فى مدح جوهر والمعز، فهذا شاعر يرتجل قصيدة منها:

رحلت إلى الفسطاط أول رحلةٍ[3]

بأيمن فأل بالذى أنت تجمعُ

فإن يك فى مصر ظماء لمورد

فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرعُ

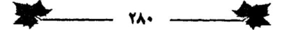
وكان المعز قد بعث إلى كل أمرائه فى طريق جوهر - أن يستقبلوه أحسن استقبال، ويترجلوا مشاة فى وجوده، قال جورجى زيدان: فلما قدم برقة افتدى

---

(١) خطط المقريزى ٣٧٨/١.

(٢) كان أكثر من ألف صندوق، يحتوى على ٢٤.٠٠٠.٠٠٠ دينار تقريبًا.

(٣) حاول الفاطميون قبل هذه الحملة غزو مصر عدة مرات ولكنهم فشلوا.



صاحبها[1] ترجله بخمسين ألف دينار ذهبًا، فأبى جوهر إلا أن يمشي في ركابه، ورد المال، فمشى[2].

ودخل جوهر قائد المعز الإسكندرية بغير حرب ولا قتال، بل بكتابة العهود وبالأمان، وتسلم البلاد. وكان الحظ إلى جانبه فالبلاد حينئذ تئن من الغلاء، إثر وباء انتشر فيها، وانتهز جوهر الفرصة، واستمال قلوب أهل مصر، بتوزيع الطعام والمال والحبوب عليهم، وهو في طريقه جنوبًا إلى الفسطاط[3].

وجاءت أول جمعة له في الفسطاط من شعبان عام ٣٥٨ هـ، ووقف على منبر الجامع العتيق[4]، أو جامع ابن طولون[5] ـ كما تقول بعض الروايات.

وفي نهاية الخطبة دعا لمولاه المعز لدين الله الفاطمي، وقطع الدعوة لبني العباس ولم يذكر خليفة بغداد[6].

وبهذه الخطبة، وبسكوت الناس وتقبلهم الدعاء للمعز صارت مصر والشام والحجاز واليمن والمغرب تحت حكم الفاطميين الشيعة.

وقال جورجي زيدان: وزاد جوهر في الخطبة: اللهم صلِّ على محمد المصطفى، وعلى عليّ المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول، الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرًا، اللهم صل على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين[7].

وربما تأخر إعلان انفصال مصر عن الدولة العباسية في بغداد لمدة عام، كما قال ابن خلدون: وانقرضت دولة ابن طغج، وأذن عام ٣٥٩ هـ في جامع ابن طولون بحي على خير العمل، وتحولت الدولة بمصر إلى العلوية[8].

---

(١) قال القلقشندي في صبح الأعشى ٣/٣٤٥ : كان للمعز غلام ببرقة اسمه أفلح فكتب إليه المعز أن يترجل لجوهر إذا بدا عليه ويقبل يديه؛ فبذل مائة ألف دينار على أن يعفى من ذلك فأبى جوهر إلا ذلك. فترجل من مكانه وقبل يديه.

(٢) تاريخ مصر الحديث ١/١٩٣.

(٣) قال الكندي في (تاريخ الولاة) صـ٢٢٤ : ودخل بعد عصر الثلاثاء ١٧ من شعبان عام ٣٥٨هـ

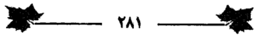
(٤) أول جامع بني في مصر، بناه الفاتح عمرو بن العاص عام ٢١هـ، وهو في الفسطاط.

(٥) بناه أحمد بن طولون عام ٢٥٩هـ، وهو في القطائع بين القاهرة والفسطاط.

(٦) كان الخليفة العباسي في بغداد المطيع بن المقتدر.

(٧) تاريخ مصر الحديث ١/١٩٤.

(٨) تاريخ ابن خلدون ٤/٦٧٤.



والدليل على انفصال مصر عن الدولة العباسية هو جمع الخراج والتصرف فيه، وعدم إرسال أى شىء منه إلى بغداد وقد حدث ذلك آخر عام ٣٥٨هـ

قال المقريزى: جبى جوهر الصقلى خراج مصر عام ٣٥٨ هـ ثلاثة آلاف ألف دينار (مليون) وأربعمائة ألف دينار ونيفًا[١].

وطالت مدة حكم الفاطميين لمصر مائتى سنة وتسع سنوات، حتى قضى عليهم صلاح الدين الأيوبى عام ٥٦٧هـ

* * *

(١) الخطط ٤/٩٩.

بناء القاهرة[1]

استقر جوهر شمالى العواصم الإسلامية الثلاث السابقة: الفسطاط[2]، والعسكر[3]، والقطائع[4]، ثم وضع أساس العاصمة الجديدة: القاهرة[5]، وحددها بسور حول مناخه وعسكره، وفتح فيه بابين، ومن المعروف أن المعز هو الذى رسمه مسبقًا له، وحفر جوهر خندقًا ناحية الشرق، حتى لا يفاجأ بأحد من ناحية الشمال.

قال المقريزى: وحفر خندقًا، وعمل عليه باب، ونصب عليه بابى الحديد اللذين كانا على ميدان الإخشيد[6]، ثم بنى الجامع الأزهر، والقصر الكبير لاستقبال الخليفة المعز لدين الله.

* * *

(١) تشمل قاهرة المعز الآن على حى الجمالية، وباب الشعرية، والموسكى، والغورية، وباب الخلق، أى : من باب زويلة إلى باب الفتوح (نهر التاريخ صـ ٤٠٤).

(٢) أسسها عمرو بن العاص عام ٢٠ هـ.

(٣) أسسها صالح بن على بن عبدالله العباسى عام ١٣٣هـ وهو والى مصر من قبل السفاح، أول خليفة عباسى.

(٤) أسسها أحمد بن طولون عام ٢٦٤هـ.

(٥) كانت مساحة القاهرة عند بنائها ألفين ومائتى متر عرضًا، ومثلها طولاً، فكانت مربعة الشكل تقريبًا.

(٦) خطط المقريزى ٣/١٢٢ .



المعز فى القاهرة

وبعد ثلاث سنوات استعمل الخليفة المعز الأمير بلكين[1] بن زيرى الصنهاجى البربرى ـ واليًا على شمال إفريقية.

ثم استشار المنجمين[2] فى خروجه للفتح، وفى شوال عام ٣٦١ هـ، خرج المعز لدين الله الفاطمى ـ جد ست الملك، من المهدية[3] وبعض رجال حاشيته[4]، كذلك صحب المعز معه توابيت آبائه الذين دفنهم فى تربة بالقاهرة، سماها تربة الزعفران.

قال المقريزى: كان من جملة القصر الكبير التربة المعزية، وفيها دفن المعز آباءه، الذين أحضرهم فى توابيت معه من بلاد المغرب، وهم: المهدى[5] والقائم[6] والمنصور[7]، واستقرت مدفنًا يدفن فيه الخلفاء ونساؤهم وأولادهم .. ولما أنشأ الخليلى[8] خانه المعروف به فى الخط المذكور ـ أخرج ما شاء الله من عظامهم فألقيت فى المزابل[9].

وكان مع المعز قرابة خمسمائة حمل من المتاع والأموال والتحف، من قصور آبائه وأجداده، فقد عاش الفاطميون فى المغرب فى ثراء فاحش، وأموال لا تحصى، وغنى لا مثيل له.

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء فى كتاب (التحف والذخائر) ذكر ليوم ختان أولاد المعز، قبل مجيئهم إلى مصر بسبع سنين قال: كان إعذار (ختان) المعز لدين

---

(١) تخلص أهل تونس من المذهب الشيعى بعد ذلك وعادوا إلى المذهب المالكى عام ٤٣٥ هـ.

(٢) كان المعز مغرمًا بالنجوم واستطلاعها ، حتى قيل: إنه من عبدتها.

(٣) مدينة أنشأها عبيد الله المهدى قرب القيروان عام ٣٠٣هـ، جنوبى سوسة، وهى غير المهدية التى أنشأها المهدى بن تومرت زعيم الموحدين عام ٢٩٥هـ، وتقع على المحيط الأطلسى ، ما بين العرايش وفاس.

(٤) كان على رأسهم يعقوب بن كلس، كان يهوديًا من الشام ، وأسلم على يد كافور، وبعد موته رحل إلى المعز، وشجعه على فتح مصر، وصار وزيرًا له، وللعزيز بعده ، توفى عام ٣٨١هـ فألحده العزيز بيده، وأمر بإغلاق الدواوين حدادًا عليه.

(٥) عبيد الله المهدى، تولى عام ٢٩٦هـ ، اختط مدينة المهدية عام ٣٠٣ هـ وجعلها عاصمته، ومات بها عام ٣٢٢هـ

(٦) محمد بن عبيد الله، ولد عام ٢٧٨هـ، بسلمية بسورية، ودخل المغرب مع أبيه ٢٩١. توفى عام ٣٣٤هـ.

(٧) المنصور بن إسماعيل بن محمد، ولد عام ٣٠٢هـ ، بالقيروان، بويع له عام ٣٣٦ هـ، وتوفى عام ٣٤١ هـ بالمنصورية ، ودفن بالمهدية مع أبيه وجده.

(٨) هو الأمير المملوك جهاركس الخليلى.

(٩) خطط المقريزى ١/٤٠٧ .



الله الأمراءَ بنيه: عبدالله، ونزار (العزيز) وعقيلاً ما غادر عظيمَ ما ذَكرناه صغيرًا، وجسيمه حقيرًا، وكثيره يسيرًا، وذلك أنه حين عزم على طهورهم كاتب عماله وولاته، وما حوته مملكته إلى جزيرة صقلية، وما والاها من حضر وبدو، وبر وسهل وجبل بطهور من وجد من أولاد سائر الخلق غير مطهر، حرهم وعبدهم، أبيضهم وأسودهم، دنيهم وشريفهم.. والذين حوتهم المملكة لمدة شهر واحد، وأمرهم بالقيام بجميع نفقاتهم وكسواتهم، وما يصلح أحوالهم من مطعم ومشرب وملبس، وطيب وغير ذلك.. وكان المعز ربما طهّر فى اليوم الواحد من أيام الشهر بحضرته اثنا عشر ألف صبى[1].

ويضرب جورجى زيدان مثلاً واحدًا كذلك لهذا البذخ وهذا الترف فيقول: فاق الفاطميون العباسيين فى كثير من أسباب حياتهم، ولا سيما من حيث الأثاث والرياش والثياب، فإن العباسيين رصعوا عصائب نسائهم وخفافهم بالجواهر، لكن الفاطميين رصعوا آنية المطبخ، واتخذوا كوز الزير من البلور مرصعًا بالجواهر، وكللوا المزيرة بحب اللؤلؤ النفيس[2].

لقد استولى الفاطميون على كثير من تراث العباسيين وتحفهم، فهذا ابن الزبير يصف مثالاً لما تركته السيدة راشدة بنت المعز لدين الله: تركت حين ماتت عام ٤٤٢ هـ ما قيمته ألف ألف وسبعمائة ألف دينار، كما تركت ثلاثين ألف ثوب مقطوع، واثنى عشر ألفًا من الثياب المصمتة، ألوانًا... ووجد لها فيما وجد بيت الرشيد من الخز الأسود، وهو الذى مات فيه بطوس[3].

وذكر فى مكان آخر: وجد بقصر المستنصر الفاطمى أكثر من مائة كأس بازهر ونصب[4] وعلى أكثرها اسم الرشيد[5].

وقال فى موضع آخر: ووجد فى بعض الخزائن حصير من ذهب وزنها ثمانية عشر رطلاً، وذكر أنه الحصير التى جليت عليها بوران بنت الحسن بن سهل على المأمون عام ٢١٠ هـ[6].

---

(١) التحف والذخائر ص ١٢٥ .

(٢) تاريخ مصر الحديث ١/١٣٨ .

(٣) التحف والذخائر ٢٤١، والمقصود بالبيت: الخيمة وكانت من الحرير الفاخر يأخذها الرشيد معه فى السفر.

(٤) نوع من الجواهر الثمينة.

(٥) التحف والذخائر ٢٥٤.

(٦) المرجع السابق ٢٥٦.

وعود إلى المعز فى رحلته من تونس إلى مصر، التى استغرقت أحد عشر شهرًا، حتى وصل إلى القاهرة فى ٨ من رمضان عام ٣٦٢ هـ (الموافق يونيو عام ٩٧٧م).

وقد اختلف المؤرخون فى ظهوره للناس مباشرة، واختفائه عنهم، ثم ظهوره بعد ذلك.

يقول ابن تغرى بردى: وبعث المعز عيونه ينقلون إليه أخبار الناس، وهو متوفر فى النعم والأغذية المسمِّنة، والأطلية التى تنقى البشرة، وتحسن اللون، ثم ظهر للناس بعد مدة، وقد لبس الحرير الأخضر، وجعل على وجهه اليواقيت والجواهر، تلمع كالكواكب، وزعم أنه كان غائبًا فى السماء، وأن الله رفعه إليه، فامتلأت قلوب العامة والجهال منه رعبًا وخوفًا[١].

أمَّا المقريزى فقد سجل صلاة المعز لعيد الفطر، واحتفاله لفتح الخليج بعد مجيئه مصر مباشرة، قال: وصلى العيد، وسبح فى كل ركعة وفى كل سجدة ثلاثين تسبيحة، ثم خطب بعد الصلاة، وركب لفتح خليج مصر يوم الوفاء، ومات بعض عمه، فصلى عليه وكبر سبعًا[٢].

وكان العيد فى هذه السنة فى شهر يوليو (تموز)، ويوم وفاء النيل وفتح الخليج يحتفل به عادة فى منتصف أغسطس (آب).

أمَّا الشابشتى فقد ذكر لمجىء المعز لدين الله إلى مصر أمرًا آخر، قال: لما وصل المعز لدين الله من المغرب وملك مصر نزل عند دير ناهيا فى الجيزة، وأقام سبعة أشهر، وأنشأ قبالته بستانًا وبئرًا وساقية تحت الكرم غربى الجميزة وكذلك حوض سبيل[٣].

* * *

---

(١) النجوم الزاهرة ٤/٩٠ .

(٢) خطط المقريزى ١/٤٩٠ .

(٣) الديارات ٤٠٧ . وناهيا أو نهيا بلدة نواحى الجيزة بمصر (معجم البلدان).

أصل الفاطميين

والشيء بالشيء يُذْكَر، فلابد أن نرجع إلى أصل هؤلاء الفاطميين، وهل هم حقًا من نسل السيدة فاطمة، أو أنهم أدعياء في هذا النسب؟

قال القاضي عبدالجبار البصري: اسم جد الخلفاء المصريين سعيد، ويلقب بالمهدي[1]، وكان أبوه يهوديًا حدادًا[2] بسلمية[3]، ثم زعم سعيد أنه ابن الحسين بن أحمد بن عبدالله بن ميمون القداح، تسمى: عبيدالله.

ثم انتقل المهدي إلى المغرب ومعه أهله.

أما سبب انتقالهم إلى المغرب؛ يقول السيوطي: كان أبو عبيد الله محمد قد أرسل الدعاة، فمهد له بيعة بالمغرب وفتح بلدانًا وناصرته قبائل كتامة، ووعدها بقرب المهدي إمام الزمان، وبلغ الخبر المكتفي بالله العباسي[4]، فطلبه المهدي، ففر من سلمية إلى العراق ثم إلى مصر، فالإسكندرية، ومنها إلى المغرب، واستفحل أمره، حتى بويع له بالقيروان بيعة عامة عام ٢٩٧هـ[5].

وقال القاضي ابن الباقلاني: القداح جد عبيد الله، كان مجوسيًا، ودخل عبيد الله المغرب، فادعى أنه علوي، ولم يعرفه أحد من علماء النسب، وكان باطنيًا خبيثًا، حريصًا على إزالة ملة الإسلام.. وقد بث دعاته فأفسدوا عقائد جبال الشام، كالنصيريَّة[6]، والدروزية[7]، وقد سمى نفسه عبيد الله استتارًا[8].

وقد ظهرت هذه الاتهامات إبان مجيء المعز لمصر، ثم تجددت بعد نصف قرن تقريبًا، في عهد الحاكم بأمر الله.

---

(١) صار خليفة من عام ٢٩٧ إلى عام ٣٢٢ هـ(الموافق من عام ٩٠٩م إلى عام ٤٣٤م).

(٢) وقيل: كان كحالا، أي طبيب عيون، يقدح العين إذا نزل فيها الماء.

(٣) قرية قرب حمص شمالي الشام، ولد فيها المهدي عام ٢٥٩هـ.

(٤) ابن المعتضد بن المتوكل بن المعتصم، ولد عام ٢٦٣هـ ، وتولى الخلافة عام ٢٨٩هـ، وتوفي عام ٢٩٥هـ.

(٥) أخبار الخلفاء ٥٧١ .

(٦) طائفة من الزنادقة يقولون بألوهية علي.

(٧) طائفة من الإسماعيلية.

(٨) وفيات الأعيان ٤/ ٧٧ .



ففى عام ٤٠٢ هـ كتب الخليفة القادر العباسى محضرًا فى القدح فى نسب الحكام الفاطميين، ووقع عليه كثير من العلماء، وقرئ على المنابر، ومن هؤلاء العلماء: الشريف الرضى، والشريف المرتضى، والقاضى ابن الجزرى وغيرهم.

وبعد أقل من نصف قرن، وفى عام ٤٤٤ هـ، وفى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر حفيد الحاكم بأمر الله، والخليفة العباسى فى بغداد هو القائم لدين الله ـ ردد الناس نفس الاتهامات بأنهم كذبة، ولا نسب لهم صحيح إلى رسول الله ﷺ[١].

وقد رأينا من المؤرخين من نسبهم إلى قبيلة كتامة، الذين عاشوا فى المغرب.

يقول جورجى زيدان: هم من كتامة، بالقرب من فاس، فى الطرف الغربى من إفريقية، ويدعون أنهم من سلالة إسماعيل، الإمام السادس، من سبط على، ويلقبون بالإسماعيليين، والعبيديِّين، والعلويين، وانتشروا عام ٢٦٩هـ فى شمال إفريقية[٢].

وقد يكون الادعاء بأنهم ليسوا من أولاد فاطمة ـ رضى الله عنها ـ صحيحًا، فقد أورد ابن تغرى بردى حادثة تشير إلى شبهة فى هذا النسب، قال: وجاء المعز من إفريقية. وكان يطعن فى نسبه، فلما قرب من البلد، وخرج الناس للقائه اجتمع به جماعة من الأشراف، فقال له ـ من بينهم الشريف ـ عبدالله بن طباطبا[٣]: إلى من ينتسب الأمير؟.. فقال له المعز: سنعقد مجلسًا، ونسرد عليكم نسبنا، فلما استقر المعز بالقصر، جمع الناس فى مجلس عام، وجلس إليهم وقال: هل بقى من رؤسائكم أحد؟ .. قالوا: لم يبق معتبر، فسل سيفه وقال: هذا نسبى، ونثر عليهم ذهبًا كثيرًا، وقال: هذا حَسَبى، فقالوا: سمعنا وأطعنا[٤].

فصارت مثلاً يقال فى مثل هذه الأحوال: سيف المعز وذهبه.

(١) البداية والنهاية ١٢/٣٦ .
(٢) تاريخ مصر الحديث ١/١٨٤ .
(٣) ابن طباطبا من نسل على بن أبى طالب.
(٤) النجوم الزاهرة ٤/١٠٠ .



وجاء فى دائرة معارف (سفير): أن أحد أعيان المصريين سأل المعز عن نسبه إلى ميمون القداح القرمطى، فأجابه المعز قائلاً: نعم، هو قادح زناد الفكر. ولم يضف إلى ذلك شيئًا[1].

أما بن خلدون فيؤكد فى تاريخه نسب هؤلاء إلى آل البيت يقول: نسبة هؤلاء العبيديِّين إلى أول خلفائهم،وهو عبيد الله المهدى بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم بن إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق، ولا يلتفت لإنكار هذا النسب، وشاهد بصحة نسبهم شعر الشريف الرضى[2] فى قوله:

ألبس الذل فى بلاد الأعادى
وبمصر الخليفة العلوى
من أبوه أبى ومولاه مولاى
إذا ضامنى البعيد القصى
لف عِرقى بعرقِهِ سيدا الناسِ
جميعًا محمدٌ وعلىٌّ[3]

وقال فى موضع آخر: ولا عبرة بمن أنكر هذا النسب من أهل القيروان وغيرهم، وبالمحضر الذى ثبت ببغداد أيام القادر بالطعن فى نسبهم، وشهد فيه أعلام الأئمة، والذين شهدوا فى المحضر فشهادتهم على السماع[4].

والله وحده أعلم بحقيقة هذا النسب.

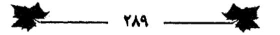
* * *

(١) دائرة معارف سفير ١٩/١٤٣٨ .

(٢) هو محمد بن الحسين العلوى الحسينى، أشعر الطالبيين، ولد عام ٣٥٩هـ ببغداد وتوفى عام ٤٠٦هـ، له مؤلفات وديوان شعر.

(٣) ابن خلدون ٣/٧٥٧ .

(٤) ابن خلدون ٤/٦٤ ويشير فى هذا إلى الشهادة التى شهد بها الشريف الرضى عام ٤٥٢هـ



ما بعد المعز لدين الله

ولم يعش الخليفة المعز طويلاً فى مصر، بلاد أحلامه وأحلام أجداده، وإنما مرض، وتوفى على أغلب الروايات يوم الجمعة، السابع عشر من ربيع الأول[1] عام ٣٦٥ هـ، وله من العمر ست وأربعون سنة بعد أن تولى خلافة المغرب وشمالى إفريقية، ومالطة، وسردينية، وصقلية، وأكثر جزائر البحر الأبيض، ثلاثًا وعشرين سنة، ثم ضمت إليه خلافة مصر والشام والحجاز سبع سنوات أخرى.

وتولى الخلافة بعد المعز بعهد منه ابنه العزيز بالله[2] وهو المولود بالمهدية، من القيروان، فى يوم عاشوراء عام ٣٤٤هـ (وفى رواية عام ٣٥٤هـ)، وتولى حكم البلاد فى شهر ربيع الآخر عام ٣٦٥هـ[3]، وله من العمر ما يناهز اثنتين وعشرين سنة، وخطب له على منابر مصر والشام والحجاز واليمن، وقد تزوج العزيز بالله من امرأة نصرانية رومية من الطائفة الملكانية، وأنجبت له ابنه الحاكم، وابنته ست الملك.

قال عنها جورجى زيدان: كان يحبها كثيرًا، فاكتسبت نفوذًا عليه، فكان يراعى أبناء طائفتها، ويرفق بهم إكرامًا لها، حتى إنه اتخذ طبيبه الخاص منهم، اسمه منصور بن مقشر[4].

وقال الدكتور حسن إبراهيم: كان لهذه السيدة نفوذ كبير فى الدولة، حتى إن العزيز بالله عين أخويها بطركين ملكيين، أحدهما فى الإسكندرية، والآخر فى بيت المقدس[5].

وحدد آدم ميتز اسم هذين الأخوين، وقال: هما أرستس، خال السيدة ابنة العزيز بالله (ست الملك)، وقد صيره بطريركًا على بيت المقدس، وأرمانيوس وقد صيره مطرانًا على القاهرة ومصر[6].

---

(١) قال د. حسين مؤنس فى أطلس الإسلام : توفى فى الخامس من ربيع الآخر عام ٣٦٥ هـ نوفمبر عام ٩٧٥م.

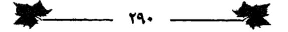
(٢) اسمه نزار.

(٣) قال ابن خلدون فى تاريخه ١٧/٨ : وكتم العزيز موت أبيه إلى عيد النحر من السنة فصلى بالناس.

(٤) تاريخ مصر الحديث ٢٠٢/١.

(٥) تاريخ الإسلام السياسى ١٤٨/٢ .

(٦) الحضارة الإسلامية ١١٣/١ .



وقال السيوطى عن والد ست الملك: من غرائب العزيز أنه استوزر رجلاً نصرانيًا يقال له «عيسى بن نسطوروس» وآخر يهوديًا اسمه «ميشا»، فعز بسببهما اليهود والنصارى[1].

صحيح أن العزيز قد بالغ فى استخدام أبناء الديانات الأخرى لكنه لم يكن وحده الذى مضى فى هذا الاتجاه، فقد سبقه المعز لدين الله إلى استخدام ابن كلس، وقد كان يهوديًا وأسلم، بل إن خلفاء العباسيين والأمويين بالأندلس كان من سياساتهم استخدام بعض النصارى واليهود فى مناصب الوزراء والمستشارين، فقد كان العزيز يمضى على سنة من قبله ليضمن ولاء كل الرعية لملكه وسلطانه.

ومن الطرف التى رويت عن العزيز أنه هو الذى ابتدع الفطرة، وهى الحلوى والعجائن فى أول شوال، وجعل لها دارًا سميت دار الفطرة، قرر فيها ما يعمل ويحمل للناس فى العيد، من سكر وعسل ودقيق وزعفران وغيره، وقد فصل المقريزى ما يتصل بهذه الدار وما ينفق عليها. ومازال الناس ـ وخاصة فى مصر ـ يلتزمون بها فى العيد.

وهذا يذكرنا بالاحتفالات العديدة التى اهتم بها الفاطميون، فقد حرصوا على أن يشغلوا الناس بمبتدعاتهم فى المناسبات والأعياد[2]، حتى يلهوهم عن التفكير فى السياسة ومشكلاتها، ويُشغلوا بالاحتفالات والأسمطة والمأكل والمشرب.

فهناك عيد رأس السنة الهجرية، ومولد النبى ﷺ ومولد على بن أبى طالب، ومولد الحسن، ومولد الحسين، ومولد فاطمة الزهراء، ومولد الخليفة الجالس على العرش، وليلة أول رجب، وليلة نصفه، وليلة النصف من شعبان، وليلة رمضان، وليلة الختم، وموسم عيد الفطر، وموسم النحر، وعيد الغدير[3]، وكسوة الشتاء، وكسوة الصيف، وموسم فتح الخليج[4] ويوم النوروز[5]، ويوم الغطاس[6]، ويوم

(١) حسن المحاضرة ١٥٠.

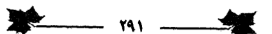
(٢) عدد صاحب (تاريخ الإسلام السياسى ٤/٦٤٤) واحدًا وعشرين عيدًا يحتفل بها الفاطميون.

(٣) هو يوم الثامن عشر من ذى الحجة، والغدير: مكان بين مكة والمدينة ويقال: إن النبى ﷺ قال فى هذا المكان بعد حجة الوداع: «علىٌّ منى كهارون من موسى».

(٤) منتصف أغسطس (آب).

(٥) هو شم النسيم أول الربيع : وهو أول يوم من توت كما قال القلقشندى فى (صبح الأعشى ٣/٢٩٠).

(٦) يوم ١١ طوبة عيد للنصارى.



الميلاد[١]، وخميس العهد[٢]، وأيام الركوبات، يقول عنها المقريزى: يوم يركب الخليفة إلى متنزهاته فى البساتين وقبة الهواء والروضة، وذلك كل يوم سبت وثلاثاء، فيعم الناس فى هذه الأيام الصدقات، ما بين ذهب، ومآكل وأشربة، وحلوات، وغير ذلك[٣].

وقد فصل المقريزى فى تصوير دقيق هذه الأعياد، وما كان يحدث فيها.

أمّا ما ابتدعه العزيز بالله غير الفطرة فهو الاحتفال بيوم عاشوراء[٤]، وقد اتخذه يوم حزن، تتعطل فيه الأسواق، ويمد فيه سماط الحزن[٥]، ويبكى الناس فيه على الحسين، ويكسرون أوانى السقائين فى الأسواق، ويشقون الرايات، وينوحون حتى وقت العصر، وقد بقيت هذه السنة طوال حكم الفاطميين بعد العزيز، حتى أبطلها صلاح الدين عند قدومه إلى مصر.

ومع هذه الاحتفالات والمواسم والأعياد لم يكن الشعب المصرى راضيًا عن هذه الخلافة.

يقول الدكتور حسين مؤنس: إن الشعب المصرى لم يعترف فى قرارة نفسه بتلك الخلافة، لأنها كانت شيعية[٦]، إسماعيلية فى حين أن الغالبية من أهل مصر كانوا أهل سنة وجماعة[٧].

وقبل أن نترك العزيز والد ست الملك ـ نشير إلى أنه يوشك أن يكون سياسيًا علمانيًا بالمصطلح الحديث، فقد استعمل ثلاثة وزراء، اثنين يهوديين، هما: يعقوب بن كلس، وأبو سعيد النسرى، وفى بعض المراجع (ميشا)، وأما الثالث فنصرانى، هو: عيسى بن نسطورس.

وقد مرض العزيز بالحصوة، وتوفى فى الثامن والعشرين من رمضان عام ٣٨٦هـ (الموافق عام ٩٩٦م) عن اثنتين وأربعين سنة، وتولى الخلافة مكانه ابنه الحاكم بأمر الله.

---

(١) أول يناير ، وهو يوم ميلاد السيد المسيح عليه السلام.

(٢) هو خميس العهد من أعياد النصارى، قبل عيد الفصح بيومين، يطلق عليه العامة: خميس العدس.

(٣) خطط المقريزى ١/٤٩٥ .

(٤) يوم العاشر من محرم ذكرى معركة كربلاء، يوم استشهاد الحسين بن على.

(٥) قال المقريزى : ألف زبدية من العدس والملوحات والمخللات والألبان والخبز المغير لونه بالقصد.

(٦) جاء فى كتاب تاريخ الإسلام السياسى ٥٩/٤ : تأثر المذهب الشيعى بما طرأ عليه من تغيرات عظيمة، وذلك راجع إلى تأثر بعض الشيعيين بالفلسفة الإغريقية، وأخذهم ببعض العقائد المبنية على الرجعة والتناسخ، ومن ثم أصبح المذهب فى عهد الفاطميين خليطًا من الدين والفلسفة.

(٧) أطلس الإسلام ٣٠٨ .

شخصية الأحداث

هى الأميرة ست الملك بنت العزيز بالله، حفيدة المعز لدين الله، والأخت الكبرى للحاكم بأمر الله، أمهما جارية رومية نصرانية اسمها تغريد.

ويلاحظ أن البيت الفاطمى آنذاك كان يضم عدة نساء، تبدأ أسماؤهن بكلمة «ست» أو «سيدة».

الأولى: سيدة الملك بنت المنصور إسماعيل، أخت المعز لدين الله، وجدة ست الملك.

قال عنها ابن إياس: توفيت سيدة الملك عام ٣٨٠ هـ، وهى أخت المعز، والد العزيز، ووجد لها من الذهب العين ثلثمائة صندوق، ومن الجواهر اليواقيت خمس ويبات[١]، ووجد عندها مدهن[٢] من الياقوت الأحمر، وزنه سبعة وعشرون مثقالاً. ووجد لها: ثلاثون ألف شقة حرير ملون، ومع وجود هذه السعة كانت أزهد الناس فى الدنيا، لا تأكل إلا من ثمن غزل يديها دائمًا، حتى ماتت[٣].

وزاد الدكتور التازى فى سيرتها قوله: كانت من الفتيات الثريات.. وتركت ما لا يحصى، من ذلك أنه ختم على موجودها بأربعين رطلاً من الشمع المصرى[٤].

الثانية: ست مصر، بنت الحاكم بأمر الله، التى ماتت فى أوائل جمادى الآخرة عام ٤٥٥هـ.

يقول صاحب كتاب «الذخائر والتحف»: خلفت السيدة ست مصر بنت الحاكم مالا يحصى كثرة، وكان إقطاعها فى كل سنة يغل خمسين ألف دينار، ووجد لها ثمانية آلاف جارية، وكانت سمحة نبيلة، كريمة الأخلاق والعقل، وكان من جملة موجودها نيف وثلاثون زيرًا صينيًا مملوءًا جميعها مِسْكًا مسحوقًا، ووجد لها جوهر نفيس من جملته قطعة ياقوت فيها عشرة مثاقيل[٥].

---

(١) الويبة: كيلتان، والإردب: اثنتا عشرة كيلة.

(٢) المدهن: قارورة يجعل فيها الدهن (المعجم الوسيط).

(٣) بدائع الزهور ١/١٩٦.

(٤) المرأة فى تاريخ المغرب الإسلامى ٧٧.

(٥) الذخائر والتحف ٢٤٠.



الثالثة: بطلة قصتنا (ست الملك).

الرابعة: سيدة القصور، عمة الخليفة العاضد[1]، آخر خلفاء الفاطميين فى مصر. كان لها عقل مفكر، ويد باطشة، لم تتزوج، وإنما تفرغت للوقوف إلى جوار ابن أخيها العاضد، فى نهاية دولتهم، وقد قصت شعرها، وألزمت جميع نساء القصر بقص شعورهن، وجمعت ذلك كله، وأرسلته إلى نور الدين زنكى السنّى والى الشام، تستغيث به، وتستصرخه لإنقاذ مصر من براثن الفرنجة، والوزير شاور الخائن، الذى فتح للفرنجة الباب، وأحرق الفسطاط، فكان ما كان بعد ذلك من دخول جيش نور الدين مصر، بقيادة أسد الدين شيركوه، وابن أخيه صلاح الدين الأيوبى.

وقد تجرعت سيدة القصور السم فى ١٢ رمضان عام ٥٦٩هـ حزنًا على ذهاب دولتهم.

* * *

(١) هو عبد الله بن يوسف بن الحافظ بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم، بويع له عام ٥٥٥ هـ، وتوفى بعد دخول صلاح الدين مصر عام ٥٦٧هـ.



مولد ست الملك أخت الحاكم

ولدت ست الملك[1] في بلدة «المنصورية»[2]، بجوار القيروان عام ٣٥٨هـ في خلافة جدها المعز لدين الله، رابع خلفاء بني عبيد في المغرب، وأول خلفاء الفاطميين في مصر، ولم تمض سنتان من مولدها حتى انتقل ركب الخلافة من عاصمة ملكهم الأول (المهدية)[3] إلى القاهرة فشبت وترعرعت في ربوع مصر، تنتقل بين قصور جدها المعز، وأبيها العزيز، الذي تولى الخلافة بعد وفاة المعز عام ٣٦٥هـ.

وفي خلافة العزيز بالله، وفي السادس والعشرين من ربيع عام ٣٧٥ هـ ولد في القاهرة أخوها الوحيد: المنصور، الذي صار فيما بعد خليفة، ولقب بالحاكم بأمر الله.

ولم يكن لست الملك وجود سياسي في الخلافة الفاطمية، في عهد أبيها العزيز بالله، ولكن ظهر أثرها في حياة أخيها المنصور الحاكم، الذي ولي الخلافة بعهد من أبيه[4].

كان الحاكم حين تولى الخلافة صبيًا، في سن الحادية عشرة، ولذلك كان مدبر أمره أستاذه برجوان[5] الذي عينه وزيرا ومستشارًا له.

أما أخته الكبرى ـ ست الملك ـ والتي تكبره بستة عشر عامًا فقد بدأ دورها إلى جوار أخيها، دعمًا لسلطته، وترشيدًا لمسيرته في الداخل والخارج.

وقد كان تحت سيطرة الحاكم ذي الأحد عشر عامًا ـ كل من مصر، والمغرب، والشام، والحجاز، واليمن، وكانت حال هذه البلاد مستقرة، إلا شمالي إفريقية، إذ نجد المغرب وقد انفصل عن الفاطميين، أما بنو زيري في تونس فقد آثروا المهادنة.

---

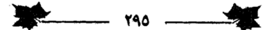
(١) سماها ابن إياس، وأبو الفدا في تاريخهما ست النصر، ولم يكن للحاكم أخت سواها.

(٢) بالقرب من رقادة. عاصمة الأغالبة في تونس، بناها أبو المعز المنصور بن القائم بن عبيد الله المهدي.

(٣) بناها عبيد الله المهدي ٣٠٤ هـ بالقرب من قرطاجنة بتونس وقال: بنيتها لتعتصم بها الفواطم ساعة من نهار.

(٤) تولى الحاكم في ٢٩ رمضان عام ٣٨٦هـ.

(٥) غضب عليه الحاكم وقتله في ربيع الثاني عام ٣٩٠هـ وذلك بتدبير من وزيره الآخر ريدان الصقلي الذي قتله الحاكم هو أيضًا بعد ذلك.



ويروى عبدالهادى التازى قصة تبين مدى العلاقات بينهم وبين دولة الفاطميين - قال: أرسل باديس[1] ثالث خلفاء بنى زيرى عام ٤٠٥ هـ (الموافق عام ١٠٤٥م) . سفارة إلى الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى بمصر، مع هدايا ثمينة، تشمل مائة فرس من الجياد، بسروج مرصعة بأنواع اليواقيت، وأردفتها أم ملاك بنت منصور الصنهاجى بهدايا نفيسة إلى الأميرة ست الملك أخت الحاكم، ومن بينها ثمانية عشر وقرا من الحرير الخالص والسمور، والمنسوجات الرفيعة المزركشة بالذهب الإبرين، صنع مدينة سوسة، ومنها عشرون فتاة من الجوارى الحسان، وعشرة أعلاج من الصقالبة، وغير ذلك فبعثت لها ست الملك كتابًا تثبت فيه المودة بينهما ووصلتها بهدية فائضة[2].

وقد رأينا هنا أن الهدية تُهْدَى لِستِّ الملك، وليس لزوج الحاكم أو لأمه. إن دور ست الملك كان كبيرًا، وأخذ هذا الدور يتعاظم بمرور السنين، لا سيما أنها كانت متفرغة لمعاونة أخيها، لا يشغلها زوج ولا أولاد، وهذا الدور هو الذى سنركز عليه فى سيرتها العجيبة التى لم تكن لامرأة قط فى تاريخ الدولة الإسلامية.

إن تاريخ ست الملك يشير إلى حدوث تقلبات خطيرة فى سلوكياتها الحاكمة، ما بين مرحلة وأخرى، ويبدو لنا ارتباط هذه التقلبات بسلوكيات أخيها الحاكم بأمر الله، وقد كانت له هو الآخر تقلباته العقلية والسلوكية، ولا يبعد أن تكون اضطرابًا عقليًا كان يصيبه من آن لآخر، ولنرسم للقارئ صورة الحاكم كما روتها كتب التاريخ.

تولى الحاكم الخلافة يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من رمضان عام ٣٨٦ هـ (الموافق يومًا من أيام أكتوبر عام ٩٩٦م).

وكانت خلافته - كما قال العلامة ابن قزاوغلى - متضادة بين شجاعة وإقدام، وجبن وإحجام، ومحبة للعلم، وانتقام من العلماء، وميل إلى الصلاح، وقتل الصلحاء، وكان الغالب عليه السخاء.

---

(١) هو باديس بن منصور الصنهاجى ، تولى عام ٣٨٦ هـ وتوفى عام ٤٠٨هـ.
(٢) المرأة فى تاريخ المغرب الإسلامى ١٧٣.

وربما بخل بما لم يبخل به أحد قط، وأقام يلبس الصوف سبع سنين، وامتنع عن دخول الحمام، وأقام سنين يجلس فى الشمع ليلاً ونهارًا، ثم عنّ له أن يجلس فى الظلمة، فجلس فيها مدة، وقتل من العلماء والكتاب والأماثل ما لا يحصى[1].

وقال عنه ابن العماد: كان الحاكم شيطانًا مريدًا، خبيث النفس، متلون الاعتقاد، سمحًا جوادًا، سفاكًا للدماء[2].

وقال عنه الشيخ الشرقاوى: كان الحاكم جبارًا عنيدًا، شيطانًا مريدًا، كثير التلون فى أقواله وأفعاله، وله أحكام مشهورة يمجها صاحب العقل السليم، والطبع المستقيم، وقبائح ينكرها العرف والشرع القويم[3].

وقال عنه أمير الشعراء أحمد شوقى:

حكم الحاكم مصرًا ويحها

لقيَت من حكمه جهذا ويلا

وقال أيضًا:

أتعبها مختلط مختبل

يهدم إن ثار ويبنى إن هدم[4]

كانت سيرة الحاكم من أعجب السير فى تاريخ الملوك؛ فكل يوم له حال، وكل وقت له وضع.

فمثلا فى عام ٣٩٣هـ - على أغلب الأقوال - أمر بكتابة سب الصحابة: أبى بكر، وعمر، وعثمان، على جدران المساجد، وفى الشوارع، وبعث بهذا الأمر إلى جميع العمال فى البلاد المصرية والشامية، ومن لم يفعل ذلك يقتل.

وبعد أربع سنوات (أى عام ٣٩٧هـ) أمر بقطع هذا العمل، والنهى عن فعله، ومن يسب الصحابة أو يذكرهم بسوء يؤدب بالضرب والإشهار، ثم القتل.

---

(١) النجوم الزاهرة ١٧٦/٤.
(٢) شذرات الذهب ١٩٣/٣ .
(٣) تحفة الناظرين ١٠٦ .
(٤) دول العرب ١٠٨ .



ومن تناقضاته قول ابن كثير: أمر فى وقت لأهل الكتابين ـ الإنجيل والتوراة ـ بالدخول فى دين الإسلام كرهًا، ثم أذن لهم فى العود إلى دينهم، وخرب كنائسهم ثم عمرها، وخرب كنيسة القيامة[1] ثم أعادها، وابتنى المدارس، وجعل فيها الفقهاء والمشايخ، ثم قتلهم وخربها، وألزم الناس بغلق الأسواق نهارًا، وفتحها ليلاً، فامتثلوا لذلك دهرًا طويلاً، ثم أعاد الناس لأمرهم الأول .. ومن وجده فى السوق يغش فى معيشة أمر عبدًا أسود معه ـ يقال له: مسعود ـ أن يفعل به الفاحشة العظمى[2].

لم تكن أفعال الحاكم مقصورة على مسلمى البلاد ـ كما نرى، وإنما تعداهم إلى النصارى واليهود.

يقول نعوم شقير: إنه فى نحو عام ١٠٠٨م[3] ـ قام على مصر حاكم ظالم غشوم يدعى الحاكم، فأمر بهدم جميع الأديرة فى مصر وفلسطين، حتى كان ما هدم فى فلسطين وحدها نحوًا من أربعمائة دير[4].

وقد فصل الشابشتى الأديرة والكنائس التى هدمها الحاكم، فمثلا قال: أحرق الحاكم دير ناهيا[5] إلى أن وصل به إلى الأرض، وقال فى موضع آخر: ولما تتبع الحاكم معابد النصارى بالتقويض والتدمير لم ينج دير مارى حنا[6] من النهب والخراب.

وقال عن دير القصير[7]: ورسم الحاكم يوم الثلاثاء ٢ من رمضان عام ٤٠٠ هـ بهدم دير القصير، وهو دير الملكية فى الجبل المقطم بمصر، وكان أرثانيوس بطريرك الإسكندرية يومئذ مقيمًا فيه متعبدًا، فأخرج عنه مع من كان يسكنه من الرهبان[8].

---

(١) كنيسة القيامة فى القدس، واسمها القمامة، بنتها القديسة هيلانة أم قسطنطين عام ٣٢٨م فى ١٢ سبتمبر، ووضعت فيها الصليب بعد أن نقشت على خشبته بالذهب والآلئ، ومازال النصارى يحتفلون بهذا اليوم فى ١٧ توت – سبتمبر، وسموه عيد الصليب.

(٢) البداية والنهاية ١٢/٤٠٩ .

(٣) هو عام ٣٩٩ هـ.

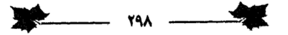
(٤) تاريخ سيناء ٥١٠ .

(٥) قرية فى شمال محافظة الجيزة الآن. وفى هذا الدير عاش جده المعز سبعة أشهر عند مجيئه مصر.

(٦) يعرف بدير الطين، بعين الصيرة شرقى مصر القديمة . قال الشابشتى فى الديارات ٢٨٩ : دير مارى حنا على شاطئ بركة الحبش ، وهى أرض وهدة واسعة طولها نحو ميل (١٦٠٠ متر) مشرفة على نيل مصر، خلف القرافة ، وهى من أجل متنزهات مصر، وعندها بساتين.

(٧) أعلى جبل المقطم ، مطل على القرية (طرة) والصحراء والبحر (النيل).

(٨) الديارات ٤٠٢ – ٤٠٥ .



وكان الحاكم مغرمًا بالنجوم، حتى إنه اتخذ لنفسه مكانًا للرصد[١]، لا يدخله إلا هو، ومكانه جنوبى الفسطاط، يطلق عليه الآن إسطبل عنتر.

وفى نفس الوقت نهى عن استطلاع النجوم، ونفى المنجمين.

ونهى الحاكم عن أكل بعض الأطعمة والأشربة، مثل الملوخية والفقاع[٢] والسمك ذى القشور والجرجير، والعسل والزيت والعنب والخمور، فأباد كثيرًا من الكروم، وأمر بقطعها، وداستها الحيوانات وجمع جرار العسل، وحملت إلى شاطئ النيل وقلبت فيه، والويل لمن يعترض.

قال ابن خلكان: وأمر بالتشديد فى ذلك، والمبالغة فى تأديب من يتعرض لشيء منه، فظهر على جماعة أنهم باعوا أشياء منها، فضُربوا بالسياط وطيف بهم، ثم ضربت أعناقهم[٣].

ومن بلاياه أيضًا ما ذكره ابن الأثير قال: فى عام ٣٩٩ هـ أمر الحاكم بترك صلاة التراويح، فاجتمع الناس بالجامع العتيق - جامع عمرو - وصلى بهم إمام جميع رمضان، فأخذه وقتله، ولم يصل أحد التراويح إلي عام ٤٠٨هـ، فرجع عن ذلك وأمر بإقامتها على العادة[٤].

ومن سوءاته التى سجلها عليه التاريخ، وفضحه بها المؤرخون ما فعله فى مصر والقاهرة من حريق وتخريب، والمقصود بمصر: الفسطاط والقطائع والعسكر، وهى العواصم الثلاث قبل القاهرة.

وبين ابن إياس سبب هذا الحريق المتعمد قال: إن بعض العلماء أثبت لهؤلاء الفاطميين نسبًا فاسدًا بأنهم من ولد فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وهذا النسب ليس بصحيح، وإنما هم من ولد ديصان بن سعيد، وكان أصله مجوسيًا.. فكان الحاكم يذكر نسبه فى كل جمعة على المنبر، ويقول: نحن أفضل من خلفاء بنى العباس؛ لأننا من ولد فاطمة بنت رسول الله .. فدفعت إليه رقعة فيها هذه الأبيات:

---

(١) بنى الأفضل الجمالى فى مكان مرصد الحاكم مسجدًا بعد ذلك ، ثم جاء محمد على باشا فى القرن التاسع عشر الميلادى، وبنى مكانه قلعة.

(٢) الفقاع : شراب يتخذ من الشعير.

(٣) وفيات الأعيان ٥/٢٩٣.

(٤) الكامل لابن الأثير ٨/١٢٨.



إنا سمعنا نسبًا منكرًا
يُتلى على المنبر فى الجامعِ

إن كنت فيما قلته صادقًا
فانسب لنا نفسَك كالطائعِ[1]

....

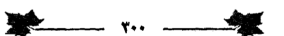
فإن أنسابَ بنى هاشم
يقصر عنها طمعُ الطامعِ

يقول ابن إياس: فلما قرأ تلك الرقعة غضب على أهل مصر، وأمر العبيد بأن يحرقوا المدينة جميعها، فأطلقوا فيها النيران، ونهبوا بيوت الناس، وأخذوا أموالهم، وسبوا النساء، واستمر هذا الأمر الشنيع بمصر والقاهرة ثلاثة أيام، فضج الناس إليه، واستعانوا به، فعفا عنهم بعدما احترق من المدينة نحو ثلثها، ونهبت الأموال، وسبيت النساء، وقتل من الناس ما لا يُحْصَى[2].

وهذه الحادثة المروعة ذاتها يرويها مؤرخ معاصر للحاكم، هو أبو الحسن بن إبراهيم الصابئ[3] المؤرخ الكاتب، قال: كان الحاكم يواصل الركوب ليلاً ونهارًا.. وكان المصريون يدسون إليه الرقاع المختومة بالدعاء عليه، والسب له ولأسلافه، حتى انتهى فعلهم إلى عمل تمثال امرأة من قراطيس بخف وإزار، ونصبوها فى بعض الطرق، وتركوا فى يدها رقعة كأنها ظلامة، فتقدم الحاكم، وأخذها من يدها، فلما فتحها رأى أولها فاستعظمه، لما كان بها من الفحش والبذاءة والسخرية منه، فجمع القواد والعرفاء، وأمرهم بالمسير إلى مصر، وضربها بالنار، ونهبها وقتل من ظفروا به من أهلها .. فتوجه إليها العبيد والروم، والمغاربة وجميع العساكر وأوقعوا النار فى أطراف المدينة[4].

وقد أفاض ابن الصابئ فى هذه القصة، وبين مدى شذوذ شخصية هذا الحاكم، مع ما يذكر له أحيانًا من تظاهر بالصلاح وحب التقوى.

(١) الطائع هو الخليفة العباسى فى بغداد، تولى عام ٣٦٣ هـ وتوفى فى شوال عام ٣٩٣هـ.
(٢) بدائع الزهور ٢٠٨/١.
(٣) ولد عام ٣٥٩هـ، وتوفى عام ٤٤٨ هـ له عدة مؤلفات فى التاريخ وفى الأدب.
(٤) النجوم الزاهرة ١٨٢/٤.



فبين عامى ٣٩٨ هـ و ٤٠١ هـ أصدر بعض القوانين التى تحرم اجتماعات اللهو والطرب على شواطىء خليج القاهرة.

قال الأستاذ د. حسن إبراهيم: وقد تلت هذه القوانين قوانين أخرى يمنع بعضها سماع الموسيقا، والاستمتاع بالألعاب وما إليها، وسماع المغنيات[١].

وكان له فى بعض السنوات اهتمام بالمساجد والجوامع، وقال المقريزى: أحصى الحاكم المساجد التى لا غلة لها فكانت ثمانمائة مسجد، فأطلق لها فى كل شهر من بيت المال (٩٢٢٠) درهما، وفى عام ٤٠٥ هـ حبس الحاكم سبع ضياع، منها إطفيح[٢]، وطوخ[٣]، على القراء والمؤذنين بالجوامع .. وفى ثمن الأكفان[٤].

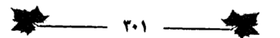
وقال ابن خلكان: هو الذى بنى الجامع الكبير بالقاهرة، وجامع راشدة بظاهر مصر، وأنشأ عدة مساجد بالقرافة وغيرها، وحمل إلى الجوامع من المصاحف، والآلات الفضية والستور والحصر ماله قيمة طائلة[٥].

غير أن أبشع ما جاء به الحاكم هو ادعاؤه الألوهية، قال ابن إياس: فى عام ٤٠٠ هـ تزايد طغيانه حتى ادعى الربوبية، من دون الله تعالى، كما فعل فرعون، فكان يحسّن لجماعة من عوام مصر الجهلة ـ إذا مر فى الطرقات ـ أن يسجدوا له، ويقولوا: يا محيى يا مميت[٦] .. ومن لم يفعل ذلك ضرب عنقه[٧].

وقال الشيخ شمس الدين فى تاريخه (مرآة الزمان): رأيت فى بعض التواريخ بمصر: أن رجلاً يعرف بالدرزى[٨] قدم مصر، وكان من الباطنية القائلين بالتناسخ، فاجتمع بالحاكم، وساعده على ادعاء الربوبية، وصنّف له كتابًا ذكر

---

(١) تاريخ الإسلام ٤/٦٣٣ .
(٢) قرية بمحافظة الجيزة.
(٣) بلدة كبيرة بمحافظة القليوبية.
(٤) الخطط ٣/٣٢٥ .
(٥) وفيات الأعيان ٥/٢٩٦.
(٦) وجاء فى حوليات الإسلام ص ٤٢٠ : كان إذا ذكر اسمه فى الحرمين وقف الناس تعظيمًا له أما فى مصر فكان إذا ذكر اسمه قاموا وسجدوا فى السوق وغيره.
(٧) بدائع الزهور ١/٢٠٩.
(٨) الدرزى هو : محمد بن إسماعيل ، داع أعجمى، جاء بعده حمزة بن على الذى ألّه الحاكم عام ٤٠٨هـ وجعل الدروز هذه السنة بعد ذلك تقويمًا يؤرخون به.



فيه أن روح آدم عليه السلام انتقلت إلى على بن أبى طالب، وأن روح علىّ انتقلت إلى أبى الحاكم، ثم انتقلت إلى الحاكم، وكان الوزراء، والقواد والعلماء يقفون على بابه، ولا ينقضى لهم شغل إلا على يده .. وثار الناس عليه وقصدوا قتله فهرب منهم، وأنكر الحاكم أمره خوفًا من الرعية، وبعث إليه فى السر مالاً وقال: اخرج إلى الشام، وانشر الدعوة فى الجبال فإن أهلها سريعو الانقياد، فخرج إلى الشام، ونزل بوادى تيم الله بن ثعلبة، غربى دمشق، من أعمال بانياس، فقرأ الكتاب على أهله، واستمالهم إلى الحاكم، وأعطاهم المال، وقرر فى نفوسهم التناسخ، وأباح لهم شرب الخمر، والزنا، وأخذ مال من خالفهم فى عقائدهم، وإباحة دمه، وأقام عندهم يبيح لهم المحظورات إلى أن مات بينهم[1].

وقد توفى هذا الدرزى عام ٤١١هـ، وإليه تنسب الطائفة الدرزية بالشام ولبنان.

يقول د. حسن إبراهيم: الدروز من غلاة الإسماعيلية، الذين ألهوا الحاكم وخرجوا بذلك على الإسماعيلية[2].

وما أشبه هذا الدور الذى قام به الدرزى بالدور الذى حاول أن يقوم به عبدالله ابن سبأ مع الإمام على بن أبى طالب، فقد حاول أن ينشر دعواه بألوهية على، وهو عنصر من عناصر الفتنة الكبرى، غير أن عليًا كان صحابيًا، من أئمة التوحيد، فلم يغره ما قاله ذلك الأفاك اليهودى، وأدرك أنه يتآمر على الإسلام، فأنزل به أشد العقاب، وبذلك انطفأت فتنة تأليه علىٍّ، وإن استمرت محاولة اليهود تمزيق المجتمع الإسلامى.

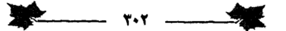
أما الدرزى فقد وجد من الحاكم أذنًا صاغية، كما وجد فيه الحاكم أداة مؤثرة لفرض طغيانه، ونشر ادعائه الألوهية، ولا يبعد أن يكون هذا الدرزى من نسل عبدالله بن سبأ، قام بما عجز عنه جده، طبقًا لأفكار الباطنية التى نبتت فى العقل اليهودى، واستكنت فى تربة المجتمع، حتى بزغت فكرة شيطانية، مازالت آثارها باقية حتى الآن.

أمًا جورجى زيدان فقد اعتبر شذوذ الحاكم سببه دين جديد دان به، قال: وظهر متمذهب يدعى ضرارًا، وتبعه جماعة عرفوا بالضرارية، وسن هؤلاء شرائع كثيرة،

---

(١) النجوم الزاهرة ٤/١٨٤.

(٢) تاريخ الإسلام ٤/٢٥٩.



وتعاليم مختلفة، منها: تعظيم الجمعة، والاحتفال بالأعياد، والتعويض عن الحج بمكة بزيارة مقام طالب في اليمن، ومن شرائعهم أنهم أباحوا الزيجة بين الأخ وأخته، والأب وبناته، والأم وأبنائها، وجاءوا بأمور كثيرة تناقض وتخالف ما جاء في القرآن، فارتاح الحاكم لهذه الديانة الجديدة، وافتتن بها، ونسي ديانة أبيه وجده، وبعد أن كان أشد نصير للديانة الإسلامية نادى جهارًا بمقاومتها، وادعى بالسوء على الصحابة[1].

ولم تنج النساء من هذه الأفعال الشاذة فقد منعهن من الظهور، وحبسهن في بيوتهن، لا يخرجن إلا محمولات إلى القبور.

قال ابن كثير: في أول عام ٤٠٥هـ منع الحاكم صاحب مصر النساء من الخروج من منازلهن، أو أن يطلعن من الأسطحة، أو من الطاقات، ومنع الخفافين من عمل الخفاف لهن، ومنعهن من الخروج إلى الحمامات، وقتل خلقًا من النساء على مخالفته في ذلك، وهدم بعض الحمامات عليهن[2].

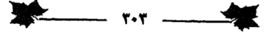
وحتى لا تحتج النسوة بطلب البيع والشراء في الأسواق أمر بعض الرجال أن يحملوا ما يباع في الأسواق إلى الحارات والدروب، ويبيعوه للنساء، على أن يكون معهم شيء شبه المغرفة بساعدٍ طويل يمده البائع إلى المرأة وهي وراء الباب، وفيه ما تشتريه، فإذا رضيت وضعت الثمن في المغرفة وأخذت ما فيها لئلا يراها ـ كما قال ابن الأثير[3].

وقد أصدر الحاكم بعض الأوامر على النساء قبل حبسهن، ذكرها آدم متز، قال: حظر الحاكم عام ٣٩٤هـ على النساء كشف وجوههن، وراء الجنائز، والبكاء والعويل، وخروج النائحات بالطبل والزمر على الميت[4].

وقد بقيت النساء في حبس الحاكم لمدة سبع سنين، بقية أيام خلافته، ولما قتل وتولى ابنه الظاهر الخلافة، آخر عام ٤١١ هـ أبطل هذه البدعة.

---

(١) تاريخ مصر الحديث ٢٠٧/١ .
(٢) البداية والنهاية ٣٥٢/١٢.
(٣) الكامل ١٣٠/٨.
(٤) الحضارة الإسلامية ٢٣٣/٢.



وآخر ما ذكر عن ذلك المجنون أنه حاول نقل الجسد النبوى الشريف إلى مصر ليلاً عام ٣٩٠ هـ، فهاجت بهم ريح أظلم منها الجو، وكادت تقلع المبانى من أصلها، فردهم أمير مكة، أبو الفتوح السليمانى عن ذلك[١].

هذا الذى ذكرناه عن تناقضات الحاكم وجنونه ـ قليل من كثير سجلته كتب التاريخ، وهى أمور لا يكاد العقل يصدقها، وإن أكدها إجماع المؤرخين.

وهذا آدم ميتز قد يرجع ذلك إلى جنونه قال: شخَّص يحيى بن سعيد ـ الطبيب ـ مرض الحاكم بأنه صنف من سوء المزاج اليابس الممرض فى دماغه أحدث له ضربًا من ضروب (الماليخوليا) وفساد الفكر فاحتاج فى مداواته منه إلى جلوسه فى دهن البنفسج وترطيبه به[٢].

والسؤال هو: ما هذا الذى جرى على أرض مصر؟ وأية قوة كانت تساعد هؤلاء الطغاة المجانين؟ حتى يستبدوا بالحكم على أرضها طوال هذى السنين؟.. الجواب فى رأينا: هو أن الكهنوت، أو بعبارة أخرى: استغلال الدين فى إخضاع الشعوب للطاغوت هو الذى جر إلى هذه النكبات العظام.

* * *

---

(١) مآثر الإنافة ١/٣٢٨.

(٢) الحضارة الإسلامية ١/٤٤.



دور ست الملك وراء الأحداث

وهنا سؤال يلح: عن دور المرأة وسط هذه الأحداث المدلهمة، وعن دور ست الملك بالذات، وهى التى عرفنا عنها من قبل ما كان لها من عقل رشيد.

هل كانت مشاركة لأخيها فى رسم هذه السياسة المجنونة؟ أم كانت رافضة لها، غير راضية عنها؟ مع أنها كانت المستشار الأول لأخيها الحاكم، وهى الأخت الكبرى، ولديها الحزم، والفضل، والتدبير، والسياسة، وإدارة الحكم.. وقد كان أخوها كلما ألمت به ملمة، أو واجهته معضلة أسرع إلى أخته يطلب منها العون، فيجد عندها الملجأ والملاذ، والحل الرشيد، والطريقة المثلى للخروج من أى مأزق أو إشكال!

ولكن تغير الحاكم إلى هذا الحد من الجنون، جعل أخته ست الملك تسرع إليه، تحاول إعادته إلى رشده، فتحت إمرته بلاد كثيرة، وحاولت معه بكل الطرق، تستعطفه مرة، وتهدده مرةً وتعاتبه آنًا، وتؤنبه آنًا آخر، حتى انتهى بها إلى اليأس من صلاح حاله، قال ابن الصابئ: إن الحاكم لما بدت عنه هذه الأمور الشنيعة استوحش الناس منه، وكانت له أخت يقال لها ست الملك، من أعقل النساء وأحزمهن، فكانت تنهاه وتقول: يا أخى احذر أن يكون خراب هذا البيت على يديك[1].

لقد كان ما يهم ست الملك هو ضياع الخلافة من بين العبيديِّين الفاطميين، نتيجة تصرفات هذا الحاكم الأخرق، حتى إنها ألحت عليه وكررت اللوم مرات ومرات، ولكنه لم يرجع عن غيه واتجه إليها واتهمها أشنع تهمة، وبعث إليها من يخبرها أن جواسيسه قد أعلموه بدخول الرجال عليها وخلوتهم بها.

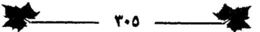
قال ابن خلدون: بلغه عن أخته أن الرجال يتناوبون بها فتوعدها[2].

وزاد فى الاتهام، بأن أرسل إليها القابلات ليتأكدن من خلو رحمها، مع تجاوز سنها الخمسين عامًا، فلم يحترم مكانتها ولا سنها.

(١) النجوم الزاهرة ٤/ ١٨٥.



(٢) تاريخ ابن خلدون ٤/١٢٨.



عندئذ أحست ست الملك بالمهانة، وبالخطر يحدق بها، ويكاد يمسها فيصيبها، وتأكدت من أن أخاها لن يتركها، وأخذت تفكر وتدبر أمرها مع نفسها، وأخيرًا استقرت على فكرة، وأحكمت فى تدبيرها، وهو أن تسبق بقتله قبل أن يقتلها فتستريح، وتريح الناس من شره.

* * *

ست الملك وقتل الحاكم

كان الحاكم قد اتهم أخته فى رجال كثر، ومن بينهم أحد رجال الدولة المقربين، وكان قد سماه لها، وهو سيف الدين بن دواس[1] وكان من كبار حاشية الحاكم، ثم ساءت العلاقة بينهما.

ذكر ابن تغرى بردى حوارًا دار بينه وبين الحاكم يبين مدى ما وصلت إليه علاقتهما من توتر، قال: استدعاه الحاكم مرة إلى قصره، فامتنع، فلما كان يوم الموكب[2] عاتبه الحاكم على تأخره، فقال له: قد خدمت أباك، ولى عليكم حقوق كثيرة، يجب لمثلها المراعاة، وقد قام فى نفسى أنك قاتلى، فأنا مجتهد فى دفعك بغاية جهدى وليس لك حاجة إلى حضورى فى قصرك، فإن كان باطن رأيك فى مثل ظاهرك فدعنى على حالى، فإنه لا ضرر عليك فى تأخرى عن حضور قصرك، وإن كنت تريد سوءًا ـ فلأن تقتلنى فى دارى بين أهلى وولدى يكفنوننى، ويتولوننى أحب إلى من أن تقتلنى فى قصرك، وتطرحنى تأكل الكلاب لحمى، فضحك الحاكم وأمسك عنه[3].

وسمعت ست الملك بما دار فى الموكب، ووجدت من تعتمد عليه فى تنفيذ خطتها للخلاص من الحاكم، وذكرت كُلُّ المراجع تفاصيل اللقاء بينها وبين ابن دواس، وقالوا إنها لمًا عرفته بشخصيتها فزع، وبالغ فى تعظيمها، مع أن الحاكم كانَ قد اتهمها بالعلاقة الآثمة، واللقاءات المتكررة بينهما.

ورسمت ست الملك الخطة، ولم يبق إلا التنفيذ، وذات ليلة ذهبت إلى ابن دواس متنكرة، ولما عرفها قام وقبل الأرض بين يديها، ووقف فى الخدمة، فأمرته بالجلوس، بعد أن أخلى المكان، وبدأت فى عرض الأمر عليه.

وذكر ابن تغرى بردى ما دار بينهما فى تلك الليلة من رسم للخطة، وطريقة تنفيذها، قال: قالت ست الملك: يا سيف الدولة، قد جئت فى أمر أحرس به نفسى

---

(١) جاء فى بعض المراجع أن اسمه سيف الدولة، واسمه حسين بن دواس الكتامى، من كبار رجال قبيلة كتامة، وكبار رجال ذلك العصر، خدم العزيز ثم الحاكم حتى غضب عليه.

(٢) يوم خروج الحاكم فى حاشية، وكان عادة يومى السبت والثلاثاء.

(٣) النجوم الزاهرة ١٨٦/٤.

ونفسك والمسلمين، ذلك فيه الحظ الأوفر، وأريد مساعدتك فيه .. فقال: أنا عبدك.. فاستحلفته واستوثقت منه وقالت: أنت تعلم ما يقصده أخي فيك، وأنه متى تمكن منك لم يبق عليك، وكذا أنا، ونحن على خطر عظيم، وقد انضاف إلى ذلك تظاهره بادعاء الألوهية، وأنا خائفة أن يثور المسلمون فيقتلوه ويقتلونا معه، وتنقضي هذه الدولة أقبح انقضاء.

فقال سيف الدولة: صدقت يا مولاتنا، فما الرأي؟ قالت: نقتله ونستريح منه، فإذا تم لنا ذلك أقمنا ولده[1] موضعه، وبذلنا الأموال، وكنت أنت صاحب جيشه ومدبره، وشيخ الدولة، والقائم بأمره، وأنا امرأة من وراء حجاب، وليس غرضي إلا السلامة منه، وأن أعيش بينكم آمنة من الفضيحة.. ووعدته بالأموال والخلع والمراكب[2].

وزادت رواية زينب فواز في إغراء ست الملك لابن دواس قالت: قالت ست الملك: وتكونُ أنتَ مدبرَ الدولة، وأزيد في إقطاعك مائة ألف دينار[3].

وبعد هذه الإغراءات والتلميحات والتصريحات بما سيكون عليه حال ابن دواس بعد مقتل الحاكم استعد لأوامرها وقال لها: مُرِي أمرَكِ.

لقد بلع الطعم واستعد لتنفيذ الأوامر، فحددت له يوم التنفيذ ليلة الإثنين، السابع والعشرين من شوال عام ٤١١ هـ[4]، وأمرته بأن يرسل لها عبدين يثق بهما، ويعتمد عليهما، لتشرح لهما خطة التنفيذ.

وكانت للحاكم عادة هي الخروج في أيامٍ معلومة إلى مرصده جنوبي جبل المقطم، قرب حلوان.

قال ابن خلدون: وكان الحاكم يركب الحمار، ويطوف بالليل، ويخلو بدار في جبل المقطم للعبادة، ويقال: لاستنزال روحانية الكواكب[5].

---

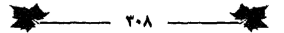
(١) تقصد: ولده عليًا، وكانت سنه ستة عشر عامًا، وكان الحاكم قد جعل ولاية العهد عام ٤٠٤هـ لابن عم له، اسمه عبدالرحيم بن إلياس، على غير رضا من ست الملك، وقد قتلته بعد قتلها للحاكم.

(٢) النجوم الزاهرة ١٨٧/٤.

(٣) الدر المنثور ٢٤٠.

(٤) الموافق أول فبراير عام ١٠٢١م.

(٥) تاريخ ابن خلدون ١٢٧/٨.



وكان من عادته الدخول في الشعب وحده، على أن ينتظره في الخارج المرافقان له: الركابي وصبيه.

ولم يهدأ ابن دواس حتى بعث بالعبدين إلى بيت ست الملك فاستحلفتهما أن يسمعا لها، ويكتما ما تمليه عليهما، ثم وهبت لهما ألف دينار وثيابًا وإقطاعات وخيلا، وأمرتهما أن يقتلا الحاكم ومن معه، ثم أعطتهما سكينين من عمل المغاربة، تسمى الواحدة منهما (يافورت)، لكل واحدة منهما رأس كرأس المبضع.

وجاءت ليلة الإثنين[1] وكان الحاكم على غير عادته، فقد قال لأمه كلامًا عجيبًا ذكره ابن تغرى بردى، قال: قال الحاكم: عليَّ في هذه الليلة وفي غدٍ قطع عظيم، والدليل عليه علامة تظهر في السماء ـ طلوع نجم سماه ـ وكأني بك قد انتُهكت وهلكتِ مع أختي فإني ما أخاف عليك أضر منها، فتسلمي هذا المفتاح فهو لهذه الخزانة، وفيها صناديق تشتمل على ثلثمائة ألف دينار، خذيها وحوليها إلى قصرك، ذخيرة لك، فقبلت الأرض وقالت: إذا كنت تتصور هذا فارحمني، واقض حقي، ودع ركوبك الليلة. وكان يحبها وقال: أفعل[2].

وبعد تفكير ومتابعة للنجوم قرر الحاكم الخروج والاتجاه إلى الرصد، وأخته تراقب سيره لتطمئن على تمام خطتها.

وفي طريقه، وعند الشارع الواقع بين شارعي الخليفة والسيدة نفيسة (حاليًّا) نظر إلى النجوم وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ظهرت يا مشئوم، وضرب بيد على يد، وسمعه رئيس حرسه الذي يتبعه حتى بداية الشعب، ثم سار إلى حتفه، حيث قابله العبدان عند المرصد، وقتلاه، وحملاه إلى ابن دواس، الذي حمل جثته بدوره إلى ست الملك، التي قامت بدفنه في مجلسها.

وقد حدد القضاعي الطريق التي سلكها الحاكم، والتي سار فيها ليلة موته، فبعد أن خرج من قصره في القاهرة، اتجه جنوبيًا ودخل القرافة في سفح المقطم، ثم عرَّج إلى دير القصير، وهو المكان الذي يعرف اليوم باسم المعصرة، بين طرة وحلوان، وفي نهايته تم الاغتيال، وهو الجزء الأول من الخطة.

(١) كان عمر الحاكم ستة وثلاثين عامًا وسبعة أشهر.

(٢) النجوم الزاهرة ١٨٧/٤ .

تكملة المؤامرة

وبدأت ست الملك فى سيناريو الفصل الثانى من الرواية، فبعثت لخطير الملك[١]، وأمرته بمكاتبة ولى العهد[٢] عبدالرحيم بن إلياس، الموجود بدمشق، للعودة إلى مصر، على جناح السرعة، فجاء ومعه مائة ألف دينار، وألف ألف درهم[٣].

وفى إحدى الروايات: أن ست الملك اتفقت على قتله هو الآخر، حتى تستطيع أن تُجلس ابن أخيها عليًّ بن الحاكم على العرش، ولكنها انتظرت وحبسته فقط، ثم قتلته فيما بعد.

وأخذت ترتب الأمور، وتفرق الأموال، وتستحلف الجنود، حتى كان اليوم السابع لاختفاء الحاكم عندما وجدوا حماره الأشهب، وثيابه البيضاء، وبها آثار السكاكين عند المرصد، فتأكدوا من قتله[٤].

قال ابن الأثير: فلما كان ثالث ذى القعدة خرج مظفر الصقلى صاحب المظلة، وغيره من خواص الحاكم، ومعهم القاضى فبلغوا حلوان، ودخلوا فى الجبل، فبصروا بالحمار الذى كان عليه راكبا، وقد ضربت يداه بالسيف فأثر فيهما، وعليه سرجه ولجامه، فاتبعوا الأثر فانتهوا به إلى البركة[٥] التى شرقى حلوان، فرأوا ثيابه وهى سبع قطع صوف، وهى مزرورة بحالها لم تحل، وفيها أثر السكاكين[٦].

---

(١) هو رئيس الرؤساء ، خطير الملك، أبو الحسين عمار بن محمد، كان يتولى ديوان الإنشاء أيام الحاكم، وهو اليوم بمثابة الأمانة العامة لمجلس الوزراء.

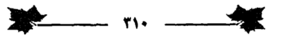
(٢) كان الحاكم قد جعل له ولاية العهد على غير رضا ست الملك.

(٣) قال رضا كحالة : وأنفذت على بن داود إلى الفرما، وقالت له : إذا دخل ولى العهد فاقبض عليه.. ثم أمرت بإنفاذ ما عنده من المال.. وكان خراج ثلاث ستين (أعلام النساء ١٦٨/٢).

(٤) جاء فى بعض الروايات أن هذا اليوم كان فى أول أيام النحر، وسبب التأخير هو بحثهم عن الحاكم حتى وجدوا آثاره.

(٥) قال ابن خلدون : هى بركة الحبش، وهى عين الصيرة شمال شرقى حلوان، وقد جاء فى صبح الأعشى ٣٣٦/٣ : بركة الحبش أرض مزروعة تروى بماء النيل عند فيضانه .. وهى تابعة لزمام دير الطين (طرا) وزمام قرية البساتين .. ومن الشمال صحراء جبانة مصر وجبل الرصد الذى يعرف اليوم بإسطبل عنتر.

(٦) الكامل ١٢٨/٨.



إذن، لقد اغتيل الحاكم، ولابد من وجود خليفة له، وأسرعت ست الملك، وألبست على بن الحاكم أفخر الثياب، ووضعت على رأسه تاج المعز، وهو تاج عظيم فيه من الجواهر مالا يوجد فى خزانة خليفة ولا ملك، ولقبته بالظاهر[1] لدين الله، وأركبته مركبًا من مراكب الخليفة، وخرج إلى الناس وبين يديه كبار الدولة، وعلى رأسهم الوزير خطير الملك، الذى صاح فى الناس قائلا: يا عبيد الدولة، مولاتنا السيدة تقول لكم: هذا مولاكم فسلموا عليه.

فقبلوا الأرض جميعًا وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل، وأقبل الناس أفواجًا فرحين، ونثرت الدنانير والدراهم، ثم أقيم العزاء على الحاكم بعد ذلك. وكان عمر الخليفة الجديد ستة عشر عامًا، وقالت بعض الروايات: أحد عشر عامًا.

* * *

(١) هو الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدى عبيد الله الفاطمى، المصرى المولد والمنشأ والوفاة، ولد بالقاهرة عاشر رمضان عام ٣٩٥هـ

ختام الرواية

وبعد العزاء الذى استمر ثلاثة أيام أرادت ست الملك أن تختم فصول هذه القصة الدامية، فى هيئة تراجيدية محبوكة، أوردها القضاعى بدقة ليبين مدى جرأة هذه المرأة وفظاعتها، قال: ثم أمرت ست الملك بخلع عظيمة، ومال كثير، ومراكب وذهب وفضة للأعيان، وأمرت ابن دواس أن يشاهدها «يقابلها» فى الخزانة[1]، وقالت له: غداً نخلع عليك، فقبل الأرض، وفرح، وأصبح من الغد فجلس عند الستر، ينتظر الإذن، حتى يأمر وينهى.

وكان للحاكم مائة عبد يختصون بركابه، ويحملون السيوف بين يديه، ويقتلون من يأمرهم بقتله، فبعثت ست الملك إلى ابن دواس ليكونوا فى خدمته، فجاءوا فى هذا اليوم ووقفوا بين يديه فقالت ست الملك لنسيم صاحب الستر: اخرج وقف بين يدى ابن دواس، وقل للعبيد: يا عبيد، مولاتنا تقول لكم: هذا قاتل مولانا الحاكم فاقتلوه، فخرج نسيم، فقال لهم ذلك، فمالوا على ابن دواس بالسيوف فقطعوه، وقتلوا العبدين[2] اللذين قتلا الحاكم، وكل من اطلع على سرها قتلته[3].

وزادت رواية: أنها لما قتلت ابن دواس قتلت الوزير خطير الملك، ومن كانت تخاف منه، ممن عرف بأمرها[4].

وقد نتساءل إذا كان تدبير المرأة قد بلغ هذا الحد من الحرص على كتمان سر الجريمة، فما الذى حدث حتى وصلنا هذا السر الآن؟ ولذلك احتمالات عدة، فإن الجريمة لابد أن ينكشف سرُّها مهما يكن احتياط مرتكبها، وحرصه على كتمان

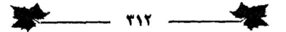
---

(١) ربما كانت إحدى قاعات الملك الحاكم.

(٢) ربما فر أحد العبدين اللذين قتلا الحاكم، فقد جاء فى مجلة (وجهات نظر) عدد ٨ ص ١٥ خبر جاء فيه: بعد مصرع الحاكم بخمس سنوات ألقى القبض على رجل من بنى حسن بالصعيد، اعترف بأنه طعن الحاكم، وأرداه قتيلا، بالاشتراك مع أربعة آخرين تفرقوا فى البلاد، وفى التحقيقات أظهر الرجل قطعة من جلد رأس الحاكم، وخرقة من الفوطة التى كانت عليه، فسألوه: لم قتلته؟ فقال: غيرة لله وللإسلام، فقيل له: كيف قتلته؟ فأخرج سكينا ضرب بها صدره فقتل نفسه وهو يقول: هكذا قتلته، والله وحده أعلم كيف قتل الحاكم، ومن قتله؟

(٣) النجوم الزاهرة ١٩٢/٤ .

(٤) أعلام النساء ١٧٠/٢.



سره، وأغلب الظن أن هذا السر قد عرف فى حياة ست الملك من منافذ عدة. كانت على علم بما تم للقضاء على الحاكم المجنون سواء أكان ذلك عن طريق حاشية ست الملك أم عن طريق أقربائها الذين شاركوها فى مؤامراتها، ومن ثم وصل إلى سمع التاريخ حقيقة ما حدث فى تلك الفترة الحاسمة حتى وصل إلينا.

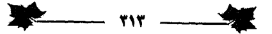
وتولى على بن الحاكم الخلافة الفاطمية وتلقب بالظاهر لدين الله فى يوم الأضحى عام ٤١١هـ «الموافق عام ١٠٢١م»، وكان الحاكم الحقيقى هو ست الملك، وقد أعادت للملك زهوته وعزه، واصطنعت الرجال، وجمعت المال، وذللت العقبات لابن أخيها، وساست له الأمور بحكمة وتدبير وعقل، وسهلت له المشكلات، وكلما وجدت عقبة أزالتها، حتى ولو كان فيها دماء.

فهذا عزيز الدولة فاتك الوحيدى[1]، أمير قلعة حلب، عظم شأنه بعد مقتل الحاكم، وحاول العصيان والتمرد، ورفض الخليفة الجديد، فلم تتركه ست الملك، بل راسلته، وبعثت له بالخلع والهدايا، والذهب والفضة وأخذت تحتال حتى وصلت إلى خادمه الخاص، فبذلت له العطاء الجزيل، ليقتل فاتكًا، على أن توليه مكانه، واتفق الخادم بدر مع غلام هندى على قتل فاتك، وتم ما أراد، واستولى على القلعة بعد أن قتل الغلام الهندى، وأظهرت ست الملك الحزن على فاتك، مع أنها المدبرة لقتله، تمامًا كما أظهرت الحزن على أخيها من قبل.

أما علاقتها بالناس من شعب مصر فقد استمالتهم بالذهب والفضة، وحكمت بين الناس بالعدل، حتى استراحوا لها، وأحبوها، وأحبوا الخليفة الجديد، الذى ترك لهم الحبل على الغارب بعد أن كانوا مقهورين مضطهدين فى حياة الحاكم.

قال المقريزى: بويع له بالخلافة يوم النحر، فخرج إلى صلاة العيد، وعلى رأسه المظلة، وحوله العساكر، وصلى بالناس فى المصلى، وعاد فكتب بخلافته إلى الأعمال، وشرب الخمر، ورخص فيه للناس، كما رخص فى سماع الغناء، وشرب الفقاع، وأكل الملوخية، وجميع الأسماك، فأقبل الناس على اللهو[2].

(١) كان الحاكم قد ولاه القلعة عام ٤٠٧هـ.
(٢) خطط المقريزى ١/ ٣٥٤.



لقد زادت ست الملك فى عطاياها ورخصها حتى أعجب هذا التصرف كثيرين، ونقل بعض المؤرخين رضا الناس عن ست الملك، وابن أخيها على.

فهذه زينب فواز تقول: وقامت ست الملك تدبر الدولة لمدة أربع سنوات، وهى تعدل بين الرعية، وتنصف المظلومين، حتى أحبها جميع الأهالى، وتمنوا أن مدتها تدوم.. لقد حزن عليها أهل مصر، وتمنوا بقاءها تدبر المملكة حتى يكبر ابن أخيها، ولكن لله فى حكمه إرادة[1].

وذكرها الدكتور حسن إبراهيم بأنها. تمتعت بالحزم ورجاحة العقل، واشتهرت بالكرم والحلم، وعرفت بالتسامح الدينى[2].

* * *

(١) الدر المنثور ٢٤٠.
(٢) التاريخ الإسلامى السياسى ٤/٦٤٢.



وفاة ست الملك

لم تدم تلك الحياة، التى عمرت بالحكم والمكيدة والتآمر للملكة ست الملك طويلاً، فبعد أربع سنوات، وفى عام ٤١٥هـ أصيبت ست الملك بمرض أهزلها وأضعفها، ووضعها على شفا النهاية، مرضت الملكة بالذرب، وهو داء يعرض للمعدة فلا تهضم الطعام، وإنما يفسد فيها، ولا تمسكه، حتى يئست من الشفاء، وتأكدت من الموت، وأحضرت الخليفة وقالت له ـ كما جاء فى النجوم الزاهرة ـ: قد علمت ما عاملتك به، وأقله حراسة نفسك من أبيك، فإنه لو تمكن منك لقتلك، وما تركت لك أحدًا تخافه إلا ولى العهد[1]، فبكى بين يديها هو ووالدته، فسلمت إليهما مفاتيح الخزائن، وأوصتهما بما أرادت، وقالت لمعضاد الخادم: امض إلى ولى العهد، وتفقد خدمته، فإذا دخلت عليه فانكب عليه كأنك تسائله، بعد أن توافق الخدم على ضربه بالسكاكين، فمضى إليه معضاد وقتله، ودفنه، وعاد فأخبرها، فأقامت بعد ذلك ثلاثة أيام، وماتت[2]، وكان سنها حينئذ ستًا وخمسين سنة.

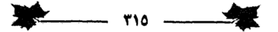
هذه هى قصة ست الملك، أو ست الملوك كما حلا لبعضهم أن يلقبها، وهى سيرة لا تختلف عن سير الملوك الآخرين من الأسرة الفاطمية، وهى عبارة عن فصول الشذوذ والتناقض الذى دارت أحداثه على أرض مصر.

وقد أعيانا البحث عن المفتاح الذى يفسر كل هذه الأحداث، فبقدر ما كان لهذه الأحداث من تصارع داخلى كان للأفكار المفاتيح خاصية التصارع أيضًا.

ترى هل كان الكهنوت هو المفسر الأول لهذه لأحداث، واتساع الساحة الإسلامية فى مصر لاستيعابها؟ وبعبارة أخرى: هل يمكن أن نقول: إن الإسلام ـ حتى هذه الفترة من تاريخه على أرض مصر ـ لم يكن قد فهم بصورة كاملة على مستوى الجماهير الداخلين فى دين الله، حتى القرن الخامس الهجرى؟ فاستطاع الكهنوت أن يزيف عليهم صورة الإسلام؟ فكان ما كان من مآس يندى لها جبين التاريخ؟ .. هذا مفتاح أول!!

---

(١) هو ابن إياس ابن عم الحاكم ، الذى مازال محبوسًا عندها.
(٢) النجوم الزاهرة ٤/ ١٩٤.



ومفتاح آخر: هل يمكن أن نعزو ما حدث إلى سريان روح التآمر فى دم الدولة الفاطمية، تلك الروح التى جاءتها من طبيعة منشئها اليهودية أو المجوسية، وبذلك كانت الأحداث صورًا من الأعمال التآمرية على الإسلام والمسلمين فى تلك الفترة، وذلك على الرغم مما ينسب إلى تلك الدولة من أعمال أخرى تتسم بالصلاح لا نظن إلا أنها كانت ستارًا يخفى حقيقة التآمر، الذى خطط له جذوره اليهود والمجوس .. هذا مفتاح ثانٍ!!

أم أنَّ السرَّ فيما وقع من فساد كان بروز دور العبيد المجلوبين من مختلف الأنحاء، ولا سيما فى عهود الخلفاء والصبيان، حيث كان من السهل على أى عبد قريب من الصبى الخليفة أن يؤثر عليه فى توجيه أفكاره، وفى دفعه إلى ارتكاب المزيد من الموبقات.

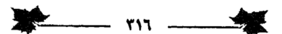
فإذا بالحاكم «كرنفال» من الجنون والحمق، وإذا به «كرة» تتقاذفها أرجل هؤلاء العبيد، الذين لا مسكة لديهم من عقل، ولا وازع لديهم من ضمير، ولا واعظ عندهم من دين، وإذا بالرعية قطيع من الأغنام البشرية تساق إلى مصارعها، وإذا بالدين قشرة على رأس دمل مليء بالقيح والصديد.

إن قصة ست الملك تلخص صورة المجتمع الإسلامى فى ذلك الزمان التعيس، حيث لم يكن على مسرح الأحداث سوى شذوذ الطباع، وتصادم الأطماع.

كانت تلك المرأة تركيبًا معقدًا من الولاء لأصلها، وحرصها على استمرار قبضة الأسرة العبيدية على مقاليد الأمور فى مصر، إضعافًا للوجود الإسلامى بها، وانتقاصًا لمهابة الإسلام فى سائر البلاد.

وقد امتزجت حالة الولاء هذه بمفهوم الكهنوت الأكذوبة، فكوَّنا معًا مزيجًا من الحقد الكذوب، الذى اتخذ من الحواشى الأفاقين قوة إرهاب، وأداة تدمير لكل ما هو إسلامى، ومن هنا يمكن تفسير هذه الشخصية وتصرفاتها خلال الحقبة التى تولت فيها شئون مصر، من وراء ستار الخلافة الفاطمية.

فهى شخصية تعى مسئولياتها إلى حد القلق القاتل، وقد كانت مسئولياتها منحصرة فى الحفاظ على ديمومة السلطة فى قبضة العبيديين، بصرف النظر عن وجود الإسلام، أو مصالح الشعب المسلم.



فإذا انحرف أخوها الحاكم، وأتى من الأفعال ما صار أسطورة مجنونة فلا يهم ذلك، ولا يهز لها شعرة؛ لأن أعماله تساعد فى إخضاع الشعب، وتكبيل الذبيحة، أما إذا تجاوز إلى حد اتهامها بالفاحشة فتلك هى الطامة الكبرى التى تستوجب قتله، لأن معنى ذلك أنه منصرف عن مشورتها، منفلت من بين أصابعها، وإذا أرادت أن تقتله فإنها تحيك المؤامرة وتحبك خيوطها إلى حد مذهل؛ تنفذ الجريمة، وتعدم أدلتها، إعدامًا كاملاً، لتبدأ بصفحة جديدة، بخليفةٍ صبى يكون تحت إمرتها ليدوم لها سلطانها.

لقد كانت ست الملك هى الخليفة الحاكم بالفعل، باسم الفاطميين فى تلك الفترة، وإن ظهرت بأقنعة مختلفة، هى وجوه هؤلاء الصبيان والمجانين.

وإنا لنسجل لها احتفاظها بذلك الحقد الأسود، حتى آخر لحظة من حياتها، حين أرسلت من يقتل ابن عمها، ولى عهد الخلافة، مع أنه كانَ فى سجنها طيلة السنوات التى أعقبت قتل الحاكم، وحين اطمأنت إلى التخلص منه لفظت آخرَ أنفاسها، تاركةً ميراثًا من الحقد لمن جاءوا بعدها، كما ورثتهم ثروة طائلة سجلها المؤرخون.

* * *

ميراث ست الملك

ذكر ابن إياس بعضًا ممًّا تركت، قال: وظهر لها موجود عظيم من المال والجواهر والتحف والقماش، مالا يحصى، ووجد عندها أربعة آلاف جارية، ما بين بيض وسود ومولدات، ووجد عندها ثلاثون زيرًا من اللازورد الصينى، مملوءة من المسك السحيق، وأما بقية الموجود فلم ينحصر لكثرته[1].

لقد ملكت ست الملك الضياع والبساتين والحدائق والمتنزهات والقصور، حتى إن السلطان قلاوون[2] - أحد سلاطين المماليك - أراد أن يبنى مستشفى شهيرًا وكبيرًا، سمى بـ «البيمارستان المنصورى» فلم يجد مكانًا أوسع من قاعة فى قصرٍ كان فى يوم من الأيام ملكًا لست الملك.

قال القلقشندى: ابتنى السلطان المنصور قلاوون دار (ست الملك) أخت الحاكم المعروفة (بالدار قطبية) بيمارستانا فى عام ٦٨٣هـ.. وجعل من داخله المدرسة المنصورية والتربة ويقى معالم بعض الدار على ما هو عليه[3].

وقال جورجى زيدان: بنى السلطان قلاوون المستشفى بخط بين القصرين، فى شارع النحاسين، وكان فى الأصل قاعة لست الملك بنت الملك العزيز[4].

هذه الممتلكات كلها، عدا ما كانت تتصرف فيه من كميات ضخمة من الثروة فى حياتها.

وقد ذكر القاضى ابن الزبير نموذجًا لهدية أهدتها لأخيها الحاكم بمناسبة مرور عام على توليه الخلافة قال: أهدت السيدة الشريفة ست الملك أخت الحاكم بأمر الله إلى أخيها فى يوم الثلاثاء ٩ من شعبان عام ٣٨٧هـ - هدايا من جملتها: ثلاثون فرسًا بمراكبها ذهبًا، منها مركب واحد مرصع، ومركب من حجر البلور (الماس) وعشرون بغلة بسروجها ولجمها، وخمسون خادمًا، منهم عشرة

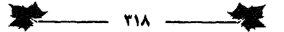
---

(١) بدائع الزهور١ /٢١٢.

(٢) هو السلطان قلاوون الألفى سابع ملوك المماليك ، وعتيق الملك الصالح أيوب، ولد عام ٦٢٠ هـ، وتولى عام ٦٧٨هـ ، وتوفى عام ٦٨٩هـ

(٣) صبح الأعشى ٣٦٦/٣.

(٤) تاريخ مصر الحديث ٣٢٨/١.



صقالبة، ومائة تخت[1] من أنواع الثياب وفاخرها، وتاج مرصع بنفيس الجوهر، وشاشية[2] مرصعة، وأسفاط[3] كثيرة، من طيبٍ من سائر أنواعه، وبستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر[4].

إذن فقد كانت هذه المرأة متربعة على عرش من الثروة الهائلة هى كل ما اصطفاه الفاطميون فى فترة من حكمهم، من دماء الشعب المصرى والشامى والمغربى والحجازى، وقد كانت فى كل مواقفها تدافع عن هذا العرش.

والغريب أننا فى هذه الدوامة الهائلة لا نجد أثرًا للعلماء والأئمة، سنة أو شيعة فقد انفرد الحكام بالساحة، وأمعنوا فى خصومهم قتلاً وتشريدًا، وهذا هو ملخص الدراما الفاطمية فى مصر.

إن قصة ست الملك عبرة لكل ذى سلطان ظالم، أو صاحب ثروة مغتصبة، أنه سوف يعيش ما يعيش من أيام وسنين، ثم يغادر ويترك كل ما جمع من أموال وثروات للوارثين من بعده، وسيترك أيضًا من خلفه لعنة تطارده فى الحياة الأخرى، حتى تسوقه إلى جهنم، وبئس المصير.

* * *

(١) صندوق يوضع به الثياب.
(٢) لفافة العمامة.
(٣) (ج) سفط وهو الوعاء.
(٤) الذخائر والتحف ٦٨.

٩

اعْتِمـادُ الرُّمَيْكِيَّـة

(زوج المعتمد بن عبـــاد)

تمهيد

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وعلى آله وصحبه، ومن والاه، وبعد:

فقصة اعتماد الرميكية من غرائب الأحداث فى الحياة الإسلامية، وهى تكشف عن حقيقة لا يمكن تجاهلها فى سنة البقاء والفناء، هى أن الوحدة والاعتصام بحبل الله هما طريق البقاء، وأن الفرقة واتباع الشهوات، وتحكيم الأهواء هى أسباب الفناء.

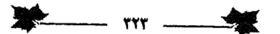
لقد دخل المسلمون الأندلس عام ٩٢ هـ، وغزوا هذا الجزء من أوربا، وأقاموا دولة الإسلام يوم كانوا وحدة معتصمة بحبل الله، منضوية تحت لوائه، واستمرت هذه الدولة قائمة على أصولها مدى ثلاثة قرون، حتى القرن الخامس الهجرى، الذى شهد انقسام الدولة الواحدة إلى عدد من الممالك، يحكمها من أطلق عليهم التاريخ «ملوك الطوائف» وبلغت عدة هذه الانقسامات حوالى خمس وعشرين دولة، أو لنقل: قرية، أو دويلة يحكمها مغامر تافه، يتقمص جلد أسد أو نمر، وهو لا يزيد على كونه حيوانًا يتمرغ فى فضلاته ـ مع الاعتذار للحيوان.

وسرعان ما تبددت القرى الأندلسية تحقيقًا لوعيد الله سبحانه فى قوله: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

ولقد تخيرنا لهذه القصة امرأة ذاع صيتها فى أنحاء التاريخ الأندلسى فى بلدة إشبيلية التى كان يحكمها بنو عباد من عام ٤١٤هـ حتى ٤٨٤هـ.

وقد كانت إشبيلية بما فشا فيها من صنوف اللهو والفجور أشبه بـ«كاباريه» يتمتع بمهازله ومباذله شراذم ممن زعموا لأنفسهم مهابة وسلطة، وخيل إليهم أنهم يمرحون فى «ضيعة» من ضياع الشهوات واللذائذ الفاجرة، فليس فى حياتهم سوى الموسيقا والغناء والطرب، مخلوطًا ذلك كله بالجوارى الروميات، زرق العيون، صفر الشعور، حمر الخدود، دقيقات القدود.

لقد هيأ الفرنجة لهؤلاء العبثة ما علموا أنه يسلب عقولهم من النساء، وعناصر الخدمة الفاحشة، حتى إذا نضجت الطبخة وثبوا عليهم وهم عراة سكارى،



غارقون فى الآثام، وهو ما تنبأ به شارل مارتل يوم كانت جيوش الإسلام تدق أبواب فرنسا من الجنوب، وخاض ضدهم معركة (بلاط الشهداء) فى تور - بواتييه عام ١١٤ هـ (الموافق ٧٣٢م).

وهكذا ضاعت البلاد، وسقطت دولة الإسلام فى الأندلس ونصبت محاكم التفتيش، وأكره المسلمون على التنصر أو الموت.

ومن أراد أن يعرف محنة الإسلام الآن فلينظر إلى قائمة ملوك الطوائف «داخل القصة» وهم الذين اجتمعوا على كعكة الأندلس يتهابشونها، ليأخذ كل منهم نثيرة لا تسمن ولا تغنى من جوع، ثم سقطوا جميعًا فى قاع الذل والهوان.

وهكذا عالم الإسلام اليوم، ست وخمسون دولة تضم أكثر من مليار من البشر، ومع ذلك فإن هذا العدد الهائل من المسلمين لا يزن فى كفة السياسات الدولية ما يزنه خمسة الملايين يهودى، المغتصبون لفلسطين، فالقلة المتحدة هى قطعًا أقوى وأعز من الكثرة المتشرذمة التى لا تعرف طريقها إلى الوحدة، وقد أمر الله بها.

ما الذى يجنيه المسلمون من هذه الكثرة غير الضياع؟!!

ولقد سبقت فى تاريخنا تجارب، هى أعظم نذير للمتفرقين.

ماذا لو قل عدد الدول الإسلامية من ست وخمسين إلى خمس دول فقط، ولكنها وحدات قوية، فى عالم لم يعد يعترف إلا بالكيانات الضخمة؟

ماذا لو اتحد العرب فى دولتين، إحداهما مشرقية والأخرى مغربية؟

واتحد مسلمو جنوب شرقى آسيا فى دولة واحدة؟

واتحد مسلمو أواسط آسيا فى دولة واحدة؟

واتحد مسلمو إفريقية فى دولة واحدة؟

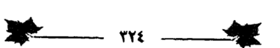
يومئذ يستبدل المسلمون بالكثرة الضعيفة قلة مهيبة، وبدلاً من أن يكونوا غثاء كغثاء السيل يصبحون سيلاً هادرًا يكتسح ما يواجه من أخطار.

إنها على أية حال أحلام..

نستغفر الله .. بل هى أوهام..

والأمر لله من قبل ومن بعد.

* * *



اعتماد الرميكية

وقعت أحداث قصة بطلتنا هذه فى مكان عزيز على نفوسنا ـ نحن المسلمين ـ على أرض كانت يومًا ما غرة دول الإسلام، ولؤلؤة تاجه، ومحط أنظار العالم الوسيط، ألا وهى فردوس الدنيا آنذاك: بلاد الأندلس[1].

أما الزمان فهو القرن الخامس الهجرى ـ (الحادى عشر الميلادى).

ولابد أن نعود قليلاً بالتاريخ إلى بداياته لنلقى الضوء على كيفية دخول هذه الأرض حظيرة الإسلام فى أواخر القرن الأول الهجرى، وبالتحديد فى عهد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك بن مروان.

ففى رمضان عام ٩١ هـ (الموافق ٧١٠م) تجهز طارق بن زياد[2] مولى موسى ابن نصير[3] أمير إفريقية ـ لعبور المضيق على البحر الأبيض، وهو الفاصل بين إفريقية عند بلاد المغرب وبين أوربا عند الجزيرة الخضراء، وكان اسم هذا المضيق (الزقاق) وكان الجبل المطل على المضيق اسمه (Calpé) وتسمى بعد ذلك باسم جبل طارق (Gibraltar)، وهو أضيق مسافة بين القارتين، فعرضه ١٨ ميلا (حوالى ٢٩كم).

قال عنه أحمد حسونة : لهذا الباب عتبة هائلة ارتفاعها ٣٥٠ مترًا لمنع دخول الماء البارد من المحيط الأطلسى إلى البحر الأبيض. والمضيق قليل العمق[4].

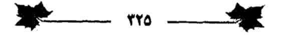
---

(١) هى إسبانيا والبرتغال حاليًا أو شبه جزيرة إيبيريا.

(٢) كان مولى لموسى بن نصير ، خرج فى جيش مقداره ٧٠٠٠ جندى من البربر والعرب لفتح الأندلس ، وانتصر فى ١٣ موقعة ، وأهم معركة كانت فى رمضان عام ٩٢هـ (الموافق يونيو ٧١١م) ، وقد وصل بالفتوحات إلى سفوح جبال البرانس فى أقل من سنة.

(٣) موسى بن نصير اللخمى، حاكم فاتح عربى عاش من عام (١٩ هـ : ٩٧هـ) (٦٤٠م : ٧١٥م) ، ولاه عبدالملك بن مروان البصرة، ثم ولاه عبدالعزيز بن مروان والى مصر تونس، فتح بلادًا كثيرة فى المغرب، ثم بعث طارقًا إلى الأندلس ، وتبعه بجيش آخر حتى فتحها كلها، وكان موسى بن نصير قد أخضع البربر فى بلاد المغرب، قال جورجى زيدان: البربر قبائل شتى قاسى المسلمون فى إخضاعهم عذابًا شديدًا لأنهم ارتدوا عن الإسلام ١٢ مرة، وثبوا فيها كلها على المسلمين، ولم يثبت إسلامهم إلا فى أيام موسى ابن نصير فى أواخر القرن الأول (تاريخ مصر الحديث ٢١٧/١).

(٤) الجغرافية التاريخية الإسلامية ٧٥ .



وكان طارق بن زياد قد احتل موقع هذا الجبل فى يوم الإثنين الخامس من رجب سنة ٩٢ هـ كما قال المقرّى[١].

وبعد عدة معارك دخل الإسلام إسبانيا والبرتغال، وأصبحت ضمن الإمبراطورية الإسلامية يحكمها الأمويون من عاصمتهم دمشق.

وجاء عام ١٣٢ هـ (الموافق ٧٤٩م) وقضى العباسيون على دولة بنى أمية، ونقلوا عاصمتهم إلى بغداد، ولكن عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك[٢] الأموى استطاع أن يهرب من سيوف بنى العباس إلى الأندلس ويقيم دولة أموية منفصلة عن الدولة العباسية... فى الأندلس[٣].

وبدأت هذه الدولة فتية قوية، زانها بعض الخلفاء الكبار الذين مازال التاريخ يذكرهم بالفخار أمثال عبدالرحمن الداخل أول خلفاء بنى أمية، وعبدالرحمن الناصر ثانى خلفاء بنى أمية، وهشام بن عبدالرحمن، ومنصور ابن أبى عامر، وغيرهم.

إلا أن الدول كالناس لابد من أن تصير من القوة إلى الضعف، وتهبط من القمة إلى القاع، فانهار هذا الصرح الكبير، وتقطعت الدولة المسلمة الكبيرة الشامخة التى بناها المسلمون منذ ثلاثة قرون.

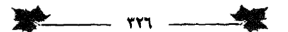
ورأينا الأندلس فى أوائل القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)، بعد أن كانت كتلة موحدة ـ وقد استحالت إلى أشلاء ممزقة ورقاع متناثرة، وولايات ومدن متباعدة متخاصمة متنافرة متحاربة، وصار لكل بلد خليفة، ولكل قرية سلطان ولكل عدوة[٤] وآل، وذلك نتيجة الكيد والمؤامرات بين بعضهم البعض، فلا تطلع شمس إلا على ملك مخلوع، ولا تغرب إلا على آخر مقتول، ولو نظرنا لبلاد الأندلس فى القرن الخامس الهجرى

(١) نفح الطيب ١/ ٢٣١.

(٢) ولد عام ١١٣هـ (الموافق ٧٣١م).

(٣) دخل عبدالرحمن قرطبة يوم الجمعة العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨هـ (الموافق ١٣ مايو ٧٥٦م)، وقرطبة بناها الخليفة الأموى عمر بن عبدالعزيز.

(٤) العدوة : المكان المرتفع وشاطئ الوادى.



من ٤٠٠هـ - ٥٠٠هـ لوجدنا دولها يزيد عددها على العشرين[١]، وعليهم ولاة إما عرب أو بربر أو صقالبة.

وهذه الصورة تذكرنا بمقولة شارل مارتل[٢] ملك فرنسا عندما شكا إليه قومه من وقوف العرب المسلمين على حدود بلاده والخوف من الضرر الذى يصيبهم لو فكر المسلمون فى دخول فرنسا، قال: دعوهم يصنعوا ما يشاءون، فهم الآن مستأسدون، وهم كالسيل الذى يأتى على كل ما يعترضه، وما عندهم من الحماسة والشجاعة يقوم مقام الدروع والحصون، ولكنهم إذا ما أثقلتهم الغنائم، وطاب لهم المقام بالبيوت الجميلة، وألفوا رفاهية العيش، واستحوذ الطمع على قادتهم، ودب الشقاق فى صفوفهم زحفنا عليهم واثقين من النصر[٣].

---

(١) بنو عباد من ٤١٤ : ٤٨٤ هـ (الموافق ١٠٢٣: ١٠٩١م) إشبيلية.
بنو جهور من ٤٢٣: ٤٦٣هـ (الموافق ١٠٣١: ١٠٦٤م) قرطبة.
بنو حمود من ٤٢٧: ٤٤٩هـ (الموافق ١٠٣٥: ١٠٥٧م) مالقة.
بنو حمود من ٤٢٧: ٤٥٠ هـ (الموافق ١٠٣٥: ١٠٥٧م) الجزيرة الخضراء.
بنو زيرى من ٤٠٣: ٤٨٣هـ (الموافق ١٠١٢: ١٠٩٠م) غرناطة.
بنو برزال من ٤٠٤: ٤٥٩هـ (الموافق ١٠١٩: ١٠٥٩م) رندة.
بنو إفرن من ٤٣١: ٤٥١هـ (الموافق ١٠١٩: ١٠٥٩م) رندة
بنو رمّر من ٤٠٤: ٤٥٩هـ (الموافق ١٠١٣: ١٠٦٦م) مورور.
بنو خزرون ٤٠٢: ٤٦١هـ (الموافق ١٠١١: ١٠٦٨م) أركش.
بنو بكر من ٤٠٣: ٤٤٤هـ (الموافق ١٠١٢: ١٠٥٢م) ولبة وسلطيش.
بنو يحيى من ٤١٤: ٤٤٣هـ (الموافق ١٠٢٣: ١٠٥٣م) لبلة.
بنو مزين من ٤٤٠: ٤٥٦هـ (الموافق ١٠٤٨: ١٠٦٣م) شلب.
بنو هارون من ٤١٧: ٤٤٤هـ (الموافق ١٠٢٦: ١٠٥٢م) شنت مرية.
ابن طيفور عام ٤٣٦هـ (الموافق عام ١٠٤٤م) مارتلة.
سابور وبنو الأفطس من ٤١٣: ٤٨٧ هـ (الموافق ١٠٢٢: ١٠٩٤م) بطليوس.
يعيش وبنو «ذو النون» من ٤٢٨: ٤٧٨هـ (الموافق ١٠٣٦: ١٠٨٥م) طليطلة.
بنو تجيب وبنو هود من ٤٠٨: ٤٣١ هـ (الموافق ١٠١٧: ١٠٣٩م) سرقسطة.
بنو رزين من ٤٠٣: ٤٩٨هـ (الموافق ١٠١٢: ١١٠٤م) المسهلة.
بنو قاسم من ٤٢١: ٤٤١ هـ (الموافق ١٠٣٠: ١٠٤٩م) ألبونت.
مبارك ومظفر الصقلبيان من ٤٠٧: ٤٩٦هـ (الموافق ١٠١٦: ١١٠٢م) بلنسية.
مجاهد والمقتدر السرقسطى والمنذر من ٤٠٠: ٤٨٤هـ (الموافق ١٠٠٩: ١٠٩١م) دانية وجزر البليار.
خيران وزهير وغيرهما من ٤٠٣: ٤٨٤هـ (الموافق ١٠١٢: ١٠٤١م) المرية.
بنو تجيب (بنو صمادح) من ٤٣٣: ٤٨٤ هـ (الموافق ١٠٤١: ١٠٩١م) المرية.

(٢) شارل مارتل ملك وحد جميع الممالك الفرنسية تحت حكمه، وأوقف تقدم المسلمين فى فرنسا فى معركة (توربواتيه أو بلاط الشهداء) عام ١١٤هـ (الموافق ٧٣٢م) فى خلافة هشام بن عبدالملك الأموى، وشارل مارتل جد الملك شرلمان معاصر الخليفة هارون الرشيد.

(٣) حضارة العرب ٣١٤.

والعجيب أنه فى الوقت الذى تتمزق فيه أمة الإسلام إلى جذاذات، كانت أمة النصارى تتجمع وتتوحد، وهذا المستشرق الإنجليزى ستانلى بول يصور هذا العصر التعيس تصويرًا دقيقًا.. يقول:

تمزقت الدولة إلى إمارات صغيرة فى الوقت الذى وجد فيه ألفونسو السادس[1] تحت إمرته ليون وقشتالة[2] وشنترين[3]، لقد عرف ألفونسو ما يجب أن يفعله تمام المعرفة، فقد رأى أنه لم يكن عليه إلا أن يمد حبله لملوك الطوائف مدًا كافيًا ليشنقوا به أنفسهم؛ لأن هؤلاء الجهلة لم ينظروا فى العواقب، ولم يعنوا إلا بأنفسهم، ولم يتركوا جهدًا دون أن يبذلوه لإضعاف منافسيهم، وكانوا يجثون عند قدمى ألفونسو لاستجداء معاونته كلما ضعفوا عن مقاومة إخوانهم المسلمين[4].

وقد وصل الأمر بهؤلاء الملوك فى تكالبهم على الحكم إلى درجة العار، حتى وجدنا فيهم من قتل أخاه، وقتل أباه، وتخلص من أهله حرصًا على الكرسى، بل لقد ازداد سعارهم حتى قتلوا أبناءهم.

فهذا المنصور بن أبى عامر حاكم قرطبة قتل ابنه عبدالله عام ٣٨٠هـ، ومن قبله قتل عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم الأموى ابنيه بالسيف واحدا بعد واحد عام ٢٧٥ هـ[5].

وقيل : قتل ابنه محمدًا غيلة عام ٢٧٧ هـ، ثم قتل ابنه المطرف بالسيف عام ٢٨٢هـ[6].

وذكر ابن حزم رواية ثالثة، قال: قتل ولديه معًا بالسيف واحدًا تلو الآخر، محمدًا والد الخليفة الناصر لدين الله، وأخاه عدوه مطرف، ثم قتل أخوين له معًا[7].. أى وحش مجنون؟!

(١) ألفونسو السادس ملك البرتغال (ليون وقشتالة وجيليقية) ، تولى سنة ١١٠٩م (الموافق ٥٠٣هـ).
(٢) منطقة فى وسط إسبانيا.
(٣) غرب إسبانيا.
(٤) موسوعة التاريخ الإسلامى ٧٢/٤ .
(٥) معجم بنى أمية ٨٦.
(٦) دولة الإسلام ٣٤٨/١.
(٧) نقط العروس لابن حزم فى دولة الإسلام ٣٥٠/١.



وعبدالرحمن الناصر[1] قتل ابنه عبدالله عام ٣٣٨ هـ (الموافق ٩٢٩م).

وها هو ذا المعتضد بن عباد حمو الرميكية بطلة قصتنا قتل ابنه البكر إسماعيل[2] عام ٤٥٠ هـ في إشبيلية بيديه كما ذكر دوزي. وكانت مملكة إشبيلية[3] هذه، وعلى رأسها بنو عباد، أهم دول الطوائف[4] وأعظمها شأنًا، فقد سطعت بين دول الطوائف. بدأت هذه المملكة العبادية بتولية الأمير المنصور بن أبى عامر[5] القضاء فى إشبيلية لزعيم بنى عباد أبى الوليد إسماعيل بن عباد فى أوائل القرن الخامس الهجرى، وكان إسماعيل من بيت من أعظم بيوتات الأندلس العربية، فهو ينتمى إلى قبيلة لخم العربية.

قال ابن خلكان : قاضى إشبيلية إسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف بن نعيم اللخمى، من ولد النعمان بن المنذر اللخمى آخر ملوك الحيرة[6].

وقد عاش نعيم جد عباد مع ابنه عطاف فى العريش، المدينة المصرية، على حدود الشام، قاله كثير من المؤرخين، لكن قلة منهم عدة ممن عاش فى شمالى بلاد الشام.

---

(١) دولة الإسلام ١/٤٥٠.

(٢) قال ابن خلدون : خالف إسماعيل أباه وأغراه العبيد والبرابرة بالملك ، فأخذ ما قدر عليه من المال والذخيرة، وفر إلى جهة الجزيرة للتوثب بها، قتله أبوه وقتل كاتبه، وكل من كان معه. (ابن خلدون ٤/٣٣٨).

(٣) بناها يوليوس قيصر، قال عنها ياقوت : بالكسر ثم السكون، وكسر الباء، وياء ساكنة ولام، مدينة عظيمة وليس بالأندلس اليوم (القرن السابع) أعظم منها.. بها كان بنو عباد ولمقامهم بها خربت قرطبة، هى غربى قرطبة، بينهما ثلاثون فرسخًا (حوالى خمسين كم) كانت قديمًا قاعدة ملك الروم، وهى قريبة من البحر، تطل على جبل كثير الزيتون وسائر الفواكه، وبها القطن، وهى على نهر عظيم قريب فى العظم من النيل ودجلة. (معجم البلدان ١/١٩٥).

(٤) انتهت الخلافة الأموية بقتل هشام المؤيد وسليمان فى قرطبة ٢٨ محرم ٤٠٧هـ (أول يوليو ١٠١٦م) وبدأت الطوائف بدولة بنى حمود فى قرطبة عام ١٠٣٩م.

(٥) من أبرز قادة العرب وساستهم دخل جده عبدالملك مع طارق بن زياد الأندلس، ودخل المنصور إلى قرطبة، وطلب العلم، وسمع الحديث، تنقل فى الوظائف حتى تولى أملاك السيدة صبح زوج الخليفة الحكم الثانى، وابنها هشام، ولما توفى الحكم اتخذه الخليفة هشام المؤيد وزيرًا ، قضى على محاولات الصقالبة والنصارى فى خمسين غزوة، أوصى بأن يدفن معه غبار ثيابه من حملاته، فدفن معه، مات عام ٣٩٠ هـ (الموافق ١٠٠٢م).

(٦) وفيات الأعيان ٥/٢١ . والحيرة مملكة عربية تقع بين الجزيرة العربية وبلاد فارس.



فهذا مؤلف دولة الإسلام يقول: وأصل جدهم من حمص الشام[1].

قال ذلك نقلاً عن ابن خلدون الذى قال : أصل بنى عباد من حمص، ونزل عطاف قرية طُناشة بشرق إشبيلية، ونسل بنيه بها[2].

المهم أنه انتقل بعض ذريتهما بعد ذلك إلى أرض إشبيلية[3] فى بلاد الأندلس بعد أن فتحها المسلمون، ثم كان من حفدته مؤسس دولة بنى عباد إسماعيل اللخمى، وقد تولى القضاء ثم الوزارة فى حوالى عام ٤٠٧هـ، وعاش حتى عام ٤٣٣ هـ الموافق (١٠٤١م) ولما مات تولى بعده ابنه المعتضد بالله عباد[4]، الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة بنى عباد، وقد كان كل همه أن يضم إليه ما حوله من بلاد ضعف فيها امراؤها، وصاروا لا يستطيعون حماية أنفسهم، ومن ذلك أنه استولى على مرتولة من ابن طيفور عام ٤٣٨هـ (الموافق ١٠٤٦م)، ولبلة من ابن يحيى العربى، وباجة وجزيرة شلطين عام ٤٤٤ هـ، وكذلك ضم لمملكته فى إشبيلية مدينة شلب[5] وماردة ورندة ومورور وقرمونة وغيرها.

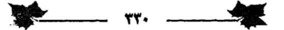
ولم تمر عشرون سنة على توليه الملك حتى بسط سلطانه على إمارات الغرب الصغيرة، وأصبحت مملكته تشمل سائر الأراضى الممتدة من شاطىء نهر الوادى الكبير غربًا حتى المحيط الأطلنطى وجنوبى البرتغال، ولما ضم الجزيرة الخضراء فى الجنوب عام ٤٤٩هـ (الموافق ١٠٥٧م) صارت مملكته تشمل المثلث الجنوبى من شبه جزيرة إيبيريا حتى المحيط.

لقد كان المعتضد ـ كما وصفه ابن حبان ـ فى شجاعته وقوته: زعيم أمراء الأندلس فى وقته، وأسد الملوك، وشهاب الفتنة، وداحض العار، ومدرك الأوتار، وذا الأنباء البديعة، والجرائر الشنيعة، والوقائع المثيرة، والهمم العالية، والسطوة الأبية[6].

ومن جرائره الشنيعة وحيله الواسعة ما رسمه للقضاء على خصومه، وقصته مع الأمراء البربر أصحاب مورور ورندة وأركشن ـ معروفة؛ فقد دعاهم إلى إشبيلية بعد أن توثقت عرى المودة بينهم إلى حين.

---

(١) دولة الإسلام٢/ ٥٠.
(٢) تاريخ ابن خلدون ٤/ ٣٣٧.
(٣) قائمة ببعض أسماء البلاد المذكورة فى القصة وأسماؤها الآن مذكورة فى ص ٣٨٤.
(٤) ولد عام ٤٠٧ هـ فى صفر (الموافق ١٠١٦م).
(٥) هى تابعة للبرتغال الآن.
(٦) دولة الإسلام فى الأندلس ٣/ ٤٠.



يقول دوزى: وسحب النسيان على ما كان بين الجانبين من إحن وأحقاد.. فكتب إلى شيوخهم يدعوهم إلى وليمة كبرى يقيمها خصيصًا لهم .. كما بعث فى دعوة ابن خزرون البربرى صاحب أركش وشريش، وسرعان ما وصل الأمراء الثلاثة عام ٤٤٥ هـ (الموافق ١٠٥٣م).

وبالغ فى إكرامهم غاية الإكرام، وطيب لهم ولمن معهم الحمام، كما جرت العادة .. ودخل الحمام ما يقرب من ستين بربريًا .. وأغلق عليهم جميع نوافذ الهواء، فاختنقوا جميعًا، وهلكوا حيث هم.

ووضع المعتضد رءوس هؤلاء السادة البربر فى خزانة رءوسه العجيبة التى كان يلذ له التمتع بمشاهدتها[1].

ولم يزل فى عزه وسلطانه، حتى توفى بالذبحة والنزيف يوم الإثنين غرة جمادى الآخرة عام ٤٦١هـ (مارس عام ١٠٦٩م)، ودفن بإشبيلية.

وتولى الأمر ابنه أبو القاسم محمد[2]، وقبل أن نتحدث عن زوج الرميكية محمد أبى القاسم، نلقى شعاع ضوء على مدينة آل عباد، وعاصمة ملكهم إشبيلية، فقد كانت مدينة الملوك بحق، حتى أطلق عليها مدينة الأدب واللهو والطرب، فالقصور الفخمة تملأ ساحاتها مثل القصر المبارك فى شرقى نهر الوادى الكبير، وهو القصر المسمى اليوم El Alcazar.

قال جستاف ليبون : كان القصر فى إشبيلية والحمراء فى غرناطة بناءين وصل فن العمارة بهما إلى أسطع أدواره[3].

كذلك قصر الزاهى، والقصر الأزهر على الضفة الأخرى من النهر، وغيرها من قصور ملكية.

---

(١) المسلمون فى الأندلس ٣/٦٤. وهذا يذكرنا بما فعله بعد ذلك بثمانية قرون محمد على باشا فى مصر فى مذبحة القلعة الشهيرة أول مارس عام ١٨١١م، وكان المماليك أربعمائة رجل.

(٢) قال الشاعر الحصرى راثيًا المعتضد ، ومهنئًا المعتمد:

مات عباد ولكن — بقى الفرع الكريم
وكأن الميت حى — غير أن الضاد ميم

(نفح الطيب ٤/٢٤٦).

(٣) حضارة العرب ٥٤٢.

وحول هذه القصور الفخمة الأراضى الواسعة المغلة المخضرة المزهرة، والجياد الصافنات والفرسان الشجعان والمقاتلة من كل جنس ولون، وكل المظاهر الملوكية الفخمة.

أما داخل القصور فحدث ولا حرج: الرياش الفخم، والمتاع النفيس[1] والخدم والحشم والجوارى البارعات فى الحسن والسحر.

قال ابن العماد: وخلع ابن عباد من ملكه عن ثمانمائة سرية ومائة وسبعين ولداً، وكان راتبه فى اليوم ثمانمائة رطل لحم[2].

كان لا تسمع فى جنبات هذه القصور إلا أصوات الغناء والألحان والموسيقى والطرب والشعر الذى نبغ فيه آل عباد حتى كان المعتضد وابنه من بعد من أعظم شعراء الأندلس، وحب الشعر هذا جعل المعتضد يستعمل فى وزارته جماعة من أعظم شعراء عصره، وفى مقدمتهم ابن زيدون[3] أمير الشعر فى الأندلس.

وهنا نتذكر الشاعر أحمد شوقى[4] عندما نفى إلى الأندلس عام ١٩١٤م وكتب قصيدته الرائعة معارضًا قصيدة ابن زيدون التى أولها:

أضحى التنائى بديلاً عن تدانينا

وناب عن طيب لقيانا تجافينا

يقول أحمد شوقى فى أول أندلسيته:

يا نائح الطلح أشباه عوادينا

نشجى لواديك أم نأسى لوادينا[5]

---

(١) جاء فى كتاب الديارات ص ٥٧ فى كتاب (بدائع البداءة ص ١١٢): وكان بين يدى المعتمد بن عباد تماثيل عنبر من جملتها جمل مرصع بالذهب واللآلئ.. والعنبر شمع عسل ببلاد الهند يجمد وينزل البحر.

(٢) شذرات الذهب ٣/٣٨٦.

(٣) أبو الوليد بن غالب المخزومى، من أهل قرطبة ، كان شاعر ابن جهور، ثم حبسه، فهرب إلى المعتضد ، فولاه وزارته ، وتوفى أيام المعتمد عام ٤٦٣هـ (الموافق ١٠٧١م) ، وسبب حبسه اتهامه بمؤامرة لإرجاع الأمويين، وكان له ابن يقال له أبو بكر، وتولى وزارة المعتمد بن عباد، وقتل يوم أخذ يوسف بن تاشفين قرطبة فى ٢ صفر عام ٤٨٤ هـ ، كما جاء فى وفيات الأعيان ١/١٤١.

(٤) أمير الشعراء،ولد فى ١٨٦٣م، وتوفى ١٩٣٢م.

(٥) الشوقيات ٢/١٠٤.

والطلح واد بظاهر إشبيلية كان المعتمد بن عباد شديد الولع به، وكثير الذهاب إليه.

لقد تحول حكام الأندلس المسلمون من منهج الإسلام العلمى والأخلاقى إلى نهج الرفاهية والترف، فجعلوا من بيوتهم مراقص للشياطين، ومعابر إلى الانحلال النهائى الذى حل بهم والويل لهم يوم يوقفون على ربهم، ويسألون عما فعلوا بأنفسهم ويأمتهم، بل عما فعلوا بالإسلام الذى كان أمانة فى أيديهم فأضاعوها، وخانوها.

* * *

الملك المعتمد والرميكية

ولد محمد أبو القاسم بن المعتضد فى ربيع أول سنة ٤٣١ هـ (الموافق ١٠٤٠م) فى باجة من بلاد الأندلس، وتربى فى إشبيلية ولما بلغ الحادية عشرة أو الثانية عشرة من العمر ولاه أبوه حكومة (ولبة) التى ضمها لملكه ليمرنه على الحكم والولاية، ثم نقله بعد ذلك إلى ولاية مدينة (شِلْب)[١] عقب استرجاعها إلى أملاكه عام ٤٥٥ هـ (الموافق ١٠٦٤م).

وقد وهب الله محمدًا أبا القاسم جسدًا قويًا، وروحًا حماسية، وفروسية وشجاعة، وحبًا للشعر والأدب، فهو بحق فارس بنى عباد وفتاها.

وكان يعاون أبا القاسم فى إدارة شلب وزيره وأمينه وأقرب إنسان إليه ابن عمار[٢] الذى كان - من قبل - فتى فقيرًا مغمورًا من قرية من نواحى شلب، ولكنه ظهر فى طريق الوالى الصغير ابن المعتضد، فتصادقا لميلهما للهو والمغامرة، وحبهما لقرض الشعر، وتوثقت عُرَى هذه الصداقة حتى صارا لا يفترقان، وطالما جلسا يتطارحان الشعر، ويرتجلانه، فيقول ابن عباد شطرًا، ويكمله ابن عمار.

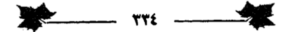
وكان الصديقان إذا أرادا التسلِّىَ والتمتع بالحياة وملذاتها أكثر سارا إلى إشبيلية يقضيان فيها أيامًا ثم يعودان إلى عملهما فى شلب.

ومع أن اللهو فى الأندلس يحيط بهما، فى تلك المدينة البرتغالية البعيدة فإن ابن عباد وصديقه فى عنفوان شبابهما ومقتبل عمرهما، لا يكادان يرويان أبدًا.

وابن عباد كما وصفه المؤرخون : مولع بالخمر، منغمس فى الملذات، عاكف على البطالة، مخلد إلى الراحة، ولذلك لم يعرف الجد إلا بعد أن تولى حكم إشبيلية

(١) قال ياقوت : بكسر أوله وسكون ثانيه.. مدينة بغربى الأندلس بينها وبين باجة ثلاثة أيام، وهى غربى قرطبة، وهى قاعدة ولاية أشكونية، بلغنى أنه ليس بالأندلس بعد إشبيلية مثلها.. وقل أن ترى من أهلها من لا يقول شعرا ولا يعانى الأدب، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه،وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه، وأى معنى طلبت منه. (معجم البلدان ٣/٣٥٨).

(٢) هو محمد بن عمار المهدى الأندلسى، ولد عام ٤٢٢ هـ ، لقب بذى الوزارتين ، جعله المعتمد وزيره ومشيره وجليسه ، ثم خلع عليه خاتم الملك، ولقبه بالإمارة، واستنابه على مرسية، فتملكها، فتلطف به المعتمد فى الحيلة إلى أن وقع فى يده فذبحه صبرًا عام ٤٧٧ هـ (الأعلام ٦/ ٣١٠).



بعد وفاة أبيه، وإن كانت أيامه فى شلب مازالت محفورة فى ذاكرته حتى بعد سنين، وها هو ذا يودع وزيره ابن عمار فى إشبيلية بأبيات حين وجهه إلى شلب ليتفقد أعمالها، يقول فيها:

ألاحى أوطانى بشلب أبا بكر

وسلهن هل عهد الوصال كما أدرى

....

فكم ليلة قد بت أنعم جنحها

بمخصبة الأرداف مجدبة الخصر

وبيض وسمر فاعلات بمهجتى

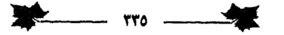
فعال الصفاح البيض والأسل السمر[1]

وأراد الله أن يلتقى ابن عباد بمن ملكت عليه فؤاده طوال حياته، والتى صارت ملكة إشبيلية الأثيرة، وصاحبة المكانة البارزة فى حياة ابن عباد فى أيام عزه ومجده ثم فى أيام محنته وأسره بعد ذلك، ألا وهى اعتماد جارية أحد وجهاء إشبيلية.

ويبدو أن الجمال فى إشبيلية كان جمالاً جامعًا بين الجمال العربى الشرقى، والجمال الأوربى الأندلسى، يقول جستاف ليبون: وإذا نظرت إلى نسوة إشبيلية على الخصوص رأيت الدم العربى يجرى فى عروقهن[2].

وسوف نستعرض لحظات اللقاء الأولى كما جاءت فى أغلب المراجع فهذا المستشرق دوزى يرسم لنا صورة هذا اللقاء، قال: كان الصديقان ابن عباد وابن عمار إذا غادرا شلب خلفاها إلى إشبيلية حيث يمارسان شتى ضروب الملذات التى لا تتوفر إلا فى هذه العاصمة الرائعة المتألقة، وكثيرًا ما كانا يمضيان متنكرين إلى مرج الفضة على شاطىء نهر الوادى الكبير حيث يختلف إلى هناك الرجال والنساء بحثًا عن اللهو والتسلية وطلبًا للترويح عن النفس، وقد التقى فى هذا

(١) دولة الإسلام ٢/ ٦١.
(٢) حضارة العرب ٢٩١.



المكان المعتمد لأول مرة بتلك الفتاة التى قدر لها أن تصبح رفيقة حياته، وذلك أنه بينما كان يتجول ذات مساء مع صديقه فى مرج الفضة إذ مس النسيم وجه الماء مسًّا هينًا فجعده، فارتجل المعتمد هذا الشطر: (صنع الريح من الماء الزرد[1])، ثم سأل ابن عمار أن يجيز الشطرة الثانية فعجز ابن عمار، ولكن قامت بذلك فتاة من بنات الشعب كانت على مقربة منهما فقالت: (أى درع لقتال لو جمد).

فتملك العجب ابن المعتمد أن يسمع فتاة صغيرة تبز ابن عمار فى الارتجال، خاصة أن الارتجال أمر قد شاع خبره عن ابن عمار، ثم نظر المعتمد إليها فشده بجمالها، وسرعان ما نادى أحد الخصيان ممن يتبعونه عن قرب، وأمره أن يأخذ الفتاة التى ارتجلت هذا الشطر إلى القصر، ثم بادر هو بالرجوع إليه.

فلما جيء بالفتاة سألها من تكون ومكانتها، فأجابت: اسمى اعتماد، ويلقبوننى بالرميكية نسبة إلى مولاى رميك بن حجاج، ومهمتى وضع السرج[2] على الدواب.

فسألها : أذات بعل أنت؟ فقالت: لا . فقال لها: أنت لى زوجة[3].

واشتراها المعتمد من سيدها رميك، ودخلت قصره سريّة، وأعتقها وتزوجها.

وهناك رأى آخر ذكره أ. عبدالله عنان فى زواج المعتمد، قال: ولزواج المعتمد بهذه المرأة الموهوبة اللامعة.. قصة تتردد بين التاريخ والأسطورة، فأما التاريخ فيقول لنا الرواة إن المعتمد حينما كان وليًا للعهد أيام والده المعتضد رأى اعتماد ذات يوم بصحبة مولاها رميك، وهو من وجهاء إشبيلية، فراقت لديه، فاشتراها منه، وهام بها حبًّا وتزوجها[4].

ويدهى أن تعتبر القصة الأولى أسطورة، وسواء كان الإعجاب قد حدث على هذا الوجه التاريخى أو بالوجه الأسطورى الشاعرى الآخر، فقد تم زواج الأمير الشاب بالساحرة الصغيرة اعتماد الرميكية.

* * *

---

(١) حلقات الدرع.

(٢) قيل : كانت تغسل ثيابها فى النهر.

(٣) المسلمون فى الأندلس ٣/٩٢.

(٤) دولة الإسلام ٢/٦٧.



سيدة القصر ومليكة القلب

ولنا أن نتخيل كيف تلقت هذه الفتاة الريفية البسيطة خبر زواجها من ولى العهد وتأكدها من ذلك عندما اشتراها ابن عباد من سيدها رميك، وانتقل بها فى لحظات من عاملة تضع السروج على الجياد إلى سيدة فى قصر إشبيلية،وكان ذلك فى عام ٤٥٢هـ.

ولم تضيع وقتًا، فحلاوة حديثها، ورقة ألفاظها، وعذوبة منطقها، وحضور بديهتها، وكثرة فكاهتها مع دلالها وجمالها وبشاشتها : كل ذلك جعل حبها يتسرب إلى قلب الأمير الصغير، حتى ملكت عليه فؤاده، وعاشت فى دمه وكيانه حتى آخر يوم فى حياته.

لقد أهلتها طبيعتها لهذا الدور، قال عنها صاحب أعلام النساء: كانت مليحة الوجه، حسنة الحديث، حلوة النادرة، كثيرة الفكاهة، لها فى كل ذلك نوادر محكية[١].

وقال المقَّرى : كان المعتمد كثيرًا ما يأنس بها، ويستظرف نوادرها، ولم تكن لها معرفة بالغناء، وإنما كانت مليحة الوجه، حسنة الحديث، حلوة النادرة، كثيرة الفكاهة، لها فى كل ذلك نوادر محكية[٢].

وبهذه الميزات التى وهبتها لها القدرة الإلهية صارت اعتماد السيدة الكبرى فى القصر، وغاية المنى لابن عباد، ومنتهى الأمل له، فإشاراتها أوامر، ورغباتها أيًا كانت لا بد أن تؤدى مهما تكلف فى سبيل تحقيقها.

إننا لم نعرف فيمن تحدثنا عنهن من نساء وراء الأحداث امرأة احتفظت باسمها الذى كان لها قبل أن تنضم إلى أحد بيوت الملك الحاكمة، بل إنهن كن يغيرن أسماءهن لتناسب المرحلة الجديدة فى حياتهن فى بيوت الخلفاء والسلاطين، اللهم إلا امرأة واحدة احتفظت باسمها الذى كان لها، فلم تغيره حين انضمت إلى بيت الملك العبادى، بل إنها بتأثيرها استطاعت أن تغير لقب زوجها ليحمل اسمها، إنها اعتماد الرميكية.

---

(١) أعلام النساء ١/ ٧١.
(٢) نفح الطيب ٤/ ٢٧٢.



قالت أغلب الروايات إنه تلقب بالمعتمد بعد زواجه منها، أى إنه اختار حروف اسمها لتكون فى صلب لقبه.

يقول ابن خلكان: فأفرط فى الميل إليها، وغلبت عليه، واسمها اعتماد، فاختار لنفسه لقبًا يناسب اسمها، وهو المعتمد[1].

لقد صارت الرميكية سيدة قصر الملك، خاصة عندما تولى المعتمد الملك بعد وفاة أبيه المعتضد عام ٤٦١ هـ (الموافق ١٠٦٨م)، وأصبحت مكانتها بارزة فى البلاط، ولها رأى فى شئون الحكم، وتمكن نفوذها من الدولة حتى أطلق عليها لقب :(السيدة الكبرى)، وقد ساعدت الظروف اعتماد حتى وصلت إلى قمة السلطة فى قصر بنى عباد، أولاً لأنها أنجبت للمعتمد كل أولاده تقريبًا، ذكورًا وإناثًا، الذين كانوا بهجة، ومصدر فخار لأبيهم وأمهم.

قالت زينب فواز: الرميكية أم أولاد المعتمد النجباء[2].

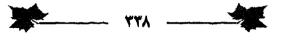
بز منهم الشاعر والقائد والمحارب والأديب والحافظ، وذكر لنا التاريخ أسماء بعض منهم: سراج الدولة عباد، ويزيد الراضى وأبو بكر المعتد بالله، وأبو الحسين الرشيد، ومالك فخر الدولة، والفتح، وعبدالله .. وغيرهم.

أما البنات فلم نعرف إلا اسم واحدة منهن فقط، هى الشاعرة بثينة، وسنذكر قصتها فى حديثنا عن خاتمة الرميكية إن شاء الله.

وثانى العوامل التى مهدت للرميكية احتلال هذه المكانة المميزة فى القصر الإشبيلى هو مشاطرتها المعتمد حب الشعر، فقد كان قصره منتدى الشعراء، وقبلة الآمال، جمع فيه أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء، يسمع منهم، ويطارحهم، ويجزل لهم العطاء، حتى صار قصره قبلة كل شاعر مشهور، وكانت اعتماد زينة هذه المجالس الأدبية، ومحط الأنظار فيها.

قال الأستاذ عبدالله عنان : وكانت تعيش فى هذا الأفق الأدبى الرفيع الذى يسيطر على بلاط إشبيلية، ويجتمع فى ظله أعظم شعراء العصر، وتشترك فى مجالس الشعر والأدب التى تزدان بحضور زوجه الحسناء الساحرة[3].

(١) وفيات الأعيان ٤/٤٢٩.
(٢) الدر المنثور ٤٢.
(٣) دولة الإسلام ٤/٦٧.



أشجار اللوز للرميكية

لقد تمكنت الرميكية من نفس المعتمد حتى إنه لا يستطيع أن يرفض لها طلبًا، وسنذكر طرفتين يظهر فيهما مدى تأثر المعتمد بهذه الزوجة، وسرعة استجابته لها، حتى ولو كان من قبيل المستحيل، فقد زرع لها شجرًا زهوره بيضاء، حتى يعوضها عن البَرَد والثلج الذى يسقط فى الشتاء، لأن منظره أعجبها.

قال دوزى : قد حدث فى أحد الأيام فى شهر فبراير أن نظرت ـ اعتماد ـ من كوة بإحدى نوافذ القصر بقرطبة، فأبصرت الثلج يتساقط قطعًا قطعًا، وكان هذا منظرًا قل أن يشاهد فى هذا البلد الذى لا يكاد يعرف الشتاء، فإذا بها تنفجر باكية على غير انتظار، فسألها زوجها: ماذا بك يا قرة العين؟ فأجابته وهى تتنهد: تسألنى عما بى، ويحك من قاس، ما أجمل هذا البَرَد، وما أفتن تساقط قطع الثلج!! فأجابها وهو يكفكف عبراتها التى انحدرت على وجنتيها: أناتك وسترين هنا إن شاء الله ما تحبين.

ثم أمر بزرع أشجار اللوز على جميع جبال قرطبة، عسى أن تكون أزهارها البيضاء التى تتفتح بعد انتهاء الصقيع تعوض الرميكية عن كرات الثلج المولعة بها[1].

* * *

(١) المسلمون فى الأندلس ٣/٩٣.



يوم الطين

وقصة أخرى تبين مدى هيام المعتمد بزوجه المليحة الفكهة، وقد أرخ العامة والخاصة يوم هذه القصة، ويسمونه (يوم الطين) ذكرها المقرى فى أخبار ابن عباد، قال: رأت الرميكية بعض نساء البادية بإشبيلية يبعن اللبن فى القرب، وهن رافعات عن سوقهن فى الطين، فقالت للمعتمد: أشتهى أن أفعل أنا وجوارى مثل هؤلاء النساء، فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد وصيرها جميعًا طينًا فى قصره، وجعل لها قربًا وحبالاً من إبريسم، وخرجت هى وبناتها وجواريها فى ذلك الطين[1].

وذكر المقرى القصة بصورة أخرى فى مكان آخر قال إنها رأت الناس يمشون فى الطين، فاشتهت المشى فى الطين، فأمر المعتمد فسحقت أشياء من الطيب، وذرت فى ساحة القصر حتى عمته، ثم نصبت الغرابيل، وصب فيها ماء الورد على أخلاط الطيب، وعجنت بالأيدى، حتى عادت كالطين وخاضتها مع جواريها.

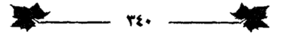
وغاضبها[2] فى بعض الأيام، فقد أقسمت أنها لم تر فيه خيرًا قط، فقال: ولا يوم الطين؟ فاستحيت واعتذرت. وهذا مصداق قول نبينا ﷺ فى حق النساء: **«لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئا، قالت: ما رأيت منك خيرًا قط»**[3].

أما دوزى فيروى القصة بصورة أكثر طرافة، يقول:

وحدث مرة أن شاهدت طائفة من نسوة الحى يعجن الطين بأقدامهن العارية لعمل الآجر، فبكت، فسألها عما يبكيها؟، فقالت: واشقوتى وأنا أسيرة هذا القصر، أما رأيت هؤلاء النسوة على شاطىء النهر؟ لوددت لو كنت معهن أفعل فعلهن، فأعجن الطين بقدمى العاريتين.. لكنك فرضت على الغنى والملك، فأجابها الأمير: حنانيك سيكون لك ما شئت.

---

(١) نفح الطيب ١/٤٤٠ . والإبريسم هو: نوع من الحرير.
(٢) جاء فى نفح الطيب١/٤٤٠ أنه لما خلع ، وكانت معه مرة فجرى بينهما ما يجرى بين الزوجين.
(٣) نفح الطيب ٤/٢٧٣.



وبادر فى لحظته فنزل إلى ساحة القصر، وأحضر كمية من السكر والقرفة والزنجبيل ومختلف أنواع الطيوب، ثم أمر الخدم بخلطها بالماء وعجنها بالأذرع حتى صارت عجينة، فلما فرغ الخدم من ذلك، قال للرميكية: هلا نزلت إلى الساحة، وعجنت الطين مع جواريك؟ فنزلت السلطانة، وخلعت هى ووصيفاتها نعالهن، وأخذن يغمسن أرجلهن فى هذا العجين المعطر، وهن جذلات مرحات[1].

وبعد قرابة عشرة قرون من هذه الحادثة ينفى أحمد شوقى أمير الشعراء إلى الأندلس، ويقف على أطلال مملكة المعتمد، ويغنى فى إحدى قصائده ليذكرنا بيوم الطين فيقول:

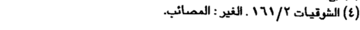
أين رومية ما قيصرها
ما لياليها المرنات الوتر؟
أين وادى الطلح[2] واللاتى به
من دُمًى يسحبن فى المسك الحبر؟[3]
أين نابليون ما غاراته
شنها الدهر عليه من غير؟[4]

هوى غالى الثمن، وحب باهظ التكاليف، لكن للقلب أحكامًا... لقد صنع لها عجينة طينية، لكن ليس فيها شىء من مكونات الطين، فبدل التراب والرمل وضع العنبر والكافور، وبدل الماء للعجن، وضعوا العطر والطيب، أما السطول والأوعية، فهى من الفضة والذهب، وحبال هذه الأوعية من الحرير، كل ذلك لترضى اعتماد.

لقد صور المعتمد حبه الغامر فى قصائده وشعره، وهذه أبيات ستة ضمت حروفها الأولى حروف اسمها، وكان قد سافر مع وزيره ابن عمار، فبعث لها بهذه الأبيات:

---

(١) المسلمون فى الأندلس ٩٣/٣.
(٢) متنزه للمعتمد له فيه قصر كبير، وربما كانت عجينة المسك للرميكية فى أحد أبهائه.
(٣) (ج) حبرة ، وهو لباس للمرأة.
(٤) الشوقيات ١٦١/٢ . الغير : المصائب.



أغـائـبـة الشـخص عـن نـاظـرى

وحـاضـرة فـى صـمـيـم الـفـؤادِ

عـلـيك الـسـلام بـقـدر الشـجـون

ودمـع الشئون[1] وقـدر السهـادِ

تـمـلـكت مـنـى صـعب الـمـرام

وصـادفت ودى سـهـل الـقـيـادِ

مـرادى لـقـيـاك فـى كـل حـيـن

فـيـا لـيت أنـى أعـطـى مـرادى

أقـيـمـى عـلـى الـعـهـد مـا بـيـنـنـا

ولا تـسـتـمـيـلـى لـطـول الـبـعـادِ

دسست اسـمـك الـحـلـو فـى طـيـه

وألـفت فـيـه حـروف اعـتـمـادِ[2]

لقد كانت حياة الزوجين سلسلة من اللذة والمتعة والبهجة، فالمعتمد لم يشغل نفسه إلا بالحياة الناعمة اللاهية العابثة، أما هموم الدولة فكانت تشغل حيزًا صغيرًا فى تفكيره، حتى لقد قال فى إحدى قصائده :

بـالـعـقـل تـزدحـم الـهـموم علـى الـحشا

والـعـقـل عـنـدى أن تـزول عـقـولُ

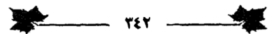
فأكثر وقته مع متع الحياة، قال دوزى: لقد استنفدت المآدب شطرًا كبيرًا من وقته، كما اضطرته رغبته فى تذوق لذائذ الحياة لصرف ما تبقى منه قرب الكواعب الحسان من حريم قصره، وإن لم يمنعه ذلك من البقاء على حبه للرميكية التى ظل هواها فى قلبه عنيفًا حيًا حتى مات .. فقد كان المعتمد يبعث بين حين وآخر بالهدايا إلى غيرها من النسوة، فلا تغضب الرميكية لوثوقها من سيطرتها على قلبه[3].

---

(١) شئون العين : مجاريها.

(٢) نقلاً عن «المسلمون فى الأندلس» ٣/٩٤.

(٣) المسلمون فى الأندلس ٣/١٠١.



لقد كانت حياة المعتمد رغدة رحبة، وعالمه كله شعرًا وندى وأكلاً وشربًا، فقصره مقصد العشاق، محط الرحال، وكعبة آمال الجميع، فالطباخون يعملون ليل نهار، والسقاءون لا يهدءون، والجوارى أكثر مما يتصور، منهن المغنيات والشاعرات وأمهات الأولاد، حتى قيلت عنه أخبار أقرب إلى الخيال، منها: أنه: ولد للمعتمد مائة وثلاثة وسبعون ولدًا، وكان لمطبخه فى اليوم ثمانية قناطير لحم، وكتّابه ثمانية عشر، وقال ابن العماد: وخُلع المعتمد من ملكه عن ثمانمائة سرية ومائة وسبعين ولدًا، وكان راتبه فى اليوم ثمانمائة رطل لحم[1].

هذه الأخبار التى أبقى عليها الزمن ليست هى كل ما جرى من أحداث فى تلك المملكة، بل هى النزر اليسير، ومع ذلك فهى تقدم لنا ما يشبه أن يكون مملكة الحب التى لم يتحقق مثلها للعشاق المشهورين من أمثال قيس وليلى، أو جميل وبثينة، أو كثيّر وعزة، فهؤلاء المحبون قد عذبهم الحب وأضناهم، وكأنما حاقت بهم لعنته، أما مملكة الحب التى نتحدث عنها فهى أشبه ما تكون بالخيال منها بالواقع.

ولولا أن الرواة يسوقون أخبار المعتمد ومعشوقته اعتماد مساقًا موثقًا، لما صدقنا شيئًا مما تضمنته هذه الحكايات، ولعزونا كل شىء فيها إلى الخيال، بل والخيال المشرِّق المغرب.

وحسبنا أن نتصور أن نظرة من الرميكية إلى الثلوج تحيل الوادى إلى جنة من أشجار اللوز ذات الزهور البيضاء، أو أن نتصور أن إشارة منها إلى بعض ما يعد من أحلام الطفولة وهو السير فى الوحل يحيل القصر إلى مخاضة من المسك والعنبر لتخطو فيها الحبيبة، وتتخيل أنها عادت لها أيام طفولتها حين كانت تخوض فى الطين فعلاً فقرًا وإملاقًا، إن هذا كله لا نظير له فى تاريخ المحبين، ولكنه ثابت فى سيرة هذين العاشقين ليحكى للأجيال تلك الدراما الكوميدية الحزينة التى لم تدم إلا سويعات ثم انتهت بأفدح التضحيات، وأعظم النكبات.

* * *

---

(١) شذرات الذهب ٣/٣٨٦.

بداية النكبات
اللصوص فى قرطبة

على أن الدنيا لا تدوم على حال واحدة، فالهناء والسرور والبهجة والسعادة لا بد وأن تنتهى، فقد بدأ العد التنازلى فى حياة الملك الأسطورة الأديب الشاعر المعتمد، وحياة زوجه الحسناء الرميكية، وكانت أولى الكوارث التى حطت عليهما: موت ولدهما عباد ـ الظافر بالله ـ الذى ولاه أبوه قرطبة وهو دون الخامسة عشرة، ولصغر سنه كان معه فى الحكم محمد بن مرتين، الذى كان قاسى القلب فظًا، سفاكًا للدماء، مما جعل أهل قرطبة يتصلون بابن عكاشة[1] اللص القديم الذى انتهز فرصة ليلة عاصفة ممطرة مرعدة من ليالى يناير عام ١٠٧٥م (الموافق عام ٤٦٨هـ) واقتحم غرفة الأمير الصغير ـ عباد ـ الذى دافع عن نفسه وعن مدينته دفاعًا مستميتًا، لكنه لم يستطع المقاومة، فقتل، وطرح فى الطين.

وسمع المعتمد النبأ المشؤوم : ضياع قرطبة، ومصرع ابنه البكر، ولكنه كظم غيظه، وكتم حزنه، وبذل المحاولات لاسترداد قرطبة حتى تحقق له ذلك فى سبتمبر عام ١٠٧٨م (الموافق ٤٧١هـ) بعد حوالى ثلاث سنوات، وقبض على ابن عكاشة، وصلبه بجوار كلب تشفيًا عن الفجيعة المؤلمة.

فلم يسكت عن الأخذ بثأره من قاتل بكره، والمستولى على قرطبة، قال ابن الأثير: ولم يزل المعتمد يسعى فى أخذها حتى عاد ملكها، وترك ولده المأمون فيها، فأقام بها، حتى أخذها جيش ابن تاشفين[2].

ولم ينس المعتمد تلك الحادثة طويلاً، قال المقَّرى : فكان المعتمد إذا تذكر صرعته، وسعر الحزن لوعته، رفع بالعويل نداءه، وأنشد:

ولم أدر من ألقى عليه رداءه[3]

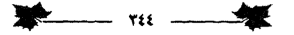
---

(١) قال ابن الأثير فى كتابه الكامل ٨/١٠٩: وملك ابن عباد قرطبة، وولَّى عليها ابنه الظافر بالله، فبلغ خبر ملكه لها إلى يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة، فحسده عليها، فضمن له جرير بن عكاشة أن يجعل ملكها له.

(٢) الكامل ٨/١١٠.

(٣) نفح الطيب ١/٦٢٦ ، وهذا صدر بيت لأبى خراش الهذلى، وعجزه:

على أنه قد سل عن ماجد محض



ابن عمار

وتأتى ثانية النكبات التى أصابت الملك الشاعر، وهذه المرة فى صديقه ووزيره ابن عمار، وبدأت بجفوة.

ولنعد قليلاً إلى أول الخمسينيات من القرن الخامس الهجرى، عندما دخلت الجارية اعتماد لأول مرة قصر إشبيلية، ومكانة ابن عمار فى قمتها، فهو يستأثر لدى المعتمد بالثقة والحب والعطف، والمودة، ولذلك وجدناه قد تغير عندما دخلت اعتماد قصر وقلب المعتمد، وخاف على مكانته ونفوذه من هذه الدخيلة، التى سخط عليها، وخشى بأسها ونفوذها، وحقد على تمكنها من الملك، خاصة كلما ذكر كيفية دخولها القصر من باب شطرة البيت الشعرى.

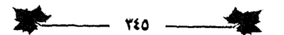
وكانت هى أيضًا تنظر إليه بنفس النظرة الساخطة عندما تذكر قوة تأثيره على ابن عباد، أورد دوزى قصة سفر ابن عباد، ثم بعثه بقصيدة للرميكية، قال: ثم ختم كتابه إليها بقوله: سألقاك إن شاء الله ربى، وشاء ابن عمار[1].

وبدأت المعركة بين ندّين، كل طرف يحيك الدسائس والمنافسة للطرف الآخر، حتى أسفرت النتيجة فى النهاية عن نجاح الرميكية فى إزاحة ابن عمار من طريقها بعد محنة رهيبة، وسجن وقيود من أقرب الناس إليه.

لقد كان ابن عمار من أعظم رجال الأندلس فى هذه الفترة من بين وزراء حكام الطوائف، كان رجلاً نابهًا، وقائدًا مجريًا، وسياسيًا بارعًا، شهد له الأعداء قبل الأصدقاء، فهذا ألفونسو السادس ملك قشتالة يقول عنه: هو رجل الجزيرة.

ولأن ابن عمار يحب الشعر، كان من أقرب الناس للمعتمد، ولأنه كان شجاعًا قويًا استولى له على ممالك كثيرة، وضمها لملك إشبيلية، مثل: بلنسية وريموندة، وأخيرًا اتجه إلى مرسية، التى فتحها ودخلها دخول الظافر، وحليت فى عينه الإمارة، وفكر فى الاستقلال عن المعتمد، والتمرد عليه، ساعتها أدرك المعتمد أنه كان مخدوعًا فيما أوحاه إليه قلبه، وأيقن أن مودة ابن عمار وتظاهره بالنزاهة وشدة الإخلاص لم يكونا إلا إفكًا وتضليلاً، وربما كان ابن عمار غير ذلك، ولكن

(١) المسلمون فى الأندلس ٣/ ٩٤.



حساده وأعداءه فى إشبيلية، وعلى رأسهم الرميكية، وأبو بكر ابن الشاعر ابن زيدون وغيرهما انتهزوها فرصة، وأخذوا يصورون ابن عمار فى أقبح صورة، واقتنع المعتمد بخيانة ابن عمار حتى قال قصيدة كلها سخرية، وتهكم عليه فيها:

كيف التفلت بالخديعة من يدىْ
رجل الحقيقة من بنى عمار

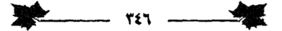
وسمع ابن عمار القصيدة، فأخرج ما فى نفسه من أحقاد على آل عباد والمعتمد والرميكية، وقال أبياتاً ترجم فيها عما بداخله، وتطاول فيها على بنى عباد، وذكر أنهم فلاحون مغمورون من قرية من قرى إشبيلية اسمها «يومين»[1]، قال فيها:

ألا حىِّ بالغرب حيا حلالا
أناخوا جمالا وحازوا جمالا
وعرِّج بيومين أم القرى
ونم فعسى أن تراها خيالا
لتسأل عن ساكنيها الرماد
ولم تر للنار فيها اشتعالا

ولم ينسَ أن ينفث حقده المشتعل على الرميكية، فقال:

تخيرتها من بنات الهجين[2]
رميكية ما تساوى عقالا[3]
فجاءت بكل قصير الذراع
لئيم النجادين عما وخالا
سار القدود ولكنهم
أقاموا عليها قروناً طوالا

(١) بدأ فيها بنو عباد حياتهم فى الأندلس.
(٢) فى وفيات الأعيان : الهجان. ويقصد أنها جارية لا أصل لها معروف.
(٣) العقال: صغار الماعز.



ولا يسكت ابن عمار، بل يلتفت إلى المعتمد مهددًا إياه بكشف ما كان منه أيام شبابه، يقول:

سأهتك عرضك شيئا فشيئا

وأهتك سترك حالا فحالا[1]

وزاد ابن عمار في هجائه المقذع، فقال في قصيدة أخرى:

مما يقبح عندي ذكر أندلس

سماع معتضد فيها ومعتمدِ

ألقاب مملكةٍ في غير موضعها

كالهر يحكي انتفاخا صولةَ الأسدِ[2]

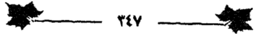
وقال ابن خلكان معلقًا على هذه الأبيات: والرميكية هي التي أغرت المعتمد بقتل ابن عمار لكونه هجاها، وقيل إن هذا الشعر ليس لابن عمار، وإنما نسبته إليه لكي توغر صدر المعتمد عليه.[3] والله أعلم.

ووصلت هذه الأبيات للمعتمد عن طريق يهودي وافد من الشرق، كان عينًا له، وأظهر الصداقة لابن عمار، وسرق الشعر بخط ابن عمار، وعلم ابن عمار، فرأى السلامة في الفرار، وفكر أول ما فكر في ألفونسو السادس، فهرب إليه، ولكنه صده قائلا: إنما مثلك مثل السارق سرق السرقة، فضيعها حتى سرقت منه، فسرقها غيره، فضيعها، فسرقها غيرهما[4].

ودار ابن عمار هنا وهناك، وفر من ملك إلى ملك، حتى وجد نفسه في سجن المعتمد في ربيع أول ٤٧٧هـ (أغسطس ١٠٨٤م) حيث اجتمعت عليه العوامل السياسية والشخصية لتنسج كفنه، ولم تنفعه التضرعات والقصائد والاعتذاريات.

---

(١) الدر المنثور ٤٢.
(٢) دولة الإسلام ٢/٦٦.
(٣) وفيات الأعيان ٤/٤٢٩.
(٤) المسلمون في الأندلس ٣/١١٧.



وكانت آخر قصيدة بعثها للمعتمد كتبها بدمعه ودمه، قال فيها:

لك المثل الأعلى وما أنا حارث
ولا أنا عبد غيرته الحوادثُ
أبعد انقضا خمس وعشرين حجةً
تجافت لنا عنها الخطوب الكوارثُ
مضت لم تُر مني أمور شوائب
ولا تليت عني مساع خبائثُ
حللت يدًا بي هكذا وتركتني
نهابا وللأيام أيد عوابثُ
ستذكرني إن بان حبلي وأصبحت
تبيد بكفيك الحبال الرثائثُ
وتطلبني إن غاب للرأي حاضر
وقد غاب مني للخواطر باعثُ[1]

ولم تؤثر هذه الكلمات وغيرها في المعتمد، وأصر على القضاء عليه.

وفي يوم ـ كما تقول الرواية ـ أسرع المعتمد وتناول أقرب سلاح صادفه، وهو (طبرزين)[2] كان ألفونسو قد أهداه إليه ودخل على ابن عمار المقيد بالحديد، وأخذ يضربه حتى أسلم الروح في أواخر عام ٤٧٧هـ (أوائل ١٠٨٥م) ودفن بجوار سور القصر المبارك في إشبيلية.

وقد كان للرميكية حين رأت ابن عمار مقتولاً تعليق جسد ما في نفسها من شماتة وسخرية وتشف، لقد علق المعتمد آلة الطبرزين برأسه، وتركها، فعلقت الرميكية قائلة: لقد بقي ابن عمار هدهدًا[3].

(١) المسلمون في الأندلس ٣/١١٥.
(٢) بلطة كبيرة.
(٣) نفح الطيب ٤/٢١٢.



وليس هنالك موقف يجمع بين عناصر المأساة والملهاة، بين القسوة فى أبشع صورها والسخرية فى أخبث مستوياتها ـ أعجب من هذا الموقف، لقد فقدت المرأة طباع أنوثتها، وتحولت إلى حيوان مفترس، يتلمظ لفريسته، لا يهتز لها طرف، ولا يقشعر لها ضمير، وصار الجمال مجرد طلاء فى وجه مجدر.

لم يغب عن ابن عمار أن الرميكية هى أساس هذا التصرف من ابن عباد، وطالما أشار لذلك فى قصائده التى يتوسل فيها طالبًا العفو فيقول له مثلا:

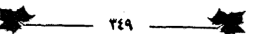
فلا تلتفت قول الوشاة ورأيهم

فكل إناء بالذى فيه يرشح[1]

ولكنه التفت،وحقق أمنية الرميكية، وقتل ابن عباد وزيره الشاعر المبرز، رفيق صباه، ويده اليمنى فى كل مشاريعه من خمس وعشرين سنة، وكانت هذه الضربة الدموية من أفدح أخطاء المعتمد التى سببت له التنغيص فى حياته بعد ذلك، هذه الحياة التى تكدرت بمقتل بكره عباد، ثم بمصرع صديقه على يديه.

* * *

(١) تاريخ الإسلام ٤/٤٦٤.



الفرنجة وملوك الطوائف

أما ثالثة الأثافى فى الكوارث فهى الفرنجة، ولنبدأ سرد هذه القصة من أيام المعتضد الذى كان أقوى ملوك الطوائف، لكنه كان يحس بالصغار بجانب ملك قشتالة فرناندو الذى فرض عليه دفع جزية سنوية قدرها المؤرخون بعشرين ألف دينار، وذلك من عام ٤٥٥ هـ (الموافق ١٠٦٣م) ولما تولى المعتمد عام ٤٦١هـ (الموافق ١٠٦٨م) سار على درب أبيه فكان يدفع الجزية لألفونسو السادس الذى تولى قشتالة بعد أبيه، واستولى على مملكتى أخويه: شانجة وغرسية.

وكانت خطة ألفونسو للقضاء على ملوك الطوائف مدروسة، فهو يأخذ الجزية، ثم يضاعفها سنة وراء سنة، مع اقتطاع بعض حصونهم كلما سنحت الفرصة، وقد نجحت خطته، وبدأ الضعف يدب فى أوصال ملوك الطوائف فى الوقت الذى يعتز هو بسلطانه وقوته، ويجاهر باحتقارهم والاستهانة بهم.

قال أ. عبدالله عنان : قال ألفونسو لسفير المعتمد، وهو يهودى يدعى ابن مشعل: كيف أترك قومًا مجانين تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم المعتضد والمعتمد والمعتصم والمتوكل والمستعين والمقتدر والأمين والمأمون، وكل واحد منهم لا يسلُّ فى الذب عن نفسه سيفًا، ولا يرفع عن رعيته ضيمًا، ولا حيفًا، قد أظهروا الفسوق والعصيان، واعتكفوا على المغانى والعيدان، وكيف يحل لبشر أن يُقر منهم على رعيته أحدًا، وأن يدعها بين أيديهم سدى[١].

والمصيبة أن المعتمد لم يكتف بالجزية التى كانت تدفعها سنويًا مملكة إشبيلية المسلمة لمملكة قشتالة النصرانية من أيام المعتضد أبيه، إنما تحالف حلفًا ثانيًا مع ألفونسو[٢] إثر اعتداء ملك غرناطة[٣] على حدود بلاده.

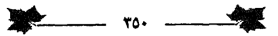
يقول أ. عنان : وخرج عبدالله بن بلقين[٤] فى قواته ومعه سرية من حلفائه النصارى، وأغار على أراضى ابن عباد، وعاث فيها .. ولم يقف ابن عباد مكتوفًا إزاء

(١) دولة الإسلام ٢/ ٧٤.

(٢) ملك ليون وقشتالة وغاليسيا ونفارة.

(٣) اسمها الآن جرانادا.

(٤) فى عام ٤٦٧هـ.



هذه الحركة، فاتجه بدوره إلى النصارى، وأرسل وزيره الشهير أبا بكر بن عمار[1] إلى ملك قشتالة ألفونسو السادس، فعقد معه حلفًا، ودفع مقابل عقده خمسين ألف دينار، ويقضى بأن يتعاون المعتمد وألفونسو السادس على افتتاح غرناطة، وأن تكون المدينة ذاتها للمعتمد، وأن تكون ذخائر القلعة الحمراء لألفونسو...[2].

وقد زادت الرواية القشتالية فى موضوع هذا الحلف: أن يقوم ملك قشتالة بمعاونة المعتمد فى حروبه ضد سائر أعدائه من الأمراء المسلمين.. وتزيد زيادة فاضحة: بأن المعتمد قدم فى هذه المناسبة إحدى بناته لتكون زوجة أو حظية لملك قشتالة..[3].

لقد نخر السوس فى بنيان الممالك الإسلامية بسبب الملوك، ولابد من يقظة أو هزة ليستيقظ هؤلاء الموتى، وقد كان، لقد اهتزت الأرض تحت أرجل ملوك الطوائف عندما جمع ألفونسو قواته، وانقض على طليطلة، واستولى عليها[4] فى ٢٥ مايو ١٠٨٥م (الموافق صفر ٤٧٨هـ) بسبب خيانة وضعف ملكها المسمى بالقادر.

والكارثة فى حال ملوك الطوائف، فبعد أن دخل الإمبراطور ألفونس السادس طليطلة التى كانت عاصمة المملكة القوطية القديمة، كان رد فعل هؤلاء الملوك مخيبًا، فتفاهة شأنهم، وضآلة قدرهم، ودناءة نفوسهم، جعلتهم يتسارعون ويبادرون إلى تهنئة ألفونسو بالنصر المؤزر والفتح العظيم الذى حققه، وبعثوا إليه بهداياهم، وقد شجعه هذا على ضم بعض المدن حول طليطلة، والتفت إلى بلنسية وسرقسطة، فأخذهما، ثم فكر فى درة البلاد الأندلسية، وبدأ فى وضع خطة للاستيلاء على إشبيلية كبرى ممالك الطوائف، وبعث إلى المعتمد برسالة ملؤها التهديد والوعيد.

والعجيب أن السفير كان يهوديًا يسمى (ابن شاليب) وكما يقول دوزى: كانت العادة جرت فى تلك الأيام أن يقوم اليهود بالوساطة بين المسلمين والمسيحيين.

---

(١) قبل أن يقتله بعشر سنين.

(٢) دولة الإسلام ٢/٦٣.

(٣) المرجع السابق ٧٣.

(٤) قال ابن خلكان : فى يوم الثلاثاء ، مستهل صفر، كانت أول الأعمال التى دلت على أن ألفونسو معتد أثيم هى تحويل المسجد الكبير فى طليطلة إلى كنيسة، واحتفل بذلك فى يوم الأحد ١٨ ديسمبر ١٠٨٥م (١٥ شعبان ٤٧٨هـ).

ونص الرسالة فى كتابه (دولة الإسلام فى الأندلس ٢/٧٥) ومضمونها أن ينزل له عن الحصون، ويترك للمسلمين السهول... عندئذ فقط، أفاق المعتمد على الكارثة التى رمى نفسه فيها عندما وضع يده فى يد الملك القشتالى، ولذلك كان رد فعله عنيفًا.

قال ابن الأثير: .. وكان رسول ألفونسو فى جمع كثير، فأنزله المعتمد، وفرق أصحابه على قواد عسكره، ثم أمر كل من عنده منهم رجل أن يقتله، وأحضر الرسول[١]، وصفعه حتى خرجت عيناه، وسلم من الجماعة ثلاثة نفر، فعادوا إلى الأنفونس - ألفونسو - فأخبروه الخبر، وكان متوجهًا إلى طليطلة ليجمع آلات الحصار[٢].

وقد أضاف ابن خلدون ملاحظة عن أصل هذا الرسول الذى صُفع، قال: وضايق الطاغية[٣] ملوك الطوائف فى طلب الجزية، فقتل ابن عباد ثقته اليهودى الذى كان يتردد إليه لأخذ الجزية، بسبب كلمة أسفً بها[٤].

* * *

(١) اليهودى ابن شاليب، وقالت رواية أخرى: إنه صلبه.
(٢) الكامل ٨/٤٣٩.
(٣) الملك ألفونسو.
(٤) ابن خلدون ٤/٣٤١.

العلماء والمحنة

ويسأل سائل: أين علماء المسلمين، وأصحاب الفتوى من تصرفات هؤلاء الملوك؟ ونظن أنهم حاولوا الإصلاح ما استطاعوا، ولكن الله لم يوفقهم فى تغيير مسار هؤلاء الملوك المستضعفين، وقد كان لسان حالهم يقول: هذه أكثر مدن الإسلام قد تغلب عليها الفرنج، وملوكنا مشتغلون بمقاتلة بعضهم بعضًا، وإن استمرت الحال على هذا المنوال ملك الفرنج جميع البلاد.

قال ابن خلكان: وجاءوا إلى القاضى عبيد الله بن محمد بن أدهم[1]، وفاوضوه فيما نزل بالمسلمين، وتشاوروا فيما يفعلونه[2].

والعجيب أن العلماء أرجعوا ما عليه حالهم لضعف ملوكهم، وتمزق صفوفهم فى جميع البلاد، أما فى إشبيلية فأرجعوا ما أصاب المسلمين من ضعف إلى موقف الرميكية، وتسلطها على ابن عباد أكبر ملوكهم، واتفق رأيهم على الاستنجاد بابن تاشفين ملك المغرب[3]، ويعثوا له بنتيجة مشاورتهم وفتواهم.

قال دوزى: ... وتضمنت الفتوى الخالدة عددا كبيرًا من الاتهامات ضد جماعة معينة من الأمُراء، ولم يستثنوا من ذلك الرميكية، فاتهموها بأنها أغرقت زوجها فى بحار من اللذة لا انتهاء لها، وأنها هى السبب الرئيس فى انصراف الناس عن التعبد، ونهج الطريق القويم[4].

أما أ. عنان فيقول عن الرميكية: وهذه الحياة الساخرة اللامعة فى أعظم بلاط لملوك الطوائف كانت من جهة أخرى مدعاة للطعن فى تصرفها وأخلاقها، فمثلاً ينقل

---

(١) قاضى قرطبة من قبل المعتمد من عام ٤٦٨ هـ، توفى عام ٤٨٦هـ.

(٢) وفيات الأعيان ٥/٢٨.

(٣) زعيم المرابطين، ولد عام ٤٠٠ هـ (الموافق ١٠٠٩م) حميرى من قبيلة لمتونة، وهى بطن من بطون صنهاجة، القبيلة البربرية من فروع قبيلة البرانس الكبرى، أمه اسمها فاطمة بنت سيرين بن يحيى من لمتونة أيضًا، توفى أول محرم عام ٥٠٠ هـ (ديسمبر ١١٠٦م)، وكان ابن تاشفين قد اختط مدينة مراكش وجعلها عاصمة له عام ٤٦٥هـ، قال د. عبدالهادى التازى عن قصة بناء مراكش: زينب النفراوية من إحدى نساء العالم المشهورة بالرياسة والجمال، وقد تميزت بالدور الذى قامت به فى إرساء دولة المرابطين، وعلى شرفها شيد يوسف بن تاشفين عاصمته مراكش (تاريخ المرأة فى المغرب الإسلامى ٢٢٠)، وقال ابن الأثير: أول مسير الملثمين من اليمن أيام أبى بكر الصديق، فسيرهم إلى الشام، وانتقلوا إلى مصر، ودخلوا المغرب مع موسى ابن نصير، وتوجهوا مع طارق إلى طنجة، فأحبوا الانفراد، فدخلوا الصحراء واستوطنوها. (الكامل ٨/٣٢٨).

(٤) المسلمون فى الأندلس ٣/١٥٠.



إلينا التيجانى[1] الأندلسى عن الحجارى فى حق الرميكية ما يأتى: وهى التى ورطت المعتمد فيما ورطته من الخلاعة والاستهتار والمجاهرة، حتى كتب أهل إشبيلية عليه بذلك، وبتعطيل صلوات الجمع عقودًا، ورفعوها إلى أمير المسلمين[2].

وفى الوقت الذى كان يرفع فيه الفقهاء طلبهم ليوسف بن تاشفين لنجدة مسلمى الأندلس، كان أمراء الطوائف وعلى رأسهم المعتمد بن عباد يحققون نفس الفكرة، ويتجهون نفس الاتجاه، حتى إن رواية تقول: إن المعتمد نفسه هو الذى عبر البحر مع جماعة من الزعماء، وسار إلى المغرب لمقابلة أمير المسلمين[3] ليستنصره بنفسه للجهاد، وإنقاذ الأندلس.

قال د. حسن إبراهيم: وفى عام ٤٧٩ هـ عبر المعتمد البحر قاصدًا مدينة مراكش حاضرة الدولة المرابطية مستنجدًا بأمير المسلمين.. وكان إذ ذاك بمدينة سبتة .. فلبى ابن تاشفين نداء المعتمد، وقال له: أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين، ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسى[4].

وفى هذا الوقت ظهر أناس يرون عدم الاستعانة بابن تاشفين دون أن يقدموا حلاً آخر، فقال المعتمد قولة مدوية: إن دهينا من مداخلة الأضداد لنا، فأهون الأمرين أمر الملثمين[5]، ولأن يرعى أولادنا جمالهم أحب إلينا من أن يرعوا خنازير الفرنجة[6].

وفى رواية أخرى قال: لأن أكون سائق جمال فى صحراء إفريقية خير من أن أرعى الخنازير فى قشتالة[7].

---

(١) أبو عبدالله التيجانى الأندلسى المالكى، له كتاب مخطوط فى الإسكوريال اسمه (تحفة العروس) عن تاريخ الأندلس.

(٢) دولة الإسلام ٢/٣٥٨.

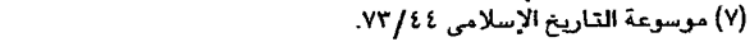
(٣) أجمع المؤرخون على أن ابن تاشفين أتخذ هذا اللقب بعد معركة الزلاقة وأن أول من دعاه بهذا هو المعتمد بن عباد، وأقره على ذلك الخليفة العباسى.

(٤) تاريخ الإسلام السياسى ٤/١٢٠.

(٥) الملثمون أو المرابطون هم تلاميذ عبدالله بن ياسين الزعيم الروحى لهم فى الرباط، الذى أنشأه للدرس والعبادة فى صحراء المغرب، حيث قبيلة لمتونة، أما تسميتهم بالملثمين فأنهم كانوا يغطون وجوههم بلثام يقيهم هاجرة الصحراء، أما نساؤهم فكن يكشفن الوجوه، قال ابن خلكان، أما مؤسس دولة المرابطين فهو أبو بكر اللمتونى، وذلك عام ٤٨٠ هـ ، وكان قد اتفق مع ابن تاشفين على فتح بلاد المغرب، والقضاء على الوثنية، وقال أ. حسن إبراهيم فى(تاريخ الإسلام السياسى ٤/١١٧) : ويذهب بعض المؤرخين إلى أن صنهاجة فخذ من هوارة ، فهى حميرية الأصل لأن هوارة فخذ من حمير.

(٦) وفيات الأعيان ٧/١١٦.

(٧) موسوعة التاريخ الإسلامى ٤٤/٧٣.





معركة الزلاقة

جمع يوسف بن تاشفين الفقهاء ليسمع مشورتهم، ويهتدى بنصحهم بعد طلب أمراء الطوائف وعلماء الولايات وقضاتها، وكان إجماع المفتين على مقاتلة القشتاليين، فأسرع يوسف وأصدر أمرًا إلى قواته بالتجمع فى سبتة، والإقلاع إلى الجزيرة الخضراء التى تخلى عنها ابن عباد بناء على أمر يوسف.

وعبر الجيش المرابطى مضيق جبل طارق فى ربيع أول عام ٤٧٩هـ (الموافق ٣٠ يونيو ١٠٨٦م)، وتحرك معه قليل من الأندلسيين إلى مكان قرب بَطَلْيَوْس سماه المسلمون الزلاقة، ويعرفه النصارى Sacralias حيث كانت موقعة أعاد بها يوسف بن تاشفين للأذهان صورة الفتوحات الإسلامية الأولى أيام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاص وعقبة بن نافع وطارق بن زياد وموسى بن نصير، فقد كان أول عمل عمله هو أن بعث برسالة إلى ألفونسو يدعوه فيها إلى الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب.

قال دوزى : فاستشاط ألفونسو غيظًا، واحتد حدة عمياء، ورد معلنًا أنه لم يكن يتوقع مثل هذه العروض الجارحة المهينة من المسلمين الذين دأبوا على دفع الجزية منذ عدة سنوات[1].

ورد يوسف بأقصر توقيع : سترى ما سيكون.

وقامت القيامة، واشتعلت الحرب بين خمسين أو ستين ألفًا من القشتاليين، وعشرين ألفًا من المسلمين، واشتد القتال، وأرخى الظلام سدوله، وقد امتلأت ساحة المعركة بالنصارى بين قتيل وجريح وهارب، وأبلى المعتمد بن عباد بلاء حسنًا، وأصابته عدة جراحات فى وجهه وبدنه، وشهد له بالشجاعة، ونصر الله المسلمين فى يوم الجمعة ١٢ من رجب عام ٤٧٩هـ[2] (الموافق ٢٣ من أكتوبر ١٠٨٦م).

---

(١) المسلمون فى الأندلس ١٣٢/٣.

(٢) قال بعض المؤرخين : وقعت الزلاقة فى رمضان عام ٤٨٠ هـ، وقال ابن خلكان فى ١٠ رمضان عام ٤٧٩ هـ، والله أعلم.

لقد كانت معركة الزلاقة[1] يومًا من أيام الله يسطر بجوار يوم فتح مكة واليرموك والقادسية، عمت به الفرحة، وتردد اسم الأمير الفاتح على كل لسان، فهو منقذ الأندلس من براثن القشتاليين.

ولم يكن الموقف المشرف لابن تاشفين فقط، وإنما ظهرت صورة ناصعة للمعتمد.

يقول د. حسن إبراهيم . ثم جاء يوم الجمعة، وخرج ابن تاشفين للصلاة، وأوجس المعتمد خيفة من ناحية المسيحيين، وظل فى جنده شاكى السلاح، وحمل المسيحيون على المسلمين، ففاجأهم جند المعتمد، وحمل المرابطون السلاح..."[2].

وبعد المعركة أسرع ابن تاشفين وعبر إلى المغرب وسط دعاء الفقهاء والأمراء والعامة.

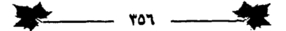
لقد كان من أهم نتائج انتصار المسلمين فى الزلاقة تأخير السقوط النهائى للأندلس لمدة أربعة قرون وأكثر، وقد سعد الأمراء بذلك، حتى إن ابن عباد هو الذى لقب ابن تاشفين بأمير المسلمين، وناصر الدين[3]. وكانت هذه التسمية مقابلة للقب ألفونسو السادس الذى كان يطلق عليه أمير المسيحيين.

أما ألفونسو فلم يسكت بعد هذه الهزيمة، وإنما جمع نفسه وجيشه المهلهل، واستعان بأمراء الممالك البرتغالية، وأسرع واتجه إلى المرية[4] ومرسية ولورقة، وحاصرها، وفى نفس الوقت ـ كالعادة ـ انصرف أمراء المسلمين إلى خلافاتهم، وبدأت بينهم المكايد بعد أن ضرب بعضهم بعضًا عند يوسف بن تاشفين.

يقول دوزى : كان عدم التبصر أمرًا شائعًا بين جميع الأمراء الأندلسيين، فقد جرحوا أنفسهم كلهم عند يوسف، الذى جعلوا منه فيصلاً يقضى بما يراه فى المنازعات الشاجرة فيما بينهم، فبينما كان ملك المرية[5] يسعى فى تغيير قلب ابن تاشفين على ملك إشبيلية، كان المعتمد نفسه يعمل على إسقاط ابن رشيق أمير مرسية[6].

---

(١) فى حدود دولة البرتغال الحالية.
(٢) التاريخ الإسلامى ٤/ ١٢١.
(٣) التاريخ الإسلامى ٤/ ٣١٤.
(٤) أو شنت مارية.
(٥) محمد بن صمادح بن معن المعتصم.
(٦) المسلمون فى الأندلس ٣/ ١٤٤.



أما النصارى فقد ظهر فى مقدمتهم الفارس القمبيطور الإسبانى متجهًا إلى (بلنسية) لتأكده أن الأندلسيين لا يستطيعون الدفاع بمفردهم عن أنفسهم، وأن مآلهم الاستسلام إن لم ينهض يوسف مرة أخرى لإنقاذهم، لكن أسرع المعتمد وعبر لأمير المرابطين مرة ثانية، وأجابه الأمير، وجاء فى ربيع أول عام ٤٨١هـ (يوليو ١٠٨٨م) فى جيش، وقابل الإسبان والبرتغال، وكانت النتائج هذه المرة من الوقائع غير الموفقة تمامًا.

يقول دوزى شارحًا السبب: إنما يرجع إلى موقف الأمراء الأندلسيين الذين كانت مكائدهم وغيرتهم من بعضهم وشقاقهم الدائم فيما بينهم حجر عثرة فى سبيل الحاكم العظيم، ومنعه من كل ما قد يستطيع عمله لتحقيق مهمته على الوجة الأكمل، لو أنه انفرد وحده بالأمر من دونهم[1].

* * *

(١) المسلمون فى الأندلس ٣/ ١٤٤.



ابن تاشفين والأندلس

وعاد ابن تاشفين للمغرب، ولكنه عاد فى هذه المرة وقد تأثر بما شهده من اختلال أحوال الأمراء، وضعف عقيدتهم الدينية وانهماكهم فى الترف والعيش الناعم، ورأى أن الشقاق بينهم وتربص العدو بهم سوف يمهد لاستيلاء النصارى على الجزيرة فى أقرب وقت.

وأمر آخر أشار إليه أ. عنان حاز تفكير ابن تاشفين عند عودته إلى المغرب المرة الثانية، قال: ولم يغب عن يوسف ـ وهو ذلك الجندى العظيم ـ أهمية الصلة ـ الدفاعية الإستراتيجية الوثيقة ـ التى تربط بين ضفتى العدوة والأندلس المتقابلتين على طرفى المضيق، ولم يفته أن يدرك أن سقوط الأندلس فى أيدى النصارى معناه سقوط جناح المغرب الدفاعى من الشمال، ومعناه تهديد إسبانيا النصرانية لسلامة المغرب[1].

وقال أ. عنان أيضًا: ولم يكن أمير المسلمين تعوزه المبررات فى قتال ابن عباد، فقد كان لديه المبررات المادية والشرعية الكافية، ذلك أنه احتاط للأمر واستصدر الفتاوى الشرعية اللازمة .. أما عن المبررات المادية فقد وقعت فى يد يوسف بعض المراسلات السرية الموجهة من ابن عباد إلى ملك قشتالة يستغيث به، ويطلب معونته[2].

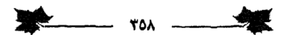
لقد تسارعت الأحداث، فما إن وصل ابن تاشفين المغرب، حتى لاحقته الأخبار، أولها: من عساكره فى الأندلس، تفيد بأن الأمراء قد قطعوا المؤن والمدد عنهم، ثانيها: أن بعض الأمراء مثل ابن بلقين صاحب غرناطة، والمعتمد صاحب إشبيلية قد صادقوا ومالأوا ألفونسو السادس، واتفقوا سرًا على التعاون فى رد المرابطين.

وبعث أكابرُ الفقهاء الأندلسيون إلى ابن تاشفين يحضونه على القضاء على هؤلاء الأمراء الفسقة الدعار الكفار ـ كما سموهم ـ وحملوه المسئولية[3]، وقالوا

(١) دولة الإسلام فى الأندلس ٢/٣٣٩.

(٢) المرجع السابق.

(٣) قال أ. عنان : وتلقى هذا الرأى من أكابر فقهاء المشرق وفى مقدمتهم أعلام كالإمام الغزالى وأبى بكر الطرطوشى. (دولة الإسلام فى الأندلس ٢/٣٣٨).



له : إن هم إلا قوم لا تحل طاعتهم، ولا تجوز إمامتهم لأنهم فساق، فأجلهم عنا، فإن كانوا عاهدوك فها هم قد ناهضوك، وأرسلوا إلى ألفونس أن يكونوا معه عليك، حتى يوقعوك بين يديه، ويعود أمرهم إليه، فبادر بخلعهم .. فإنك إن تركتهم - وأنت قادر عليهم - أعادوا بلاد الإسلام إلى الروم، وكنت أنت المحاسب بين يدى الله تعالى[1].

وليس مجالنا الآن الحديث عن الدوافع التفصيلية لما قرره ابن تاشفين، ولكن نقول: إنه رجع إلى شبه جزيرة الأندلس للمرة الثالثة فى أوائل عام ٤٨٣هـ (الموافق ١٠٩٠م)، وقد انتهى إلى قرار بالغ الخطورة: هو الاستيلاء على الأندلس من ملوك الطوائف.

بعد عبور مضيق جبل طارق، فتح المرابطى ابن تاشفين الأندلس، وقضى على ملوك الطوائف، وأخر خروج المسلمين منها لعدة قرون بعد ذلك[2].

وفى رجب عام ٤٨٣هـ (الموافق سبتمبر ١٠٩٠م) انتهى عصر ملوك الطوائف فى الأندلس، وبدأ عصر المرابطين أو الملثمين بقيادة يوسف بن تاشفين.

* * *

---

(١) دولة الإسلام ٢/٣٤٤.

(٢) سقط آخر معقل إسلامى فى غرناطة فى يد فرناندو الخامس وزوجه إيزابيلا عام ٧٦٧هـ (الموافق ١٤٩٢م).

المعتمد والرميكية فى الأسر

استولى ابن تاشفين على المرية وقرمونة وقرطبة وغرناطة، ثم بعث جيشه بقيادة سير بن أبى بكر[1] إلى إشبيلية، وهنا تأكد ابن عباد أنه كمن استجار من الرمضاء بالنار، عندما استنجد بابن تاشفين، فأسرع واستدار إلى عدوه وعدو المسلمين، لقد ظن أن عدوه ربما وقف بجانبه، ورد إليه بلاده من ابن تاشفين، وبعث إليه ألفونسو بعشرين ألف فارس وأربعين ألف رجل، لقد أخطأ المعتمد خطأ مزريًا فاحشًا، عندما طلب من عدوه المساعدة، التى جاءت بسرعة، ولكن قضى عليها المرابطون، وأخيرًا اضطر المعتمد للاستسلام بعد حصار لإشبيلية دام أربعة أشهر، حتى تسلمها المرابطون فى ٢٢ رجب ٤٨٤ هـ (٧ سبتمبر ١٠٩١م)، وكان من شروط الاستسلام أن يستسلم ولدا ابن عباد أيضًا: وهما أبو بكر المعتد القائم على حراسة حصن (مرتلة) ويزيد الراضى[2] القائم على (رُندة)، ورفض الشابان لولا تدخل الرميكية وتوسلاتها لهما، وأفهمتهما أنهما يشتريان حياة أبيهما وإخوتهما وأخواتهما، واستجاب الشابان، ولكن قتل يزيد الراضى عقب استسلامه وتبعه بعد ذلك المعتد بالله.

لقد تكاثرت الرزايا على الرميكية، ورأت وجه الدنيا الكئيب، فأصابها الثكل بعد أن قتل لها ستة أولاد فى هذه الحروب هم : الفتح المأمون ويزيد الراضى وأبو بكر المعتد بالله ومالك فخر الدولة وعباد الظافر والمؤتمن، وقد رثاهم ابن عباد بشعر كله ألم وأسى ومرارة، ومن ذلك قوله:

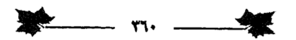
يقولون صبرًا لا سبيل إلى الصبرِ

سأبكى وأبكى ما تطاول من عمرى

---

(١) ابن أخ يوسف بن تاشفين لأمه، وزوج ابنته.

(٢) قال أ. عنان فى كتابه دولة الإسلام ٢/٣٥٣ : كان يزيد الراضى أنبه أبناء المعتمد فى ميدان الشعر والأدب، وكان شاعر بنى عباد بعد أبيه وقرينه فى نظم القريض الفائق ، وكان فوق ذلك عالمًا أديبًا حافظًا للشريعة ، خبيرًا بأنساب العرب ولغاتها.



ويقول مخاطبًا ولديه (الفتح ويزيد):

ولو عدتما لاخترتما العود فى الثرى

إذا أنتما أبصرتمانى فى الأسرِ[1]

ويقول :

ونجمان زين للزمان احتواهما

بقرطبة النكداء أو رندة القبر

فقل للنجوم الزهر تبكيهما معى

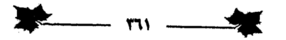
لمثلهما فلتحزن الأنجم الزهرُ[2]

هذه الرزية الأولى... أما الرزية الثانية فهى هزيمة المعتمد، وقرار المنتصر بأن يؤسر هو وأسرته، ثم رحيلهم مع الملك المأسور، فخرجت الرميكية مع بناتها وولدها الصغير أبى الحسين الرشيد، كل ذلك جعلها ترى الدنيا على حقيقتها، بعد أن عاشت فى بهرجها وخديعتها من أول يوم وطئت فيه قصر المعتمد.

لقد تحقق للشعب المسلم وللفقهاء ما أرادوا، وانضوت الأندلس تحت لواء سلطان واحد مسلم، شديد التدين، هو ابن تاشفين، ولكن هذا النصر كان وبالاً على آل عباد الذين سقطوا بدخول إشبيلية تحت لواء المرابطين.

ولم يكن هذا السقوط آخر ما ابتلى به المعتمد وزوجه الرميكية، إنما تبعه ابتلاء الاعتقال والأغلال والذل، ثم النفى إلى مكان بعيد عن الأندلس، اختاره ابن تاشفين ليجرع المعتمد فى جنباته كأس الذل إلى النهاية، ولا يليق أن يحكم على ابن تاشفين بأنه ظالم متشف فى ابن عباد، إنما هو يحاسبه بقدر فعله، فهو يعتبره قطب الفتنة فى الأندلس، حليف النصارى الخانع المذنب فى حق دينه ووطنه، لقد حكم عليه بذلك عندما عاش عنده فترة فى إشبيلية بعد رحلته الثانية، وقال فيه قولاً أشبه بحكم القاضى، قال: الذى يلوح من أمر هذا الرجل أنه مضيِّع لما فى يده من الملك لأن هذه الأموال التى تعينه على هذه الأحوال لا بد أن يكون

(١) الكامل ٨/ ٤٧٠.
(٢) نفح الطيب ٤/ ٢٥١ ، والذى قتل بقرطبة هو المعتد بالله أبو بكر، أما من قتل برندة فهو يزيد الراضى.



لها أرباب لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبدًا، فأخذه بالظلم وأخرجه فى هذه الترهات، وهذا من أفحش الاستهتار[1].

وجاءت المرحلة الأخيرة فى حياة المعتمد المأساوية، فحمل هو وزوجه الرميكية التى فضلت أن تعيش بجواره حتى آخر نفس مع بناته وولده الرشيد، لقد حملوا إلى السفن التى عبرت بهم مضيق جبل طارق، ثم نزلوا طنجة[2] أيامًا، وصدر الأمر بنقلهم إلى أغمات[3]، وهى مدينة على بعد أربعين كيلو مترًا جنوب شرقى مراكش[4] على مقربة من جبال الأطلس، كان ذلك فى أواخر ٤٨٤ هـ(الموافق عام ١٠٩١م)، وعاشوا فى سجن هناك عيشة وصفها أ. عنان، قال: وهى مرحلة مؤسية تنفطر لها القلوب الكريمة التى تنتمى إلى الأدب أكثر من انتمائها إلى التاريخ، بما تحفل به من الآثار الشعرية الرائعة التى نظمها المعتمد عن محنته وآلامه فى المنفى، وقد شغلت هذه المرحلة على قصرها من صحف التاريخ والأدب فراغًا كبيرًا، لم تشغل مثله حياة المعتمد الملوكية كلها[5].

لقد شغل الأسر ذهن المعتمد، فنطق بالقصائد العظام التى يقارن فيها بين حاله فى إشبيلية فى وسط جنة وحرير، تخفق له الألوية، وينشد له الشعراء، ويغنى المغنون، وبين حاله وقد عض القيد ساقه وأهزل الأسر جسمه.

ويتذكر ماضيه وحاضره، فيغنى قائلاً:

غريب بأرض المغربين أسير

سيبكى عليه منبرٌ وسريرُ

---

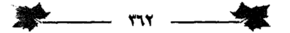
(١) وفيات الأعيان ٧/١٢٠.

(٢) بلد على ساحل بحر المغرب (الأبيض) مقابل الجزيرة الخضراء .. وهى آخر حدود إفريقية، مدينة أزلية آثارها ظاهرة، بناؤها بالحجارة، قائمة على البحر (معجم البلدان).

(٣) جاء فى كتاب تاريخ الإسلام ٤/٥٩٥: أغمات المدينة البربرية الأصيلة التى يرجع بناؤها للعصور القديمة تحف بها أشجار الزيتون فى سفح جبال الأطلس، وتكثر بها البساتين والأنهار .. وهى مدينة كانت مشهورة بعلمها وحضارتها.

(٤) أنشأ يوسف بن تاشفين مدينة مراكش عام ٤٦١هـ (الموافق ١٠٦٩م)، وجعلها عاصمة ملكه بعد فاس، وكانت قفرًا لا عمران فيها، ومراكش معناها (مر بسرعة) بلغة المصامدة ، لأن مكانها كان موحشًا مخيفًا ، ثم صارت رمزًا للمملكة المغربية الحالية، فيقال مملكة مراكش.

(٥) دولة الإسلام ٢/٢٥٥.



وتـنـدبـه الـبـيضُ الصـوارم والـقـنـا

ويـنـهـلُ دمـع بـيـنـهـن غـزيـرُ

أذل بنى مـاء السمـاء[1] زمـانُهم

وذل بـنـى مـاء الـسـمـاء كـبـيـرُ

ويحلم بالعودة إلى ما كان، فيقول:

فـيـالـيت شـعـرى هـل أبـيـتـن لـيـلـة

أمـامـى وخـلـفـى روضـة وغـديـرُ

ويلحظنـا الزاهى[2] وسعد سُعُـوده

غـيـوريـن والصب الـمـحـب غـيـورُ

تـراه عسـيـرًا لا يسـيـرًا مـنـالـه

ألا كـل مـا شـاء الإلـه يسـيـرُ[3]

وتنزل دموعه ممزوجة بالدم عندما يرى بناته وهن يغزلن بالأجرة، حتى إن إحداهن غزلت لبنات صاحب الشرطة الذى كان فى خدمته يومًا، وهو فى سلطانه، فيصدع قلبه، وينشد فى يوم العيد:

فـيـمـا مضى كـنتَ بـالأعـيـاد مسرورا

فساءك الـعـيـد فـى أغـمـات مـأسـورا

تـرى بـنـاتك فـى الأطـمـار جـائـعـة

يـغـزلـن لـلـنـاس لا يـمـلـكـن قطـميرا

وينظر إليهن وهن حافيات، فيتذكر يوم الطين الذى صنع فيه طينًا لأمهن الرميكية من المسك والكافور وماء الورد، فيقول:

يـطـأن فـى الـطـيـن والأقـدام حـافـيـة

كـأنـهـا لـم تـطـأ مسـكًـا وكـافـورا

(١) الملك النعمان بن المنذر بن ماء السماء اللخمى، فماء السماء: زعيم المناذرة أجداد ابن عباد.
(٢) أحد قصوره فى إشبيلية.
(٣) نفح الطيب ٤/ ٢٧٥.



ثم يختم بحكمة يصدرها لغيره ممن بهرهم الملك والسلطان والجاه، فيقول:

قـد كـان دهـرك إن تـأمـره مـمـتـثـلاً

فـردك الـدهـر مـنـهـيـا ومـأمـورا

مـن عـاش بـعـدك فـى مـلك يسـر بـه

فـإنـمـا عـاش بـالأحـلام مـغـرورا

ويراه ابنه الطفل أبو هاشم وقد حز فيه القيد، فيبكى الطفل، وينشد الأب:

قـيـدى أمـا تـعـلـمـنـى مسـلـمـا

أبـيـت أن تشـفـق أو تـرحـمـا

يـبصـرنـى فـيك أبـو هـاشـم

فـيـنـثـنـى والـقـلب قـد هشـمـا

ارحـم طـفـيـلاً طـائشـا لـبـه

لـم يـخش أن يـأتـيك مسـتـرحـمـا

وارحـم أخـيـات لـه مـثـلـه

جـرعـتـهـن السـم والـعـلـقـمـا

عاش ابن عباد وأسرته فى ظلمات الأسر والمهانة، ولكن الله سبحانه كان يبعث إليهم أحيانًا شيئًا من التسلية لهم فى عزلتهم، يؤنسهم فى وحشتهم، وذلك فى هيئة شاعر يمر بهم يحدثهم عن مجدهم الغابر، ويذكرهم بفضلهم الدابر، وسارت حياتهم على ذلك حتى ظهر لهم يومًا شعاع من نور رد لهم شيئًا من السعادة والهناء والرغبة فى الحياة، وذلك عندما جاءتهم رسالة من ابنتهم بثينة التى تاهت منهم فى المحنة.

جاءت الرسالة فى أبيات شعر بعثتها لوالديها المعتمد والرميكية، لقد كانت بثينة محبة للأدب والشعر، متصفة بالجمال البارع، والحسن الباهر كأمها، وفى يوم الرحيل الأسود اختفت بثينة، ولم يعثر لها على أثر، لقد أخذها أحد تجار إشبيلية، وباعها على أنها جارية.



وأراد من اشتراها أن يهبها لابنه، فأبت ورفضت، وعرفته من تكون. ولن تقبل إلا أن تكون زوجة لا جارية، زوجة بكل الشروط، الإيجاب والقبول والولي والشهود، ووجدتها فرصة لتطمئن أباها وأمها عليها.

يقول رضا كحالة : قالت له : لا أحل لك إلا بعقد النكاح، إن رضى أبى بذلك، وأشارت عليه بتوجيه كتاب من قبلها لأبيها، وانتظار جوابه[1].

وذكرت زينب فواز الأبيات، قالت:

فكان الذى كتبته[2] بخطها من نظمها ما صورته:

اسمع كلامى واستمع لمقالتى
فهى السلوك بدت من الأجيادِ

لا تنكروا أنى سبيت وأننى
بنت لملك من بنى عبادِ

ملك عظيم قد تولى عصره
وكذا الزمان يؤول للإفسادِ

لما أراد الله فرقة شملنا
وأذاقنا طعم الأسى من زادِ

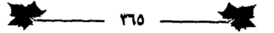
قام النفاق على أبى فى ملكه
فدنا الفراق ولم يكن بمرادِ

فخرجت هارية فحازنى امرؤ
لم يأت فى إعجاله بسدادِ

إذ باعنى بين العبيد فضمنى
من صاننى إلا من الأنكادِ

(١) أعلام النساء ١/١١٩.

(٢) كتب أحمد شوقى فى قصته النثرية (أميرة الأندلس) أن بثينة هى التى ذهبت لأبيها فى أغمات لتأخذ موافقته ، وتعرفه على خطيبها.



وأرادني لنكاح نجل طاهر

حسن الخلائق من بني الأنجادِ

ومضى إليك يسوم رأيك في الرضا

ولأنت تنظر في طريق رشادي

فعساك يا أبتي تعرفني به

إن كان ممن يرتجي لودادِ

وعسى رُميكية الملوك بفضلها

تدعو لنا باليمن والإسعادِ

فلما وصل شعرها لأبيها وهو بأغمات، واقعٌ في شراك الكروب والأزمات، سر هو وأمها بحياتها، ورأيا أن ذلك للنفس من أحسن أمنياتها، إذ علما ما آل إليه أمرها، وجبر كسرها، إذ ذاك أخف الضررين[1].

لم تنس بثينة البنية البارة قبل أن تتزوج أن تطمئن أباها، وتأخذ موافقته، وهي العالمة بأنه لا زواج بدون ولي، وكذلك لم تنس أمها التي طلبت منها بعد الموافقة الدعاء، لقد كانت فرحة آل عباد غامرة، وكان خبر سلامة بثينة، وخبر زواجها كالبلسم على جروحهم بعد أن يئس المعتمد من لقياها، أما الرميكية فأمومتها كانت دائمًا تهجس لها بأن بثينة في خير وأمان، ولذلك كانت هي التي تخفف عن الملك المعتمد وتشجعه على الصبر، وعدم اليأس من رحمة الله، وانتظار الفرج الآتي من الأندلس عن قريب، وتقول له: هذا قلبي يحدثني، حتى جاء كتاب بثينة مصدقًا لقلبها، وأجاب الولي وبعث لها بأبيات يوصيها بذلك الزوج الكريم، ويقول:

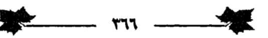
بنيتي كوني به برة

فقد قضى الدهر بإسعافه[2]

---

(١) الدر المنثور ٩٠.

(٢) أعلام النساء ١/١١٩.



وقد وردت قصة بثينة فى مخطوط محفوظ بمكتبة الإسكوريال باسم «تحفة العروس» لأبى عبدالله التيجانى الأندلسي قال فيه : إن بثينة هذه كانت مثل أمها فى الجمال والذكاء ونظم الشعر[١]، ولما سقطت إشبيلية، ونهبت قصور المعتمد كانت ابنته ضمن السبايا، ولم يعثر لها على خبر، إلى أن كتبت إليهما بأغمات شعرًا، تقص فيه ما حدث لها، وهو أنها وقعت فى يد من اشتراها على أنها سريَّة، فامتنعت عليه وعرفته بحقيقة أمرها، وطلبت إليه أن يتزوجها زواجًا شرعيًا، وكتبت إلى والديها بأغمات الشعر المشهور والمتداول ترجو منهما الموافقة على زواجها منه، فسر المعتمد والرميكية بوجودها على قيد الحياة، وكتبا إليها بالموافقة على رغبتها[٢].

وقد أشاد أحد الكتاب المغاربة بالحرية التى كان يتمتع بها آل ابن عباد فى الأسر، فقال معلقًا على قصة بثينة: وقد أوردنا خبر بثينة هنا لأنه يعطى فكرة عن الوضع الذى كانت تعيشه أسرة المعتمد فى المنفى، وأنها كانت تتمتع بحرية الاتصال بالمراسلات والجواب عليها[٣].

* * *

(١) كثير من المراجع ذكر حب الرميكية للشعر فقط، وليس نظمه.

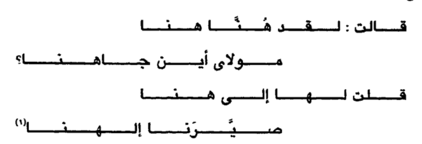
(٢) هامش دولة الإسلام فى الأندلس ٢/٣٥٨.

(٣) المرأة فى تاريخ الغرب الإسلامى ١٩٠.

النهاية

عاش ابن عباد وزوجه الرميكية فى أغمات مدة أكثر من أربع سنوات، وقال الذهبى أكثر من سنتين، عانيا فيها أقسى ضروب الحياة وآلامها، حتى إن الرميكية لم تستطع أن تواصل مكابدة هذه الحياة القاسية الجافة، وأن تقاوم هذه الكآبة والضيق، فذوت نضارتها، وضعفت صحتها، وتكالبت عليها هموم المحنة، ومرضت مرضًا أحزن ابن عباد، فجزع عليها جزعًا غامرًا، وقعد إلى جانبها يبكى دموعًا ودمًا، ويقول شعرًا متذكرًا أيام عزه معها، وكيف كانت بهجة حياته فى قصور إشبيلية.

قالت زينب فواز: لما خلع المعتمد، وسجن بأغمات، قالت له : يا سيدى لقد هُنَّا هنا، فقال:


قالت : لقد هُنّا هنا
مولاى أين جاهنا؟
قلت لها إلى هنا
صيَّرَنا إلهنا[1]

والآن وبعد أن أصبح لا حيلة له، فلا هو يستطيع أن يداويها، ولا طبيب من أغمات يجرؤ على معالجتها، ولا هى عندها الرغبة فى الحياة ومقاومة المرض، لاح له بريق أمل فى علاجها عندما سمع بزيارة طبيبه الخاص وطبيب أبيه من قبل قد نزل مراكش، وهو أبو العلاء بن زهر[2]، وكتب إليه المعتمد يرجوه القيام بعلاج الرميكية مما ألم بها، ووعده ابن زهر بالمجئ، وبعث إليه مطمئنا، وداعيًا له بطول البقاء والأجل، فكتب إليه يشكره قائلاً:

---

(١) الدر المنثور ٤٢.

(٢) هو الفيلسوف الطبيب الأندلسى أبو العلاء بن زهر بن عبدالملك الإيادى، ولد وعاش فى إشبيلية، صنف كتبًا فى الطب والأدوية، توفى عام ٥٢٥هـ (الموافق ١١٣١م) ، ويعتبر كتابه (التيسير) من أعظم مراجع الطب فى العصور الوسطى، ترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية، ويعتبر أعظم طبيب بعد جالينوس(الأعلام). قال عنه ابن أبى أصيبعة: ابن زهر الإيادى الإشبيلى له علامات ممتازة على قوته فى صناعة الطب واطلاعه على دقائقها، وكانت له نوادر فى مداواته المرضى ومعرفته لأحوالهم، وما يجدونه من الآلام من غير أن يستخبرهم عن ذلك، بل بنظرة إلى قواريرهم أو عندما يجس نبضهم، واشتغل أيضًا بالأدب ، عاش وتوفى فى إشبيلية (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ٥١٦).

دعـا لـى بـالـبـقـاء وكـيـف يـهـوى

أسـيـر أن يـطـول بـه الـبـقـاءُ

والأغلب أن الطبيب ابن زهر لم يرها؛ لأنها فارقت الحياة قبل عزمه على الذهاب، ودفنت بقبور أغمات.

أما المعتمد فلم يستطع أن يعيش بدونها، فبكاها بكاء مرًا، ولم ترقأ له عبرة، ولا فارقته حسرة، حتى قضى نحبه، ولحق بها بعد أيام قلائل.

جاء فى الأعلام[1]: وماتت الرميكية فى أغمات قبل المعتمد بأيام.

ودفن إلى جوارها بعد أن كتب أبياتًا رثى فيها نفسه، وأوصى أن تكتب على قبره منها:

قـبـر الـغـريـب سـقـاك الـرائـح الـغـادى

حـقًـا ظـفـرت بـأشـلاء ابـن عـبـادِ

بـالـحـلـم بـالـعـلـم بـالـنـعـمى إذا اتصلت

بـالـخصب إن أجـدبـوا بـالـرى لـلصادى[2]

بـالـدهـر فـى نـقـم بـالـبـحـر فـى نـعـم

بـالـبـدر فـى ظـلـم بـالصدر فى الـنـادى

نـعـم هـو الـحـق حـابـانـى بـه قـدر

مـن الـسـمـاء فـوافـانـى لـمـيـعـادِ

ولـم أكـن قـبـل ذاك الـنـعش أعـلـمـه

أن الـجـبـال تـهـادى فـوق أعـوادِ[3]

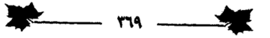
والعجيب أنه عند الصلاة عليه نودى: الصلاة على الغريب، بعد عظم سلطانه، وسعة أملاكه، وجلال شأنه، فسبحان من له البقاء، والعزة والكبرياء.

---

(١) الأعلام ١/٣٣٤.

(٢) العطشان.

(٣) دولة الإسلام فى الأندلس ٢/٣٦١.



وكانت وفاة ابن عباد فى ١١ شوال ٤٨٨ هـ[١] (الموافق أواخر أكتوبر عام ١٠٩٥م) وكانت سنه أكثر بقليل من ٥٧ سنة، وقد صار قبر الرميكية وابن عباد بعد زوال دولة المرابطين مزارًا يأتى إليه الوافدون من المغرب والأندلس وما حولهما، فهذا لسان الدين بن الخطيب[٢] زار القبر عند نزوله مدينة أغمات عام ٧٦١هـ[٣] (الموافق ١٣٦٠م)، وقال: وزرت بخارجها قبر المعتمد على الله أبى القاسم محمد بن عباد أمير قرطبة والجزيرة، وما إلى ذلك الصقع الغربى، وهو بالمقبرة القبلية على يسار الخارج من البلد .. وإلى جانبه قبر الحرة حظيته وسكن نفسه اعتماد، إشراكًا لاسمها فى حروف لقبه المنسوب إلى رميك، المؤلفة بشأنه معها أخبار القصاص وحكايات الأسمار إلى أجداث من ولديهما، فترحمنا عليه[٤].

وفى كتاب آخر لابن الخطيب اسمه (أعمال الأعلام) يصف القبر، ويقول: هو بمقبرة أغمات فى نشز من الأرض، وقد حفت به سدرة، وإلى جانبه قبر اعتماد حظيته مولاة رميك، وعليها وحشة التغرب، ومعاناة الخمول بعد الملك، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتها.

وقد أنشد على القبر أبياتًا يقول فيها:

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات
رأيت ذلك من أولى المهمات

لم لا أزورك يا أندى الملوك يدًا
ويا ضياء الليالى المدلهمات

كرمت حيًّا وميتًّا واشتهرت علا
فأنت سلطان أحياء وأمواتِ[٥]

---

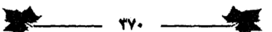
(١) وإن كان ابن خلدون فى تاريخه قال: إلى أن هلك بمحبسه فى أغمات سنة سبعين وأربعمائة. (ديوان المبتدأ ٦/٣٨٥).

(٢) الغرناطى الأندلسى، ولد عام ٧١٣هـ (الموافق ١٣١٣م) ، وزير ومؤرخ وأديب ونبيل، ولد ونشأ بغرناطة، ترك الأندلس لكثرة حساده، واستقر بفاس، سجن واتهم بالزندقة ، ثم قتل عام ٧٧٦هـ (الموافق ١٣٧٤م) ودفن بفاس، ولقب بذى الوزارتين، القلم والسيف ، وبذى العمرين لاشتغاله بالتصنيف فى ليله وبتدبير المملكة فى نهاره، مؤلفاته حوالى ستين كتابًا ذكرها الزركلى فى الأعلام.

(٣) بعد أكثر من ثلاثة قرون.

(٤) من مخطوط نفاضة الجراب فى دولة الإسلام فى الأندلس ٢/٣٦٣.

(٥) دولة الإسلام ٢/٣٦٣.



أما المقّرى[1] فقد زار القبر، وسجل هذه الزيارة فى موسوعته (نفح الطيب)، قال: وقد زرت أنا قبر المعتمد والرميكية أم أولاده حين كنت بمراكش المحروسة عام عشرة وألف[2]، وعمى علىّ أمر القبر المذكور، وسألت عنه من تظن معرفته له، حتى هدانى إليه شيخ طعن فى السن، وقال لى: هذا قبر ملك ملوك الأندلس، وقبر حظيته التى كان قلبه بحبها خفاقًا، غير مطمئن، فرأيته فى ربوة حسبما وصفه ابن الخطيب رحمه الله فى الأبيات، وحصلت لى فى هذا المحل خشية وإذكار، وذهبت بى الأفكار، فى ضروب الآيات، فسبحان من يؤتى ملكه من يشاء لا إله غيره وارث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

وما أحسن قول الوزير ابن عبدون فى مطلع رائيته الشهيرة:

الدهر يفجع بعد العين بالأثرِ

فما البكاء على الأشباح والصورِ[3]

رحم الله الرميكية وزوجها ابن عباد، وغفر لهما.

* * *

(١) أحمد بن محمد المغربى التلمسانى المؤرخ والأديب الحافظ، ولد ونشأ بتلمسان ، ثم انتقل لفاس، زار مصر والشام والحجاز، توفى بالشام مسمومًا عام ١٠٤١هـ (الموافق ١٦٣١م) ومقرة قرية بتلمسان ، له كتب كثيرة سماها الزريكلى.

(٢) أى بعد وفاتهما بأكثر من خمسة قرون.

(٣) نفح الطيب ٤/ ٢٢٥.



كلمة خاتمة

ولابد أن نذكر نقطة هامة، ألا وهى علاقة الملك ابن عباد بمن حوله فى إشبيلية قبل الأسر، فهى لم تكن على وتيرة واحدة مع طبقات الشعب وطوائفه.

فمثلاً طبقة الشعراء والأدباء كانت تحبه حبًا شديدًا، وتدافع عن مناهجه فى الحياة، وربما تصورنا أنهم كانوا كذلك لما ينالهم من خير وعطاء غزير دائم، ولكنا لا نستطيع أن نعلل هذا الحب بالعطاء فقط، فقد كان من المؤكد أن شخصيته محببة إلى هؤلاء، قريبة من نفوسهم، حتى إنهم عندما انقطع هذا العطاء نتيجة لما تعرض له من سقوط الملك فى يد يوسف بن تاشفين[1] لم تجف قافيتهم من البكاء عليه، وظلوا يلاحقونه بمدائحهم وبكائياتهم التى يتذكرون بها أيامه الخصيبة والسعيدة، فهذا أبو بكر بن اللبانة[2] يقول فى وصف رحيلهم أبياتًا دامية منها:

سارت سفائنهم والنوح يتبعها

كأنها إبل يحدو بها الحادى

كم سال فى الماء من دمع وكم حملت

تلك القطائع من قطعات أكباد

وقال فى قصيدة ثانية موجهًا كلامه لمن أسروا المعتمد:

عجبت لأن لان الحديد وقد قسوا

لقد كان منهم بالسريرة أعلما

---

(١) لم يكن يوسف يتقن العربية، ولا يتذوق شعرها، فمثلاً عندما بعث إليه المعتمد ببيتين لابن زيدون أحدهما يقول:

حالت لفقدكم أيامنا فغدت

سودًا وكانت بكم بيضًا ليالينا

فلما سمعها ابن تاشفين قال: يطلب منا جوارى سودًا وبيضًا.

(٢) هو محمد بن عيسى شاعر دولة بنى المعتمد، وصاحب المراثى، ومؤلف كتاب (سقيط الدرر ولقيط الزهر)، توفى عام ٥٠٧ هـ بميورقة بالأندلس.



سينجيك من نجى من الجب يوسفًا

ويؤويك من آوى المسيح ابن مريما[1]

وفيها:

ندبتك حتى لم يخلّ لى الأسى

دموعًا بها أبكى عليك ولا دما

وإنى على رسمى مقيم فإن أمت

سأجعلُ للباكينَ رسمى موسما

قضى الله أن حطوك عن ظهر أشقر

أشمَّ وإن أعطوك أشأم أدهما

ورأى فى إحدى زياراته للمعتمد فى الأسر أحد أبنائه وهو غلام وسيم قد اتخذ الصياغة صناعة .. فنظر إليه وهو ينفخ الفحم بقصبة الصائغ، وقد جلس فى السوق يتعلم الصياغة، فقال:

وعاد طوقك فى دكان قارعة

من بعد ما كنت فى قصر حكى إرما[2]

وقد جاء ابن العماد الحنبلى بقصة هذه القصيدة كاملة، قال: ورأى أبو بكر الدانى حفيد المعتمد - بعد موته - وهو غلام وسيم قد اتخذ الصياغة صناعة، وكان يلقب فى أيام دولتهم فخر الدولة، وهو من الألقاب السلطانية عندهم، فنظر إليه وهو ينفخ الفحم بقصبة الصائغ، فقال فى جملة قصيدة:

شكاتنا فيك يا فخر العلى عظمت

والرزء يعظم فيمن قدره عظما

طوقت من نائبات الدهر مخنقة

ضاقت عليك وكم طوقتنا نِعما

---

(1) وفيات الأعيان ٥/٣٤.

(2) نفح الطيب ٤/٩٨ و٢٥٨ ، وإرم مدينة عاد التى وصفها القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨)﴾ [الفجر٧ ، ٨].



......

صـرفت فـى آلـة الصـيـاغ أنـمـلـة

لـم تـدر إلا الـنـدى والسـيـف والـقـلـما[1]

......

وشاعر مادح آخر هو أبو محمد غانم، قال بعد موت ابن عباد:

ومـن الـغـريـب غـروب شَمْس ٍفى الثرى

وضـيـاؤهـا بـاق عـلـى الآفـاقِ[2]

ولما مات المعتمد والرميكية رثاهما الشعراء وبكوهما، فقد ذكرت المراجع كيف نظم شعراء العصر الرثاء الباكى، والتوجع والحسرة على أيام المعتمد الزاهرة، ثم على سجنه، ومحنته، وموته غريبًا، فهذا أبو بكر الدانى (المعروف بابن اللبانة) قد نظم قصائد رنانة ضمنها كتابًا أسماه (نظم السلوك فى مواعظ الملوك) فيقول:

تـبـكـى السـمـاء بـدمـع رائـح غـادى

على البهاليل[3] مـن أبـنـاء عـبـادِ

عـلـى الـجـبـال الـتـى هـدمت قـواعدها

وكـانت الأرض مـنـهـا تـحت أوتـادِ

وكـعـبـة كـانت الآمـال تـعـمـرهـا

فـالـيـوم لا عـاكـف فـيـهـا ولا بـادِ[4]

ويقول:

لـكـل شـىء مـن الأشـيـاء مـيـقـاتُ

ولـلـمـنـى مـن مـنـايـاهـن غـايـاتُ

(١) شذرات الذهب ٣/ ٣٩٠.

(٢) نفح الطيب ٤/ ٢٢٦.

(٣) جمع بهلول، وهو السيد الشريف الجامع لصفات الخير والمرح الضحاك (الوسيط).

(٤) الكامل ٨/ ٤٧٠.



نفض يديك من الدنيا وساكنها

فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا

وقل لعالمها الأرضى قد كتمت

سريرة العالم العلوى أغمات[1]

وهذا عبدالجبار بن حمديس الصقلى[2] يقول راثيًا:

لما رحلتم بالندى فى أكفكم

وقلقل رضوى[3] منكم وثبيرُ[3]

رفعت لسانى بالقيامة قد دنت

هذى الجبال الراسيات تسيرُ[4]

وهذا شاعر آخر اسمه أبو بحر بن عبدالصمد زار قبرهما فى يوم عيد وبكاهما فى قصيدة منها:

ملك الملوك أسامعٌ فأنادى

أم قد عدتك عن السماع عوادى

لما نقلت عن القصور ولم تكن

فيها كما قد كنت فى الأعيادِ

أقبلت فى هذا الثرى لك خاضعًا

وجعلت قبرك موضعَ الإنشادِ

قال ابن خلكان: ولما فرغ من إنشادها، قبّل الثرى، ومرغ جسمه، وعفر خده، فأبكى كل من حضر[5].

---

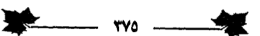
(١) شذرات الذهب ٢/٣٨٨.

(٢) عبدالجبار بن أبى بكر بن حمديس الأزدى الصقلى، شاعر مبدع، ولد وتعلم فى صقلية، رحل إلى الأندلس عام ٤٧١هـ ، فمدح المعتمد بن عباد، فأجزل له العطاء ، وانتقل إلى إفريقية، توفى بجزيرة ميورقة عن نحو ثمانين عامًا فى سنة ٥٢٧هـ (الأعلام).

(٣) جبلان فى مكة.

(٤) وفيات الأعيان ٥/٣١.

(٥) المرجع السابق ٣٧.



هذا شأن الشعراء والأدباء، أما طبقة الفقهاء والمحدثين، ومن إليهم، فقد كانت حالهم عكس حال الشعراء، فطالما أخذوا على ابن عباد الكثير، وانتقدوه انتقادًا مرًا قاسيًا، نتيجة ما بدا منه أنه إهمال للشرائع، وتضييع للفرائض، وانغماس فى الموبقات، جريًا على منهج امرأته الرميكية، وسعيًا فى رضاها، ولا شك أن الشعب هو الذى كان يتحمل النفقات الضخمة على مباذل ملكه وحاكمه، ولا سيما بعد سقوط قرطبة، أى: إن الناس كانوا يعتبرونه معسكر النقمة على ابن عباد بإمامة الفقهاء وأهل الحديث.

ولذلك فحين سقط ابن عباد، وتولى الأمر ابن تاشفين كان الناس فريقين: فريق المنكوبين بزوال عطاء ابن عباد وصلاته السخية، وفريق الشامتين بزوال سلطانه والمتوقعين بتحصيل المنافع بعد سقوطه، وفى هذا الخضم يبدو شبح المرأة التى قادت القطيع إلى مذبحه، ونكبت زوجها وشعبها ومملكتها، على الرغم مما عرف عنها من حب جنونى لهذا الملك المنكوب، حتى إنها لم تفارق زوجها حين سنحت لها فرصة المفارقة لدى وقوعه فى الأسر، بل آثرت أن تتقاسم معه ظروف المحنة والشقاء كما قاسمته أيام النعمة والرخاء.

* * *

الرميكية فى شعر المعتمد

كان المعتمد شاعرًا غزير الشعر، غير أن شعره لم يجمع فى حياة قائله، ومات المعتمد وشعره متناثر فى كتب الأدب وصحائف التاريخ، والتفت أخيرًا فى خمسينيات القرن الماضى رجلان من أعلام الباحثين فى الأدب فجمعا شعره، ووثقاه ونشراه فى ديوان مطبوع، ذكر على غلافه أنه ظفر بمراجعة الدكتور طه حسين، وقد جاء فى هذا الديوان أبيات كثيرة تتحدث عن الرميكية التى لقبها فى بعض الأحيان بأم الربيع، ويصل فى التعبير عن حبه إلى درجة الجنون العاطفى، وهو يبلغ فى شعره أعلى درجة فى فن الشعر.

ومن ذلك قوله فى مقطوعة اشتملت الحروف الأولى من الأبيات على اسم محبوبته (اعتماد)، يقول:

أغائبة الشخص عن ناظرى
وحاضرة فى صميم الفؤادِ

عليك سلامٌ بقدر الشجو
ن ودمع الشئون وقدر السهادِ

تملكت منى صعب المرام
وصادفت وُدّى سهل القيادِ

مرادى لقياك فى كل حين
فيا ليت أنىَ أُعطى مرادى

أقيمى على العهد ما بيننا
ولا تستحيلى لطول البعادِ

دسست اسمك الحلو فى طيه
وألفت فيه حروف اعتمادِ[1]

---

(١) ديوان المعتمد ٨.



وعندما ذهب ليوسف بن تاشفين مستنجدًا به فى المغرب حنَّ إلى اعتماد، واشتاق إليها، فبعث لها بهذه الأبيات:

أدار النوى كم طال فيك تلددى[1]

وكم عقتنى عن دار أهيف أغيدِ

حلفت به لو قد تعرض دونه

كماة الأعادى فى النسيج المسردِ

لجردت للضرب المهند فانقضى

مرادى وعزمًا مثل حد المهندِ

فما حل خلٌّ فى فؤاد خليله

محل اعتماد من فؤاد محمدِ

ولكنها الأقدار تردى بلا ظُبا[2]

وتصمى[3] بلا قتل وترمى بلا يدِ[4]

وقال أيضًا فى سفرة من سفراته:

يا ظبية لطُفت منى منازلها

فالقلب منهن والأحداق والكبدُ

حبى لك الناس طرا يشهدون به

وأنت شاهدتى إن يثنهم حسَدُ

لا [illegible]زب الوصل فيما بيننا أبدا

لو كنت واجدة مثل الذى أجدُ[5]

---

(١) [illegible]بث والمكث.

(٢) جمع ظبة، وهى حد السنان والسيف والخنجر.

(٣) أصمى الصيد: أصيب ومات بين يدى صاحبه.

(٤) ديوان المعتمد ١٠.

(٥) المرجع السابق.

وقال فى رحلة أيضًا:

أغـائـبـة عـنـى وحـاضـرة مـعـى

لـئـن غبت عـن عـينـى فإنك فى كبدى

أقـيـمـى عـلـى الـعـهد الذى كـان بـيـنـنـا

فـإنـى عـلـى مـا تـعـلـمين من الـعـهد[1]

واصطبح المعتمد يوم غيم مع اعتماد أم الربيع، واحتجب عن الندماء، فكتب إليه صديقه ابن عمار:

تـجـهـمَ وجـهُ الأفـق واعـتـلتِ الـنـفسُ

لأنْ لـم تَـلُـح لـلـعـين أنتَ ولا الشـمسُ

فـإن كـان هـذا مـنـكـمـا عـن تـوافـق

وضـمـكـمـا أنسٌ فـيـهـنـيـكـمـا الأنسُ

فأجابه ابن المعتمد بقوله:

خـلـيـلـىَّ قـولا هـل عـلـىَّ مـلامـةٌ

إذا لـم أغب إلا لـتـحـضـرنـى الشـمسُ

وأُهـدى بـأكـوابِ الـمـدام كـواكـبـا

إذا أبصـرتـهـا الـعـين هشت لـهـا الـنفسُ

سـلامٌ سـلامٌ أنـتـمـا الأنسُ كـلـه

وإن غـبـتـمـا أم الـربـيـع هـى الأنسُ[2]

وقال فيها:

يـا غـرةَ الشـمسِ الـتـى

قـلـبـى لـهـا أحـد الـبـروجِ

(١) ديوان المعتمد ١٩.

(٢) المرجع السابق ٦.



لـــــولاك لــــم أك مــــؤثــــرًا

فُــرش الـــحـــريـــر عـــلـــى الســـروجِ[1]

ويقول فى زوجته اعتماد أم الربيع، وهذه كنيتها التى طالما أحب دعوتها بها:

تــظـــن بـــنـــا أم الـــربـــيـــع ســآمــة

ألا غَــفَــرَ الــرحــمــنُ ذنــبًــا تُــواقــعُــه

أأهــجــر ظــبــيًــا فــى فــؤادى كــنــاسُــهُ[2]

وبــدر تــمــام فــى جــفــونــى مــطــالــعُــه

وروضــة حســن أجــتــنــيــهــا وبــاردًا

من الــظَّــلمِ[3] لــم تــحــظر علــىَّ شرائِعُــه

إذا عـــدمت كـــفـــى نـــوالاً تـــفـــيضـــه

عــلــى مــعــتــفــيــهــا أو عــدوًا تــقــارعُــه[4]

وقال أيضًا فى هذا المعنى:

أنـــــا فــــى عــــذاب مــــن فــــراقك

نشــــوان مـــن خــمـــر اشـــتـــيـــاقِـــك

صبّ الــــفــــؤاد إلــــى لـــــقـــــائك

وارتشــــافك واعـــــتـــــنــــاقِــــك

لا تــــحســــبــــى أنــــى ســلــــو

ت لــــمــــا تــــوالـــى مـــن فـــراقِـــك

هــــذى جــــفــــونــــى أقســــمت

لا تـــلـــتـــقـــى مـــا لـــم تـــلاقك

(١) ديوان المعتمد ٥.

(٢) الكناس : مولج فى الشجر يأوى إليه الظبى ليستتر. (المعجم الوسيط).

(٣) ماء الأسنان وبريقها.

(٤) ديوان المعتمد ٢٠.

فصلى جميلَ الظن بى

وثقى فقلبى فى وثاقِك[1]

وقال فى الرميكية أيضًا:

بكرت تلوم وفى الفؤادِ بلابل[2]

سفهًا وهل يثنى الحليم الجاهلُ

يا هذه كفى فإنى عاشق

من لا يردّ هواى عنها عاذلُ

حب اعتمادِ فى الجوانح ساكن

لا القلب ضاقَ به ولا هو راحلُ

يا ظبيةً سلبت فؤاد محمدٍ

أو لم يروّعك الهزبر[3] الباسلُ

من شك أنى هائمٌ بك مغرم

فعلى هواك له علىّ دلائلُ

لون كسته صفرة ومدامع

هطلت سحائبها وجسم ناحلُ[4]

وقال أيضًا:

لقلبى لبعدك عنى عليل

فشوقى صحيح وجسمى نحيل

وودى على حَسْب ما تعلمين

تزول الجبال وما إن يزول

(١) ديوان المعتمد ٢٢.
(٢) البلبلة : شدة الهم والوسواس.
(٣) اسم من أسماء الأسد.
(٤) ديوان المعتمد ٢٣.

فلا تستحيلي لبعد الديار

فإني مع البعد لا أستحيل[1]

وقال:

من عاشق يشكو صباباته

إلى محب هائم مثله

كلاهما صب إلى إلفه

حرَّان ظمآن إلى وصله

يا رب عجِّل جمع هذا بذا

وقرِّب الشكل إلى شكله[2]

وأبدع القول في هذه الأبيات:

إني رأيتك في المنام ضجيعتي

وكأن ساعدك الوثير وسادي

وكأنما عانقتني وشكوت ما

أشكوه من وجدي وطول سهادي

وكأنني قبَّلت ثغرك والطُّلى[3]

والوجنتين ونلت منك مرادي

وهواك، لولا أنَّ طيفك زائر

في الغب[4] لي ما ذقت طعم رقاد[5]

(١) ديوان المعتمد ٢٤.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الطلى : الأعناق.

(٤) غب كل شيء : عاقبته وآخره، ويقصد : نهاية الأمر.

(٥) ديوان المعتمد ٩.



وأسر المعتمد ومعه الرميكية، ورأت السجن الموحش المخيف فى أغمات بعد تلك القصور الشامخة المنيفة فى إشبيلية، مثل الزاهر والزاهى والمبارك وغيرها، فارتاعت لهول ما رأت، وقالت:

يـا سـيـدى لـقـد هـنـا هـنـا

فقال المعتمد مصورًا هذا الألم الدفين والاستسلام للقضاء:

قـالت: لـقـد هـنـا هـنـا

مـولاى أيـن جـاهـنـا؟

قـلت لـهـا: إلـى هـنـا

صـيـرنـا إلـهـنـا[1]

وقالَ يرثى ابنيه الفتح ويزيد عندما كان أسيرًا فى أغمات:

بـكـيت فـتـحًا فـإذا مـا رمت سلـوتـه

ثـوى يـزيـد فـزاد الـقـلب نـيـرانًـا

يـا فـلـذتـىْ كـبـدى يـأبـى تـقـطـعـهـا

مـن وجـدهـا بـكـمـا مـا عشت سـلـوانـا

مـنـى الـسـلام ومـن أم مـفـجـعـة

عـلـيـكـمـا أبـدًا مـثـنـى ووحـدانًـا

أبـكـى وتـبـكـى ونـبـكـى غـيـرنـا أسـفـا

لـدى الـتـذكـر نسـوانًـا وولـدانـا[2]

وقال فى قصيدة أخرى يرثيهما ويرثى أخاهما الثالث، ويذكر أمهما الحزينة الرميكية:

---

(١) ديوان المعتمد ١١.
(٢) المرجع السابق ٧٠.



معى الأخوات الهالكات عليكما

وأمكما الثكلى المضرمة الصدرِ

فتبكى بدمع ليس للقطر مثله

وتزجرها التقوى فتصغى إلى الزجرِ

تذللها الذكرى فتفزع للبكا

وتصبر فى الأحيان شما على الأجرِ

أبا خالد[1] أورثتنى الحزنَ خالدًا

أبا النصر[2] مذ ودُعتَ ودعَنى نصرى

وقبلكما قد أودع القلب حسرة

تجدد طول الدهر ثكل أبى عمرِو[3]

ودخلت عليه بناته فى السجن يوم عيد، وملابسهن رثة، وحالتهن سيئة، فصدع قلبه، وأنشد قصيدة طويلة تذكر فيها ما كان فيه من عز فى إشبيلية، وأشار إلى يوم الطين[4] قال فيها:

فيما مضى كنت بالأعيادِ مسرورا

فساءك العيدُ فى أغمات مأسورا

ترى بناتِكَ فى الأطمارِ جائعةً

يغزلنَ للناس لا يملكن قطميرا

يطأنَ فى الطينِ والأقدامُ حافية

كأنها لم تطأ مسكًا وكافورا

(١) اسمه يزيد.

(٢) اسمه الفتح.

(٣) سراج الدولة بن المعتمد، كان على قرطبة، وهو الذى قتله اللص ابن عكاشة عام ٤٦٨هـ. وانظر الديوان ١٠٧.

(٤) انظر فصل «يوم الطين».



أفطرت في العيدِ لا عادت إساءته
فكان فطرك للأكبادِ تفطيرا

قد كان دهرك إن تأمُرْه ممتثلاً
فردك الدهر منهيًا ومأمورا

من بات بعدك في ملك يسر به
فإنما بات بالأحلامِ مغرورا[1]

* * *

(1) ديوان المعتمد ١٠١.



قائمة ببعض أسماء البلاد المذكورة فى القصة وأسمائها الآن:ـ

١ ـ أريونة	: ناربون.
٢ ـ إشبيلية	: سيفيليا أو لاجيرالدا.
٣ ـ باجة	: بيجا.
٤ ـ برشلونة	: برسلونا.
٥ ـ بطليوس	: بادجواز.
٦ ـ بلنسية	: فلنسيا.
٧ ـ جبال ألبرت	: البرانس أو البرنيس.
٨ ـ الجزيرة الخضراء	: الجزيرس.
٩ ـ جبل طارق	: جيرالتار.
١٠ـ جرندة	: جدونا.
١١ ـ رندة	: جيرونا.
١٢ ـ الزلاقة	: سكراليا أو سكراجاز.
١٣ ـ سرقسطة	: قالاهورا.
١٤ ـ شلب	: سلفس.
١٥ ـ طرطوشة	: طورتوسا.
١٦ ـ طليطلة	: توليدو.
١٧ ـ غرناطة	: جرانادا.
١٨ ـ قرطبة	: كوردوفا.
١٩ ـ قرمونة	: ترجونا.
٢٠ ـ قشتالة	: كاسل أو كاستيلا.
٢١ ـ لشبونة	: إشبونا.
٢٢ ـ مرسية	: تدمير.
٢٣ ـ ماردة	: ماريدا.
٢٤ ـ مرتلة	: مرتلا.
٢٥ ـ مالقة	: مالاجا.
٢٦ ـ المرية	: المريا.
٢٧ ـ ولبة	: ولفا أو هيلفا.

١٠

زمرد خاتون

(زوج عماد الدين زنكي)

تمهيد

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فهذه سيرة امرأة من سلسلة (نساء وراء الأحداث)، وقع اختيارنا عليها، لموقفها الرائع دفاعًا عن الدولة الإسلامية، اسمها: زمرد خاتون، من أصل تركستانى. فى أواسط آسيا، ثم صارت شامية الموطن، ضمن (المماليك) الذين استوطنوا المشرق العربى، وهيمنوا على الخلافة العباسية بعد أحداث سياسية مضطربة جرت خلال النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى، واتسمت بالعنف وسرعة الإيقاع وكثرة المؤثرات فى حركة التاريخ الإسلامى آنذاك.

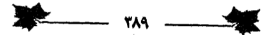
وقبل أن نخوض فى سيرة زمرد خاتون - يجدر بنا أن نزيل لبسًا وقع فيه المؤرخون لأحداث تلك الفترة، نتيجة الخلط فى معانى المصطلحات التاريخية، والنظر إلى (المماليك) على أنهم (عبيد وجوار).

فمن المعروف أن الإسلام رفع لواء المساواة بين المسلمين، بل بين كل الناس، على حد ما جاء فى حديث رسول الله ﷺ: «الناس متساوون كأسنان المشط».

ومقتضى هذا النص أن الناس - كل الناس - سواء، لا يتفاضلون إلا بالتقوى، وهو الأصل الذى قررته الآية القرآنية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فمجال التفاضل بين يدى الله، فى الآخرة، أما فى الدنيا فليس لأحد أن يتقدم على أحد، فى مجال الإنسانية، بناء على تميزه المادى أو العنصرى، فالكل فى حق الحياة والمساواة سواء، وهذا من المبادئ التى امتاز بها الإسلام على سائر الأديان.

بل إن المجتمع الإسلامى الأول قد عاش فى ظلال هذه المساواة المطلقة التى رسم حدودها قول الرسول ﷺ عن العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين، قال: «لهم مالنا وعليهم ما علينا»، أهناك فى الدنيا أرقى من هذه المساواة، وأروع من هذا التكافؤ؟؟



ولذلك عاش المسلمون ـ فى جيل الصحابة ـ متكافئين، فالعربى والهاشمى والحبشى، والفارسى والرومى ـ كل هؤلاء كانوا يُكوِّنون منظومة المساواة الإسلامية، لقد كانوا يعيشون سواسية، (كأسنان المشط). ولم يكن وجود العبيد والجوارى فى المجتمع إلا على أساس الوظيفة الاجتماعية، أما القيمة الأخلاقية والإنسانية فقد كان لكل إنسان حقه وقيمته، وهكذا استقامت الحياة الإنسانية فى ظل الإسلام، ودخل الناس فيه من كل شعب وقبيلة، أفواجًا أفواجًا، لينعموا فى ظله بالمساواة، والأخوة الإيمانية ولم يكن المجتمع آنذاك يعرف سوى طبقتين: السادة والموالى، وقد حدد القرآن صورة العلاقة بين الجانبين، حين كان المولى يُنسب إلى سيده، فيقال مثلاً: زيد بن محمد (الذى صار بعد ذلك: زيد ابن حارثة). فجاء القرآن حاسمًا هذا الإشكال بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

وهكذا رفع القرآن درجة الموالى إلى مستوى الأخوة مع السادة، وألغى المسافة بين الجانبين، فهم جميعًا ـ على اختلاف وظائفهم وعناصرهم ـ إخوة فى الدين، متساوون كأسنان المشط، وهكذا ارتحل الإسلام فى فتوحاته إلى كل أنحاء الأرض، يقطع الفيافى والقفار، ويفتح المدن والأمصار، ويعرض على الشعوب منهاجه وعقيدته وعدالته، فلم يكن الفاتحون الغالبون يمثلون فى واقع الأمر طبقة فوق سائر الناس المغلوبين بل كانوا هداة، يحملون دعوة الخير إلى كل الناس، ويتعاملون مع سائر الناس من منطلق المساواة المطلقة التى تفرضها عقيدة الإسلام، بين المسلمين وغير المسلمين ـ على سواء.

ونحسب أن هذه الروح كانت مظلة الإسلام طيلة عهد الخلفاء الراشدين، وعهد الخلافة الأموية، فلما جاء العباسيون كانوا يرون أن العناصر العربية تتخلى عنهم، فلجأوا إلى استقدام العناصر غير العربية، من فرس وغيرهم، تحت عنوان (الولاء) وهو درجة من (المملوكية) ترتقى بصاحبها إلى الاشتغال بالسياسة، ومناصب الدولة، وحماية السلطة.

ومن أشهر هؤلاء فى العصر العباسى الأول أبو مسلم الخراسانى الذى قتل على يد أبى جعفر المنصور ثم ما كان من موقف هارون الرشيد مع البرامكة، وتصفيتهم بطريقة دموية، ثم برز من بعده ابنه المعتصم بن هارون الذى استكثر من هذه العناصر المجتلبة من أواسط آسيا، ولا سيما من تركستان، وابتنى لهم مدينة جميلة أطلق عليها (سُرَّ مَن رَأى)، والتى صارت فيما بعد: (سَامَرًّا)، والنازلون بهذه المدينة هم حراس الملك، وسلطان الدولة، وكان الناس يرون أنهم (مماليك) بمعنى (العبيد). حملة السيوف، دفاعًا عن الخلافة؛ وكان المعتصم متوهمًا أنهم سيكونون قوة للدولة فى وجه أعدائها، وكان ذلك وهمًا لا أكثر!! فقد تعاظم ـ مع مرور السنين ـ دور هؤلاء (المماليك)، حتى صاروا يتحكمون فى منصب الخلافة، ويقتلون من الخلفاء من لا يوافق أهواءهم، ويولون من يوافقهم، حتى ولو كان صبيًا.

وقد كان ظهور هؤلاء (المماليك) مقدمة لنشأة دول كثيرة فى الأمصار مثل الصفارية بفارس والسامانية بخراسان والزيدية بطبرستان والبويهية بالعراق وفارس واليعفرية باليمن والغزنوية بشمال فارس والحمدانية بالموصل وحلب والطولونية بمصر والشام ثم حلت محلها الإخشيدية والفاطمية بشمال إفريقية ثم زحفت على مصر، ودولة (السلاجقة)، التى ظهرت عام ٤٢٩هـ ـ ١٠٣٧م ـ فى مدن الشرق وما وراء النهر على يد مؤسسها (طغرل بك)، وإليها تنتمى شخصية هذه القصة (زمرد خاتون) التى ولدت فى نهاية القرن الخامس الهجرى من أب اسمه (جاولى) أحد مماليك السلطان ملكشاه السلجوقى.

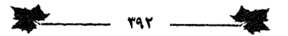
ومن الضرورى أن نسجل هنا أن ظهور هؤلاء المماليك على المسرح، واستبدادهم بأمور الخلافة كان نتيجة طبيعية لضعف الوجود العربى، بل واختفائه من مجال السلطة، فقد صاروا هم واجهة الحكم والخلافة، وانكمش وجود الخلافة فى قصرها ببغداد، وخضعت كل الأمصار شرقًا وغربًا لجماعات (المماليك) ذوى الأصول المختلفة، وكان من أشهر جماعاتهم أولئك السلاجقة، الذين واجهوا مع بداية حكمهم أول صدام مع الصليبيين عام ٤٨٨هـ ـ وسقطت مدينة القدس فى أيدى الصليبيين عام ٤٩٢هـ

وكان قدر هؤلاء السلاجقة أن يواجهوا كل المعارك مع الغزاة المحتلين، حتى كانت المعركة الكبرى فى حطين، وتحررت القدس، وضعفت الموجة العدوانية على يد صلاح الدين الأيوبى. ومن واصل بعده المواجهة مع بقايا الغزو الصليبى، حتى النهاية.

إن المرء ليشعر بالحزن والأسى حين يقرأ أخبار هذا التاريخ المجاهد، والمنتصر، وكيف عادت القدس إلى حوزة الإسلام عام ٥٩٢هـ - ١٢٠٠م بعد اغترابها أكثر من تسعين عامًا، وهو تاريخ يدعو إلى الزهو والافتخار، فإذا ما قارناه بالوضع الراهن، حيث استولت الصهيونية على القدس عام ١٩٦٧م، والإسلام شاهد على هذه الكارثة، والمسلمون يبدون وكأنهم يتفرجون على ملهاة، لا جهاد، ولا وعى ينبئ عن مستقبل. لقد أصابنا الغم والهم، والكرب العظيم... ويبدو أننا بحاجة إلى أكثر من قرن لنفيق من سكرتنا، وحتى تقع كارثة توقظ الأمة لتحقق وحدتها، وتواجه عدوها، وتسترد قدسها!!

إن الذى يعنينا هنا فى سياق حديثنا عن زمرد خاتون، هو أن نشير إلى أنها لم تكن مجرد امرأة تعيش فى كنف السلطة التى يتولاها أحد ولديها، اللذين أنجبتهما من زوجها الأول: وأولهما شمس الملوك إسماعيل، وثانيهما: شهاب الدين محمود، وقد توفى زوجها الأول أبو الولدين، (بورى بن طغتكين).

لقد كانت زمرد تعيش وعينها على سياسة ولدها الحاكم فى دمشق، تخشى عليه من الانحراف، وهو يواجه عدوًا فاجرًا - هم الصليبيون - فلما انتهى إلى علمها أن ولدها سلطان دمشق يوشك أن يسلمها لأعدائه لم تتردد فى قتله، ولا علينا أن يكون القتل قد تم بأيدى الخدم، أو رجال الحاشية، أو أن تكون شاركت بيديها فى كتم أنفاسه، ومن النادر أن نجد امرأة تقدم على قتل ابنها - كما فعلت زمرد خاتون - ولكنها النفس التى عرفت الحق، ومازت بين الطيب والخبيث، ووازنت بين سلامة دولة الإسلام من ناحية وسلامة ولدها من ناحية أخرى؛ فرجحت لديها المصلحة العامة وهان عليها أن يقاد ولدها الفاسد الخائن، فكان حكمها عليه حكم التاريخ القاطع الحاسم، ثم سارعت بتعيين أخيه شهاب الدين محمود، وهى تعلم أن طرفًا آخر يرمق دمشق بعين الرغبة، وهو عماد الدين زنكى حاكم الموصل، والتقى الطرفان - عماد الدين



ومعه رغبته فى الاستيلاء على دمشق، وقد سبقته إليها زمرد بتعيين ولدها، وكان اللقاء فى منتصف الطريق، بأن تزوجت زمرد من عماد الدين زنكى، فكانت حياتها قسمة بين دمشق والموصل، حتى قتل ولدها الثانى عام ٥٣٣هـ، وتولى مكانه أخوه من أبيه (بورى)، فلزمت زمرد مقامها بالموصل، إلى أن توفى زوجها عماد الدين زنكى عام ٥٤١هـ وهنا بدأت مرحلة أخرى فى حياتها، فقد جاورت بمكة لمدة عام، ثم ارتحلت إلى المدينة بقية عمرها، قضتها فى الأعمال الصالحات إلى أن حان أجلها عام ٥٥٧هـ، وأسدل الستار على حياة امرأة عاشت وراء الأحداث، ولكنها كانت صانعة لها، فلم تَضِع الأمانة من بين يديها، بل ظلت تحمل الشعلة، وتسهم فى إدارة الصراع المصيرى ضد الصليبيين حتى آخر أنفاسها.

إن مواقفها قليلة... نعم... ولكن موقفها الذى أنقذت به دمشق، من أن تقع فى أيدى الصليبيين - يعدل مئات المواقف الأخرى فى حياة غيرها.. يرحمها الله.

* * *

دولة الإسلام

عاشت هذه السيدة الفاضلة ما بين القرنين الخامس والسادس للهجرة، الحادى عشر والثانى عشر للميلاد، وكانت حياتها فى أرض الشام التى كانت جزءًا صغيرًا من أراضى الدولة الإسلامية الممتدة من حدود الصين شرقًا حتى المحيط الأطلسى غربًا، ومن روسيا والقوقاز شمالاً إلى المحيط الهندى جنوبًا، وذلك إبان هيمنة الدولة العباسية التى فرضت سلطان الإسلام منذ عام ١٣٢هـ، واستمرت الحال على هذا الوضع مدة طويلة، ثم انتاب هذه الدولة المترامية الأطراف هزات من جراء ثورات ضد السلطة المركزية فى بغداد، مثل ثورات الطالبيين والعلويين والقبط والزنج والقرامطة وغيرهم. ولكنها جميعًا كانت تنتهى بتكاتف الخلافة مع الشعوب المسلمة حتى تنقشع كل محاولة لضرب الاستقرار فى الدولة الواحدة.

بيد أنه بمرور الوقت حدث أن الخلافة العباسية فى بغداد تراخت قبضتها على أجزاء من العالم الإسلامى، وبدأ التفكك يظهر فى الدولة، ونتج عن ذلك انفصال بعض المناطق فى شكل دويلات، ومن هذه الدويلات مثلاً: الدولة الصفارية بفارس والسامانية بخراسان والزيدية بطبرستان والرى (طهران حاليًا) والبويهية بالعراق وجزء من فارس، والدولة اليعفرية بصنعاء اليمن وبعدها الصليحية وغيرها، وفى شمال فارس ظهرت الدولة الغزنوية فى بلخ وما حولها، والدولة الحمدانية فى الموصل وحلب، والطولونية ثم الإخشيدية بمصر والشام، والفاطمية فى شمال إفريقية ثم جعلت مركزها فى مصر، كل ذلك مع وجود الدولة الأموية فى الأندلس بعد أن هرب إليها عبد الرحمن الداخل[1] سنة ١٩٢هـ، سنة ٧٤٩م وأسس دولة أموية منفصلة عن الدولة العباسية فى إسبانيا والبرتغال سنة ١٣٨هـ.

---

(١) هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان. لقب بصقر قريش ولد سنة ١١٣هـ وتوفى سنة ١٧٢هـ. أحد عظماء العالم، دخل قرطبة بعد عدة معارك وبنى بها القصر والمسجد والرصافة تشبهًا برصافة الشام.

وهكذا جاء القرن الرابع الهجرى والعالم الإسلامى كله دويلات، ولكن بقيت السلطة المركزية فى أيدى العباسيين فى بغداد، وما زالت هذه السلطة متمكنة فى النفوس لارتباطها بالعباس عم رسول الله ﷺ، حتى جاء هولاكو زعيم التتار وقضى على آخر خليفة عباسى[1] فيها سنة ٦٥٦هـ.

ومن الدول التى حكمت جزءًا كبيرًا من العالم الإسلامى فى أواسط القرن الخامس الهجرى: دولة السلاجقة التى تنتمى إليها شخصية هذه القصة.

* * *

(١) هو الخليفة المستعصم بن المستنصر ولد سنة ٦٠٩هـ وبويع له سنة ٦٤٠هـ. ركن إلى وزيره العلقمى الخائن الذى أطمع التتار وأهلك الحرث والنسل، ودخل التتار سنة ٦٥٦هـ بغداد وقتلوا وحرقوا وسووا القصور والمساجد بالأرض وسبحان الحى الباقى.

السلاجقة

تأسست دولة السلاجقة من قبائل تركية خزرية[1] نزحوا من أقصى تركستان إلى ناحية الغرب، ودخلوا الإسلام وتعصبوا للمذهب السنى، وبعد صراعات بينهم وبين أهل الدول التى نزحوا إليها أعلن طغرل بك[2] قيام دولة السلاجقة فى سنة ٤٢٩هـ، سنة ١٠٣٧م وبعد ثلاث سنوات، وفى سنة ٤٣٢هـ اعترف بهم الخليفة العباسى القائم[3]، وحدد لهم مكان سلطتهم فى خراسان وما وراء النهر وجعلوا عاصمتهم نيسابور[4] ثم تحولوا بعد ذلك إلى الرّى[5] سنة ٤٤١هـ.

وفى سنة ٤٤٧هـ ارتفع شأن السلاجقة وسطع نجمهم بين الدول وذلك أن الخليفة العباسى القائم بالله استقبل حفيد سلجوق طغرل بك أمير دولة السلاجقة، وفى يوم الجمعة أمر بالدعاء له فى المسجد الكبير فى بغداد بعد الخليفة، ولقبه بملك المشرق والمغرب وملك بغداد، قال ابن كثير: هو أول ملوك السلاجقة ملك بغداد وبلاد العراق وذلك سنة ٤٤٧هـ بعد أن تأكدت الوحشة بين الخليفة ووزيره البساسيرى الذى استفحل أمره وعظم.. فعندئذ كاتب الخليفة محمد بن سلجوق الملقب بطغرل بك يستنهضه على المسير إلى العراق... ووصل السلطان طغرل بك فى رمضان سنة ٤٤٧هـ وقد تلقاه أثناء الطريق الأمراء والوزراء والحجاب ودخل بغداد فى أبهة عظيمة[6].

---

(١) بلاد ما وراء النهر فى مكان يبعد عن بخارى عشرين فرسخًا (حوالى ١٢٠ كم) وهى المعروفة الآن بجورجيا. سمى المصريون هذه القبائل (الغُز) ولقبهم العرب بالتركمان . وسبب هذه التسمية أنه سنة ٣٤٩هـ أسلم مائتا ألف أسرة من الترك الوثنيين فسموا (ترك إيمان) ثم اختصر اللفظ فقالوا (تركمان) (حوليات الإسلام).

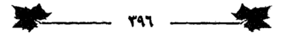
(٢) ركن الدولة أبو طالب طغرل بك اسمه : محمد بن ميكائيل بن سلجوق كان يطلق عليه (ملك الملوك) بأمر من الخليفة . كان محافظًا على الصلاة وصوم الإثنين والخميس، توفى عن سبعين عامًا سنة ٤٥٤هـ بعد أن ملك ثلاثين سنة.

(٣) هو القائم بن القادر تولى سنة ٤٢٢هـ وتوفى سنة ٤٦٧هـ.

(٤) بينها وبين الرى ١٦٠ فرسخًا (حوالى ١٠٠٠ كم) فتحت أيام عثمان بن عفان، خرج منها كثير من العلماء والمحدثين .

(٥) مكانها الآن طهران (عاصمة إيران).

(٦) البداية والنهاية ١٢/ ٩٠ .



وبعد وفاة طغرل بك اضطربت الأحوال حتى قبض ألب أرسلان[1] ابن أخى طغرل بك على زمام الأمور، وبقيت المودة بينه وبين الخليفة، واجتمعت عليه الكلمة.

ولم يكتف ملوك السلاجقة بما تحت أيديهم من ممالك فى فارس وما وراء النهر وأرمينية، وإنما حاولوا الاستيلاء على المدن القريبة منهم خاصة ما بداخل الأناضول البيزنطية. وبعد فترة من وحدة هذه البلاد دبت الفرقة وظهر النزاع بين أولى الأمر منهم وانقسمت دولتهم الكبيرة إلى إقطاعات أطلقوا عليها «أتابكات» نسبة إلى الأتابك[2]، جاء فى كتاب الحركة الصليبية حديث عن هذه الإقطاعات قال: وظهر عدد كبير من الأسرات الحاكمة المستقلة التى لا تجمعها رابطة إلا مجرد الاتصال بالأسرة السلجوقية، وكانت تعرف باسم الأتابكات. وبعض هذه الأتابكات كان لا يتعدى نفوذه أسوار مدينة واحدة ومنها أتابكية دمشق (٤٩٨: ٥٤٩هـ ـ ١١٠٤: ١١٥٤م) وأتابكية الموصل (٥٢١: ٦٦١هـ ـ ١١٢٧: ١٢٦٢م) وأتابكيات أخرى متداعية ظهرت على أنقاض دولة السلاجقة المتداعية[3].

وقد أحصينا الأتابك فى ذلك الزمان فوجدناها زادت على عشرة، ومن أشهرها: أتابكية خوارزم وأتابكية دمشق وأتابكية الموصل وأتابكية سنجار وأتابكية الجزيرة وأتابكية إربل وأتابكية أذربجان وغيرها.

وبمرور الوقت لقب زعماء هذه الأتابكات بالسلاطين، فكان العالم الإسلامى يحكم بقيادة الخليفة العباسى والسلطان معًا، وربما زادت سيطرة السلطان حتى تغطى على مكانة الخليفة، ونسوق لذلك حدثين صغيرين لكل منهما دلالته على ما نقول.

---

(١) هو السلطان أبو شجاع بن جفرى بن داود بن ميكائيل بن سلجوق الملقب بعضد الدولة، استولى على الممالك وعظمت مملكته قيل: لم يعبر الفرات من قديم الزمان ولا حديثه فى الإسلام ملك تركى قبل ألب أرسلان ولد سنة ٤٢٤هـ ملك تسع سنين وأشهرا، توفى يوم السبت آخر ربيع أول سنة ٤٦٥هـ ومعنى اسمه (ألب) شجاع و(أرسلان) أسد. (وفيات الأعيان ٥/٦٦).

(٢) الأتابك هو الذى يربى أولاد الملوك وهى كلمة تركية مركبة من (أتا) معناها مربٍّ و(بك) معناها الأمير.

(٣) الحركة الصليبية ٩٩.



الحدث الأول أن الخليفة المقتدى[1] العباسي خطب ابنة السلطان السلجوقى ملكشاه[2] وقدم صداقًا قدره خمسون ألف دينار، واشترطت أم العروس على زوج ابنتها ـ الخليفة ـ أن يطلق جميع زوجاته ويسرح كل سُرِّيَّاته. قال ابن كثير: أرسل الخليفة إلى السلطان ملك شاه يتزوج ابنته فأجابته أمها بذلك بشرط ألا يكون له زوجة ولا سرية سواها، وأن يكون سبعة أيام عندها، فوقع الشرط على ذلك[3].

وقد وصف صاحب الحوليات يوم الزفاف قال: فى المحرم ٤٨٠هـ جرى زفاف الخاتون ابنة السلطان ملكشاه إلى الخليفة المقتدى العباسى، فجاءت إلى دار الخلافة ببغداد فى محفة مجللة عليها بالذهب والجوهر. تحفها مائتا جارية، ونقل جهازها على ١٣٠ جملاً و٧٤ بغلاً و٣٣ فرسًا. جميعها مكسوة بالحرير واستخدم فى السماط أربعون ألف مَنٍّ من السكر[4].

أما الحدث الثانى الذى يشير للمكانة التى وصل إليها سلاطين السلاجقة فهو فى سنة ٥٢١ هـ كان الخليفة المسترشد[5] بالله العباسى وسلطان السلاجقة هو سنجر شاه[6]، وكان على قلعة الموصل أتابك اسمه عماد الدين زنكى الذى خاف

(١) ابن محمد بن القائم ولد سنة ٤٤٨هـ وتولى الخلافة سنة ٤٦٧هـ وتوفى فى محرم سنة ٤٨٣هـ فى عهده أخذ الفرنجة جزيرة صقلية.

(٢) هو السلطان أبو الفتح بن ألب أرسلان بن داود بن سلجوق التركى ملك بعد أبيه كانت مملكته من أقصى بلاد الترك حتى اليمن وكانت الطرقات آمنة، عمر العمارات الهائلة وبنى القناطر وأسقط المكوس والضرائب، وحفر الأنهار وبنى مدرسة أبى حنيفة وجامع السلطان فى بغداد توفى فى شوال سنة ٤٨٥هـ وولد سنة ٤٤٨هـ.

قال عنه ابن الأثير: تملك السلطة بأمر الخليفة العباسى القائم بأمر الله (٤٢٢هـ : ٤٦٧هـ) فى صفر سنة ٤٦٦هـ وكانت السلطنة تشمل ترمذ وخراسان (الكامل ٨/٤٢٧) وزاد ابن خلكان: ومن جملة مملكته بلاد ما وراء النهر وبلاد الروم.. وخطب له على جميع منابر الإسلام سوى بلاد المغرب .. ولما تحارب وأخوه تتش دعا الله: اللهم انصر أصلحنا للمسلمين وأنفعنا للرعية. (وفيات الأعيان ٥/٢٨٤).

(٣) البداية والنهاية ١٢/١٢٢ .

(٤) حوليات الإسلام ٥٦٩ والمن مقدار رطلين.

(٥) الخليفة التاسع والعشرون من خلفاء بنى العباس تولى فى سنة ٥١٢هـ وقتله الباطنية فى سنة ٥٢٩هـ

(٦) أبو الحارث سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقى سلطان خراسان وغزنة وما وراء النهر وأذربيجان وأران وأرمينية والشام والموصل وديار بكر وربيعة والحرمين تلقب بالسلطان الأعظم ولد فى رجب سنة ٤٧١هـ بمدينة سنجار وتولى الملك سنة ٤٩٠هـ نيابة عن أخيه واستقل بالملك سنة ٥١٢هـ وتوفى فى ربيع أول سنة ٥٥٢هـ بمرو. وذكر ابن كثير أنه قتل اثنى عشر ألفا من الباطنية (البداية والنهاية ١٢/١٩٨).

أن يعزل فتقرب إلى الخليفة الذى اتفق معه على إعطاء السلطان سنجر شاه مائة ألف دينار ضمانًا له حتى يبقيه فى قلعته ولا يعزله بغيره[1].

وزاد ابن كثير فقال: فبذل عماد الدين للسلطان فى كل سنة مائة ألف دينار وهدايا وتحفًا على أن يستمر زنكى على عمله بالموصل[2].

ويذكرنا هذا الحادث بما فعله الخليفة المستضيء[3] بعد ذلك، قال عبد الغنى حسن: هانت الخلافة، وهانت الوزارة تبعا لها، وانصرف الخلفاء عن اختيار الأصلح للوزارة إلى من يغلى الثمن لهم فى طلبها... حتى لقد وصل ظهير الدين ابن العطار إلى الوزارة للخليفة المستضيء لأنه كان تاجرا وكان يغدق الأموال على هذا الخليفة الذى كان يحب الذهب حبًا جمًّا[4]. هكذا كانت حال الحكم والحكام فى بغداد.

* * *

(١) التاريخ الإسلامى ٤/٧١.
(٢) البداية والنهاية ١٢/١٩٨.
(٣) ولد سنة ٥٣٦هـ وتوفى سنة ٥٧٥هـ وهو الخليفة الثالث والثلاثون من بنى العباس.
(٤) تيجان تهاوت ١٢٦.

زمرد بنت جاولى

فى الربع الأخير من القرن الخامس الهجرى وفى عهد السلطان ملكشاه[1] أنجب أحد مماليكه المسمى بالأمير جاولى[2] بنتًا من جارية له، سماها (زمرد خاتون)، وكان جاولى قبل ذلك ملكًا للأمير آمد سنقر[3] البرسقى الذى كان واليا على قلعة الموصل من قبل ملكشاه، وبعد مدة وجيزة وجدنا هذه السيدة أم زمرد قد انتقلت إلى ملك السلطان تاج الدين[4] تُتُش أخى سيدها السلطان ملكشاه، وطبيعى أن هذا الملك قد تم بعد وفاة زوجها جاولى مملوك السلطان، واستولد تُتُش جاريته أم زمرد وأنجب منها صبيًا سماه شمس الملوك دقماق أو دقاق[5]، وكان له صبى آخر من جارية أخرى اسمه فخر الملوك رضوان[6].

وقد توسع السلطان تُتُش فى ممالكه، واستولى على دمشق سنة ٤٧١ هـ ١٠٧٨م وعلى حلب سنة ٤٧٨ هـ وبعلبك سنة ٤٨٣ هـ وحمص ٤٨٥ هـ، وبمرور الوقت صارت حران[7] والرها[8] وأنطاكية[9] تحت إمرته.

وكان للسلطان تُتُش مملوك صار قائدًا فيما بعد ـ هو الأمير ظهير الدين أبو المنصور طغتكين بن عبد الله، ولإعجابه بشجاعته أعتقه وقربه إليه وأحبه حبًا شديدًا وعينه أتابكا (حربيًا) لابنه الأمير دقماق، الذى جعل له إمارة دمشق فى حين جعل لولده الآخر الأمير رضوان إمارة حلب، ولم يكتف تُتُش بتعيين طغتكين

---

(١) توفى فى شوال سنة ٤٨٥هـ.

(٢) قال عنه ابن خلكان: كان بالموصل أميرًا كبير المنزلة يعرف بالجاولى (وفيات ٢/٣٢٧).

(٣) والد عماد الدين زنكى وجد نور الدين محمود، توفى فى حربه مع تتش سنة ٤٨٧هـ.

(٤) ابن ألب أرسلان السلجوقى صاحب البلاد الشرقية، ولد فى رمضان سنة ٤٥٨هـ قتل فى معركة فى ١٧ من صفر سنة ٤٨٨هـ.

(٥) توفى فى رمضان سنة ٤٩٧هـ بعد مرض عضال.

(٦) توفى فى سلخ جمادى الأولى سنة ٥٠٧هـ.

(٧) مدينة عظيمة على طريق الموصل والشام والروم.

(٨) بين حران والرقة شمال الجزيرة.

(٩) من أعيان البلاد وأمهاتها موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء، بينها وبين حلب يوم وليلة، فتحها أبو عبيدة بن الجراح ولما نقضوا العهد توجه عمرو بن العاص ففتحها، ملكها الروم سنة ٣٠٣هـ، إلى أن استرجعها سليمان السلجوقى سنة ٤٧٧هـ زمن ملك شاه. ثم عادت إلى الروم سنة ٤٩١هـ معجم البلدان.

أتابكًا لولده بل طلق جاريته أم زمرد وزوجه إياها، يقول ابن خلكان: ولما مات دقاق (٥٠٧هـ) قام الملك ظهير الدين أبو منصور طغتكين، وكان أتابكه وتزوج أمه في حياة أبيه، زوجه إياها وهو عتيق تُتُش رحمهم الله تعالى[١].

ولما توفي السلطان تُتُش سنة ٤٨٨ هـ قام طغتكين[٢] بشئون الدولة أحسن قيام مساعدًا للسلطان (دقماق) أخي زمرد وابن زوجته.

قال ابن الأثير: كان دقاق بن تُتُش قد سيره أبوه إلى عمه السلطان ملكشاه ببغداد وخطب له ابنة السلطان وسار بعد وفاة السلطان إلى أصفهان... ولما قتل تُتُش أخذه غلام لأبيه إلى حلب... وافق وصول معتمد الدولة طغتكين إلى دمشق.. فلقيه الملك دقاق وأرباب دولته وبالغوا في إكرامه، وكان زوج والدة دقاق فمال إليه لذلك وحكّمه في بلاده[٣].

وفي سنة ٤٩٧هـ توفي السلطان دقماق[٤] أخو زمرد فصار طغتكين واليًا على دمشق بعد دقماق وتلقب بمعتمد الدولة وظهير الدين، ولكن ابن الأثير أشار إلى أن السلطة لم تنتقل لطغتكين مباشرة، قال: في رمضان سنة ٤٩٧هـ توفي الملك دقاق بن تُتُش بن ألب أرسلان صاحب دمشق وخطب أتابكه طغتكين لولد له صغير، له سنة واحدة وجعل اسم المملكة فيه[٥].

إذن فقد صارت السلطة لطغتكين تلقائيًا بتولي طفل في سنته الأولى للمُلْك، فهو المراقب والأتابك والولي عليه.

لكن د. شلبي له رأي آخر في هذه الولاية قال: كان طغتكين أحد القادة في جيش السلاجقة التابع للسلطان تتش وفي سنة ٤٨٨هـ ـ سنة ١٠٩٥م عين أتابكًا للأمير دقماق بن تُتُش أمير دمشق وسرعان ما سلب السلطة منه[٦].

---

(١) وفيات الأعيان ١/٢٩٦.

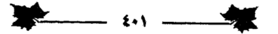
(٢) أطلق عليه ابن خلدون (طغركين) وسماه ابن الأثير (طغدكين).

(٣) الكامل ٨/٥٠٤ .

(٤) يذكر التاريخ موقفًا مشرِّفًا لدقماق، يقول عطية الله: في سنة ٤٩٣هـ أرسل تنكرد النرماندي إلى الأمير دقماق بن تُتُش صاحب دمشق إنذارًا يدعوه فيه إلى اعتناق المسيحية أو إخلاء دمشق على الفور، ورد دقماق، بأن أعدم رسله باستثناء واحد اعتنق الإسلام (حوليات الإسلام ٥٨٩).

(٥) الكامل ٩/٧٤ .

(٦) موسوعة التاريخ الإسلامي ٣/١٥٥.



وسواء سلب طغتكين السلطة من الأمير دقماق ابن زوجته أو آلت إليه تلقائيا بعد وفاته فإن أحداث التاريخ تشير إلى أن طغتكين القائد السلجوقى قد صار الأمير على دمشق بعد ذلك وأسس أسرة البوريين التى تنسب لابنه وخليفته بورى.

وقد أراد طغتكين أن يندمج أكثر فى أسرة السلاجقة فخطب لابنه تاج الملوك بورى ابنة الأمير جاولى وأخت الأمير دقماق من أبيه وبنت زوجته: الأميرة صفوة الملوك المحترمة (زمرد خاتون) ورحبت الأسرتان وتم الزواج فى خلال سنة ٥٠٥هـ وما لبثت زمرد أن أنجبت من زواجها للأمير بورى[1] ولدين هما: شمس الملوك[2] إسماعيل وشهاب الدين محمود الذى ولد بعد أخيه بسنة وعاش الولدان فى كنف جدهما السلطان طغتكين ووالدهما بورى وأمهما زمرد خاتون فى ربوع دمشق وما حولها.

* * *

(١) كان هناك تاج الملك بورى آخر هو أخ لصلاح الدين الأيوبى وقد سماه ابن خلدون (مورى) وبورى كلمة تركية معناها (ذئب).

(٢) ولد فى ٧ من جمادى الآخرة سنة ٥٠٦ هـ.

وفاة طغتكين

فى صفر سنة ٥٢٣هـ توفى الأتابك ظهير الدين أبو منصور طغتكين بعد أن حكم دمشق وما حولها سنين عدة أكثر من ربع قرن وقف فيها ضد الفرنجة الصليبيين الذين كانوا قد بدأوا حملاتهم على الشرق[١] من سنة ٤٨٨هـ سنة ١٠٩٥م.

وقد تضاربت أقوال المؤرخين بشأن شخصية طغتكين ومقوماتها الأخلاقية، ما بين ناظر إليه على أنه مثل فى الورع والتقوى وآخر يراه مجردًا تمامًا من أى خلق دينى، قال عنه الحافظ الذهبى: كان شهمًا مهيبًا مدبرًا سائسًا له مواقف مشهورة مع الفرنج، توفى فى صفر ودفن بتربته قبلى المصلى[٢].

ويقول د. حسين مؤنس: كان طغتكين صاحب دمشق يحاور ويداور، ولم يكن فى نفسه حِسُّ إيمان، ولكنه كان ذكيًا واسع الحيلة، وقد عز على نفسه أن ينضم إلى جبهة الجهاد، وفضل أن يمد يدًا للصليبيين ويدًا لحلب والموصل.

وحفظ الإمارة لنفسه بذلك ما عاش[٣].

ويقول د. حسن إبراهيم مشيرًا إلى علاقة طغتكين ببعض الأمراء: وقد اشتبك الأمير ممدود صاحب الموصل فى عدة معارك انتصر فيها على الصليبيين، وفى شهر ربيع آخر سنة ٥٠٧ هـ خرج ممدود إلى المسجد الأموى[٤] ويده فى يد طغتكين صاحب دمشق، وبعد صلاة الجمعة ضرب رجل ممدودًا ضربة قاتلة فحُمل إلى دار طغتكين الذى قيل إنه هو الذى دبر هذه المؤامرة؛ لأنه خشى أن ينتزع ممدود دمشق منه[٥].

---

(١) بدأت الحروب الصليبية بمؤتمر عقده البابا (أوربان) الثانى لحرب السلاجقة واستخلاص بيت المقدس منهم وتزعم بطرس الناسك الحملة الأولى سنة ٤٨٨هـ وتتابعت الحملات بعد ذلك حتى وصلت سبع حملات، وكانت القدس قد سقطت فى أيديهم فى ١٣ شعبان سنة ٤٩٢هـ.

(٢) العبر ٤/٥١.

(٣) نور الدين زنكى ٦٢.

(٤) أنشأه الوليد بن عبد الملك سنة ٨٦هـ يعتبر من أعظم المساجد الإسلامية لرحابته وارتفاعه وزخارفه. قال الأمير محمد على : وعند هذا المسجد تقابل خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح (الرحلة الشامية ٨٥).

(٥) التاريخ الإسلامى ٤/٥٣ .

ولكن ابن خلدون يذكر قصة يبين فيها مدى وقوف طغتكين ضد الصليبيين يقول: فى سنة ٤٩٣هـ بعث الأفضل[١] ابنه سناء الملك حسين لقتال الفرنج فساروا فى خمسة آلاف، واستمدوا طغتكين أتابك دمشق فأمدهم بألف وثلاثمائة ولقوا الفرنج فى عسقلان ويافا[٢]. وقال ابن الأثير بذلك أيضًا وسمى قائد الجند[٣].

وقال محمد كرد على: كان طغتكين أتابك دمشق سائرًا فى غزوهِ الفرنج مرة بعد مرة وجمع شمل أمراء الشام[٤].

ويؤكد المؤرخون أن أول تحالف بين السنة والشيعة قد تم فى سنة ٤٩٨ هـ وذلك أن طغتكين أمير دمشق السنى تحالف مع خليفة مصر الفاطمى الآمر بأمر الله المنصور، ليقفوا جميعًا ضد الصليبيين، ونتج عن ذلك اتفاق السنة والشيعة فى بغداد أيضًا. يقول ابن الأثير: «فى سنة ٥٠٢هـ اصطلح عامة بغداد السنة والشيعة وكان الشر بينهم على طول الزمن»[٥].

وقد اعتبر المؤرخ ابن الأثير طغتكين من القواد المهمين المواجهين للفرنجة وذكر عدة وقائع لذلك قال: تكررت الحروب والغارات بين عسكر دمشق وبغدوين الصليبى صاحب القدس، وبنى بغدوين حصنًا بينه وبين دمشق، فخاف طغتكين من عاقبة ذلك وما يحدث فيه من الضرر، فقال لعسكره: من أحسن قتالهم وطلب منى أمرًا فعلته معه. ومن أتانى بحجر من حجارة الحصن أعطيته خمسة دنانير، فبذل الرَّجَّالة نفوسهم وصعدوا إلى الحصن فوفى لهم ما وعدهم.. وأسروا من بالحصن فأمر بهم فقُتلوا ... وعاد طغتكين إلى دمشق منصورًا[٦].

وكان قد اتفق مع زعماء المسلمين المجاورين على محاربة الصليبيين حتى هزموهم فى عدة مواقع، يقول ابن الأثير: فى سنة ٥٠٧هـ في المحرم اجتمع المسلمون وفيهم الأمير ممدود بن التونتكين صاحب الموصل وتميرك صاحب سنجار والأمير أيازين بن أيلغازى وطغتكين صاحب الموصل[٧].

---

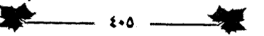
(١) الأفضل بن بدر الجمالى أرمنى الأصل، وزير المستنصر الفاطمى وأمير الجيوش المصرى ت سنة ٥١٤ هـ.
(٢) ابن خلدون ٤/١٤٤ .
(٣) الكامل ٩/٨٥ فى أحداث سنة ٤٩٨ هـ.
(٤) خطط الشام ١/١١.
(٥) الكامل ٩/٥٠٢.
(٦) الكامل ٩/٨٩ .
(٧) المرجع السابق.

وقال ابن العماد: ظفر طغتكين بالفرنج سنة ٤٩٩ هـ مرتين، فأَسَرَ وقَتَلَ وزينت دمشق[1].

هذه بعض الروايات عن طغتكين، ولكن المؤرخين جميعًا رغم اختلافهم، اتحدوا على التأكد من قوة شخصيته وذكائه ونجاحه فى المحافظة على دمشق وما يتبعها بحيث لم يستطع الصليبيون أن يصلوا إليها رغم محاولاتهم المتكررة. وبعد أن توفى طغتكين تولى ابنه تاج الملك بورى سنة ٥٢٣ هـ ـ سنة ١١٢٨م ملك دمشق.

* * *

(١) شذرات الذهب ٤٠٩/٣ .



السلطانة زمرد

لقد أفضنا فى سرد المقدمات التاريخية لظهور (زمرد خاتون) على مسرح الأحداث، نظرًا لتعقد هذه الأحداث التاريخية. وتشتتها، وهى مع ذلك قد أدت إلى بروز شخصية هذه القصةحتى تؤدى دورها التاريخى وراء الأحداث.

عاشت الأميرة صفوة الملوك زمرد خاتون فى رعاية زوجها تاج الدين بورى بن طغتكين ملك دمشق حياة كريمة، بعيدًا عن السياسة واتصالات زوجها بالملوك والأمراء حوله، وشغلت نفسها بالعلم والعلماء، فهى العاقلة الحازمة الصالحة البارَّة ذات الدين كما وصفتها كتب التراجم، فحفظت القرآن الكريم، وروت الحديث الشريف بعد أن سمعته من محدثين كبار فى زمانها أمثال أبى الحسن بن قبيس، وأبى الفتح نصر الله بن محمد بن طاوس وأبى بكر القرطى وغيرهم.

ولحبها للقراءة والاطلاع على المعارف الإنسانية أمرت بنسخ كل كتاب تسمع به ويقع تحت يدها حتى كونت مكتبة فى قصرها مشتملة على أكثر العلوم والمذاهب والثقافات فى زمانها، قال ابن العماد: زمرد خاتون المحترمة صفوة الملوك بنت الأمير جاولى أخت الملك دقاق صاحب دمشق لأمه؛ حفظت القرآن واستنسخت الكتب[1].

ولم تقتصر على تحصيلها هى للمعارف المتاحة فى وقتها بل عملت على نشر العلم والمعرفة بين كل من حولها فى نواحى دمشق، فأمرت ببناء مدرسة كبيرة أطلق عليها المدرسة الخاتونية؛ يقول ابن كثير: هى بانية الخاتونية ظاهرَ دمشق عند قرية صنعاء، بمكان يقال له تل الثعالب غربى دمشق، على جانب الشرق القبلى لصنعاء الشام، وهى قرية معروفة قديمًا[2].

ولم تكتف زمرد بعمارة المدارس: وإنما اتجهت إلى المساجد أيضًا، يقول رضا كحالة: ينسب إليها مسجد زمرد خاتون الكبير بتل الثعالب، وقفت عليه أوقافًا، ورتبت له إمامًا ومؤذنًا[3].

---

(1) شذرات الذهب ٤/١٧٨.
(2) البداية والنهاية ١٢/٢٤٦.
(3) أعلام النساء ٢/٣٨.

وطبيعى أن تتكفل بمصروفات هذه المدرسة وهذا المسجد، فأوقفت عليهما مبالغ وأوقافًا طائلة للإنفاق على طلاب العلم من أطفال وشباب وباحثين وكذلك على العلماء والأساتذة والمحدثين والمحفظين والفقهاء.

قال د. ماجد الكيلانى: سار رجال الحكم والإدارة على الجهاد والصدقات وكثرة النفقات، وحذا حذوهم نساؤهم، من ذلك ما فعلته الست خاتون عصمت الدين زوجة نور الدين، ومثلها زمرد خاتون بنت جاولى[١].

ولأن السيدة زمرد خاتون حنفية المذهب، فقد أسندت الإشراف على مدرستها إلى شيخ المذهب الحنفى فى دمشق آنذاك: برهان الدين أبى الحسن بن على البلخى. الذى كان يعمل مدرسًا فى المدرسة البلخية، ثم انتقل إلى مدرسة الخاتونية، قال عنه ابن كثير: كان عالمًا عاملاً ورعًا زاهدًا. مات سنة ٥٤٦هـ ودفن بمقابر باب الصغير[٢].

ودرس فى هذه المدرسة العريقة علماء كُثُر، مثل صدر الدين البصروى وشرف الدين عبد الوهاب الحورانى وغيرهما، وقد ظلت هذه المدرسة تؤدى رسالتها فى تخريج العلماء حماية للثقافة الإسلامية عشرات السنين، حتى تهدمت وانتهت كما ينتهى كل شىء على وجه الأرض. قال رضا كحالة: وظلت المدرسة عامرة حتى أواخر حكم المماليك، فخُربت ونقلت أنقاضها لتعمر بها مدرسة غيرها فى باب الجابية[٣]. وقال أيضًا واصفًا المدرسة: حكى ابن المزالق فى تحفة الأنام أن هذه المدرسة كانت من العجائب، يمر بصحنها بانياس[٤]، والقنوات على بابها، ولها شبابيك تطل على المرجة[٥]، وبها أنواع الرخام ما هو من العجب[٦].

---

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ٣١١.

(٢) البداية والنهاية ٢٤٦/١٢.

(٣) أعلام النساء ٣٧/٢، وباب الجابية أحد أبواب مدينة دمشق القديمة يطل على قرية الجابية فى الجولان، وعلى هذا الباب خطب عمر بن الخطاب خطبته الشهيرة عند زيارته للشام وبيت المقدس.

(٤) نهر صغير.

(٥) ساحة كبيرة فى وسط دمشق.

(٦) أعلام النساء ٣١٢/٥.



والذى لا نلاحظه هوقدرة هؤلاء الأتراك ذوى الأصول المختلفة ـ على الانتقال الكلى إلى مجال الثقافة العربية الإسلامية، وإتقانهم لفروعها ومصادرها حتى إنهم ليعملون على نشر هذه الثقافة، ويقفون على رعايتها بالأوقاف الكثيرة التى تضمن استمرارها وانتشارها فى أبناء دمشق وما حولها، إلى جانب ما أثر عنهم من تكريم العلماء والإغداق عليهم، مما يعد مثلاً أعلى فيما نسميه فى زماننا: التنمية الثقافية، ولو أن كل قادر فى زماننا فعل ما فعلته زمرد خاتون فى زمانها لما شكونا انتشار الأمية وعموم الجهل، مما يقعد بالأمة عن موكب الحضارة وركب التقدم.

* * *

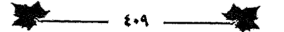
حال العالم الإسلامى آنذاك

لقد شهدت تلك الفترة من التاريخ الإسلامى نوعين من الانقسام فى الإمبراطورية الإسلامية، الأول: ما آلت إليه الدولة العباسية في أخريات عهدها من انقسام إلى دويلات سبقت الإشارة إليها، وهو الانقسام الذى شجع الصليبيين على غزو العالم الإسلامى، وهو نتيجة طبيعية للتفرق الذى أصاب الأمة الإسلامية فى ذلك الزمان، فما كان الصليبيون ليجرءوا على التفكير - مجرد التفكير - فى غزو العالم الإسلامى لو كان فى عهود الخلفاء العظام فى المرحلة الزاهرة من حكم الدولة العباسية، ولكن سنة الله لا تتخلف، فإن التنازع والانقسام الذى أصاب الدولة الإسلامية قد شجع الصليبيين على الإقدام لاغتيال الدولة، واقتناص مدنها وإذلال رعيتها وملوكها وسلاطينها، وهو ما نشهد له مثالاً فى زماننا الذى انقسم فيه المسلمون انقسامًا فادحًا، أطمع فيهم أعداء الإسلام فأمعنوا فى بلاده توغلاً واحتلالاً، واستيلاء على الثروات، واستبدادًا بالسياسات، وهذا هو المقصود بقول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[1].

وعودة إلى ما كانت عليه حال العالم الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى لنتابع الحديث فى وصف حال هذا العالم بين أيدى وأرجل حكامه المتمزقين، وهو ما يتمثل فى النوع الثانى من الانقسام، وهو انقسام المجتمعات الإسلامية إلى طوائف، وطرق، وفرق، وهو انقسام أشد تأثيرًا فى بناء المجتمع الإسلامى، فكانت البلاد تموج فى صراعات وانقسامات بين الأمراء بعضهم وبعض، حتى كانت خلافات الإخوة تصل إلى الحروب. وكم من أخ قتل أخاه في سبيل مدينة أو قرية أو شبر من الأرض. كذلك ظهرت الطوائف والفرق كل يحارب بعضه بعضًا وكل فرقة تكفر الأخرى، وكان هذا مشجعًا على فرقة ضالة هى فرقة الشيعة الباطنية المسماة الإسماعيلية[2]. والتى حاولت القضاء على عُمُد الإسلام من فقهاء وعلماء وقواد، وقد تفاقم خطرهم حتى إنهم كانوا يقطعون الطريق على قوافل الحجاج، يقتلون ويسبون الكثير فى كل موسم، ثم وجهوا خطتهم إلى

(١) الأنفال: ٤٦.

(٢) قال ابن الأثير: الباطنية هم الإسماعيلية وهم قديما يسمون القرامطة (الكامل ٩/٣٦).



القضاء على أولى الأمر، وخاصة السلاجقة السنيين، وأخذوا يغتالونهم واحدًا تلو الآخر لوقوفهم بالمرصاد يكشفون كفرهم ويعرفون الناس بزيفهم وزورهم، ومن أمثال هؤلاء الشجعان زوج زمرد خاتون الملك: تاج الملك بورى بن ظهير الدين الذى قتل جماعة كثيرة من الباطنية الإسماعيلية فقرّروا التخلص منه بطريقتهم، وبعثوا إليه من قتله، يقول ابن عساكر: بعث إليه الإسماعيلية برجلين فضرباه بالسكاكين، وقد خرج من الحمام، فأثر فيه بعض الأثر، وأقام ينتقض عليه الجرح تارة، ويندمل تارة إلى أن مات بعد أشهر فى رجب سنة ٥٢٦ هـ[١] (١١٣٢م) . وقد حدد ابن خلكان يوم وفاته قال: فى ٢١ رجب[٢].

وقد ذكر ابن الأثير الوصية التى أوصى بها بورى أولاده أثناء اشتداد الجراح عليه قال: كان سبب موته أن الجرح الذى كان به من الباطنية اشتد عليه وأضعفه وأسقط قوته فتوفى فى ٢١ رجب سنة ٥٢٦هـ، ووصى بالملك بعده لولده شمس الملوك إسماعيل - ابن زمرد - ووصى بمدينة بعلبك وأعمالها لولده شمس الدولة محمد، وكان بورى كثير الجهاد شجاعًا مقدامًا سدّ مسدَ أبيه وفاق عليه[٣].

مات الملك بورى ولم تدم ولايته لدمشق إلا ثلاث سنوات وعدة أشهر، ولم تكن دمشق وما حولها هى ملك بورى فقط، إنما كان أيضًا حمص وحماة فى الشمال. لكنهما أخذتا منه فقد استولى أحد مماليك السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان - سماه د. حسين مؤنس. فرخان - على حمص، أما حماة فقد أرخ الذهبى سقوطها فى يد عماد الدين زنكى قال: فى سنة ٥٢٣هـ أخذ عماد الدين زنكى[٤] حماة من بورى بن طغتكين وأسر صاحبها سونج بن بورى، ثم نازل حمص فلم يقدر عليها، فأخذ معه سونج ورُدّ إلى الموصل، فاشترى بورى بن طغتكين ولده سونج منه بخمسين ألف دينار، ثم لم يتم ذلك[٥].

* * *

---

(١) النجوم الزاهرة ٦/٢٤٩.
(٢) وفيات الأعيان ١/٩٦.
(٣) الكامل ٩/٢٦٦.
(٤) والد نور الدين الشهيد، وزوج زمرد خاتون بعد ذلك.
(٥) العبر ٤/٥٢.

زمرد أم السلطان

تولى الملك شمس الملوك أبو الفتح إسماعيل الحكم بعد وفاة أبيه بورى فى سنة ٥٢٦هـ، بناء على وصيته، وسار على طريق أبيه من العدل والشجاعة ومحاولة القضاء على الأعداء المحيطين به من باطنية وصليبيين[١]، الذين تجدد الأمل عندهم فى الاستيلاء على دمشق بعد مقتل بورى، وبدءوا يتحرشون بجند إسماعيل، ولكنه كان يصدهم محاولاً استرداد بعض ما أخذوه من حصون وقلاع بالقرب من دمشق وعلى حدودها، وقد نجح فى انتزاع حصن بانياس منهم سنة ٥٢٧هـ.

ويبدو أن هذا الملك أصابه الغرور بما حققه من بعض الانتصارات على الصليبيين التى كان آخرها طبرية والناصرة، فغيَّر طريقة معاملة رعيته وسياستهم، وظلم واستبد وفجر. قال كرد على: تولى شمس الملوك إسماعيل دمشق وكان أول جلوسه على عرش أبيه. أقر الولاة على حالهم، وسار بسيرته مدة... ثم تغيرت نيته وكثرت قبائحه ومصادرة المتصدقين والأخيار المستورين بفنون قبيحة فى العقوبات، وأظهر السوء لأصحاب أبيه، وقبض على خواصهم، وأركان دولته فنفرت القلوب منه[٢].

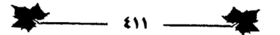
لقد ساءت علاقته برعيته، ولم يستطع أحد من المؤرخين تعليل هذا التحول فى شخصيته، من ملك صالح محب لشعبه إلى ملك فاسد ظالم، اللهم إلا ما ذكره ابن تغرى بردى فى رواية وضَّحت بعض صور عن علاقته بشعبه وتجارب شعبه معه قال: فى سنة ٥٢٨هـ[٣] خرج شمس الملوك صاحب دمشق يتصيد، وانفرد عن عسكره فوثب عليه أحد مماليك جده طغتكين يعرف بإلباء، وضربه بالسيف ضربة هائلة، فانقلب السيف فى يده، فرمى بنفسه على الأرض، وضربَهُ أخرى فوقعت فى عنق الفرس، وحال بينهما الفرس فانهزم

---

(١) كان دخولهم الشرق من أول سنة ٤٩١هـ ١٠٩٧م حيث بدءوا فى اكتساح البلاد فسقطت القدس سنة ٤٩٢هـ فى شعبان، ثم تلتها عكا وطرابلس وصور وبيروت وبانياس وصبرا، وما أن جاءت سنة ٥٠٤هـ – ١١١٠م حتى صارت أغلب البلاد الشامية تحت سيطرتهم.

(٢) خطط الشام ٢/١١.

(٣) ذكر ابن خلدون القصة ولكنه سجلها سنة ٥٢٧هـ.



إلبا حتى ظفروا به، فلما جاءوا به إليه قال: ما الذى حملك على قتلى؟ قال: لم أفعله إلا تقربًا إلى الله لظلمك الناس. ثم قرره. فأقر على جماعة، فجمع شمس الملوك الجميع، وقتلهم صبرًا بين يديه، ولم يكفه قتلهم حتى اتهم أخاه سونج[1] فجعله فى بيت، وسدّ عليه الباب حتى مات، ثم بعد ذلك بالغ فى سفك الدماء والظلم. والأفعال القبيحة[2].

وقد وضح كرد على ردود هذه الأفعال والمظالم على الناس قال: وقتل شمس الملوك أخاه الأكبر سونج صاحب حماة الذى كان فى أسر عماد الدين، فقتله بالجوع فى بيت، فعظم ذلك على الناس ونفر من ظلمه المساكين والضعفاء والصناع والمتعيشون والفلاحون، وامتهن العسكرية والرعية[3]. وقال ابن الأثير: ركب طريقًا من الظلم ومصادرات العمال وغيرهم فى أعمال البلد، وبالغ فى العقوبات لاستخراج الأموال وظهر منه بخل زائد ودناءة نفس بحيث إنه لا يأنف من أخذ الشىء الحقير بالعدوان.. وكرهه أهله وأصحابه ورعيته[4].

والعجب أن هذه المعاملة القبيحة كانت من إسماعيل لأبناء شعبه فقط، أما أعداؤه من الفرنجة فقد لان لهم وتواطأ معهم، هؤلاء الذين كانوا له بالأمس أعداء فصاروا اليوم أصدقاء وأحبابًا، حتى إنه اتفق معهم على تسليم ما فى حوزته من مدن وقلاع لهم. يقول ابن كثير: وهمّ بتسليم البلد والأموال إليهم[5].

ولم يكتف بذلك، بل بعث لبعض جيرانه من الأمراء ليقفوا معه ضد مواطنيه وأهل بلده فى دمشق، قال كرد على: وبعث إلى عماد الدين زنكى بسرعة الوصول إلى دمشق ليمكنه من الانتقام من كل من يكرهه من المقدمين والأمراء والأعيان، بإهلاكهم وأخذ أموالهم، وإخراجهم من منازلهم، وكتب إليه إذا تأخر استدعى الفرنجة من بلادهم، وسلم إليهم دمشق بما فيها[6].

---

(١) كان واليًا من قبل أبيه بورى على حماة، ثم استولى عليها عماد الدين زنكى، ولكن الملك إسماعيل استردها سنة ٥٢٧هـ واسترجع أخاه.

(٢) النجوم الزاهرة ٥/٢٢٥.

(٣) خطط الشام ٢/١١.

(٤) الكامل ٩/٢٧٩.

(٥) البداية والنهاية ١٢/٢٤٦.

(٦) شذرات الذهب ٤/١٧٨.

لقد جنّ شمس الملوك وفسد عقله حتى لقد رآه بعضهم ينقل ماله ومتاعه إلى حصن بعيد عن دمشق، يسمى حصن (صرخد)[1]، وما إن سمع بذلك أعيان البلد وكبراؤها حتى اجتمعوا وتداولوا الأمر، ثم قرروا نقل حال هذا الملك المتهور إلى أمه السيدة زمرد خاتون، فأسرعت إليه تحثه على الاستقامة وتأمره بالعدل بين الرعية، والوقوف ضد الصليبيين، كما كان يفعل أبوه وجده من قبل، ولكنه لم يبال بكلامها ولا نصحها. قال ابن الأثير: وتابع إسماعيل الرسل إلى زنكى يحثه على الوصول إليه ويقول له إن أهملت المجيء سلمتُ البلد إلى الفرنج.. وامتعض أصحاب أبيه وجده وأقلقهم، وذكروا الحال لوالدته، فساءها وأشفقت منه، ووعدتهم بالراحة من هذا الأمر[2].

لقد كررت السيدة زمرد محاولتها لإصلاح شأن ابنها الآبق، ولكنها كانت كمن يحرث فى الماء، ولم يسمع لها ولم يعرها التفاتا، فلم تجد إلا البتر علاجًا، بعد فشل النصح والإرشاد، وتصرفت تصرفًا لا تقوم به أم عادية، فقد قررت قتل هذا الملك الخائن والابن العاق، تخلصًا من شروره وآثامه، قال ابن الأثير: ثم إنها ارتقبت الفرصة فى الخلوة من غلمانه، فلما رأته على ذلك أمرت غلمانها بقتله فقُتل، وأمرت بإلقائه على موضع فى الدار ليشاهده غلمانه وأصحابه، فلما رأوه قتيلاً سُرُّوا لمصرعه وبالراحة من شره[3].

وقال الحافظ الذهبى: فرتّبت أمه زمرد خاتون من وثب عليه فى ربيع أول سنة ٥٢٩هـ - ١١٣٤م[4].

وقد حدد ابن العماد يوم مقتله قال: فرتبت أمه زمرد خاتون من وثب عليه فى قلعة دمشق[5] وفى مكان آخر شرح سبب هذا القتل فقال: وهى التى ساعدت على قتل ولدها إسماعيل لما كثر فساده وسفكه للدماء ومواطأته الفرنج على بلاد المسلمين[6].

---

(١) قلعة حصينة ملاصقة لحوران من أعمال الشام، واسعة، ينسب إليها الخمر (معجم البلدان).

(٢) الكامل ٩/٢٧٩.

(٣) المرجع السابق.

(٤) العبر ٤/٧٨.

(٥) شذرات الذهب ٤/٩٠.

(٦) المرجع السابق ٤/١٧٨.

وأكَّدَ المحقق محمد كرد على هذه الأخبار، مقارنًا بينه وبين جده الكبير الملك طغتكين، قال: كان جده طغتكين سائرًا فى غزوه للفرنج مرة بعد مرة، وجمع شمل أمراء الشام... ولكن ابن ابنه سلك غير طريقه فقتلته أمه ورجال الدولة[1].

والرأى الذى نميل إليه فى مصير هذا الملك أن أمه أبدت رغبتها للعلماء والفقهاء وكبار رجال الدولة فى ضرورة التخلص من هذا الملك الخائن، فتلقف الغلمان هذه الرغبة، ووثبوا على إسماعيل وقتلوه.

وقد ذكر ابن خلكان ما فعلته زمرد خاتون بعد ذلك، مع تحديد يوم مقتل ابنها قال: قتلت زمرد خاتون بنت جاولى ابنها يوم الأربعاء ١٤ ربيع آخر سنة ٥٢٩هـ، وأجلست أخاه شهاب الدين محمود بن بورى فتولى الأمر بعده[2].

ولا قيمة فى رأينا لما ذكره ابن الأثير وابن خلدون وتبعهما د. حسين مؤنس فى العصر الحديث بأن زمرد خاتون قتلت ابنها انتقامًا منه حين اتهمها بعلاقة آثمة بالحاجب يوسف بن فيروز، ولأن سيرة المرأة العطرة ترفعُها فوق هذا المستوى بكثير، وتضعها فى مصاف السيدات الطاهرات، لا سيما إذا لاحظنا أنها ستصبح بعد قليل من قتل ابنها زوجًا للملك عماد الدين زنكى، فلو كان ما قاله ابن خلدون حقًا لاشتهر عنها ذلك، ولحال دون أن يتزوجها عماد الدين زنكى البطل[3] المسلم. فلم يبق إلا أن نرجح أن زمرد خاتون فكرت فى مستقبل الإسلام والأمة، وقررت، ثم تصرفت... ماذا يفعلون فى هذا الملك الخائن السيئ السيرة؟

قال ابن تغرى بردى: وزاد ظلمه حتى كتب أهل الشام إلى زنكى بن آق سنقر بالمسير إليهم فقيل: إنه مات قبل وصول زنكى إلى الشام واستراح أهل الشام منه[4].

والعجيب أن إسماعيل ـ كما علمنا ـ كان قد بعث أيضًا إلى زنكى ليقف معه ضد أهل دمشق، ولكن القدر لم يحقق لشمس الملوك ولا لعماد الدين زنكى، ما فكر فيه كل منهما، فرأينا عماد الدين زنكى قد أسرع ملبيًا دعوة كل من الملك

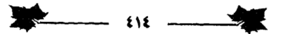
---

(١) خطط الشام ١/١٢.

(٢) وفيات الأعيان ٥/٢٩٦.

(٣) والد نور الدين زنكى الشهير الذى لم ير مبتسمًا قط، وعندما سئل قال: كيف أبتسم والقدس فى يد أعداء الله؟

(٤) النجوم الزاهرة ٦/٢٥٦.



إسماعيل وكبار رجال دولته، وفى نفسه أمل أن يضم دمشق إلى مملكته فى الموصل، لكنه وصل متأخرًا بعض الشيء، ولقد مات إسماعيل وسبقته زمرد خاتون وعينت ابنها الآخر شهاب الدين ملكًا قبل وصول زنكى.

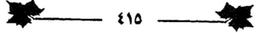
وعاشت مملكة دمشق فى ظل ملك جديد يحاول أن يمحو ما فعله أخوه من قبل، وتحت رعاية أم توجهه للخير وإلى مصلحة المسلمين.

ومرت أربع سنوات كانت الأنظار خلالها متجهة إلى بغداد والصراع فيها بين الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة، ومحاولة رأب الصدع بالمصاهرة، فربما كانت سببًا فى شيء من المصالحة، فهذا الخليفة الراشد بن المسترشد[1] الخليفة الثلاثون من خلفاء بنى العباس يتزوج من إحدى أميرات السلاجقة[2]، وقد سبقه جده الخليفة المقتدى الذى تزوج من بنت السلطان ملكشاه السلجوقى. وفرح الناس بزواج الخليفة الراشد ورقصوا وغنوا وربما تذكروا أيام أفراح بغداد الحقيقية أيام زواج الرشيد بزبيدة والمأمون ببوران والمعتضد بقطر الندى العروس المصرية، لكنها كانت أيامًا وذهبت، وذهب معها السرور، ولم يبق إلا الحرب والدمار وسيطرة القوى على الضعيف.

* * *

---

(١) ولد سنة ٥٠٢هـ وتولى سنة ٥٢٩ وخلع سنة ٥٣٠هـ وقتل سنة ٥٣٢هـ.
(٢) اسمها الأميرة فاطمة بنت محمد بن ملكشاه.



زواج زمرد من عماد الدين زنكى

ظهر على مسرح الأحداث الأتابك[١] الملك المنصور عماد الدين[٢] زنكى، الذى خرج من عباءة السلاجقة تمامًا كطغتكين، حيث كان أبوه الأتابك الحاجب آق سنقر[٣] زوجا لمربية السلطان ملكشاه السلجوقى ومن خواصه، وقد ولد زنكى سنة ٤٧٨هـ عندما كان أبوه واليًا على شحنة[٤] بغداد، وفى آخر دولة المستظهر بالله تم نقله إلى الموصل وحلب، قاله ابن العماد[٥]، وقال ابن الأثير: فى صفر سنة ٥١٥هـ أقطع السلطان محمود بن ملكشاه بن ألب أرسلان مدينة الموصل وأعمالها وما ينضاف إليها كالجزيرة وسنجار وغيرها الأمير آق سنقر البرسقى، وسبب ذلك أنه كان فى خدمة السلطان محمود، ناصحًا له، ملازمًا له، فى حروبه كلها[٦].

وقال د. ماجد: كان آق سنقر قد اشتهر فى حركة الجهاد عام ٤٧٧هـ .. وقد اشتهر بلقب قسيم الدولة... وأظهر كفاءة وهيبة فى جميع البلاد التى حكمها وكان أحسن الناس سياسة للرعية ودفاعا عن ديار المسلمين[٧].

أما د. حسن إبراهيم فقد أشار إلى بقية أملاك آق سنقر وما ضم إليها بعد ذلك قال: تسلم قسيم الدولة آق سنقر حلب[٨] وأعمالها كحماة[٨] ومنبج[٨] واللاذقية[٨] وكفر طاب[٨] وشيزر[٨] و كما وسع نطاق ولايته فضم إليها حمص[٨] وحصن أقامية[٨]... وضم مدينة[٩] تكريت إلى أملاكه[١٠].

---

(١) تطورت لفظة الأتابك وصارت تطلق على صاحب أكبر منصب عسكرى فى الدولة بعد السلطان، وكانت من قبل عبارة عن كلمتين (أتا) يعنى: والد أو مرب و(بك) يعنى: الأمير.

(٢) جاء فى كتاب الأعلام: هو أبو غازى ومحمود وممدود وكلهم من الشجعان، كان من كبار الشجعان، وعرف بالملك الشهيد. كان أبوه الحاجب قيم الدولة آق سنقر أول ملوك الدولة الأتابكية فى الموصل، كان تركيا من أصحاب ملكشاه، ولد عماد الدين سنة ٤٧٨هـ وتوفى ودفن بصفين سنة ٥٤١هـ.

(٣) جاء فى وفيات الأعيان، قتل آق سنقر بمقصورة الجامع بالموصل سنة ٥١٩هـ وتولى بعده ابنه عز الدين الذى توفى سنة ٥٢١هـ فتولى الملك بعده عماد الدين.

(٤) قيل معناها: البريد، وقيل: الحكومة.

(٥) شذرات الذهب ١٢٨/٤.

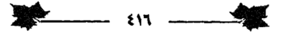
(٦) الكامل ٢٠٧/٩.

(٧) هكذا ظهر جيل صلاح الدين. ٢٨٦.

(٨) كلها مدن وحصون، تقع فى سوريا الآن.

(٩) تقع بين الموصل وبغداد فى العراق، فتحها المسلمون سنة ١٦هـ، بينها وبين بغداد حوالى ١٤٤ كم شمالاً.

(١٠) تاريخ الإسلام ٢٦٧/٤.



ولما جلس عماد الدين على سدة ملك أبيه وتحت يده هذه البلاد كلها، ضم إليها إمارة الجزيرة وإمارة حران، وحاول بعد ذلك أن يستولى على حماة فى عهد الملك بورى - زوج زمرد خاتون - سنة ٥٢٣هـ وأخذها لمدة بسيطة، لكن استرجعها منه إسماعيل بن بورى - كما علمنا - وكان هناك حلم أكبر يراوده دائمًا هو (دمشق) عاصمة الشام كله، فطالما تخيل كل الشام وقد وقفت صفًا ضد الصليبيين، وقد اقترب هذا الحلم من التحقيق عندما قتل الملك إسماعيل ولكن زمرد خاتون أسرعت ونصّبت ابنها الثانى شهاب الدين وجعلت له أتابكًا هو معين الدين أنر الطغتكين(١)، الذى كان المدبر الحقيقى للدولة بأمر من زمرد خاتون.

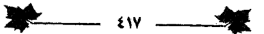
وعاودت عماد الدين أحلام ضم دمشق لأملاكه، ووجد أن كبار ملوك السلاجقة قد صاهروا إلى الخلفاء العباسيين، فلماذا لا يفكر هو فى تحقيق حلمه بأن يصاهر شهاب الدين محمود بن زمرد خاتون الذى ما زال صغيرًا، وأمه وأتابكه هما اللذان يديران أمور الدولة، وربما بزواجه من أمه زمرد خاتون صاحبة النفوذ يستطيع أن يضم دمشق يومًا ما. قال د. حسن إبراهيم: وكان زنكى يرمى إلى تحقيق سياسته، وهى توحيد الموصل والجزيرة والشام لتكون جبهة إسلامية موحدة تقف فى وجه الصليبيين(٢).

لقد كان هَمُّ عماد الدين زنكى القضاء على الصليبيين وخاصة بعد دخولهم القدس وتدنيسهم لها، قال ول ديورانت: كان اللاجئون المسلمون الفارون من فلسطين يقصون على إخوانهم الحوادث المفصلة المحزنة التى أعقبت سقوط المدينة فى أيدى المسيحيين، واقتحمت هذه الجموع مسجد بغداد العظيم، وأهابت بالجيوش الإسلامية أن تحرر بيت المقدس، وقبة الصخرة المقدسة من أيدى الكفرة النجسة، وكان الخليفة عاجزًا لا يستطيع تلبية النداء، ولكن عماد الدين زنكى أمير الموصل، الذى ولد عبدًا رقيقًا لبى الدعوة وزحف بجيشه الحسن القيادة فى سنة ١١٤٤م (٥٣٩هـ) وانتزع من المسيحيين المعقل الخارجى الشرقى، وبعد أشهر قليلة استعاد الرها وضمها إلى حظيرة الإسلام(٣).

(١) تزوجت ابنة أنر الأميرة عصمت الدين من نور الدين بن عماد الدين ولما مات تزوجت من صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٧٢هـ.

(٢) تاريخ الإسلام ٤/ ٦١.

(٣) قصة الحضارة ١٥/ ٢٩.



وقد سجل د. حسين مؤنس أن أول من واجه الصليبيين هو صاحب ماردين، ثم تبعه عماد الدين زنكى قال: أول من تشجع على مواجهة أراضى الصليبيين ومواجهة قواتهم فى ميدان القتال هو نجم الدين إيلغازى صاحب ماردين - من بلاد الجزيرة - ودخل الأراضى التى كانت تسيطر عليها إمارة الرها، والتقى بقوة صليبية عند بلدة قطون سنة ٥١٣هـ - سنة ١١١٩م وانتصر عليها، وعقب ذلك تشجع عماد الدين زنكى أمير الموصل فاستولى على حلب ووحد إمارتى الموصل وحلب، ودعا للجهاد فخفَّ المجاهدون المسلمون من كل مكان حتى تجمعت تحت لوائه قوات إسلامية كبيرة من المجاهدين ما بين فرسان ومشاة...

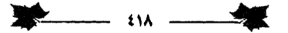
وسار على رأس جيش قوى واستولى على إمارة الرها وما يتبعها من بلاد، سنة ٥٣٩هـ - سنة ١١٤٤م وكان هذا نصرًا عظيمًا ارتجت له جوانب العالم الإسلامى[١].

وكان عماد الدين زنكى قد استولى على حلب فى محرم سنة ٥٣٢هـ وكان لهذه المدينة دور عظيم فى حركة المقاومة التى أنشأها عماد الدين ضد الصليبيين، وذلك بحكم موقعها الجغرافى المتوسط بين الشام والجزيرة والأناضول.

كذلك استولى على حمص الباب الشمالى لدمشق. ثم فكر فى الارتباط بزمرد خاتون أم ملك دمشق. قال ابن خلدون: ويعث عماد الدين إلى شهاب الدين صاحب دمشق يخطب إليه أمه زمرد خاتون ابنة جاولى، طمعًا فى الاستيلاء على دمشق فزوَّجَها له[٢]. وقال فى موضع آخر: رجع الأتابكى زنكى إلى حصار حمص، ويعث إلى محمود صاحب دمشق فى خطبة أمه زمرد خاتون بنت جاولى التى قتلت ابنها، فتزوجها، وملك حمص وقلعتها، وحملت إليه فى رمضان، وظن أنه يملك دمشق بزواجها، فلم يحصل له شىء من ذلك والله تعالى يؤيِّدُ بنصره من يشاء من عباده[٣].

وقد حدد ابن كثير سنة الزواج، وشهر ذلك الزواج الذى تم سريعًا؛ قال: فى رمضان سنة ٥٣١هـ تزوج عماد الدين زنكى الست زمرد خاتون أم صاحب دمشق[٤].

(١) أطلس تاريخ الإسلام ٢٨٩.
(٢) ابن خلدون ٥/٣٣٥.
(٣) ابن خلدون ٥/٥٢٢.
(٤) البداية والنهاية ١٢/٢٤٢.



وقد نتساءل حين نقرأ أن عماد الدين لما خطب زمرد شرط عليها أن تتنازل له عن حمص التي كان محاصرًا لها ووافقت، وإذا أمعنا النظر في هذا التصرف فسنجد أن هذا الزواج وقف حائلاً أمام مهاجمة زنكي لبقية إمارات ابنها، فكانت حمص عربون هذا الاتفاق السياسي الذي ارتضته زمرد خاتون بنظرها البعيد قال د. حسين مؤنس: وفكر زنكي في الاستيلاء على دمشق بوسيلة أخرى غير الحرب، فأرسل يخطب زمرد خاتون إلى نفسه على أن تنزل له عن حمص فقبلت وزفت إليه في شوال سنة ٥٣١هـ يونيو سنة ١١٣٨م، وأخذ حمص وأراد الرجل أن يثبت حسن النية، فأقام مملوكًا من مماليك بيت بوري يسمى معين الدين أنر نائبًا عنه في حمص[1]. لقد أراد أن يضرب عصفورين بحجر واحد: أن يتزوج زمرد خاتون ويبعث بأتابك ابنها معين الدين أنر إلى حمص، ويبقى في دمشق ابنها الصغير فيستطيع أن يدخل دمشق[2] ظافرًا، كانت هذه إرادته وكان ترتيبه، لكن القدر الإلهي أراد شيئًا آخر.

وأحست زمرد بما يراود نفس زوجها وأرادت أن تبعده عن دمشق، فرحلت إلى حمص أو حلب وعاشت فيها مع زوجها. يقول ابن كثير: تزوجها طمعًا في أن يأخذ بسببها دمشق فلم يظفر بذلك، بل ذهبت إليه إلى حلب[3].

وقررت زمرد خاتون في نفسها ألا تترك ابنها لصغر سنه، فكانت تقضي بعض الوقت مع زوجها في حلب أو حمص. ثم تذهب لولدها في دمشق، وفي إحدى زوراتها لابنها كان بعض غلمانه وخدمه قد اتفقوا على التخلص منه، فقتلوه، وربما كان ذلك بإيعاز من أحد، قال ابن خلكان: قتل ليلة الجمعة الثالث والعشرين من شوال سنة ٥٣٣هـ قتله غلامه التفش، ويوسف الخادم، والفراش الخركاوي[4]. وكان قد مكث في الملك أربع سنوات.

وأسرعت زمرد وكاتبت زوجها عماد الدين في الموصل وقيل بل كان في الجزيرة لتخبره بما حدث لابنها، وتطلب منه التحقيق، وأسرع عماد الدين إلى

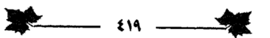
---

(١) نور الدين زنكي ١٦٥.

(٢) ترجع أهمية موضع دمشق الحربي إلى وقوعها على الطريق التجاري بين البلاد الواقعة على نهر الفرات ومصر، كذلك توسطها في بلاد الشام عمومًا.

(٣) البداية والنهاية ١٢/٢١٢.

(٤) وفيات الأعيان ١/٢٩٦.



دمشق تسبقه أحلامه بدمشق، وقبض على القتلة وصلبهم جميعًا، وفى نفس الوقت كان كبار رجال الدولة قد سارعوا إلى استدعاء شقيق الملك المقتول. محمد بن بورى من بعلبك وملكوه دمشق، وأصيب عماد الدين بالإحباط واليأس، ولكن ما لبث الأمل أن عاوده بملك دمشق عندما مات محمد بن بورى سنة ٥٣٤هـ فى شوال، لكن أولاد وأحفاد طغتكين أجمع رأيهم على الوقوف أمام سيطرة آل زنكى على دمشق، وبعد أن مرت سنون تحقق حلم عماد الدين وسيطر آل زنكى على دمشق فملكها نور الدين ابن عماد الدين بعد أكثر من عشرين سنة، يقول ابن خلدون: فى محرم سنة ٥٤٩هـ[١] ـ مارس ١١٥٤م استولى نور الدين محمود على دمشق من يد ابن طغتكين أتابك تُتُش[٢]. وقال د. حسن إبراهيم: استمرت أتابكية دمشق تحت نفوذ أسرة طغتكين حتى آل حكمها إلى أسرة زنكى، سنة ٥٤٩هـ باستيلاء نور الدين محمود بن زنكى عليها لتقوية جيوشه للوقوف فى وجه الصليبيين[٣].

وقد ذكرت بعض الروايات أن نور الدين لم يأخذ دمشق غصبًا وإنما اتفق مع حفيد بورى: مجير الدين[٤] آبق بن محمد بن بورى بن طغتكين على استبدال دمشق بحمص. وأخذ نور الدين دمشق منتهى أمله وأمل أبيه من قبل وجعلها عاصمة ملكه، بعد انتهاء دولة البوريين من سوريا، أما السيدة زمرد خاتون، فقد استقرت أخيرًا فى حلب مع زوجها عماد الدين بعد أن فقدت ولديها الواحد تلو الآخر فى دمشق.

وكان عماد الدين قد عزم على مناهضة الصليبيين المستعمرين ووضع خطة بأن يجمع حوله بعض الشباب المجاهد، وأخذوا يضربون العدو فى حصونه لاسترداد ما أخذوه بالقوة، فمثلا فى سنة ٥٣٩هـ انتزع منهم الرها وبعض الحصون وأزال عن المسلمين كربًا عظيمًا وتتابع الغزو حتى جاءت سنة ٥٤٠هـ فخرج لمحاصرة قلعة جعبر[٥]، ولكن تجمع عليه بعض مماليكه فقتلوه غيلة، ولما يكمل الخامسة والستين، قال عنه ابن كثير: كان من خيار الملوك وأحسنهم سيرة، وكان شجاعًا مقداما حازما، خضعت له ملوك الأطراف.. وكان من أجود الملوك

---

(١) أى بعد موت عماد الدين بثمانى سنوات.

(٢) ابن خلدون ٤/١٦٠. ويقصد بابن طغتكين أحد أحفاده: (مجير الدين آبق).

(٣) تاريخ الإسلام ٤/٦٣.

(٤) سماه ابن الأثير مجير الدين أنز بن محمد بن بورى بن طغتكين.

(٥) قلعة قرب صفين على شاطئ الفرات فى الشام، كانت تسمى (دوسر) أخذها ملكشاه فى رمضان سنة ٤٩٩هـ واستولى عليها نور الدين ثم انتقلت إلى بنى أيوب وصفين أرض على شاطئ الفرات فى الشام.

معاملة وأرفقهم بالرعية[1]. وقال ابن خلكان: قتله خادمه وهو راقد على فراشه ليلاً ودفن بصفين رحمه الله تعالى[2]. وقال ابن خلدون: كان قتله لخمس من ربيع الآخر سنة ٥٤١هـ ودفن بالرقة.. وكان حسن السياسة كثير العدل مهيبًا عند جنده[3].

وقال ابن الأثير: فى سنة ٥٤١هـ ولخمس مضين من ربيع قتل أتابك الشهيد عماد الدين زنكى بن آق سُنقر صاحب الموصل والشام، وهو يحاصر قلعة (جعبر) ... وكانت البلاد قبل أن يملكها خرابًا من الظلم وتنقل الولاة، ومجاورة الفرنج فعمرها وامتلأت أهلاً وسكانًا[4]. وقد أفاض ابن الأثير فى ذكر أثر الرخاء على الشعوب فى البلاد المملوكة لعماد الدين.

وبمقتل عماد الدين زنكى انقسمت البلاد التابعة له على أولاده الثلاثة، سيف الدين غازى[5] وقطب الدين ممدود[6] ونور الدين محمود[7] الذى آلت إليه كل المملكة بعد ذلك.

وإذا كنا نردُّ مصارع السلاطين السابقين طغتكين وبورى وإسماعيل ومحمود إلى أسباب داخلية من صراع القصُور أو تآمر الفرق الباطنية أو خيانة الخدم المجلوبين؛ فإننا نعجب لمصرع عماد الدين زنكى، وهو السلطان المشهور بالعدل المحمود السيرة الذى استطاع أن يسترد قطعًا مهمة من أيدى الصليبيين، وما نحسب أن مصرعه قد حدث لمجرد نزوة اعترت أحد خدمه أو اتفاق بين مقربين حاسدين له وإنما نرجح أن ذلك كان مؤامرة حاكها الصليبيون ونفذوها من خلال ذلك الخادم الخائن، وقد كان التواصل والتراسل بين الحواشى والصليبيين أمرًا مألوفًا فى ذلك العهد، وهكذا ضاع باغتيال عماد الدين أملٌ كان وشيك التحقيق فى إزاحة الغزاة الصليبيين عن صدر الوطن العربى، أو جزء منه على الأقل.

أما السيدة زمرد خاتون فلم تجد لها مكانًا فى حلب، فعادت أدراجها إلى دمشق بعد أن فقدت زوجها العظيم الذى عاشت معه قرابة عشر سنين.

---

(١) البداية والنهاية ١٢/٢٢١.
(٢) وفيات الأعيان ٢/٣٢٩.
(٣) ابن خلدون ٥/٥٣١.
(٤) الكامل ٩/٣٣٩.
(٥) توفى سنة ٥٤٤هـ
(٦) توفى سنة ٥٦٥هـ
(٧) توفى سنة ٥٦٩ هـ

وفاة زمرد خاتون

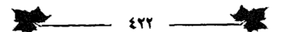
عاشت السيدة زمرد بعد هذه الأحداث قرابة ستة عشر عاما انتقلت فيها ما بين دمشق وبغداد ومكة ثم حطت رحالها بعد إقامتها فى مكة لمدة سنة ـ فى المدينة المنورة، وآثرت أن تجاور رسول الله ﷺ حتى توفاها الله سنة ٥٥٧هـ ودفنت بالبقيع.

وقد ذكرت المراجع أن حياتها فى المدينة كانت على الكفاف، فكانت تعمل حتى تجد لقمة العيش. وعملها هو مساعدة السيدات فى طحن القمح والشعير وعجن الدقيق وخبزه بأجر بسيط وتعيش على هذه الدراهم القليلة، يقول ابن كثير: ودخلت بغداد وسارت من هناك إلى الحجاز وجاورت بمكة سنةً ثم جاءت فأقامت بالمدينة المنورة حتى ماتت بها ودفنت بالبقيع فى سنة ٥٥٧هـ ـ ١١٦٥م . وكانت كثيرة البر والصدقات والصوم والصلاة، ولم تمت حتى قل ما بيدها وكانت تغربل القمح والشعير وتتقوت بأجرته، وهذا من تمام الخير والسعادة وحسن الخاتمة، رحمها الله[١].

وما علمنا امرأة فى تاريخ تلك العصور تربعت على كرسى الملك فى عدة مواقع من الدولة، ثم خرجت من الدنيا كما دخلتها، لم تكتنز ذهبًا ولا فضة ولا جمعت الأموال والجواهر إلا هذه المرأة. فقد كان همها أن تجمع العلماء وأن تستمع إليهم وتروى عنهم، وتعرض عليهم قراءتها للقرآن، وهو هَمٌّ يرقى بها إلى مكانةٍ رفيعةٍ لم تحظ بها امرأة قبلها ممن عرضنا سيرهن وسنعرض ... وقرأنا عن ثرواتهن التى تقاتل عليها الورثة، أما زمرد خاتون فقد كانت راضية بما قسم الله لها من العلم ومضت إلى ربها مغفورًا لها إن شاء الله.

ولقد نتساءل عن السر فى أن نور الدين محمود ابن زوجها لم يردها إلى دمشق التى عاشت فيها أغلب سنى عمرها بدلا من أن تعيش وحدها فى المدينة المنورة على هذا الكفاف... ولاسيما أنها عاشت فى بيت أبيه سنين طويلة، وكانت مثالاً

(١) البداية والنهاية ١٢/٢٤٦.



للصلاح وفعل الخير، ولا نحسب إلا أن الرجل كان يواجه همومًا كبارًا فى مواجهته مع الصليبيين، ومقاومته للحشاشين[1] من الباطنية، ومحاولته توفير الأمن والاستقرار فى دولته، فلعله شغل بهذه الهموم الكبار عن زوجة أبيه، أو لعله اختار لها أن تعيش فى المدينة المنورة فى هدوء تحتاج إليه شيخوختها. أو ربما عرض عليها أن تعود لتعيش معهم فى الشام ورفضت أن تستبدل بجوار رسول الله ﷺ جوارًا آخر، والله أعلم.

* * *

(١) طائفة من الباطنية زعيمها الحسن الصباح استولوا على قلعة آلموت بفارس وجعلوها مركزًا لهم سنة ٤٨٣هـ وهى بين محافظتى قزوين وجيلان شمالى إيران الآن ومنطقة آلموت كان بها خمسون قلعة خاصة بالإسماعيلية.

١١

شَجَرةُ الدُّر

(زوج الملك الصالح)



تمهيد

إن ملحمة شجرة الدر، أو شجر الدر ـ كما يحلو لبعض المؤرخين تسميتها ـ ترقى بها من وراء الأحداث، إلى أن تصبح أمام الأحداث، بل فوق الأحداث، فهى امرأة لا نظير لها فيمن درسنا من النساء، ولعلها ثالث امرأة اعتلت عرش مصر، على مر التاريخ، بعد الملكة حتشبسوت فى الأسر الفرعونية، والملكة كليوباترا فى المرحلة الإغريقية، وقد خفى عنا كثير مما وقع لهما من أحداث، أما شجرة الدر فقد روى التاريخ دقائق سيرتها، ووقف مبهورًا أمام عظمتها، وإنجازات همتها، التى فاقت بها همم الرجال فى عصرها، وحققت بفضلها ما عجزت عن تحقيقه بغداد بخلفائها إبان الحروب الصليبية، التى واكبت فى مرحلة من مراحلها هجمة التتار، وأسقطت نظام الخلافة العباسية، عام ٦٥٦هـ.

وقضية القدس هى محور الصراع بين الغرب والإسلام، وقد عاشت شجرة الدر إحدى المراحل الحاسمة فى الصراع حول القدس، إبان الهجمة الصليبية على الشام ومصر.

وإذا كانت الحروب الصليبية قد أعلنت شعارها غزو المشرق الإسلامى، فإن الهدف الأساسى من هذا الغزو لم يكن سوى الاستيلاء على القدس، وقد شهد العصر الأيوبى هزيمتين ساحقتين للصليبيين فى هذا الميدان، الأولى: على يد صلاح الدين، حين طردهم منها عام ٥٨٣هـ (الموافق ١١٨٧م)، ولما عادوا إليها فى عهد الملك الكامل عام ٦٢٦هـ (الموافق ١٢٢٩م)، طردهم منها الملك الصالح زوج شجرة الدر ـ عام ٦٤٤هـ (الموافق ١٢٤٦م) ـ وأعاد بناء سور القدس المتهدم.

وبقيت القدس فى يد المسلمين منذ ذلك التاريخ حتى حرب حزيران عام ١٩٦٧م (١٣٨٤هـ)، أى أكثر من ستة قرون، حين حققت الصهيونية حلمها فى الاستيلاء على القدس، واعتبرتها عاصمة لدولة إسرائيل إلى الأبد ـ كما يحلمون!!

وعلى الرغم من محاولة القوى الصليبية استرداد القدس بمهاجمة مصر، والالتفاف حول القوى المدافعة عنها، بالاستيلاء على دمياط، فإن موقف شجرة الدر فى مقاومتهم، وطردهم من أرض مصر، فى معركة المنصورة، وأسر ملكهم لويس التاسع، وحبسه فى دار ابن لقمان إلى أن تم الإفراج عنه ـ هذا الموقف هو الذى حمى

القدس، كما حمى مصر طيلة تلك القرون، إلى أن أوقعت القوات الصهيونية تلك الهزيمة المنكرة بالقوات المصرية بخاصة فى حرب حزيران، وبالقوات الأردنية فاستولت على القدس، وبالقوات السورية فاستولت على الجولان.

ولو كانت الجيوش العربية بقيادة امرأة كشجرة الدر لما حقق العدو نصره الساحق، ولما استطاع أن يحتفظ بالقدس والجولان قرابة أربعين سنة حتى الآن، والله أعلم إلى متى يبقى هذا الرجس الصهيونى فى بيت المقدس!!

ربما إلى أن يتاح لنا قيادة فى إيمان شجرة الدر، ودهائها، وصلابتها، وثباتها.

إن عقد مقارنة بين الموقفين على بعد ما بينهما من الناحية الزمنية يؤكد عظمة أسلافنا، الذين تمسكوا بدينهم، وجاهدوا فى الله حق جهاده بقيادة شجرة الدر، فأيدهم بنصره، وكانوا عمالقة التاريخ، وهو ما يؤكد هوان واقعنا، وفسولة القيادات التى علت جعجعتها آنئذ، فذاقت الشعوب على أيديها ألوان العذاب، وصنوف الهزائم، وتقزم التاريخ.. ولولا رحمة من الله فى يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣م ـ لظل العدو رابضًا على أرضنا شرقى القناة.

إننا نرى فى هذه المقارنة أن الهزيمة رجل، وأن النصر امرأة، وهو ما يشهد بعظمة الروح الإسلامية حين حققت نصر دمياط والمنصورة، ورحمة الله على الأبطال..

كما نرى أن العلمانيين الذين يتهمون الإسلام دائمًا بأنه متنكر لحقوق المرأة، معوق لمواهبها ـ يتلقون صفعة قاسية فى تقديمنا لسيرة شجرة الدر، التى دفعها الإسلام إلى موقع القيادة، فى أشرف معركة خاضتها الأمة دفاعًا عن وجودها، وتاريخها، وواقعها، وشرفها.

لم تكن شجرة الدر زعيمة من زعيمات الحركة النسائية المعاصرة أو شبه المعاصرة، بل كانت امرأة مسلمة عرفت واجبها كما يمليه عليها دينها وتربيتها، ولو كانت شجرة الدر من ذلك الصنف العلمانى المتاجر فى لحوم النساء وشحومهن، لما ارتفعت المرأة عن الحضيض قيد أنملة.

أما وهى المرأة المستمسكة بدينها، والملتزمة بأداء واجباتها، فقد جعل منها الإسلام نموذجًا متفوقًا، وقدوة صالحة فى الصدق، والوفاء، والدهاء، على ما سوف يرى من يقرأ هذه الصفحات.

* * *

شجرة الدر

تعتبر شجرة الدر شخصية فريدة بين النساء اللاتى كن وراء الأحداث فى العالم الإسلامى، فهى أولاً: المرأة الوَحِدَة التى جلست على العرش فى مصر الإسلامية، وهى ثانيًا: تولت السلطة فى ظروف تاريخية صعبة وخطيرة، وأبدت من القوة والكفاءة ما عجز عنه كثير من الرجال، وليس هذا هو الذى رشحها - فحسب - لتدخل ضمن هذه السلسلة، بل لقد وجدنا لها من الصفات الشخصية ما أهلها للتفوق على كثير من النساء والرجال.

وسنعرض ابتداء لذكر الظروف التاريخية التى سبقت اعتلاء شجرة الدر عرش مصر.

* * *

العالم الإسلامى فى القرن السادس الهجرى
(الحادى عشر الميلادى)

سقطت الدولة الفاطمية الشيعية، بعد أن جار[1] الصليبيون على أجزاء من هذه الدولة التى كانت تحكم المغرب والشام ومصر والحجاز واليمن، واستولوا على أكثر بلاد الشام، ثم بعث الله المنقذ الناصر صلاح الدين الأيوبى[2]، فتولى أمر مصر فى يوم الإثنين (٢٦ من جمادى الآخرة ٥٦٦هـ) ليكمل رسالة نور الدين زنكى[3] فى لم شمل المسلمين وجمع كلمتهم، وصد الطوفان الغربى الصليبى والقضاء على الفرنجة، وطردهم من أكثر بلاد المسلمين وخاصة بيت المقدس، التى أقام فيها الصليبيون تسعين سنة[4] يعيثون فيها فسادًا، ويقتلون الأبرياء، ويهدمون المساجد، فقد ذكرت الإحصاءات أن من قتل فى القدس من المسلمين بلغ سبعين ألفًا عدا اليهود.

وجاء صلاح الدين فأزاح الغمة، وجمع الشعب العربى المسلم تحت لواء واحد من الفرات إلى أقصى المغرب، ومن الشام إلى اليمن وبينهما الحجاز، واسترجع ثالث الحرمين فى يوم الجمعة[5] ذكرى يوم الإسراء ٢٧ من رجب ٥٨٣هـ (الموافق سبتمبر ١١٨٧م)[6]، وذلك بعد انتصاره فى وقعة حطين المباركة فى يوم الجمعة

(١) بدأت أول حملة عام ٤٨٩هـ (الموافق ١٠٩٥م) قال د. حسين مؤنس فى أطلس الإسلام ص ٢٦٧: هى فى الحقيقة حركة طويلة المدى استمرت من أواخر القرن الخامس ٤٩٠هـ (الموافق ١٠٩٦م) إلى أواخر الخامس عشر الميلادى.. وخلال هذه الفترة قام الغرب الأوربى بإرسال أكثر من ١٥ حملة صليبية كبيرة على بلاد المسلمين اشتركت فيها كل بلاد أوربا المسيحية.. وعمت كل بلاد الأناضول والشام ومصر.

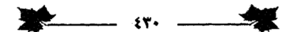
(٢) هو السلطان الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدين يوسف ابن الأمير نجم الدين أيوب بن شادى بن مروان، ولد فى تكريت عام ٥٣٢هـ حيث كان أبوه حاكمًا لها، ثم صار إلى حلب حيث دخل فى خدمة عماد الدين زنكى، ولما توفى صار وأبناؤه فى خدمة نور الدين ابنه، وكان نور الدين مسئولاً على الشام من قبل خليفة بغداد، وأبو صلاح الدين من الأكراد من بلدة اسمها دُوين فى أذربيجان فى إيران حاليًا.

(٣) هو المرابط البطل أول من أطلق عليه لقب (سلطان) عُد من الأولياء الأربعين حارب الصليبيين استمرارًا لرسالة والده عماد الدين، واسترد كثيرًا مما استولوا عليه من البلاد، توفى عام ٥٦٩هـ

(٤) سقطت القدس فى أيدى الصليبيين فى ١٣ شعبان عام ٤٩٢هـ (يوليو ١٠٩٩م).

(٥) قال شكيب أرسلان: ذبح عند فتح القدس فى عهد الحروب الصليبية سبعون ألف مسلم فى المسجد الأقصى، حتى سبحت الخيل إلى صدورها فى الدماء. (حاضر العالم الإسلامى ٣/٢٠٨).

(٦) ذكر المؤرخون أن صلاح الدين دخل القدس من نفس الباب الذى دخل منه الصليبيون من تسعين سنة، وبعد الفتح انطلق صوت المؤذن من مأذن المسجد الأقصى بعد انقطاع دام ٨٨ سنة.



١٤ من ربيع آخر ٥٨٣هـ (٤ من يوليو ١١٨٧م)، وكان قد استخلص مصر من قبل من أيدى الفاطميين والفرنجة، وبعد أن استقر أمره فى مصر والشام أخذ فى إصلاح أحوال البلاد والعباد، واستعان بخزائن الفاطميين، وقد استعرض ممتلكاتهم من التحف والسلاح والأموال، فوجد ما لا يوصف ولا يقوم من كثرته وقيمته وندرته، فباع الكثير مما وجد حتى قيل: أقام نحو عشر سنين يبيع ما فضل من الخزائن وهو لا يفرغ[1].

لقد وهب الله صلاح الدين رؤية مستقبلية تحدد له الهدف الذى يريده على بعد عشرات السنين، كما وهبه مجموعة من الأخلاق والصفات التى أهلته لتحقيق هذا الهدف ليكون البطل المنقذ، فقد كان شهمًا، مجاهدًا فى سبيل الله، مغرمًا بالإنفاق، محبًا للعطاء، محبًا للعلم والفضل، منزهًا عن الهزء والهزل، متواضعًا حييًا خاشع الطرف، رقيق القلب، سريع الدمعة، شديد الرغبة فى سماع الحديث الشريف، رحيمًا عطوفًا، ما شتم أحدًا قط، حليمًا كريمًا، وكان حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى، محافظًا على الصلاة فى وقتها، ولا يصليها إلا فى جماعة، وإذا جاء وقتها وهو راكب نزل وأداها، لم تجب عليه الزكاة قط، لأن صدقة التطوع أخذت أمواله كلها، ولما مات لم يجدوا فى خزانته الخاصة سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهمًا، ولم يترك دارًا ولا عقارًا ولا مزرعة ولا بستانًا ولا شيئًا من أنواع الأملاك كما قال ابن كثير[2].

ولكنه ترك القلاع والحصون والأسوار والخانقاوات[3] والمدارس[4] والكتاتيب والمكتبات والمساجد والبيمارستانات (المستشفيات) فى كل بقعة من البقاع التى حكمها.

وهذا جواب من يسأل: أين إذن أموال وكنوز الفاطميين التى حازها؟ لقد أنفقها الناصر كلها فى الإصلاحات والغزوات والفتوحات والجهاد، حتى استرد أغلب البلاد التى فى أيدى الفرنجة، لقد استرد أكثر من خمسين مدينة وقرية

(١) بدائع الزهور ١/٢٣٨.
(٢) البداية والنهاية ١٣/٣٠٤.
(٣) جمع خانقاه، وهو بيت المتصوفين والعجزة والمسنين وغير القادرين على العمل.
(٤) بنى ٤ مدارس للمذاهب الأربعة فى كل من مصر والشام، وهى المالكية والشافعية والحنبلية والحنفية بعد أن ألغى المذهب الشيعى الفاطمى الإسماعيلى.

وقلعة ذكر أسماءها المؤرخون بالتفصيل، ولما اقترب القرن السادس الهجرى من نهايته كان العالم الإسلامى كله تحت راية صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية، سوى بغداد وما حولها من المشرق، فمازالت خلافة عباسية، والأندلس التى مازالت تحت حكم الطوائف من عرب وبربر.

ومات صلاح الدين(١) فى ١٧ من صفر ٥٨٩هـ (٤ من مارس ١١٩٣م)، فى السابعة والخمسين من العمر، ودفن فى دمشق، رضى الله عنه وأرضاه.

أحداث ما قبل السلطة:

إن صلاح الدين الذى حقق معجزة الأمة الإسلامية بتوحيد العالمين العربى والإسلامى آنذاك، ووقف فى وجه الصليبيين، وطردهم من القدس وسائر بلاد الشام.. صلاح الدين الذى كان يعتبر فى ذاته نموذجًا للروح الإسلامية الصادقة المخلصة.. لم يكن صلاح الدين هذا على مستوى من الرؤية الاستراتيجية البعيدة المدى، بل أصابه القصور الذى أصاب كثيرين من الخلفاء قبله وبعده، فهو لم يعمق مفهوم الوحدة فى أخلافه وأبنائه، وإنما تركهم متفرقين، فتنازعوا الملك، وبغى بعضهم على بعض، وما لبث الصليبيون - حين رأوا تنازع الإخوة الأعداء - أن عادوا أدراجهم إلى بعض بلاد الشام ومصر، وتلكم هى غلطة صلاح الدين وحده، يتحمل وزرها أمام التاريخ، فقد كانت سببًا فى تفرق الأمراء، ومن ثم تشرذم المسلمين، مما جعل الصليبيين يأخذون أغلب المدن التى استردها صلاح الدين منهم.

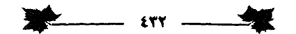
وصدق د. حسين مؤنس حين قال: وبذلك تكون معظم المكاسب التى حققها صلاح الدين - فيما عدا استعادته بيت المقدس - قد ضاعت بسبب تنافس الأمراء الأيوبيين، واختلاف كلمتهم(٢).

لقد ترك صلاح الدين ستة عشر ذكرًا وبنتًا واحدة، وعدة إخوة، وبعض أحفاد عمه أسد الدين شيركوه(٣)، وكنا نظن أن يترك الأمر ليكون شورى من بعده، أو يجعل خلافته لأكبر هؤلاء سنًا، وأقربهم إليه، وأكثرهم ملازمة له فى جهاده

(١) قيل: إنه مرض بحمى صفراوية.

(٢) أطلس الإسلام ٢٧٠.

(٣) قائد بعثة نور الدين زنكى إلى مصر ليمنع دخول الصليبيين مصر، خلفه ابن أخيه صلاح الدين بعد موته.



المستمر فى مصر والشام، وفى مواقفه كلها ضد الفرنجة، وهو أخوه العادل أبو بكر، لكنه لم يفعل، بل قسم العالم الإسلامى على أبنائه الكبار وبعض إخوته، وكأنها تركة خاصة.

وقد ميز أولاده طبعًا فى هذه القسمة، فأعطى ابنه الأفضل عليًّا[1] أكبر أولاده دمشق وما حولها من القرى وبانياس وسوريا الغربية.

وعهد إلى ابنه العزيز[2] عثمان عماد الدين بحكم الديار المصرية، وما يتبعها من المغرب والنوبة.

وإلى ابنه الظافر خضر[3] بولاية بصرى وما حولها.

وإلى ابنه الظاهر غازى[4] بالمملكة الحلبية وسوريا الشرقية.

وإلى ابنه الأمجد بهرام بعلبك[5] وما حولها.

وأما ابن أخيه المنصور محمد بن العادل[6] فأعطاه حماة وبعض القرى التابعة لها، وأعطى أخاه سيف الدين[7] العادل أبو بكر عدة قلاع: الكرك[8] والشوبك[9] وبلاد جعبر[10].

وأعطى أخاه ظهير الدين سيف الإسلام اليمن وقلاعها وثغورها.

ولم ينس حفيد عمه أسد الدين شيركوه، والمسمى باسمه أيضًا، فأعطاه حِمْصًا والرحبة.

وإن كان بعض المؤرخين يعتبر أن هذه القسمة لم تكن لما بعد وفاته، وإنما كانت إمارة فى حياته فقط، وأن هناك قسمة أخرى تمت بعد وفاته.

---

(١) ولد بمصر عام ٥٦٥هـ.

(٢) ولد بمصر عام ٥٦٧هـ.

(٣) ولد بمصر عام ٥٦٨هـ.

(٤) ولد بمصر عام ٥٦٨هـ.

(٥) بعلبك: فى البقاع اللبنانى على طريق سوريا.

(٦) ولد بمصر عام ٥٧٣هـ.

(٧) ولد عام ٥٤٠هـ.

(٨) الكرك: قلعة حصينة جدًا فى طرف الشام نواحى البلقاء بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس، وهى على جبل عال تحيط به أودية. (معجم البلدان).

(٩) الشوبك: قلعة حصينة من أطراف الشام بين عمان وأيلة والقلزم قرب الكرك. (السابق).

(١٠) بلاد جعبر: قلعة على الفرات قرب صفين كانت تسمى دوسر، تنسب إلى جعبر بن سابق القشيرى فى البادية السورية.

يقول جورجي زيدان: فلما توفى صلاح الدين اقتسم أولاده وإخوته وأولادهم مملكته فيما بينهم، غير أن الحصص لم تكن متساوية لأن ثلاثة من أولاده أخذوا أكبرها، واقتنع الباقون بمقاطعات صغيرة، وتم كل ذلك بموافقة الأمراء[1].

إذن لقد تم التوزيع بموافقة الأمراء، ومع ذلك رأينا هؤلاء الأمراء بعد وفاة صلاح الدين قد تواثب بعضهم إلى بعض، وطغى القوى على الضعيف، وانفرط عقد الدولة التى أسسها الرجل العظيم قاهر الصليبيين، فلم تبق بعد رحيله سوى ستين سنة تجدد خلالها الصراع بين الصليبيين والمسلمين مرارًا، وبين الأمراء بعضهم وبعض، وطمع الفرنجة فى أن يستردوا بيت المقدس بعد أن حرره الملك الناصر.

ولابد أن نذكر هنا حكمة قالها القاضى الفاضل[2] وزير صلاح الدين، الذى توجس خيفة من الشقاق والصراع بعد موت سيده، وكأنما كان يرى ما سيحدث بينهم من فرقة وحروب، ظهر ذلك فى كتاب بعث به إلى الملك الظاهر ابن صلاح الدين ينعى له أباه ويعزيه.. قال فيه: «إن وقع اتفاق فما عدمتم إلا شخصه الكريم، وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلة أهونها موته، وهو الهول العظيم».

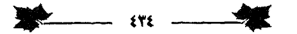
وحسبنا أن نسوق بعض الأمثلة على تصارع هؤلاء الأبناء أو ـ كما قلنا: الإخوة الأعداء ـ فى هذا البيت الأيوبى، وسوف نقتطف أغلب هذه الأخبار من كتاب البداية والنهاية للإمام ابن كثير لنستدل منها على حالة البلاد إبان ظهور السلطانة شجرة الدر، وآخر من جلس على عرش هذه الدولة الأيوبية.

بعد وفاة صلاح الدين، وتسلم كل واحد إقطاعيته، وبعد حوالى سنة وعدة شهور، وبالتحديد فى جمادى الأولى عام ٥٩٠هـ، خرج العزيز بن صلاح الدين من مصر قاصدًا دمشق ليأخذها من أخيه الأفضل، وحاصرها واشتد الحصار، وساءت الحال حتى جاء عمهما العادل، وأصلح بينهما.

---

(١) تاريخ مصر الحديث ٢٨٨/١.

(٢) كاتب وأديب وشاعر ولد بعسقلان عام ٥٢٩هـ (الموافق ١١٣٥م)، وعمل أبوه قاضيًا ببيسان فقيل البيسانى اتصل بأسد الدين شيركوه عند مجيئه مصر، ثم بصلاح الدين، وترقى عنده حتى صار وزيره ووزير العزيز والمنصور من بعده تكاد تصل مسودات رسائله إلى مائة مجلد، له شعر جيد، توفى ٥٩٦هـ (الموافق ١٢٠٠م) فى مصر ودفن فى سفح المقطم فيما يعرف بمسجد الشاطبى.



ولأن العادل كان أكثرهم إحساسًا بأن حصته قليلة، ومنصبه حقير بالنسبة لغيره من أفراد الأسرة - فقد تم الاتفاق بين المتحاربين، ولكن فى مصلحة العادل الذى اشترط لنفسه أن يشارك العزيز فى حكم مصر مع ما بيده من القلاع التى فى الشام.

وفى السنة التالية ٥٩١هـ عاود العزيز الحملة على أخيه فى الشام، وأسرع الأفضل مستنجدًا بعمه الذى كان آنذاك فى قلعة جعبر، وكذلك بأخيه الظاهر من إمارة حلب، ولما سمع العزيز بذلك كر راجعًا إلى مصر، ونتج عن هذه الحملة اتفاق على إعطاء الأفضل ثلثى مصر، وللعادل الثلث الباقى.

ثم عادوا للقسمة الأولى التى أقامها صلاح الدين، وإن كان جورجى زيدان أرجع هذه العودة فى الاتفاق إلى شىء آخر، قال: إلا أن الملك العادل لم يلبث أن بكّته ضميره فأعاد الملك إلى ابن أخيه الأفضل، وتنازل أيضًا عن حصته الأصلية[1].

ونحن لا نرى هنا تبكيت ضمير لأننا ما لبثنا أن رأينا فى عام ٥٩٢هـ خروج العزيز فى جيش للمرة الثالثة بعد أن اتفق مع عمه على أخذ دمشق من الأفضل، ولم يتم هذا الاستيلاء، فقد تصالح الأمراء على جعل صرخد[2] للأفضل، وضم دمشق للعادل.

وبدهى أن ينتهز الصليبيون الفرصة، فأقبلوا عام ٥٩٤هـ قرب دمشق، فاستنفر العادل أولاد أخيه للوقوف ضد العدو، ثم جاء الخبر بموت ملك الألمان، فرجع الفرنجة بعد أن اتفقوا على هدنة بينهم وبين المسلمين لمدة عشرين سنة.

وبعد ذلك بقليل مات الملك العزيز على أثر سقوطه من فوق جواد فى رحلة صيد فى أول عام ٥٩٥هـ، وانتهز الأفضل فرصة موت أخيه، وأسرع إلى مصر.

وفى بداية عام ٥٩٦هـ كان الأفضل قد أعد جيشًا ليسترد دمشق التى أخذها عمه العادل، وكانت أساس ملكه الذى ورثه من صلاح الدين، وحاصر دمشق أكثر

---

(١) تاريخ مصر الحديث ١/٢٩٠.

(٢) بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال الشام، وهى قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة. (معجم البلدان).

من شهر، حتى كاد عمه العادل أن يسلمها له، لكن حدث أن ظهرت قوة فى الأفق هى الملك الكامل ابن العادل، الذى فرق المحاصرين، واشتد عزم الملك العادل بابنه، وقرر أخذ مصر.

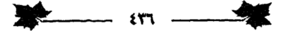
وبعد مناوشات، نزل إليه الأفضل بن صلاح الدين خاضعًا ذليلاً، ونفى بعيدًا عن أملاكه، وضم العادل إليه الحجاز واليمن وديار بكر، عدا ما تحت يده من مصر، والحصون التى أعطاها له صلاح الدين، وقبل وفاته اتفق مع الأمراء والعلماء على أن يجعل من بعده مصر لولده الكامل.

ويشاء الله أن يحكم مصر والشام بعد صلاح الدين الملك الكامل وأولاده، ويخرج من الحكم أبناء صلاح الدين السبعة عشر. ويذكرنا ذلك بما حدث أوائل العصر العباسى ـ من أربعة قرون تقريبًا ـ عام ١٨٣هـ، حين ولى هارون الرشيد ابنيه الأمين والمأمون العهد بالتوالى ويتحارب الأخوان، ويقتل المأمون الأمين، وتنتقل بعد ذلك الخلافة إلى المعتصم الذى بقيت الخلافة فى ذريته إلى نهاية الدولة العباسية فى منتصف القرن السابع الهجرى.

وقد ذكر المقريزى حوارًا دار بين صلاح الدين وأخيه العادل يحدس فيه صلاح الدين بما سيكون فى المستقبل، قال: بعد أن بنى صلاح الدين القلعة ـ قلعة الجبل فى مصر ـ قال لأخيه العادل: يا سيف الدين قد بنيت هذه القلعة لأولادك، فقال: يا خوند[١] من الله عليك أنت وأولادك وأولاد أولادك بالدنيا، فقال: ما فهمت ما قلت، أنا نجيب ما يأتى لى أولاد نجباء، وأنت غير نجيب، فأولادك يكونون نجباء، فسكت[٢].

وهى قالة تعكس بعض أفكار العصر آنذاك حول ظهور النجابة فى جيل دون جيل، ولا سند لهذا الزعم من البحوث المعاصرة التى ترى أن الذكاء ينتقل بالوراثة من جيل إلى جيل، اللهم إلا إذا كان المراد بالنجابة توافر الدوافع لدى المحرومين من أولاد العادل، وانعدامها لدى المحظوظين من أولاد صلاح الدين.

(١) لفظة فارسية بمعنى أمير. (معجم فارسى).
(٢) خطط المقريزى ٣/ ١٢٢.



أولاد صلاح الدين والصليبيون:

ومر عقدان من الزمن، وفى عام ٦١٣هـ انقضت الهدنة التى كانت بين العادل والفرنجة، وجاءوا لاسترداد القدس، وتجمع آل أيوب لصد الصليبيين عن كل من دمشق والقدس أولاً، ودافعوا عنهما دفاع الأبطال حتى كر الفرنجة راجعين إلى مركزهم (عكا)، وكان معهم بعض الأسارى من المسلمين، ولم يسكتوا وإنما اتجهوا إلى باب آخر يوصلهم إلى القدس، اتجهوا إلى مصر عن طريق دمياط فى عام ٦١٥هـ. وعندما سمع الملك العادل وهو فى مرج الصفّر[1] بدخول الفرنجة ضرب صدره بيده أسفًا وحزنًا ومرض من ساعته مرض الموت.

ومع أنه كان ملكًا من خيار الملوك وأجودهم سيرة، دينًا وعقلاً وصبرًا ووقارًا، فإنه أخطأ نفس الخطأ الذى وقع فيه أخوه صلاح الدين قبيل وفاته، وكان له مثل أخيه ستة عشر ذكرًا.

فبعد أن جمع بلاد الإسلام والعروبة تقريبًا تحت لواء واحد، بدأ فى تقسيمها لولاة عهده، فأعطى - مثلاً - الكامل مصر - كما عرفنا، وأعطى المعظم دمشق، والأشرف الجزيرة - شمال العراق - والمظفر إمارة الرها[2] والحافظ[3] إمارة جعبر، ولم يترك بلدًا إلا وفيه ولد من أولاده إلا حلب فقد تركها لحفيد صلاح الدين (العزيز بن الظاهر) وذلك لأنه حفيده أيضًا - ابن ابنته - على صغر سنه.

لقد كان من عجيب أمر هؤلاء الحكام أنهم يتصرفون فى البلاد على طريقة قسمة المواريث دون نظر إلى مفهوم الوحدة الإسلامية، لقد انعدمت لديهم الرؤية المستقبلية، واقتصرت رؤيتهم على ما تحت أرجلهم من أراض.

ويتولى كل ملك حكم ولايته انبعث أمل الفرنجة من جديد يريدون استرداد القدس وما أخذه منهم صلاح الدين فتشبثوا بما تحت أيديهم فى مصر من دمياط وما حولها، وكانوا قد استولوا على دمياط وحولوا مسجدها الجامع إلى كنيسة،

---

(١) مرج الصفر: قرية بالقرب من دمشق.

(٢) تقع شمال الرقة على الفرات، وهى فى ديار مضر، تسمى اليوم (أدرنة) كانت تابعة لسوريا، ثم استولت عليها تركيا.

(٣) قال ابن خلدون: مصر للكامل ودمشق والقدس وطبرية والكرك للمعظم عيسى وخلاط وما إليها وبلاد الجزيرة للأشرف، والرها وميافارقين لشهاب الدين غازى، وقلعة جعبر للخضر أرسلان شاه. (تاريخ ابن خلدون ٥/ ٧٥١).



وذلك قبل وفاة العادل بقليل ـ كما علمنا، ولكن الملك الكامل لم يتوان فى محاولة القضاء عليهم، وخاصة أنهم صاروا قبالة أشموم طناح (المنصورة بعد ذلك)، فأخذ يستنجد بأمراء المسلمين، فأجابوه بجيوش، وجاء الأشرف، وتبعه المعظم، وبنى الملك الكامل المنصورة[1] عام ٦١٨هـ على بحر أشمون (فرع دمياط) جنوبى المنزلة، وجعلها كخط الدفاع الثانى، وما إن ظهر للصليبيين بجيشه وجيش إخوته؛ حتى رضخ الأعداء، وسلموا دمياط بعد أن غدروا وفجروا وسبوا وأساءوا وقتلوا.

ومرت ثلاث سنوات هادئة، ولكن عاد التباغض بين الإخوة مرة أخرى، وكانت المأساة أنهم متفرقون فى مواجهة عدو موحد الأهداف والصفوف، فهذا الملك المسعود ابن الملك الكامل قد قدم من اليمن على أبيه بمصر، ومعه شىء كثير من الهدايا والتحف، وكل همه أن ينزع الشام من يد عمه المعظم[2]، وشجعه أبوه الملك الكامل الذى ركب إلى دمشق وحاصرها، لكن المعظم أخاه صاحبها لم يلبث أن مات، وتولى ابنه الناصر الذى وقف لعمه بالمرصاد حتى رجع.

ومرت عشر سنوات على تولى الملك الكامل حكم مصر، ولكن حلم الاستيلاء على دمشق لم يفارقه، وجاء عام ٦٢٦هـ بأحداث هائلة.

قال ابن خلدون: وصالح الملك الكامل ملك الفرنج ليفرغ لأمر دمشق.. وأمكنهم من القدس على أن يخرب سورها فاستولوا عليها.. وزحف الكامل إلى دمشق[3].

ويقول ابن كثير مؤرخًا لهذه السنة المشئومة: استهلت هذه السنة وملوك بنى أيوب متفرقون مختلفون قد صاروا أحزابًا وفرقًا.. فقويت نفوس الفرنج لعنهم الله بكثرتهم.. فطلبوا من المسلمين أن يردوا إليهم ما كان الناصر صلاح الدين أخذ منهم، ووقعت المصالحة بينهم وبين الملوك، أن يردوا لهم بيت المقدس وحده، وتبقى بأيديهم بقية البلاد[4].

---

(١) قبالة مدينة طلخا بالقرب من قرية اسمها (أشموم طناح)، قال السيوطى: ابتنى الملك الكامل مدينة عند مفرق البحرين سموها المنصورة، وبنى عليها سورًا ونزلها بجيشه. (تاريخ الخلفاء ٤٩٢).

(٢) هناك قول ذكره ابن تغرى بردى، قال: لما سمع المسعود بموت عمه المعظم، خرج من اليمن يطمع فى دمشق، فمرض ومات، وكان الملك الكامل يكرهه ويخافه. (النجوم ٦/٢٧٢).

(٣) تاريخ ابن خلدون ٣/٧٦٤.

(٤) البداية والنهاية ١٣/١٢٣.



لقد كان بيت المقدس هو هم الصليبيين الأول، فأى حملة جاءوا بها إلى مصر أو الشام كان هو مقصدهم.

قال ابن تغرى بردى: فى عام ٦٢٦هـ تسلم الأنبرور (الإمبراطور) القدس، والكامل والأشرف على حصار دمشق[١].

وقد ذكر د. حسين مؤنس سبب هذا التنازل، ورد فعل البابا فى روما عليه، قال: رحل فردريك إلى سواحل الشام فى صيف ١٢٢٨م (الموافق ٦٢٦هـ) للقيام بحملة ثانية.. ووصل إلى عكا للسير إلى بيت المقدس، وبدلاً من الدخول فى صراع مع المسلمين دخل فى مفاوضات مع الملك الكامل سلطان مصر والشام، وكان الكامل فى ذلك الحين فى نزاع شديد مع ابن أخيه الناصر صاحب دمشق، وفى هذه الظروف سارع الملك الكامل بعقد معاهدة مع الإمبراطور فردريك تنازل فيها عن بيت المقدس وبيت لحم والناصرة وصيدا واللد، ولكن البابوية رفضت قبول هذه الشروط، وقالت: إن الفرسان الصليبيين يذهبون إلى بلاد الشام لحرب المسلمين لا للتفاوض معهم[٢].

ولكن تم الاتفاق فى ١٩ رجب عام ٦٢٦هـ[٣].

وبعدها تفرغ الملك الكامل بعد أن سلم القدس للأعداء، تفرغ لضم الممالك وما تحت أيدى إخوته وذويه إلى ممتلكاته.

قال ابن تغرى بردى: واتسعت المملكة للملك الكامل، ولقد حكى لى من حضر الخطبة يوم الجمعة بمكة أنه لما وصل الخطيب إلى الدعاء للملك الكامل، قال: سلطان مكة وعبيدها واليمن وزبيدها ومصر وصعيدها، والشام وصناديدها، والجزيرة ووليدها، سلطان القبلتين، ورب العلامتين وخادم الحرمين الشريفين الملك الكامل.. أمير المؤمنين، وكان فى خدمته يومئذ بضعة عشر ملكًا[٤].

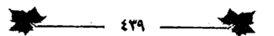
---

(١) النجوم الزاهرة ٦/ ٢٧٢.

(٢) أطلس الإسلام ٢٧١.

(٣) أعطى الملك الكامل ابنه الملك الصالح رهنًا، وكانت سنه قرابة العشرين، وأعطى الصليبيون ملك عكا رهنًا حتى يتم الاتفاق.

(٤) النجوم الزاهرة ٦/ ٢٣٥.



وبعد هذا الاتفاق الأيوبى الصليبى بتسع سنوات توفى الملك الكامل فى دمشق فى ٢٢ من رجب، بعد أن حكم العالم الإسلامى عشرين سنة.

لقد سقنا ما سقنا من تاريخ بنى أيوب حتى نمهد للظروف التى أبرزت شخصية شجرة الدر، وكذلك لكى نتمكن من تفسير الواقع فى ضوء الماضى الذى خرج من رحمه، فكل ما سيأتى من أحداث وضعت بذرته فى أرضية الخلاف الذى حدث بعد رحيل صلاح الدين، وما كان من الممكن أن تكون شجرة الدر خيرًا مما كانت بالفعل، بل إننا نستطيع أن نقول: إنها تفوقت على أحكام هذا الماضى كما سيتضح من سردنا لدورها الذى لم تقم به قبلها ولا بعدها إحدى بنات حواء.

* * *

الجارية شجرة الدر

توفى الملك الكامل أثناء وجوده فى دمشق فى رجب عام ٦٣٥هـ (الموافق ١٢٣٨م)، ودفن فى قلعتها[١]، وكان ابنه الأصغر الملك العادل[٢] أبو بكر متوليًا أمر مصر نيابة عن أبيه، أما ابنه الآخر الأكبر الصالح[٣] نجم الدين فكان فى حلب لأنه كان متوليًا لأمر الجزيرة وما حولها.

وكان الملك الصالح قد أحب جارية له تركية الأصل[٤]، اسمها شجرة الدر، أو شجر الدر، واستولدها غلامًا أطلق عليه اسم خليل، مات وهو طفل، فأعتق أمه، وصارت زوجًا للملك الصالح، ولقبت بالملكة شجرة الدر أم خليل، كان يضرب بها المثل فى الحسن والجمال والذكاء والعقل والدهاء.

قال عنها جورجى زيدان: كانت صعبة الخلق، شديدة الغيرة، قوية البأس سكرانة من خمرة العُجب[٥].

أما علاقتها بالسلطان ومكانتها منه فقد كانت نعم الزوجة والسند، فهى تقف فى الظل خلف زوجها، تشد أزره، وتشير عليه بما تراه صالحًا له ولذويه، تدبر له أمره وتساعده على اجتياز المحن، فقد كان يعتمد عليها فى أموره ومهماته، ولا يقطع أمرًا دون أخذ موافقتها واستشارتها، ومعرفة رأيها فيه، مع وجود زوجة ثانية وجوارٍ أخريات، لكن لم يكن لإحداهن ما لشجرة الدر من ذكاء ودهاء وبراعة فى التدبير والسياسة، وحسن التصرف.

ولذلك أحبها الملك الصالح حبًا ملك عليه فؤاده، حتى إنه لم يفارقها يومًا فى حل أو ترحال، فى إقامة أو سفر، فى سلم أو فى حرب، إلا للضرورة، فكلما خرج

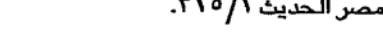
---

(١) جاء فى تاريخ البصروى ٢٢١ أن بنات الكامل بنين له التربة (الكاملية) ونقل جثمان الكامل إليها فى رمضان، وهى تقع شمالى الجامع الأموى، وتطل على صحنه، ولها باب يفضى إليه.. ولم يعد فيها الآن إلا القبر، وتحولت إلى مستودع لوزارة الأوقاف.

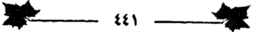
(٢) ولد فى مصر فى ذى الحجة عام ٦١٧هـ.

(٣) ولد فى ٢٤ من جمادى الآخرة عام ٦٠٣هـ فى القاهرة من جارية سمراء اسمها ورد المنى.

(٤) قالت ونفرد هلمز: قد ولدت شجرة الدر مسيحية فى بلاد أرمينيا التركية الجبلية.. ثم كانت القاهرة وطنها، والإسلام عقيدتها. (كانت ملكة على مصر ١٩٤).



(٥) تاريخ مصر الحديث ١/٣١٥.



خرجت معه، يستشيرها ثم يدبر أموره بمشورتها، خاصة أنها هى التى أشرفت على تربية ابنه الوحيد غياث الدين توران شاه، الذى سنلقى عليه الضوء بعد ذلك فى معركة المنصورة، فكان ذلك من أسباب ملازمتها له.

وكان الأمراء قد اتفقوا ـ بعد موت الملك الكامل ـ على أن يبقى للعادل سلطنة مصر والشام، وللصالح بقية ممالك الشرق ـ كما قسم الكامل.

وسمع الملك الصالح بذلك الاتفاق، فعظم عليه ذلك التقسيم الذى لم يكن حاضرًا فيه، ولأن أخاه العادل أخذ نصيب الأسد، مصر والشام، مع أنه الأصغر سنًّا، ولم يكمل الثامنة عشرة بعد، وليس ذلك فحسب الذى أساء للصالح، بل هناك أمر كان شديدًا عليه كذلك، فقد اتفق مع الخوارزمية[1] على المسالمة وعدم الحرب، بعد أن قتل ملكهم جلال الدين عام ٦٢٨هـ، ولكنهم نقضوا هذا العهد بعد وفاة الملك الكامل عام ٦٣٥هـ، وخرجوا على الملك الصالح، واكتسحوا كل ما أمامهم من ملكه من حصون ومدن، وحاول استمالتهم، ولكنهم نهبوا أمواله وخزائنه، وأرادوا قتله، وهرب منهم بصعوبة، ووصل إلى دمشق بعد مكابدة ومشقة، وأراد أن يتجه إلى مصر، ولكن الطريق إليها صعبة.

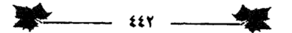
وكان رفيقه فى هذا الترحال عدد قليل من مماليكه، وزوجه المحبة شجرة الدر، والغالب أنها هى التى حرضته على الذهاب إلى مصر ليأخذها من أخيه، فهو الأكبر والأولى، ويستطيع أن يعوض بها ما أخذه آل خوارزم، فمصر منذ الأزل درة أى تاج، ومطمع أى طامع.

يقول جورجى زيدان: كان الأمير الجواد يونس ملكًا على سوريا. ولكن إمارته هذه لم تطل لأنه اتفق فى السنة التالية مع الملك الصالح الذى كان أميرًا على ما بين النهرين (الجزيرة) ـ أن يتبادلا الإمارات، فأتى الملك الصالح إلى سوريا، وسار الأمير يونس إلى ما بين النهرين، وكان غرض الملك الصالح من هذه المبادلة الاقتراب من مصر، والسعى فى اختلاس الملك من أخيه[2].

---

(١) فى القرن السادس الهجرى امتد ملك الخوارزمية الترك إلى بلاد ما وراء النهر وسمرقند والرى وهمدان وفرغانة، ولكن خوارزم شاه لم يحسن حكم هذه البلاد الشاسعة فوقع الخلاف بينه وبين أهلها وأخضعهم بالقوة، وقد استولى جانكيز خان على بلاده عام ٦١٦هـ، وفى عام ٦٢٨هـ خرب المغول هراة، وقتل جلال الدين. (أطلس الإسلام ٢٤١).

(٢) تاريخ مصر الحديث ٣٠٣/١.



لقد صمم الملك الصالح على الاستيلاء على مصر مهما كانت التضحيات، وبدأت شجرة الدر مع زوجها فى رسم وتنفيذ الهدف، فبعثت إلى إخوانها المماليك فى مصر تعدهم وتمنيهم حتى يقفوا مع زوجها الذى خرج متوجهًا إلى مصر، وأصابته بعض النوائب فى الطريق، حتى إن الناصر داود ملك (نابلس) قبض عليه وحبسه لمدة سبعة أشهر، وفى أثنائها كانت شجرة الدر حاملاً، فأسقطت حملها.

أما الملك العادل فى مصر، فلأنه كان صغير السن طائشًا غير مجرب، فقد تصرف بعد هذه الأحداث الأخيرة تصرفًا غريبًا غير لائق.

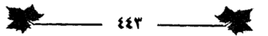
قال ابن تغرى بردى: وبلغ الملك العادل ما جرى على أخيه الصالح، فأظهر الفرح، ودُقت الكوسات، وزينت القاهرة[1].

ولو تتبعنا حال بقية آل أيوب لوجدنا كل أمير يفكر فى أخذ نصيبه من كعكة الملك الكامل فى مصر والشام، فهذا الصالح إسماعيل صاحب بعلبك يتفق مع أسد الدين شيركوه صاحب حمص على أن تكون البلاد مناصفة بينهما، واعتقلا أثناء هذه المحاولات الملك غياث الدين توران شاه ابن الملك الصالح، فى برج فى دمشق، ثم أفرج عنه بعد ذلك.

وعنّ للملك الناصر داود أن يفرج عن الملك الصالح ليذهب إلى مصر، ويتولى ملكها، واشترط عليه نظير الإفراج عنه وتمكينه من ملك مصر - أن يعطيه دمشق وحمص وحماة وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر ونصف ديار مصر ونصف ما فى الخزائن من المال والجواهر والخيل، وحلف الصالح على ذلك كله وهو تحت القهر والسيف كما قال ابن تغرى بردى، وسمع الملك العادل بهذا الاتفاق فخرج لتوه من مصر بجيوشه ليتحالف مع حفيد صلاح الدين الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبك ودمشق ضد أخيه الصالح، وأسرع الملك الصالح بعد أن فك أسره بمن معه من مماليك إلى مصر ليصل إليها قبل عودة أخيه من دمشق، ليقلد نفسه الحكم فيها، ووصلها والعادل خارج حدودها.

* * *

(١) النجوم ٦/ ٣١٠، والكوسات: الطبول النحاسية.



الملك الصالح وشجرة الدر فى مصر

ودخل مصر سابع سلاطين بنى أيوب، واستقبل أحسن استقبال.

يقول ابن كثير: فلما وصل الصالح إلى المصريين ملكوه عليهم، ودخل الديار المصرية سالمًا مؤيدًا منصورًا مظفرًا محبورًا مسرورًا، فأرسل إلى الملك الناصر داود عشرين ألف دينار، فردها عليه، ولم يقبلها، واستقر ملكه بمصر[1].

ويصف ابن خلكان يوم دخول الملك الصالح مصر، فقد شهد هذا اليوم بعينه، يقول: ودخل القاهرة فى الساعة الثانية من يوم الأحد ٢٧ من ذى القعدة عام ٦٣٧هـ (الموافق عام ١٢٤٠م)، وكنت إذ ذاك بالقاهرة.. وبسط العدل فى الرعية، وأحسن إلى الناس، وأخرج الصدقات، ورمم ما تهدم من المساجد[2].

كذلك كان له الفضل فى تدريس المذاهب الأربعة المعروفة: الشافعى والمالكى والحنبلى والحنفى فى مكان واحد فى مصر.

قالت د. سعاد ماهر: أنشأ الصالح نجم الدين عام ٦٣٩هـ المدرسة الصالحية، احتلت جزءًا من قصور الفاطميين.. وهى تحتوى على أربعة إيوانات للمذاهب السنية الأربعة.. وهو أول من عمل بمصر دروسًا أربعة فى مكان واحد[3].

موقف عظيم من ملك جديد لشعبه ورعيته، أما معاملته لأخيه العادل فكانت على النقيض، فقد احتال عليه لكى يتخلص منه، وقبض عليه فى اليوم الذى عاد فيه من دمشق إلى مصر عن طريق أمراء جيشه، ثم أودعه السجن فى القلعة، وتركه فى الحبس، وما كان من الممكن أن يحدث بينهما أى تعاون، فكل تعاون كان يؤدى إلى الانشقاق.

حتى كان عام ٦٤٦هـ أراد أن ينفيه إلى الشوبك، ولكن العادل رفض، وسبب هذا التفكير فى النفى أنه قد ظهرت أمام الملك الصالح مشكلة ولاية العهد، وليس له وريث، ولا يوجد أمامه إلا أحد اثنين: إما أن يولى أخاه العادل المسجون، وإما أن يولى ابنه الطائش توران شاه، ولم يكن يثق بأحد منهما أو غيرهما.

---

(١) البداية والنهاية ١٣/١٢٨.

(٢) وفيات الأعيان ٥/٨٥.

(٣) مساجد مصر وأولياؤها ١/٢٢.



فقد حكى أن الأمير حسام الدين[1] قال: لما ودعنى السلطان، قال: إنى مسافر، وأخاف أن يعرض لى موت، وأخى العادل بقلعة مصر، فيأخذ البلاد، وما يجرى عليكم منه خير، فإن مرضت ولو أنه حمى يوم فأعدمه، فإنه لا خير فيه، وولدى توران شاه لا يصلح للملك، فإن بلغك موتى، فلا تسلم البلاد لأحد من أهلى، بل سلمها للخليفة[2].

وهو يقصد الخليفة العباسى فى بغداد، وكان آنذاك آخر خلفاء بنى العباس المستعصم بن المستنصر[3]، ولكن أراد الله غير ذلك كما سنرى.

والأغلب أنه أراد أن يتعجل نهاية أخيه، فبعد أن حبسه تسع سنوات لهذا السبب قال لخادمه يومًا: دبّر أمره، قال ابن تغرى بردى: فأخذ الخادم محسن ثلاثة مماليك، ودخلوا عليه ليلة الإثنين ١٢ شوال عام ٦٤٦هـ، فخنقوه بشاش، وعلقوه به، وأظهروا أنه شنق نفسه، وأخرجوا جنازته مثل بعض الغرباء، ولم يتجاسر أحد أن يترحم عليه أو يبكى حول نعشه[4].

ومن الطبيعى أن تكون شجرة الدر على علم بهذه الجريمة، إن لم تكن ضالعة فيها، فإن الملك الصالح لم يكن يتصرف أدنى تصرف بدون مشورتها، وأخذ رأيها.

ولا يفوتنا هنا أن نذكر خبرًا عن الملك العادل وعن سوء تصرفه فى إدارة الحكم، مما حدا بالمصريين أن ينزعوه من الملك، ويولوا أخاه الصالح.

قالت د. سعاد ماهر: تولى الصالح بعد أن خلع الشعب أخاه الملك العادل سيف الدين، وذلك لانشغاله باللهو عن تدبير أمور الدولة[5].

ونقول نحن إن تتبع الأحداث التى انتهت بمقتل العادل يشير إلى أن القوى التى كانت تحيط بالملك الصالح لم تكن تريد عودة الملك العادل، ولعلها كانت تدبر أمرًا لإدارة دفة الحكم فى حال وفاة الملك الصالح، الذى أسلم قياده لامرأته شجرة الدر، وهى فى نفس الوقت قمة الحاشية، فإذا كانت الرواية تقول إنه كان يائسًا من صلاحية أخيه العادل، وابنه توران شاه، وإنه كان يرى إعادة الولاية

---

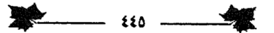
(١) قائد جيوش الملك الصالح وابن عمه.

(٢) النجوم الزاهرة ٦/٣٢٨.

(٣) هو الخليفة السابع والثلاثون آخر خلفاء بنى العباس، ولد عام ٦٠٩هـ، بويع له ٦٤٠هـ قضى عليه هولاكو عام ٦٥٦هـ.

(٤) النجوم الزاهرة ٦/٣١٢.

(٥) مساجد مصر وأولياؤها ١/٢٣٠.



إلى الخليفة فى بغداد، فإن ذلك يعنى أنه كان من الناحية النظرية مستقيم التفكير، ولكنه لم يكن مستوعبًا لقدرات الحاشية، وأطماع المحيطين به، وإذا صح أنه أشار بقتل أخيه فى حال وفاته، فقد بادروا هم إلى قتله تمهيدًا للنقلة القادمة التى رتبت أحداثها بقيادة شجرة الدر ـ كما سنرى.

المماليك البحرية:

ونعود إلى بداية دخول الملك الصالح مصر، فإنه نزولاً على رأى زوجته شجرة الدر تخلص من جند النظام السابق[1]، نظام أبيه وجده، واستجلب جماعات من المماليك، اشتراهم من موطن شجرة الدر، وما حوله من بلاد الترك، وكان هدفهما فى ذلك أن يكونوا تحت أمرهما، ويدينوا بالولاء للملك الصالح ولزوجه الأثيرة.

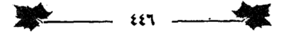
والمقصود ببلاد الترك: البلاد التى يسكنها التركمان والأرمن والروم والجركس، وزاد صاحب كتاب الحروب الصليبية فى تحديد بلادهم، قال: المماليك من التركمان والسلاف واليونان والأرمن والمغول والقوقاز والقفحاق[2]. وكان كثير منهم قد رحل إلى بلاد الشام ومصر، وسبب هذا الهروب الاضطرارى أن التتار لما ضربوا بلادهم وكسروهم ونهبوا أموالهم، واستولوا على الأولاد والنساء وبعض الشباب وباعوهم للتجار الذين أتوا بهم إلى الأمصار، فاشترى نجم الدين قرابة الألف، وجعل منهم أمراء دولته، وخاصة بطانته والمحيطين به، وسماهم الحلقة، وكان لا يسير إلا وهم حوله، وهو ما يذكرنا بما فعله الخليفة المعتصم العباسى منذ أربعة قرون، حين استكثر من الترك دون العرب.

ولما وجد الصالح أن عدد المماليك كبير شرع عام ٦٣٨هـ فى بناء مكان محدد لهم حتى لا يختلطوا بالمصريين، وينهبوا بضاعتهم، ويضايقوهم فى معيشتهم، ثم ليكونوا تحت أمره وسيطرته فى أى وقت يشاء، واختار مكانًا بعيدًا عبارة عن جزيرة بين الفسطاط والجيزة، اسمها (جزيرة الروضة) ـ وهى الآن الروضة والمنيل ـ وبنى بها قلعته لتكون مسكنًا لهم، ومكانًا حصينًا لهذه القوة.

---

(١) قال جورجى زيدان فى تاريخ مصر ٣٠٤/١: وفى السنة التالية من سلطنة مصر أمر الملك الصالح بالقبض على الأمراء والمماليك الذين ساعدوه على خلع أخيه، وبايعوه مكانه، وقتلهم جميعًا، وولى مكانهم من اختبر أمانتهم نحوه.

(٢) الحروب الصليبية ١٨٨.



قال المقريزى واصفًا بناء هذه القلعة: هدم الدور والقصور والمساجد التى كانت بجزيرة الروضة، وأنشأ القلعة[1]، وبنى بها الدور والقصور، وعمل بها ستين برجًا، وبنى بها جامعًا، ويقال إنه قطع من الموضع الذى أنشأ فيه القلعة ألف نخلة مثمرة.. وخرب الهودج[2] والبستان المختار[3]، وهدم ثلاثة وثلاثين[4] مسجدًا، عمرها خلفاء مصر وسراة المصريين لذكر الله تعالى وإقامة الصلاة[5].

وقال زاد ابن إياس فى وصف هذه القلعة، قال: عمل لهذه القلعة ستين برجًا محيطة بها، وعمل بها جامعًا، ونقل إلى هذه القلعة العمد الصوان من برباء إخميم وشحنها بالأسلحة والآلات الحربية والغلال[6].

ولكى يكون على صلة بالقاهرة بنى قنطرة، قال المقريزى: بنى الملك الصالح الميدان السلطانى بأرض اللوق، وعمر به المناظر عام ٦٣٩هـ، وأنشأ القنطرة ليمر عليها إلى الميدان، وقيل لها قنطرة باب الخرق[7].

وبعد أن تم البناء رأى الملك الصالح جعل الروضة مقر حكمه، وعاصمة بلاده، ومركز إدارته بدلاً من قلعة صلاح الدين يعيش فيها هو ومماليكه وخدمه.

يقول ابن تغرى بردى: واتخذها مسكنًا وأنفق عليها أموالاً عظيمة[8].

أما المماليك فقد رتبهم مجموعات وفصائل، وجعل على رأس كل فصيلة أميرًا ينظمها ويحكمها، وكان من هؤلاء الأمراء أسماء لمعت بعد ذلك فى المعارك والأحداث القادمة، مثل: عز الدين أيبك[9] (الجاشنكير)[10] وفارس الدين أقطاى

---

(١) وقد جعل الملك الصالح القلعة مخزنًا للأسلحة والغلال وكل متطلبات الحياة خوفًا من الفرنجة، وكانت القلعة تشغل مساحة من الأرض لا تقل عن ٦٥ فدانًا.

(٢) قصر بناه الخليفة الآمر الفاطمى لزوجته البدوية.

(٣) بستان بناه الإخشيد.

(٤) قد نرى أن فى حصر المساجد المهدومة مبالغة، إلا إذا تصورنا أن لكل قصر أو بيت مسجدًا خاصًا به.

(٥) الخطط ٩٣/٣.

(٦) بدائع الزهور ٢٧١/١، برباء: آثار ومعابد قديمة، وإخميم مدينة فى صعيد مصر.

(٧) الخطط ١٠٠/٣، وباب الخرق هو باب الخلق الآن.

(٨) النجوم الزاهرة ٣١٢/٦.

(٩) لفظة أيبك محرفة من أتابك بمعنى مربى الأمير، وأول من لقب بهذا اللقب نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقى، وذلك عام ٤٦٥هـ وقد تحول هذا اللقب لقبًا عسكريًا فى عصر المماليك، وصار يطلق على القائد العام للجيش. (تاريخ الإسلام السياسى ٣٢٣/٤)، والكلمة فارسية عبارة عن مقطعين (أتا) بمعنى والد، و(بك) بمعنى الأمير.

(١٠) تولى الملك بعد شجرة الدر. الجاشنكير كلمتان (جاشنا) الذوق و(كير) المتعاطى، وهو الذى يتصدى لذوق المأكول والمشروب قبل السلطان خوفًا من أن يدس له سم.



(الجمدار)[1]، وركن الدين بيبرس البندقدارى[2]، وبلبان الرشيدى[2]، وسيف الدين قطز[3]، وسيف الدين قلاوون[2]... وغيرهم.

وسموا بالمماليك البحرية لوقوع قلعتهم وسط نهر النيل.

وأخذ السلطان يكثر من التنقل ما بين مصر والشام، وفى إحدى سفرياته عام ٦٤٤هـ، انتهز الملك الصالح اختلاف الصليبيين، فاسترد بيت المقدس، وأعاد بناء سوره المتهدم، ثم كان آخر سنة ٦٤٦هـ السنة التى قتل فيها أخاه العادل؛ فقد خرج يتجول فى مملكته كعادته فى كل من دمشق وحمص وبعلبك، ولكنه لم يكمل الرحلة.

يقول ابن تغرى بردى: وعاش الملك الصالح بعد أن قتل أخاه عشرة أشهر، رأى فى نفسه العبر من مرض تمادى به، وما نفعه الاحتراز[4].

وقال ابن إياس: لما قتل الصالح أخاه العادل لم يقم بعد قتله إلا أيامًا يسيرة، وابتلاه الله بأكلة طلعت له فى وجهه، فرعت فيه إلى آخره، واستمر عليلاً، وثقل فى المرض[5].

عاد الملك الصالح إلى مصر، وقد أصابه الله بأمراض عدة منها: ناسور، وعسر بول، وقرحة فى الرئة، وسل، مع ما أصاب وجهه من أكلة، ومن شدة المرض حُمل فى مِحَفَّةٍ، وفى طريق العودة سمع بدخول الفرنجة دمياط فى ١٣ صفر ٦٤٧هـ.

(١) قتله أيبك عام ٦٥٢هـ. والجمدار الذى يلبس السلطان ملابسه، جاء فى صبح الأعشى ٥/٤٥٩: وأصله جامادار، وحذفت الألف بعد الميم استثقالاً، وهو لفظ مركب من لفظين فارسيين، أحدهما (جاما) معناها مقرب، والثانى (دار) معناه ممسك.

(٢) بيبرس من قبائل الترك (القفجاق) التى بددتها جيوش التتار عام ٦٢١هـ، وجلب إلى مصر. لحق بالشام هو وسيف الدين قلاوون وبلبان الرشيدى وغيرهم بعد مقتل أقطاى، ثم اشتركوا فى معركة عين جالوت، وأثناء عودتهم لمصر، قتلوا قطز ومعه أصحابه من المماليك، وذلك قصاصًا لأقطاى، وبايعوا بيبرس حاكمًا على مصر، فصار ثانى سلاطين المماليك، تولى حكم مصر والشام من ذى القعدة ٦٥٨هـ إلى محرم ٦٧٦هـ، حارب فلول التتر، واسترد أكثر الحصون من الفرنج. والبندقدارى الذى يحمل البندق، الذى يرمى به خلف السلطان أو الأمير، أما سيف الدين قلاوون، فقال عنه ابن بطوطة ١/٥٩: سمى قلاوون بالألفى لأن الملك الصالح اشتراه بألف دينار ذهبًا، وأصله من قفجاق.

(٣) قطز بويع له ٦٥٦هـ، ولقب بالمظفر، أحد من قتلوا أقطاى، قيل كان من أولاد الملوك الخوارزمية، ابن أخت جلال الدين خوارزم شاه، واسمه محمود بن ممدود، أسره التتار وباعوه واشتراه رجل فى دمشق، ثم بيع فى مصر، وصل إلى أقطاى فى جيش الصالح، كان قد تولى نيابة السلطنة بعد المعز أيبك عام ٦٥٥هـ، رأس معركة عين جالوت ٦٥٨هـ.

(٤) النجوم الزاهرة ٦/٣١٢.

(٥) بدائع الزهور ١/٢٧٧، والأكلة: الحكة والجرب. (الوسيط).



شجرة الدر والصليبيون

جاء الخبر أن الفرنجة بقيادة لويس التاسع[1] أو (ريدافرنس) أو (روادیفرنس) أو (الفرنسيس) أو (دی لافرنس)[2] ملك فرنسا - قد خرج من بلاده بجموع غفيرة تجاه مصر.

وهذه هی المرة الثالثة لمحاولة دخول الصليبيين بلاد الإسلام عن طريق دمياط، كانت المرة الأولى أيام نور الدين زنكى وصلاح الدين الذى كان واليًا على مصر من قبله، وذلك فى ربيع الثانى عام ٥٦٥هـ (الموافق ١١٦٩م)، وقضى عليهم صلاح الدين بأن حاصر نور الدين الكرك، فاضطروا لرفع الحصار بعد أن أحرقوا مراكبهم.

وكانت المرة الثانية أواخر أيام الملك الكامل.

وهذه هی المرة الثالثة التى قاد فيها الجيوش الصليبية ملك فرنسا بنفسه.

قالت ونفرد هلمز: وفى يوم ٢٥ من أغسطس عام ١٢٢٨م أبحر ملك فرنسا لويس التاسع (القديس لويس) الذى يبلغ من العمر ثلاثين عامًا - من ميناء (إيج - مرت)، ومعه ١٨٠٠ سفينة، و٥٠٠٠٠ رجل، وبرفقته زوجته الملكة مارجريت، وأخواه، وزهرة نبلاء وأمراء فرنسا.. أتى ليشن حربًا مقدسة ضد الذين كانوا فى نظره كفارًا، وليأخذ بيت المقدس إلى الأبد[3].

وقد نزل قبرص ليمضى فيها الشتاء، ويهيئ الفرصة لانضمام مجندين جدد، وسمع المصريون بتحركه، واستعدت دمياط[4] بالذخائر والعساكر، وأسرع الملك الصالح رغم مرضه الشديد - وخرج ومعه عشرون ألفًا من العريان غير مماليكه، وعسكر جنوبى دمياط فى أشموم طناح[5].

---

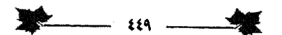
(١) هی الحملة السابعة، وقيل السادسة للصليبيين بقيادة القديس لويس التاسع، والمقصد بها كلها بيت المقدس، قال د. على حبيبة: كان هدف الصليبيين أن تتحول بلاد الشام إلى ممتلكات مسيحية، وأن تسلم الكنيسة الشرقية لنفوذ البابوية - فى روما - وأن يتنصر المغول الوثنيون. (الحروب الصليبية ١٩٩).

(٢) هكذا كتبها المؤرخون، ويقصدون بها: (ملك فرنسا).

(٣) كانت ملكة على مصر صفحة ١٨١.

(٤) هی مدينة على النيل عند لقائه بالبحر الأبيض شرقًا، كان بها عرب هم بنو كنانة، أنزلهم الصالح كحامية بها.

(٥) قرية قرب دمياط، وهی مدينة فى الدقهلية لوجود أشموم أخرى فى المنوفية، وهی الآن تكتب بالنون. (معجم البلدان).



وقد أورد جورجي زيدان[1] الكتاب الذى بعثه لويس التاسع إلى الملك الصالح، ورد الملك عليه: كتب لويس التاسع: أما بعد فإنه لا يخفى عليك أنى أمين الأمة العيسوية كما أنه لا يخفى عليّ أنك أمين الأمة المحمدية، وغير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الأندلس[2]، وما يحملونه إلينا من الأموال والهدايا، ونحن نسوقهم سوق البقر، ونقتل منهم الرجال، ونرمل النساء، ونستأسر البنات والصبيان، ونخلى منهم الديار.. وقد عرفتك وحذرتك من عساكر حضرت فى طاعتى تملأ السهل والجبل، وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء.

قال جورجي زيدان: فلما قرئ الكتاب على السلطان الملك الصالح، وقد اشتد به المرض بكى، واسترجع، فكتب القاضى بهاء الدين زهير[3] الجواب: بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله ﷺ، وصحبه أجمعين. أما بعد وصل خطابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك، فنحن أرباب السيوف، وما قتل منا فرد إلا جددناه، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه، ولو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا، وعظم حروبنا، وفتحنا منكم الحصون والسواحل، وتخريبنا ديار الأواخر منكم والأوائل ـ لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ولابُد أن تزل بك القدم فى يوم أوله لنا وآخره عليك، فهنالك تسيء الظنون، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون.. ونعود إلى قوله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

(١) تاريخ مصر الحديث ١/٣٠٥.

(٢) يقصد أن قواعد الأندلس العظيمة: قرطبة وبلنسية ومرسية وإشبيلية أخذت تسقط تباعًا فى يد النصارى، ودخل فرناندو الثالث مدينة إشبيلية فى ٢٣ ديسمبر ١٢٤٨م (أول رمضان ٦٤٦هـ) فى موكب فخم، حول مسجدها الجامع إلى كنيسة، وأزيلت معالم المسلمين منها بسرعة، وأخذ يعيث فيها فسادًا وقتلاً وأسرًا، ولهذه الفتوحات أطلق عليه (القديس) وذلك لما تم على يديه من ظفر عظيم للنصرانية. (انظر دولة الإسلام فى الأندلس لعبد الله عنان ـ الجزء الرابع).

ووجدنا فى أوائل القرن السابع الهجرى قديسين أولهما القديس فرناندو القاضى على الإسلام فى الأندلس، ثم القديس لويس الذى حاول أن يحذو حذوه فى الشرق، ولكن الله سلم.

(٣) بهاء الدين زهير المهلبى العتكى: شاعر رقيق، وكاتب حاذق، ولد بمكة عام ٥٨١هـ (١١٢٦م)، قربه الملك الصالح، وجعله من خواصه، ولما مات انقطع البهاء الزهير فى داره بمصر، حتى مات عام ٦٥٦هـ (١٢٥٨م).

ووصل الفرنجة دمياط يوم الجمعة العشرين من صفر عام ٦٤٧هـ (الموافق ١٢٤٩م)، وملكوا بر الجزيرة يوم السبت، وقبل أن يصل رد الملك الصالح، دخل لويس دمياط يوم الأحد[١]، فرأى قائد جيش المسلمين الأمير نجم الدين أن يتقهقر هو وجيشه، حتى يكمل استعداده، ولكن الأهالى ظنوا أنه أمر لهم فى الخروج حتى لم يبق أحد فى دمياط، فدخلها الفرنجة.

ونتذكر هنا دخول الفرنجة دمياط من ثلاثين سنة أيام الملك الكامل، وحصارها لمدة سبعة أشهر، أما اليوم فقد قرر القائد الانسحاب، فانسحب الناس والجند، ودخل الفرنجة دمياط فى يومين، ولذلك أمر الملك الصالح بإعدام أربعة وخمسين أميرًا لأنهم خرجوا من دمياط بغير إذنه.

أما الفرنجة، فبعد احتلالهم لدمياط، اتجهوا إلى المنصورة، مركز الملك، وتقاتلوا مع الجيش والسكان مرات ومرات، ومرت شهور والمناوشات مستمرة، والغارات لا تنتهى، والحالة العامة تزداد سوءًا، وصحة الملك الصالح تتدهور، حتى توفى فى يوم الأحد ١٤ شعبان عام ٦٤٧هـ (الموافق نوفمبر ١٢٤٩م) بمرض السل، وقيل: بأحد الأمراض التى انتابته فى الفترة الأخيرة.

وهنا يظهر دور شجرة الدر العاقلة المدبرة فى المواقف التالية:

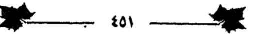
أولاً: كان أول شىء فعلته هو كتمان خبر موت السلطان، وإعلان أنه مريض لا يستطيع مقابلة أحد إلا الطبيب الذى كان يدخل ويخرج من حجرته كل يوم، وقليلاً جدًا من الأمراء المقربين، ثم أمرت بأن يغسل السلطان ويكفن ويصلى عليه، على أن يبقى كل شىء على ما هو عليه، وأن يمد السماط السلطانى للعشاء يوميًا،ويطعم كل أمراء المماليك، ويعتذر عن السلطان لمرضه.

وقد وصف ابن إياس هذا التصرف وصفًا طريفًا، قال: وكانت الأطباء تدخل على جارى العادة كل يوم، وكذلك طبق المزاور يدخل فى كل يوم على العادة، والقصّاد (رايحة جيًا) من المنصورة إلى القاهرة، ولا يعلم أحد بموت الملك الصالح[٢].

---

(١) قاله ابن خلكان فى وفيات الأعيان ١٨٦/٥.

(٢) بدائع الزهور ٢٧٩/١.



ولم يعلم الحقيقة إلا المقربون جدًا من الملك، كالأمير حسام الدين لاجين الطواشي، والأمير عز الدين أيبك، والأمير فارس الدين أقطاى، والأمير فخر الدين قائد الجيش.

وكانت شجرة الدر لا تقبل عزاء من أحدهم، وإنما تقول: يجب ألا يغلبنا الحزن، وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله، مصر وبلاد الإسلام قبل كل شيء.

ثانيًا: أمرت بعد تجهيز جثمان السلطان ـ أن يحمل فى صندوق، فحمل ووضع فى سفينة على شاطئ النيل فى المنصورة، ونقل إلى الروضة ليدفن فى قلعته.

قال ابن تغرى بردى: ولما مات حمل تابوته إلى الجزيرة، فعلق بسلاسل حتى قُبِرَ فى تربته إلى جانب مدرسته بالقاهرة[١].

وقالت ساعة رحيله إلى الروضة: إنه ليحزننى أن يخرج سيدى وأستاذى وزوجى الصالح هكذا دون أن يخرج الناس فى موكبه وتوديعه وداعًا يليق به، ولكنها الضرورة، ولابد أن يأتى يوم نقوم فيه بواجب العزاء اللازم.

وقد حدد على مبارك فى خططه المكان الذى دفن فيه الملك الصالح أولاً، ثم المكان الذى نقل إليه، قال: وبجوار مدرسته بخط بين القصرين قبة الصالح بنتها شجرة الدر لأجل مولاها الملك الصالح أيوب عندما مات.. وقد أحضرت جثته فى حرّاقة[٢] إلى قلعة الروضة، ثم نقل إلى هذه القبة فى تابوت، وصُلى عليه يوم الجمعة، فدفن بها ليلة السبت ٢٨ من رجب عام ٦٤٨هـ، ووضع عند القبر سناجق[٣] السلطان، وبقجته[٤] وتركاشه[٥] وقوسه، ورتب عنده القراء على ما شرطت شجرة الدر فى كتاب وقفها[٦].

وقد أصرت شجرة الدر على دفنه فى الروضة فى القاعة المطلة على النيل، وذلك حتى لا يتسرب خبر موته، وعندما استقر الأمر على كشف خبر موته نقل

---

(١) النجوم الزاهرة ٦/٣٣٢.

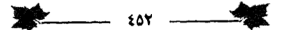
(٢) نوع من السفن الحربية فيها مرامى نيران يرمى بها العدو فى البحر، وهى خفيفة المرّ (الوسيط).

(٣) السنجق: رتبة عسكرية، ج: سناجق.

(٤) البقجة: حزمة ملابس. (معجم فارسى).

(٥) التركاش: الكيس، الجعبة، الحقيبة. (معجم فارسى).

(٦) الخطط التوفيقية ٤/١٣٣.



تابوته إلى مدرسته تجاه الصاغة حيث دفن، وكان ذلك فى عام ٦٤٩هـ، أى بعد الوفاة بعامين[١].

قال ابن كثير: فى عام ٦٤٩هـ نقل تابوت الملك الصالح إلى تربته بمدرسته، ولبست الأتراك ثياب العزاء، وتصدقت أم خليل عنه بأموال جزيلة[٢].

ثالثًا: اجتمعت شجرة الدر بالخاصة من الأمراء وزعماء المماليك فى القصر السلطانى بالمنصورة، وأعلنت فيهم مرض السلطان الشديد، ورغبته فى تحليف الأمراء له ولابنه توران شاه (غياث الدين) من بعده.. وأخذت البيعة.

ثم بعثت مرسومًا إلى القاهرة عليه توقيع الملك بخطها تشرح فيه ما تم فى المنصورة، فقام نائب السلطنة فى مصر بإعلام أكابر الدولة وأجنادها بما فى المرسوم، ثم أمر الخطباء بالدعاء لتوران شاه فى الخطبة بعد الدعاء لأبيه الملك الصالح.

رابعًا: عينت شجرة الدر الأمير عز الدين أيبك التركمانى الجاشنكير نائبًا لها، فهو أكبر مماليك السلطان سنًا وأعظمهم شأنًا وأقربهم إلى السلطان وإليها، فصار مشاركًا لها فى تدبير أمور الحكم.

خامسًا: أرسلت على جناح السرعة فارس الدين أقطاى إلى حصن كيفا[٣] لإحضار الأمير توران شاه.

سادسًا: جعلت التعيينات الجديدة، وترتيبات الجند لثالث الأمراء أقدمية، وهو الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى.

سابعًا: كانت تخرج كل يوم المراسيم والأوامر السلطانية بتوقيع الملك الصالح بخط شجرة الدر، ولا يشك من يراها أنها بخط الملك الصالح.

ولنا هنا ملاحظة هى أن شجرة الدر لم تكن تقابل الرجال وجهًا لوجه، كما تظهر فى المسلسلات والأفلام اليوم، إنما كانت تكلمهم وتصدر أوامرها لهم وهى فى كامل حشمتها ووقارها ونقابها.

---

(١) قال على مبارك إن ذلك تم بعد موته بسنة.

(٢) البداية والنهاية ١٣/ ٢١٨١.

(٣) حصن فى شمال شرق الشام قرب القوقاز.

وسار الأمر على هذا المنوال أربعة أشهر ونصف الشهر، والحرب مازالت دائرة بين المسلمين والفرنسيين، وكان واضحًا أن مجيء الفرنسيين إلى دمياط وسائر المدن المصرية إنما كان للضغط على الملك الصالح حتى يتخلى عن القدس التى استردها، بل إنهم أعلنوا ذلك مرارًا، كلما دخلوا بلدًا مصريًا، جعلوه فى مقابل القدس، ولكن أحدًا فى مصر لم يقبل أن يساومهم على عروضهم هذه.

ولم تهدأ شجرة الدر فى تلك الأيام إنما كانت متابعة لكل صغيرة وكبيرة فى الحرب الدائرة، تحمس الجند وتشجع القادة باسم السلطان الراقد فى سرير مرضه، ثم كانت إرادة الله فى النصر الذى اجتمعت عدة عوامل لتحقيقه، منها: ضعف الصليبيين لانقطاع الميرة عنهم، ووقع الوباء والموت فى دوابهم، حتى عزم ملكهم على الهروب إلى دمياط، وانتهاز المسلمين الفرصة، وتقدم قادة المماليك البحرية، ووقوف شجرة الدر معهم باسم السلطان، كل ذلك مع عامل هام هو اتحاد المسلمين وتكاتفهم وبلاؤهم البلاء الحسن، فأحدقوا بالأعداء يتخطفونهم طول الليل قتلاً وأسرًا، حتى ظفر المسلمون بالنصر المؤزر.

وفى ذى القعدة ٦٤٧هـ (يوم ٢١ فبراير ١٢٥٠م)، وبعد عدة معارك برية ونيلية، وفى شوارع المنصورة وأزقتها كانت ساعة الانتصار، واستولى المصريون على أسطول الفرنجة، وغنموا جميع المراكب بمن فيها وما فيها.

وكانت أولى المعارك وأحسمها معركة فارسكور التى كانت بقيادة الأمير بيبرس.

وطلب لويس التاسع الأمان فأجيب، إلا أن من حوله رفضوا، وحملوا على الجند المصريين مرة أخرى، وأحدق بهم الجند، حتى أبيدوا وأسر الملك لويس ومعه عشرة آلاف جندى فرنسى.

وفى يوم من أيام الله الذى سمى فيما بعد بيوم جديلة الكبرى، وهى آخر معركة، يقول ابن تغرى بردى: وأنزل الفرنسيس (الملك) فى حرّاقة، وأحدقت به مراكب المسلمين تضرب فيها الكوسات[1] والطبول، وفى البر الشرقى العسكر سائر منصور مؤيد، والبر الغربى فيه العربان والعامة فى لهو وتهان وسرور بهذا الفتح العظيم، والأسرى تقاد بالحبال.. وكان فى الأسر ملوك وكنوت[2] من الفرنج[3].

(١) الأبواق النحاسية.

(٢) كنوت (ج) كونت، وهو لقب شرف فى أوربا.

(٣) النجوم الزاهرة ٦/ ٣٦٥.



وأثناء المعركة، وفى معمعتها وصل الملك العظيم توران شاه المنصورة[1] فى غرة محرم عام ٦٤٨هـ، وهنا أعلن خبر موت الملك الصالح، وتولية الملك المعظم توران شاه، واستبشر الناس، وعمت الفرحة البلاد، وتفاءل الناس بقدومه، خاصة بعد أن أسر لويس التاسع فى دار ابن لقمان، ووضع لحراسته طواشى اسمه (صبيح)، فأكرمه غاية الإكرام، ومازالت هذه الدار موجودة[2].

وقد حمد الشعب والمماليك موقف شجرة الدر وتصرفها الحكيم حين أخفت خبر موت زوجها إبان المعركة، وكتمت أحزانها وأدارت رحى الحرب على مدى خمسة أشهر من المعارك الطاحنة والمحاولات اليائسة من جانب الصليبيين لاقتحام المنصورة، حتى انتهت المعركة، وأسر الملك قائد الأعداء، ودمر جيشه.

وهكذا نرى أن الحرب قد وضعت أوزارها، وأسر لويس التاسع قبل وصول توران شاه، إلا أن ابن خلدون يرى غير ذلك، فيقول: ثم انتشر خبر الوفاة، وبلغ الإفرنج، فشرهوا إلى قتال المسلمين، ودلفوا إلى المعسكر فانكشف المسلمون، وقتل الأتابك فخر الدين، ثم أتاح الله الكرة للمسلمين، وانهزم الفرنج، ووصل المعظم توران شاه من مكانه بحصن كيفا لثلاثة أشهر أو تزيد، فبايعه المسلمون، واجتمعوا عليه، واشتدوا فى قتال الإفرنج، وغلبت أساطيلهم أساطيل العدو.

وانهزموا وأسر ملكهم دى لافرنس، وهو المعروف بالفرنسيس، وقتل منهم أكثر من مائة ألف[3].

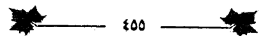
ويقول فى مكان آخر منوهًا بعلاقة توران شاه بالانتصار: ثم وصل المعظم توران شاه من كيفا، فبايعوا له، وأعطوه الصفقة، وانتظم الحال، واستطال المسلمون على الفرنج برًا وبحرًا، فكان ما قدمناه من هزيمتهم، والفتك بهم، وأسر ملكهم الفرنسيس، ثم رحل المعظم إثر هذا الفتح إلى مصر لشهرين من وصوله[4].

(١) كان قد دخل الصالحية ـ فى محافظة الشرقية الآن ـ فى ١٦ ذى القعدة ٦٤٧هـ بعد أن بويع له بالسلطة فى دمشق.

(٢) جاء فى هامش النجوم ٦/٣٦١ قوله: والدار لا تزال معروفة بالمنصورة، ولا يزال جزء منها، وهو الذى فيه الباب، قائمًا إلى اليوم بجوار جامع الشيخ موافى. وقد حولتها الدولة إلى متحف.

(٣) ابن خلدون ٥/٧٨٣.

(٤) المرجع السابق ٨٠٧.



ونحن نرى كما رأى كثير من المؤرخين أن النصر قد تم قبل وصول توران شاه، ولكن الذى حدث وتوهمه ابن خلدون عن النصر الذى أحرزه توران شاه أن خللاً وقع بالفعل بعد معركة جديلة، وبعد إعلان موت الملك الصالح، وذلك أن بعض عساكر العدو الهاربة عادت إلى فارسكور لمتابعة القتال، ولكن الأمراء تحالفوا بسرعة على أن يكونوا كلمة واحدة على الجهاد فى سبيل الله، وذلك فى ١٢ محرم عام ٦٤٨هـ، وحملوا على العدو، وهجموا عليهم هجمة واحدة، فلم تكن إلا ساعة يسيرة، حتى سلموا وانكسروا.

* * *

شجرة الدر وتوران شاه[1]

تسلم توران شاه[2] السلطة، واحتفل بتوليه الملك فى المنصورة وسط الأفراح والبشائر بانكسار الصليبيين، ودخل توران شاه المنصورة والنصر فى ركابه، والذى كان من الممكن أن يكون له دور فى استثمار هذا النصر، لكنه لم يكن على المستوى اللائق كما وصفه أبوه من قبل بأنه لا يصلح للملك، ولذلك بدأ بتصرفات نفرت منه القلوب، وكرهت فيه الرعية، وخاصة المماليك البحرية الذين كانوا وقود الحرب، وأهم أسباب الانتصار.

يقول الشيخ الإسحاقى: .. وكان فيه هوج وخفة وميل إلى العكوف على ملاذه.. وأخذ فى إبعاد مماليك أبيه، وكان إذا سكر أوقد الشموع، وضرب رأسها بالسيف، ويقول: هكذا أفعل بالمماليك البحرية[3].

فأضمروا له السوء، وتغيرت نفوسهم قبله، وصاروا فى انتظار الفرصة للانقضاض عليه، وخاصة أنه شرع فى تقريب من جاءوا معه من حصن كيفا، وإبعاد مماليك أبيه، وربما كان هذا التصرف السريع الأهوج لشىء فى عقله، فهذا ابن كثير يقول: قيل إنه كان متخلفًا لا يصلح للملك[4].

وقال ابن الذهبى: كان غياث الدين توران شاه لا يصلح لصالحة لقلة عقله وفساده بالمرد[5].

أما زوج أبيه شجرة الدر التى قيل إنها مربيته، والتى بعثت فى إحضاره، وكانت السبب الأول فى تملكه مصر والشام، فلم تسلم منه أيضًا، فقد طلب منها أموال أبيه، فلم ترد عليه، ورحلت هاربة منه.

---

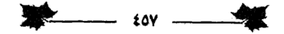
(١) ذكر جورجى زيدان أن شجرة الدر كانت مربية لتوران شاه، وقال: فتواطأت شجرة الدر مع الأمير فخر الدين ورئيس الخصيان جمال الدين محسن على مبايعة ابنها. (تاريخ مصر الحديث ٣٠٦/١).

(٢) لفظ أعجمى بمعنى ملك الشرق، والعجم يسمون الترك: شركان ثم حرفوها، فقالوا: توران، وشاه: بمعنى ملك.

(٣) أخبار الأول ١٢٨.

(٤) البداية والنهاية ١٨٠/١٤.

(٥) العبر فى خبر من غبر ١٩٦/٥. والمرد: الغلمان.



قال بعضهم: رحلت إلى القاهرة، وقال آخرون: إلى بيت المقدس، ولكنه لم يتركها، إنما بعث إليها يهددها ويتوعدها بالقبض عليها وحبسها إن لم تعطه المال والجواهر، وكل ما تركه أبوه.

قال مجدى كامل: أثبتت الأحداث أن توران شاه كان ملكًا غبيًّا.. فقد دخل فى صراع مع المرأة التى سلمته العرش، فتحدى شجرة الدر، وأهانها، وأرسل إليها يطلب منها أن تسلمه أموال أبيه، ولم يقنع بردها عندما أبلغته أنها أنفقت هذه الأموال فى الجهاد المقدس ضد الصليبيين[1].

وأصر توران شاه على طلبه، ووجدت شجرة الدر نفسها فى مأزق، فبعد أن كانت الآمرة الناهية المسيطرة لسنوات طوال، يريد هذا الجاهل أن ينزع منها كل شيء، ويسلبها حتى أموالها الخاصة، وكانت تظن أنه سيكرمها ويشكر فضلها، ولكنه رد إحسانًا بإساءة، وتكريمًا بعجرفة.

وفكرت بسرعة وجمعت قادة المماليك البحرية الذين كانوا معها من أول يوم جاءوا مصر مجلوبين، وأفضت لهم بما فى نفسها، فشجرة الدر ليست صيدًا سهلاً، فقد عاشت عمرها كله فى بلاط الملك، وتحت بساط السياسة، لذلك استنجدت بحلفائها، وكانت الاستجابة سريعة.

يقول ابن إياس: فأرسلت تقول للمماليك البحرية: إن قتلتم[2] توران شاه، فعليَّ رضاكم بالمال.

وعدت[3] المماليك البحرية كل واحد بمائتى دينار، والأمراء كل واحد بألف دينار[4].

وكان توران شاه قد انتقل إلى فارسكور[5]، ونصب هناك برجًا من خشب، يطل منه على النيل وعلى الناس.

---

(١) مائة امرأة ٢٦.

(٢) فى النص: قتلتوا.

(٣) فى النص: أوعدت.

(٤) بدائع الزهور ١/ ٢٨٤.

(٥) من قرى مصر، قرب دمياط من كورة الدقهلية. (معجم البلدان).



وفى يوم ٢٧ محرم عام ٦٤٨هـ، وبعد أن استعرض العسكر ومواكبهم، جلس على صدر السماط الملكى، فتقدم المماليك المتفق معهم على قتله، وضربوه، فقطعوا يده، فقام هاربًا إلى البرج، وأسرعوا بإغلاق بابه، وأشعلوا فيه النار، فلما وجد النار قد اقتربت منه أخذ يصرخ ويطلب النجدة، ولما أحاطت به النار ألقى بنفسه فى النيل والمماليك يرمونه بالنشاب حتى مات قتيلاً حريقًا غريقًا، كما قيل، ولم تكمل مدة توليته الشهرين، على اعتبار توليه فى دمشق فى ذى القعدة من العام الماضى، لكنه لبث فى المنصورة سبعة وعشرين يومًا فقط.

وهكذا انتهت صفحة دامية من المأساة التى كانت فصولها تجرى على أرض مصر، لتبدأ صفحة أخرى كتبت منها سطور سبق أن أشرنا إليها، وبقيت أحداث سوف نتعرض لها.

* * *

السلطانة شجرة الدر

عرفنا شجرة الدر ملكة غير متوجة من أول يوم تزوجت فيه الملك الصالح، ولكنها كانت مشاركة له فى كل صغيرة وكبيرة، حتى إنها كانت تدير دفة الملك فى غيابه فى الغزوات، وكان خطها ـ كما جاء فى الموسوعة ـ يشبه خط الملك الصالح، فكانت تعلم على التواقيع[1].

أما بعد مقتل توران شاه، فقد تغير الحال.

عاد العسكر المصرى والمماليك إلى القاهرة، وتركوا ملك فرنسا أسيرًا فى المنصورة لم يتفقوا بعد على مصيره، والهم الأكبر الآن من يمسك زمام الأمر، ويتقلد الحكم بعد قتل الملك، وحرج الموقف، فبقية آل أيوب فى المقاطعات الشامية يتطلعون لملك مصر، وكل أمير يحلم بأن يكون سلطانًا عليها، ولذلك أسرع أمراء المماليك، واجتمعوا لتقرير مصيرهم، وبعد مشاورات ومحادثات استقر أمرهم على تولية صاحبة الفضل عليهم وعلى مصر زوج ملكهم الصالح السلطانة شجرة الدر على أن يكون الأمير أيبك التركمانى مدبِّر المملكة معها، وتحالفوا على ذلك.

وفى يوم الخميس الثانى من صفر عام ٦٤٨هـ (إبريل ١٢٥٠م) نودى فى الناس بالدعاء للملكة أم خليل، ثم ألبسوها خلعة السلطنة، وهى قندورة مخمل مرقومة بالذهب، فباس لها الأمراء الأرض من وراء حجاب[2].

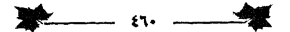
وخطب باسمها على منابر مساجد مصر والشام، فكان الخطيب يدعو لشجرة الدر ـ بعد الدعاء للخليفة العباسى، ويقول: واحفظ اللهم الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجميل، والستر الجليل، والدة المرحوم خليل، زوجة الملك نجم الدين أيوب.

أو يدعو بدعاء آخر: احفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين.

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة ١٠٧٦.

(٢) بدائع الزهور ٢٨٦/١.



ويسرعة نقش اسمها على النقود، وكتب على وجه الدينار الذهبى: بسم الله الرحمن الرحيم، وعلى الوجه الآخر: المستعصمة الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك منصور خليل خليفة أمير المؤمنين.

ولم تنس ولاءها للخليفة فى بغداد، فكانت الوثائق والمراسلات توقع باسم أم خليل مملوكة الصالح، وخادمة الخليفة.

ومدحها الأدباء والشعراء، وكتب اسمها فى سجل ملوك مصر، وصارت شجرة الدر ثامن سلاطين بنى أيوب الذين اعتلوا عرش مصر.

وهذا أبو الحسن بن الجزار يؤرخ أسماء من تولى الخلافة الأيوبية فى مصر، فيقول:

ثم تولاها صلاح يوسف

ثم العزيز ابنه مستنصف

ويستعرض بقية خلفاء بنى أيوب حتى يقول:

وبعده أم خليل ملكت

وطالت الأفعال منها وزكت[1]

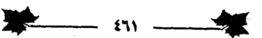
وإن كان بعضهم يعتبر أن الدولة الأيوبية ختمت بتوران شاه ابن الملك الصالح الذى تولى قبل شجرة الدر لمدة أيام قليلة.

وجلست شجرة الدر على سدة الحكم، وظهرت مشكلتان تتعجلان الحسم:

أولاهما: تخليص دمياط وسائر البلاد التى وطئتها أقدام الصليبيين من الاحتلال.

وثانيتهما: الاتفاق على حل مشكلة الأسير الفرنسيس (لويس التاسع) القابع فى دار ابن لقمان ينتظر الإفراج عنه، وفكرت شجرة الدر واستطاعت أن تربط بين الأمرين، وأن تجعل تحرير الأرض ثمنًا لحرية الملك الأسير، وكان لها ما أرادت، فقد وافق الملك وأتباعه على مغادرة أرض مصر، وتعهدوا بعدم العودة إليها، وألا يقتربوا من شواطئ البلاد الإسلامية فى مصر والشام بقصد الغزو والحرب.

(١) بدائع الزهور ٢٨٧/١.



ودفع الملك ما اتفقت عليه المفاوضات من فدية بلغت فى أرجح الأقوال أربعمائة ألف دينار، ولكن تفردت هلمز وقالت: كانت الفدية نصف مليون جنيه[1].

ورحل لويس التاسع عن دمياط مدحورًا فى ربيع أول ٦٤٨هـ (الموافق مايو ١٢٥٠م).

ولم يشذ عن رأى جماعة المماليك إلا الأمير حسام الدين، فكان من رأيه قتل الأسير الملك لويس، والاستغناء عن الفدية مهما عظمت، ولأنه كان قائد جيوش المسلمين، فقد عبر عن الحكمة من قتل لويس، وقال للمعز أيبك مدبر الملكة شجرة الدر: هذا الرجل فى أسرنا، وهو عظيم النصرانية، وقد اطلع على عوراتنا، والمصلحة ألا نطلقه.. فقال أيبك وغيره من المماليك الصالحية: ما نرى هذا الغدر.

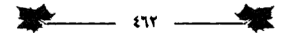
يقول ابن تغرى بردى: وكانت المصلحة ما قاله حسام، فقووا عليه، وأطلقوه طمعًا فى المال[2].

وربما كانت نظرة حسام، أبعد من الكسب السريع والفرح بالفدية، فإن لويس التاسع غدر فى عهده، فما لبث بعد أن فك أسره، وعاد إلى بلاده أن بدأ فى الاستعداد من جديد لخوض حرب على مصر، وسمع الأمراء بذلك، فندموا على إطلاقه لكن جاءهم الخبر بهلاكه، ولم يكن هلاكه سريعًا، إنما جاء بعد أربع سنوات من خروجه من مصر.

قال د. أحمد شلبى: عاد إلى الشام، وقضى بها أربع سنوات من مايو ١٢٥٠م: إبريل ١٢٥٤م، صفى الخلافات بين أمراء الصليبيين.. وغادر الشام، وهو مدفوع برغبة مجنونة ضد المسلمين، فهاجم تونس قبل أن يصل إلى بلاده، ومات بها، ودفن فى إحدى مدنها وهى مدينة قرطاجنة[3].

ويشرح د. حسين مؤنس سبب اتجاهه لتونس، قال: رغم ما مر به لويس التاسع من هزائم وخيبة أمل فى محاولاته للتغلب على المسلمين ظل يأمل فى قيام حرب صليبية جديدة ضدهم، وفى هذه المرة شعر أنه لا يستطيع مواجهة

(١) كانت ملكة على مصر ٣٢٩.
(٢) النجوم الزاهرة ٦/٣٦٩.
(٣) موسوعة التاريخ الإسلامى ٥/٦٤٣. وقرطاجنة بالقرب من مدينة تونس الحالية، أنشئت فى القرن التاسع ق.م. يطلقون عليها اليوم قرطاج.



المماليك، فوجه حملته نحو تونس عام ١٢٧٠م.. وبعد قليل من وصوله أصابته الحمى، ومات، وعاد جيشه برفاته إلى فرنسا، وكان وصول لويس التاسع إلى قرطاجنة فى آخر ذى القعدة ٦٦٨هـ (٢٢ يوليو ١٢٧٠م)، وكانت وفاته فى ١٠ محرم ٦٦٩هـ (الموافق ٣٠ أغسطس ١٢٧٠م)[١].

وعلى أية حال فإن هناك رأيًا ثالثًا يرى أن لويس التاسع دفن فى مكان ما بشرق الجزائر، وعلى ذلك فإن قبره مجهول بالنسبة إلى التاريخ.

لكن المؤكد أن بمدينة (قرطاج) بتونس كاتدرائية تحمل اسمه، ويزورها أحيانًا بعض المتدينين الفرنسيين.

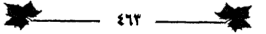
أما جستاف ليبون، فقد حدد سببًا آخر لسفره لتونس، قال: أسر الملك سان لويس فى الحملة السابعة، وافتدى نفسه بفدية عظيمة، ومات هذا الملك فى الحملة الثامنة بالطاعون حين اقترب من أسوار تونس طامعًا فى تنصير أميرها[٢].

ونعود إلى قادة المماليك، ومعهم شجرة الدر، فقد قوموا ما حصلوا عليه من عتاد فى دمياط بأربعمائة ألف دينار، وأخذوا من الملك أربعمائة ألف، وأطلقوه هو وجماعته.

وهذا المقريزى يبين أن المبلغ كله من تسليم دمياط مع فدية لويس التاسع، قال: وكانت البحرية قد تسلمت دمياط من الملك (روا دى فرانس) بعدما قرر على نفسه أربعمائة ألف دينار[٣].

وإن كان هناك من قال إن ما دُفع هو ثمانية آلاف فقط، فهذا العلاّمة الشيخ الشرقاوى يقول: اتفقت شجرة الدر مع الأمراء على إطلاق سراح الفرنسيس - لويس التاسع - على أن يردوا دمياط إلى المسلمين، ويعطوا ثمانية آلاف دينار عوضًا عما نهب من دمياط، ويطلقوا أسرى المسلمين الذين بأيديهم، ففعلوا[٤].

(١) أطلس الإسلام ٢٧٠.
(٢) حضارة العرب ١٤٦.
(٣) تحفة الناظرين ١١٦.
(٤) الخطط ٣/١٧٤.



وقد ظلت دمياط في يد الصليبيين أحد عشر شهرًا وتسعة أيام حتى تسلمها المصريون.

والعجيب أن لويس التاسع كان مشحونًا بالحقد الأسود، فقد كان مع ما لاقى من ذل الأسر يضمر الحقد على أولئك الذين منحوه الحرية، ووهبوه الحياة، فإذا به بعد أن فك أسره يكتب رسالة إلى الذين أطلقوا سراحه يشتمهم قائلاً:

ما رأيت أقل عقلاً ولا دينًا منكم!! أما قلة الدين فقتلكم سلطانكم بغير ذنب (يعني لما قتلوا توران شاه)، وأما قلة العقل، فكذا، مثلي ملك البر والبحر وقع في أيديكم بعتموه بأربعمائة ألف دينار، ولو طلبتم مملكتي دفعتها لكم حتى أخلص[1].

المهم أن المصريين انتصروا على لويس، وتسلمت شجرة الدر الأموال، وأنعمت بالوظائف السنية على الأمراء، وفرّقت الأقاطيع الثقال على المماليك البحرية، وأغدقت على الجند الأموال والخيول والمتاع، حتى أرضت الكبير والصغير منهم بكل ما يمكن، وساست الرعية أحسن سياسة.

ومن سننها التي تحمد لها أنها أول من قرر إرسال كسوة الكعبة من مصر وحدها، وكانت تُبعث قبل ذلك من أي بلد إسلامي سواء بغداد العاصمة الكبرى أو الشام أو غيرهما.

قال مجدي كامل: أول من استحدثت بدعة المحمل الشريف، وخلال حكمها سافر أول محمل في الإسلام من مصر إلى الحرمين الشريفين[2].

وقصة إرسال المحمل التي ابتدعتها شجرة الدر بعد أن استتب الأمر لزوجها الملك الصالح، ورأت أن الدنيا قد هيأت لها كل شيء، وقررت المسير إلى بيت الله في موسم عام ٦٤٥هـ، وأعدت العدة، وقررت أن تصاحب كسوة الكعبة[3] التي كانت ترسل من مصر سنويًا في قافلة مهيبة عظيمة لم يسبق لها مثيل.

---

(١) النجوم الزاهرة ٦/ ٣٦٩.

(٢) مائة امرأة ٢٨.

(٣) أول من كسا الكعبة الملك اليمني (تبع الحميري) أوائل القرن الخامس الميلادي، وتبعه خلفاؤه، حتى جاء الإسلام، فكسيت الكعبة بالقباطي، وهي ثياب بيض كانت تصنع في مصر، وجاء عمر بن الخطاب فكساها، ثم تلاه عثمان بن عفان فكساها، أما معاوية فكساها مرتين بالديباج والحرير، وأول من بعث الكسوة من مصر وقصرها عليها هو الخليفة الفاطمي المعز لدين الله بعد فتحه مصر عام ٣٦٢هـ (الموافق عام ٩٧٢م)، وكانت من حرير أحمر مزين بالجواهر الثمينة. وسار الخلفاء على ذلك حتى ابتدعت شجرة الدر رحلة (المحمل).

قال د. الخربوطلى: يبدأ تاريخ المحمل عام ٦٤٥هـ، فقد رحلت شجرة الدر زوجة السلطان الأيوبى الأخير الصالح أيوب إلى مكة لأداء فريضة الحج، وركبت هودجًا، واحتفل الناس بسفرها احتفالاً شائقًا، وأصبح ذلك سنة متبعة سنويًا.. حتى توقفت هذه العادة أخيرًا اكتفاء بإرسال الكسوة إلى الكعبة[١].

وقد سار حكام مصر بعد ذلك يرسلون الكسوة (المحمل) فى كل رمضان فى حفل مهيب لتسلم لآل شيبة فى مكة، حتى عام ١٩٦٠م فى عهد جمال عبدالناصر، وكانت كسوة الكعبة تسافر برًا على ٢٠٠ جمل من القلعة حتى مرفأ السويس، ثم تنقل إلى البحر، حتى جدة فمكة المكرمة، وكان أغلب حجاج مصر والمغرب يسافرون فى معيتها.

قال الجبرتى: ومن عادة المصريين أن يحملوا كسوة الكعبة التى تحمل كل سنة إلى البيت الحرام، ويمرون بها فى رابع عشر من شوال ـ وسط القاهرة ـ وتحمل المغاربة جانبًا منها للتبرك بها[٢].

ومن الطُرف التى ذكرتها واحدة من المستشرقين عن شجرة الدر إبان حكمها لمصر، قالت: ومع أنها كانت دائمًا تخفى نفسها وراء حجاب وستارة حريرية، فقد جلست للقضاء بين الناس فى قاعة العدل عند سفح قلعة الجبل، وقد أحاط بها كبير القضاة وفقهاء الشريعة الإسلامية كما كانت تعقد المجالس فى قاعة الأعمدة.. وكانت توجد فيها منصة عالية تعرف باسم (منصة الأميرة) كما أقامت فى القلعة جوقة موسيقية عسكرية تعزف ليلاً، وكانوا يعزفون على آلة خاصة تسمى الخليلية» تكريمًا لاسم ابنها الصغير[٣].

وكان لشجرة الدر سنة حميدة أخرى هى النظر إلى كل البلاد الإسلامية على أنها أمة واحدة، فكانت تأمر بإرسال خيرات مصر من كتان وسكر وحبوب إلى بلاد الشام التابعة لها، وتقول: إن الفرنجة لا يحاربون مصر وحدها، وإنما حربهم ضد مصر والشام وجميع بلاد المسلمين.

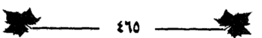
وتناقل العالم الإسلامى خبر سلطنة الملكة شجرة الدر على مصر.

---

(١) تاريخ الكعبة ١٨٠.

(٢) عجائب الآثار ١/ ٨٤.

(٣) كانت ملكة على مصر ٢٣٦.



قال جورجي زيدان: لأن الناس لم يرتاحوا إلى طاعتها، فأنفذ السوريون إلى الخليفة العباسي يستفتونه في أمر هذه الملكة[1].

لقد وصل الخبر إلى عاصمة الخلافة في زمن الخليفة المستعصم بالله[2]، وكان أمراء المماليك في مصر قد بعثوا إلى الخليفة يطلبون منه التصديق على تولية شجرة الدر، وذلك باعتبار أن مصر مازالت، تحكم ولو شكليًا باسم الخليفة في بغداد، ولما وصل الكتاب إلى المستعصم غضب، وبعث بالمكتوب المنذر إلى مصر الذي قال فيه: من بغداد إلى أمراء مصر أعلمونا إن كانَ ما بقي عندكم في مصر من الرجال من يصلح للسلطنة، فنحن نرسل إليكم من يصلح لها.

وقبل أن نروي تصرف شجرة الدر إزاء هذا الكتاب نذكر تعليقًا، جاء في كتاب مساجد مصر للدكتورة سعاد ماهر قالت: بعد أن أوردت كتاب الخليفة:.. والحقيقة أن الخليفة لم يبعث هذه الرسالة بوازع من ضميره أو بدافع ديني بل تنفيذًا لرغبة قيّمة قصر نسائه في بغداد التي أرادت أن تلبي رغبة ورجاء صديقتها المصرية (سلافة)، قيمة قصر السلطان الملك الصالح نجم الدين، وأكبر منافسة لشجر الدر في حياة السلطان، فكيف بها، وقد أصبحت مرءوسة بها بعد أن أصبحت سلطانة للمسلمين[3]..

أما زينب فواز فتذكر سببًا ثالثًا لما حدث لشجرة الدر، وغضب الخليفة عليها وعلى حكمها، قالت: ولم يوافق أهل الشام على سلطنتها، وطلبوا من الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب، فسار إلى دمشق، فملكها، فانزعج العسكر في مصر[4].

وسواء أكان سبب ثورة الخليفة الدافع الديني أو السبب النسائي أو ثورة الشام، فإننا نرى مرة أخرى شجرة الدر تتألق بكل حكمتها وفعلها، فجمعت الأمراء وكبار الدولة والقضاة، وعلى رأسهم قاضي القضاة تاج الدين[5] ابن بنت الأعز خليفة

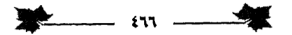
(١) تاريخ مصر الحديث ١/٣١١.

(٢) هو الخليفة الذي سقطت الخلافة العباسية في عهده في يد التتار في ٩ صفر عام ٦٥٦هـ (الموافق ١٥ فبراير عام ١٢٥٨م)، وهو آخر خليفة عباسي بعد أكثر من خمسة قرون.

(٣) مساجد مصر ٢/٢٥٩.

(٤) الدر المنثور ٢٥٥.

(٥) كان القاضي تاج الدين وزيرًا أيام الملك الكامل، ثم تولى القضاء في عهد الملك الصالح، واجتمع له من المكانة ما جعله يولي ويعزل من يختار القضاة من المذاهب الأربعة من غير مراجعة السلطان، قالوا عنه: كان آخر قضاة العدل بمصر.



القاضى العز بن عبدالسلام[1]، وكان هذا الاجتماع يوم السبت التاسع والعشرين من ربيع الآخر عام ٦٤٨هـ، ومن نتيجته أن خلعت شجرة الدر نفسها من السلطنة.

وكما قال د. حسن إبراهيم: آثرت المحافظة على كيان الدولة، وأعربت عن رغبتها فى خلع نفسها من الحكم حفظًا لكرامتها من أن تمتهن بالعزل[2].

وكان قد مضى على توليها ثلاثة أشهر عدا الأشهر الخمسة التى تولت فيها دفة الحكم من خلال اسم الملك الصالح الميت، وإن كان القلقشندى قد اعتبر توليتها بعد وفاة الملك الصالح مباشرة، قال: وملكت أم خليل شجرة الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين فى صفر عام ٦٤٨هـ، فأقامت ثمانية أشهر، ولم يملك مصر فى الإسلام امرأة غيرها[3].

وشجرة الدر ثامن من حكم من آل أيوب، وباعتزالها حكم مصر والشام طويت صفحة الدولة الأيوبية، التى ظلت من أول صلاح الدين الأيوبى أكثر من اثنتين وثمانين سنة.

وبدأت مرحلة جديدة فى حياة شجرة الدر فقد أشار القاضى تاج الدين عليها أن تتزوج بالأمير عز الدين أيبك حتى تبقى فى القلعة معززة مكرمة كما كانت أيام الملك الصالح، وأدارت شجرة الدر الأمر فى رأسها، فلتتزوج عز الدين، ويكون هو الملك الرجل الصورة، وتكون هى: الملكة فى الظل، ولكن صاحبة السلطة الحقيقية.

وإن كان هناك رأى يقول إن تنازلها كان لرغبة كبار المماليك فى مصر، قال مجدى كامل: وعقدت شجرة الدر مجلسًا لكبار رجال الدولة، واستشارتهم فى الأمر، وكان رأيهم بالإجماع هو أن تترك زمام الإدارة لعز الدين أيبك، وأن يعقد قرانه عليها عقب تنصيبه الحكم، ونزلت شجرة الدر عن الملك[4].

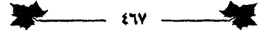
---

(١) الشيخ العز عبد العزيز بن عبد السلام ولد عام ٥٧٧هـ (الموافق ١١٨١م) فى دمشق، سلطان العلماء استقر فى مصر عام ٦٣٩هـ، وكان قاضيًا للوجه القبلى، ثم صار على قضاء مصر قاضى القضاة الشافعية، تصدى لبيع أمراء مصر، وذكر أنه لم يثبت عنده أنهم أحرار، ولا يجوز لهم تصرف فى المملكة، ثم باع الأمراء بأعلى سعر، وكان حاكم مصر آنذاك هو الملك الصالح أيوب، الذى ملأ خزانة الدولة بالمال الذى أنفق فى مصالح المسلمين، وتجهيز الجيش الزاحف إلى عين جالوت، ثم عزل نفسه بعد ذلك، وتفرغ للكتابة والتأليف، وتوفى عام ٦٦٠هـ (الموافق ١٢٦٢م).

(٢) تاريخ الإسلام ٤/ ٣٢٣.

(٣) مآثر الإنافة ٢/ ٩٤.

(٤) مائة امرأة ٢٧.



ونحن نرى أن شجرة الدر القوية العاقلة الحكيمة هى التى تخلت عن العرش لتحكم من خلف زوجها.

وتولى عز الدين أيبك[1]، وتلقب بالملك المعز فى ٢٩ من ربيع آخر عام ٦٤٨هـ (الموافق عام ١٢٥٠م).

وأصله من مماليك الملك الصالح، اشتراه وأعتقه، وصار أميرًا وقربه الصالح حتى صار (جاشنكير)[2]، وبعد مقتل توران شاه تولى مركزًا مرموقًا فى الجيش أتابك[3] العساكر، حتى اختير ملكًا على مصر والشام بعد زواجه من شجرة الدر، فتملك كل شيء، الملكة والخزائن والأموال والدولة.

* * *

(١) كان فى الثالثة والخمسين من العمر آنذاك.

(٢) الذى يتصدى لذوق المأكول والمشروب قبل السلطان خوفًا من أن يدس له السم، وهى كلمتان (جاشنا) الذوق، و(كير) المتعاطى.

(٣) وهى لفظة تركية، ومعناها أبو الأمير، قال القلقشندى فى صبح الأعشى ٤/١٨: الأتابكى من أرفع الرتب المملوكية، وليس لشاغلها عمل محدد، وقد استعملها السلاجقة بمعنى الأب للأمير.

الملكة شجرة الدر زوج الملك عز الدين

وعادت الملكة شجرة الدر مرة أخرى خلف زوجِ ملك، مثلما كانت خلف الملك الصالح، لكن شتان بين المرتين، ففى المرة الأولى كانت تحس بالولاء والامتنان والتبعية للملك الصالح، أما هذه المرة فهى الآمرة الناهية صاحبة الحول والطول، والكلمة العليا، وكثيرًا ما كانت ترد على كل تصرفاته بجملة واحدة: لولا أنا ما وصلت أنت إلى السلطة.

لقد لازمه هذا التسلط والإحساس بالدونية حتى آخر حياته.

ولم يكن تسلط شجرة الدر وحده هو العقبة فى طريق الملك المعز، إنما كانت هناك أمور أخرى وقفت عائقًا بينه وبين الفرح بكرسى الحكم، مثل عدم رضا المصريين به، فكان إذا ركب يسمعونه ما يكره.

يقول ابن إياس: يقولون له ما نريد إلا سلطانًا رئيسًا، ولد على فطرة الإسلام[1]، فكان أيبك يغدق على العوام بالعطايا الجزيلة حتى يسكتوا عنه[2].

والظاهر أنهم لم يتأثروا بعطائه الغامر، ولم يغيروا مبدأهم ورأيهم فيه، يقول ابن تغرى بردى: وأما أهل مصر فلم يرضوا بذلك إلى أن مات[3].

والأمر الثالث الذى كان سبب قلق للمعز هو تغير بعض المماليك عليه وعلى رأسهم أقطاى، وذلك لرغبتهم فى سلطنة أحد أبناء أيوب، ثم اتفاقهم على إحضار واحد من نسل صلاح الدين.

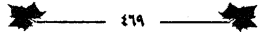
وحاول عز الدين إزالة هذه العوائق واحدًا واحدًا، فاتفق مع الأمراء على إحضار هذا الأيوبى من حماة، ولما أتى لقبوه بالملك الأشرف، وشارك عز الدين فى السلطنة، واستمر الأمر كذلك حتى قويت شوكة الملك المعز، فخلعه، وانفرد هو بالسلطنة بعد مشاركتهما سنة واحدة.

---

(١) فى النجوم مولودًا على الفطرة.

(٢) بدائع الزهور ٢٨٩/١.

(٣) النجوم الزاهرة ١٣/٧.



ثم اتجه إلى سبب آخر من أسباب تنغيصه ووقوفه حائلاً دون شعوره بالراحة، ألا وهو نده (الجمدار) الأمير فارس الدين أقطاى رئيس المماليك الذى كان يحلم ويتمنى مكان عز الدين، وهو أن يصبح سلطانًا، ويتزوج الجميلة شجرة الدر، فطالما شجعه تلاميذه على ذلك، ولما لم يتحقق هذا الأمل أخذ يتصرف ببذخ فى بيت المال، ويطلق يده فى العطاء للعام والخاص حتى كثر أتباعه ومحبوه.

ولم يصبر عز الدين أيبك على هذه الغصة، وشاركته زوجته شجرة الدر فى التفكير فى التخلص منه، واتفقا على الطريقة، ورتبا الأمر مع ثلاثة من المماليك يتولون قتله. وخاصة بعد أن تمادى أقطاى فى غيه بأن خطب بنت صاحب حماة الملك المنصور، وأراد أن يسكنها القلعة مع السلطان والسلطانة.

والأغلب أنه قرر بسكناه وعروسه فى القلعة - أن يتهيأ بذلك مع خشداشيته للوثوب على السلطة، وطلب عز الدين غريمه أقطاى ليوافيه فى القلعة فى يوم ١١ شعبان من عام ٦٥٢هـ، وجاء أقطاى، وانقض عليه المماليك الثلاثة[١] الموكلون به، وقتلوه، وأغلقت أبواب القلعة، ولكن مماليك أقطاى السبعمائة لم يسكتوا، بل أحاطوا بالقلعة شاهرى السلاح، فما كان من الملك المعز إلا أن رمى لهم برأس أقطاى، فكانت أحسم جواب، فتفرقوا وهرب أكابرهم إلى الشام، وعلى رأسهم بيبرس البندقدارى وقلاوون الألفى وسنقر الأشقر.

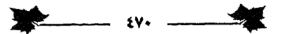
وبدا للملك المعز أيبك أنه قد تخلص من غريمه، وأن عليه أن يستقبل مرحلة جديدة من الحكم المستقر فى مصر، لكن الرياح لم تسر على هواه، فقد بقى ينغص عليه أمران، الأول: تدخل الملكة شجرة الدر فى شئون الحكم، والثانى: بعض تصرفات من بعض مساعديه زادت من سخط الشعب عليه.

فأما الأمر الأول: فقد زاد تدخل الملكة حتى عكر عليه صفو حياته، ولاسيما عندما بدأت تضغط عليه للتخلص من زوجه الأولى[٢] أم ولده علىّ، لقد كانت

---

(١) فى أغلب الأخبار: أن أحد الثلاثة سيف الدين قطز الذى تولى السلطنة بعد ذلك، ولأن بيبرس من رجال أقطاى، فقد أسر فى نفسه ما فعله قطز فى سيده، وعند عودتهم منتصرين من معركة عين جالوت عام ٦٥٨هـ انقض بيبرس على قطز، وقتله أخذًا بقصاص أقطاى.

(٢) قال جورجى زيدان فى تاريخ مصر ١/٣١٤: جعل عز الدين يبحث عن طريقة تنقذه من هذه القيود.. فادعى أنها عقيم لا يرجو لها نسلاً، فاقتنى عليها سرارى أخريات، فولدت له إحداهن ولدًا دعاه نور الدين على.. وهذا خطأ لأنه عندما تزوج شجرة الدر، كان ابنه علىّ فى الخامسة عشرة من العمر.



تريده لنفسها وحدها، ومن شدة إلحاحها ومضايقتها له اضطر أخيرًا لتطليق أم ولده، تهدئة للعاطفة الزوجية، وترضية للسلطانة شجرة الدر.

أما الأمر الثاني: فقد اختار لأول مرة وزيرًا من القبط النصارى هو: شرف الدين أبو سعيد هبة الله بن صاعد، وهى خطوة غير مسبوقة فى عصره، إنما قلد فى ذلك الحكام الفاطميين الذين بدأوا فى توزير نصارى ويهود.

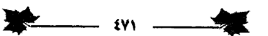
ولنا استطراد وتعليق، فهذا جورجى زيدان يقول فى ذلك الوزير: أحد كبار الأقباط، وكان قد أسلم من أيام الكامل، وترقى فى الكتابة، وكان طبيبًا للسلطان[1].

ومن ثَمَّ فالمقصود بالقبطى ليس المسيحى، وإنما المصرى.

وربما تفاءل الناس بمثل هذه الخطوة التى تعنى إشراك واحد من أقباط مصر فى جهاز الحكم، ولكن ذلك الوزير لم يكن على مستوى المسئولية ولا الوظيفة، فقد جَرَّ بلاء على الناس، وصفه المقريزى بقوله: أحدث ابن صاعد من المظالم ما لم يعهد من قبل، وأحدث مكوسًا كثيرة سماها الحقوق السلطانية[2].. وهو ما زاد من سخط الناس على المعز، فقد أراد أن يطفئ نار ثورة المصريين لكنها زادت اشتعالاً.

* * *

(١) تاريخ مصر الحديث ١/٣١٤.
(٢) الخطط ٣/١٧٥.



نهاية الملك عز الدين والملكة شجرة الدر

مرت سبع سنوات اشتد فيها عود الملك المعز أيبك فى مصر، وكثرت أمواله، وتعددت خشداشيته، والتف حوله معاونوه ومماليكه المستفيدون منه، الآكلون على مائدته، واستفحل أمره، ومهد لسلطانه بعد أن صد عن مملكته أعداءه من بقايا الدولة الأيوبية، أما داخل بيته فإن رياح الفتنة والتباعد قد زادت وعصفت، واشتدت بينه وبين الملكة شجرة الدر.

قال البصروى: تنازلت شجرة الدر عن الحكم صوريًا، وصارت تحكم باسم عز الدين أيبك من وراء الستار، واستمرت على ذلك بضع سنين، ويبدو أنها أرادت الانفراد بالحكم[1].

فعلاً لقد تغيرت على المعز، وتغير عليها، وأراد إذلالها، وفكر فى المصاهرة من كل من الملك المنصور صاحب حماة، والملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وبعث فى خطبة ابنتيهما، وسمعت شجرة الدر، وجن جنونها، وتصرفت معه تصرفات المرأة الغيرى، لا تصرفات الملكة الرزينة العاقلة، فكانت نار الغيرة ووسوسة الشيطان لها بالمرصاد، وأخذت الخيالات تتراءى لها أنه سوف يبعدها عند مجيء إحدى العروسين، وربما فكر فى قتلها، حتى ينجو من حجرها عليه، وسيطرتها التى لا حدود لها، وقررت التخلص منه، واستشارت بعض المقربين، وطلبت منهم مساعدتها.

قال ابن إياس: وكان معها فى غاية الضنك[2]. فترك لها القلعة، وسكن مناظر اللوق عند المقس، ومكث أيامًا غاضبًا، لعلها تهدأ وتعود لرشدها، وترضى بالأمر الواقع.

يقول ابن تغرى بردى: وطلبت صفى الدين بن مرزوق، وكان بمصر ووعدته بالوزارة، فأنكر عليها، ونهاها عن ذلك، فلم تصغ لقوله[3].

---

(١) تاريخ البصروى ١٣.

(٢) بدائع الزهور ١/٢٩٣.

(٣) النجوم ٦/٣٧٥، ذكر ابن تغرى بردى هذا الاسم دون تعريف به.

وظلت على هذه الحال من التوتر والقلق والتقدم والإحجام، حتى استقر أمرها على تنفيذ ما سولت لها نفسها.

يقول ابن إياس: وكانت شجرة الدر تظن أن الأمر الذى هى فيه يتم لها، ولو راح أيبك، وهذا عين الغلط، ولكن النساء ناقصات عقول، وقد طاشت بما وقع لها[١].

وقد اختلف المؤرخون فى طريقة قتله، إلا أنهم اتفقوا على يوم وفاته، وهو يوم ٢٥ من ربيع أول عام ٦٥٥هـ (الموافق عام ١٢٥٨م)، وقد بعثت الملكة شجرة الدر قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز إلى المعز، فتلطف معه، وترضاه حتى عاد إلى القلعة، وتصالحا، ثم دخل الحمام، فدخل عليه الخدام، فقتلوه خنقًا، وهو يصرخ، ويستجير بها.

قال ابن إياس: وفى ليلة الأربعاء ٢٥ ربيع أول عام ٦٥٥هـ ندبت له شجرة الدر خمسة من الخدام الروم، وقالت لهم: إذا دخل الحمام، اقتلوه به[٢].

أما رواية ابن كثير، فتقول: فأمرت جواريها أن يمسكنه لها، فمازالت تضربه بقباقيبها حتى مات، وهو كذلك[٣].

وقال ابن العماد: وعزمت على الفتك به، واتفقت مع جماعة من الخدم، ووعدتهم بأموال عظيمة، فركب المعز للعب الكرة، وجاء تعبان، فدخل الحمام يغتسل، فلما صار عريان، رمته الخدم على الأرض، وخنقوه ليلاً[٤].

أما ابن خلدون فقد سمى الخدم القتلة، وقال: وأغرت به جماعة من الخصيان، منهم محسن الخزرى وسنجر العزيزى والجوجرى، فبيتوه فى الحمام بقصره، وقتلوه عام ٦٥٥هـ[٥].

ولما ذاع خبر مقتل الملك المعز[٦]، حدثت فتنة، واختير على بن المعز[٧] ملكًا على مصر، ولقب بالمنصور، وأفاقت الملكة شجرة الدر بعد فعلتها، فهربت

---

(١) بدائع الزهور ١/٢٩٣.
(٢) المرجع السابق ١/٢٩٣.
(٣) البداية والنهاية ١٣/١٩٦.
(٤) شذرات الذهب ٥/٢٦٨.
(٥) ابن خلدون ٥/٨١٥.
(٦) دفن فى القرافة الصغرى بالمقطم، وكانت مدة تملكه ٧ سنين.
(٧) كان فى العشرين من عمره.



وتحصنت بدار السلطة مع من قتل زوجها، وانقسَمَ المماليك إلى قسمين: المماليك الصالحية الذين وقفوا بينها وبين المماليك المعزية حماية لها، ودفاعًا عنها، فهى خشداشتهم.

وفى يوم ٢٩ ربيع أول أمنها المماليك المعزية، وأقسموا أنهم لن يتعرضوا لها بسوء، ثم أخرجوها من دار السلطنة، وحبسوها فى برج من أبراج القلعة تجاه جبل المقطم اسمه: البرج الأحمر، وحبسوا معها بعض جواريها.

أما من شارك فى قتل المعز من الخدم، فقد قبض عليهم، وقتلوا صلبًا.

وظلت شجرة الدر فى محبسها فى البرج لاختلاف رأى أولى الأمر على مصيرها.

قال ابن تغرى بردى: الملك المنصور علىّ ووالدته يحرضان المعزية على قتلها، والمماليك الصالحية تمنعهم عنها لكونها جارية أستاذهم[١].

لكن لم يمنع حذر المماليك الصالحية من القدر ومن قوة السلطة الحاكمة، ففى يوم ١١ من ربيع آخر عام ٦٥٥هـ[٢] (الموافق عام ١٢٥٨م)، وبعد عشرين يومًا تقريبًا من مقتل الملك المعز، أقبل الملك المنصور ومماليكه بصحبة مملوكه الأكبر قطز، وقبضوا على شجرة الدر، وسلموها إلى أم علىّ ضرتها، فأمرت جواريها أن يقتلنها بالقباقيب، ثم سحبوها ورموا بها من أعلى القلعة إلى الخندق.

يقول ابن إياس: رموا بها وهى عريانة، وليس فى وسطها غير اللباس فقط، فاستمرت مرمية فى الخندق ثلاثة أيام لم تدفن، وقيل إن بعض الحرافيش نزل تحت الليل إلى الخندق وقطع تكة لباسها، وكان فيها كرة لؤلؤ، ونافحة مسك[٣]، فسبحان من يعز ويذل، ثم بعد ثلاثة أيام حملت إلى المدرسة التى بجوار بيت الخليفة، فدفنت بها[٤].

وقد اختلف فى مكان دفنها، فابن العماد يقول: .. وقتلت وألقيت تحت القلعة مسلوبة، ولم يُدر قاتلها، ثم دفنت بتربتها[٥].

---

(١) النجوم الزاهرة ٣٧٨/٦.

(٢) جاء فى بعض المراجع أن قتلها كان يوم الثلاثاء ٢٥ ربيع آخر، أى بعد شهر من مقتل زوجها، والله أعلم.

(٣) وعاء المسك فى جسم الظبى. (الوسيط).

(٤) بدائع الزهور ٢٩٥/١.

(٥) شذرات الذهب ٢٦٨/٥.



قال رضا كحالة: ووجدت مقتولة مسلوبة خارج القلعة يوم السبت ١١ ربيع الآخر، فحملت إلى التربة التى كانت بنتها بقرب مشهد السيدة نفيسة، فدفنت بها[١].

أما د. سعاد ماهر فتنفى دفنها فى تربتها، وتقول: بنت شجرة الدر ضريحها قبل وفاتها ببضع سنوات، وكتبت عليه بعض ألقابها ـ (عصمة الدنيا والدين) ـ ولكنَّ قتلها على تلك الصورة البشعة منع دفنها فى ضريحها العظيم[٢].

وكانت الملكة شجرة الدر قد بنت عام ٦٤٨هـ مدرسة بشارع الخليفة التى تحولت بعد ذلك إلى جامع الخليفة، كما بنت لها تربة بجوار المدرسة، والضريح والمدرسة بجوار مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها.

وصدق ابن كثير القائل: وذهبت فلا تعرف بعد ذلك بعينها ولا رسمها: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾[٣]. [آل عمران: ٢٦].

وقبل أن نختم قصة شجرة الدر لابد أن نشير إلى نقطة هامة ألا وهى موقف المماليك الرائع الشجاع، ومعهم شجرة الدر تجاه أعداء الشمال من الصليبيين وأعداء الشرق من التتار، ويكفيهم فخرًا أنه بقيادتهم وبالجنود المصريين استطاعوا أن يقطعوا دابر الصليبيين الذين عاثوا فى المشرق المسلم فسادًا لقرابة قرن من الزمان.

كذلك ردهم للتتار عن بيضة الإسلام مصر، بعد أن اكتسحوا جميع بلاد الإسلام، وقضوا على الخلافة الإسلامية فى بغداد بعد خمسة قرون من تولى خلفاء بنى العباس حكم العالم الإسلامى.

وانتصر سيف الدين قطز على هولاكو فى معركة عين جالوت الشهيرة فى رمضان عام ٦٥٨هـ.

وهذا صاحب كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين يمدحه بأبيات منها:

---

(١) أعلام النساء ٢/ ٢٩٠.

(٢) مساجد مصر ٢/ ٢٦٢.

(٣) البداية والنهاية ١٣/ ١٩٦.



غلب التتارُ على البلادِ فجاءهم

من مصر تركيٌّ يجود بنفسِهِ

بالشام أهلكهم وبدّدَ جنسهم

ولكل شيء آفةٌ من جنسِهِ[1]

* * *

(١) تاريخ البصروى ٦.



خاتمة

هذه هي قصة شجرة الدر المرأة الفريدة التي لم يعرف لها نظير في تاريخ تلك القرون، وعلى الرغم من الأحداث المتضاربة التي شهدت قتل مجموعة من الرجال المتصارعين على السلطة، فإن ذلك لا يطمس جوهر موقفها، وهو موقف يتحدث عن نفسه في كل الأزمنة.

ومن ناحية أخرى فإن اضطراب الأحوال في تلك الفترة منذ تخلت عن السلطنة إلى أن ماتت على هذه الصورة، ثم ما كان بعد ذلك من تناقل السلطة بين أقدام اللاعبين بها من المغامرين والمماليك كل ذلك لم يحل دون تسجيل ذلك النصر الكاسح[1] على التتار بقيادة رمز من رموز تلك المرحلة المضطربة، وهو الملك المظفر قطز. إن معنى ذلك أن الفساد في قمة السلطة في ذلك الوقت لم تصل آثاره إلى بنية الأمة، فحين دعا داعي الجهاد تحركت كل القوى من مصريين ومماليك في وحدة قوية استطاعت أن تنزل أول هزيمة منكرة بجيوش التتار، وأن تدحر جموعهم الهمجية، وبذلك سلمت مصر مما سبق أن تعرضت له بغداد حين اكتسحها التتار، فدمروها وأحرقوها.

ولاشك أن الذي دفع المصريين إلى هذه الوقفة الصامدة أمام التتار إنما هو قرب عهدهم بوقفتهم التاريخية أمام الصليبيين، وانتصارهم على لويس التاسع في معركة المنصورة بقيادة السلطانة شجرة الدر، وهو نصر يسجل لها رغم تعدد الشخوص التي كانت على مسرح الأحداث في ذلكم الزمان.

ولم نجد ختامًا أجمل مما كتبته المستشرقة ونفرد هلمز في نهاية قصتها عن شجرة الدر، قالت: ولكن بالرغم من أن مطلقة أيبك قد قتلت جسدها، فإنها لم تستطع أن تقتل شهرتها، ومن الممكن زيارة مقبرتها الفاخرة التي تشبه اللؤلؤة في جمالها بين مقابر المماليك تحت القلعة.. وعندما تزهر أشجار نار الغابة المزروعة على جانبي الشارع الموجود في القاهرة[2] والمسمى باسمها، وتبدو كشعلة مضيئة ذات لون برتقالي أحمر، فإن قِصر وقت تزهيرها البديع مناسب كل المناسبة لحياتها القصيرة، وقصتها النضرة[3].

رحم الله شجرة الدر.

---

(١) معركة عين جالوت.

(٢) في حي الزمالك.

(٣) كانت ملكة على مصر ص ٢٣٨.





١٢

ممتاز محل

(زوج شاه جهان)



تمهيد

هذه الحلقة من هذه السلسلة عن (ممتاز خاتون) أو (ممتاز محل)، وهى ملكة هندية مسلمة، وقد بدأت رحلة زوجها فى مجال الحكم فى الهند، فى العقد الثالث من القرن الحادى عشر الهجرى.

وقد يشير هذا الواقع التاريخى والحضارى الذى كان سائدًا فى العالم الإسلامى فى ذلك القرن الحادى عشر الهجرى، إلى وجود بارز فى مجال السياسة والحكم، بعيدًا عن هيمنة الدولة العثمانية، التى كانت مسيطرة على جزء كبير من العالم الإسلامى.

والواقع أن المتطلع إلى سماء التاريخ فى آسيا فى ذلك العهد لم يكن ليرى سوى الإسلام وصولجانه، وكانت الهند آنذاك قسمًا من الأرض المأهولة بالبشر، وكان الإسلام هو النظام الحاكم الوحيد، الذى يملك الكلمة فى الهند، منذ فتحها البطل المسلم الخالد محمد بن القاسم فى عهد الدولة الأموية.

إننا نستطيع أن نقرر مطمئنين: أن الإسلام هو الذى أوجد الهند على الخريطة، ومنحها وجودها المؤثر، ولو كانت الأقدار قد سارت على نفس الوتيرة لعم الإسلام فى كل الأراضى الهندية، ولاختفت الوثنية الهندوكية من الوجود، ولكنها إرادة الله الذى أراد الخليقة أممًا شتى، ﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

وها نحن أولاء نرى ونتحسر، أن تضم أرض الهند تلك الوثنيات الهائلة من عبدة البقر والنجوم، والجنس والأصنام، وكل ذلك فى كيان دولة واحدة يعيش بها (٨٠٠) مليون وثنى، على حين أن المسلمين الذين تميزوا فى التاريخ بكونهم أمة واحدة ـ أصبحوا مقسمين إلى ثلاثة كيانات واهية، كيان الأقلية المسلمة فى الهند (٢٠٠) مليون، وكيان البنجلاديش الدولة الإسلامية الضعيفة تحت ظل المارد الهندى الذى بترها عن جسد الباكستان الكبرى، وكيان الباكستان التى تحاول تأكيد هويتها الإسلامية ومهابتها الإقليمية.

فإذا تخيلت أن هذه الكيانات الثلاثة مضافًا إليها مسلمو أفغانستان وكشمير، وأجزاء من مسلمي آسيا - كانوا جميعًا يدًا واحدةً، وإمبراطوريةً واحدةً، أدركت لماذا نتحسر على الماضي الذي كان بوسعه أن يصنع حاضرًا أعظم قوة وازدهارًا!!

ونعود إلى ممتاز خاتون أو ممتاز محل، وهي الملكة الأعجوبة، التي ماتت دون الأربعين، ومع ذلك كان لها وراء الأحداث دور شرفت به كل النساء في عصرها، وفي كل عصور الإسلام.. يكفي معرفتها بدورها - باعتبارها امرأة لم يصرفها موقعها الإمبراطوري عن مهمة الإنجاب، فحملت أربع عشرة مرة، وأنجبت ثلاثة عشر طفلاً، وماتت في الرابع عشر، شهيدة الإخلاص لرسالتها النسوية، ومع أن عمرها الملكي كان حافلاً بأحداث الإنجاب، فإنها لم تكن تتأخر عن مصاحبة زوجها شاه جهان في حروبه وغزواته.. إيمانًا منها برسالة الجهاد في سبيل الله من وجهٍ، ومن وجه آخر لقد كان الزوجان يعيشان حالة من العشق الدائم، دوام الأنفاس، وكانا لا يتصوران أن تمر بهما لحظة دون تنفس هذا العشق، في ليل أو في نهار، في سلم أو في حرب، حتى إذا شاء الله للعاشقين أن يفترقا، كان الافتراق على وعد اللقاء بصورة رومانسية لم نعهدها بين المتحابين المتعاشقين.

لقد كانا يتربعان على عرش الحب، ويحكمان إمبراطوريته، إلى جانب ما نهضا به من أعباء حكم شبه القارة الهندية، ولقد بلغا غاية النجاح في المهمة الأولى، ولولا أن إرادة الله قد مضت بألا يجعل لرجل من قلبين في جوفه لبلغا غاية التوفيق في المهمة الثانية..

وقد كان أول الوهن وآخره في تاريخهما وتاريخ دولتهما أنهما - رغم قدرتهما على إدارة الإمبراطورية التي ورثاها عن الأباطرة السابقين - لم يكونا، شأنهما شأن أسلافهما، على وعي كامل بحركة المتآمر الأوربي التي كانت تستهدف السيطرة على شبه القارة، وإزالة الإمبراطورية الإسلامية، وكان العدو الظاهر على المسرح متمثلاً في غارات الهولنديين والبرتغاليين، وهم يمثلون اتجاه أوربا إلى تصفية الهيمنة الإسلامية في البلاد الآسيوية بعد أن فشلت محاولتها ضرب الإسلام في الشرق من خلال الحروب الصليبية، التي انتهت في

منتصف القرن الثالث عشر الميلادى تقريبًا، فاستدارت القوى الأوربية المندحرة صوب الشعوب الإسلامية فى آسيا، وبخاصة بعد أن أصبح للإسلام بأس شديد فى أوربا، بعد فتح العثمانيين للقسطنطينية عام ١٤٥٣م (منتصف القرن الخامس عشر).

وسيجد القارئ أن الزوجين خاضا معارك مريرة ضد الأعداء الأوربيين، كان آخرها فى قصتنا هذه، المعركة التى ماتت خلالها ممتاز خاتون.

لقد قلنا: إنهما وأسلافهما من الأباطرة لم يكونوا على وعى كامل بحركة التآمر الأوربى، وكانوا يعتقدون أن العدو منحصر فى قوى العدوان البرتغالى والهولندى، ولم يكونوا يتصورون أن الصراع هو صراع بين الشرق والغرب، أى: إن كل غربى يفكر فى القضاء على كل شرقى مسلم، واقتناص حياته، وثروته، ولذلك لم يلتفتوا إلى خطورة الطلب الذى أرسله الملك جيمس الأول، ملك إنجلترا، فى شخص السياسى الإنجليزى السير توماس راو، الذى وفد إلى بلاط السلطان جهانكير عام ١٦١٥ م يطلب منح إنجلترا حقوقًا تجارية فى الهند، فاعتذر السلطان جهانكير وقتذاك خوفًا من سيطرة الهولنديين على البحار فى المحيط الهندى.

ثم حدث بعد ذلك أن استجاب جهانكير لإلحاح الإنجلين، بعد أن شهد بنفسه صعوبة منع السفن الإنجليزية عن سواحل الهند للتجارة والاستعمار، وهذه هى بداية دخول شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى ميدان التجارة بالهند والشرق الأقصى، بعد أن حصلت من حكومتها على امتياز بذلك.

وما لبث النفوذ الإنجليزى أن تغلغل فى المقاطعات، فى حركة موازية لضعف السلاطين الذين جاءوا فيما بعد مرحلة (شاه جهان وممتاز خاتون)، إلى أن تم دخول إنجلترا إلى الهند مستعمرة فى مارس عام ١٨٥٨م وبذلك قضوا على الحكم الإسلامى، ويعتبر الانقسام فى شبه القارة الهندية الذى نشهده الآن من صنيع الاستعمار الإنجليزى الحاقد على الإسلام والمسلمين.

وبرغم هذا فقد ظلت المرحلة التى حكم فيها شاه جهان، وممتاز خاتون متميزة بكل ما تضمنته قصتهما من ملامح وآثار.



لقد تركا الدنيا لمن جاء بعدهما من أبناء وحفدة، وقنعا بما دوناه فى صفحات التاريخ: أسطورة الحب النقى الصافى، بين زوجين، قل أن يعرف الزمان لهما مثيلاً.. وسيرة هذه المرأة من أجمل القصص التى جاءتنا من بلاد العجائب والمفارقات، بلاد الهند والسند[1]، أو شبه القارة الهندية التى تتكون الآن من ثلاث دول كبيرة هى: الهند[2] وباكستان[3] وبنجلاديش[4]، وسنحاول قبل أن نتطرق إلى سيرتها أن نعطى القارئ فكرة عن رحلة الإسلام إلى تلك البقاع وتغلغله فى أنحائها.

* * *

(١) السند جزء من شبه القارة الهندية، ويقع ناحية الغرب، يطل على بحر العرب وحدود بلاد الأفغان. (الأطلس الإسلامى). وبه نهر السند الذى سماه العرب (نهر مهران).

(٢) استقلت الهند عن إنجلترا فى ١٥ أغسطس ١٩٤٧م.

(٣) استقلت عن الهند عام ١٩٤٧م.

(٤) انفصلت عن باكستان عام ١٩٧١م.

الإسلام فى الهند

دخل الإسلام الهند قديمًا فى السنوات العشر الأولى من الهجرة عن طريق التجار المسلمين، لأن التجارة كانت رائجة من قديم الزمن بين الشرق والغرب، وكان التجار يواصلون رحلتهم الشتوية من اليمن إلى سواحل الهند.

قال د.حسونة: كان العرب يجلبون نفائس الهند من الحرير واللؤلؤ والجواهر والياقوت والقرفة والتوابل والفلفل والزنجبيل والقرنفل وجوز الطيب وصمغ الملك المعروف اليوم باسم (جو مالكة)[1].

وكان من أثر دخول المسلمين التجار الهند قديمًا أن بنى بها مساجد حتى قيل: بُنى فى كيرالا[2] إحدى ولايات الهند أول مسجد فى السنة الخامسة للهجرة، أى: قبل مساجد الإسلام الأولى فى مصر والكوفة والبصرة.

ويقول د. حسين مؤنس: وصل الإسلام عن طريق التجار، ولم يكونوا عربًا أو فرسًا فقط، بل هنودًا أيضًا، فالتامول[3] هنود مسلمون أهل سنة، وهم أهل رحلة وأصحاب متاجر، ولعل هذا هو السبب فى إسلامهم فقد اتصلوا بالعرب[4].

وفى العقد التاسع من القرن الأول الهجرى، وفى عهد الخليفة الأموى الوليد ابن عبد الملك[5] دخل الإسلام رسميًا الهند عن طريق الفتح والصلح، وكان صاحب الفكرة الحجاج بن يوسف الثقفى[6] الوالى على العراق، الذى جاء إلى

---

(١) الجغرافيا التاريخية الإسلامية ١٠٤.

(٢) مدينة تقع فى وسط الهند.

(٣) يقال لهم التاميل الآن.

(٤) الإسلام الفاتح ٣٦.

(٥) الوليد بن عبد الملك بن مروان، ولد عام ٤٨ هـ (الموافق ٦٦٨م)، تولى الخلافة بعد وفاة أبيه عام ٨٦هـ (الموافق ٧٠٤م)، بلغت الجيوش المسلمة فى عهده إلى القوقاز والمغرب وأوربا، وفتح قتيبة بن مسلم بخارى وسمرقند وخوارزم وفرغانة وطشقند، وفتح محمد بن القاسم الهند، وفتح طارق بن زياد وموسى ابن نصير الأندلس، شيد الوليد المسجد الأقصى فى القدس والجامع الأموى فى دمشق، توفى بها فى جمادى الآخرة ٩٦هـ (فبراير ٧١٥).

(٦) الحجاج وال وخطيب، ولد بالطائف عام ٤٠ هـ (الموافق ٦٦٠ م)، كان قائدًا للخليفة عبد الملك بن مروان ثم لابنه الوليد، أدخل عدة إصلاحات فى نظم النقد والمقاييس والضرائب والزراعة، أحل اللغة العربية محل غيرها من اللغات فى الدواوين، وعهد إلى نصر بن عاصم بضبط القرآن الكريم، توفى بواسط فى رمضان ٩٥ هـ (الموافق مايو ٧١٤ م).

دمشق، وعرض على الخليفة الوليد بن عبد الملك أن يغزو الهند بعد أن استفحل أمر القراصنة بغاراتهم على طريق التجارة، وعلى حدود البلاد الإسلامية جهة الخليج الفارسى والمحيط الهندى، واستجاب[1] الوليد بسرعة وجهز جيشًا، ووضع على رأسه القائد الشاب ابن أخى الحجاج وصهره محمد بن القاسم الثقفى[2]، الذى لم يتعد الثامنة عشرة من عمره، وذلك فى عام ٨٩ هـ (الموافق ٧١٠ م).

وخرج القائد محمد بن القاسم برًا وبحرًا والتقى بملك السند المدعو داهر، ودارت معركة كبيرة، وكانت الفيلة هى عماد الجيش الهندى، وانتصر بعدها المسلمون، وواصلوا السير فى بلاد الهند حتى وصلوا إلى كشمير[3].

وكان لهذا القائد الصغير مواقف كثيرة، فمثلاً عندما فتح (كراتشى) أو الديبل، قال د. حسين مؤنس: هدم البد[4] الكبير، وكل بد آخر، والبد[5] كل تمثال أو معبد لبوذا، ثم حول الديبل[6] - كراتشى - إلى مدينة إسلامية، وأزال كل آثار البوذية منها، وبنى بها المساجد، وأسكنها ٤٠٠٠ مسلم[7].

---

(١) ذكر د. السيد سالم القصة التى جعلت الخليفة يستجيب لطلب الحجاج، قال: تعرضت سفينة تجارية كانت قادمة من جزيرة الياقوت (سيلان)، وعليها بنات لتجار مسلمين مات آباؤهن هناك، يحملن هدية إلى الخليفة، تعرضت هذه السفينة لاعتداء قراصنة من الديبل، استولوا على السفينة بما عليها، وأسروا النساء، فأرسل الحجاج إلى داهر ملك السند يطلب منه تخليص نساء المسلمين من الأسر، فاعتذر داهر بعدم قدرته على هؤلاء القراصنة. (تاريخ الدولة العربية ٢/٣٥٨).

(٢) محمد بن القاسم فاتح الهند، ولد عام ٦٢ هـ (الموافق ٦٨١م)، من كبار القواد فى العهد المروانى، كان أبوه والى البصرة للحجاج، ثم ولاه عمه ثغر السند وعمره ١٨ سنة أيام الوليد بن عبد الملك، بعث إليه الحجاج جيشًا فى ستة آلاف فتح به مكران وقنزبور والديبل (كراتشى) والبيرون، وبسط يده على الهند حتى مات الحجاج والوليد، وكان الخليفة سليمان يكره الحجاج، فنكب عماله وأقرباءه، وعزل محمد بن القاسم، ثم قتله بعد ذلك عام ٩٨ هـ (الموافق ٧١٧م).

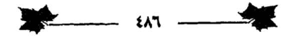
(٣) ولاية هندية تحول أغلب سكانها للإسلام فى القرن الرابع عشر الميلادى، ضمتها الهند إليها رسميًا عام ١٩٥٧م، وما زال هناك صراع بين الهند وباكستان عليها، مع أن سكانها المسلمين يمثلون ٧٥٪ منها، وما زالوا يناضلون من أجل الاستقلال.

(٤) البد: الصنم مركوز فى بناء، وعليه دقل، أى: منارة، وبيت الأصنام اسمه: بدخانة.

(٥) قال البلاذرى: البد صنم كبير تُهدى إليه الأموال، وتنذر له النذور، ويحج إليه أهل السند، فيطوفون به، ويحلقون رءوسهم ولحاهم عنده، ويزعمون أن صنمًا فيه هو أيوب عليه السلام. (فتوح البلدان ٤٥٠).

(٦) قال د. حسونة: خرائب الديبل تقع الآن إلى الجنوب الشرقى من كراتشى على نحو ٧٧ كم. (الجغرافيا التاريخية الإسلامية ١٠٥).

(٧) أطلس الإسلام ١٣٢.



وعلق البلاذرى على هذا النصر، قال: كان داهر ملك الهند على فيل ومعه التكاكرة، فاقتتلوا قتالاً شديدًا لم يسمع بمثله، فنزل داهر، وقاتل، فقتل عند المساء.. ولما قتل داهر غلب محمد بن القاسم على بلاد السند[1].

وكانت الأموال التى حصلوا عليها كثيرة، حتى إن الخمس أو الزكاة على الأنفال كانت ١٢٠ ألف ألف كما قال ابن خلدون.

أما البلاذرى فقد قال: نظر الحجاج، فإذا هو قد أنفق على محمد بن القاسم ستين ألف ألف، ووجد ما حمل إليه مائة وعشرون ألف ألف، فقال: شفينا غيظنا، وأدركنا ثأرنا، وازددنا ستين ألف ألف درهم، ورأس داهر[2].

وفى عهد هشام بن عبد الملك[3] تم فتح كشمير والبنجاب[4]، وظلت الهند تحت الحكم الإسلامى فى دمشق، وعليها حاكم من قبل الخليفة، ويدفع أهلها الجزية للسلطة المركزية فى الشام.

وجاء الخليفة عمر بن عبد العزيز[5] فغير نظام الحكم بها، وجعل الهند إمارة مستقلة، يتوارث أمراؤها فيها الحكم، ولا سلطان للخليفة الأموى عليها إلا بذكر اسمه والدعاء له فى الخطبة (وهو شىء أشبه بالحكم الذاتى المعروف فى عصرنا).

وكانت الإمارات الإسلامية التى قامت فى الهند يحكمها أمراء مسلمون، من عنصر هندى، أو مسلمون من الجزيرة العربية الذين استوطنوا الهند بعد فتحها.

لقد تمكن الإسلام من نفوس ملوك الهند فى القرون الأولى من دخولهم فى الإسلام، جاء فى كتاب التحف والذخائر أن ملك الهند المسلم (دهمى)[6] بعث إلى المأمون الخليفة[7] السادس العباسى بهدية، ومعه كتاب فيه:

---

(١) فتوح البلدان ٤٢٣.

(٢) السابق.

(٣) هشام بن عبد الملك، ولد عام ٧١ هـ (الموافق ٦٩٠م) بدمشق، بويع له بعد وفاة أخيه يزيد فى شعبان ١٠٥ هـ (الموافق عام ٧٢٣م)، توفى عام ١٢٥ هـ (الموافق ٧٤٣م).

(٤) إقليم غربى الهند، قسم بين الهند وباكستان، يقع بين نهرى السند وجمنا.

(٥) ثامن خلفاء بنى أمية، ولد عام ٦٣ هـ (الموافق ٦٨٢م) فى مصر، أعاد أموال بنى أمية كلها إلى بيت المال، لم يأخذ منه شيئًا، توفى فى رجب عام ١٠١ هـ (الموافق ٧١٩م).

(٦) يقال هو ملك شرق باكستان (بنغال)، والأغلب أنه ملك السند.

(٧) تولى الخلافة سنة ١٩٨هـ: سنة ٢١٨هـ.



بسم الله الرحمن الرحيم، من دهمى ملك الهند وعظيم أركان المشرق وصاحب بيت الذهب ـ ثم أخذ يعدد بعض صفاته وممتلكاته حتى قال: أما بعد فإنه لم يذهب علينا أن ما تقدم من ذكر يأيها الأخ فيما انتسبنا إليه من الشرف وعلو الحال غير طائل لزواله، وأنه كان الأولى بنا أن نبتدئ بذكر الله تعالى جلَّ اسمه، غير أنّا أجللناه عن أن نبتدئ بذكره إلا فى مواضع المناجاة له عابدين[1]... ثم أكمل كتابه..

لقد انتشر الإسلام فى الهند انتشارًا سريعًا مع ما قابله من صعوبات ومشقات، يقول المستشرق جستاف ليبون عام ١٨٨٤م: بلغ القرآن من الانتشار فى الهند التى لم يكن العرب فيها غير عابرى سبيل، ما زاد معه عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها، ويزيد عدد مسلمى الهند يومًا فيومًا مع أن الإنجليز الذين هم سادة الهند فى الوقت الحاضر يجهزون البعثات التبشيرية، ويرسلونها تباعًا إلى الهند لتنصير مسلميها على غير جدوى[2].

وقد لوحظ دائمًا أن قوة المسلمين فى الشرق العربى كان يصحبها دائمًا قوتهم فى بلاد جنوب شرقى آسيا (الهند) والعكس أيضًا صحيح، فضعف الإسلام فى بلاد الخلافة الإسلامية كان يستتبع بالضرورة ضعف سيطرة الإسلام على بلاد الهند وما وراءها.

لقد تتابعت دول عديدة على حكم الهند منذ نهاية القرن الثانى الهجرى، فمثلاً أسس الفضل بن ماهان الدولة الماهانية عام ١٩٨هـ (الموافق ٨١٣م)، ثم تلتها الدولة الهبارية عام ٢٤٠هـ (الموافق ٨٥٤م)، والدولة السامية عام ٢٧٩هـ (الموافق ٨٩٢م) وكان الفكر الشيعى قد ظهر فى مطلع الخلافة العباسية، لكن لم تصبح لهم دولة إلا فى حوالى عام ٣٧٥هـ (الموافق ٩٨٥م) بعد قيام الدولة الفاطمية الشيعية فى مصر، ٣٥٨هـ (الموافق ٩٦٩م) حيث استطاع الإسماعيلية[3] إسقاط الدولة السامية وتأسيس دولتهم الباطنية.

---

(١) الذخائر والتحف ٢٨.

(٢) حضارة العرب ١٢٨.

(٣) إحدى الفرق الشيعية، تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، الذى توفى قبل أبيه، وفى رواية أن جعفر الصادق حرم ولده إسماعيل الإمامة لأنه كان يشرب الخمر، وكان صديقًا لأبى الخطاب الأسدى الملحد الذى ادعى ألوهية جعفر الصادق، وهكذا بدأت دعوة الإسماعيلية محوطة بالشكوك، مما جعلهم مستترين. والفاطميون من الطائفة الإسماعيلية. (انظر دائرة معارف سفير).

ثم ظهر البطل محمود الغزنوى[1] الذى اتجه إلى الهند بقصد نشر الإسلام فى بقية ربوعها، وكانت أول غزوة له فى شهر المحرم[2] عام ٣٩٢هـ (الموافق نوفمبر ١٠٠١م)، وتوالت الغزوات حتى كانت آخر غزوة عام ٤٢١هـ (الموافق ١٠٣٠م).

يقول الأستاذ محمد حسونة: اقتحم محمود الغزنوى الهند سبع عشرة مرة فى غضون خمس وعشرين سنة، وفى عام ١٠٣٠م تم امتلاك الجزء الغربى من البنجاب، واتخذ لاهور عاصمة له[3].

وفى إحدى غزواته عام ٤١٦هـ (الموافق ١٠٢٥م) دخل معبد (سومنات) أعظم مقدسات الهنادكة، و(سومنات) تطل على المحيط الهندى مقابل بونباى، وبعد الفتح أخذ بوابة المعبد معه إلى عاصمة ممالكه (غزنة).

قال الأستاذ أحمد عطية الله: أعيدت البوابة إلى مكانها عام ١٨٤٢م، كما أعيد بناء المعبد بعد استقلال الهند عام ١٩٤٧م[4].

ومن أفضال الغزنوى وأولاده على الهند أنهم ساعدوا على نشر الإسلام فى شبه القارة، ووضعوا الأساس لقيام دولة موحدة بدلاً من الإمارات المتعددة.

قال د. أحمد شلبى: وقد اهتم الغزنويون اهتمامًا كبيرًا بنشر الإسلام بالهند، وكان محمود الغزنوى[5] يعد نفسه داعية إسلاميًا، وعندما سأله مندوب أحد ملوك الهندوس السؤال التالى: أى رجل أنت؟ كانت إجابته: إنى رجل أدعو إلى الله، وأجاهد من خالف دين الإسلام من عبدة الأوثان[6].

وحكم آل الغزنوى قرابة القرنين، فتحوا أثناءها أبواب هذه البلاد الواسعة أمام الإسلام، فوجد ميدانًا فسيحًا خصبًا انتشر فيه، وأزال الديانات الوثنية والهندوسية فى معظم نواحى الهند، حتى أصبح هو الديانة الغالبة على النواحى

---

(١) الغزنوى: هو محمود بن سبكتكين الغزنوى، ولد بغزنة بأفغانستان عام ٩٧٠م، وتوفى عام ١٠٣٠م، كان جده قائدًا فى جيش السامانيين، فتح بخارى ثم استولى على البنجاب.

(٢) جاء فى بعض الأخبار: كانت أول غزوة عام ٣٩١هـ (الموافق ١٠٠٠م).

(٣) الجغرافية التاريخية الإسلامية ١٠٥. ولاهور عاصمة الهند، لأن عاصمة مملكة الغزنوى فى أفغانستان كانت (غزنة).

(٤) حوليات الإسلام ٤٨٧.

(٥) استمر فى الحكم ٣٤ سنة.

(٦) موسوعة التاريخ الإسلامى ٢٧٧/٨.

الشمالية والوسطى من الهند، ثم دالت دولة الغزنويين، وجاء بعدهم الغوريون[1]، ولكنهم مكثوا وقتًا قصيرًا، وفى عهدهم فتحت مدينة دلهى[2].

قال الرحالة ابن بطوطة: افتتحت مدينة دلهى من أيدى الكفار فى عام ٥٨٤هـ، وقد قرأت أنا ذلك مكتوبًا على محراب الجامع الأعظم بها.. وفاتحها هو أحد مماليك السلطان المعظم شهاب الدين محمد الغورى ملك غزنة وخراسان المتغلب على ملك إبراهيم بن السلطان الغازى محمود بن سبكتكين الذى ابتدأ فتح الهند[3].

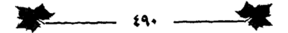
ثم جاءت خمس أسر مسلمة بعد الغوريين حكمت الهند لأكثر من ثلاثة قرون من (٦٠٢: ٩٣٢هـ/ ١٢٠٦: ١٥٢٦م).

* * *

(١) هم من التركمان فى بلاد ما وراء النهر جاء فى التاريخ أنه فى سنة ٣٤٩هـ أسلم مائتى ألف أسرة من الترك الوثنيين فسموا (ترك إيمان) ثم اختصر اللفظ فقالوا: (تركمان).

(٢) شمال الهند، ثم صارت العاصمة الأولى لدولة المغول، بها القلعة الحمراء والقصر المشهور بها، وبالقصر عرش الطاووس الذى غنمه نادر شاه عام ١٧٣٩م. احتل البريطانيون دلهى عام ١٨٠٣م، وأصبحت عاصمة للهند عام ١٩١٢، ثم أعقبتها نيودلهى عام ١٩٣١م. اغتيل فيها غاندى فى ٣٠ يناير عام ١٩٤٨م. (الموسوعة العربية الميسرة ٨٠٠).

(٣) رحلة ابن بطوطة ٢/٤٨٥.



المرأة حاكمة للهند

ومن الطريف أن هذه الفترة التى حكم فيها المسلمون كان هناك بعض ملكات قد بايعهن الناس وحكمن البلاد لفترات، ومن هؤلاء الملكات السلطانة رضية خاتون بنت شمس الدين إيتامش التى حكمت الهند لمدة أربع سنوات من ربيع أول ٦٣٣هـ: ربيع أول ٦٣٧هـ (١٢٣٧: ١٢٤٢م)، وكانت عاقلة قوية، حتى إن أباها إيتامش كان ينيبها عنه إذا تغيب فى حروبه، ولما سأله أمراؤه لماذا اختارها بدل أبنائه فى نيابة المملكة ـ أجاب: إن أولاده انهمكوا فى الشرب واللعب، فإدارة المملكة صعبة عليهم، أما رضية بيكم[١] فمع أنها امرأة لكن لها عقل وقلب رجل[٢].

ومن أخبارها أن إخوتها[٣] بعد وفاة أبيها اختاروا واحدًا منهم المسمى ركن الدين فيروز، ولم يكن صالحًا للحكم، فهاج الشعب والجيش، ونادوا برضية ملكة على البلاد، وبعقلها وكياستها قضت على المعارضة.

جاء فى كتاب تاريخ الإسلام للذهبى: فى عام ٦٣٥م قدم بغداد الرسول من ملكة الهند بنت السلطان شمس الدين إيتامش مملوك السلطان شهاب الدين الغورى.. وسبب تملكها أن أخاها ركن الدين تملك فى السنة الماضية بعد والده، فلم ينهض بتدبير الرعية، وتفرقت عليه عساكره، فقبضت عليه أخته هذه، وملكت، وأطاعها الأمراء وبقيت رضية الدنيا والدين[٤].

وقد استقلت بالحكم أربع سنوات كما قلنا ثم قتلت[٥].

وممن حكم الهند من النساء أيضًا السلطانة خديجة بنت عمر بن صلاح الدين البنجالى التى مكثت فى الحكم أكثر من عشرين سنة، وذلك فى القرن الرابع عشر الميلادى ـ الثامن الهجرى.

---

(١) لفظة فارسية بمعنى أميرة.

(٢) أعلام النساء ١/٤٤٩.

(٣) كان لها ثلاثة إخوة ذكور.

(٤) تاريخ الإسلام ٥/١٦.

(٥) جاء فى الموسوعة أنها قتلت إثر ثورة عام ١٢٤٠م.

جاء فى الأخبار أنها نشأت وترعرعت فى بلاط أبيها، وتلقت من العلوم والثقافة ما جعلها من أندر نساء زمانها أدبًا وكمالاً ومعرفة.

ولما توفى والدها خلفه فى السلطة أخوها شهاب الدين، فكان سيىء السيرة، فخلعه الشعب عام ٧٤٠ هـ (الموافق ١٣٤١م)، ونادى بأخته خديجة سلطانة على عرش أبيها، وولى زوجها خطيب الدولة جمال الدين الوزارة، فاعتمدت عليه السلطانة فى مهام الأمور، وراقبت شئون الدولة مراقبة خبير مطلع.. وتقدمت البلاد فى عهدها تقدمًا عظيمًا فى جميع مرافق الحياة، ولا سيما فى الزراعة والصناعة ونشر العدل على كل بقعة من بقاع السلطة.. توفيت عام ٧٧٠هـ (الموافق ١٣٧٢م)[1].

وكان خطباء المساجد يدعون لها بقولهم: اللهم انصر أمتك التى اخترتها على العالمين، وجعلتها رحمة لكافة المسلمين ألا وهى خديجة بنت السلطان جلال الدين بن السلطان صلاح الدين.

كذلك ظهرت ملكات على الساحة السلطانية من خلال الحكم المغولى وبعده، كان لهن طيب الأثر أثناء وجودهن فى سدة الحكم، ومنهن الأميرة شاه جهان بيكم[2]، قال عنها رضا كحالة: أميرة من أميرات الهند اعتلت إمارة بهوبال[3] بعد وفاة والدتها سكندر بيكم، فأدارت الإمارة إدارة صالحة وساستها سياسة رشيدة، فرتعت البلاد فى بحبوحة من العدل والرفاهية، ومن أعمالها أنها خفضت أسعار الحنطة بإلغاء ضريبة الدخل عليها، وزادت من رواتب الجند، وتجولت فى بلاد إمارتها لتشرف على حالة الفلاحين بنفسها، وتتحقق الشكاوى الكثيرة التى قدمت إليها.... وقد اعتادت أن تباشر أعمال الحكومة بنفسها يوميًا من الساعة التاسعة إلى الثانية عشرة صباحًا، ومن الثالثة إلى السادسة مساءً.... وكانت تستقبل الناس سافرة حتى وفاة زوجها الأول، ثم عادت فأسدلت الحجاب لما تزوجها وزيرها السيد محمد صادق، وبالرغم من حجابها كانت تعلم بكل شاردة وواردة من أخبار وشئون بلادها[4].

(١) أعلام النساء ١/٣٣٨. ابن بطوطة ٢/٤٣٧.
(٢) كانت فى القرن التاسع عشر الميلادى.
(٣) بهوبال: وسط الهند تقع على مرتفعات الوندهايا.
(٤) أعلام النساء ٢/٢٨٣.

وقد سبقت شاه جهان بيكم ملكة أخرى هى نور جهان زوج جهانكير رابع ملوك المغول، قال عنها المؤرخون: مهر النساء أو نور جهان ملكة هندية ذات حسن وجمال كانت تعرف الفارسية والعربية، وكانت مطلعة على آدابهما، وقد حذقت الموسيقى والآداب الرفيعة، وأدارت مملكتها إدارة رشيدة، فوضعت الضرائب، ونظرت فى أحوال المملكة اليومية، فكانت تجلس أمام كوة فى القصر، فتقابل أمراء المملكة، وتستعرض جنودها، ونقش اسمها على النقود إلى جانب اسم زوجها[1].

قال عنها الأستاذ مجدى كامل: كانت نور جهان أسطورة الجمال والذكاء التى خلبت لب الإمبراطور جهانكير، وجعلته يكرس إمبراطوريته بأسرها لتكون فى خدمتها[2].

وقد اشتهرت نور جهان ـ عمة ممتاز خاتون صاحبة الترجمة ـ بأنها كانت تقف مع الضعفاء، وتساعد المحتاجين، وتهتم بالأيتام، وتربيهم حتى يبلغوا سن الزواج، فتزوجهم، وتدفع لهم المهر، كذلك اهتمت بدولتها، فعبَّدت الطرق، وشيدت المدارس والمستشفيات والتكايا، وفى عهدها صدر مرسوم يقضى على عادة هندوكية بشعة كانت متأصلة فى الشعب الهندى، هى: دفن المرأة حية مع زوجها المتوفى، وشددت على هذا الأمر، حتى انمحى تدريجيًا وسط النساء الهنديات.

ذكر صاحب أعلام النساء عملاً جليلاً آخر لها، قال: وهى أول من أنشأ سوقًا خيريًّا، هى سوق الشفقة، وكانت تجمع الأميرات والعقائل والأعيان فى قصرها كل عام فى عيد النيروز[3]، وكان يعرض فى تلك السوق الأشغال اليدوية الثمينة المحكمة الصنع، وكان يسوغ لكل شخص زيارة المعرض، ويبتاع ما يشاء.

وعند اختتام السوق توزع وارداته الوافرة على فقراء المملكة، وينسب إليها عطر الورد.. وتنظيم الطعام على الموائد، وتركيبه فى صحاف على شكل أزهار.... توفيت بعد زوجها بقليل، وقد توفى الزوج عام ١٦٤٦م[4].

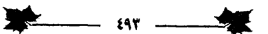
---

(١) أعلام النساء ١٩٧/٥.

(٢) مائة امرأة غيرن التاريخ ١٠٧.

(٣) عيد الربيع.

(٤) أعلام النساء ١٩٧/٥.



هذه نماذج لملكات فى قصور أباطرة المغول الذين حكموا الهند، وملكات جلسن على أريكة الحكم الإسلامى فيها، وحكمن مباشرة أو من خلال أزواجهن الملوك.

أما صاحبتنا ممتاز خاتون فكانت صنفًا آخر من الملكات، لم تتدخل فى نظام الملك، ولم تفرض سيطرتها على طريقة حكم زوجها ولا سياسته، ولنبدأ سيرتها من أولى مراحلها.

* * *

الدولة المغولية المسلمة

وهى الدولة التى كان شاه جهان - زوج صاحبة الترجمة - ممتاز خاتون أو ممتاز محل - أحد ملوكها.

مَهَّد تيمورلنك[1] الإمبراطور التركى لغزو الهند فى القرن الرابع عشر الميلادى، ثم أسس أحد أحفاده - فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) إمبراطورية المغول فى الهند وأفغانستان، وهو الإمبراطور بابر[2] الوليد ظهير الدين محمد، وأم بابر مغولية من أحفاد جنكيز خان[3] التترى، فامتزج فيه الدم التركى بالدم المغولى.

قال د. حسين مؤنس: وهو تركى مغولى لأن أباه عمر شيخ مرزا صاحب فرغانة كان حفيدًا لتيمورلنك التركى، أما أمه فهى ابنة يونس خان منولستان، وحفيدة جغتاى ثانى أبناء جنكيز خان المغولى[4].

ومع نفور بابر من المغول إلا أن الإمبراطورية التى كان على رأسها نسبت للمغول، وقد استمر ملوكها فى الحكم أكثر من ثلاثة قرون، من عام ٩٣٢: ١٢٧٥هـ (الموافق ١٥٢٦: ١٨٥٨م)، والعجيب أن الطاغية جنكيز خان جد بابر الأكبر لم يفكر فى غزو الهند، والقضاء على المسلمين فيها كما فعل فى البلاد التى اكتسحها، وسبب ذلك أنه نفر من حر الهند وجوها، فاتجه إلى الغرب وسلمت الهند منه.

وقد عدَّ د. حسين مؤنس بابر من عظماء الفاتحين، قال: وتوفى بابر فى ٩ جمادى الأولى عام ٩٣٧هـ (الموافق ديسمبر ١٥٣٠م) بعد أن سجل اسمه مع أعاظم الفاتحين المسلمين.

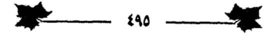
---

(١) تيمورلنك: ولد عام ١٣٣٦م، وتوفى عام ١٤٠٥م، فاتح تركى سيطر على فارس وتركستان وجنوب روسيا والهند وسوريا الشمالية، توفى أثناء غزوه الصين.

(٢) كلمة تركية معناها (أسد) كان حاكمًا عظيمًا وموسيقيًا موهوبًا، أدخل إصلاحات كثيرة على بلاده، منها: تمهيد الطرق وتنظيم البريد ومسح الأراضى ونظام عادل للضرائب.

(٣) أكبر فاتح مغولى، ولد عام ٥٦٣ هـ (الموافق ١١٦٧م)، وتوفى عام ٦٢٤هـ (الموافق ١٢٢٧م)، عرفت حروبه بالمذابح الرهيبة، بقيت مملكته قرنين من الزمان، قضى حفيده هولاكو على الخلافة العباسية فى بغداد عام ٦٥٦ هـ (الموافق عام ١٢٥٨م).

(٤) أطلس الإسلام ٢٥٦.



وكان بابر عظيم الإيمان بالإسلام، يصدر فى أعماله عن الحماس لدين الله[1]، وهو ثالث العظماء من فاتحى الهند المسلمين وأولهم محمود بن سبكتكين (الغزنوى) وثانيهم محمد الغورى[2].

كتب بابر مذكرات وديوان شعر باسم (بابر نامه)، وقبل موته ترك وصية لخلفائه يحثهم على الجهاد لتوطيد دعائم الإسلام، ونشره فى أرجاء الهند، وتوفى فى عام ٩٣٧هـ (الموافق ١٥٣٠م) عن خمسين سنة.

أما عن نهاية الحكم الإسلامى فى الهند فقد قال د. شلبى: كان السلاطين الذين حكموا الهند ستة عشر سلطانًا انتهى ملكهم باستعمار الإنجليز للهند ونفيهم آخر سلاطينهم المسلمين (بهادور) وزوجته إلى بورما وبقائه فيها حتى الموت[3].

وقال د. حسين مؤنس:

فى عام ١٨٥٨م قام الهنود بثورة ضد الإنجليز الذين تغلبوا عليها وقضوا على سلطان المسلمين فى الهند، ونفوا السلطان (بهادور) شاه مع أسرته إلى رانجون[4]، وأعلنوا شبه القارة الهندية مستعمرة بريطانية.. وحرصوا على إبعاد المسلمين من كل الوظائف ذات المسئولية، ووضعوا مكانهم هندوسيين وسيخًا ومن إليهم.. وأعلن (ألن بور)[5] أن العنصر الإسلامى فى الهند هو عدو بريطانيا الأكبر[6].

* * *

---

(١) هدم الهندوس أعظم مسجد لبابر، والمدينة التى كان بها المسجد اسمها الآن (أيوديا) واسم الولاية (أوتار براديش وتقع شمالى الهند جنوبى جبال الهملايا بين نهرى الجنج وجمنا. وقد قامت فى يناير سنة ٢٠٠٢م اشتباكات بين المسلمين والهندوس لإصرار الهندوس على بناء معبد لإلههم الأكبر (راما) وسقط مئات الضحايا وكانوا قد هدموا المسجد البابرى فى نفس المكان فى ٦ ديسمبر سنة ١٩٩٢ وقتلوا حوالى ألفى مسلم.

(٢) أطلس الإسلام ٢٥٧.

(٣) موسوعة التاريخ الإسلامى ٨/ ٣٠٢.

(٤) فى بورما.

(٥) الحاكم العسكرى الإنجليزى فى الهند.

(٦) أطلس الإسلام ٢٦٠، يوجد بالهند وحدها الآن حوالى ٢٠٠ مليون مسلم.

ممتاز خاتون: الخطوات الأولى

تولى جد زوجها جلال الدين أكبر الملك فى ٢ ربيع الآخر عام ٩٦٣هـ (الموافق فبراير ١٥٥٦م).

ومما إن مرت سنوات قليلة حتى استطاع هذا الإمبراطور المغولى أن يفرض سيطرته على من حوله وأن يوسع مملكته حتى شملت الهند الشمالية والوسطى والبنجاب وأفغانستان والسند وكشمير وإمارات الجنوب.

ولأنه كان أميًا، فقد التف حوله الهندوس، وأثروا عليه حتى اخترع دينًا جديدًا سماه الدين الإلهى، أنكر فيه الغيبيات كالجن والملائكة والحشر والقيامة، واكتفى بشهادة أن لا إله إلا الله، وقال بالتناسخ[1]، وحرم ذبح البقرة، وحلل الخمر والميسر، واهتم بيوم النيروز[2]، والسجود للشمس والنار فى ذلك اليوم باعتبارهما رمزًا للإله[3].

ويرى بعض المؤرخين أن ما عمله أكبر فى توحيد الدين عمل جليل سبق به عصره، ووجهة نظرهم أنه لما رأى تعدد الأديان فى الهند، وتعصب أتباع كل دين لمعتقدهم نادى بالسلام والمحبة، وذلك بضم كل الأديان فى دين واحد جديد شامل، يدعو إلى عبادة الله وتعظيمه، حتى جعل التحية بين الناس قولهم: الله أكبر، ورد التحية: جل جلاله.

وللدكتور حسين مؤنس وجهة نظر فى تأليف السلطان أكبر لهذا الدين الجديد، قال: وقد أراد أكبر أن يقرب إليه الهنود، فعهد إليهم بالوظائف الكبرى، واعتمد على الكثيرين منهم، وحاول إنشاء الدين الإلهى، فلم يوفق[4].

---

(١) التناسخ: عقيدة شاع أمرها بين الهنود مؤداها أن روح الميت تنتقل إلى حيوان أعلى أو أقل منزلة لتنعم أو تعذب جزاء على سلوك صاحبها الذى مات، وأصحاب هذه العقيدة لا يؤمنون بالبعث.

(٢) النيروز أو النوروز: كلمة فارسية بمعنى اليوم الجديد، وهو أول يوم من السنة الشمسية الإيرانية، ويوافق ٢١ مارس من السنة الميلادية، وهو أكبر الأعياد القومية للفرس.

(٣) موسوعة التاريخ الإسلامى ٣٠٢/٨.

(٤) أطلس الإسلام ٢٥٨.



ومات أكبر، وتولى بعده ابنه سليم جهانكير[1] عام ١٠١٤ هـ (الموافق ١٦٠٥م) بعد صراع مع إخوته وابنه الكبير خسرو، وعندما استقر في الحكم بدأ في القضاء على دين والده، وعاد لاحترام الإسلام، والعمل بشريعته، فلم يلبث دين الإمبراطور أكبر إلا قليلاً ثم ذهب هباء، لكن العيب الوحيد لجهانكير كمسلم هو الإفراط في شرب الخمر والمسكرات.

وقد أدت كثرة الصراعات وانشغال هؤلاء الأباطرة عن الحكم بأهوائهم وخلافاتهم، وغنى الهند الفاحش، وكثرة خيراتها ـ إلى أن بدأت أساطيل الأوربيين تظهر في أطراف الهند وعلى سواحلها.

فالبرتغاليون والإنجليز والهولنديون يتنافسون على كسب ودِّ الهنود، ومحاولة السيطرة عليهم.

ونجحت إنجلترا عن طريق التجارة في التدخل في شئون البلاد شيئًا فشيئًا، حتى صارت الهند فيما بعد مستعمرة بريطانية، بعد إنشاء شركة الهند الشرقية في عهد السلطان أكبر عام ١٦٠٠م.

والعجيب أن إنجلترا استولت على الهند بيد أهلها، يقول الأستاذ محمد حسونة: ووجدت إنجلترا من اختلاف الطوائف ما يسر لها تجنيد هنود تستولى بهم على مساحات من البلاد، ومازالت دائبة على ذلك حتى ملكت الجزء الأعظم من الهند بمال الهند وجنود الهند[2].

* * *

---

(١) ولد عام ١٥٦٩م.

(٢) الجغرافيا التاريخية الإسلامية ١٠٦.

ثروات الهند

أما عن ثراء الهند وغناها فحدث ولا حرج، فبعد الفتح الإسلامي وفي عهد كل من الدولة الأموية والعباسية ظهر لنا مدى هذا الغنى.

ونضرب لذلك مثلاً واحدًا ذكره القاضي الرشيد، قال: أهدى ملك الهند إلى الجنيد بن عبد الرحمن أيام ولايته السند في خلافة هشام بن عبد الملك، ناقة مرصعة بالجوهر قد ملئت أخلافها[1] لؤلؤًا، ونحرها ياقوتًا أحمر على عجل من فضة، إذا تركت على الأرض تحركت العجل، فمشت الناقة، فبعث بها الجنيد إلى هشام فاستحسنها، ثم إن الذي جاء بها بزل أخلافها فانتشر اللؤلؤ في علبة ذهب كانت معه، وفك عنقها فسال[2] الياقوت منه كأنه الدم، فأعجب بها هشام وجميع من في مجلسه، ولم تزل في خزائن بني أمية حتى صارت إلى بني العباس[3].

وفي العصر العباسي أهدى ملك الهند إلى الرشيد[4] هدايا جميلة في جملتها قضيب زمرد أطول من الذراع، وعلى رأسه تمثال طائر من ياقوت أحمر لا قدر له من النفاسة، فوهبه لأم جعفر زبيدة زوجته، وانتقل منها إلى الأمين[5] بالله، ثم أخيه المأمون[6]، ثم صار إلى المعتصم[7] بالله بعدهما.

وجلس المعتصم بالله يومًا يشرب وعنده ندماؤه، فطرح إليهم قضيب زمرد كان في يده طوله أكثر من ذراع، وقال: فيكم من يعرف هذا القضيب؟ فَكُلٌّ نظر إليه وقال: لا أعرفه، حتى صار إلى عبد الله بن محمد الأمين (المخلوع)، فقال: نعم

---

(١) الخلف للناقة كالضرع للشاة.

(٢) قال البيروني: هناك ياقوت سيال يوجد مائعًا سائلاً، وإذا ضربته كيفية الهواء استحجر وصلب.

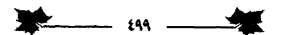
(٣) الذخائر والتحف ١٥.

(٤) هو هارون بن المهدي، خامس خلفاء بني العباس، ولد في محرم ١٤٨هـ، وبويع له في نصف ربيع الأول عام ١٧٠هـ توفي في ٣ جمادى الآخرة عام ١٩٣م.

(٥) محمد الأمين بن الرشيد من زوجه العباسية زبيدة، ولد في شوال عام ١٧٠م، وبويع له يوم وفاة الرشيد، ثم قتل في ٢٥ محرم عام ١٩٨هـ

(٦) هو المأمون بن الرشيد من زوجه الداغستانية مراجل، ولد في ربيع الأول عام ١٧٠هـ وبويع له بعد قتل أخيه، توفي في ١٨ رجب عام ٢١٨هـ

(٧) هو المعتصم بن الرشيد، أمه التركية ماردة، ولد عام ١٧٨هـ تولى بعد موت المأمون، وتوفي في ٨ ربيع الأول عام ٢٢٧هـ



يا أمير المؤمنين هذا قضيب أهداه ملك الهند إلى الرشيد فى جملة هدايا أنفذها إليه، فوهبه الرشيد لزبيدة، ووهبته زبيدة لأبى وهو صبى، فكان يلعب به، وكان على رأسه طائر ياقوت أحمر قيمته مائة ألف دينار، ولست أراه، فأمر المعتصم بطلبه، وتوعد الخُزَّان بالقتل إن لم يحضروه من ساعته، فطلب، ورُكب على القضيب من ساعته، وجاءوا به إليه[1].

وذكر ابن بطوطة الرحالة طرفة عن الهند وغناها سجلها فى رحلاته، قال: إن ملك الهند إذا خرج للسفر أحصى أهل المدينة من الرجال والنساء والولدان، وفرض لهم رزق ستة أشهر يدفع لهم من عطائه، وإنه عند رجوعه من سفره يدخل فى يوم مشهود يبرز فيه للناس كافة إلى صحراء البلد، ويطوفون به، وينصب أمامه فى ذلك الحفل منجنيقات على الظهر[2] يرمى بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس إلى أن يدخل إيوانه[3].

وسجل لنا الإمبراطور جهانكير فى مذكراته بعض مظاهر هذا الثراء، قال: كان ملوك الهند يوزنون بالذهب فى الأعياد، ويوزعون ما يساويها على الفقراء والمساكين، وكنت أوزن فى السنة مرتين: مرة فى أول السنة الشمسية، ومرة فى أول السنة القمرية، وأنفق ما يساوى وزنى على الفقراء والمساكين[4].

وكان ملوك المغول المسلمون ـ إلى جانب غناهم الفاحش ـ شديدى التمسك بالدين اعتقادًا وسلوكًا ودعوةً، فقد حاولوا أن ينشروا الإسلام فى كل ما جاورهم من البلاد، ولهم فى ذلك أخبار مستفيضة وتاريخ مجيد.

يقول الشريقى: نهج ملوك دولة المغول سياسة إسلامية قوامها دعم ونشر الإسلام فى الأقاليم والمناطق.. وقد توطدت دعائم دولتهم ونمت وازدهرت فى عهد الملك جهانكير وشاه جهان، وفى عهدهما نشطت حركة العمران والتجارة والصناعة، وشيدت المساجد والمدارس والقصور[5].

---

(١) التحف والذخائر ٢١.

(٢) الظهر: البغال والحمير والخيول.

(٣) رحلة ابن بطوطة ٢/ ٨٣١. (ولد ابن بطوطة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٤م).

(٤) موسوعة التاريخ الإسلامى ٨/٣٢٢، نقلاً عن تاريخ الإسلام فى الهند ل.د النمر. وما زالت طائفة الإسماعيلية فى الهند تفعل ذلك مع زعيمها (أغاخان).

(٥) التاريخ الإسلامى ٢٤٢.

كوهنور: أعظم جوهرة فى التاريخ:

ولا نستطيع أن نتحدث عن أعاظم الرجال من فاتحى الهند وحكامها دون أن نتحدث عن أعظم جوهرة فى التاريخ لمستها يد الإنسان، وهى الجوهرة المسماة (كوهنور) وهى أشهر ماسة فى العالم، يبلغ وزنها ٦و١٠٥ قيراطًا[١]. وقيل: وزنها ١٨٦ قيراطًا، واكتشفت فى الهند سنة ١٣٠٤م.

واسمها (كوهنور) أى: جبل النور. ولهذه الجوهرة قصة، فقد كانت تعد أعظم جوهرة عثر عليها الإنسان فى مادة الأرض، وقد استطاع الإمبراطور محمد بابر حوالى عام ١٥٠٠ م أن يتملكها لتصبح أغلى ما يحرص عليه فى حياته، يورثها لذريته من بعده، حتى بدأ الصراع الاستعمارى فى الهند، فمن إسبان وبرتغال وهولنديين وإنجليز كلهم يحاول الحصول على هذه الجوهرة.

واستطاع البريطانيون أخيرًا بعد محاولات وحروب فى شبه القارة أن يضعوا أيديهم عليها فى عام ١٨٤٩م، وبعد أن كانت فى حوزة أباطرة المسلمين لأكثر من ثلاثة قرون.

جاء فى الموسوعة العربية: كوهنور أو جبل النور: اسم ماسة هندية مشهورة فى التاريخ، أدت محاولات اقتنائها لارتكاب جرائم كثيرة، وفى عام ١٨٤٩م دخلت فى حوزة البريطانيين، وبعد إعادة قطعها وصقلها ضمت لجواهر التاج[٢].

وهى الآن موضوعة فى متحف الجواهر فى برج لندن ضمن جواهر التاج البريطانى.

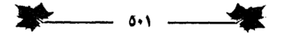
وعود إلى جهانكير[٣]:

الذى تزوج من أرملة فاتنة جميلة عالمة اسمها (مهر النساء) وهى عمة ممتاز محل، وسماها جهانكير (نورجهان) أى: نور العالم ـ وقد، تحدثنا عنها آنفًا ـ وحديثنا عنها الآن لنعرف سبب دخول ممتاز محل قصر الأباطرة. فعندما دخلت

(١) القيراط: معيار فى الوزن، وهو أربع قمحات.

(٢) الموسوعة العربية الميسرة ١٥٢٠.

(٣) معناها مالك الدنيا.



نورجهان القصر الإمبراطوري أخذت تتدخل في كل صغيرة وكبيرة فيه، فلا يأخذ الملك قرارًا إلا بعد موافقتها والتوقيع معه عليه.

وسبب هذا التدخل والسيطرة هو إحساس الإمبراطور جهانكير بولائه لنورجهان التي ساعدته على العودة إلى العرش بعد أن خلعه إخوته وابنه خسرو، وخلصته زوجه من الأخطار، وسلمت له العرش بعد القضاء على كل أعدائه، وذلك عام ١٦٢٦م.

ووصل بها الأمر إلى التدخل في كل الشئون، حتى إن اسمها كان يضرب على النقود بجوار اسم زوجها، ثم رأت أخيرًا أن تدعم نفوذها بالقصر وتزيد من سلطانها أكثر بأن تجعل لأقاربها مكانًا في السلطة.

لقد مهدت الطريق لأبيها وأخيها إلى التدخل في القصر، وصار أبوها (اعتماد الدولة) رئيسًا للوزراء، وأخوها (عساف خان)[1] من كبار الموظفين، ومسئولاً كبيرًا في الجيش، ثم فكرت في مستقبل العرش، وفي أبناء زوجها الإمبراطور، وإلى من سيئول إليه الملك، وسارعت إلى مصاهرة أقاربها بالأمراء، فزوجت ابنتها لأصغر أبناء زوجها المسمى (شهريار)، أما ابن زوجها الآخر المسمى (خورام)[2] فزوجته من ابنة أخيها قائد الجيش، وتلكم هي موضوع ترجمتنا: ممتاز محل.

* * *

---

(١) أو آصف شاه.

(٢) أطلق عليه صاحب أعلام النساء اسم (كسرى).

الأميرة ممتاز محل

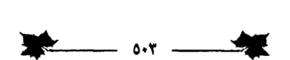
ولدت (أرجموند بانو بيكم)، أو الأميرة سيدة التاج، فى نهاية القرن السادس عشر الميلادى، فى عام ١٥٩٢م تقريبًا أول القرن الحادى عشر الهجرى، فى مدينة دلهى من أب وأم هنديين من أصل فارسى، وعاشت فى بيت أبيها حتى تزوجت عمتها الإمبراطورة نورجهان من الإمبراطور جهانكير، فاقتربت من القصر وَمَنْ فيه، وخاصة بعد أن صار أبوها آصف شاه قائدًا للجيش.

وقد تميزت الأميرة عن نديداتها وقريناتها بميزات عدة، منها أصلها الرفيع، وتربيتها الراقية، فقد نشأها أبوها تنشئة محترمة، وثقفها أحسن تثقيف، وعلمها أرقى تعليم، وفوق ذلك كله خلق رفيع اشتهرت به، وعقل راجح، وفكر سليم، مع ما حباها الله به من جمال أخَّاذ، وأدب جم، ورقة وعذوبة، حتى فاقت عمتها نورجهان التى كان يضرب بها المثل.

ورآها الأمير (خورام) ابن الإمبراطور مرة وهى فى زيارة عمتها الإمبراطورة، فانبهر بجمالها، وأعجبته إعجابًا ملك عليه عقله، فوقف مشدوهًا، وعلمت عمتها نور بما أصاب الأمير من الوقوع فى الحب، فشجعته على الاقتران بها، ووقفت معه حتى تم الزواج فى عام ١٠٢٢هـ (الموافق ١٦١٣م)، وانتقلت أرجموند إلى قصر الحكم فى أكرا، وأطلق عليها (ممتاز خاتون) وعاش معها حياة هانئة، وأنجبت له البنين والبنات، ولم يفكر فى الزواج من غيرها حبًا ووفاءً، واحترامًا وتوقيرًا، وعشقًا وهيامًا.

صحيح أن خورام كان متزوجًا من إحدى حفيدات إسماعيل شاه إمبراطور الفرس قبل عامين من زواجه من ممتاز محل، ولكن هذا الزواج كان زواجًا سياسيًا للمصلحة، ودعمًا لموقفه وموقف أبيه الإمبراطور ضد صراعات القوة، أما الآن فممتاز محل هى زوجه المفضلة والأثيرة.

* * *



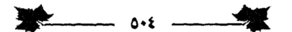
الإمبراطور شاه جهان
والإمبراطورة ممتاز

توفى الإمبراطور جهانكير، وترك ولدين ـ كما أشرنا آنفًا ـ، الأول: شهريار، والثانى: خورام زوج ممتاز محل أو ممتاز خاتون، ولم يكونا وحدهما المتطلعين إلى عرش الإمبراطورية، بل كان هناك أيضًا بعض الأمراء الطامحين للجلوس على الكرسى، لذا حدثت صراعات بين الجميع طمعًا فى العرش، وانتهت الثورة إلى وجود قوتين كبيرتين، على قمة كل منهما واحد من الأخوين، ولكل منهما عصبيته.

الأول: (شهريار) زوج ابنة الإمبراطورة نور جهان، والثانى: (خورام) زوج ابنة (آصف شاه) قائد الجيش وأكبر رجل فى القصر، ومع أنه أخو نورجهان، وهى التى أدخلته القصر من أوسع أبوابه، فإنه تحيز لزوج ابنته (خورام)، ووقف معه وساعده حتى قضى على أخيه، واستولى على إمبراطورية الهند، وتَسَمَّى بشاه جهان، وذلك عام ١٠٣٧ هـ (الموافق ١٦٢٨م).

ولم ينته الصراع بتوليه الملك، بل ظهرت بعض قوى الأمراء فى مناطق مختلفة فى الهند، كلها يطمع فى الحكم، ولذلك كانت فترة ولايته كلها صراعات، ولكن زوجه المحبة كانت إلى جانبه، لم تتركه لحظة، لا فى حل ولا ترحال، ولا فى حرب ولا فى سلام..

وليس معنى هذا أنها كانت تتدخل فى شئون الدولة، ولكنه يعنى وقوفها مؤازرة لزوجها المحب الذى لم يستطع البعد عنها، فلم تستغل هذه الحظوة، وتسيطر أو تتسلط كما فعلت عمتها من قبل مع حميها، بل كانت من الورع والإيمان والعقل، بحيث كانت تضع كل شىء فى مكانه، وكل همها هو الرجوع بشعب الهند إلى طريق الإسلام الذى حاد عنه جد زوجها الإمبراطور أكبر باختراعه دينًا جديدًا، وقد حاول حموها جهانكير أن يمحو ذلك الدين المبتدع، ووقفت هى مع زوجها الإمبراطور تشد من أزره فى القضاء على بقايا هذا الدين، ورفض طقوسه.



ولم تكتف بذلك، بل كانت سببًا فى جعل زوجها يقضى على بعض العادات السيئة التى توارثها الحكام، ملكًا عن ملك، ومنها سجود الرعية وتقبيل الأرض بين يدى الإمبراطور، لقد آمنت بأن السجود لا يكون إلا لله وحده، ولذلك زينت لزوجها رفض هذه الصورة الجاهلية الكسروية.

وأجابها وعاد إلى أخلاق الإسلام، ودعا شعبه إلى هذه العودة.

ولقد نلاحظ أن تأثيرها على زوجها الإمبراطور لم يكن كافيًا؛ لأنها ماتت بعد توليه الحكم بسنتين فقط، ولكن كان تأثيرها الكبير على ابنها الذى تولى الحكم بعد ذلك.

فقد كان (أورنكزيب) أى زينة العرش أو (عالمكير) أى سيد العالم نموذجًا للحاكم المسلم التقى الزاهد شديد الحرص على الشريعة الإسلامية وآدابها.

قال د. شلبى: وقد تلقى العلم على يد كبار العلماء، وعمل بما علم، فلم يشرب الخمر ولو قطرة واحدة، ولم يجلس للغناء على الرغم من موهبة موسيقية عالية كانت لديه، ولم يستعمل الذهب أو الفضة فى آنية أو حلى[1].

وقال عنه د. حسين مؤنس: وقضى معظم سنوات حكمه التى بلغت سبعًا وأربعين فى إقرار السلام فى سلطته الواسعة، وفى محاربة الهندوس لنشر الإسلام بينهم[2].

أما أبوه شاه جهان زوج ممتاز محل، فلم يكن بالحاكم القادر القوى مثل سابقيه أكبر أو جهانكير، ولكنه تميز عنهما بأنه كان بناء تفخر بمبانيه صفحات الفن الإسلامى، ويقف هذا الرجل فى صف واحد مع عظماء المنشئين فى تاريخ دول الإسلام من أمثال عبد الملك بن مروان، وابنه الوليد وعبد الرحمن الناصر الأندلسى، وابنه الحكم المستنصر، وسليمان القانونى فى تركيا - كما قال د. حسين مؤنس.

* * *

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى ٨/ ٣٠٥.
(٢) أطلس الإسلام ٢٥٨.

أخلاق الإمبراطورة

كانت ممتاز محل نموذجًا للمرأة المسلمة الصالحة قبل أن تكون ملكة متوجة، لقد أحبها الشعب وأجلها إجلالاً عظيمًا لكريم خصالها، وحسن خلقها، فقد التزمت بالإسلام في كل سلوكها ومعاملاتها، وكانت كثيرة الإحسان للفقراء واليتامى والمساكين.

فمثلاً أقامت مشروعًا هامًّا يفيد كل الشباب من ذكور وإناث، وأخذت تعين الفتيات على الزواج بإعطاء اليتيمات والفقيرات منهن تكاليف الزواج، وتجهزهن الجهاز المناسب، فلا تبقى فتاة بدون زواج، وإنما تحل كل المشكلات المادية التى قد تقف دون إتمام أى زواج، ثم اتجهت إلى الشباب فشجعتهم على الاقتران بالفتيات، وذلك بأن تساعدهم على الباءة حتى لا يشيع الفساد، وتظهر الرذيلة، وإنما تستقر الأسر، فيسعد الجميع فى بيوت ملؤها الحب والوئام.

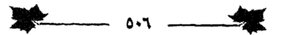
قال مؤلف الباد شاه نامه واصفًا لها: لو أردنا أن نعد مبرات هذه الملكة الكريمة، وسعيها لدى زوجها فى العفو عن المجرمين لملأنا مجلدًا كبيرًا، فإن فضلها وتقواها ورقة قلبها وحبها لزوجها وسعيها فى حب شعبها مما يفوق الوصف[1].

ومن أعمالها التى تؤثر عنها اهتمامها بالمساجد وبنائها كذلك، وتعميرها للزوايا الصغيرة بأن جعلت فيها الطعام للمقيمين والغرباء الضيفان من نفس طعام الآكلين فى قصر السلطانة: (لحم وسكر وسمن ودقيق)، كذلك كانت توزع الخلع والملابس على المحتاجين.

وقال د. حسين مؤنس: وكانت ممتاز محل - وهو الاسم الذى أطلقه عليها المسلمون، ومعناه (سيدة التاج) - شديدة التعلق بالإسلام، دائمة الاهتمام بالمساجد وأهل العلم، وحذرت زوجها من النشاط الواسع الذى كان المبشرون المسيحيون يقومون به فى بلاده، فاجتهد فى الحد من ذلك النشاط، ومن آثارها فى الدولة اتخاذ التقويم الهجرى، ومنع الشيعة فى بلاد الشاه من التطاول على نظام الخلفاء الراشدين، والحد من بناية معابد هندوكية جديدة فى بلاده[2].

(١) أعلام النساء ٥/١٠٩.

(٢) عالم الإسلام ١٠٤.



لقد كانت نعم الملكة لشعبها المسلم والهندوكى وكانت نعم الزوجة لزوجها الإمبراطور، ذلك العاشق الذى عاشت معه سبعة عشر عامًا، كلها حب وهناء ووفاق.

لقد ظل الزوجان العاشقان يسيران كل ليلة معًا على ضفة نهر السند وسط المروج والحدائق، وتحت ضوء القمر، ويعيشان معًا أروع قصص الحب الرومانسية فى التاريخ.

قال الأستاذ مجدى كامل: ومن الحقائق المعروفة عن ممتاز محل وشاه جهان أنهما كانا لا يفترقان طوال ساعات الليل أو النهار، وكان كلاهما يشعر بالضياع إذا لم يكن نصفه الآخر أمام عينيه[1].

لقد كان الإمبراطور يراها كل شىء فى حياته، فهى زوجته وصديقته وحبيبته ومستشاره، وإذا خرج فى غزوة أو معركة كانت إلى جواره، حتى ولو كانت تعانى من مرض أو نفاس.

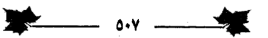
لقد اعتبر الإمبراطور زوجته هى إكسير حياته وعطر أنفاسه التى تتردد فى جنباته، فإذا ابتسمت ابتسمت الحياة، وإذا عبست تكدرت عيشته، وقد أنجبت له أولادًا كثرًا، بلغت عدتهم ثلاثة عشر ولدًا وبنتًا.

هذا أنموذج من نماذج (نساء وراء الأحداث) ما نظن أن له نظيرًا فى أية مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامى، فى أية بقعة من بقاع الأرض، على ترامى الأوطان الإسلامية.

إن الملكة ممتاز محل هى الأنموذج الذى نتمنى أن تأتى به كل النساء المسلمات، فى كل البيوت المسلمة، والدرس الذى تقدمه درس من وراء البحار والمحيطات، ولكنه يحمل عطر الإسلام، وأخلاقه الرفيعة، وهى أخلاق لم تقتصر على أمهات المؤمنين، أو الصحابيات اللائى لازمن تعاليم النبوة، بل لقد عبرت هذه الأخلاق البحار، والأجيال، والأجناس، فيما يشبه العولمية الأخلاقية الإسلامية.

* * *

(١) مائة امرأة غيرن التاريخ ١١٨.



وفاة الإمبراطورة ممتاز

فى عام ١٠٣٩ هـ (الموافق ١٦٣٠م) حملت ممتاز خاتون حَمْلَها الرابع عشر، وخرجت فى صحبة زوجها فى معركة من المعارك ضد البرتغاليين، محاولاً إبعادهم عن ثغور بلاده، والقضاء عليهم وطردهم نهائيًا من الهند.

قال د. حسين مؤنس: كان البرتغاليون قد أسرفوا فى ظلم الهند، وكانوا يخطفون الناس، ويبيعونهم، وفى عام ١٠٤٠هـ (الموافق ١٦٣٠م) أرسل شاه جهان جيشًا طرد البرتغاليين من شواطئ الهند، وأنقذ ١٠٠٠٠ هندى كانوا قد أسروا، وأعدهم البرتغاليون للبيع، وسقط مركز البرتغاليين..[١].

وخرجت ممتاز محل فى صحبة زوجها فى هذه المعركة بينه وبين البرتغاليين وهى فى أشهر الحمل الأخيرة، وحانت ساعة الوضع، وجاءها المخاض، ولم تتحمل صحتها ومقاومتها آلام المخاض، فظروف الحرب، وبعدها عن سكنها، وعدم استقرارها، والجو المحيط بها من ضرب وطعن، كل ذلك جعل النهاية تسرع إليها، وتوفيت، ولم تكمل الثامنة والثلاثين من عمرها، ماتت وتركت زوجًا أرمل قد هدته المصيبة، وزعزعه الحزن الشديد، وعافت نفسه الحياة، وكره كل شىء حوله.

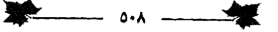
ويصور الأستاذ مجدى كامل اللحظات الأخيرة من حياتها، وما أصاب شاه جهان من جراء هذه الكارثة، يقول: وكان موت ممتاز محل فى يوم ٢٨ يونيو عام ١٦٣١م.. لقد لفظت أنفاسها الأخيرة، وعيناها عالقتان بوجهه، وأجهش شاه جهان بالبكاء، واجتاحه شعور عارم بالحزن.. وخرج الجميع وتركوه مع جثمان ممتاز محل، وكأنه يستعطف الموت أن يتراجع، ولكن هيهات..

وتقول كتب التاريخ: إن لحية شاه جهان التى لم يكن يوجد بها سوى عدة شعرات رمادية قد تحولت كلها إلى اللون الأبيض خلال الفترة القصيرة التى قضاها مع جثمان زوجته من فرط حزنه عليها والصدمة التى أصابته برحيلها[٢].

---

(١) أطلس تاريخ الإسلام ٢٥٨.

(٢) مائة امرأة غيَّرن التاريخ ١٠٩.



وماتت ممتاز محل فألزم نفسه بأشياء، وألزم شعبه كذلك، أما هو فقد ظل أعوامًا يلبس أخشن الملابس وأبسطها، ويأكل أقل الطعام وأردأه، ثم يذهب يوم الجمعة لمكان دفنها فى مدينة (برهان بور) حتى نقل جثمانها إلى قبر مؤقت فى أكرا، وذلك فى ٩ فبراير ١٦٣٢م، حيث قرر أن يبنى تاج محل.

أما شعبه فقد حرم عليهم الموسيقى وإقامة الحفلات لعدة سنوات، ثم قرر أن يحتفل بذكراها السنوية بحضور الملوك والأمراء والسفراء، وبترديد آيات القرآن الكريم، وتوزيع الصدقات على الفقراء والمحتاجين، ثم اعتبر طوال حياته الشهر الذى ماتت فيه (وهو شهر يونيو) شهر حداد كامل.

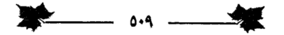
ولم تزل هذه حاله حتى توفى بعد أن عاش بعدها خمسًا وثلاثين سنة، عاش وهو يتخيلها أمامه، ويتمثلها فى كل وقت، وكانت معه فى أحلام لياليه، وفى ساعات نهاره.

ولما كان انشغاله بذكرى الحبيبة قد غطى على كل شىء فى حياته، وجعله لا يستطيع تحمل مسئولية الحكم، فقد انتهز من حوله الفرصة وتصارع أربعة من أولاده على الحكم، وقبل موته بثمانى سنوات انتصر واحد منهم هو (أورنكزيب) أو (عالمكير) أى سيد العالم، الذى تسلم السلطة، واعتقل أباه، وحدد إقامته فى قلعة، ولم يكن لشاه جهان رغبة إلا أن يكون قريبًا من قبر ممتاز الحبيبة، وأجابه عالمكير لمطلبه، فعاش قريبًا منها حتى مات ودفن إلى جانبها فى رجب عام ١٠٧٦ هـ (الموافق فبراير ١٦٦٦م).

لقد كان الرجل بعد موت حبيبته يعيش نصف إنسان يحن إلى نصفه الآخر الراقد على مقربة منه، وما عهدنا فى سير الملوك والأباطرة شيئًا من هذا النوع من الغرام، بل ما عهدنا ذلك فى حياة المحبين وسيرهم من أمثال قيس وجميل وكثيِّر وروميو وغيرهم.

وما يدهشنا منه أن يكون كل هذا الحب فى قلبه، وهو مع ذلك فارس مقاتل شجاع لا يصرفه عن هدفه صارف مهما كان، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا: إن الحب فى حياة هذا الرجل كان هو الدافع الأساسى لخوض غمرات الحروب، والنهوض بأعباء الدولة ومسئولياتها، حتى كان حب الحبيبة حدًا فاصلاً بين شخصيتين فى ذاته.

شخصية العاشق المقاتل والفارس المغوار، وشخصية العاشق الواله الذى تحول إلى عاطفة محضة، حتى وصل الموت بينه وبين حبيبته، أو على الأصح تلاحم النصفان، والتقى الحبيبان فى العالم الآخر ليواصلا قصة غرامهما فى عالم الغيب، ما شاء الله لهما.



تاج محل: قبر الحبيبة ممتاز

كان الإمبراطور شاه جهان محبًا للفنون والآداب، مشجعًا شعبه على التأليف والإبداع، وقد اجتمع فى بلاطه العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والمهندسون والفنيون من جميع أنحاء الهند وأفغانستان وإيران.

وأبدع الفنيون فى عهده آثارًا وأعمالاً معمارية من بناء ورسم ونحت شيدت تحت إشرافه فى أكثر أنحاء دولته، منها كما قال د. شلبى: القلعة الحمراء(١) فى دلهى(٢) (لال كوت) أو (بورانا كيلا)، ويداخلها مسجد يسمى مسجد اللؤلؤة(٣)، ثم المسجد الجامع فى دلهى أيضًا، والذى كسيت جدرانه بالمرمر، وشيد منبره من المرمر الأبيض الناصع(٤).

إن ما تركه شاه جهان من مبان باهرة فخمة ما زالت موجودة يزورها السائحون من جميع أنحاء العالم، وخاصة الموجودة فى أكرا ودلهى التى قال عنها د. الكتانى: توجد خرائب دلهى هذه حوالى عشرة أميال جنوب دلهى الجديدة، أما دلهى الجديدة عاصمة الهند اليوم فهى من بناء السلطان المغولى شاه جهان فى القرن الحادى عشر الهجرى(٥).

أما د. حسين مؤنس فيسمى المدينة الجديدة، ويقول: ابتنى هذا الرجل مدينة ملوكية سميت باسم (شاه جهان باد) وزين دلهى وأجرا بمنشآت هى آيات فى الجمال.. وعلى الجملة وصل البلاط المغولى فى الهند إلى أوج فخامته فى عصره(٦).

---

(١) بنيت القلعة عام ١٥٠٢م ولكن فى عام ١٦٣٨م، بنى شاه جهان قصرًا فى داخلها، جعل به عرش الطاووس، ولفخامة القصر والمسجد نسبت له القلعة.

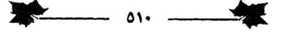
(٢) وسبب بناء القلعة أنه أراد نقل العاصمة من أكرا إلى مكان دلهى، حيث سمى المكان (شاه جهان أباد)، ولكن خروجه من الحكم حال دون ذلك، وصارت دلهى عاصمة الهند عام ١٨٤٨م.

(٣) جاء فى الموسوعة أن مسجد اللؤلؤة فى أجرا، وليس فى دلهى، وربما بنى هناك شاه جهان مسجدًا آخر بهذا الاسم.

(٤) موسوعة التاريخ الإسلامى ٣٠٥/٨.

(٥) هامش رحلة ابن بطوطة ٤٧٨/٢.

(٦) عالم الإسلام ٣٧٤.



وفى أواخر القرن التاسع عشر فصل جستاف ليبون المستشرق الفرنسى كل أعمال شاه جهان، ووصفها وصفًا دقيقًا وبين ما حوته من تحف وفخامة لا مثيل لها، وسننقل من كتابه مثلاً واحدًا عما تركه شاه جهان صاحب تاج محل، وهو القصر أو ما يسمى بقلعة شاه جهان.

قال: تم بناء هذا القصر فى عام ١٠٥٨هـ (الموافق ١٦٤٨م)، وهو أجمل القصور الإسلامية التى أقيمت فى بلاد الهند وفارس وما فى رداهه (جمع ردهة) من الفسيفساء يجعلها قطعًا من الحلي.. قال عنه مسيو دوسله: إن أبهة داخل ذلك القصر مما لم تسمعه أذن، فقد زينت أساطينه وحناياه وأطرقته بالنقوش العربية العجيبة التى رسمت بالحجارة الكريمة المرصعة فى الرخام.

وقال جستاف أيضًا: وزار هذا القصر صائغ عام ١٦٧٠م وعام ١٦٧٧م، وأذن للصائغ فى فحص حجارته الكريمة، ورسمها، وتجد فى كتابه تقديرًا ورسومًا لأهمها، ومما جاء فيه أن فى القصر سبعة تيجان مرصعة بالألماس، وأن ثمن أهم التيجان السبعة يقدر بـ (١٦٠.٥٠٠.٠٠٠) فرنك[١].

ووصف جستاف ليبون مسجدًا آخر من روائع إنتاج شاه جهان هو مسجد المعطى أو مسجد اللؤلؤة فى أكرا، قال: ومن مبانى أكرا المهمة أذكر أيضًا (مسجد المعطى) الذى أمر بإنشائه شاه جهان فى عام ١٦٥٨م وفق طراز عصره، وهذا هو المسجد الذى صاح الأسقف (إيبرت) حين رآه قائلاً: إن الخزى ليعتريه وقتما يفكر فى عجز أبناء دينه عن إقامة مثل بيت الله هذا[٢].

أما درة أعمال شاه جهان وأعظم آثاره التى شيدت فى عهده، تحفة (تاج محل) أو مقبرة زوجته العزيزة الأثيرة (ممتاز خاتون).

وصفه جستاف ليبون قائلاً: بناء قام على الطراز الهندوسى الفارسى العربى، وهو مزار يتطلب وصفه الكامل أكثر من مجلد[٣].

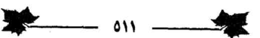
لقد أراد شاه جهان أن يترجم قصة حبه الأسطورى إلى عمل معمارى يراه الناس، فيعيش فى وجدانهم وأذهانهم، وتتناقل قصته أولادهم وأحفادهم،

---

(١) حضارة العرب ٢٠١.

(٢) المرجع السابق ٢٠٠.

(٣) المرجع السابق ١٩٦.



ويتحدث عنه كل من على الأرض على مر الزمان، لقد أقام صرحًا يعتبر من عجائب الدنيا[1] الحديثة، ويحسبه من يراه أنه من صنع الجن لا الإنس.

ونحن قبل أن نورد حكاية (تاج محل) لن نحكم على هذا العمل من ناحية الصواب والخطأ؛ لأن بانى هذا البناء وزوجته قد غادرا دنيانا منذ أكثر من ثلاثة قرون من الزمان، وأفضيا إلى ما قدما، وقابلا ربًا كريمًا، عساه أن يغفر لهما، ويمحو ذنوبهما، ولذلك فنحن نتحدث عن هذا العمل من الناحية الدنيوية، من ناحية البناء والمعمار، فهو صرح شاهق فنى يقف بجوار المسجد الأقصى، وقلاع صلاح الدين فى مصر والشام، وقصر الحمراء فى غرناطة، ومسجد عبد الرحمن الداخل فى قرطبة، ومسجد السلطان محمد الفاتح فى إسطنبول، ومسجد الحسن الثانى فى الدار البيضاء، وغيرها من تحف وأمجاد أبدعها الإنسان المسلم خلال حضارات مختلفة.

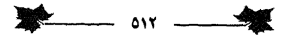
ولابد أن نذكر شيئًا ربما كان أقرب إلى الأسطورة، فقد قيل: إن ممتاز محل عندما حملت بطفلها الرابع عشر رأت فى منامها أن الجنين يبكى، ولما استيقظت حكت لزوجها حلمها، وقالت له إن تفسيره هو موتها، ثم طلبت منه وصيتين: الأولى ألا يتزوج بعد موتها، والثانية أن يبنى لها ضريحًا لم يشهد العالم له مثيلاً.

وسواء أكانت هذه الرؤيا صادقة أم كان ما قال شاه جهان من تلفيق القصاص، فإن شاه جهان لم يتزوج بعدها طوال خمسة وثلاثين عامًا، وبنى لها ضريحًا يعد كما قلنا من عجائب الدنيا ومفاخرها. وإن كنا نرى بعض المتعصبين من الهندوس ينفون أن يكون هذا الصرح الشاهق للمسلمين، ويقولون إنه بنى فى القرن الرابع الميلادى على يد المهراجات الهندوس... ولا حق لهم فى هذا الادعاء.

---

(١) عجائب الدنيا السبع القديمة: حدائق بابل المعلقة تنسب إلى سميراميس ولكن بختنصر هو الذى بناها لإحدى زوجاته، الهرم الأكبر بناه خوفو فى مصر عام ٢٩٠٠ ق.م مساحته ١٢ فدانًا وارتفاعه ١٤٦مترًا، ومعبد ديانا أفسوس بالقرب من روما خربه نيرون، وتمثال زيوس على جبال الأولمب ارتفاعه ١٣ مترًا، وضريح هاليكار على بحر إيجة تحطم فى العصور الوسطى، وتمثال رودس يرجع تاريخه إلى ١٣٠٠ ق.م تحطم إثر زلزال عام ٩٢٤ ق. م، ومنارة الإسكندرية شيدت عام ٢٨٠ ق. م تحطمت إثر عدة زلازل وكان ارتفاعها ٥٨ مترًا.

ويقال إن من عجائب الدنيا الحديثة: برج إيفل فى باريس، برج بيزا المائل فى مدينة بيزا بوسط إيطاليا، وتمثال الحرية الهدية الفرنسية لأمريكا عام ١٨٨٤م الذى دفع تكاليفه الخديو إسماعيل حاكم مصر وهو فى جزيرة فى نيويورك، كذلك من عجائب الدنيا الحديثة تاج محل فى الهند.



بدأ الإمبراطور شاه جهان فى الشروع فى بناء ضريح الحبيبة بعد موتها مباشرة فى فبراير ١٦٣٠م، وبعد أن نقل جثمانها من (برهان نور) حيث ماتت إلى أكرا على البحيرة، واستغرق العمل ثنتين وعشرين سنة، شارك فى البناء والزخرفة والرسم عشرون ألفًا من العمال الذين أتى بهم الإمبراطور من العالم الإسلامى، حيث كانوا من أمهر الصناع والبنائين والفنانين فى كبريات عواصم العالم آنذاك، من دلهى ولاهور وبغداد والقسطنطينية والقاهرة وشيراز وبخارى وقندهار وسمرقند، وكان العمال يشتغلون ليل نهار على فترات على مدار الأربع والعشرين ساعة.

أما المهندس العبقرى الذى صمم الرسم، فهو الأستاذ عيسى الذى اختلف فى أصله وجنسه، ولكن جاء على الإنترنت: إن هناك قولاً بأن المهندس الذى صمم تاج محل إيطالى الأصل اسمه (جيرونيمو فيرونيو) وكان يعمل فى تجارة وصناعة الجواهر، جاء إلى الهند فى عهد جهانكير مع الجيش البرتغالى، ثم سكن فى أكرا، قال هذا الكلام الأب (منريك) الذى زار الهند عام ١٦٤٠م، أى: بعد وفاة ممتاز محل بسبعة عشر عامًا، أما الذى أشرف على البناء فهو رئيس المعماريين فى قصر الإمبراطورية، واسمه أحمد لاهورى.

وأهم ما يميز هذا البناء الفخم أنه كله من المرمر الأبيض الصافى النقى النادر، ولذلك كانت تكاليفه باهظة، فعند تمامه حسب ما صرف عليه، فوجد أنه يقرب من مائة مليون[1] جنيه استرلينى فى ذلك الزمان.

وقد أحسن شاه جهان فى اختيار مكان الضريح حيث ساعد على إظهار هذه التحفة الفنية الرائعة.

وكان هذا المكان حديقة كبيرة، تقول الأخبار إنه أعطى صاحب الحديقة التى بنى عليها القبر أربعة قصور من ممتلكات التاج تعويضًا له عن حديقته[2].

---

(١) تراوح ما بين ٣٠ و٦٠ مليون روبية هندية. (مائة امرأة غيرن التاريخ ١١٠)، وزاد جستاف ليبون فقال: خلا عوض أعمال الفعلة الذين كانوا يسخرون.. فبناء مثل تاج محل لا يقام فى أوربا إلا بثلاثة أمثال هذا المبلغ (حضارة العرب ١٩٦).

(٢) مائة امرأة غيرن التاريخ ١٠٩.

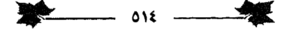
والحديقة فوق ربوة فى وادى نهر (جمنا) وعلى حافة بحيرة بالقرب من عاصمة المغول مدينة (أكبر) أو (أجرا)[١] كما يطلق عليها الآن، وهى جنوب دلهى فى وسط شبه القارة الهندية.

زار جستاف ليبون الضريح فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وقال: بدأ الملك شاه جهان ببناء تاج محل فى ١٦٣١م ليكون ضريحًا لزوجته التى لم يقدر على سلوها، فعزم على إقامة أثر لها أجمل من كل ما عرفه بنو الإنسان[٢].

أما الأستاذ أحمد عبد المنصف الذى زار الضريح فى ١٩٦٢م فقد قال: ففى بحيرة يترقرق ماؤها صافيًا انعكست على ضوء القمر صورة تاج محل.. فجاءت صورة للطبيعة والفن نادرة المثال، توحى بالجمال والخيال، وبدأنا نشاهد من فوق هذه الصورة إحدى عجائب الدنيا، شيده الحب والأسى والحزن، فبقى على مَرِّ السنين دمعة حائرة يذرفها قلب كسير فى هذه البقعة[٣].

أما جستاف ليبون فيصف الضريح من الخارج قائلاً: بنى تاج محل من المرمر الأبيض فى وسط قاعدة فسيحة رخامية تعلو خمسة أمتار عن وجه الأرض، وتمتد مائة متر من كل جانب[٤]، ويقوم على زوايا تلك القاعدة الأربع أربع منائر، ويلمس النهر أسفل إحدى جنباتها[٥]، وتحيط الحدائق ذات النبات الجميل بجنباتها الثلاث الأخرى إحاطة تأخذ بمجامع القلوب، ويحف حول تلك الحدائق سور ذو شرفات، وتدخل من باب كبير أنشئ على الطراز الفارسى[٦].

(١) أجرا: بمقاطعة أوتارابرادش، ويقال أيضًا أكرا، تقع على نهر جمنا، أسسها السلطان أكبر لتكون عاصمة إمبراطورية المغول، بها مسجد اللؤلؤة والمسجد الكبير من أعظم المعالم الإسلامية فى الهند، وهى شمال الهند جنوب الهملايا، بين سهول نهرى الجنج وجمنا.
(٢) حضارة العرب ١٩٦.
(٣) فى بلاد البقرة المقدسة ١٤٦.
(٤) أى إن شكله مربع متساوى الأضلاع.
(٥) هو الجانب الشمالى، ويقال الآن إنه انخفض عن باقى الجوانب بمقدار ثلاثة سنتيمترات ونصف، مما قد يؤدى إلى إلحاق أضرار كبيرة بالبناء.
(٦) حضارة العرب ١٩٧.



والشكل المعمارى للضريح جاء فى وصفه فى الموسوعة العربية الميسرة كما يلى:

ضريح رائع الصنع، أنيق العمارة (بأجرا بأوتار ابرادش) بالهند، يعتبر من أجمل نماذج الطرز الإسلامية بالهند، وكلمة (تاج محل) محرفة عن الاسم الذى تحمله الأميرة وهو ممتاز محل، شيد بالمرمر الأبيض على مصطبة يغطى سطحها بالمرمر الأبيض المجلوب، وأقيمت عند كل زاوية من زوايا المصطبة مئذنة متناسقة الأجزاء ارتفاعها ٣٧ مترًا، يحيط بدائر كل منها ثلاث شرفات، وفى وسط المصطبة يرتفع الضريح فى شكل رباعى، ويشكل الجزء الأوسط من البناية القبة الرئيسية وقطرها ١٧ مترًا، وارتفاعها ٢٢,٥ مترًا، ولكل من وجهات البنايات الأربع مدخل عال مغطى بعقد، وتحت القبة التى تعلو وسط البناية ضريح الأميرة، وإلى جانبه ضريح زوجها، وكلاهما مزخرف بالنقوش الكتابية[١].

وارتفاع القبة هذا من الداخل أما الارتفاع العام فقد حدده جستاف ليبون، قال: ولتاج محل أبعاد كبيرة، فترتفع قبته عن سطح الأرض أكثر من ثمانين مترًا، ويدخل من أربعة أبواب يبلغ ارتفاع كل واحد منها عشرين مترًا.

ويرى فى وسط تاج محل ضريح شاه جهان وضريح زوجته المحبوبة[٢].

وقد أخذنا وصف القبرين من زائرين لهما أحدهما جستاف ليبون الذى زارهما فى أواخر القرن التاسع عشر وذكرهما فى كتابه الشهير (حضارة العرب).

والثانى زار القبرين فى القرن العشرين، هو أحمد عبد المنصف صاحب كتاب (فى بلاد البقرة المقدسة)، ويقول: والقبران متجاوران، منقوش عليهما نقوش من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، والمبنى شيد كله بالمرمر النادر النقى، حتى قيل إن لونه يتغير إذا أشرقت الشمس، فيبدو رماديًا، وإذا توسطت السماء صار ناصع البياض، وعند الغروب يميل إلى الاحمرار، وفى ضوء القمر يتراءى للناظر أنه لوحة رسام حوت كل هذه الألوان مختلطة[٣].

(١) الموسوعة العربية الميسرة ٤٧٩.

(٢) حضارة العرب ١٩٧.

(٣) فى بلاد البقرة المقدسة ١٤٧.



وهناك تحفة أخرى هى التابوت الذى وضع فيه جثمان الملكة، فقد اهتم به الملك، ولفه بحبات اللؤلؤ والزمرد والياقوت والفيروز، كل ذلك فوق تلبيسات من الذهب الخالص والفضة.

أما الزائر الآخر للضريحين جستاف ليبون فيقول واصفًا لهما: وإذا نظرت إلى الضريحين المصنوعين من المرمر الناصع، رأيتهما مثقلين بالكتابات والزينة الغنية مع عظيم إتقان وظرف، وعلمت أن أزهارها المرصعة بالفسيفساء، والتى تطفح بها من الأسفل إلى الأعلى من أجمل ما صنع الإنسان، فتتألف كل زهرة من مائة من الحجارة الصقيلة الملونة المتنوعة التى جمع ما بينها صانع ماهر، فأكسبها الصورة التى أرادها، وتلك الحجارة الملونة هى من اللازورد[1] والزبرجد[2] والعقيق واليصب[3] والرخام والمرمر الأصفر الذهبى.

وزين أسفل الإطار المثمن والغرف القريبة منه بما ارتفاعه متر و٣٠ سنتيمترًا من الألواح الرخامية الناصعة الكبيرة ذات النقوش البارزة من الفسيفساء على شكل الأزهار وأوانى الأزهار، ومثل تلك الألواح مما يشاهد أيضًا فى أسفل القباب التى تعلو مداخل تاج محل المزينة بالخطوط العربية المكتوبة بالرخام الأسود[4].

إننا لو أردنا أن نقيم هذا البناء، فلن نستطيع، فهو بحق أجمل الآثار الإسلامية على الإطلاق على ظهر الأرض، ويستحق أن يكون من أعظم روائع الفن العالمى، حتى اتخذته الهند شعارًا لدولتها ورمزًا يدل عليها كما يدل الهرم على مصر، وكما يدل تمثال الحرية على الولايات المتحدة الأمريكية.

والعجيب أن الإمبراطور شاه جهان فكر أن يبنى مقبرة له مماثلة على جانب النهر الآخر، ويصل بين البناءين بجسر من الفضة والذهب، ولكن ما صرف على ضريح ممتاز خاتون، وانشغاله فى ذلك العمل جعل أبناءه ـ كما قلنا ـ يقفون ضد هذه الرغبة، ويختلفون ويتنازعون الأمر بينهم، حتى انتصر أخيرًا أحد أبنائه (عالمكير).

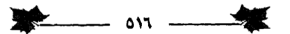
---

(١) حجر كريم أزرق اللون، وهى كلمة فارسية معربة.

(٢) هو صوانات الحديد والمغنيسيوم الطبيعى، وهو نوعان، مفتوح اللون أو زيتونى أى له لون الزيتون. (معجم الأحجار ١٠٦).

(٣) اليَصَب أو اليشب أو اليصف: حجر سليكى متبلِّر أحمر أو أصفر بنى أو أسود، صالح للزينة. (معجم الأحجار والمعادن ١١٦).

(٤) حضارة العرب ١٩٩.



قال د. مؤنس: فى ذى القعدة ١٠٦٨هـ (الموافق يونيو ١٦٥٨م) تولى عرش الهندستان محيى الدين أورنكزيب عالمكير، بعد حروب طويلة مع أخوته، وأخذ فى إصلاح آثار الحروب، وتعويض الأهلين عما أصابهم من شر[١].

ولما جلس عالمكير على العرش، حدد إقامة أبيه، مع تكريمه ورعايته وتعظيمه، ولكن بعيدًا عن السلطة ونظام الدولة وسدة الحكم.

لم يستطع شاه جهان البعد عن مقام الحبيبة، فطلب من ابنه أن يكون إلى جوارها، فنقله إلى قصر قريب، وحدد شاه جهان الحجرة التى عاش فيها ثمانى سنوات حتى لحق برفيقته، وكانت الحجرة تطل على تاج محل.

قال الأستاذ أحمد عبد المنصف: وعندما زرنا القصر ذكر لنا دليلنا أن هذه الغرفة كانت جدرانها مغطاة بقطع صغيرة خماسية الشكل من المرايا تنعكس عليها آلاف الصور لتاج محل، فكان السلطان الوفى المحب يجلس طوال سنوات عمره التالية يتطلع إلى هذا البناء المبدع، ويتذكر زوجته[٢].

وللأسف الشديد نجد التلوث الذى حاق بالكرة الأرضية قد أثر على تاج محل وأخذ يعانى وكاد أن يفقد بريقه، وذلك بسبب المبانى حوله والهواء الملوث من عوادم السيارات والحافلات وبعض المصانع، وتسرب المياه الجوفية من أثر الأمطار والفيضانات، حتى إن بعض الأحجار تعرضت للهدم.

وقد بدئ أخيرًا فى عملية الترميم والإصلاح بأن أغلقت بعض المصانع المجاورة التى تنفث الغازات الكبريتية والمواد المؤثرة على مرمر ورخام المبنى.

وكانت أول عملية فى إصلاح المبنى قد بدأت فى ٥ يونيو ١٩٩٨م، وبإصلاحه وترميمه يمكن أن يزاد فى عمر عجيبة من عجائب الدنيا، ورمز من رموز الحب الصادق الخالص.

---

(١) أطلس الإسلام ٢٥٨.

(٢) فى بلاد البقرة المقدسة ١٤٩.



وقبل أن نترك تاج محل أعجوبة البناء، نذكر كلمة سجلها جستاف ليبون وبيّن فيها كيف كان يتعامل الإنجليز المستعمرون مع الآثار الإنسانية فى البلاد التى يستعمرونها، قال: وتاج محل هو من المبانى النادرة التى تفلتت من يد التخريب الإنجليزية المنظمة، والمصادفة هى التى أنقذت تاج محل من عدوان الإنجليز، فقد رأى الحاكم الإنجليزى (لورد بنتنك) أن تاج محل لا يدر شيئًا، فاقترح أن يهدم، وتنزع فضته، وتباع قطعه فى الأسواق، ولولا ما لتاج محل الذى هو من أعظم المبانى التى شادها الإنسان من الأهمية العالمية الكبرى التى تكفى وحدها لزيارة الهند لنكب العالم بهدمه[1].

* * *

(١) حضارة العرب ١٩٩.

مسجد تاج محل

لقد حرص شاه جهان على بناء المسجد المصاحب للمقبرة، وجعله أحد بناءين يقعان غربى وشرقى الضريح.

أما المسجد فهو ناحية الغرب ليكون تجاه الكعبة المشرفة، وكله مكسو من الداخل بالآيات القرآنية وأسماء الله الحسنى على الرخام الأبيض والأحمر، وفوق المسجد أربع مآذن وثلاث قباب.

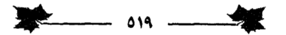
وبجوار المسجد يوجد بقايا شاهد مساحته ستة أمتار ونصف فى مترين، وهو المكان الذى دفنت فيه ممتاز محل بعد وفاتها حتى تم بناء ضريحها.

أما المبنى الشرقى فهو بنفس رسم وبناء المسجد، إلا أنه ليس للصلاة، وإنما للوضوء والاستعداد للصلاة أو لاجتماع الحجاج الذاهبين للحج، وقد زينت حوائطه بالورود والرسومات الرقيقة المرسومة على الرخام الأبيض والأحمر.

ولنا كلمة أخيرة تعليقًا على هذا العمل الإنشائى ككل، إن المرء يعجب وهو يقرأ هذه الأخبار التى جرت أحداثها على أرض الإسلام، لقد كان الإسلام حريًا أن يغطى أرض الهند كلها فى ذلك الزمان، حيث لم تكن فى الهند ديانة أقرب إلى العقل من الإسلام، ولكن هؤلاء الحكام الذين ساءت فكرتهم عن الحكم، وغرهم ما كان بأيديهم من السلطان والثراء والمال - وشغفوا بالمظهريات والقشريات والمبانى والآثار المعمارية، وأغرقوا أنفسهم وشعوبهم فيما لا علاقة له بالدين وبالعقيدة، فخسر الإسلام أرض الهند، ومن المؤكد أن الفاتحين الأوائل كانوا يحلمون بأن تتحول الشعوب الهندية إلى اعتناق الإسلام.

وجاء أخلافهم من بعدهم ليحولوا الأمل العقائدى إلى ضريح يضم بضعة عظام، ويبقى شاهدًا على ما أصاب الإسلام على أيدى هؤلاء الأباطرة من انتكاس ووبال.

فالمسألة فى نظرنا وجهان، وجه عقائدى يهتم بنشر الإسلام، ويتحقيق منهجه فى التوحيد والعدالة والرخاء للأمة الإسلامية والشعوب التى تعيش فى كنفها.



والوجه الثانى: وجه مادى حضارى تاريخى يتعلق بالمنشآت والآثار، وإذا كان تاج محل قد بهر الكثيرين بما مثله من أبهة وعظمة فنية، فإنه من جانب آخر أحنق قلوب العامة من المسلمين وغير المسلمين، كما أنه من جانب ثالث أغرى الطامعين من المستعمرين بتملك جواهره وسرقة كنوزه.

ونتساءل: أين الإسلام من هذا كله؟ فقد بقيت الهند حتى الآن غارقة فى وثنيتها، محاربة للوجود الإسلامى فى شبه القارة الهندية، حتى شاع أخيرًا اتجاه بين الهندوس إلى محاربة الإسلام، واجتثاث أصوله من الهند، لتصبح بلدًا خالصًا، تسوده الوثنية الهندوسية.

وقد نشر مؤخرًا أن هؤلاء الهندوس عاكفون على دراسة التجربة التاريخية التى جرت على أرض الأندلس، حيث قضى على الإسلام بأساليب متنوعة بلغت ذروة بشاعتها فى محاكم التفتيش التى تعتبر الآن وصمة عار تاريخية على جبين العهد الذى استهل بطغيان فرديناند وإيزابيلا أواخر القرن الخامس عشر).

وإنا لنعتقد أن مثل هذا الخيال الذى يراود بعض التجمعات الهندوسية فى الهند سوف يتحطم على صخرة الوجود الإسلامى الذى يمثل ٢٠٪ من عدد السكان البالغ الآن مليارًا من البشر أى: (٢٠٠ مليون مسلم).

أما ممتاز محل خاتون فقد كانت كأية امرأة مخلصة، عاشت حياتها إلى جوار زوجها، لم يرد فى أخبارها أنها كانت مغرمة باقتناء الجواهر والتحف وتكديس الثروات، وقد كان من الممكن أن تجمع من ذلك الكثير، بل لقد تركت هذه المهمة لزوجها من بعدها، ومضت هى إلى ربها راضية مرضية، ولعلها لو كانت على قيد الحياة، وفكر زوجها فى إنفاق هذا المال فى بناء تاج محل ـ لردته عن ذلك، ولحولت تيار الإنفاق لتزويج الشباب العاجز عن تكلفة الزواج، ولبنت مساكن لهؤلاء العرائس، إذ كانت فى الحقيقة تمثل روحًا إصلاحية تحل دائمًا مشكلات الناس، لا فرق بين مسلم وهندوكى، وحتى ولو كانت الوصية التى أوصت بها زوجها الإمبراطور صحيحة، وهى أن يبنى لها قبرًا لا مثيل له، فلا يمكن أن يخطر على بالها آنذاك أن يكون هذا الضريح بهذا الشكل، وهذا الإسراف.

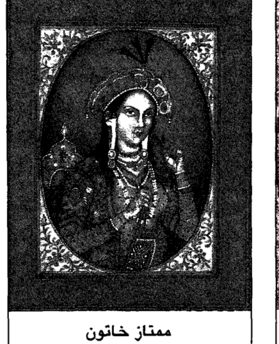
وحسبنا من ممتاز خاتون أنها مع بعض الملكات المسلمات السابقات عليها استطعن أن يمحون تلك العادة القبيحة؛ عادة وأد المرأة إذا مات زوجها لتدفن معه، وكان ذلك فاشيًا فى الهند فى أوساط الوثنيين من الهنادكة، فحاربت الملكات تلك العادة القبيحة حتى قضين عليها.

وإذا كنا قد وقفنا أمام بعض النقاط الأساسية فى تاريخ ممتاز خاتون، فإن ذلك لا يعنى أنه نهاية المطاف فى حياة هذه المرأة، فإن علاقاتها بشعبها، ومشكلات أفراده كانت تجعل من الملكة ممتاز خاتون نهرًا من الخير يرتوى منه كل عطشان، ولعل هذا الخير الذى سبق فى حياتها كان وراء صمت الشعب الهندى عن جنون الإنفاق الذى أصاب زوجها بعد موتها، وهو يحاول أن يخلد ذكراها ببناء تلك العجيبة من عجائب الدنيا، عجيبة تاج محل.

* * *



شاه جهان

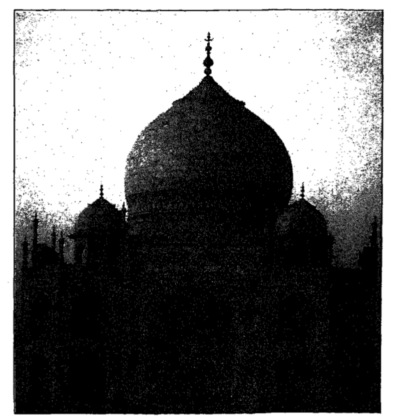


ممتاز خاتون

الزوجـــان العـاشقــان



تاج محل



منظر مكبر لقباب مسجد تاج محل

١٣

خناثة بنت بكار

(زوج مولاي إسماعيل)

تمهيد

هذا الحديث عن (خناثة بنت بكار) يدلف إلى مغرب العالم العربى الإسلامى ليختار امرأة ذات تأثير مدهش، ممتد عبر القرون الأربعة الأخيرة، منذ عام (١٠٥٦ للهجرة)، وهو العام الذى ولد فيه زوجها مولاى إسماعيل بن الشريف، سلطان المغرب، الذى نسلت منه ومن زوجه خناثة ـ السلالة الملكية الحاكمة فى المغرب حتى الآن.

وقد توفى زوجها ـ مولاى إسماعيل ـ عام ١١٣٩ للهجرة، بعد أن حكم البلاد سبعًا وخمسين سنة.

لم تكن خناثة من سلالة ملكية، كيما يطلبها السلطان للزواج، بل كانت ابنة لشيخ قبيلة صحراوية، هى: قبيلة (المغافرة).

ويبدو أن سلاطين المغرب من آباء إسماعيل كانوا يحرصون على الإصهار فى فتيات هذه القبيلة، حتى كان السلطان إسماعيل يذكر دائمًا أن المغافرة أخواله، وكذلك كان الملك الراحل الحسن الثانى يعتز بأصله الصحراوى، حتى كانت مسيرته الخضراء نحو الصحراء المغربية جزءًا من اعتقاده بوحدة المغرب، واعتزازه بالانتماء إليها.

ومع أن مولاى إسماعيل لم يكن يريد الإصهار فى واحدة من بنات تلك القبيلة الصحراوية، فقد حدث أثناء زيارته التفقدية لأطراف البلاد ـ أن مر بمنازل المغافرة فى الصحراء المغربية، وهناك تحقق ما لم يكن فى حسبانه، فقد أهداه شيخ القبيلة (بكار) ابنته ذات العشر السنوات، تحية له، وإكرامًا لزيارته.

وتلك كانت بداية الطريق إلى الدور الأمجد، الذى قامت به (خناثة) المغافرية فى تاريخ الأسرة العلوية ـ لقد قبل السلطان إسماعيل الهدية الساذجة ذات العشر السنوات، وعاد بها إلى مكناس، وتزوجها، فما لبث أن تفتحت مواهبها، وحفظت القرآن، ودرست الحديث، وقرأت كتب الطبقات والتراجم، وعرفت سير العظيمات من النساء، وكانت لها منهن قدوة، وفيهن أسوة.



فما مرت بضع سنوات من هذا الزواج المبارك حتى كانت قد استوعبت دروسًا كثيرة، أقدرتها على مواجهة ذلكم الحشد من الضرائر، حرائر وإماء، وكأنها كانت تسير على طريق رسمتها لها يد القدر، لكى تصبح أبرز شخصيات القصور الملكية، وأعمق النساء تأثيرًا فى سياسة السلطان إسماعيل، على النحو الذى يتجلى على صفحات هذه الحلقة من سلسلة (نساء وراء الأحداث).

إن فى سيرة هذه المرأة مجموعة من المعانى التى ينبغى إبرازها، والتأكيد عليها فى هذا التمهيد.

أولها: دلالة سيرتها على وحدة المغرب، ريفه وصحرائه، وقد استقرت هذه الوحدة، رغم الأحداث الكثيرة التى حاولت فصم عراها، خلال العهد الاستعمارى، الذى يدين بالمبدأ القائل (فَرِّق تَسُد)، وإنما تأكدت هذه الوحدة نتيجة العروة الوثقى التى تربط أبناء الصحراء بإخوانهم من أهل المغرب الأقصى، وهى عروة مستمدة من وحدة التراب، والدين، واللغة، والمصالح المشتركة.

وكل محاولة لتفريق المغاربة يكون هدفها دائمًا على حساب الوحدة الترابية، والدينية، واللغوية، والاقتصادية، فما كان أبناء المغرب إلا جسدًا واحدًا، يدينون بدين واحد، ويتحدثون لغة واحدة، ويقتسمون رزقًا مشتركًا، بصرف النظر عن الانقسام اللهجى الذى يثرى مفهوم الوحدة الشاملة، ومن ثم كان انتقال (خناثة) من الصحراء المغافرية، إلى مكناس - انتقالاً إلى منازل العمومة، أو الخئولة - لا فرق.

وثانيها: أن أسرة السلطان لم تكن تمثل طبقة أرستقراطية مترفعة تشعر معها سائر القبائل والأسر بالدونية والقلة، بل لقد آمن السلاطين العلويون دائمًا بأن أبناء المغرب، بعضهم لبعض أكفاء، مهما تناءت الديار، وهكذا كانت (خناثة) المعافرية عروسًا لسلطان البلاد، وموحدها، مولاى إسماعيل بن الشريف، وهكذا أيضًا كانت نساء أخريات من قبائل شتى عرائس لمن جاء بعد إسماعيل من ولده وأحفاده، حتى الآن.

وآخرها: أن المغرب بكل أبعاده وبلاده كان ولا يزال يرى فى ذرية مولاى إسماعيل وزوجه خناثة رابطة جامعة لكل المزايا المغربية، والسجايا التى يرتضيها الجميع شعارًا ورمزًا لوحدة المغرب، وقد تجلى ذلك فى استمرار هذه



الذرية على رأس السلطة عبر ثلاثة قرون ونصف القرن، فأبناء إسماعيل هم السلاطين، وهم رمز الكفاح ضد الاستعمار، وهم القادة فى صدر المعركة، وهم الذين يفضلون أن يعيشوا فى المنافى والسجون، على أن يهادنوا العدو، أو يخضعوا للأجنبى.

ويرحم الله المغفور له السلطان محمد الخامس، ورفيقه فى السجن والمنفى ولده المغفور له الملك الحسن الثانى، فقد كانا رمزين لجهاد المغرب الحديث، شرفت بهما سلالة مولاى إسماعيل، كما شرف بهما الشعب المغربى، ريفًا وصحراء، فكل مغربى يجد فى العرش العلوى صورته، ماضيًا، وحاضرًا ومستقبلاً.

و«خناثة بنت بكار» هى الجدة المجاهدة الحكيمة، الشجاعة التى لم ترهب أن تدخل السجن فى سبيل ما تراه حقًا، وهى أيضًا الرحم التى أنجبت، ورعت، وعلمت، وآمنت بحق الشعب المغربى فى الاستقرار، تحت راية السلطان الشرعى الذى يحمى هذا الاستقرار.

* * *



الأميرة لالة خناثة بنت بكار، زوج مولاى إسماعيل

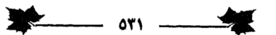
خناثة[1] بنت بكار

لئن كانت الشخصيات التى عالجناها حتى الآن فى سلسلتنا (نساء وراء الأحداث) مستقاة من المشرق العربى والإسلامى، فإن شخصية هذه الترجمة مستقاة من تاريخ الإسلام فى المغرب العربى، وقد شدَّنا إلى ذلك دورها العظيم، وشخصيتها المرموقة، وتأثيرها فيما جرى من أحداث لفترة طويلة فى تاريخ المغرب العربى، تلكم هى السيدة خناثة بنت بكار زوج مولاى إسماعيل جد الأسرة العلوية المجيدة، التى ما زال سلطانها مهيمنًا على مغرب العالم العربى.

وسوف نقدم بين يدى حديثنا عن هذه السيدة طرفا من الخلفية التاريخية والجغرافية التى تحركت فيها الأحداث.

* * *

(١) خناثة: كلمة على وزن فعالة، مأخوذة من وصف بمعنى الليونة والتكسر فى المشية والكلام، وكتبها بعضهم بألف مقصورة (خناثى). قال صاحب جمهرة أسماء النساء: خنثة هى المرأة اللينة تتثنى، قريب من (مائسة).



الإسلام والمغرب

تقع بلاد المغرب فى شمال غرب إفريقية فى الزاوية بين المحيط الأطلسى والبحر الأبيض المتوسط، وفى شمالها الباب الفاصل بين أوربا وإفريقية عند مضيق جبل الزقاق[1] (أو مضيق جبل طارق)[2] فيما بعد، وتضاريسها عبارة عن سهول وجبال الأطلس الصغرى أو جبال الريف، وجبال الأطلس الكبرى، وطبيعتها أشبه بطبيعة جبال أوربا أكثر منها بإفريقية من كثرة المطر والخضرة.

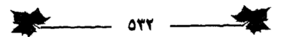
خرج المسلمون للفتوحات فى السنة الثانية عشرة للهجرة، واتجهوا شرقًا وغربًا، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا، وما إن انتهى القرن الأول الهجرى حتى كان الإسلام قد ظلل ربوع إفريقية وأسيا وجزءًا من أوربا، ومن بين البلاد التى فتحت بلاد المغرب الأقصى، وذلك بناء على رغبة سكانها الأصليين (البربر)[3].

يقول أبو بكر الشريف: وأبلغ البربر والى المسلمين على الديار المصرية عمرو بن العاص بما يلاقونه من ظلم واضطهاد، راجين منه مد الفتح الإسلامى

(١) طوله ٢٩ كم، له عتبة ارتفاعها ٣٥٠ مترًا، تمنع الماء البارد الذى يقع فى المحيط من دخول البحر الأبيض، فلا يدخل إليه إلا الماء السطحى، وهو دفىء (الجغرافية التاريخية الإسلامية ٥١).

(٢) يقول ابن بطوطة فى كتابه تحفة النظار (٢/٨٢): فنسب لطارق، فيقال له جبل طارق، أو جبل الفتح، لأن مبدأه كان منه، وبقايا السور الذى بناه ومن معه باقية إلى الآن، تسمى بسور العرب. وابن بطوطة عاش ومات فى القرن الثامن الهجرى.

(٣) اتفق أغلب المؤرخين على أن البربر من أصل عربى من ولد قيس عيلان ابن مضر، فهم مهاجرون ساميون من عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد، ويقول د. أحمد شلبى: ويرى النسابة بالشمال الإفريقى أن لوانة من حمير وهوارة من كندة، وزناتة من التبابعة أو من العمالقة، وغمارة وزواوة ومكلانة من حمير. (موسوعة التاريخ الإسلامى ١٢٤٤، عن تاريخ الفتح العربى). وإن كان لبعض المؤرخين رأى آخر، فقالوا: إن البربر تسعة أعشارهم من الجنس الحامى الأسود، ونزحوا من الشرق، وبقيتهم من الشقر اختلطوا بالسكان الأصليين، مع أناس من الفاتحين من فينيقيين وإغريق ورومان ووندال وقوط، وكانوا يشبهون العرب فى جلدهم وتخشنهم. (الجغرافيا التاريخية الإسلامية ٥٤).
أما ابن خلدون فقد ذكر أن أحد ملوك التبابعة فى اليمن غزا المغرب وإفريقيا، وبنى بها المدن والأمصار، أى إن البربر خليط من العرب وسكان البلاد الأصليين، والله أعلم. وقال ابن خلدون: كان هؤلاء البربر قد دانوا بدين اليهودية. (ابن خلدون ٦/٢١٥).



ليصل إلى ديارهم، ونقل ابن العاص رغبتهم إلى الخليفة عمر بن الخطاب الذى كلفه بإنجاز المهمة[1].

والغريب أن الفتح المغربى تميز عن الفتوحات الأخرى بظاهرة فريدة هى: طول مدة الفتح، التى بدأت فى العقد الثالث الهجرى، وانتهت فى عام ٨٣ للهجرة، بعد القضاء على الروم ومن والاهم من سكان المغرب الأصليين.

قال ابن خلدون: إن البربر ارتدوا اثنتى عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة، ولم يستقر إسلامهم حتى جاز طارق بن زياد وموسى بن نصير إلى الأندلس[2].

ولكن منذ أن استقر الإسلام بالمغرب صارت له قاعدة ثابتة سلطانها لأهلها المسلمين، بحيث لم يعرف المغرب ما عرفته بقية البلاد المفتوحة، من تتابع العناصر الغالبة، وتنازع الدول على أرضه، فلم يخضع المغرب لسلاطين المماليك أو الترك، ولم يعرف غازيًا مستعمرًا إلا فى تلك المرحلة المظلمة من القرن العشرين، حين دخله الاستعمار الفرنسى عام ١٩١٢ للميلاد، وسرعان ما قاوم أهله وجود المستعمر حتى عاد المغرب حُرًا خالصًا لأهله فى عام ١٩٥٥ للميلاد.

لقد كان المغرب المسلم دائمًا وحدة بحيث امتزجت القومية مع الدين، ولم يستطع، ولن يستطيع أحد الفصل بينهما لأنهما صارا نسيجًا واحدًا.

ولابد أن نذكر هنا أبطالاً فى أيام الفتح الأولى مثل عقبة بن نافع[3] مؤسس مدينة القيروان الذى وصل مع صاحبه أبى المهاجر[4] إلى المحيط الأطلسى ناشرًا راية الإسلام، وهناك ما بين الرباط والدار البيضاء وقف على ربوة، وهتف: يا رب لولا هذا البحر لمضيت مجاهدًا فى سبيلك، ولو كنت أعلم بعده أرضًا[5] وناسًا لخضته اليوم.

---

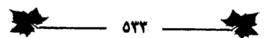
(١) اليهود المغاربة ١٨.

(٢) ابن خلدون ٦/ ٢٢٠.

(٣) هو عقبة الأموى القرشى، من كبار الفاتحين، ولد قبل الهجرة بسنة، وتوفى عام ٦٣ للهجرة كما قال ابن عبد الحكم: كان مقتل عقبة بن نافع وأصحابه كما حدثنا يحيى بن بكير عن الليث بن سعد فى عام ٦٣ للهجرة. (فتوح مصر ١٩٩)، وكان عمرو بن العاص قد وجهه للفتح عام ٤٢ للهجرة.

(٤) مولى بنى مخزوم، اسمه دينار، ولاه مسلمة بن مخلد أفريقية عام ٥٥ للهجرة، وفتح المغرب الأوسط، واستشهد مع عقبة، قرب القيروان عام ٦٣ للهجرة.

(٥) اكتشفت القارة الأمريكية بعد ذلك بحوالى ثمانية قرون، وهى على شط المحيط الأطلسى المواجه للشاطئ الغربى لإفريقيا.



وذكر محمد عبد الله عنان قصة عقبة مع الفتح، قال: إن عقبة لما انتهى إلى المحيط، دفع فرسه إلى الماء حتى بلغ نحره، ثم قال: اللهم إنى أشهدك أن لا مجاز، ولو وجدت مجازًا لجزت[1].

وهناك أسماء ما زال يذكرها التاريخ، لمعت فى سماء المغرب، مثل زهير بن قيس[2] البلوى، الذى قضى على كسيلة البربرى عام ٦٩ للهجرة.

وهذا حسان بن النعمان[3] الذى قضى على وجود الكاهنة اليهودية[4]، ونظم شئون المغاربة العسكرية والإدارية والمالية[5]، وكان له الفضل فى إدخال صناعة السفن.

ونذكر كذلك موسى بن نصير اللخمى[6] الذى ولى بعده، وفتح طنجة وسبتة عام ٩٠ للهجرة (الموافق عام ٧٠٩ للميلاد)، وفى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز[7] خاف على الإسلام وأهله فى المغرب، لبعد المسافة، وقرب الفتح، فبعث عام ١٠٠ للهجرة بعشرة من الفقهاء والعلماء ليعلموا البربر اللغة العربية وأصول الشريعة الإسلامية، ويفقهوا الناس فى أمور الدين، ويبينوا لهم الحلال والحرام.

---

(١) دولة الإسلام فى الأندلس ١/٣٠.

(٢) نسبة إلى قبيلة (بلىّ) اليمنية، من القادة الشجعان، شهد فتح مصر، كان له مع البربر وقائع، وجه له الروم من القسطنطينية مراكب إلى برقة، فقاتلهم، وثبت حتى قتل عام ٧٦ للهجرة (الموافق عام ٦٩٥ للميلاد).

(٣) الأزدى الغسانى، قائد من رجال السياسة والحرب، لقب بالشيخ الأمين، فتح قرطاجنة، ودانت له إفريقية عام ٧٦ للهجرة، توفى غازيًا للروم عام ٨٦ للهجرة (الموافق عام ٧٠٥ للميلاد).

(٤) قالت زينب فواز: الكاهنة يهودية، اسمها دهيا ابنة ثابت بن تيفان، ملكت إفريقيا، ماتت ولها من العمر ١٢٧ سنة. (الدر المنثور ١٩٤).

(٥) يذكر محمد حسونة طرفة عن وضع المغرب بعد هزيمة هذا القائد الهمام (حسان) لكسيلة بن عزم، يقول: إن الكاهنة اليهودية التى ظهرت بعد كسيلة الأوربى قالت لقومها: إنما يطلب العرب من المغرب مدنه وما فيه من ذهب وفضة، ونحن إنما نريد المراعى والمزارع، فالرأى أن نخرب هذه المدن والحصون، ونقطع أطماع العرب منها.

وفى ذلك يقول ابن خلدون: كانت المدن والضياع من طرابلس إلى طنجة ظلاً واحدًا، فخربت الكاهنة ديار المغرب، وجاست بالفساد خلاله، فشق ذلك على البربر، واستأمنوا حسان فأمنهم... فاستطاع أن يقضى على الكاهنة عام ٨١ للهجرة قرب جبل أوراس (الجغرافيا التاريخية الإسلامية ٦٠).

وقال من قبل ابن خلدون: فاستأمنوا لحسان فأمنهم، وللعلم كانت الكاهنة يهودية من جبال الأوراس.

(٦) فاتح مسلم، ولد بالشام عام ٢٦ للهجرة، تولى البصرة، ثم تونس، أتم فتح الشمال الأفريقى وجزر صقلية وكورسيكا وغيرها، غزا مع مولاه طارق الأندلس، توفى فى حج عام ٩٧ للهجرة.

(٧) الخليفة الصالح، ولد عام ٦١ للهجرة، توفى عام ١٠١ للهجرة، ثامن خلفاء بنى أمية، ولعدله لقب بخامس الخلفاء الراشدين.

قال د. أحمد شلبي: ومن أشهر هؤلاء عبيد الله بن يزيد المعافري، وسعيد بن مسعود التجيبي، وإسماعيل بن عبيد الأنصاري، وعبدالرحمن بن رافع التنوخي[١].

وظلت المغرب مرتبطة بالسلطة المركزية في دمشق أو بغداد حتى عام ١٧٢ للهجرة، وبالتحديد قبيل وفاة الهادي، وتولي الخليفة هارون الرشيد، حيث هرب إدريس بن عبد الله[٢] من ذرية الحسن بن علي، وهو الحفيد الرابع لفاطمة الزهراء - هرب إلى المغرب.

جاء في كتاب قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي: أن نشأة الأدارسة من بعد مذبحة (فخ) التي أقامها العباسيون ضد العلويين في عهد الهادي عام ١٦٩ للهجرة (الموافق عام ٧٨٦ للميلاد)، ففر جماعة من حفدة علي بن أبي طالب إلى المغرب الأقصى[٣]، وكان ذلك بزعامة إدريس، وكون أول دولة مغربية إسلامية مستقلة، والتف حوله البربر، وتزوج منهم، وانفصل عن الدولة العباسية.

قال ابن خلدون: في عام ١٦٩ للهجرة خرج من بني حسن بن الحسين بن علي ابن الحسن وأخوه عبد الله بن حسن، فقاتلهم محمد بن سليمان (العباسي) يوم التروية بفجّة على ثلاثة أميال من مكة، وهزمه وقتله، وافترق أصحابه، وكان فيهم عمه إدريس بن عبد الله ولحق بمصر نازحًا إلى المغرب.. واجتمع عليه البرابرة بالمغرب فبايعوه وقاموا بأمره.. وملك المغرب الأقصى[٤].

ولما اغتيل[٥] تولى ابنه إدريس الثاني[٦] الملك، وهو الذي أنشأ مدينة فاس[٧]، واتخذها عاصمة له[٨]، وبلغت ذروة مجدها في الرقي والعمران، وأصبحت مركزًا هامًّا للثقافة الإسلامية في المغرب.

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ٤/ ١٣٠.

(٢) قال المصعب الزبيري: إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، أمه عاتكة بنت عبد الملك بن هشام بن المغيرة، مات بالمغرب. (نسب قريش ٥٤)، وقيل لأبيه عبد الله الكامل.

(٣) قراءة جديدة ١٧٩. وفخ: واد بمكة، ويقال فج وفجة.

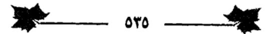
(٤) ابن خلدون ٤/ ١٤.

(٥) دفن بمدينة (وليلي) عام ١٧٥ للهجرة، كما قال ابن خلدون.

(٦) قال مصعب الزبيري: هو إدريس بن إدريس، ولد بالمغرب، وأمه بربرية. (نسب قريش ٥٦) وقد بايعه أهل المغرب وهو في بطن أمه، ثم بايعوه بجامع وليلي عام ١٨٦ للهجرة وسنه إحدى عشرة سنة، توفي عام ٢١٣ للهجرة.

(٧) شيد بها جامع القرويين في أواسط القرن الثالث الهجري.

(٨) لبث الأدارسة في الحكم من عام ١٧٢ إلى ٣٧٥ للهجرة (الموافق ٧٨٨ إلى ٩٨٥ للميلاد).





مولاى إسماعيل بن الشريف الحسنى

واستمر حكم الأدارسة أكثر من قرنين، وجاءت دولة المرابطين[1]، ومؤسسها عبد الله بن ياسين، الذى اتسمت دولته بالبساطة، مع التركيز على نشر الإسلام وتعاليمه على مذهب الإمام مالك، وازدهرت الدولة فى عهد يوسف بن تاشفين، الذى لمّ شمل المغرب الأقصى، وضم إليها الأندلس بعد معركة الزلاقة الشهيرة، التى انتصر فيها على الإسبان، وجمع شتات بلاد الأندلس، وأخّر خروج المسلمين من إسبانيا عدة قرون.

وجاء الموحدون بقيادة المهدى محمد بن تومرت[2]، وخليفته وتلميذه عبد المؤمن بن على، والموحدون[3] هم الذين فتحوا باب هجرة العرب وتدفقهم إلى المغرب الأقصى، ومنهم بنو هلال بن عامر بن صعصعة، وبنو سليم بن منصور.

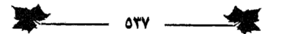
وتلت دولة الموحدين دولة بنى مرين البربرية الزناتية، وبسطت سلطانها على سبتة وطنجة، وبقيت فى الحكم قرابة أربعة قرون من عام ٥٩١ إلى ٩٥٧ للهجرة (الموافق عام ١١٩٥ إلى ١٥٥٠ للميلاد).

ولما ضعف أمر ولاتها، صار السلطان الفعلى فى يد جماعات من الصوفية الذين أقاموا أميرًا لهم من أبناء الأدارسة، وفى نفس الوقت تقريبًا بدأ الخطر النصرانى من البرتغال والإسبان فى الظهور، حتى كانت أوائل القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى)، فنشط هذا الخطر على المغرب، وتجمع الناس حول زعيم صوفى هو أبو عبد الله الجزولى، من أتباع أبى الحسن الشاذلى، وجاهد البرتغاليين حتى قتل، فاختار الناس أحد بنى محمد النفس الزكية بن الحسن بن الحسن بن على، من ينبع النخل فى الحجاز، وأطلق عليه وعلى شيعته: السعديون.

(١) مكث الحكم المرابطى من عام ٤٤٨ إلى ٥٤١ للهجرة (الموافق عام ١٠٥٦ إلى ١١٤٧ للميلاد)، وهم عدة قبائل تنسب إلى حمير، دخلوا المغرب مع موسى بن نصير، وتوجهوا مع طارق إلى طنجة، ثم استوطنوا المغرب الأقصى.

(٢) أنشأ مدينة المهدية، شمال الرباط، على بعد ٤٠ كم منها، وهى غير المهدية عاصمة الفاطميين، بجوار القيروان فى تونس، وقد جدد بناءها جوهر الصقلى لما غزا المغرب عام ٣٤٤ للهجرة، ولكنه لم يمكث بها.

(٣) بقيت دولتهم فى الحكم أكثر من قرن، من عام ٥٢٤ إلى ٦٦٨ للهجرة (الموافق عام ١١٣٠ إلى ١١٦٩ للميلاد).



يقول د.حسين مؤنس:... أما تلقبهم بالسعديين، فبعض المؤرخين ينكرون عليهم النسب الشريف، ويقولون إنهم منسوبون إلى بنى سعد بن بكر، من قيس عيلان، من مضر وهم رهط حليمة السعدية مرضعة الرسول ﷺ.. وهذا القول مقبول لدينا[1].

وطرد السعديون البرتغال من أغادير وما حولها، وجعلوا مراكش عاصمة جديدة لهم، وذلك عام ٩٤٨ للهجرة (الموافق عام ١٥٤١ للميلاد).

وفى خلال القرن التالى انقسمت المغرب، وضاعت وحدتها بسبب صراعات بين الصوفية والبربر وأهل الأندلس (الموريسكيين)[2] الذين طردهم فيلب الثانى[3] من غرناطة.

هذه الصراعات مهدت لقيام دولة فتية جديدة، هى دولة الأشراف العلويين، التى حاولت توحيد المغرب من جديد، وعملت على طرد الأوربيين من فرنسيين وإنجليز وإسبان وبرتغال ـ من المغرب.

وقد شرح د. حسين مؤنس حال البلاد فى تلك الفترة، قال: فى أثناء فترة التفرق والضعف التى شملت المغرب الأقصى كان الأوربيون قد ثبتوا أقدامهم على مراكز الساحل الشمالى للمغرب، فمدينة طنجة كانت أولاً بيد البرتغاليين، وفى عام ١٠٧٢ للهجرة (عام ١٦٦١ للميلاد) تزوج شارل الثانى[4] ملك إنجلترا وارثة عرش البرتغال، فانتقلت طنجة إلى يد الإنجليز.

أما سبتة فكانت فى يد الإسبان، وكذلك مليلة، وأما البلاد الواقعة شرقى وغربى مليلة، فكانت تحت سيطرة التجار الفرنسيين، تؤيدهم الحكومة الفرنسية[5].

---

(١) الأطلس الإسلامى ١٨٤.

(٢) فى ٢٢ سبتمبر عام ١٦٠٩ للميلاد صدر قرار بنفى الموريسكيين أو العرب المتنصرين إلى المغرب، وقد ذكر الأستاذ محمد عبد الله عنان نص القرار، وفيه: فى ٢٢ سبتمبر عام ١٦٠٩ للميلاد أعلن قرار النفى، وفيه: التنويه بخيانة الموريسكيين، واتصالهم بأعداء إسبانيا، وإخفاق كل الجهود التى بذلت لتنصيرهم وضمان ولائهم، وما استقر عليه رأى الملك من نفيهم جميعًا إلى بلاد البربر. (دولة الإسلام فى الأندلس ٤/٣٩٦).

(٣) ملك إسبانيا والبرتغال ونابلى وصقلية، تزوج مارى ملكة إنجلترا، بلغت محاكم التفتيش ذروة نفوذها وسيطرتها إبان حكمه، حطم الإنجليز والزوابع أسطوله الذى لا يقهر (الأرمادا) عام ١٥٨٨ للميلاد، مات عام ١٥٩٨ للميلاد.

(٤) ملك إسبانيا ونابلى وصقلية، ملك عام ١٦٦١ للميلاد، وتوفى عام ١٧٠٠ للميلاد دون عقب.

(٥) الأطلس الإسلامى ١٨٥.

دولة الأشراف العلويين

الآن وصلنا بعد هذه العجالة عن تاريخ المغرب إلى عصر الأميرة خناثة زوج مولاى إسماعيل، أعظم سلاطين تلك الفترة، فهو رابع سلاطين الأشراف.

والأشراف هم سلاطين المغرب، وينتسبون إلى رسول الله ﷺ عن طريق الحسن ابن على، وأصلهم من ينبع أو الينبوع[1].

قال مؤرخ المغرب محمد الصغير: كان النبى ﷺ قد أقطع على بن أبى طالب إياه، فلذلك بقيت به سلالته ﷺ[2].

وسبب مجيئهم للمغرب أن (سجلماسة)[3] كانت خالية من سكن الأشراف، وكان أمير الحج فى إحدى سنوات المائة السابعة للهجرة قد اجتمع بالسيد حسن بن القاسم[4] الجد الثامن لمولاى إسماعيل، وأخذ يحسن له موطنه المغرب، ويزين له الإقامة به، حتى استماله، وأجمع على السير معه، وقدموا به، فسكن بلدهم.

وقد تولى الأشراف حكم البلاد من أوائل القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) حتى الآن.

وينقسمون قسمين: الأشراف السعديين أو الحسنيين، وقد حكموا حتى عام ١٠٦٩ للهجرة (الموافق عام ١٦٥٨ للميلاد)، ثم الأشراف الفلاليين[5] أو السجلماسيين[6] أو العلويين، وحكموا من عام ١٠٧٥ للهجرة (الموافق عام ١٦٦٤ للميلاد) حتى الآن.

---

(١) مدينة ساحلية بين جدة والعقبة، وتسمى ينبع البحر، أما ينبع النخل فإن بها مقبرة دارسة للشرفاء جدود الأسرة العلوية الملكية بالمغرب.

(٢) روضة التعريف ١٩.

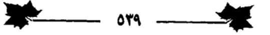
(٣) سجلماسة: هى بلدة جنوب المغرب طرف بلاد السودان، بها عنب وثمر، بينها وبين فاس عشرة أيام. (معجم البلدان).

وقال ابن خلدون (٦/٢٨٦): اختط بعض الخوارج سجلماسة عام ١٤٠ للهجرة أيام المنصور والمهدى العباسيين.

(٤) جاء فى روضة التعريف أن محمدًا النفس الزكية هو الأب الخامس عشر للسيد حسن بن القاسم.

(٥) نسبة إلى تافيلالت أو فيلالة، وهى سهل فيضى بإقليم الرشيدية. (روضة التعريف).

(٦) نسبة إلى سجلماسة، مكان نزول الأجداد فى المغرب.



ويعتبر زوج الأميرة خناثة، بهجة المملكة المغربية من الحكام العلويين الأشراف، وفخر السلاطين وأتقاهم وأذكاهم، فقد ساعده طول عمره فى الحكم على إظهار قدراته الخاصة فى مجال السياسة والحكم.

وهو مولاى إسماعيل بن الشريف[1] بن على بن محمد يرقى نسبه إلى على ابن أبى طالب، والسيدة فاطمة الزهراء عن طريق ابنهما الحسن رضي الله عنه، فالإمام علىّ (كرم الله وجهه) هو الجد الثامن والعشرون للسلطان إسماعيل، والسلطان هو الجد العاشر لأمير المؤمنين محمد السادس[2]، الملك الحالى للمغرب، بعد أن اعتلى عرش المملكة فى ٢٣ يوليو عام ١٩٩٩ للميلاد (الموافق ١٠ ربيع آخر عام ١٤٢٠ للهجرة)، إثر انتقال الملك الحسن الثانى إلى الرفيق الأعلى، طيب الله ثراه.

ولد السلطان إسماعيل بوادى يفلى، من مدينة تافيلالت، بمنطقة السوس، فى القصر المعروف بأمجاد، فى ضحوة ١٨ (من ربيع النبوى)[3] من عام ١٠٥٦ للهجرة (الموافق ١٦٤٥ للميلاد).

ووالده شريف بن على بن محمد، أول من بويع له من الفرع الفلالى العلوى.

وأم إسماعيل السيدة مباركة بنت يرك المغفرى، كانت من مماليك أولاد يحيى ابن ديمان.

قال مؤرخ الدولة العلوية: والمغافرة من العرب الذين مازالوا على زيهم، وشماخة أنوفهم.

وقال: كان المترجم رحمه الله ـ مولاى إسماعيل ـ يقول: المغافرة كلهم أخوالى[4].

---

(١) الشريف جد الأسرة العلوية، ولد عام ٩٩٧ للهجرة (الموافق ١٥٨٧ للميلاد)، كان رئيسًا وسيدًا فى قومه، بايعه أهل سجلماسة عام ١٠٤١ للهجرة، وهو أول من بويع من الأسرة بالإمارة، أما أول السلاطين فهو محمد بن الشريف، والثانى رشيد بن الشريف.

(٢) وهو الملك الثامن عشر فى الأسرة العلوية.

(٣) وقيل فى ذى الحجة.

(٤) المنزع اللطيف ٤٤.

نشأ إسماعيل فى حجر والده العظيم، حتى بلغ الثالثة عشرة، فانتقل أبوه إلى الرفيق الأعلى، فكفله أخوه الرشيد.

وكبر إسماعيل، فاستخلفه أخوه على مكناسة[1] الزيتون، ثم ضم إليه خلافة فاس، ثم توفى المولى رشيد بمراكش، إثر حادث مفاجئ، فقد جمح حصانه، وارتطم دماغه بفرع شجرة فمات لتوه، وكانت سنه اثنتين وأربعين سنة، كما قال د. حسين مؤنس[2]. وذلك فى ١٠ من ذى الحجة عام ١٠٨٢ للهجرة (الموافق ٧ إبريل عام ١٦٧٢ للميلاد).

واتفق الأشراف والأمراء على مبايعة إسماعيل بعد أخيه، وتمت البيعة بعد ذلك بستة أيام، وصار رابع ملوك الدولة العلوية بعد أبيه الشريف وأخيه محمد وأخيه الرشيد، وكانت سنه آنذاك ستًا وعشرين سنة، واجتمعت عليه الكلمة، واتفق الجميع على توليته.

وبدأت فترة الرخاء والازدهار بالمغرب الأقصى بتولى السلطان إسماعيل، ذلك الرجل الذى أفاض العرب والغرب فى ذكر حسناته وأخلاقه وصفاته، ذلك السلطان الذى كان شديد التمسك بالدين القائم على واجباته، لا يفتر لسانه عن ذكر الله، والصلاة على رسوله ﷺ، فهمته العالية، ونفسه الأبية، وتمسكه بالعدل فى الرعية، وخوفه الدائم من الله، والتزامه بكل أوامره ـ كل ذلك جعل منه درة فى جبين المغرب.

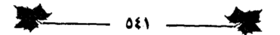
عده المؤرخون ثالث ثلاثة حكموا المغرب، أولهم يوسف بن تاشفين، الذى جمع المغرب والأندلس، وأخَّر خروج المسلمين من الأندلس عدة قرون لانتصاره فى معركة الزلاقة الشهيرة.

والثانى عبد المؤمن بن على، مؤسس دولة الموحدين التى وحدت المغرب المتنازع.

---

(١) مكناس مدينة بالمغرب، وهما مدينتان بهذا الاسم، اختط إحداهما يوسف بن تاشفين ملك الملثمين، وأكثر شجرها الزيتون، وبالمغرب بلدة أخرى مشهورة، يقال لها مكناسة الزيتون، حصينة، مكينة فى طريق المار من فاس إلى سلا على شاطئ البحر. (معجم البلدان ١٨١/٥)، وهى التى جعلها مولاى إسماعيل عاصمة لملكه، ودفن فيها بعد ذلك، وياقوت الحموى صاحب معجم البلدان توفى قبل الملك إسماعيل بقرابة قرنين من الزمان.

(٢) أطلس التاريخ الإسلامى ١٨٥.



ثم زوج خناثة، السلطان إسماعيل الذى يعتبر بحق فخر الملوك. لقد مكث فى الملك سبعًا وخمسين[1] سنة كلها إصلاح، وبناء وتأسيس لدولة شامخة، وترسيخ لمملكة عريقة عميقة الجذور وهى قائمة منذ أكثر من ثلاثة قرون، ومازالت حتى الآن من أثبت نظم الحكم الملكية فى العالم.

* * *

(١) توفى فى عام ١١٣٩ للهجرة (الموافق ١٧٢٧ للميلاد)، ودفن فى مكناس، ومقامه بجوار قصوره الشامقة هناك.

المغرب والسلطان إسماعيل

تولى إسماعيل بن الشريف حكم البلاد وهى مقسمة سبعة مغارب ـ كما قال د. عبد الهادى التازى ـ وذلك عدا الثغور المغربية التى تحت الهيمنة الأوربية، فجمع شمل البلاد، وحرر الثغور.

فمثلاً فى ٣٠ مايو عام ١٦٨١ للميلاد (الموافق ١٢ ربيع ثان عام ١٠٩٢ للهجرة)، استرد المهدية[١] من إسبانيا، وفى ١٦ إبريل عام ١٦٨٤ للميلاد (الموافق ١ ربيع أول عام ١٠٩٥ للهجرة) استرد طنجة[٢] من الإنجلين، وفى ١٨ أكتوبر عام ١٦٨٩ للميلاد (الموافق ١٨ محرم عام ١١٠١ للهجرة) استرد العرائش[٣]، وفى السنة التالية استرد أصيلا[٤]، وكذلك مدينة الجديدة[٥] من البرتغال.

قال د.حسين مؤنس: وفى عام ١١٠٤ للهجرة (الموافق ١٦٩٢ للميلاد) عادت وحدة الوطن المغربى كاملة[٦].

أما على الصعيد الداخلى فقد حارب الفتن، وجمع القبائل تحت سيطرته، ونظم ملكه، وأسس جيشه، واهتم بالعلم والتعليم، وبناء القصور[٧] والقلاع[٨] والمدارس

---

(١) قرية فوق تل على المحيط الأطلسى، بناها عبد المؤمن زعيم الموحدين عام ٥٥٥ للهجرة، وجعلها عاصمة للموحدين، تبعد ٤٠ كم عن الرباط، كانت تسمى المعمورة، جدد بناءها جوهر الصقلى لما غزا المغرب عام ٣٤٤ للهجرة داعيًا للفاطميين، ثم تدهور حالها، وهدمها البرتغال عام ٦٦٣ للهجرة، وملكها الإسبان عام ١٠٢٣ للهجرة (الموافق عام ١٦١٣ للميلاد)، واستردها إسماعيل.

(٢) على المحيط والبحر الأبيض، غزاها البرتغال عام ٨٦٩ للهجرة (الموافق عام ١٤٧١ للميلاد)، وطردوا المسلمين، وحولوا المساجد كنائس، ثم صارت إسبانية (من عام ١٥٤٠: ١٥٧٨ للميلاد)، ثم عادت للبرتغال، وفى عام ١٠٧١ للهجرة (الموافق عام ١٦٦١ للميلاد) دخلت تحت حكم الإنجليز إلى أن أخرجهم منها إسماعيل.

(٣) على المحيط الأطلسى، تبعد عن طنجة ٩١ كم جنوبًا، استمرت تحت حكم الإسبان من عام ١٠١٩ للهجرة (الموافق عام ١٦١٠ للميلاد)، وهى الآن بولاية تطوان.

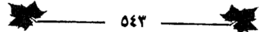
(٤) جنوبى العرائش.

(٥) على المحيط جنوبى الدار البيضاء.

(٦) أطلس تاريخ الإسلام ١٨٥.

(٧) بنى عشرات القصور، منها ثمانية بمكناس وحدها، ومازالت آثارها موجودة.

(٨) بنى إسماعيل ٣٧ قلعة فى المغرب، مازالت آثارها موجودة.



والمساجد والمدن والقناطر والسدود والبساتين[1]، واحتضن الفقهاء، ووضع أسس الدبلوماسية الصحيحة، وحالف باى تونس وملك فرنسا وملك إنجلترا وهولندا والدانمرك وغيرهم، وتبادل معهم السفراء، وطالما راسلهم، وراسلوه.

ومن أطرف الكتب التى وقعت تحت أيدينا، رسالة من السلطان إلى جيمس الثانى ملك إنجلترا يقول فيها بعد الديباجة: أما بعد، فإنا كتبناه إليك وأوردناه عليك لمسألتين اثنتين: إحداهما دينية، والأخرى سياسية دنيوية، وموجب إيرادهما عليك التنبيه لك والإيقاظ والإرشاد...[2].

ثم أخذ يشرح له المسألة الدينية، وهى دعوته للإسلام، وأن الأنبياء كلهم يجب الإيمان بهم، لا نفرق بين أحد منهم، مع ذكر الآيات الكريمة الدالة على ذلك، ثم ختم بقوله: ها نحن أملينا عليك نبذة من الآى القرآنية والأحاديث النبوية والدلائل المعقولية المطبقة على أفضلية هذا الدين القويم، وغيره كله إنما فى سواء الجحيم....

وكانت كل الاتفاقات والمراسلات بين مولاى إسماعيل وكبار ملوك أوربا وزعمائها أساسها ودعامتها نقطتان أساسيتان هما التركيز على العروبة والإسلام.

وإذا نظرنا إلى كل رسائله نجد ديباجة واحدة أخذها عن رسول الله ﷺ عند مراسلته لكسرى وقيصر وغيرهما من كبار ملوك الأرض آنذاك، وهى: السلام على من اتبع الهدى.

وكان المولى إسماعيل قد اتخذ مكناسة الزيتون دار القرار (العاصمة)، وتبوأها منزلاً مباركًا، وأحدث فيها من البنايات الهائلة الرائقة ما يحير الأذهان من المصانع الغريبة والبناءات ما ينسى جنات الدنيا ـ كما قال اليفرنى[3].

قال عنها محمد العثمانى: كان زيتونها الذى تنسب إليه متصلاً بها، وبحاراتها من كل جهة، وكانت له غلة عظيمة لا تأتى على الحصر[4].

---

(١) من ضمن بساتينه أمر بغرس ١٠٠ ألف شجرة زيتون، وحبسها على الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة.

(٢) روضة التعريف ١١٩، وذلك فى شعبان عام ١١٠٩ للهجرة.

(٣) روضة التعريف ٦٣.

(٤) الروض الهتون ٤٠.



إننا لا نستطيع أن نحيط ذكرًا بكل حياة السلطان إسماعيل، ولكننا فقط نشير إشارات بسيطة لنرسم خلفية سريعة للجو الذى عاشت فيه شخصيتنا الأميرة خناثة، حيث صارت زوجة للسلطان لمدة خمسين سنة، عاشتها فى حياته، ثم عشرين سنة بعد وفاته، فى ربوع سلطانه، وداخل بيوته فى مكناس، التى اتخذها عاصمة، وبنى فيها من القصور والقلاع ما يضاهى أجمل العواصم فى العالم.

جاء فى الموسوعة: شيد حصن رقادة على وادى شريف، كما بنى عدة حصون، ورمم أسوار تازة[1].

وقد ذكر أحفاده أنه كان له فى كل مدينة قصر، أما فى مكناس، عاصمة الملك، فقد بنى ثمانية قصور، وسماها مؤلف كتاب (المنزع اللطيف)، ووصفها أدق وصف، وما فيها من أبهة وبهاء وعظمة ورونق، وللعلم فقد شيد هذه المبانى الزاهرة باستخدام الأسرى والمسجونين.

قال ابن زيدان: وكان فى سجونه من أسارى الكفار خمسة وعشرون ألف أسير ونيف، وكانوا يخدمون فى قصره، منهم الرخامون والنقاشون والحجارون والحدادون والبناءون والنجارون والزواقون والمهندسون والمنجمون والأطباء، ولم تسمح نفسه بفداء أسير بمال قط، وإنما كان يفدى ببعضهم من أسر من المسلمين..

قال فى كتابه لملك الإسبان: فاجعلوا عوضها من أسارى المسلمين... وقبلنا منكم فى العدد المذكور الرجل والمرأة والصبى الصغير والشيخ المسن من أهل أيالتنا، إذ ما لنا قصد إلا فى الأجر والثواب.

وقال: كان استعمال المساجين بالخدمة نهارًا، ويجعلهم بالسجن ليلاً[2].

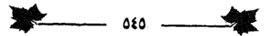
وما دمنا نذكر الأسرى، وعملهم، وفداءهم، فلابد أن نذكر مكرمة لمولاى إسماعيل، قل أن يشابهه فيها ملك أو سلطان، ألا وهى تبادل الأسرى بالكتب المحصورة فى مكتبات إسبانيا والبرتغال بعد خروج المسلمين منهما[3].

---

(١) الموسوعة العربية ١٥٩.

(٢) المنزع اللطيف ٣٦٠.

(٣) خرج المسلمون من آخر معقل لهم فى الأندلس (إسبانيا والبرتغال) من غرناطة فى عام ٨٩٧ للهجرة (الموافق ١٤٩٢ للميلاد).



جـاء فـى كـتـابـه لـملك الإسبـان فـى ١٦ ذى الـحـجـة عـام ١١٠١ لـلـهـجـرة (الموافق ٣٠ يوليو عام ١٦٨١ للميلاد):.... وذلك أن تعطونا فى الخمسين نصرانيًا من هذه المائة خمسة آلاف كتاب، مائة كتاب عن كل نصرانى، من كتب الإسلام الصحيحة المختارة المثقفة فى خزائنهم بإشبيلية وقرطبة وغرناطة، وما والاهم من المدن والقرى، حسبما يختارها خديمنا المذكور، ومن المصاحف وغيرها[1].

* * *

(١) المنزع اللطيف ١٩٣.

خناثة بنت بكار - أيامها الأولى

ولدت خناثة بنت بكار بن علي بن عبد الله في ديار قومها المغافرة[1] حوالي عام ١٠٧٩ للهجرة (الموافق عام ١٦٦٨ للميلاد)، وأبوها شيخ القبيلة التي تقع في الصحراء جنوبي المغرب، وعلى حدود موريتانيا قرب شنقيط، وتربت مع نديداتها في مرابع القبيلة حتى بلغت العاشرة من العمر، وقد حباها الله جمالاً ورقة ووسامة وذكاء أهَّلها لما قامت به من دور خطير بعد ذلك.

وفي عام ١٠٨٩ للهجرة (الموافق ١٦٧٨ للميلاد) خرج مولاي إسماعيل يتفقد أملاكه التي وصلت إلى تخوم السودان وحدود موريتانيا ونهر النيجر، واقتربت من السنغال، أما من المشرق فقد وصل إلى حدود الجزائر.

قال المؤرخ ابن زيدان: ولما كان عام ٨٩ توجه من مكناسة لمراكش، ثم خرج للسوس فمهَّده، وبلغ غزوه إلى طاطا وتسنت وشنقيط وقدم عليه وفود العرب أهل القبلة من عرب معقل والمغافرة والشبانات وبرابش... وأدوا طاعتهم[2].

وعندما وصل السلطان ظافرًا إلى بلاد أخواله المغافرة، حط الرحال عندهم ليشرفهم بزيارته، فقد كانوا يعتبرون هذه الزيارة فخرًا لا يدانيه فخر، ولم يستطع شيخ القبيلة أن يرد هذا الجميل، وأن يكافئ ما ناله من الشرف والمجد إلا بطريقة فريدة، ألا وهي إهداء السلطان ابنته الصبية.

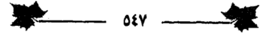
يقول د. التازي: ولكن زيارة السلطان مولاي إسماعيل كانت بالنسبة لإمارة المغافرة تشريفًا لا يقدر بثمن، فأحسن تعبير منهم عن عواطفهم ينبغي أن يكون لسان شيخهم، ولم يجد هذا الشيخ أعز ولا أكرم لديه من ابنته الفتاة الصغيرة المتخلقة خناثة، فأهداها إلى السلطان، وهي ما تزال في بداية العقد الثاني من عمرها.. ولم تتجاوز العشر سنوات[3].

---

(١) جمع مغفر باللغة الحسانية، ومعناها البطل الشهم.

(٢) المنزع اللطيف ١٦٢. ويقصد عام (١٠٨٩هـ).

(٣) المرأة في تاريخ المغرب ٢٠٤.



وهذه الهدية معناها التنازل عن المهر المشروع لها، والذى كان يدفعه لكل حرة يتزوجها، ولكنه لم يمنع عنها الهدايا والنفائس والإماء والجوهر الغالى والحوائج الملوكية من الذهب والفضة وغيرها، التى تناسب رفيع قدره، كما كان يفعل مع الزوجات الأخريات أمثال السيدة عائشة بنت الشريف السيد بلقاسم العلوى، والحرة الأصيلة السيدة ميرة بنت الشيخ محمد بن الشيخ عبيد الحاجر، والسيدة حليمة بنت المرابط أبى المحاسن يوسف بن البشير بن الجيلانى وغيرهن.

وقد ذكر حفيده عبد الرحمن بن زيدان عقود بعض هؤلاء الزوجات وصَدُقاتِهن.

ولم يكتف إسماعيل بالحرائر، فقد كان قويًا فى كل مجال، حتى إنه نكح مئات الجوارى من كل حدب وصوب، كما قال الأب بيسنو، مؤرخ عهد لويس الرابع عشر فى كتاباته عن المغرب: كان فى قصر إسماعيل نحو خمسمائة امرأة من سائر الأجناس، وكن لا يزور بعضهن بعضًا إلا بإذن خاص منه... وكان يحملهن من حين إلى آخر للتفسح فى بساتينه، ويُرْكِبُهنَّ على البغال[1].

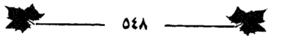
وعود إلى العروس الصبية خناثة التى انتقلت إلى ديار زوجها وعاصمة ملكهِ فى مكناس، ولأن إسماعيل كان محبًا للعلم فإنه لم يترك هذه الصغيرة بدون تعليم وتثقيف، بل رتب لها المعلمين والحفاظ والفقهاء، ومن هؤلاء الأساتذة الشيخ المكى الدوكالى، الذى قال: إنه هو الذى كان يصحح لها اللوح الذى تكتبه بيدها لحفظ القرآن، وتبعثه مع خادمتها[2].

وربما أفدنا من هذا الخبر أنها وُضِعت من أول يوم موضع النساء المحجوبات عن أعين الغير، المصونات بأمر المولى إسماعيل.

وقدر لنا فى زيارتنا لمكناس أن سار بنا سائق السيارة فى أحد الدروب فى المدينة، وهو طريق يخترق أبنية القصور الأثرية الإسماعيلية، وذكر السائق لنا أن هذا الطريق أيام مولانا إسماعيل كان ممنوعًا السير فيه على الرجال من الأجانب والعامة سواء، حتى لا تقع عين أحد على شىء مما يتصل بحريم السلطان، لأن الطريق خاصة بهن وحدهن.

وبعد هذا الاستطراد، نعود إلى الأميرة خناثة فى أيامها الأولى فى قصر السلطان.

(١) المنزع اللطيف ٣٩١.
(٢) المرأة فى تاريخ المغرب ٢٠٤.



إنها لم تكتف بحفظ القرآن، ومراجعة كتابته على الشيخ معلمها - فقط - إنما قرأت وتثقفت وتفقهت فى كل العلوم الدينية والأدبية، فذكاؤها وحبها للمعرفة، وتطلعها للاستزادة، جعلها تقرأ وتنهل من الكتب الموجودة فى مكتبة القصر السلطانى فى جميع المعارف، والدليل على قراءتها أنها كانت توقع باسمها على هوامش بعض المراجع فى المكتبة.

فمثلاً نرى د. التازى بعد مشاهدته لبعض الكتب المقروءة مثل موسوعة الإصابة لابن حجر، يقول: وقد تمكنت من الوقوف شخصيًا على بعض طررها[١] فى المجلد الثانى والثالث والرابع بالخزانة الحسنية التابعة للقصر الملكى بالرباط...[٢].

ويقول: كانت تعليقاتها تقصر أحيانًا، وتطول حينًا آخر لكنها تتسم بطابع التركيز والموضوعية، فهى تسجل على الهامش ما يسنح لها من أفكار.. كذلك كانت تقرأ الشعر، وتحفظه، حتى قال د. التازى: كتبت تعليقًا على بعض الأبيات، تذكر فيه أن الشعر موجود فى مصادر أخرى، وتحيل عليها.

وقرأت الحديث الشريف من أمهات الكتب، وخاصة الموطأ للإمام مالك، وحكمت على بعض الأحاديث بقوة سندها أو ضعفه.

وأشار د. التازى لبعض الأحاديث التى علقت عليها، وقال: وكثيرًا ما يسترعى انتباهها معنى أثر من الآثار، فتكتبه من جديد على الهامش[٣].

لقد وصلت خناثة لدرجة من التعلم والتثقيف، حتى إن أحد كتاب مولاى إسماعيل، وهو المؤرخ الأديب أبو أحمد عبد القادر الإسحاقى قال فيها: فما نعلم واحدة من الحرائر اللاتى دخلن دار الخلافة من أزواج مولانا السلطان إسماعيل، تشبه هذه السيدة أو تدانيها همة وصيانة وعفافًا ورزانة وحصافة عقل، ومتانة دين، فهى من المسلمات المؤمنات القانتات المستجمعات لأوصاف اللاتى أعد الله لهن مغفرة وأجرًا عظيمًا[٤].

وقال هزاع الشُّمرى: كانت مشهورة بالبر والإحسان، وكذلك العلم والأدب والكمال والدين والصلاح والكرم والفقه[٥].

---

(١) الطرة: التوقيع مع التعليق.

(٢) المرأة فى تاريخ المغرب ٢٠٥.

(٣) المرجع السابق.

(٤) أعلام النساء ٣٥٨/١.

(٥) جمهرة أسماء النساء ٢١٩.

خناثة أم عبد الله

تزوج السلطان إسماعيل، وتسرى بقرابة خمسمائة امرأة على أغلب روايات مؤرخى المغاربة والفرنجة، ومع كثرتهن فقد اشتهر بتحفظه على نسله، كما ذكر ابن زيدان، قال: فإذا أراد أن يتسرى بأمة، بالغ فى الكشف عنها، والبحث عن أمرها، حتى يتضح له الحال[1]. ولعله كان يريد أن يتثبت من حالتها الصحية، وكان إذا أراد أن ينكح جارية أعتقها بحيث لم يبق عليها ذكر رق ولا عبودية سوى الولاء له.

وقد أصهر إسماعيل لكثير من القبائل الشهيرة فى المغرب كالمغافرة والدكالية، وكذلك من أسر كبيرة من سلا وشاوة وسفيان وحيان ومراكش وتادلا وغيرها.

ونتيجة لهذه الزيجات أنجب عددًا كبيرًا من البنات والأولاد، قال أبو القاسم الزياتى: وكان لمولاى إسماعيل من الأولاد ـ رحمه الله ـ على ما قيل، وتواتر به الخبر خمسمائة ولد ذكر، ومن البنات مثل ذلك[2].

وقد لا يصدق أحد هذا العدد، لكن مؤرخى الأسرة يؤكدون، فهذا أبو القاسم يؤكد أنه فى عهد حفيد خناثة، مولاى محمد بن عبد الله[3] قد بقى من أولاد إسماعيل على قيد الحياة ١٠٥.

يقول: والذى خلف من أولاده، وعقب على ما شاهدناه عيانًا فى دفتر مولانا أمير المؤمنين محمد بن عبد الله إذ كان يصلهم كلَّ سنة، وكنا نتوجه لتفريق الصلة عليهم بسجلماسة مائة دار وخمسة دور لأولاده لصلبه، وأما الذين لم يعقبوا أو أعقبوا أو انقطع عقبهم، فليسوا فى الدفتر، وأما الحفدة والأسباط فكان عددهم فى أيام سيدى محمد: ألفًا وخمسمائة وستين[4].

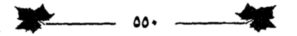
---

(١) المنزع اللطيف ٧١.

(٢) المرجع السابق ٣٩١.

(٣) تولى الخلافة لأكثر من ثلاثين سنة من عام ١١٧١: ١٢٠٤ للهجرة (الموافق عام ١٧٥٧ : ١٧٨٩ للميلاد).

(٤) المنزع اللطيف ٣٩١.



وقال صاحب كتاب (المغرب عبر التاريخ): وتتفق الروايات مسيحية وعربية على أنه ترك مئات من الأولاد[1].

وقد عدّد المؤرخ حفيد السلطان أسماء مائة، منهم ثلاثة وثلاثون مبينًا أسماء أمهاتهم.

وقد وضع ابن خناثة عبد الله أول القائمة، وقال: فمن أولاده المشهورين منهم السلطان مولاى عبد الله[2]، أمه خناثة بنت بكار، والسلطان مولاى أحمد، وإخوته زيدان....[3].

ثم سرد بعد ذلك أسماء أولاد السلطان وأمهاتهم.

لقد أنجبت خناثة ولدًا واحدًا هو عبد الله، وذلك فى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى (الموافق السابع عشر الميلادى)، وهو الذى قدر الله له أن يكون من نسله الملوك والسلاطين حتى اليوم، فابن الأميرة خناثة السلطان عبد الله هو الجد الثامن لأمير المؤمنين الملك محمد السادس بن الحسن الثانى ملك المغرب الحالى[4]، مد الله فى عمره.

---

(١) المغرب عبر التاريخ ٣/ ٣٤.

(٢) كان السلطان إسماعيل يحب اسم (عبد الله)، ولذلك سمى خمسة أولاد له باسم عبد الله، أولهم أمه خناثة، والثانى له أم العز التباع، وعبد الله بن فاطمة، وابن الغينية، وابن الحصينية.

(٣) المنزع اللطيف ٣٩٢.

(٤) أسماء ملوك وسلاطين المغرب من بعد عبد الله بن إسماعيل حتى الآن هى: محمد (الثالث) بن عبد الله (حفيد خناثة): عام ١١٧١ للهجرة (الموافق عام ١٧٥٧ للميلاد).
يزيد بن محمد: عام ١٢٠٤ للهجرة (الموافق عام ١٧٩٠ للميلاد).
هشام بن محمد: ١٢٠٦ للهجرة (الموافق عام ١٧٩٢ للميلاد).
سليمان بن محمد: عام ١٢٠٩ للهجرة (الموافق عام ١٧٩٥ للميلاد).
عبد الرحمن بن هشام: عام ١٢٣٨ للهجرة (الموافق عام ١٨٢٢ للميلاد). محمد (الرابع) بن عبد الرحمن: عام ١٢٧٦ للهجرة (الموافق عام ١٨٥٩ للميلاد).
الحسن (الأول) بن محمد: عام ١٢٩٠ للهجرة (الموافق عام ١٨٧٣ للميلاد). عبد الحفيظ بن الحسن: عام ١٣٢٥ للهجرة (الموافق عام ١٩٠٨ للميلاد) وقد تم فى عهده الاحتلال الفرنسى.
يوسف بن الحسن: عام ١٣٣٠ للهجرة (الموافق عام ١٩١٢ للميلاد).
محمد (الخامس) بن يوسف: للمرة الثانية بعد الاستقلال عام ١٣٧٤ للهجرة (الموافق عام ١٩٥٥ للميلاد).
الحسن (الثانى) بن محمد: عام ١٣٧٩ للهجرة (الموافق عام ١٩٦٠ للميلاد).
محمد السادس بن الحسن الثانى: عام ١٤٢٠ للهجرة (الموافق عام ١٩٩٩ للميلاد).

تربى الأمير عبد الله وسط إخوته الكثر فى مرابع وقصور أبيه، الذى كان عطوفًا حانيًا مع أولاده كلهم، يحملهم وهم صغار، ويداعبهم ويلاطفهم وقت فراغه، حتى إذا كبروا، دفعهم إلى المعلمين والمربين والمؤرخين والفقهاء يحفظون القرآن، ويدرسون علوم الحديث والأدب والتاريخ والأنساب والسير وأيام الناس، أما دوره هو فكان دائم النصح لهم، مذكرًا إياهم بما لاقوه وتكبدوه حتى وحدوا المغرب، واستردوا ما أخذه العدو منها.

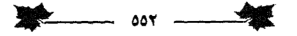
وسنعرض جزءًا من إحدى وصاياه لكبار أولاده، لنرى مدى إحساسه بالمسئولية تجاههم، وكان ذلك قبل وفاته بأحد عشر عامًا، فى يوم الأربعاء ٨ من جمادى الأولى عام ١١٢٨ للهجرة، قال فيها: أنتم أقرب الناس إلىّ، وأرغب الناس فيما لدى، وقد علمتم ما وقع على هذا الأمر، وما لاقينا عليه من الشدائد والضر، حتى اطمأن واستقر، ولم يبق منازع ولا معارض من غيركم، واعلموا أنى إذا مت لابد من الخلاف والتنازع بينكم، فتهلكوا، ويهلك المسلمون بسببكم، وربما تغلب العدو الكافر على الإسلام بسبب ما يقع بينكم من الاختلاف، وعدم الالتئام، فيقع كما وقع فى الأندلس حتى استولى عليها العدو الكافر، فإياكم والمخالفة، وهذه وصيتى إليكم، والله خليفتى فيكم، وحافظكم، ومن كل شر يقيكم[1].

وأخذ السلطان يبين لهم السبيل الرشيد والطريق السليم فى كل مجالات الحياة، ممثلاً فى الحياة الخاصة، ودعاهم إلى صلة الرحم، وإعانة الضعيف، ورعاية حق المظلوم، واجتناب الجور وأهله، كذلك الاهتمام بالرعية، وتفقد أحوالهم، وخاصة أنهم كثيرون، ومن أمهاتٍ شتى، كذلك بين الطريق السوى لمن سيختاره الله منهم خليفة له، فقال: وإن الملك لله يؤتيه من يشاء من عباده، فحسنوا ظنكم بالله، واعلموا أنه لا يصل إليكم إلا ما قدره الله لكم، وأن الله لا يولى من ولاه على الخلق ليكون سيدهم، وإنما يوليه عليهم ليكون إمامهم يقتدون به، ويتبعون قوله، ولا يخالفونه فى سرهم ونجواهم.

ثم شرح لهم الطريقة المثلى فى تصريف المال، وسياسة الجيش، ومعاملة الأعداء، وفى الأمور كلها تقريبًا.

---

(١) المنزع اللطيف ٥٤.



ولا ننسى هنا دور الأميرة خناثة فى تربية ابنها، وتأهيله ليتولى الملك بعد أبيه، لقد وقفت معه تعطيه من خبراتها، وتدفعه لتلقى تعاليم والده، والالتزام بها من حب لإخوته ورعايته لكل فرد فيمن حوله، فليعتبر الشيخ والدًا، والمصاحب أخًا، والصغير ولدًا.

كذلك علّمت ابنها الأخلاق، وبثت فيه المثل العليا، والآداب الرفيعة، من مشاورة العلماء ومجالستهم، وأخذ رأيهم فى كلٍّ صغيرة وكبيرة، وكررت عليه قول أبيه: العلماء أهل الله الدالون عليه، ولولا العلم ما عُبِدَ الله.

وكانت تأمره دائمًا بمراقبة الله فى كل أفعاله وأقواله، وتذكره أنه سيقف يومًا بين يدى الله، يسأله عن قليل الأعمال وكثيرها.

بهذه الطريقة المثالية ربت خناثة ولدها عبد الله.

* * *

خناثة مع السلطان

لقد وقفت خناثة مع زوجها المولى إسماعيل، ليس في تربية ابنها حَسْبُ، وإنما في كل الأمور التي تستطيع أن يكون لها رأى فيها من شئون القصر والرعية، وخاصة بعد أن أكسبتها الحياة في كنف السلطان حنكة وتجربة وعلمًا، مع ما وهبها الله من عقل وحصافة.

قال عنها عبدالقادر الجيلاني: كان لها كلام وتدبير ورأى عند مولانا أمير المؤمنين، ومشاورة في بعض أمور الرعية، وكانت له وزيرة صدق وبطانة خير تأمره بالخير، وتحرض عليه، وتتوسط في حوائج الناس، وكانت له ركنًا من الأركان[1].

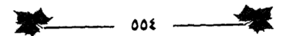
ولا شك أن الأميرة خناثة قد تعلمت هذا السلوك من سير من قرأت أخبارهن من عظيمات النساء اللاتي سبقنها، وكان لهن أثر في أزواجهن من الخلفاء والأمراء، فمثل هذا السلوك الذي أثر عنها لا يأتي عفوًا، وإنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه، كما جاء في بعض الآثار، ولو لم تعكف في صدر حياتها على قراءة كتب الطبقات، ودراسة تراجم الرجال والنساء لما وجدنا عندها هذا الطموح الذي تفوقت به على كثير ممن سبقنها من النساء.

لقد انفردت خناثة بهذا العدد الضخم من الضرائر، حرائر وإماء، وهو ما لا نجد له نظيرًا في النساء قبلها ولا بعدها.

وتلكم هي المرأة العبقرية التي استطاعت أن تبرز مواهبها، وتتفوق بها على سائر بنات جنسها، وهي مع ذلك لم تتفوق في مواهب أنثوية مع وفرة تلك المواهب عندها - بل تفوقت في رسالتها الاجتماعية التي حملت بمقتضاها هموم الناس، وسعت دائمًا في حل مشكلاتهم، وهو الأمر الذي أهلها بعد ذلك للنهوض بأعباء الملك إلى جوار زوجها ثم إلى جوار ابنها.

فهي في البداية تأمر بالخير، وتعين عليه، وتتوسط في حل مشكلات الناس، وتزويج البنات والأرامل، وهي في النهاية تتحمل المسئولية السياسية: كالإفراج عن الأسرى في البلاد المجاورة، وحل مشكلاتهم كما سيرد في ذكر أيامها في عهد ولدها السلطان عبد الله.

(١) المرأة في تاريخ المغرب ٢٠٦.



انتقال السلطة بعد إسماعيل

عاش مولاى إسماعيل حياة حافلة مليئة بالخير والرفاهية لذويه ومواطنيه، والسعد والنصر لبلاده، حتى إذا جاء عام ١١٣٩ للهجرة (الموافق عام ١٧٢٧ للميلاد) مرض مرضًا شديدًا أقعده لمدة ثلاثة أشهر، ثم وافاه الأجل[١] يوم السبت ٢٨ من رجب عام ١١٣٩ للهجرة (الموافق ٢١ من مارس عام ١٧٢٧ للميلاد)، بعد عمر ناهز الثانية والثمانين، وحكم المغرب قرابة ستين سنة، ثم دفن فى ناحية من أحد قصوره فى مكناسة الزيتون، بضريح الشيخ المجذوب، ورثاه غير واحد من الأدباء والشعراء.

وهناك فى الضريح عدة قصائد مدونة على الحوائط، وبجانب الضريح لوحة من الرخام مكتوب عليها: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، إنه حميد مجيد، هذا ضريح كهف الأرامل واليتامى وعصمة المساكين والأيامى أمير المؤمنين إسماعيل بن مولانا الشريف، قدس الله روحه، وأسكنه فى الجنان الفسيحة، قبضه الله لكرامته ظهر السبت.. طيب الله ثراه، وأسكنه أعلى عليين، وأبقى الخلافة فى بنيه إلى يوم الدين.

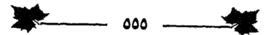
توفى السلطان إسماعيل بعد حكم للمغرب دام سبعًا وخمسين سنة، ترك بعده المغرب موحدًا، وأولاده منتشرون فى كل عاصمة من عواصمه مثل مراكش، وفاس وسجلماسة وتطوان، ثم العاصمة الكبرى مكناس.

وكان السلطان قبل ذلك بثلاثين سنة تقريبًا قد ولى أحد عشر ولدًا من أولاده الشباب والمكتهلين هذه البلاد، أسند الأمر لكل واحد منهم على جهة لينظر كيف تدبيره فيها.

فمثلاً ولى محرزًا أكبر أولاده مراكش، ثم ولاه تافيلالت إلا أنه مات بعد سنتين، أما محمد، فولاه (عام ١١١٠ للهجرة) فاس، فأحسن سياسته فيها، ولكنه مات حياة أبيه، والأمير زيدان[٢] ولاه تازة، ووجدة، ومات هو الآخر عام ١١١٩ للهجرة.

(١) ترك إسماعيل أموالاً كثيرة، منها ٧٠٠ ألف قنطار من الفضة دراهم، و٧٠٠ ألف قنطار ذهب دنانير، ومثل ذلك فضة مسبوكة، وغيرها، كما جاء فى المراجع المغربية.

(٢) كان الأمير زيدان مقربًا لأبيه، حتى إنه انتدبه لقتال أخيه محمد العالم الذى ثار ببلاد السوس، فطارده زيدان، حتى قبض عليه، وبعثه لأبيه، ثم استقر هو فى تادورانت، إلى أن مات عام ١١١٩ للهجرة (الموافق عام ١٧٠٧ للميلاد).



أما ابن خناثة عبد الله فقد تميز عن إخوته بميزة هى ما نشرته المراجع عنه فى وثيقة تضمنت ما أقطعه أبوه من البلاد، وكان ذلك عام ١١٢٧ للهجرة (الموافق ١٧١٥ للميلاد)، وهذا نص الوثيقة: قال عبد الرحمن بن زيدان: وقفت على ظهير لصورة المترجم بإقطاعه الفيضة لولده، أى: محمد عبد الله، هذا لفظه:

بعد البسملة والصلاة، والطابع الذى نقش داخله إسماعيل بن الشريف الحسنى أيده الله بمنه، وبدائرته «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت، ويطهركم تطهيرًا».. وسطر الدعاء.

يستقر بعون الله وتوفيقه الجميل هذا الظهير المبارك المحفوف بالخير المتدارك الجدير بفضل الله تعالى جميع أنواع الآثار والإكرام والإنعام غير مشارك، بيد حامله المتمسك بالله، ثم ولدنا الأرضى الأثير الأحظى الأعز الأرشد الأنجد الأسعد، مولاى عبد الله أصلحه الله، وأثمر غرسه، ورضى عنه وأرضاه يتصرف فيه، أننا أعطيناه ووهبنا عليه جميع البلاد المعروفة بالفيضة المذكورة؛ من الأرض والديار والنخيل والفسلان وجميع القصبة المباركة التى منَّ الله علينا ببنائها وإنشائها بمنافعها ومرافقها الداخلة فيها والخارجة عنها.

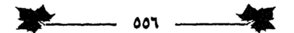
وأذنا له حفظه الله أن يحوز ذلك كله عنا، وأن يحل فيه محل ذى المال فى ماله، وذى الملك فى ملكه، وأن يتصرف فيه بأنواع التصرفات، وسائر الانتفاعات دون معارض له ولا منازع...

كما أذنا لكل من يقف على هذا المسطور الكريم من الفقهاء والقضاة والعدول أن يشهدوا علينا بمضمنه إذنًا كاملاً، ونسأل الله من فضله أن ينفع ولدنا المذكور بهذا الأصل المبارك....[1].

وكان اثنان من أولاد إسماعيل محط أنظار الجميع لولاية العهد الأمير أحمد والأمير زيدان، وكان أحمد له جيش من العبيد، رهن إشارته، ولكن مع عدم كفاءة ونهضة تؤهله للإمارة، أما أخوه زيدان فكان مؤهلاً صالحًا لما به من الشهامة والنجدة.

---

(١) المنزع اللطيف ٣٣٧.



وخاف إسماعيل عليهما من الخلاف عند موته، بعد أن أوغرت كل عصبة صدر الأخ على أخيه؛ ولذلك عقد موالاة بينهما، سجلها حفيده فى كتابه (المنزع اللطيف: صفحة ٢٣٠)، وجعل فيها العهد لزيدان، ولكن لم يمهل القدر الأمير زيدان، فمات شابًا.

ووقعت أحداث جعلت السلطان عام ١١٣٠ للهجرة[1] يعزل أكثر أولاده من أعمالهم، ولم يبق إلا الأمير أحمد (الذى صار سلطانًا بعده) أبقاه فى تادله، أما عبد المالك ففى عام ١١٣٤ للهجرة جعل له أمر السوس ومراكش معًا.

وتوفى السلطان، وعبد الله كما هو فى الفيضة تولى الخلافة ابنه (أبو العباس أحمد) بعهد منه على كثير من الأقوال، وإن كان عبد الرحمن بن زيدان عارض أن يكون المولى إسماعيل قد عهد لأحد، وقال: وذلك وهم لأن الصحيح المعول عليه أن سيدنا الجد لم يعهد لأحد من أولاده حسبما صرح بذلك السلطان العادل مولانا سليمان[2]... وذلك أن مولانا إسماعيل لما أيقن بالموت دعا رفيقه، وعالم حضرته أبا العباس اليحمدى، وأكد عليه أن يشير عليه بمن يصلح للولاية على المسلمين من بعده، وكان آخر الأمر بعد الممانعة التامة قوله: يا مولانا أعلم أنه ليس لك ولد، ولا ولد لك.

فقال له السلطان: صدقت والله. وودعه وخرج، ولم يعهد لأحد[3].

وأما إبراهيم حركات فيعتبر رفض اليحمدى هذا لشيء آخر، قال: ولكن استشارات إسماعيل كاتبه أحمد اليحمدى بشأن ترشيح أحدهم، فنصحه بألاً يفعل؛ لأنه لم يكن فيهم من هو مؤهل للملك حسب نصيحته التى عمل بها السلطان[4].

---

(١) سبب هذا العزل هو خروج بعض الأمراء على أبيهم، ووقوفهم ضده، وكانت النتيجة: القضاء عليهم، مثل الأمير محمد العالم الذى خرج فى مراكش عام ١١١٤ للهجرة (الموافق ١٧٠٤ للميلاد)، والأمير أبو النصر الذى خرج أيضًا فى مراكش عام ١١٢٥ للهجرة (الموافق ١٧١٣ للميلاد).

(٢) هو السلطان سليمان بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل، حفيد ابن خناثة، تولى عام ١٢٠٩ للهجرة (الموافق عام ١٧٩٥ للميلاد)، توفى عام ١٢٣٨ للهجرة (الموافق عام ١٨٢٢ للميلاد).

(٣) المنزع اللطيف ٥٦. ويقصد: أنه عند نقطة النهاية وحيد لا ولد له يصحبه.

(٤) المغرب عبر التاريخ ٣/٥٩.



وقال المؤلف إن من حسن حظ مولاى أحمد الذهبى[1] أن وُجد بمكناس؛ حيث القيادة المركزية للجيش، والسلطة السياسية، مع توفر بيت المال على مدخرات كافية لإغراء الجيش بمبايعة مولاى أحمد، والذى كان أصغر من أخويه عبد الملك وعبد الله[2].

ونحن نقول بدورنا ربما كان هذا أيضًا هدف السلطان إسماعيل؛ ولذلك ولاه مركز السلطة فى العاصمة مكناس.

وسواء تولى الأمير أحمد الذهبى الملك بعهد من أبيه، أو بغير عهد، فإن ولايته لم تدم طويلاً، فقد مات إثر سقوطه من على حصانه فى شعبان عام ١١٤١ للهجرة (الموافق مارس عام ١٧٢٩ للميلاد)، ولم يهنأ بالخلافة خلال هذين العامين؛ لاختلاف الإخوة، ودخول الشيطان بينهم، وغضب نساء القصر عليه، وإسهامهن فى خلعه، كما قالت الروايات الغربية.

وهناك خبر أنه لم يستمر فى الخلافة سنتين، وذلك أن أخاه عبد الملك بأمر القضاة والأعيان تولى أمر الخلافة، وأقصى أحمد، ثم أعيد عام ١١٤٠ للهجرة فى ذى الحجة، ولكنه لم يهنأ بها.

قال حركات: ثم عاد مولاى أحمد إلى مكناس، ومرض بالاستسقاء، فأمر بخنق أخيه فى الحبس - عبد الملك - وتوفى مولاى أحمد بعد ثلاثة أيام فى شعبان عام ١١٤١ للهجرة[3].

لقد كانت فترة عصيبة، ومرحلة مضطربة فى تاريخ المغرب، تولى فيها عدة ملوك من أبناء إسماعيل، ولم يكن أحد منهم بقادر على إقرار النظام، وحل الأزمة السياسية والتنظيمية لشئون البلاد.

لقد وقفت كل أم وراء ابنها، ومعها أهلها؛ ولذلك وجدنا هذه الصراعات بين الضرائر وعائلاتهن من كبار القبائل البربرية أو العربية على السواء.

صحيح أن المؤرخين المغاربة جرى العرف لديهم ألا يتحدثوا عن أثر الأميرات فى القصور، مع أن بعضهن كان لهن مسئوليات جسام، وكان لتوجيههن أو تعليماتهن الأثر البين فى صنع الأحداث، واتخاذ القرار السياسى.

---

(١) أطلق عليه الذهبى؛ لإنفاقه على الجيش بغير حساب.

(٢) المغرب عبر التاريخ ٣/ ٦٤.

(٣) المرأة فى المغرب ٢٣٧.



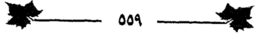
فمثلاً أم العز التباع من مراكش، إحدى زوجات مولاى إسماعيل المقربات كانت لها مواقف مع السلطان فى حل بعض المشكلات بينه وبين بريطانيا، كما ورد فى مذكرات السفير (شارل ستيوارت).

كذلك السلطانة عائشة أم الأمير زيدان، والأمير «على» الذى تولى لفترة بعد ذلك، يقول د. التازى: قامت هذه الأميرة بأدوار سياسية جد هامة فى السراى الملكى[1].

ولن نستطيع أن نطيل فى حكاية كل أم فى قصر إسماعيل، ويكفينا ما نذكره عن أم عبد الله: خناثة.

* * *

(١) المرأة فى المغرب ٢٣٧.



خناثة أم السلطان

كانت فترة حكم الأمير أحمد فترة صعبة لما تخللها من خلافات وصراعات، وخاصة فى القصر.

يقول إبراهيم حركات: ويبرز دور سيدات البلاط فى محاولة حل أزمات العرش أو تعقيدها، حسب نفوذهن، ومدى بعد نظرهن، وقد كان لهن دور مباشر فى تنحية مولاى الذهبى الذى وصفته بعض الروايات بأنه كان بعيدًا عن مثالية أسلافه فى التشبث بتعاليم الإسلام، وأن قسوته على سيدات البلاط أدت بهن إلى التدخل لدى القضاة والعلماء والمفتين، ونجحن فى ذلك[1].

نعم، نجح المجتمع المغربى رجاله ونساؤه، وتولى الأمير عبد الله ملك المغرب فى شعبان عام ١١٤١ للهجرة (الموافق مارس عام ١٧٢٩ للميلاد)، واتفق الجيش والقبائل على توليته، ودخل أهم المدن الكبرى لمبايعته، واستقبله أهل فاس ومكناس أحسن استقبال، ورحبوا به أيما ترحيب، فهو ابن مولاى إسماعيل، وابن الأميرة خناثة المغافرية، المشهورة بالعلم، والمعروفة بالصلاح والتقوى؛ ولذلك لا نستغرب أنه كان أول أمير يبايع بنص مكتوب.

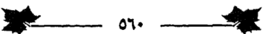
قال إبراهيم حركات: وهكذا حضر مولاى عبد الله بظاهر فاس.. حيث استقبل وفود المدينة الذين قدموا إليه نص البيعة مكتوبًا بإنشاء الفقيه إدريس بن المهدى.. ويعاهد المبايعون المرشح على الوفاء والطاعة فى مقابل إقراره للعدل، وذلك فى ٧ رمضان، عام ١١٤١ للهجرة[2].

وبعد المبايعة وتسلم عبد الله مقاليد الحكم بدأت شخصية خناثة فى الظهور، لقد كانت قبل ذلك ضمن كوكبة من حريم السلطان، أما اليوم فهى على القمة، نعم، لقد كان لها أثرها فى حياة زوجها، لكنها الآن أحست بمدى مسئوليتها عن هذا الابن، وصلاحه، ووضعت نصب عينيها مصلحة البلاد، ومصلحة الابن الذى لو حاد عن الطريق قيد أنملة؛ لوجد المتربصين والمنتهزين لأى هنة من السلطان، حتى يقفزوا على العرش.

---

(١) المغرب عبر التاريخ ٣/٦٨.

(٢) المرجع السابق ٣/٤٦٨.



لقد تولى الأمير عبد الله ملك المغرب أربع مرات، وقيل ستًا، في كل مرة يُقصَى، ثم يعاد، وفي كل مرة تكون أمه خناثة معه تشد أزره، وتستميل إليه رجال القبائل وقواد الجيش؛ لما لها من سلطة وقوة تأثير، فيعود، ويحاول أن يصلح، ولكن على حساب آخرين، فيقتل ويحبس، ويهدم ويبنى، حتى يعزل مرة أخرى، ويأتى أخ جديد للحكم، ومعه أخواله، وقواته، ويتقابل المتمردون، وتصادر الأموال، ويقتل خلق كثير، هذا عدا الوباء الذى انتشر، وفتك بعشرات الألوف فى هذه السنوات.

إن وقوف خناثة بذكائها وعصبيتها، وخئولة ابنها العربية، جعلت المغاربة كلما ضاق بهم الطريق اتجهوا إلى عبد الله يطلبون منه العودة لسدة الحكم.

فمثلاً بعد تولى الأمير عبد الله أول مرة حدث خلاف بينه وبين أهل فاس وأهل تادلا، فحاربهم، وكان من جراء ذلك أن هدمت بعض بيوت فاس، وجزء من أسوارها، ثم عفا عنهم.

وفى عام ١١٤٣ للهجرة، بعد توليته، أخضع تمردًا ظهر فى سوس، ثم هدم حى الرياض بمكناس بصورة مفاجئة ليلاً بيد الأسرى المسيحيين، وأعدم مئات، وسجن مئات.

وفى عام ١١٤٧ للهجرة، أعدم آلافًا من البخارى[١] لاتهامه إياهم بقتل أخيه عبد الملك، فاتفقوا على قتله، فهرب، ونزل على أخواله المغافرة لمدة ثلاث سنوات، وقرر الجيش تنصيب على بن إسماعيل عام ١١٤٧ للهجرة، وقد اعتبر د. شلبى عليًا وأخاه المستضىء مغتصبين[٢].

وتولى على الأعرج هذا ثلاث سنوات.

* * *

(١) أفراد فى الجيش.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامى ٤/١٦٠.

خناثة فى السجن

خرج المولى عبد الله من الحكم بقرار من الجيش، وتولى أخوه «علىّ» الخلافة، ولجأ الأمير المعزول إلى أخواله المغافرة، ومعه ابنه أحمد.

وأحست خناثة بضرورة التصرف، فلم تترك مكناس إلى المنفى مع ابنها، وإنما مكثت فى مكناس العاصمة، وأبقت معها حفيدها الثانى (محمدًا) الذى كان رفيقها فى رحلة الحج، ومن مكناس بدأت تتصل بكبار القوم من أمراء وعلماء وقادة، وتحاول استمالتهم لتعيد الشرعية إلى ابنها، ويعود الجيش إلى ثكناته.

ولشدة مطالبتها، وسرعة تحركاتها مع اقترابها من السبعين، أصر الملك الجديد علىّ بن إسماعيل على القبض عليها، والتحقيق معها، متجاهلاً مكانتها فى ماضيها، وحاضرها، وفضلها، وتقدم سنها، ولما رفضت الانصياع له، أمر بحبسها مع حفيدها الذى كان فى أول سن الشباب.

قال إبراهيم حركات: قبض عليها علىّ بن إسماعيل، بعد توليه عام ١١٤٨ للهجرة، وأخذ منها مالاً كثيرًا، وهى مسنة، وضيق عليها فى السجن.. ونهبت دارها بإيعاز من الباشا سالم[١] الدكالى[٢].

وفى السجن لم تهدأ أو تَسْتَكِنْ، إنما كتبت لكل مسئول من العلماء والفقهاء ورجال الدين عما أصابها، وأصاب حفيدها، وطلبت منهم الاحتكام إلى الشريعة فيما وقع عليها وعلى ابنها وحفيدها.

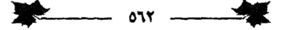
وأخيرًا أفرج عنها، وخرجت كما قال د. التازى: وقد اكتسبت الأميرة على أثر هذا الامتحان شعبية رددتها صفحات التاريخ، وكانت بداية لحركة فاصلة ضد من اعتقلوها بالأمس[٣].

---

(١) كان واليًا على فاس من قبل السلطان.

(٢) المغرب عبر التاريخ ٣/٤٦٩.

(٣) المرأة فى تاريخ المغرب الإسلامى ٢١١.



ولو أردنا أن نقيّم هذه الفترة، لوجدنا أنها من أسوأ الفترات فى تاريخ المغرب بعد أن عمت الاضطرابات والثورات البلاد، ولم يجد قادة الجيش بدًا من عودة الأمير عبد الله للحكم، فعاد فى محرم عام ١١٥٠ للهجرة (الموافق ١٧٣٩ للميلاد)، وكله بتدبير من خناثة التى لم تنم بعد خروجها من السجن، حتى عاد ابنها، وذلك أنها انتهزت فرصة مطالبة الجيش (عليًّا) برواتبه ومخصصاته، ولما لم يجد ما ينفقه عليهم، انتهزت الفرصة، ووعدت قادة الجيش وكبراءه بثلاثين مثقالاً ذهبًا لكل من يساعدها على عودة ابنها.

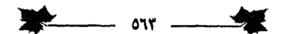
ولم تكن مطالبة الجيش برواتبه هى وحدها العامل المساعد لها، بل ساعدها أيضًا الاضطرابات التى عمت البلاد، وارتفاع الأسعار والمجاعة من أثر الوباء الذى انتشر فى البلاد.

وعاد عبد الله سلطانًا، ولكن بعد شهور لم يلبث الجيش أن غضب عليه، وخلعه، وولى مكانه أخاه محمد بن إسماعيل المشهور (بابن عَرْبية) فى ١٠ جمادى عام ١١٥٠ للهجرة.

ولكن ولايته لم تبشر بخير، وازدادت الحال سوءًا، والنار اشتعالاً، وتقدم الجيش، واستقدم «المستضىء بن إسماعيل» فى ربيع أول عام ١١٥١ للهجرة، بعد مفاوضة أمه الدكالية مع قادة الجيش الذى انقسم على نفسه، وفى الوقت الذى اختار بعض قادة الجيش المستضىء، اختار الآخرون زين العابدين.

وصار على كرسى الحكم ثلاثة: المستضىء، وزين العابدين، والسلطان الأصلى عبد الله.

ولكن تآمر البخارى؛ أى الجيش على عزل المستضىء فى ١٤ ذى القعدة عام ١١٥٢ للهجرة، ولم يبق معه إلا أخواله (الدوكالية)، وبويع لزين العابدين عام ١١٥٤ للهجرة، ولكن مدينة فاس رفضت، بعد أن توجهت لها خناثة أم مولاى عبد الله الذى ما لبث أن دخل (فاس) للمرة الرابعة، وذلك فى جمادى عام ١١٥٤ للهجرة (الموافق عام ١٧٤١ للميلاد)، بعد أن مهدت له السلطة، ولكن الجيش بعث، وأتى بالمستضىء مرة أخرى إلى مكناس، وبعد مفاوضات ومناوشات،



انتصر عبد الله بفضل البربر، واستقر بفاس عام ١١٥٧ للهجرة (الموافق عام ١٧٤٤ للميلاد)، واعتبر المؤرخون هذه بيعة خامسة.

والعجيب أننا نجد المستضيء ابن الدوكالية لم يسكت، بل كان يواصل استفزاز أخيه الذى كان يرد عليه، ولما لم يجد فائدة، فكر أخيرًا فى الاستقرار فى أصيلا، وباشر نشاطًا تجاريًا واسعًا مع الإسبان، وانتهت حياته فى التجارة، بعيدًا عن سدة الحكم[1].

* * *

(١) لم يكن على بن إسماعيل وحده هو الذى آذى خناثة، بل شاركه المستضىء فى التنكيل بها، قال الزركلى: وضايقها أيضًا المستضىء بن إسماعيل فى مالها. (الأعلام ٢/ ٣٢٤).

خناثة والسياسة الخارجية

هكذا كانت خناثة تقف وراء ابنها كالطود، تساعده، وتشد أزره؛ حتى تجعله مثل أبيه، موحدًا للمغرب، ومن هنا كان اهتمامها بالسياسة الداخلية والخارجية أيضًا.

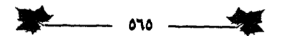
لقد حرصت على متابعة مصالح مواطنيها، وخاصة من لهم احتكاك بدول أخرى، ولنأخذ على ذلك مثلاً ما كان يحدث على حدود المغرب الشرقية (الجزائر) التى كانت تحكم من الأتراك، سمعت مرة أن أهل وُجدة على الحدود يتعرضون لمضايقات وتحرشات من الأتراك القاطنين على الحدود، فلم تسكت، وأرادت أن تهدئ من روعهم، وتذكرهم أنها والسلطان معهم، فبعثت لهم برسالة تحمل تاريخ ١٣ محرم عام ١١٤٩ للهجرة (الموافق ٢٤ مايو ١٧٣٦ للميلاد) جاء فيها: (.. لا يهمكم شيء فقد عرفنا محبتكم ونصحكم لمولانا أمير المؤمنين، فلا يضركم فعل السفهاء، فيد الله وأيدينا فوق أيديهم، ولا تخشوا من أحد سواء غربتم أو شرقتم، ومن تعرض لكم، فلا يلوم إلا نفسه سواء أكان قريبًا أو بعيدًا..).

وكان توقيع الرسالة: عن إذن ربة الدار العلية.

وكما نرى أن تاريخ الرسالة كان فى وقت عصيب بالنسبة لابنها وخلافاته مع إخوته، فقد كان المستضيء على العرش، ولكنها اعتبرته مغتصبًا، ولابد من عودة ابنها لكرسيه.

ولم يكن اهتمامها بالشئون الداخلية فقط، إنما بدأت اهتمامًا ببعض علاقات وطنها بدول مجاورة أمثال فرنسا وهولندا وإسبانيا، وقد أورد المؤرخون خطابًا لها آخره: كتب عن إذن السيدة لالة سيدنا نصره الله، وأدام وجوده لسائر المسلمين خناثة بنت بكار كان الله لها.

وقصة هذا الخطاب، أن هولندا كانت قد وقعت معاهدة صلح وتجارة أيام السلطان إسماعيل، وتضمنت المعاهدة واحدًا وعشرين شرطًا، وصورة العهد فى كتب تاريخ المغرب.



الحمد لله وحده — صلى الله على سيدنا محمد وآله

الى جماعة الاصحاب اهل الفلامنك السلام على من اتبع الهدى

اما بعد فاعلموا ان اخوانكم [illegible] وذلك اصلحهم الله

وانتم عرفتم ونحن عرفنا [illegible] وكلمنا الان معه

في [illegible] اخوانكم [illegible] الينا [illegible]

[illegible] واذا [illegible] الينا [illegible]

ان يقدموا اليه ويتكلم معهم لانا نقفنا به [illegible]

[illegible] بجميع [illegible]

[illegible] الينا لا يكون الا [illegible]

[illegible] بامان الله [illegible]

[illegible]

وكتب [illegible]

[illegible]

رسالة من السلطانة خناثة إلى الولايات العامة الفلامينكو (هولندا)

قال اليفرني: كتب السلطان معاهدة صلح وتجارة بين المغرب والولايات الهولندية في ١٣ ذي الحجة عام ١٠٩٣ للهجرة[١].

ثم ذكر نص المعاهدة بما جاء فيها من شروط، وقد ركزت المعاهدة على الحفاظ على مراكب الصيد والجهاد والتجارة الخاصة بالمغرب، وفي أول أيام السلطان عبد الله، أسرت هولندا بعض المراكب بمن عليها، ولم يتنبه المسئولون لشروط المعاهدة القائمة من قرابة نصف قرن، فبعثت خناثة بتاجر مغربي اسمه إسحق مشكيطة لحل مشكلة هؤلاء الأسرى وحاجاتهم.

قال د.التازي: وقد كان أول ظهور لها خارج الساحة المغربية عندما توجهت بخطابها إلى الولايات العامة (الأراضي المنخفضة) ـ هولندا ـ بتاريخ ٢٢ ذي القعدة عام ١١٤١ للهجرة (الموافق ١٩ يونية ١٧٢٩ للميلاد)، كان ذلك الخطاب حول مهمة المبعوث المغربي التاجر إسحق مشكيطة حول افتداء الأسرى[٢].

لقد لمع اسم «خناثة» خارج حدود المغرب على مستوى الملوك والحكام، وخاصة الدول التي لها علاقات بالمغرب كالتجارة والصيد في البحر الأبيض، وتبادل الأسرى؛ ولذلك نرى ملك فرنسا لويس الخامس عشر[٣] قد بعث لها رسالة، ودبجها باسم السلطانة الأعظم، وذلك لعلمه بدورها ومكانتها في حل بعض المسائل، وكان يأمل الحصول على تأييدها في بعض هذه القضايا والمشكلات، كمشكلة الأسرى، والتبادل التجاري.

قال د. التازي: ومن المهم جدًا أن نعثر في الأرشيف الفرنسي على نص الرسالة التي كتبها ملك فرنسا لويس الخامس عشر إلى السلطانة خناثة أو «كونيطا» كما تسميها المصادر الفرنسية، والتي كانت تحمل تاريخ ١٣ سبتمبر عام ١٧٣٤ للميلاد (الموافق ١٤ ربيع الثاني عام ١١٤٧ للهجرة)[٤].

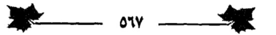
---

(١) روضة التعريف ٩١.

(٢) المرأة في المغرب ٢٠٧.

(٣) حفيد لويس الرابع عشر، ولد عام ١٧١٠ للميلاد، تولى فرنسا عام ١٧١٥ للميلاد، وتوفي عام ١٧٧٤ للميلاد.

(٤) المرأة في المغرب ٢٠٨.



لقد انغمست خناثة فى السياسة ومشكلاتها حتى النخاع، بعد أن أكملت الستين من العمر، وبعد تولى ابنها الحكم عام ١١٤١ للهجرة، وسبب ذلك أنها كانت تشعر بأن مركزه مهدد، وكيان الحكم غير مستقر، وخاصة بعد عام ١١٤٥ للهجرة.

لقد قضى ثلاثين سنة سلطانًا، خرج فيها من الحكم خمس مرات، ولكنه عاد، واستقر، حتى انتقل صولجان دولة المغرب إلى ابنه الأمير محمد حفيد خناثة عام ١١٧١ للهجرة (الموافق عام ١٧٥٧ للميلاد)، ومكث على الكرسى حتى وفاته عام ١٢٠٤ للهجرة (الموافق عام ١٧٨٩ للميلاد).

واستمر الحكم فى أحفاد مولاى إسماعيل من خناثة بنت بكار حتى الآن.

* * *

حج خناثة

بعد انتقال السلطة إلى الأمير عبد الله بن إسماعيل إثر وفاة أبيه، وظهور سلطة خناثة كأعظم شخصية نسائية فى ذلك العهد، فكرت فى الخروج من دائرة السياسة وهمومها إلى مستوى السمو الروحى، وبدهى أن تكون تلك الرحلة الروحية إلى الحج.

وفى موسم عام ١١٤٣ للهجرة (الموافق عام ١٧٣٢ للميلاد) بدأت فى الاستعداد لهذه الرحلة المقدسة، واختارت من يصحبها، إنه حفيدها الأمير محمد، أقرب إنسان إلى قلبها بعد ابنها السلطان، والذى حبس معها، كما علمنا، والذى صار سلطانًا للمغرب بعد ثمان وعشرين سنة باسم محمد الثالث.

وكان فى معية خناثة كذلك بعض كبار شخصيات الدولة، ومنهم وزير زوجها الراحل أبو الفضل الشرقى الإسحاقى والقاضى العميرى.

قال د. التازى: صاحب الرحلة الحجازية مع حليلة المترجم - مولاى إسماعيل - ربة الفخار والمجد المؤثل السيدة خناثة بنت بكار وحفيدها أبو عبد الله[1] سيدى محمد بن عبد الله بن إسماعيل، وكانت وفاة هذا الوزير قرب المغرب من ليلة الإثنين ١٢ شعبان عام ١١٦٣ للهجرة[2].

وخرج الركب السلطانى من مكناس فى ١١ جمادى الثانية عام ١١٤٣ للهجرة إلى الحجاز كما قال رضا كحالة[3].

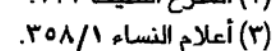
وكان موكبًا مهيبًا ذكر الناس بمواكب الحاجات من ذوات السلطان أيام الأمويين والعباسيين فى المشرق؛ مواكب عائشة بنت طلحة زوج مصعب بن الزبير، وعاتكة بنت يزيد زوج عبد الملك بن مروان، والخيزران زوج المهدى، وزبيدة زوج هارون الرشيد وغيرهن.

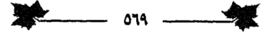
---

(١) ولد عام ١١٣٠ للهجرة، كانت سنه عند الحج أربعة عشر عامًا، قال د. التازى: كنت أتصور أن عمر الأمير سيدى محمد لا يتجاوز بضع سنوات، ولكن القنصل الدنمركى (هوست) فى كتابه القيم عن الإمبراطور محمد بن عبد الله ذكر أن عمر الأمير لما رحل مع جدته كان ضعف هذا العدد. (المرأة فى تاريخ المغرب ٢٨٠).

(٢) المنزع اللطيف ٢٣٣.

(٣) أعلام النساء ٣٥٨/١.





وسارت الأميرة خناثة حتى وصلت إلى فاس، واستقبلت أحسن استقبال، ثم ودعت لتواصل سيرها، حتى وصلت تازة فى الشمال الشرقى فى فاس.

قال د. التازى مسجلاً عملها الجليل فى بلده: وبعد وصولها إلى تازة(١) قامت بإرسال تقرير لولدها يتضمن انطباعها عن ممثلى السلطة المركزية هناك، ولما كان زعماء (الأحلاف) يعرفون مركزها، فقد عرضوا على الأميرة ملتمساتهم، وبعد مدارستها بعثت لولدها بما تراه صالحًا لعلاج قضايا المنطقة(٢).

وكان طريقها عبر طريق البر من خلال الجزائر وتونس وطرابلس ثم مصر(٣)، وكلها ولايات تحت الحكم العثمانى، ويحكمها ولاة من قبل إسطنبول، وقد استقبلت فى كل بلد نزلته أحسن استقبال، وخاصة من سيدات بيوت الولاة والحكام.

ذكرت الروايات مدى ترحيب الأميرة أم هانى حاكمة بلاد المغرب الأوسط وسيدتها بالأميرة خناثة، حيث أعربت لها عما تكنه هذه الجهات من تقدير للعاهل المغربى مولاى عبد الله.

وتبادلت الملكات الهدايا والحلى الذهبية الثمينة، كذلك قدمت لها الهدايا من نساء قرية سيدى عبد المجيد.

وسمعت ليبيا بمغادرة الأميرة وموكبها الجزائر، فاستعد للقائها علية القوم.

وكما قال د. التازى: فتخصص لها استقبال كبير ظل حديث المجالس، واجتمعت هناك بالأميرات(٤).

ووصلت مصر، ولكن لم تمكث بها إلا بقدر مشاهدة المحمل، والخروج معه إلى بيت الله الحرام.

---

(١) مدينة مشهورة، تبعد عن فاس ١٢٠ كم شرقًا، وهى اليوم إقليم جبلى فسيح، يسمى باسمها، ينسب إليها عدد من الفقهاء والعلماء والقراء والشعراء. (روضة التعريف ٤٧).

(٢) المرأة فى المغرب ٢١١.

(٣) كان والى مصر التركى آنذاك عبد الله باشا السكيورلى.

(٤) المرأة فى المغرب ٢١٢.

قال الجبرتى: ومن عادة المصريين أن يحملوا كسوة[1] الكعبة التى تحمل كل سنة للبيت الحرام، ويمرون بها فى رابع عشر من شوال - فى وسط القاهرة - وتحمل المغاربة جانبًا منها للتبرك بها[2].

وسار موكبها حتى وصل مدينة الرسول ﷺ، وزارت الرحاب المقدسة، وفى ركابها الخير كله، وفى يديها الندى كله، وفى أنفاسها العطر كله، فملأت جو المدينة المباركة خيرًا وكرمًا وعطرًا، أطعمت الجائع، وأكرمت اليتيم، وسترت المحتاجين، وواست الأرامل، والمساكين، ملأت قلوب الناس بالفرحة والطمأنينة كما ملأت بطونهم بالطعام والشراب، فكأنها كانت ربيعًا على أرض قاحلة، فحين هطل خيرها على الأرض اهتزت الأرض وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج.

كانت غيثًا نافعًا طوال سيرها من المدينة إلى مكة، حتى إذا وصلت ينبع[3] لم يفتها أن لهذه المدينة بالنسبة إليها خصوصية متميزة، فمن ينبع كانت أرومة زوجها السلطان؛ ولذلك آثرتها بالخير والعطاء، وأنواع الثياب الرفيعة، علاوة على المبالغ النقدية الذهبية والفضية، والكتب والمخطوطات.

قال د. التازى: عثرنا على بعض المخطوطات المغربية فى الينبع، كان منها مجموع يحتوى على دلائل الخيرات.. كما يحتوى على البردة والهمزية[4]، وكل ذلك بخط مغربى، ثم يسأل: فهل كان من هدايا الركب الأميرى إلى خزانة ينبع؟[5]، ونحن لا نستبعد ذلك.

أما زيارتها للبيت الحرام فى مكة، فكانت حديث الناس، لما بذلت من عطاء، وفرقت من أموال، ووهبت من هبات.

---

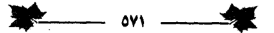
(١) معروف أن شجرة الدر الملكة المصرية هى أول من واظب على إرسال الكسوة للكعبة المشرفة من مصر فقط، وذلك عام ٦٤٨ للهجرة (الموافق عام ١٢٥٠ للميلاد)، وكانت قبل ذلك يرسلها أى ملك من ملوك العالم الإسلامى، وظلت سنّة حتى عام ١٩٦٠ للميلاد، فألغاها جمال عبد الناصر، وصارت تصنع فى السعودية من يومها.

(٢) عجائب الآثار ١/ ٨٤.

(٣) أو الينبوع، وهى ينبوع النخل، فيها مقبرة دارسة للشرفاء جدود الأسرة العلوية الملكية بالمغرب.

(٤) قصيدتان صاغهما الإمام البوصيرى، وسار على نهجهما أحمد شوقى بقصيدتيه المعروفتين.

(٥) المرأة فى المغرب ٢١٢ و٢٦٠.



قال د. التازى: لقد أنست حجتها سدنة مكة حجة زبيدة[1] زوج هارون الرشيد، فلا حديث إلا عن تبتلها وأريحيتها، وقد أثار صنيعها شاعرية إمام المقام الإبراهيمى الشيخ محمد بن على الطبرى، فنظم رائية طويلة، صدرها بقطع نثرية أودعهما معًا حول زيارة الأميرة للمقام ليلة السادس من ذى الحجة بعد العشاء[2].

لقد أنفقت خناثة فى حجتها هذه أكثر من مائة ألف دينار فى ذلك الزمان، أنفقتها كلها فى خير الناس وإسعادهم.

ومما يدل على امتلاء نفسها بالرغبة فى الخير، ما بدا من حرصها خلال زيارتها للأرض المقدسة على وقف أى شىء لله بجوار بيته، فكرت فى أن تشترى دارًا تجعلها لحفظة القرآن وقرائه وطلبة العلم، فتطوع من أخبرها بأن بيوت مكة لا تباع، وصدمها هذا الخبر، ولم تسترح إليه، حتى لجأت إلى العلماء والفقهاء لتتبين حقيقة هذا الأمر، فأفتوها بأن ذلك جائز، ولا شىء فى الدين يمنعه.

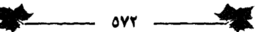
فبادرت إلى شراء الدار، ووقفتها على ما حددته من أغراض الخير.

قال رضا كحالة: واشترت من عبد الله بن سالم دارًا بباب الصرة بما يقرب من ألف مثقال ذهب، ووقفتها على عدد من طلبة العلم، وعلى مدرس يدرس صحيح البخارى، وأقامت عليها ناظرًا[3].

وأتمت أداء فريضة الحج، وبدأت رحلة العودة، ووصلت القاهرة بمصر فى غرة ربيع أول عام ١١٤٤ للهجرة، فأرادت أن تحتفل بمولد الرسول ﷺ على طريقة المغاربة، فجمعت من كانوا معها فى الركب، ومن عرف بمرورها على مصر ليلة المولد، وتليت الأمداح النبوية ودلائل الخيرات، وكثرت الابتهالات والأدعية، فكانت ليلة مباركة امتزج فيها جو المشرق العبق بجو المغرب المتدين.

---

(١) حجت زبيدة زوج هارون الرشيد عام ١٧٦ للهجرة (الموافق عام ٧٩٢ للميلاد)، أى من ٩٦٧ حجة.
(٢) المرأة فى المغرب ٢١٠.
(٣) أعلام النساء ١/٣٥٨.



وبينما كانت في مصر وصلها خبر تمرد الجيش بقيادة بعض الأمراء والأميرات[1]، فأسرعت بالعودة لتكون إلى جانب ابنها، تشد من أزره، وتساعده على الوقوف في وجه تلك الأنواء، وعادت إلى المغرب، وفي مكناس بدأت المرحلة الشاقة العصيبة في حياتها، وما حدث لها قبل أن تسجن وبعد خروجها من السجن ـ كما سبق أن ذكرنا.

ولما اطمأنت لعودة ابنها إلى كرسي الحكم قررت أن تغير طريق حياتها.

* * *

(١) مثل الأميرة زيدانة أو (عائشة الدوكالية) أو أم الأمير زيدان بن إسماعيل والأمير علي بن إسماعيل، الذي خرج على عبد الله.

وفاة خناثة

اطمأنت الأميرة خناثة على ولدها، وعلى حفيدها الذى أهلته، وربته ليكون خليفة لوالده، وأحست أن دورها السياسى لم يعد مطلوبًا، وخاصة بعد أن تعدت السبعين من العمر، فتركت عاصمة الملك (مكناس) التى عاشت فيها، ولم تفارقها طوال ستين عامًا إلا للحج، وغادرت قصرها، ومعها جواريها وخدمها وكتبها، واتجهت إلى فاس، حيث اعتزلت السياسة والحياة العامة، وعاشت هناك فى قصرها فى ضاحية من ضواحى فاس، وانقطعت للقراءة والاطلاع والعبادة والدعاء، حتى أدركها أجلها فى ٥ جمادى الأولى عام ١١٥٩ للهجرة (الموافق عام ١٧٤٦ للميلاد)[١].

ودفنت فى نفس المقبرة التى دفنت بها حماتها والدة السلطان إسماعيل، وعدد من أمراء وأميرات البيت العلوى.

رضى الله عنها وأرضاها.

ماتت خناثة، ولكن فضلها لم يمت، بل ظلت آثارها باقية فى استمرار محامدها، ولا سيما فى بروز شخصية حفيدها مولاى محمد بن عبد الله، الذى تولى الملك بعد أبيه، وكان لجدته أكبر الأثر فى صقل شخصيته، وفى إعداده لتولى الملك بكل ما يعنيه ذلك من الحفاظ على أمجاد الأسرة العلوية والدفاع عن حقها فى حكم المغرب، وتحمل أمانة هذا الحكم.

قال المدنى بن الحسنى عنه: شب شبابًا حسنًا تحت رعاية والده، وعناية جدته، وأخذ من العلم ما يسره: دراسة الأدب والتاريخ فى شبيبته، والفقه والحديث فى كهولته، والجمع والتأليف فى شيخوخته[٢].

وإن محمدًا الحفيد ليدين بكثير من صفاته الشخصية لأثر هذه المرأة الصادقة المخلصة، التى لم تتركه لحظة من يوم مولده عام ١١٣٤ للهجرة[٣]، حياة جده

(١) ذكر الزريكلى أن وفاتها كانت عام ١١٥٥ للهجرة (الموافق عام ١٧٤٢ للميلاد).

(٢) المغرب عبر التاريخ ٣/ ٨٤.

(٣) هناك روايات تقول بولادته عام ١١٣٠ للهجرة، ويكون قد حج وعمره ١٤ سنة، ولطول مدة حكمه، حدثت فى العالم أحداث كبيرة، منها: حرب الاستقلال الأمريكية عام ١٧٨٩ للميلاد، واعتراف المغرب بالدولة الجديدة فى أمريكا، كذلك قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨١ للميلاد، واستيلاء إنجلترا على كندا، وغيرها.

إسماعيل، ولما خرجت للحج كان هو معها، وهو فى أوائل العقد الثانى من العمر، وعندما اختفى أبوه السلطان المخلوع عند أخواله فى المغافرة ومعه أخوه أحمد قرب موريتانيا، لم يترك محمد جدته، وبقى معها، حتى سجنه عمه معها.

ولما أحست بأنه أصبح رجلاً يعتمد عليه، تركته لأبيه الذى دربه على شهود المعارك من عام ١١٥٦ للهجرة، ولما اطمأن لكفاءته وقدرته، عينه خليفة عنه بمراكش برغبة سكانها، وبقى بها واليًا محبوبًا حتى عام ١١٧١ للهجرة فى صفر، حيث توفى أبوه، فبويع هو نهائيا وبالإجماع، بيعة وصفها مؤرخ المملكة قائلاً: بإجماع أهل المغرب بيعة تامة مرضية كاملة الأوصاف، سنية جامعة لجميع الأمور الشرعية[١].

وظل ملكًا حتى توفى بين الدار البيضاء والرباط فى ٢٥ رجب عام ١٢٠٤ للهجرة (الموافق ١١ إبريل عام ١٧١٠ للميلاد).

لقد كتب لسلالة مولاى إسماعيل أن تستمر حتى الآن بفضل جهود بذلتها الشخصيات المتتابعة من الرجال، وتنفرد تلك المرأة (خناثة) بدور هام جدًا فى تدعيم سلطة الأسرة العلوية، حتى أصبحت من خير النساء اللواتى جاهدن، وأدين دورًا بارزًا وراء الأحداث.

* * *

(١) المغرب عبر التاريخ ٣/٨٦.





من سفير صاحب الجلالة ملك المغرب بالقاهرة

إلـــى

الدكتور عبد الصبور شاهين

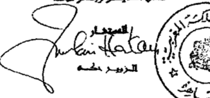
والدكتورة إصلاح عبد السلام الرفاعي

تحية طيبة ،

وبعد، أتشرف بأن أبعث لحضرتكم طيه رسالة شكر موجهة من الســـيد محمـــد معتصم مستشار صاحب الجلالة على كتاب "خناثة بنت بكار" الذي أهديتموه لجلالـــة الملك محمد السادس في وقت سابق.

وتفضلوا بقبول خالص التحيات.

عن السفير وبأمر منه





المملكة المغربية

الديوان الملكي

مستشار صاحب الجلالة

1-0597

الرباط، في 16 ذو الحجة 1420

2[illegible] مارس 2000

فضيلة الأستاذ عبد الصبور شاهين
والأستاذة إصلاح عبد السلام الرفاعي

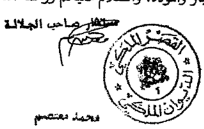
السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد، فقد رفعتم إلى مقام الجناب الشريف صاحب الجلالة الملك محمد السادس أيده الله ونصره الكتيب القيم الذي ألفتموه عن السيدة "خناثة بنت بكار"، زوج السلطان المولى إسماعيل وأم أجداد معظم السلاطين الميامين من ملوك الدولة العلوية الشريفة.

وقد اطلع جلالته على محتواه الذي جمع بين التعريف بالمغرب مع عرض نبذة من تاريخه، والوقوف على شخصية السيدة خناثة بنت بكار، وما كان لها من صفات ومناقب جليلة، وتأثير كبير في عصرها. وذلك في إطار الترجمة لكبريات النساء في التاريخ الإسلامي.

وقد أمرني جلالته بأن أعرب لكم عن تقديره وشكره لإهدائكم، ولمشاعركم تجاه المغرب وتاريخه وأعلامه.

وتقبلوا مني خالص الاعتبار والمودة. والسلام عليكم ورحمة الله.





١٤

أميرة الجامعة
فاطمة بنت إسماعيل



تمهيد

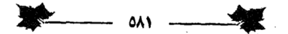
ليس غريبًا فى أيامنا هذه أن نقدم سيرة السيدة الممتازة، الأميرة فاطمة بنت إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على باشا الكبير، فهى امرأة نادرة إذا ما قيست بمقاييس عصرنا، ويكفى أنها، وبعد أكثر من ثمانين عامًا من وفاتها، تفرض نفسها وسيرتها على العقل الجامعى، باعتبارها صاحبة الفضل فى انطلاق الجامعة المصرية إلى آفاقها غير المحدودة، آفاقها التى امتدت، ولا تزال تمتد عبر الزمان والمكان.

لقد كانت البذرة التى غرستها يد الأميرة فاطمة ذات يوم فى أرض الجيزة بذرة مباركة، أثمرت شجرة طيبة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [سورة إبراهيم: ٢٤، ٢٥]، وسرعان ما انتشرت على أرض مصر ثمار تلك البذرة فى شكل جامعات تربو على خمس عشرة جامعة، من أسوان جنوبًا، إلى الإسكندرية شمالاً، فضلاً عن الأزهر الذى انتشرت فروعه فى كل محافظة، معاهد وكليات.

لقد أثمرت تلك البذرة، بل أطلقت من قلبها جيشًا عرمرمًا من العلماء والباحثين والدارسين والمثقفين، مهمتهم فى الحقيقة أن يطاردوا فلول الجهالة فى أرجاء الوطن العربى، ولا نبالغ إذا قلنا إن جامعة القاهرة هى أم الجامعات فى سائر الأوطان العربية، وإن الأميرة فاطمة هى أم جامعة القاهرة بلا منازع.

فليس غريبًا بمناسبة اقتراب العيد المئوى للجامعة المصرية أن نقدم سيرة هذه السيدة الممتازة مثالاً على ما يمكن أن تحققه الإرادة الطيبة فى حياة الأوطان.

المهم أن هذه المرأة لم تظفر بنصيبها فى إبراز دورها العظيم، وتقرير فضلها على أبناء وطنها، بل مضت إلى رحاب الله قبل أن ترى قيام الجامعة على الأرض التى اختارتها فى موقعها الآن بثمانى سنوات، ثم أسدل الستار على اسمها



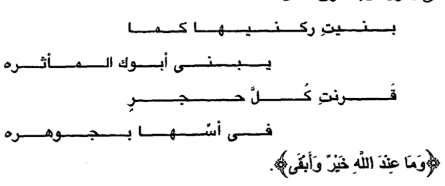
العظيم، إلا من نقش يسجل ذكرها على واجهة كلية الآداب، وإن كان وعد الله سيبقى مدويًا فى الدنيا، وذلك فى قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [سورة آل عمران: ١٩٥].

أجل هذا معنى من الخلود الحق، غير المزيف، الذى يفرض حكمه على قانون البلى والتقادم بمرور الزمن. إنه بمقاييس الدنيا نوع من الماس لا يزيده مرور الدهور إلا بريقًا وضياء، وهو بمقاييس الآخرة شجرة تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها.

إن اسم الأميرة فاطمة ليس وليد مناسبة اجتماعية وقعت ذات يوم ثم تلاشت، ولكنه اسم لكل العصور، باق ببقاء آثاره، لا يطمره تحت رمال النسيان قرار إدارى، أو نزوة شريرة طمست حينًا من الدهر معالم التاريخ المصرى الإسلامى.

وها هى ذه جامعة القاهرة ـ أم الجامعات ـ تحقق نسبها، وتذيع على العالم أصل نشأتها، وتسجل لذوى الفضل فضلهم دون أن تتحرج أدنى حرج من أى اعتبار سياسى، أو تاريخى، فقد كانت نتيجة تضافر جهود المخلصين من زعماء مصر وقادتها، وعلى رأسهم الزعيم الوطنى الخالد مصطفى كامل، وحين اجتمعت إرادة الأمة لم يستطع الاستعمار الذى كان رابضًا على أرضها أن يعوق حركة الجماهير، أو أن يوقف التيار الهادر الذى قرر إنشاء الجامعة المصرية من منطلق إسلامى ووطنى، وكانت الأميرة فاطمة إسماعيل مصدر الطاقة المحركة التى تصل بالمشروع إلى التحقيق والاستمرار.

وحسب الأميرة من ذكر الدنيا قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقى، فى رثائها، والتى يقول فيها دون نفاق:


بنيتِ ركنيها كما
يبنى أبوك المأثره
قرنتِ كلَّ حجرِ
فى أسِّها بجوهره

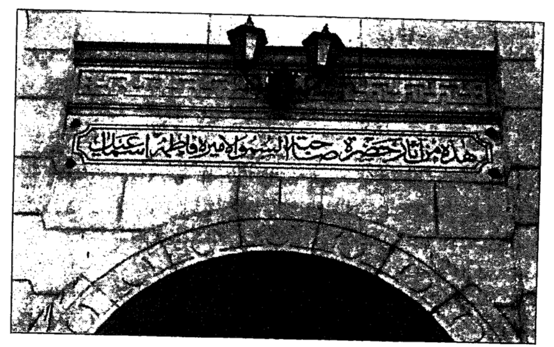
﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.



إن مصر بحاجة إلى المخلصين من أبنائها، الذين يتصفون بأخلاق النحل، يجمعون الرحيق فى شكل ثروات، ثم يفيضونه شرابًا مختلفًا ألوانه، بذلاً وعطاء، وإيثارًا لا أثرة معه، لتقضى ما عليها من ديون، وتبنى نهضتها، وتحقق رسالتها الإسلامية الخالدة.

ليست المشكلة قلة المال، فما أكثر جامعى الثروات والمليارات فى بلادنا، ولكن المشكلة فى قلة الأوفياء ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ صدق الله العظيم.

* * *



واجهة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

فاتحة

وقبل أن نتحدث عن الأميرة يحسن أن نقدم نبذة عن عصرها، وعصر جدها محمد على باشا الكبير منشئ مصر الحديثة.

ولد محمد على فى بلدة قولة بألبانيا عام ١٧٦٩ للميلاد ١١٨٣ للهجرة، من أب أرنؤوطى اسمه إبراهيم أغا، الذى ما لبث أن توفى هو وزوجه، وتركا محمدًا وعمره أربع سنوات، فكفله عمه ثم صديق أبيه بعد وفاة ذلك العم، ولما شب عن الطوق زاول تجارة التبغ حتى بلغ سن الزواج، فزوجه ذلك الصديق من سيدة من أسرة كبيرة غنية، وشاء الله أن تتغير طريق محمد على من التجارة إلى الحرب، فخرج فى تجريدة[1] بعث بها السلطان[2] العثمانى إلى مصر عام ١٧٩٩ للميلاد؛ لإخراج نابليون بونابرت وجيشه من الولاية العثمانية (مصر)، ووصلت القوات العثمانية إلى أبى قير، ولكن الفرنسيين هزموهم فى الخامس والعشرين من يوليو عام ١٧٩٩ للميلاد، وعاد قائد هذه التجريدة «على أغا» إلى بلاده، وترك قيادة الكتيبة التركية لمحمد على الذى رقاه إلى رتبة بكباشى لما توسم فيه من نجابة وذكاء، وبعد رحيل الفرنسيين سنة ١٨٠١م وقعت صراعات فى الديار المصرية بين المماليك والأتراك والألبان والعلماء والمشايخ.

وتتابعت مكاتبات بين الآستانة ومصر لاختيار والٍ عليها، وأخيرًا وردت الإرادة الشاهانية فى نوفمبر عام ١٨٠٦ للميلاد بتثبيت الألبانى محمد على واليًا على مصر.

وأسرع محمد على بعد توليته بمحاولات لإبعاد فلول القوات الأجنبية عن مصر من فرنسيين وإنجليز، ثم قضى على المماليك فى مذبحة القلعة عام ١٨١١ للميلاد، ثم التفت إلى مصر يصلح من شأنها سياسيًا واقتصاديًا وزراعيًا وصناعيًا وتعليميًا وعسكريًا، حتى خطت مصر خطوات واسعة فى سبيل التقدم والرقى.

---

(١) حملة صغيرة وكانت هناك حملة أخرى نزلت مصر عند العريش فى ١٥ من يوليو عام ١٧٩٩ للميلاد، ولكنها ارتدت.

(٢) هو السلطان سليم الثالث، الذى تولى الخلافة عام ١٧٨٨ للميلاد، وتوفى عام ١٨٠٨ للميلاد.



وفى ٢ من أغسطس عام ١٨٤٩ للميلاد، الموافق ١٣ من رمضان عام ١٢٦٥ للهجرة، انتقل محمد على باشا إلى رحمة الله، ودفن فى مسجده بقلعة صلاح الدين بالقاهرة، وتولى بعده حفيده عباس الأول بن طوسون باشا، الذى ولد عام ١٨١٣ للميلاد (عام ١٢٢٨ للهجرة)، باعتباره أكبر أفراد الأسرة سنًّا، ولوفاة إبراهيم باشا الابن الأكبر لمحمد على قبل أبيه بأشهر قليلة.

ثم اغتيل عباس الأول فى ١٨ من شوال عام ١٢٧٠ للهجرة (١٤ من يوليو عام ١٨٥٤ للميلاد).

فتولى عمه سعيد باشا الذى ولد فى الإسكندرية عام ١٢٢٧ للهجرة (الموافق عام ١٨٢٢ للميلاد)، وحكم البلاد أكثر من ثمانية أعوام، وتوفى فى ١٨ من يناير عام ١٨٦٣ (٢٧ من رجب عام ١٢٧٩ للهجرة).

ثم كان عهد الحضارة والعمران والتقدم والرقى، عهد الخديوى إسماعيل.

* * *

الخديوى إسماعيل
والد الأميرة فاطمة

ولد الخديوى إسماعيل[1] ـ خامس ولاة الأسرة العلوية لمصر ـ بحى الفجالة بالقاهرة، فى يوم ١٢ من يناير عام ١٨٣٠ للميلاد[2]، ورباه أبوه إبراهيم باشا فى مدرسة قصر العالى، المدرسة الخصوصية لأولاد محمد على وأحفاده، ثم رحل إلى فيينا فى النمسا، ودرس العلوم والرياضيات والهندسة واللغات، ثم انتقل إلى باريس، واهتم باللغة الفرنسية، فأجادها قراءة وكتابة.

وعاد إلى مصر ولكن الخلاف على الميراث كان قد استحكم بين أفراد الأسرة العلوية بعد وفاة كل من محمد على وإبراهيم باشا، فسافر إلى الآستانة التى ظل بها مع السلطان عبد العزيز الذى قربه إليه، وعينه فى مجلس أحكام الدولة العلية، وأنعم عليه بالباشوية.

ولما تولى عمه الخديوى سعيد باشا، عاد إسماعيل إلى مصر عام ١٨٥٤ للميلاد، وكان قريبًا من الخديوى مع أنه ليس ولى العهد، لكن إرادة الله شاءت أن يكمل هو مشوار الحكم.

ففى عام ١٨٥٨ للميلاد كان أخوه ولى العهد الأمير أحمد رفعت بن إبراهيم باشا، ومعه بعض الأمراء فى الإسكندرية، وعند عودتهم ماتوا بالقطار الذى سقط فى النيل عند كفر الزيات، ووجد إسماعيل باشا نفسه وليًا للعهد بحكم أنه أكبر العائلة سنًا بعد سعيد باشا عمه، ثم انتقل سعيد باشا إلى الرفيق الأعلى فى ١٩ من يناير عام ١٨٦٣ للميلاد، وتولى إسماعيل باشا حكم مصر خلفًا له[3].

(١) توفى فى استنبول يوم ٦ من رمضان عام ١٣١٢ للهجرة (٢ من مارس عام ١٨٩٥)، ونقل ودفن فى مصر بمسجد الرفاعى. وكان قد خلع سنة ١٨٧٩م وتولى بعده ابنه الخديوى توفيق.

(٢) وقيل ١٩ من فبراير، وقيل ٢٢ من فبراير.

(٣) خلع إسماعيل باشا من حكم مصر بعد ذلك بسبب الديون المتراكمة فى ٢٦ من يونيو ١٨٧٩ للميلاد، وسافر إلى نابلى، ثم انتقل إلى الآستانة عام ١٨٨٨ للميلاد، وعاش فيها حتى توفى عام ١٨٩٥ للميلاد.



وقد تزوج الخديوى إسماعيل من أربع عشرة امرأة، ما بين حرة وسرّية، وأنجب منهن ستة عشر ولدًا، منهم ثمانية ذكور، وثمانى إناث، وكان له من الذكور ثلاثة تولوا الحكم من بعده وهم: الخديوى توفيق، والسلطان حسين كامل، والملك أحمد فؤاد.

ومن زوجات الخديوى إسماعيل السيدة شهرت فَزَّا هانم، التى رزقت منه ببنتين هما: الأميرة توحيدة التى ولدت فى ٢٣ من رمضان عام ١٢٦٦ للهجرة (الموافق ٣ من أغسطس عام ١٨٥٠ للميلاد)، وتبعتها أختها الأميرة فاطمة - صاحبة الترجمة - التى ولدت فى ٢٥ من شعبان عام ١٢٦٩ للهجرة (٣ من يونية عام ١٨٥٣ للميلاد).

* * *

ملامح النهضة التعليمية
فى عهد إسماعيل

يعتبر الخديوى إسماعيل والد الأميرة فاطمة ـ بحق ـ مؤسس النهضة التعليمية والعلمية فى مصر فى العصر الحديث، والعجيب أنه بدأ قبل توليه الحكم مزارعًا، فكان يدير مزارعه الشاسعة بطريقة منظمة، وروح اقتصادية، وذوق عملى رفيع، قال عنه المستر فاكوان الصحفى البريطانى: إن إسماعيل بفضل ما أوتيه من الهمة التى لا تعرف الملل.. قد حصر اهتمامه فى إدارة مزارعه الخاصة إلى أن تمكن من أن يجعل نفسه أغنى مزارع فى مصر[1]، ولقد جنى أرباحًا طائلة لارتفاع ثمن القطن بسبب الحرب الأهلية الأمريكية[2].

ولكنه لما صار حاكمًا لمصر اتسعت اهتماماته بإصلاحات البلاد، وتقلصت اهتماماته الخاصة بالزراعة إلا من خلال المصلحة العامة، كشق الترع، وتشييد القناطر وإقامة الكبارى التى بلغ عددها الأربعمائة، كذلك مد الطرق الزراعية المترامية الأطراف، والسكك الحديدية والبرق والبريد، ثم أكمل مشروع حفر قناة السويس الذى بدأه سعيد باشا، واحتفل بافتتاحها فى ١٦ من نوفمبر عام ١٨٦٩ للميلاد.

ولما اتجهت جيوشه صوب إفريقية رأينا علم مصر يرفرف على السودان وأوغندا وأثيوبيا وإريتريا.

قال د. أحمد شلبى نقلاً عن مقال لعباس العقاد: وقد تفرد عصر إسماعيل فى التاريخ القديم والحديث بمزية لا يضارعه فيها عهد من العهود، منذ قيام الدولة المصرية على أيدى الفراعنة إلى اليوم، فقد مضت على قيام هذه الدولة المصرية آلاف السنين، فلم يتوحد مجرى النيل قط خلال تلك الأحقاب الطوال فى ظل راية واحدة إلا فى عهد واحد هو عهد إسماعيل[3].

---

(١) تاريخ مصر ٣٠٦.
(٢) الموسوعة العربية الميسرة ١٥٩.
(٣) موسوعة التاريخ الإسلامى ٥/٣٧٩.

وكان هناك هدف آخر مع توحيد دول وادى النيل هو القضاء على النخاسة وتجارة الرقيق، كذلك نشر الأمن والاستقرار فى ربوع إفريقية كلها، فهذا القائد العام لإسماعيل باشا السير صمويل بيكر يقول فى مذكراته فى صفحة ٢٨٥: كان الأمن العام فى عهد إسماعيل مستتبًا فى كافة بلاد الخديوى، وكان الغريب المسيحى (السائح) على طول الطريق من الإسكندرية إلى الخرطوم يشعر بطمأنينة تزيد عما يشعر به أحد أبناء لندن فى حديقة هايد بارك بعد الغسق[١].

والعجيب أن الفتوحات وصلت إلى جنوب خط الاستواء، ودخل الإسلام كثير من ملوك ورؤساء قبائل تلك البلاد بعد أن كانوا وثنيين، ومنهم ملك أوغندا (أميتس) الذى كان يفخر بتبعيته لخديوى مصر.

كتب صمويل بيكر[٢] للخديوى عام ١٨٧٢ للميلاد يعلمه بما تم فى إفريقية من إنجازات، قال:... والآن قد قطعنا دابر تجار الرقيق وأقصيناهم عن البلاد، فإن الأهالى ينظرون بروح الثقة إلى حكومة سموكم، وقبل عودتى سأكون وفقت فى وضع الراية المصرية على الأقل عند الدرجة الأولى جنوبى خط الاستواء... لقد اعتنق ملك أوغندا الإسلام وأنشأ فعلاً مسجدًا للصلاة، وسأشرع من فورى فى بناء مدرسة[٣].

هذه هى أسس الحضارة: المسجد والمدرسة، ولقد ركز إسماعيل باشا اهتمامه بالنهضة التعليمية من أدبية وعلمية مع اهتمامه بالنهضة الزراعية والصناعية والعمرانية بإنشاء خطوط السكك الحديدية وبناء المدن ودار الآثار (المتحف المصرى فيما بعد)، وفى عام ١٨٦٩ للميلاد أمر بإنشاء دار الآثار الإسلامية العربية، ودار الرصد ومعامل السكر ومصانع النسيج وقمائن الطوب ومصانع الزجاج والورق، ومصلحة المساحة، ومصلحة الإحصاء وغيرها.

---

(١) هامش تاريخ مصر من المماليك إلى إسماعيل ٣٠٧، وهايد بارك أشهر حديقة فى لندن.

(٢) رحالة إنجليزى، عينه الخديوى إسماعيل فى إفريقية للقضاء على النخاسة وتجارة الرقيق، وفتح منطقة البحيرات الكبرى للملاحة، وذلك عام ١٨٦٩ للميلاد. (انظر هامش تاريخ مصر من المماليك إلى عصر إسماعيل، صفحة ٣٠٦).

(٣) هامش تاريخ مصر ٣٢٩.

أما التعليم فكان الركيزة الأولى لاهتمام الخديوى بكل لبناته ومستوياته: الكتّاب[1]، والمدرسة الابتدائية ثم الثانوية والزراعية والصناعية والعليا ومدارس البنات والعميان والخرس، ففى عام ١٨٦٣ للميلاد صدرت أول لائحة للتعليم فى مصر، من أربعين بندًا، وأول بندٍ فيها: تضامن جميع المدارس فى نظامها وتعليمها، ومساواة المعاهد التى من درجة واحدة مساواة تامة فى جميع الأمور[2].

ثم بدأ فى إنشاء المدارس العليا، فكانت مدرسة المهندسخانة عام ١٨٦٥ للميلاد بسرايا الزعفران، وأول ناظر لها هو إسماعيل باشا الفلكى، وكانت هذه المدرسة قد أنشئت أيام محمد على باشا ثم أغلقت فى عهد عباس، وفى السنة التالية عام ١٨٦٦ للميلاد أنشئت مدرسة الطب البيطرى، أما مدرسة الحقوق أو الإدارة والقانون فقد تم إنشاؤها عام ١٨٦٨ للميلاد، وحلت مكان مدرسة الألسن التى كان أنشأها رفاعة الطهطاوى[3].

ومدرسة الطب والولادة التى قسمت إلى قسمين: قسم الطب والجراحة، وقسم الصيدلة، وللعلم كان معظم الأساتذة فى القسمين من المصريين الذين تعلموا فى أوربا.

وقد أنشئت كذلك المدرسة الصناعية عام ١٨٦٨ للميلاد التى تخرج فيها مهندسو البرية والبحرية، والميكانيكيون فى مصلحة السكة الحديد، ومهندسو صناعة عربات الحديد، والآلات البخارية.

وفى عهد الخديوى إسماعيل كذلك أنشئت مدرسة التلغراف والنقاشين، وفرقة عمليات المرور ومصلحة البريد.

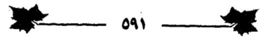
ونتج عن هذه النهضة العلمية نهضة أخرى فى الصحافة السياسية والأدبية والعلمية والحربية، فقد ظهر فى عهد إسماعيل باشا قرابة عشرين جريدة ومجلة، منها: روضة المدارس التى كانت توزع مجانًا على التلاميذ، وجريدة وادى النيل عام ١٨٦٧ للميلاد، وجريدة نزهة الأفكار عام ١٨٦٩ للميلاد، وجريدة الأهرام

---

(١) لم يلغ إسماعيل نظام الكتاتيب، وإنما شدد على تعليم الحساب ومبادئ الجغرافيا وأى لغة أخرى فى الكتاب.

(٢) تاريخ مصر ١/١٩٠.

(٣) رفاعة الطهطاوى: شيخ المترجمين المصريين، ولد فى طهطا عام ١٨٠١ للميلاد، تخرج فى الجامع الأزهر، وعين إمامًا لأول بعثة تعليمية لفرنسا، فتعلم الفرنسية، ولما عاد أنشأ مدرسة الألسن، ترجم كتبًا كثيرة فى الجغرافيا والقانون والهندسة، توفى عام ١٨٧٣ للميلاد.



عام ١٨٧٥ للميلاد التى أسسها سليم تكلا وبشارة تكلا، ومرآة الشرق عام ١٨٧٩ للميلاد التى أسسها إبراهيم اللقانى، وأبو نضارة التى أنشأها يعقوب صنوع، وغيرها وغيرها...

كل ذلك مع إنشاء مصنع للورق ليزود هذه الصحف بالورق، وقد وصل هذا المصنع لدرجة من الإتقان، حتى قال عنه على مبارك إنه أحيا روح المطبعة الأميرية ونشر صيتها فى جميع الأقطار.

ودار الكتب التى أنشئت عام ١٨٧٠ للميلاد كانت من ضمن اهتمامات الخديوى إسماعيل أيضًا[١]، فقد جمع فيها الكتب الموزعة على المخازن الحكومية والمساجد والتكايا، وابتاع لها نحو ألفى مجلد من المخطوطات العربية والفارسية، من تركة أخيه مصطفى فاضل، وتركة حسن باشا المناستيرلى، وجعل للدار ناظرًا وقانونًا لضبطها.

لقد أنفق الخديوى أموالاً طائلة فى هذه المشروعات، قال نعوم شقير: فاستغرقت كل هذه الأعمال والإصلاحات القناطير المقنطرة من الأموال[٢].

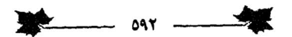
كذلك اهتم الخديوى إسماعيل بالأزهر، فأشاع فيه روح الإصلاح والنهضة، وخاصة بعد مجىء جمال الدين الأفغانى[٣] إلى مصر عام ١٨٧١ للميلاد، فقد

---

(١) جاء فى بعض المراجع أن فكرة دار الكتب صدرت من السلطان عبد العزيز إلى إسماعيل لما زار مصر عام ١٨٦٣ للميلاد، ويقولون إن هذا العاهل لما زار مصر وشاهد مساجدها وآثارها، ورأى الكتب العديدة من مخطوطات ومطبوعات مبعثرة فى خزاناتها، أشار على إسماعيل بإنشاء مكتبة عامة تجمع شتاتها ليستفيد الناس بمطالعتها، وإن هذه الإشارة الهمايونية وقعت وقعًا جميلاً من نفس إسماعيل. (تاريخ مصر فى عصر إسماعيل ٢٤١)، وتعتبر زيارة السلطان عبد العزيز لمصر أول زيارة يقوم بها سلطان عثمانى من أول الفتح التركى على يد سليم الأول عام ١٥١٦ للميلاد.

(٢) تاريخ سينا ٤٥٦.

(٣) ولد جمال الدين فى أسعد أباد من أعمال كابل عام ١٨٣٨ للميلاد (١٢٥٤ للهجرة)، حج عام ١٨٥٧ للميلاد، ثم عاد إلى بلاد الأفغان، ثم رحل إلى الهند، وجاء إلى مصر عام ١٨٧١ للميلاد (أواخر عام ١٢٨٦ للهجرة)، واتصل به الطلبة وأنسوا به، وأقام بها أربعين يومًا، وسافر إلى الآستانة، وعاد إلى مصر أول محرم عام ١٢٨٨ للهجرة (مارس عام ١٨٧١ للميلاد)، ورغب إليه رياض باشا البقاء فى مصر، وفى ٦ من رمضان عام ١٢٩٦ للهجرة (٢٤ من أغسطس عام ١٨٧٩ للميلاد) قبض عليه، وحجز، وفى الصباح حمل فى عربة مقفلة إلى محطة السكة الحديد ومنها إلى الباخرة التى نقلته إلى بونباى، ثم حيدر أباد، وهناك بحيدر أباد كتب رسالة فى (الرد على الدهريين) ثم سمح له بالذهاب إلى أوربا عام ١٨٨٣ للميلاد، وأصدر هو ومحمد عبده فى لندن جريدة العروة الوثقى، وعاش فى باريس بعد ذلك ثلاث سنوات، ثم انتقل إلى فارس (إيران) ومنها إلى روسيا، ثم إلى البصرة ثم الآستانة عام ١٨٩٢ للميلاد، ثم تنكر له السلطان عبد الحميد بسبب الوشاة، توفى إثر عملية جراحية يوم ٩ من مارس عام ١٨٩٧ للميلاد.





جمال الدين الأفغانى

عاون الخديوى وغرس بذور التقدم الفكرى والعلمى فى الأزهر، ثم ظهرت المدرسة الحديثة التى حمل لواءها الشيخ محمد عبده[1]، ولم يكن الاهتمام بالأزهر فقط، وإنما تناول الخديوى إصلاح جميع المعاهد الدينية الكبرى، يقول إلياس الأيوبى: تناول الإصلاح المدرسى المعاهد الدينية... كالأزهر بمصر والجامع الأحمدى بطنطا والدسوقى بدسوق وإبراهيم باشا بالإسكندرية، فألزم الشيوخ المتخرجون فيها بتأدية امتحانات لنيل إجازة التعليم، واعتراف الحكومة بهم أنهم معلمون، وكان عدد المجاورين[2] بالأزهر عام ١٨٧٦ للميلاد أحد عشر ألف طالب وخمسة وتسعين، وعدد المجاورين بالجامع الأحمدى ثلاثة آلاف وثمانمائة وسبعة وعشرين، وعدد المجاورين بمسجد الدسوقى مثلهم تقريبًا[3].

وكان التعليم فى جميع المدارس والمعاهد مجانًا مع نفقات المأكل والملبس لطلاب العلم.

وإذا ذكر التعليم فى عهد إسماعيل فلابد أن يشار إلى على باشا مبارك[4] الذى أفرد له عبد الرحمن الرافعى فى كتابه (عصر إسماعيل) بابًا كاملاً.

لقد جعل على مبارك همه الأكبر ترقية شئون التعليم فى البلاد، وزيادة عدد المدارس، فبعد أن كانت قبل عهد إسماعيل ١٨٥ مدرسة فقط، صارت فى عهده ٤٨١٧ مدرسة.

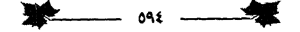
---

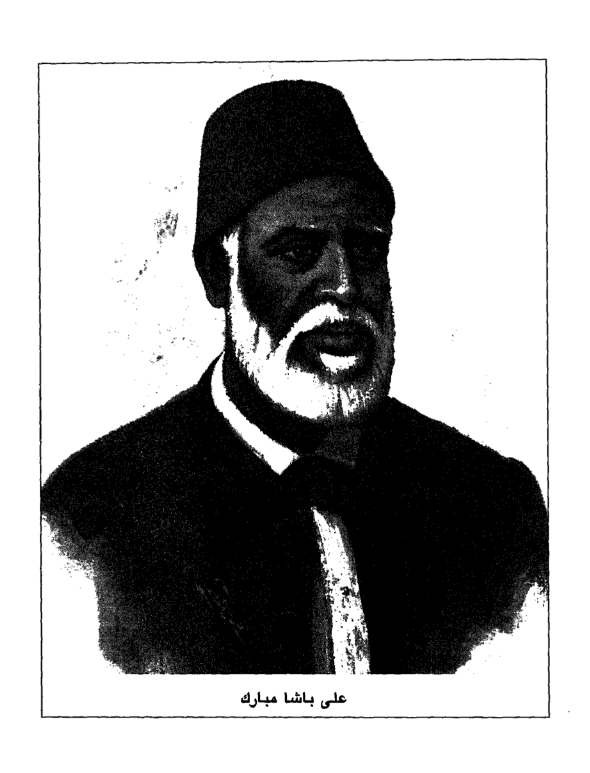
(١) ولد الإمام فى محلة نصر بالبحيرة عام ١٨٤٥ للميلاد، وحفظ القرآن، والتحق بالجامع الأحمدى بطنطا، ثم اتجه للأزهر عام ١٨٦٦ للميلاد، واتصل بجمال الدين الأفغانى، اشترك فى الثورة العرابية، أخرج مجلة العروة الوثقى مع جمال الدين، عمل مفتيًا عام ١٨٩٩ للميلاد، توفى عام ١٩٠٥ للميلاد (عام ١٣٢٣ للهجرة)، له مؤلفات فى التفسير ومقارنة الأديان.

(٢) المجاور: طالب العلم المنقطع له، وغالبًا ما يكون من أهل الريف، فهو يعيش فى مكان تعلمه.

(٣) تاريخ مصر فى عصر إسماعيل ٢٠٣/١.

(٤) ولد فى برنبال بالدقهلية عام ١٨٢٤ للميلاد، حفظ القرآن، والتحق بالمهندسخانة عام ١٨٣٩ للميلاد، ثم سافر مع إسماعيل باشا وبعض إخوته فى بعثة إلى فرنسا، ومن طريف حياته أنه كان يوصى بنصف مرتب البعثة لأهله فى مصر، وكان هذا المرتب ٢٥٠٠ قرش، وعندما تولى إسماعيل باشا الملك، ألحق على مبارك فى عدة وزارات مجتمعة هى: القناطر والمعارف والأشغال والأوقاف مع إدارة مصلحة السكة الحديد، توفى عام ١٨٩٣ للميلاد، له عدة مؤلفات أهمها: الخطط التوفيقية، وهو موسوعة مكملة لخطط المقريزى.





علی باشا مبارك

وكان على مبارك يتفقد أحوال التلاميذ والمعلمين فى هذه المدارس كل يوم ويطمئن على سير الدراسة فيها.

وكان لاضطلاعه بأمر وزارتى الأوقاف والمعارف معًا أكبر الأثر فى ازدهار معاهد التعليم؛ لأنه استخدم جانبًا من أموال وزارة الأوقاف فى الإنفاق على التعليم، فنرى أن ميزانية التعليم خصص لها فى عهد إسماعيل ٧٥٠٠٠ جنيه، منها ٤٨٠٠٠ جنيه من الميزانية العامة، و٢٠٠٠٠ جنيه من إيراد تفتيش الوادى، و٧٠٠٠ جنيه من ديوان الأوقاف ـ كما قال على مبارك فى خططه.

* * *

دار العلوم العليا

وأهم إنجازات الخديوى إسماعيل ووزيره على مبارك وأجلها فى مجال التعليم، هو إنشاء مدرسة دار العلوم العليا[1]، فنظرًا لكثرة المدارس المنشأة كان لابد من إيجاد عدد كاف من المعلمين والأساتذة فى اللغة العربية والآداب والعلوم المختلفة، ولذلك اتجها إلى تأسيس معهد عام ١٨٧١ للميلاد باسم دار العلوم[2]، وقد اختير تلاميذ هذه المدرسة من بين من اجتازوا الامتحان من الطلبة الأزهريين.

قال جورج يانج: وقد اشتمل برنامج التعليم فيها عدا المواد التى تدرس فى الأزهر مجموعة من المواد كالحساب والهندسة والطبيعة والجغرافيا والتاريخ والخط، مع إتقان العلوم الأزهرية من لغة، ونحو، وتفسير، وفقه، وحديث، وقد جعل التعليم فى هذه المدرسة مجانًا مع وضع مرتب شهرى للتلاميذ[3].

وزاد كتاب تاريخ التعليم، قال: عين فى مدرسة دار العلوم سبعة مدرسين... ولا يجوز تعيينهم معلمين إلا إذا تلقوا دروسًا فى طرق التدريس السليمة، وأثبتوا باختبارات عملية فى المدرسة الابتدائية التطبيقية أنهم أفادوا من هذه الدروس[4].

قال محمد عبد الجواد: بدأت دار العلوم باثنين وثلاثين طالبًا وخمسة مدرسين، منهم ثلاثة علماء من الأزهر، أما الناظر فكان المرحوم حامد نيازى

---

(١) بدأت دار العلوم باثنين وثلاثين طالبًا.

(٢) كانت الدراسة أولاً فى حجرة فى سراى درب الجماميز حتى عام ١٨٨٢ للميلاد، ثم نقلت إلى شارع البواكى بالعتبة، ثم نقلت مرة أخرى إلى سراى درب الجماميز، وفى عام ١٨٨٨ للميلاد نقلت إلى محل المهندسخانة وهو مكان المدرسة الخديوية، وفى عام ١٨٩٦ للميلاد نقلت إلى المكان الذى فيه المدرسة السنية الآن، وفى عام ١٩٠٠ للميلاد نقلت إلى حى المنيرة، وكان محاطًا بأراض زراعية وبساتين، وفى أواخر السبعينيات نقلت إلى حرم الجامعة فى المكان الذى اختارته الأميرة فاطمة من أكثر من تسعين سنة ليكون مقرًا للجامعة.

(٣) تاريخ مصر فى عصر المماليك إلى عصر إسماعيل ٤١٥.

(٤) تاريخ التعليم فى مصر ٢٥١.



أفندى، عين فى ٢٦ من أبريل عام ١٨٧٤ للميلاد، أما مواد الدراسة فهى تفسير القرآن الكريم، والفقه والعلوم الأدبية، وهى التى كان يدرسها حسين المرصفى من كتاب الوسيلة الأدبية، والتاريخ العام والجغرافيا والحساب والهندسة والكيمياء والطبيعة والخطوط العربية[١]، ثم أضيفت اللغات الأجنبية للمنهج عام ١٩٠٠ للميلاد.

لقد كانت دار العلوم الحل الأمثل لمشكلة التوفيق بين القديم والجديد، فقد جمعت بين محاسن المناهج القديمة التراثية ومحاسن المناهج المعاصرة، وبذلك تخرج فيها نموذج جديد من المثقفين الذين أثروا الحياة الأدبية فى مصر والشرق العربى، وقادوا العملية التعليمية الحديثة، وسدوا الفراغ الذى كان موجودًا فى هذا المجال.

وكانت دار العلوم تخرج المدرس الشامل مع التركيز على إتقان اللغة العربية، والإحاطة بعلومها اللغوية والأدبية، وقد كان لدار العلوم بهذه المثابة أثر عميق فى الارتقاء باللغة العربية على مستوى المثقفين فى مصر وخارجها، حتى قال الشيخ الإمام محمد عبده[٢] إن اللغة العربية تموت فى كل مكان وتحيا فى دار العلوم.

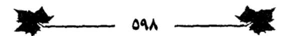
وقد شاعت هذه القالة عنوانًا على رسالة دار العلوم حتى دعت رئيس جامعة القاهرة فى أواخر الخمسينيات ـ وهو الأستاذ الدكتور السعيد مصطفى السعيد[٣] ـ دعته إلى مشاكلتها بقولة أخرى مأثورة: إن اللغة العربية تحيا فى كل مكان بفضل دار العلوم.

لقد كان أعظم الآثار الناشئة عن وجود دار العلوم أنها كانت بمثابة قلعة تعد الأبطال لمحاربة الاستعمار، وتحرير الوطن، وقد جاء فى تقرير للمستشار البريطانى المستر دنلوب رفعه إلى الحاكم العام البريطانى فى مصر اللورد

(١) تقويم دار العلوم ٢١٨.

(٢) قالها عام ١٩٠٤ للميلاد.

(٣) قالها د. السعيد مصطفى السعيد عام ١٩٥٨ للميلاد فى الكلمة التى ألقاها فى حفل الكلية بمناسبة مرور خمسين عامًا على إنشاء الجامعة.



كرومر، ذكره د.أحمد شلبى رواية عن د. مهدى علام جاء فيه: إن من أخطر الأمكنة على الاحتلال البريطانى فى مصر مدرسة (دار العلوم)؛ لأن طلبتها يقومون بتدريس جميع المواد فى مدارس الدولة ما عدا اللغة الإنجليزية، وهم يتصلون بشباب الأمة، ولهم عليهم تأثير واسع عن طريق الثقافة الدينية والمدنية، فهم بهذا أشبه ببؤرة نار متقدة ضد الاحتلال، وينبغى التخلص من هذه الدار بأى طريق من الطرق[1].

وقد ضمت دار العلوم للجامعة، وصارت ضمن كليات جامعة فؤاد الأول عام ١٩٤٥ للميلاد[2].

* * *

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى ٥/٣٨٦.

(٢) أقر المجلس الأعلى للجامعة فى جلسة الخميس ٢٦ من يوليو عام ١٩٤٥ للميلاد جعل (دار العلوم) كلية جامعية للتخصص فى الدراسات العربية مع الاحتفاظ بكيانها وطابعها الإسلامى الخاص وباسمها التاريخى. (تقويم دار العلوم ١٠٠).

الأميرة فاطمة
وترائبها من أميرات البيت المالك

تربت الأميرة فاطمة إسماعيل فى قصور أبيها وجدها، وتعلمت فى المدارس التى أنشئت لأولاد الأمراء، فقد كان إسماعيل باشا ـ كما علمنا ـ أبًا للتعليم فى مصر؛ لأنه اعتبره حق كل مصرى، ذكرًا أو أنثى، وقد أنشئت أول مدرسة بنات فى عهده عام ١٨٧٣ للميلاد بالسيوفية، وتلتها ثانية بِالقِرَبيَّة.

جاء فى كتاب تاريخ التعليم بمصر: كانت مدرسة السيوفية تهدف فضلاً عن التعليم الابتدائى الذى تقدمه إلى أن تقدم للفتيات تعليمًا مهنيًا عمليًا يفيدهن فى بيوتهن ويكسبن به عيشهن إذا دعت الحاجة، وكذلك تكون بمثابة مدرسة تجهيزية لمدرسة الولادة بقصر العينى[١].

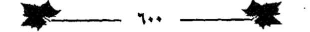
كذلك اهتم الخديوى بالمعوقين والمعوقات وجعل لهم مدارس لتأهيلهم، وكانت أول مدرسة لهم عام ١٨٧٥ للميلاد.

وهنا نذكر طرفة تعبر عن مدى اهتمام إسماعيل بالتعليم، وخاصة تعليم البنات، جاء فى كتاب الملكة فريدة: أنشأ الخديوى إسماعيل مدرسة ابتدائية لتعليم البنات ألحق بها بعض أميرات البيت المالك، ومن بينهن الأميرة خديجة[٢]، وبعض بنات الأسرة الكريمة التى تربطها بالأسرة العلوية رابطة النسب، وكان الخديوى قبيل ذلك قد وعد الأميرة خديجة بأن يزفها إلى نجله حسن إذا أظهرت تفوقًا فى الدراسة، ونبوغًا فى التحصيل.

فلما كان ذات يوم، قصد بنفسه إلى المدرسة؛ ليتفقد أحوالها، وليطمئن على سير الدراسة فيها، وأخذ يطوف بين الفصول تحف به الناظرة والمعلمات، حتى إذا دخل الفصل الذى كانت فيه الأميرة خديجة، سألها وهو يبتسم: إلى أين بلغتِ

(١) تاريخ التعليم فى مصر ١٠٦.

(٢) هى حفيدة محمد على باشا، وسنتحدث عنها بالتفصيل إن شاء الله فى أفراح الأنجال.

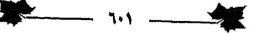


من تعلم القرآن يا خديجة؟، فأجابت فى غير تردد: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ. . .﴾ [مريم: ٥٤]، فسر إسماعيل لذكائها، وسرعة خاطرها، وابتسم ابتسامة أخرى، وقال: أجل أجل ما زلت عند وعدى[١].

وفعلاً تم زواجها بعد ذلك من الأمير حسن فى احتفالات جماعية، وأفراح شملت عددًا من الأمراء والأميرات، وكانت مظاهرة من المسرات أطلق عليها (أفراح الأنجال)، وكانت درة هذه الأفراح (الأميرة فاطمة).

* * *

(١) الملكة فريدة ٣٨.



أفراح الأنجال

بلغ ثلاثة من أبناء إسماعيل باشا سن الزواج، كما خطبت إحدى بناته (الأميرة فاطمة) فى نفس الوقت، فأراد الخديوى أن يتم زواجهم جميعًا فى يوم واحد سنة ١٨٧٢م، وكانت الاحتفالات التى دامت أربعين يومًا من أروع ما شهدت مصر فى العصر الحديث من الحفلات، وأطلق عليها (أفراح الأنجال)، وأطلق هذا الاسم على شارع من شوارع القاهرة.

وأولاد الخديوى (العرسان) هم:

الأول: الأمير توفيق الذى ولد فى ١٠ من رجب عام ١٢٦٨ للهجرة (الموافق ٣٠ من أبريل عام ١٨٥٢ للميلاد)، وأمه الأميرة شفق نور هانم، وقد تولى ملك مصر بعد عزل أبيه الخديوى إسماعيل عام ١٨٨٢ للميلاد، وتوفى عام ١٨٩٢ للميلاد.

أما عروسه فهى الأميرة أمينة هانم[1] بنت إلهامى بن عباس الأول بن محمد على باشا، المولودة فى ٢٤ من مايو عام ١٨٥٨ للميلاد[2]، وأطلق عليها لكرمها (أم المحسنين)، وكانت صاحبة أوقاف عظيمة منها ٨٧٢٠ فدانًا فى بلتاج ونبروه وغيرهما، موقوفة لأعمال الخير.

الثانى: الأمير حسين كامل - السلطان فيما بعد - المولود فى ١٩ من صفر عام ١٢٧٠ للهجرة (الموافق ٢١ من نوفمبر عام ١٨٥٣ للميلاد)، أمه الأميرة نورفلك هانم، وقد تولى سلطنة مصر فى ١٩ من ديسمبر عام ١٩١٤ للميلاد (الموافق ٢ من صفر عام ١٣٣٣ للهجرة)، بعد عزل الخديوى عباس حلمى، وتوفى فى ٢٢ من ذى الحجة عام ١٣٣٥ للهجرة (الموافق ١٩ من أكتوبر عام ١٩١٧ للميلاد).

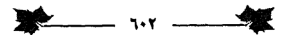
وعروسه هى الأميرة عين الحياة بنت أحمد رفعت باشا بن إبراهيم باشا الذى كان وليًا للعهد بعد سعيد باشا، ولكنه توفى فى حادثة القطار عند كفر الزيات عام ١٨٥٨ للميلاد، ولدت الأميرة عين الحياة فى ٥ من أكتوبر عام ١٨٥٨ للميلاد[3]، وأمها الأميرة دلبر جهان قادن.

---

(١) لم يتزوج غيرها، وقد أنجبت كل أولاده: الخديوى عباس الثانى، والأمير محمد على، والأميرة نازلى، والأميرة خديجة زوج عباس حليم، كذلك الأميرة نعمة الله زوج الأمير محمد جميل طوسون.

(٢) توفيت فى استنبول يوم ١٨ يونيو عام ١٩٣١ للميلاد.

(٣) طلقت الأميرة عين الحياة عام ١٨٨٥ للميلاد، وتوفيت فى ١٢ من أغسطس عام ١٩١٠ للميلاد.



وثالث العرسان هو الأمير حسن المولود فى ٢١ من ذى الحجة عام ١٢٧١ للهجرة (الموافق ٣٠ من ديسمبر عام ١٨٥٤ للميلاد)، وأمه الأميرة مثل ملك هانم.

وعروسه هى الأميرة خديجة بنت محمد على الصغير[١] بن محمد على باشا، ولدت حوالى عام ١٨٥٥ للميلاد، وهى التى كان الخديوى إسماعيل قد وعدها بالزواج من الأمير حسن إذا نبغت فى دراستها، وفى حفظها للقرآن الكريم، وذلك من خمس سنوات مضت أى سنة ١٨٦٧م.

أما الأميرة التى زفت فى هذه الاحتفالات فهى الأميرة فاطمة، المولودة فى ٢٥ من شعبان عام ١٢٦٩ للهجرة (٣ من يونية عام ١٨٥٣ للميلاد)، وأمها الأميرة شهرت فزا هانم.

وخطيبها هو الأمير طوسون بن محمد سعيد باشا بن محمد على باشا، المولود فى عام ١٨٥٣ للميلاد، وأمه مستولدة اسمها ملك برّ هانم أفندى[٢]، ولكن إلياس الأيوبى ذكر اسمًا آخر لها، قال: وترك سعيد ثروته لابنه الأمير طوسون، وأرملته الأميرة أنجى هانم البديعة الجمال[٣].

والصواب أن سعيد باشا توفى سنة ١٨٦٣م وترك زوجتين هما ملك بر هانم التى ولدت ولدين: الأمير طوسون والأمير محمود الذى مات صغيرًا سنة ١٨٤٦م والأرملة الأخرى أنجى هانم لم تنجب وقد توفيت الأرملتان فى عام واحد سنة ١٨٩٠م.

وقد رأينا أن نذكر ما حدث فى هذه الحفلات التى تناقلتها الأنباء، وتحدث عنها القاصى والدانى، وهذه الأحداث بتفاصيلها منقولة من كتابى (الملكة فريدة) و(تاريخ مصر فى عهد إسماعيل) عن الصحف آنذاك: وقد بدأت هذه الأفراح بإقامة حفل (كتب الكتاب) الذى أقيم بسلاملك القصر العالى قصر والدة إسماعيل[٤] بجاردن سيتى، ودعى إليه أعضاء الأسرة الخديوية، والعلماء والنظار وكبار الأعيان.

---

(١) ولد محمد على الصغير فى عام ١٢٤٨ للهجرة (١٨٣٣ للميلاد)، وتوفى بالآستانة (استنبول) فى يونية عام ١٨٦١ للميلاد، ودفن بجامع أبى أيوب الأنصارى.

(٢) توفيت فى الإسكندرية فى أكتوبر عام ١٨٩٠ للميلاد، ودفنت بالنبى دانيال.

(٣) تاريخ مصر ١٦/١.

(٤) الأميرة خشيار قادن، التى وقفت أموالاً كثيرة على البر، وعلى مسجد الرفاعى الذى بنته، توفيت فى مصر فى ٢١ من يونية عام ١٨٨٦ للميلاد، وكانت أول من دفن فى مسجد الرفاعى، وكانوا يطلقون عليها الوالدة باشا.

وفى اليوم الموعود يوم ١٥ يناير سنة ١٨٧٢م وبعد أن اكتمل عدد المدعوين، قصد شهود العقد إلى (الحرملك) حيث كانت الأميرات العرائس قد جلسن بين بقية الأميرات، فكانوا يسألون كل واحدة منهن ـ من وراء ستار كثيف يحجب ما وراءه، إن كانت قبلت الزواج من خطيبها، فكانت تجيب بالقبول بعد تمنع طويل، على نحو ما جرى به العرف فى ذلك العهد، فإذا سمع الشهود هذه الإجابة، عادوا إلى السلاملك حيث تجرى صيغة العقد، ويقدم الشربات والحلوى فى أقداح من الذهب، كما توزع الهدايا الفاخرة لكبار الحاضرين[١].

وقد جهز الخديوى إسماعيل للعرائس الأربع جهازًا فخمًا منقطع النظير من الحلى والجواهر المرصعة بالألماس واليواقيت ومجموعات ثمينة من الأوانى الفضية والذهبية، وأطقم القهوة والشاى والأكواب المصنوعة من الكهرمان الخالص، المطوقة بالذهب، المحلاة بالأحجار الكريمة.

قال إلياس الأيوبى: وكانت تلك الهدايا عبارة عن مجوهرات سنية، وقلائد ماس ساطعة من النوع المعروف عامة باسم (البرلنتى)، ومناطق من الذهب الخالص، وأقمشة مطرزة باللؤلؤ العديم المثيل، وزمرد فى حجم البيض، وملابس بيضاء مطرز عليها رقْم[٢] الأميرة باللآلئ والحجارة الكريمة[٣].

وقال صاحب كتاب (الملكة فريدة): وقد احتل هذا الجهاز ثلاث غرف فسيحة من غرف القصر العالى، وأمر إسماعيل بعرضه أيامًا فى هذه الغرف تحت حراسة الأغوات، فكان الأمراء والأميرات يقصدون إليه لرؤيته والتفرج عليه، حتى إذا انتهى العرض، زف جهاز كل عروس على حدته إلى قصر زوجها فى موكب كبير تحرسه جماعة من الحرس الخديوى، تحف به جماعة من الفرسان العرب فى أزيائهم الناصعة البياض.

وكان من بين الجهاز (الشوار) سرير مكسو بطبقة سميكة من الذهب الخالص، رصعت أعمدته بالماس والياقوت الأحمر النادر والزمرد والفيروز، أشبه بالسرير الذى أهداه إسماعيل إلى الإمبراطورة أوجينى تذكارًا لزيارتها لوادى النيل فى

---

(١) الملكة فريدة ٣٨.

(٢) الرقْم: الوشى.

(٣) تاريخ مصر فى عهد إسماعيل ٢/١٣٧.



أثناء الاحتفال بافتتاح قناة السويس[1]، ولم ير الجهاز المقربون والأسرة العلوية فقط، وإنما شاهده كل أفراد الشعب في القاهرة.

جاء في الكتاب السابق: أما الحلي والجواهر فقد وضعت في (أسبتة) مكشوفة على وسائد من المخمل المزركش، يحمل كل واحدة منها أربعة من رجال الحرس في ملابسهم الرسمية، وقد شهروا السيوف في أيديهم، وظل الموكب يطوف بشوارع القاهرة بين صفين من الجنود تتقدمه الموسيقى، والناس من حوله يهتفون، بينما الشرفات غاصة بالسيدات يرددن الأغاني، ويرسلن الزغاريد[2].

وقال إلياس الأيوبي واصفًا جانبًا من هذه الاحتفالات: فإن شوارع العاصمة المهمة، وعلى الأخص ما كان منها مؤديًا إلى القصر العالي مقر والدة إسماعيل، وإلى سراي الجزيرة[3] مقر حفلات إسماعيل المفضل، وسراي القبة مقر ولي العهد[4]، زينت بالنجف والفوانيس المختلفة الألوان على مسافة بضعة آلاف من الكيلومترات، ووضع في نهايتها أقواس نصر مختلفة الأنوار، جعلوا في أعاليها طرقات رصعت بالشموع.. مدة ستة أسابيع متوالية[5].

أما الاحتفالات فقد كانت غاية في الفخامة والأبهة، غنى فيها المغنون ولعب الحواة والبهلوانات والأراجوزات، وشارك فيها كل أفراد الشعب، وعلية القوم، ودامت أربعين يومًا، حتى انتقل كل عروسين إلى قصرهما.

قال صاحب كتاب (الملكة فريدة): وقد أمر إسماعيل بإقامة السرادقات الفخمة أمام القصر العالي، ودعا كبار المطربين وأشهر المطربات والراقصات

---

(١) كان الافتتاح في ١٦ من نوفمبر عام ١٨٦٩ للميلاد، قبل أفراح الأنجال بثلاث سنوات وشهرين.

(٢) الملكة فريدة ٣٨.

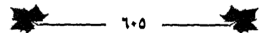
(٣) مكانه الآن فندق ماريوت بجزيرة الزمالك، وقد كان من أعظم المباني الفخمة التي لم يبن مثلها، كانت أرضه ـ كما قال على مبارك ـ ستين فدانًا، وتحتوي على سراي للحريم، وسلاملك كبير وسلاملك صغير، اجتهد المهندس فرانس النمساوي في تشبيهه بالمباني العربية القديمة، وقد بيع هذا السراي للوجيه السياسي السوري الأصل حبيب لطف الله، عندما جاء وذووه هربًا إلى مصر أواخر القرن التاسع عشر. وقال شاعر القطرين خليل مطران مسجلاً هذه الصفقة:

يـــا آل لـــطـــف الله آل إلـــيـــكـــم
قصـــر الـــجـــزيـــرة بـــعـــد إسـمـــاعـــيـــلا

وبعد التأميم عام ١٩٦٠ للميلاد صار من أملاك الدولة التي حولته إلى فندق عالمي باسم (ماريوت).

(٤) الخديوي توفيق فيما بعد.

(٥) تاريخ مصر ١٣٦/٢.



لإحياء ليالى الفرح داخل القصر وخارجه، وفى مقدمتهم عبده الحامولى[1]، الذى كان يتناوب الغناء فى مختلف السرادقات، كما كان من بينهم محمد سالم الشنتورى[2]، وألمظ[3]، والوردانية، وغيرهم كثيرون.

وانتشر الحواة والبهلوانات والأراجوزات وفرق الطبل البلدى بين السرادقات، يعرضون فنونهم على المدعوين، فضلاً عن فرقة موسيقية مؤلفة من أربعين عازفة كانت تتولى العزف فى الحرملك، وقد لبست عازفاتها الملابس الحريرية الموشاة بالقصب والأحجار الكريمة.

وارتدى جوارى الحرملك ملابس الرجال، ووقفن صفوفًا كالحجاب يستقبلن المدعوات، ويرشدنَهُنَّ إلى أماكنهن، ويقدمن لهن الحلوى والمرطبات[4].

وكان هناك مكانان ازدهرت فيهما الاحتفالات، وهما: حديقة الأزبكية حيث أطلقت السهام النارية بطريقة فنية مكنت جميع سكان العاصمة من مشاهدتها، إذ كانت نجومها وأضواؤها تتناثر فى الفضاء ساعات متوالية كل مساء.

والمكان الآخر: سراى الجزيرة حيث أقيم مرقص ضخم، دعى إليه خمسة آلاف من العظماء والأعيان، مصريين وأجانب، وامتاز بوليمة فخمة[5]، قدم فيها (أرز إسماعيل) المعروف، الذى كان يصنع من خلاصة رءوس الضأن والعجول الصغيرة، وكان الطريق من سراى عابدين إلى سراى الجزيرة قد زين بالأعلام والفوانيس المصنوعة من الورق المزخرف.

ومرت الأربعون يومًا، وجاء يوم الزفاف.

---

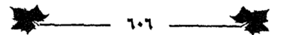
(١) عبده الحامولى، سيد المغنين والملحنين فى القرن التاسع عشر، ولد عام ١٨٤٥ للميلاد، كان طيب الصوت، مليح النفحة حسن الأداء، ولم تكن ألحانه سهلة التقليد، توفى عام ١٩٠١ للميلاد، ورثاه بعض الشعراء، منهم أحمد شوقى.

(٢) من أكبر مغنى القرن التاسع عشر.

(٣) ألمظ: اسمها سكينة، من أشهر مغنيات مصر فى القرن التاسع عشر، أطلقوا عليها ألمظ تشبيهًا لصوتها بالماس، تزوجت عبده الحامولى عام ١٨٩٠ للميلاد، واحتجبت عن الغناء حتى ماتت عام ١٨٩٧ للميلاد.

(٤) الملكة فريدة ٣٩.

(٥) جاء فى كتاب تاريخ مصر ١٣٩/٢:.. وأقبل يخدمهم نيف وأربعمائة غلام (جرسون)، ورئيس طهاة (مترودوتيل).



قال صاحب كتاب (الملكة فريدة): حتى إذا حانت ليلة الدخلة بدئ (بزفة) كل عروس على حدة... فكان الأغوات يصطفون وبيد كل واحد منهم (فنيار)[1]، وقد ارتدت العروس أبهى حلل العرس، وتحلت بالجواهر الثمينة، وأسدلت على وجهها الدوالك[2] الذهبى الرفيع، وأخذت طريقها إلى الكوشة يسندها اثنان من الأغوات حيث تجلس بين والدتها ووالدة زوجها، وبعد أن تبدر إحدى القلفوات[3] البدرة الفضية والبدرة الذهبية، وتصدح الموسيقى بأنغامها الشجية، تنتقل إلى غرفتها الخاصة بين صديقاتها، ثم يبدأ بزفاف من تليها من الأميرات وهكذا[4].

وخرجت العرائس الأربع محوطات بكل الأهل والأحباب فى مواكب حافلة تتقدمها الموسيقات، وفرق المشاة والفرسان وعربات التشريف، حتى إذا وصلت كل عروس مع زوجها إلى قصرها ذبحت الذبائح، وعزفت الموسيقى، ونزل العريس لاستقبال عروسه ويزفان إلى الحرملك بين عزف العازفات، ورقص الراقصات، ثم يتقدم العريس، ويرفع القناع الذهبى من على وجه العروس، وتتعالى الزغاريد، وبذلك يتم كل زفاف.

وقد وصف إلياس الأيوبى حفل زفاف الأميرة فاطمة خاصة، وقال: وأما الأميرة فاطمة هانم فقد كانت زفتها أبهى وأجمل، وقد وصف الكاتب الفرنسى (إدون دى ليون) كيفية الاحتفال بفرحها فى داخل القصر العالى، عَيَّنَه، كما نقلته إليه عقيلته التى كانت مدعوة، فقال: اجتازت المدعوات بستانًا فسيحًا منارًا، كأنهم أرادوا أن يبقوا فيه نور النهار، بملايين المصابيح المتعددة الألوان، وسرن فوق طرقة رخامية تحف بجانبيها الأشجار والمغروسات الغريبة.

فبلغن مدخل سراى الوالدة، حيث كان الأغوات فى انتظارهن، يوصلونهن إلى قاعة واسعة ذات رياش فاخر، فوجدن هناك جوارى الحريم، ونصفهن مرتديات لباس رجال من أفخر الملابس الشرقية، وواقفات بصفة حجاب، وبعضهن لابسات لبسًا بسيطًا، بطرابيش حمراء على رءوسهن، وشاهرات فى أيديهن سيوفًا لامعة، وبعضهن لابسات لبسًا عسكريًا ساطعًا، وواقفات وقفة عسكرية، بمظهر عسكرى حربى لا بأس به، كأنهن وصيفات الملكة زبيدة زوج أمير المؤمنين هارون الرشيد.

---

(١) شمعدان من البلور.

(٢) القناع الذهبى أو البرقع.

(٣) الوصيفات.

(٤) الملكة فريدة ٣٩.

فأدخلن الضيفات إلى حجرة كانت العوالم يرقصن فيها بالصاجات، بينما كانت موسيقى نسائية تعزف ألحانًا شجية، تلك الحجرة كانت تفتح على حجرة أخرى، يتناول النظر أطرافها، وفيها جوارٍ عديدات يرقصن رقصًا غريبًا بعصى وسيوف ودرقات[1] فى أيديهن.

ثم اجتازت الضيفات عدة بلوكات أو صالات، قدمت لهن فيها جميع أنواع الشربات، والمشروبات والحلوى المصنوعة على الطريقتين الغربية والشرقية، معروضة على موائد جمعت ما لذ وطاب، وترأست أميرات الأسرة المالكة المائدة الخصيصة بزوجات الخديوى وقرينات القناصل، وغيرهن من قرينات كبار النزالة، فبينما هن يأكلن ويشربن، جعلت الموسيقى تصدح صدحًا مفرحًا.

ثم قدمت الضيفات إلى دولة الوالدة فى قاعة ذات رياش لا نظير له، وواسعة سعة لا تضيق بمئات الجالسين، فكن يسرن وراء الجوارى المسلحات، وتقدم السيدة الفرنجية التشريفاتية كلاً منهن باسمها إلى دولة الوالدة، ثم تجلسها فى المحل المعد لها على آرائك ممدودة فى طول الحائط، يغطيها الحرير الثمين.

ولما انتظم العقد بجميع المدعوات، دخلت الراقصات والمغنيات وأطربنهن مدة، ثم قدمت إليهن الهدايا الفاخرة، من لدن الأميرات وأزواج الباشوات أصحاب المقامات الرفيعة فى الحكومة المصرية، فتغنين بمديح الهاديات، بعد استئذان دولة الوالدة، والهاديات شكرنهن - وهى عادة (الشويش) المعروفة بيننا حتى يومنا هذا.

بعد ذلك استجليت العروس، فأمسك كل من أغاوات السيدات المدعوات شمعدانًا فيه شموع مختلفة الألوان، واصطفوا من أول السلالم حتى القاعة العظمى، حيث كان عقد المدعوات منتظمًا، وفرش على الأرض منسوج من ذهب لتخطو العروس عليه، وانصرفت الراقصات ليعدن بمعيتها، وما هى إلا برهة قصيرة حتى تجلت الأميرة فاطمة هانم تستند على ذراع الأميرة أمها، فى وسط جمهور أميرات البيت الخديوى الكريم، فتقدمت بخطوات بطيئة، وبوقفة بعد كل خطوة، كأنها تقول للناظرات: ها أنا ذا فاعجبوا بى! واجتازت، وعيناها مطرقتان، اصطف الأغاوات على النسيج الحريرى، بين أغانى المغنيات، والراقصات يتقدمنها.

(١) درقات (ج) وهى التُّرس من الجلد ليس فيه خشب (الوسيط).



فحالما وقعت أعين المدعوات عليها نهضن، وبينما هى تتقدم كإلهة من إلاهات الأزمنة الماضية نحوهن، وبمعيتها جواريها، صعدت كواعب كالبدور على كراسى وراءهن، وأخذت تنثر عليهن خيريات ذهبية، ضربت لتلك المناسبة، فتعلق برءوسهن وملابسهن، فامتلأت القاعة على سعتها بالأميرات والسيدات والجوارى والراقصات والمغنيات، وتألقت كلها بالديباج الساطع والذهب الوهاج، وبثت فى كل مكان منها زهور البرتقال والورود، ونثرت فوق الملابس اللماعة البراقة.

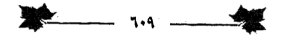
وكانوا قد أقاموا فى صدر تلك القاعة، فوق منصة مرتفعة، ثلاثة عروش مكسوة بالحرير الأبيض، فجلست دولة الوالدة الأميرة خشيار على عرش اليمين، والأميرة أم العروس الأميرة شهرت على عرش الشمال، وجلست العروس وعلى رأسها تاج من الماس ثمنه أربعون ألف جنيه على عرش الوسط، وكان لباسها من الحرير الأبيض الفرنساوى الأغلى ثمنًا، كله مرصع بأنفس أنواع اللؤلؤ والماس، وله ذيل طوله خمسة عشر مترًا، رفعته الجوارى وراءها وهن راكعات، فتقدمت المدعوات، وهنأنها، وبعد أن جلست معهن برهة عادت إلى حجرتها، واستمر الفرح حتى مطلع الفجر[1].

وانتقلت الأميرة فاطمة بنت إسماعيل إلى قصر زوجها[2] الأمير طوسون بن محمد سعيد، الذى كان من أقرب الأمراء لإسماعيل باشا، قال صاحب كتاب (تاريخ مصر): كان إسماعيل يحب طوسون حبًا أبويًا، وزوجه فيما بعد ابنته، ولم يفتأ يواليه بعنايته ورعايته إلى آخر لحظة فى حياته[3].

وسنذكر صورة واحدة تبين اهتمام الخديوى إسماعيل وحبه وتكريمه له، عندما أقيمت احتفالات افتتاح قناة السويس فى ١٧ من نوفمبر عام ١٨٦٩ للميلاد، كان هناك ثلاث منصات، المنصة الكبرى للملوك والأمراء وكبار المدعوين فيهم الخديوى إسماعيل، والإمبراطورة أوجينى، وفرانسوا جوزيف إمبراطور النمسا، وملك المجر، والأمير محمد توفيق ولى العهد، والأمير الوحيد من الأسرة العلوية الموجود فى المنصة هو الأمير طوسون بن سعيد باشا، الذى كان فى السادسة عشرة من العمر، وصار زوجًا لابنته الأميرة فاطمة بعد ثلاث سنوات.

---

(١) تاريخ مصر فى عهد الخديوى إسماعيل ١٤٣/٢، عن كتاب مصر الخديوى لإدون دى ليون.
(٢) فى بولاق الدكرور.
(٣) تاريخ مصر ٤٢٦/١.





صورة من حفل افتتاح قناة السويس

قال إلياس الأيوبى: إنما أراد إسماعيل أن يحضر طوسون ذلك الاحتفال ويكون فيه بهيئته المكسوة... خير ممثل لروح أبيه المرتاحة فى عالم النعيم، والناظرة بابتهاج إلى العمل التام الذى لولاه لتأخر بروزه إلى الوجود أجيالاً[1].

ثم ما لبث إسماعيل أن عين زوج ابنته الأمير طوسون وزيرًا للمعارف فى سبتمبر عام ١٨٧٤ للميلاد، وكلنا يعلم مدى أهمية وزارة المعارف وخاصة فى عهد إسماعيل، الذى أنشئت فى عهده مدارس كثيرة فى جميع الفروع والتخصصات، ولكل الأعمار من الابتدائية حتى العليا.

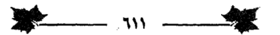
وظل الأمير طوسون فى الوزارة قرابة السنة، وخرج منها فى أغسطس عام ١٨٧٥ للميلاد، ثم لم يمهله القدر واختطفته المنية، وهو فى شرخ الشباب فى ١٠ من يونية عام ١٨٧٦ للميلاد، عندما كان يصيف فى الإسكندرية، ودفن بمدافن العائلة المالكة فى النبى دانيال.

وترملت الأميرة فاطمة بعد أن ترك لها زوجها ثروة هائلة، منها ما ورثه عن أبيه خديوى مصر السابق سعيد باشا، وما وهبته له والدته ملك بر هانم، وفيه ٢٣٩٠ فدانًا فى البحيرة، كل ذلك مع ما ورثته الأميرة فاطمة عن أمها من الضِّياع الكبيرة، فالمعروف أن أمها شهرت فزا، وجنانيار وجشم آفت، زوجات إسماعيل باشا كان لهن وقف مشهور فى إيتاى البارود، مساحته ٩٥٨٥ فدانًا، عدا أملاكهن الأخرى.

وقد أنتجت فترة الزواج القصيرة للأميرة فاطمة مولودًا واحدًا من الأمير طوسون، وهو الأمير عمر طوسون، الذى ولد فى نهاية عام ١٨٧٢ للميلاد، وصار من مؤرخى وأعلام الأسرة العلوية، وله مؤلفات عدة، منها كتاب مشهور، ومرجع جغرافى هام، اسمه (جغرافية مصر فى العهد العربى).

قال عنه الزريكلى: مؤرخ وباحث من الأمراء المصريين، مولده ووفاته[2] بالإسكندرية، تعلم فى سويسرا، وقام بسياحات كثيرة، وشغف بالرياضة والصيد فى شبابه، وأتقن مع العربية التركية والإنجليزية والفرنسية، وعكف على

(١) تاريخ مصر ١/٤٢٧، وكان سعيد باشا هو الذى اتفق مع ديلسبس على حفر قناة السويس.
(٢) توفى عام ١٩٤٤ للميلاد.



كتابة تاريخ مصر الحديث، وآثارها، وصنف بالعربية والفرنسية.. وآزر الحركة الوطنية المصرية بقلمه، وماله، غير متقيد بتقاليد أسرته، وساعد أهل طرابلس الغرب، حين أغارت عليهم إيطاليا عام ١٩١٠ للميلاد، وقد ألف أربعة عشر كتابًا بالعربية، وخمسة كتب بالفرنسية[1].

لقد أفضنا فى تتبع تاريخ الأسرة العلوية، وبخاصة ما قدم إسماعيل باشا من إصلاحات فى مجال التعليم، وهو العلامة البارزة فى بناء مصر الحديثة، وهو أيضًا المقدمة الطبيعية لإنشاء الجامعة المصرية.

وأفضنا أيضًا فى وصف الحياة الاجتماعية على مستوى الطبقات الأرستقراطية، وأوساط الأمراء لنرى الصورة التى كانت مألوفة فى حياة أعضاء الأسرة المالكة، ومن يلوذ بهم.

ثم ننظر إلى ما حدث من اتجاه إلى إنشاء الجامعة، وكأنها جنين تكون من تلاقح الجهود الإصلاحية لإسماعيل باشا مع النوايا الصادقة التى تمتعت بها ابنته الأميرة فاطمة، تلك التى عايشت من ضروب الترف الباذخ أشكالاً وألوانًا، ومع ذلك فحين بزغت فكرة الجامعة ما لبثت الأميرة فاطمة أن نسيت حياة الترف، وقفزت إلى موقع الصدارة، لتصبح أهم المضحين من أجل إنشائها، إلى جانب المتبرعين الآخرين.

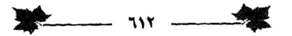
لقد حدث انقلاب فى الشخصية، ورأى الناس أنموذجًا لفعل الخير، لا مثيل له فى تلك الأميرة التى نزلت عن جل ما تملك من أجل إنشاء جامعة لشعب مصر.

ومن قبل، حين حاصرت الديون أباها، وعجز عن الوفاء بتلك الديون ـ حتى مع رهن كل أملاكه ـ تقدمت الأميرة فاطمة مع جدتها للمشاركة فى سداد تلك الديون تضامنًا مع أبيها.. إن هذه الأميرة لم تكن تشعر بقيمة المال بقدر ما كانت تشعر بقيمة التضحية فى سبيل هدف أسمى.

ومع ذلك، فلنبدأ الآن قصة الجامعة منذ البداية.

* * *

(١) الأعلام ٥/٤٨، وسجل الزريكلى أسماء هذه الكتب.



فكرة الجامعة المصرية

كانت النهضة التعليمية فى عصر إسماعيل ـ كما عرفنا ـ مقدمة طبيعية لبروز فكرة الجامعة، ويكفى أن نذكر هنا عملاً جليلاً للخديوى إسماعيل يعتبر من أسس الجامعة، فقد أنشأ فى عام ١٨٧١ للميلاد مدرجًا للمحاضرات العامة فى سراى درب الجماميز.

قال عبد الرحمن الرافعى: فعهد إلى النابهين من أساتذة المدارس إلقاء المحاضرات.. وكان يشجع هذه الحركة، فيحضر المحاضرات بنفسه[(١)].

لقد صار الجو العام ينبئ بضرورة إنشاء جامعة عليا، حتى لقد تشجعت بعض الشخصيات، وأعلنت هذه الفكرة، ومن هذه الشخصيات الصحفى اللبنانى الأصل فرح أنطون[(٢)]، والشيخ محمد عبده وجورجى زيدان وغيرهم، قال د. رءوف عباس: وكان لجورجى زيدان فضل الريادة فى هذا المجال فدعا على صفحات الهلال إلى تأسيس جامعة واقترح سنة ١٩٠٣م على المدرسة الكلية السورية (جامعة بيروت الأمريكية) أن تنشئ فرعًا فى القاهرة يكون نواة لقيام المدرسة الكلية المصرية[(٣)].

أما الشيخ محمد عبده فبعد أن يئس من إمكانية إصلاح نظام التعليم فى الأزهر وتطويره فكر فى الجامعة. قال د. رءوف عباس: رأى الشيخ محمد عبده أن تقوم الجامعة بجهود الأغنياء الذين نعى عليهم بخلهم، غير أنه استطاع إقناع المنشاوى باشا بالفكرة فأبدى استعداده لإقامة الجامعة على نفقته بأراضيه بقرية باسوس (قرب القناطر الخيرية) ولكن وفاة المنشاوى باشا عصفت بالفكرة[(٤)].

أما فرح أنطون فقد أشار إلى إنشاء الجامعة فى مصر عندما وصل إليها، وأصدر مجلة وسماها (الجامعة).

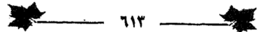
---

(١) عصر إسماعيل ٢٣٧/١.

(٢) كاتب وباحث لبنانى، ولد عام ١٨٣٤ للميلاد، وتعلم فى طرابلس، ثم انتقل إلى الإسكندرية عام ١٨٩٧ للميلاد، ورحل إلى أمريكا، ثم عاد إلى مصر، وأصدر مجلته (الجامعة) وتوفى بالقاهرة عام ١٩٢٢ للميلاد.

(٣) تاريخ جامعة القاهرة ٣٤.

(٤) السابق ٣٥.



أما الرجل الذى نظر بجدية إلى ضرورة تحقيق مشروع الجامعة المصرية فهو الزعيم مصطفى كامل باشا[1]، الذى تناول مشكلة التعليم فى خطبة له نارية فى عام ١٨٩٨ للميلاد بعد حادثة فاشودة[2]، دعا فيها إلى قيام كل مصرى بواجباته الوطنية، وإلى نشر التعليم القومى، وتربية النشء تربية وطنية، وإلى تعميم التربية والتعليم، وجعل الدين أساس التربية الصالحة.

ثم تابع بعد ذلك فى خطبه كلها ومقالاته فى اللواء وغيره الحديث عن التعليم، ثم عن الجامعة، حتى صارت الفكرة حقيقية.

قال أحمد حسين: ... دعا مصطفى كامل على صفحات اللواء فى أكتوبر عام ١٩٠٤ للميلاد لإنشاء الجامعة، ثم أعاد الدعوة بمناسبة الاحتفالات بمرور مائة عام على تولية محمد على، وكتب عدة مقالات شرحًا وتأييدًا للمشروع[3].

وكان مصطفى كامل قد تعرف فى باريس بالصحفية الشهيرة مدام جولييت آدم[4] عام ١٨٩٥ للميلاد، وبدأ مراسلتها من ذلك التاريخ، حتى وفاته عام ١٩٠٨ للميلاد.

وسوف نذكر بعض الخطابات التى أشار فيها لمدام آدم إلى فكرة تأسيس الجامعة، قال فى أول رسالة:

القاهرة فى ١٣ من يناير عام ١٩٠٥ للميلاد.

إنى نشرت يوم الأحد الفائت فكرة باهرة بمناسبة عيد ارتقاء الخديوى[5] على العرش، هى تأسيس جامعة وطنية فى القاهرة باسم (محمد على الكبير)، ولا حديث للناس فى غيرها...[6].

(١) ولد مصطفى بن على بن محمد بن كامل فى ١٤ من أغسطس عام ١٨٧٤ للميلاد واشتهر باسم مصطفى كامل، وتوفى فى ١١ من فبراير عام ١٩٠٨ للميلاد، أسس الحزب الوطنى، وكان له ثلاث صحف: عربية وإنجليزية وفرنسية، وجريدة العالم الإسلامى، ومدرسة.

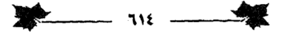
(٢) سلم الفرنسيون الإنجليز مدينة فاشودة السودانية عام ١٨٩٨ للميلاد، وهى تقع على النيل قبل لقائه ببحر الغزال.

(٣) موسوعة تاريخ مصر ١٢٥٧/٣.

(٤) كاتبة فرنسية شهيرة، ولدت عام ١٨٣٦ للميلاد، وتوفيت عام ١٩٣٦ للميلاد، لها كتاب عن مصر اسمه (إنجلترا فى مصر)، ولها مجلة اسمها (لا نوفل ريفو)، كان مصطفى كامل يكتب فيها مقالاته عن شئون مصر السياسية.

(٥) هو عباس حلمى الثانى، ارتقى العرش فى يناير عام ١٨٩٢ للميلاد.

(٦) رسائل مصرية ١٦٩.





مصطفى كامل باشا

وأتبع هذه الرسالة رسالة أخرى فى ٢٠ من يناير عام ١٩٠٥ للميلاد، قال:

سيدتى العزيزة..

نشرت كل الجرائد تقريبًا مقالات كلها مديح وثناء على اقتراحى تأسيس جامعة وطنية، وسأجمعها فى كراسة لأستحث همة أمراء البيت الخديوى والأغنياء...[١].

ثم بعث فى ٣ من فبراير عام ١٩٠٥ للميلاد رسالة مطولة، فيها:

إنى اختتمت حركة الصحافة على مشروع الجامعة بمقالة أرسلها إليك مع هذا، والناس جميعًا موافقون استحسانًا على هذه الفكرة... وسأجمع كل ما كتب عليها فى كتيب، وأرسله للخديوى والأمراء وكل غنى، وقد وضع حسين باشا[٢] واصف نفسه أحسن موضع إزاء هذا المشروع، فقد كتب يقول إنه مستعد لدفع ألف جنيه مصرى (٢٦ ألف فرنك)[٣] فى اليوم الذى تتألف فيه لجنة لافتتاح اكتتاب وطنى يخصص للجامعة[٤].

ولم يكتف مصطفى كامل بالكتابة فى الصحف، والخطابة فى المنتديات عن مشروع الجامعة، إنما طلب أيضًا من مدام جولييت الصحفية الشهيرة أن تكتب هى كذلك، فيقول لها فى نهاية الرسالة السابقة:

... إنى أعتقد أنك تسرين الخديوى والوطنيين المصريين ومصر الأدبية إذا كتبت مقالة كبيرة فى (الجولوا) أو (الفيجارو) وهما الأكثر انتشارًا هنا موضوعها عيد محمد على الكبير، وعلاقاته مع فرنسا، وعمله ومستقبل مصر، وتختمينها بفكرة الجامعة، وإنى مستعد لأن أرسل إليك كل ما تريدينه من المعلومات؛ لأن مقالة كهذه تحدث تأثيرًا كبيرًا هنا[٥].

ولا شك أن بعض الأمراء أعجبتهم الفكرة واجتمعوا واتفقوا على أمر، حيث قال مصطفى كامل فى رسالته التالية فى ٢٢ من مايو عام ١٩٠٥ للميلاد:

---

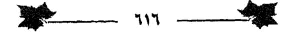
(١) رسائل مصرية ١٧٣.

(٢) حسين باشا واصف أخو مصطفى كامل الأكبر من أبيه، كان وزيرًا للأشغال فيما بعد. (مصطفى كامل للرافعى).

(٣) الجنيه المصرى اليوم يساوى $\frac{1}{2}$ فرنك فرنسى، ويساوى $\frac{1}{8}$ يورو وهو العملة المتداولة الآن فى أوربا.

(٤) رسائل مصرية ١٧٧.

(٥) المرجع السابق ١٩٧.



رأى بعض الأمراء أن الجامعة تقتضى نفقات طائلة، وعلى ذلك قرروا إرسال فريق من الشباب لتلقى العلم فى أوربا، فجمعوا خمسة آلاف فى جلسة واحدة[١].

وآخر خطابات مصطفى كامل لمدام جولييت التى ذكرها فيها فكرة الجامعة، كان من (سان ستفانو) فى الإسكندرية، فى ٩ من يونية عام ١٩٠٥ للميلاد، قال فيه:

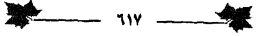
إن فكرتى بإنشاء الجامعة الوطنية قد توجت بالنجاح، فإنها انتقلت إلى أيدى أمراء بيت حليم[٢]، وقد قرروا مبدئيًّا إيفاد فريق من الطلاب إلى أوربا؛ ليتخرج منهم أساتذة وطنيون، وبلغ الاكتتاب حتى الآن ثمانية آلاف جنيه (٢٠٠٠٠٠ فرنك)، وسنشرع فى بقية الاكتتاب بعد انقضاء الصيف، ولهذا كتبت مقالة عن هؤلاء الأمراء، أرسلها إليك[٣].

* * *

(١) رسائل مصرية ١٩٧.

(٢) الأمير حليم الكبير، ابن محمد على باشا، وأحد أحفاده محمد عباس حليم، تزوج خديجة هانم بنت الخديوى توفيق، والأميرة أمينة إلهامى بن عباس الأول (أم المحسنين)، وكانت له خلال الأربعينيات مشاركات فى العمل السياسى على المستوى الشعبى، أطلق عليه لقب (زعيم العمال).

(٣) رسائل مصرية ٢٠٥.



موقف الإنجليز من الجامعة

وبقدر الحماس الوطنى لإنشاء الجامعة عند المصريين، نجد هناك تخذيلاً من قبل المستعمر الإنجليزى، فالمعتمد البريطانى اللورد كرومر، والمستشار الإنجليزى فى نظارة المعارف المستر دنلوب، يحاول كل منهما إلهاء المصريين، وتسكينهم بالإكثار من الكتاتيب الصغيرة فى القرى والمدن، ومحاولة إقناعهم بأن مستوى التعليم فى مصر لا يصح أن يزيد على ذلك، وليس للمصريين أن يطلبوا من الحكومة أن تنشئ لهم جامعة على نسق جامعات أوربا.

فهذا تقرير نشرته صحيفة (الجلوب) البريطانية فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٠٦م أى بعد أيام قليلة من الدعوة لإنشاء الجامعة جاء فيه: إن هذا المشروع لم يأت أوانه بعد، ولعل الحوادث الأخيرة تكسب المشروع صبغة سياسية؛ لأنه نشأ عن القلاقل التى حدثت فى مصر لا عن رغبة حقيقية فى نشر التعليم العالى، ويكفى أن مصطفى كامل باشا وهو كبير المهيجين فى مصر (كما تصفه الصحيفة فى تقريرها عن القاهرة) يحاول إقناع الجمهور بالمشروع ويجتهد مع رفاقه لإنجاحه. ويقول مراسل (التايمز) فى تقرير له من القاهرة: لو لم تؤخذ الاحتياطات اللازمة لأصبحت المدرسة الجامعة تابعة للحزب الوطنى وهذا أمر خطير[١].

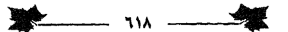
والحقيقة لقد كان تفكير مصطفى كامل الأول أن يكون مشروع الجامعة مشروعًا شعبيًا يُسْهِم فيه كل قادر، وقد كان... لقد فجر مصطفى كامل الفكرة، وانتشرت فى الناس فى كل مستوى، انتشار النور فى الظلام.

وفى يونيو عام ١٩٠٦ للميلاد وقعت حادثة دنشواى[٢]، وكان مصطفى كامل فى باريس، ووصلته أخبار هذه المجزرة، فانطلق كالصاروخ متحديًا الإنجليز فى عقر

---

(١) جريدة الأهرام المصرية ٥/ ١٢/ ١٩٨٣م.

(٢) دنشواى: قرية فى محافظة المنوفية، وفى يوم الاثنين ١١ يونيو عام ١٩٠٦ للميلاد خرج مجموعة من الإنجليز للصيد، وقتلوا امرأة، وحرقوا جرن قمح، ومات واحد منهم بضربة شمس، وحوكم أهل القرية محاكمة صورية، وأعدم أربعة أمام ذويهم، وسجن عشرون بمدد مختلفة، وجلد الآخرون، واعتبر بعد ذلك يوم ١٨ يونيو من كل عام عيدًا للمحافظة.



دارهم، بعد رحيله إلى لندن، وبدأ حملته، وأخذ يلقى المحاضرات، ويكتب المقالات، وخاصة فى الفيجارو الفرنسية، كل هذه الجهود أثمرت ضربة موجهة للورد كرومر، ومظهرة إفلاس سياسته، ونتج عنها إقالته بعد ذلك، وطرده من مصر نهائيًا.

وسعدت الأمة بجهاد مصطفى كامل وموقفه من الاستعمار، وقررت تكريمه ومكافأته.

يقول أحمد حسين: أكبرت الأمة المصرية جهاد مصطفى كامل الذى أحست بعمق تأثيره لأول مرة، فتألفت لجنة برياسة محمد بك فريد لجمع اكتتابات عامة من الأمة المصرية؛ لتكريمه عند عودته، فلما بلغ النبأ إلى مصطفى كامل، وكان قد عاد من إنجلترا إلى باريس، أرسل فى ٢٤ من سبتمبر خطابًا يعتذر فيه عن قبول هذا التكريم، ويطلب أن تقوم اللجنة بدعوة الأمة إلى إنشاء كلية جامعة (أهلية)، وأن تتحد الجهود لتنفيذ هذا المشروع[١].

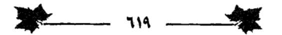
لم ينس مصطفى كامل فى خضم أحداث دنشواى وبعدها مشروعه الوطنى الكبير، فإذا هو يسجل موقفًا رائعًا بالتنازل عن الأموال التى جمعت لتكريمه لتكون نواة لإنشاء الجامعة المصرية.

وحقق الوطنيون رغبته، وجاء شهر أكتوبر، ووضع أول حجر فى أساس الجامعة بعد أن تقدم أحد الوطنيين المخلصين هو مصطفى كامل الغمراوى، وتبرع بمبلغ ٥٠٠ جنيه، ثم وضعت شروط الجامعة الجديدة.

قال جورجى زيدان: اقترح مشروع الجامعة رسميًا مصطفى بك الغمراوى من أعيان بنى سويف فى أكتوبر عام ١٩٠٦ للميلاد، وافتتح الاكتتاب بخمسمائة جنيه تبرع بها، واستحث الأمة على إنشاء جامعة مصرية، فكان لهذا الاقتراح وقع حسنٌ عند كرام المصريين[٢].

وكان تنازل مصطفى كامل عن هديته للجامعة، وافتتاح الغمراوى للاكتتاب الشرارة الأولى، فعندما ظهر هذا الموضوع فى ا لصحف، أسرع الناس للاكتتاب، وبلغت التبرعات فى أقل من أسبوع ٢٦٢٥٠ جنيهًا، وكأن حادثة دنشواى هى التى فتحت الآفاق أمام إنشاء الجامعة.

(١) موسوعة تاريخ مصر ١٢٥٧/٣.
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ٣٧/٤.



قال قاسم أمين: فجاء هذا المشروع الذى يحمل الأمل فى مستقبل أفضل، بمثابة تنفيس عما يجيش فى الصدور، بحيث يمكن القول بحق إن نكبة دنشواى قد أدت إلى تأسيس الجامعة..

أما أول شروط لهذا الصرح فقد ذكرها أحمد حسين فى موسوعته، كما سجلتها جريدة اللواء فى ٣ من سبتمبر عام ١٩٠٦ للميلاد تحت عنوان: اقتراح من مصطفى الغمراوى من بنى سويف، الذى اكتتب بخمسمائة جنيه لإنشاء مدرسة جامعة مصرية وكانت الشروط كما يلى:

١ـ أن لا تختص بجنس أو دين، بل تكون لجميع سكان مصر على اختلاف جنسياتهم وأديانهم، وتكون واسطة للألفة بينهم.

٢ـ أن تكون إدارتها فى السنين الأولى على أيدى من يصلحون لإدارة مثل هذا المعهد الكبير.

٣ـ أن يكتتب على الأقل ألف مصرى، بمبلغ لا يقل عن مائة جنيه.

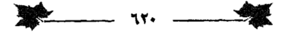
٤ـ أن يقام بناء هذه المدرسة الجامعة فى بقعة خلوية من أجمل بقاع مصر، على شاطئ النيل، ويعمل له حديقة من أجمل الحدائق، وغير ذلك من الأمور التى يقررها المكتتبون[1].

وبسرعة اجتمع بعض كبار الأمة المتحمسين للمشروع فى منزل سعد زغلول[2] ـ بيت الأمة بعد ذلك ـ وأصدروا بيانًا جاء فيه: فى هذه السنة هب فى الرأى العام تيار لتحقيق مشروع الجامعة المصرية؛ لأن الأمة انتهت بأن تفهم تمام الفهم أن طريقة التعليم ناقصة، ودائرته ضيقة، وتنتهى بالطالب دون بلوغ الغاية... ثم قرر المجتمعون انتخاب لجنة تحضيرية مؤلفة من الأمير أحمد فؤاد (الملك فيما بعد) رئيسًا عامًا للعمل، ومن سعد بك زغلول وكيلاً للرئيس العام، وانتخاب قاسم بك أمين سكرتيرًا للجنة، وحسين بك سعيد وكيل البنك الألمانى أمينًا للصندوق، ومحمد عثمان أباظة، ومحمد بك راسم، وحسن بك جمجوم، وحسين سيوفى باشا، وأخنوخ أفندى فانوس، وزكريا أفندى نامق، ومحمد بك الشيتى، ومصطفى بك كامل الغمراوى أعضاء.

---

(١) موسوعة تاريخ مصر ١٢٥٨/٣.

(٢) جاء فى كتاب تاريخ جامعة القاهرة ص ٣٧: واستجاب مصطفى كامل لاقتراح المؤيد لتكوين لجنة تحضيرية، ودعا جميع المكتتبين إلى اجتماع لانتخاب أعضاء اللجنة ورئيسها يوم ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦م، ولكن مكان الاجتماع تغير فجأة ليعقد فى بيت سعد زغلول.. فاجتمع ٢٧ شخصًا وشكلوا لجنة تحضيرية.



صورة الخطاب الذى بعث به مصطفى كامل إلى محمد فريد ـ نقلاً عن كتاب مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعى

انظر تكونه من بعد أن نطل إلى الحقول بأسرار حياة الأمم
وإن [illegible] مستقلة بمستقبل مصر [illegible] واستراح
سياسة الإنكليز منها

تحية حميدة أشرح عليكم تعضيد الوطن العزيز ومروءة
المصرية المحبوبة على أن تتقدم اللجنة التي شكلت بدعوة
المؤيد [illegible] وشرفة باب كل مصري لتأسيس كلية أهلية
تجمع أبناء الفقراء والأغنياء على حد سواء [illegible]
الراغبين الاستفادة الذين [illegible] هذا [illegible]
[illegible] أو [illegible]
أدوا [illegible] جميع أمورها [illegible] الوطنية العالية في [illegible]
[illegible] لأن كل [illegible] عن حاجة المصري [illegible]
في سبيل التعليم [illegible] الأمة [illegible]
[illegible] الوطنية التي [illegible]
[illegible] هذه الروح الوطنية [illegible]
[illegible] مظاهر الحياة والتقدم.

[illegible] الأجزاء [illegible]
[illegible] والأبناء واحداً [illegible]
[illegible] والمجتمع الأمة [illegible] هذا العمل الفخم [illegible]
[illegible] الذي [illegible] خير ونفع عميم

[illegible] أبناء الفقراء الذين [illegible]
[illegible] أسباب العلم [illegible]

فكانت مخازن مصر إلى أبد الزمان . لنذكر دائماً هذا الدرس
والوجدان أن في مصر كنوزاً لم تستخرج بعد . ولا أعرف
[illegible] لملوك الأرض نفوذاً . وأن هذه الكنوز مدفونة
بين مساكن الفقراء !

إن الكلية هي البناء الذي أوجد [illegible] غريباً لتشييده
وما أكبر سعدي وأعظم هنائي يوم تعيش الأيام التي [illegible]
[illegible] العمدة الأكبر الذين [illegible] الملايين
[illegible] أحداً "جزاءً أو شكوراً"

هذا وأرجوكم [illegible] أن تتفضلوا بقبول أصدق سلام
[illegible] احترامي [illegible]

مصطفى كامل

باريس في ٤ سبتمبر ١٩٠٦

وعندما تولى سعد زغلول وزارة المعارف، حل محله قاسم أمين، قال حافظ إبراهيم مشيرًا لذلك:

قد قام سعدٌ بها حينًا وأسلمَها

إلى أمينٍ فلم يُحجِمْ ولم يَهَبِ[1]

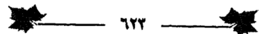
وقد بلغ ما دفعه هؤلاء المكتتبون ٤٨٨٥ جنيهًا، وبهذا البيان والمبالغ التى دفعت الآن ومن قبل، تألفت نواة الجامعة المصرية بجهود الأفراد الخاصة، لا بجهد الحكومة، وهو ما كان متبعًا فى كل المجتمعات المتمدنة والمتحضرة فى ذلك الوقت، حيث تنشأ الجامعات بجهود المواطنين، لا أموال الحكومة.

ولنا ملحوظة نوردها حتى يرى القارئ رأيه فيها، فقد ذكر أحمد حسين صاحب موسوعة تاريخ مصر وكذلك جورجى زيدان، أن الذى ساهم بالخمسمائة جنيه وكتب شروط الجامعة هو مصطفى الغمراوى من أعيان بنى سويف، أما رءوف عباس صاحب كتاب «تاريخ جامعة القاهرة» فيرى أن صاحب هذا الاكتتاب والشروط هو الزعيم مصطفى كامل، ونحن نرى أنه مصطفى الغمراوى لأن الزعيم كان آنذاك فى باريس ويبعث برسالة إلى محمد فريد. فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٤٠٦م.

وقد يتعجب القارئ عندما لا يرى اسم مصطفى باشا كامل فى قائمة اللائحة التأسيسية للجامعة، مع أنه أول واضع لبذرة فكرة الجامعة عام ١٩٠٤ للميلاد.

وربما يرجع ذلك إلى أن مصطفى كامل كان فى ذلك الوقت رئيسًا للحزب الوطنى، ومسئولاً عن صدور ثلاث صحف: الأولى هى (اللواء) بالعربية، والثانية هى (لا تندارد) بالفرنسية، والثالثة (الإجبشيان ستاندرد) بالإنجليزية، عدا الخطب والمحاضرات والإشراف على المدرسة التى تسمت باسمه؛ لذلك تركَ إتمام العمل فى إنشاء الجامعة للآخرين بعد أن فتح باب الاكتتاب من سنتين بتنازله عن قيمة الهدية لإنشاء الجامعة.

(١) ديوان حافظ إبراهيم ٢٦٧/١.



وكان للشعراء والأدباء والخطباء دور كبير في استثارة الناس وتشجيعهم على الاكتتاب، فهذا شاعر النيل يلقي قصيدة عصماء في ١٩ من مارس عام ١٩٠٧ للميلاد، يقول فيها:

إن كنتمُ تبذلونَ المالَ عن رهبٍ
فنحنُ ندعوكمُ للبذلِ عن رغبِ

ذَرَّ الكتاتيب منشيها بلا عددٍ
ذَرَّ الرمادِ بعينِ الحاذقِ الأربِ

فأنشأوا ألفَ كُتَّابٍ وقد علموا
أن المصابيحَ لا تُغني عن الشهُبِ

هبوا الأجيرَ أو الحراثَ قد بلَغا
حدَّ القراءةِ في صحفٍ وفي كتبِ

مَنِ المُداوي إذا ما علةٌ عرضَتْ
مَن المدافعُ عن عرضٍ وعن نشبٍ[1]؟

ومَن يروضُ مياهَ النيلِ إن جَمَحتْ
وأنذَرت مصرَ بالويلاتِ والحرَبِ[2]؟

ومَن يوكلُ بالقسطاسِ بينكمُ
حتى يُرَى الحَقُّ ذا حولٍ وذا غلبِ[3]؟

ومَن يُطلُ على الأفلاكِ يرصدُها
بين المناطقِ عن بُعدٍ وعن كثَبٍ[4]؟

يبيتُ ينبئُنا عما تنمُّ بِهِ
سرائرُ الغيبِ عن شفافةِ الحجُبِ

---

(١) يشير إلى الطبيب والجندي.

(٢) يشير إلى مهندس الري.

(٣) يشير إلى القاضي.

(٤) يشير إلى عالم الأرصاد.

ومــن يــبــرُ أديــمَ الأرضِ مــا ركــزت

فـيـهـا الـطـبـيـعـةُ مـن بـدعٍ ومن عـجبِ

يــظـل يــنشـدُ مــن ذراتــهـا نــبـأ

ضنت به الأرضُ فى ماضٍ من الحقب[1]

ومـن يُـمـيـطُ سـتـارَ الـجـهلِ إن طُمست

مـعـالـمُ الـقصـدِ بـيـنَ الشكِّ والـريبِ[2]

فـمـا لـكـم أيـهـا الأقـوامُ جـامـعـةٌ

إلا بـجـامـعـةٍ مـوصـولـةِ السـببِ

ويَـيـئـسـوا لـرجـالِ الـغـربِ أنـكـمُ

إذا طَـلَـبـتـم بـلـغـتـم غـايـةَ الـطَّلَـبِ

لا تَـلـجـئـوا فـى الـعـلا إلا إلـى هـمـمٍ

وثـابـةٍ لا تُـبـالـى هـمـةَ الـنـوبِ

فـإنَّ تـأمـيـلَـكـم فـى غـيـرِكـم وهـنٌ

فى النفسِ يُرخِى عنانَ السعىِ والدأبِ

ثم يحض الناس على الاكتتاب فى هذا المشروع ويقول:

هـذا هـو الـعـمـلُ الـمـبـرورُ فـاكـتـتـبـوا

بـالـمـالِ إنـا اكـتـتـبـنـا فـيـه بـالأدبِ[3]

ثم يتبعها بقصيدة أخرى فى ٨ من مايو عام ١٩٠٨، قال فيها:

....

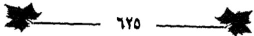
ولا حـيـاةَ لـكـم إلا بـجـامـعـةٍ

تـكـونُ أمًّـا لـطـلابِ الـعـلا وأبـا

(١) يشير إلى مهندس الزراعة.

(٢) يشير إلى المعلم.

(٣) ديوان حافظ إبراهيم ١/٢٦٨.



تبني الرجالَ وتبني كُلَّ شاهقةٍ

مِنَ المعالي وتبني العِزَّ والغلَبا

....

وابنوا بأكبادِكم سورًا لها ودعوا

قِيلَ العدوِّ فإني أعرفُ السببا

لا تقنطوا إن قرأتُم ما يزوقه

ذاك العميدُ ويرميكم به غضبا[1]

إن تُقرِضوا الله في أوطانِكم فلكُمْ

أجرُ المجاهدِ طوبى للذي اكتتبا[2]

لقد صار التعليم بعد هذه المظاهرات هو الشغل الشاغل للبلاد، وأخذ الأهالى يبذلون جهودهم لتعميم التعليم، وبلغ عدد الطلبة ـ كما ذكر أحمد حسين ـ الذين تحت إدارة نظارة المعارف ١٩٢٥٠٠ طالب[3].

* * *

(١) يقصد ما كان يقوله كرومر بأن المصريين ليسوا أهلاً للتعليم العالى.

(٢) ديوان حافظ إبراهيم ١/٢٧٢.

(٣) موسوعة مصر ٣/١٢٨١.

الجامعة ـ المخاض

أما النظام الجامعي بمصر فلم يعمل به إلا في عام ١٩٠٨ للميلاد، وذلك أن الجامعة بدأت في ٢١ من سبتمبر، كجامعة أهلية، ثم افتتحها خديوي مصر عباس حلمي الثاني بن توفيق في ٢١ من ديسمبر عام ١٩٠٨ للميلاد، وأقيم بهذه المناسبة احتفال رسمي، وألقى الخديوي فيه خطبة، وأمر بخمسة آلاف جنيه تدفعها سنويًا وزارة الأوقاف، وتذكر الحاضرون والمحتفون مصطفى كامل باشا صاحب الفكرة الأولى والاقتراح الأول للجامعة، الذي كان قد ودع دنيا الناس في ١١ من فبراير عام ١٩٠٨ للميلاد، من سبعة أشهر، ولن ينساه المتعلمون في الجامعة على مر السنين، رحمه الله.

وقد دعي لهذا الاحتفال المندوب السامي البريطاني اللورد كتشنر وقائد الجيش الإنجليزي في مصر، ولكنهما امتنعا عن الحضور ولم يعتذرا؛ لأن رأيهما ورأي إنجلترا أنه لم يأت أوان الجامعة المصرية بعد.

وكان مقر الجامعة الأهلية في ٢١ ديسمبر سنة ١٩٠٨م في دار جاناكليس التي أصبحت اليوم الجامعة الأمريكية[1]. وافتتحت في قاعة مجلس شورى القوانين، أو مجلس الشورى حاليًا بشارع قصر العيني، وأخذ أولو الأمر في العمل على بعث الطلبة إلى أوربا ليتخرجوا أساتذة يعلمون العلوم باللغة العربية، ويتلقون العلوم الطبيعية وغيرها، كذلك استقدموا أساتذة مؤقتين من الإفرنج لإلقاء المحاضرات في العلوم الفلسفية والاجتماعية والتاريخية والرياضيات والفلك وآداب اللغات الإنجليزية والفرنسية وغيرهما، كما تفعل أرقى الجامعات في أوربا.

وكان للمرأة نصيب في التعليم والتعلم من بداية الجامعة، ففي عام ١٩١٠ للميلاد كانت تنظم محاضرات للسيدات وكن ٣٥ مصرية و٢٣ أوربية، وقد زاد هذا الرقم فيما بعد، وكان مجموع الطلبة الذكور حوالي ٦١٣ طالبًا.

(١)قال د. رءوف عباس: كان الإيجار السنوي يبدأ بمبلغ ٣٥٠ جنيهًا ثم زيد إلى ٤٠٠ جنيه، ثم انتقلت الجامعة إلى قصر محمد صدقي باشا بشارع الفلكي سنة ١٩١٥م حيث تم استئجاره بمبلغ ٥٠ جنيهًا في السنة الأولى تزيد إلى ٣٠٠ جنيه في السنة التالية (تاريخ جامعة القاهرة ٤٦).



والطريف أن (مى زيادة)[1] كانت ضمن طالبات الجامعة المصرية الأوليات عندما جاءت إلى مصر فى أوائل هذا القرن مع أبيها.

كذلك كان هناك أستاذات بالجامعة، فروى أن (لبيبة هاشم) بنت نصيف ماضى، الكاتبة الأدبية اللبنانية، التى جاءت إلى مصر، وأصدرت مجلة الشرق عام ١٩٠٦ للميلاد ـ ألقت فى الجامعة عام ١٩١١ للميلاد محاضرات فى التربية وأصولها، وقد جمعت هذه المحاضرات بعد ذلك فى كتاب.

وكانت السيدة نبوية موسى إحدى رائدات التعليم فى مصر وناظرة مدرسة المعلمات ـ تلقى محاضرات فى تاريخ مصر القديم، أما محاضرات التربية والأخلاق فكانت تلقيها الآنسة (كوفرور) المدرسة بمدرسة راسين بباريس، وكانت تلقيها على الطالبات باللغة الفرنسية، كذلك بقية المحاضرات كانت بنفس اللغة.

* * *

(١) رائدة من رائدات النهضة النسوية، أبوها من لبنان، وولدت فى الناصرة بفلسطين عام ١٨٨٦ للميلاد، انتقلت إلى مصر، كانت تتقن اللغة العربية والإنجليزية والإيطالية والألمانية والفرنسية، كان لها صالون أدبى فى القاهرة، ومؤلفات عدة، وتوفيت عام ١٩٤١ للميلاد.

الأميرة فاطمة

بداية دورها

وعود إلى الأميرة فاطمة إسماعيل، التى عاشت فى جو كله تعليم، وتابعت الحديث عن فكرة إنشاء جامعة مصرية، ولم تقف موقفًا سلبيًا، بل كان لها السهم الأكبر، والصوت الأعلى فى إنشاء الجامعة الحالية، واختيار هذا المكان لها بعد أن انتقلت من مكان إلى مكان حتى عام ١٩٢٥ للميلاد اتخذت الجامعة مقرًا لها قصر الزعفران فى العباسية، وأخيرًا استقرت حيث أرادت الأميرة فاطمة.

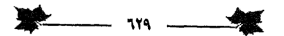
تبدأ قصة هذا المكان من أيام الخديوى إسماعيل، عندما اشترى من ورثة عمه سعيد باشا قصرًا فى الجيزة، وكذلك ما حوله من الأرض، وهو نحو من ثلاثين فدانًا، وضم كل ذلك إلى أرضه التى تصل إلى حدود القليوبية، ثم هدم القصر وبدأ فى بناء عدد من القصور مثل: سراى الجيزة، وسراى بولاق التكرور، وسراى فاطمة هانم ابنته.

وذكر على مبارك بالتفصيل كيف بنيت هذه القصور وغيرها، وما أنفق عليها، وعلى بساتينها، وأشجارها ومبانيها وزخرفتها، فقال مثلاً: ووجدت قائمة فيها ما صرف على السرايات، من أجر صناع ومفروشات ونقوش ونحوها، من ضمن ذلك ما صرف على قصر الجيزة ألف ألف وثلاثمائة وثلاثة وتسعون ألفًا وثلاثمائة وأربعة وسبعون جنيهًا...[1].

وقد كانت قصور الخديوى فى الجيزة والجزيرة وما حولهما تأخذ مساحة كبيرة من الأرض، حوالى ٤٦٥ فدانًا، بما فيها قصور أبنائه فى حى بين السرايات والأورمان، وكانت سراى الأميرة فاطمة ضمن هذه السرايات.

وسمعت الأميرة فاطمة بافتتاح الخديوى عباس للجامعة الجديدة، وقرأت أهم الأغراض التى ترمى إليها هذه المؤسسة، وعرفت أن العلوم التى ستدرس هى:

(١) الخطط التوفيقية ١/١٢١٣.



آداب اللغة العربية، والرياضيات والطبيعة وتاريخ حضارة الإسلام والحضارات الشرقية القديمة، ورأت الأميرة أن الجامعة صارت محط آمال المصريين فى حياة أفضل، حتى إن أغنياء البلد وسراتها صاروا يزودونها من حين لآخر بالهبات والأوقاف، وقد تبرع بعض الأثرياء بالأراضى والمال.

قال أحمد حسين: فى ٩ من فبراير عام ١٩٠٧ للميلاد، حصل مشروع الجامعة على دفعة قوية جديدة، بأن تبرع أحمد بك الشريف بمائة فدان يقدر ثمنها بثلاثين ألف جنيه، وأوقفها على المدرسة الكلية المزمع إنشاؤها فى القطر المصرى، المسماة بالمدرسة الجامعة، فدل ذلك على أن مشروع الجامعة قد استقر فى وجدان الأمة، وأصبح حقيقة مقررة[1].

وقال جورجى زيدان: ووهب حسن باشا زايد خمسين فدانًا من أطيانه وقفًا للمشروع، وتوالت الاكتتابات والوقفيات[2].

حينئذ رأت الأميرة فاطمة أن دورها قد بدأ بالفعل، وتبرعت بأعظم هبة، وتقدمت بأجل وقف، وكان ذلك تأكيدًا منها لرسالة الجامعة، ودورها فى بناء مصر الحديثة التى أسسها جدها الكبير محمد على، وسهر على تنميتها أبوها إسماعيل باشا من بعده.

* * *

(١) موسوعة تاريخ مصر ١٢٦٥/٣.
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ٣٧/٤، والأرض فى محافظة المنوفية.

عطاء الأميرة فاطمة

كان أول هدف للأميرة فاطمة هو أن يكون للجامعة مكان ثابت، وخاصة بعد أن تنقلت بين أربعة أماكن خلال سنة واحدة، فوهبت للجامعة ستة فدادين بجوار قصرها فى بولاق التكرور ضمن البساتين والحدائق المحيطة بالقصور والسرايات، وقررت أن تكون مبانيها فخمة تتناسب مع الغرض منها.

وتقول وثائق الوقف: إن الاحتفال تم فى يوم الإثنين من جمادى الأولى سنة ١٣٢٢هـ الموافق ٣١ مارس سنة ١٩١٤م للاحتفال بوضع حجر الأساس لدار الجامعة فى تلك الأرض التى وهبتها الأميرة وهى قطعة رقم (٢) بحوض الورد وجميع بناء الوابورين وجميع بناء العربخانة والإسطبل حيث تقع الفنون التطبيقية اليوم.

ثم جمعت كل حليها ومجوهراتها من ذهب وماس وزمرد وياقوت، وسلمت كل ذلك لإدارة الجامعة، تتصرف فيه لسرعة البناء، وقالت: إذا لم تكف الهبات والتبرعات مع مجوهراتها تكفلت هى بالباقى.

قال جورجى زيدان: وأعطت البرنسيس فاطمة هانم عمة الجناب الخديوى - للجامعة مجوهرات قدرتها بثمانية عشر ألف جنيه[1].

وهذا شوقى يشيد بهذا العمل، ويقول:

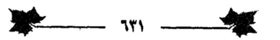
بنيتِ ركنيها كما
يبنى أبوكِ المأثره

قرنتِ كُلَّ حجرٍ
فى أسها بجوهره[2]

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ٤/٣٧، وهى تساوى ما يقرب من خمسة ملايين جنيه حاليًا، وقد بيعت بمزاد علنى عام ١٩١٩ للميلاد بمبلغ وقدره ٢٥ ألف جنيه.

(٢) الشوقيات ٣/٨٩.



جاء فى وثائق سجلات الجامعة وصف دقيق لبعض هذه المجوهرات:

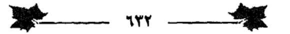
- سوار من الماس البرلنتى[1] يشتمل على جزء دائرى بوسطه حجر وزنه عشرون قيراطًا حوله عشر قطع مستديرة الشكل، والسلسلة التى تلتف حول المعصم مركب عليها ثمانى عشر قطعة كبيرة وست وخمسون قطعة أصغر منها حجمًا ولكنها مربعة الشكل.
- ريشة من الماس البرلنت على شكل قلب يخترقه سهم مركبة عليها حجارة مختلفة الحجم.
- عقد يشتمل على سلسلة ذهبية مدلى منها ثلاثة أحجار من الماس البرلنت وزن الكبير منها عشرون قيراطًا والصغيران وزن كل منهما اثنا عشر قيراطًا.
- خاتم مركب عليه حجر من الماس هرمى يميل لونه إلى الزرقة.
- عقد من الزمرد يشتمل على ثمانى عشر قطعة حول كل قطعة أحجار من الماس البرلنت وأصل هذا العقد هدية من السلطان عبد العزيز إلى الخديوى إسماعيل.

ولم تكتف بذلك، بل وقفت على الجامعة المصرية جزءًا كبيرًا من أملاكها، وهو ٦٧٤ فدانًا فى الدقهلية و٢٦٨٣ فدانًا فى الجيزة، على أن يصرف على الجامعة من ريع زراعتها.

ولما شاهد أهل الخير ما فعلته الأميرة فاطمة، تسارعوا إلى التبرع، وتنافسوا فى الهبات، حتى صار رصيد الجامعة كبيرًا فى وقت محدود وهذه قائمة المتبرعين بأراضى أوقاف للجامعة:

سهم	قيراط	فدان	
١٤	١٤	٣٣٥٧	وقفية لسمو الأميرة فاطمة هانم بمديريتى الدقهلية والجيزة.
٨	١٦	١٢٥	وقفية سمو الأمير يوسف كمال - حفيد السلطان حسين كامل - بجهة البركة مركز نوى مديرية الدقهلية.

---
(١) البرلنت أنقى أنواع الماس.



سهم	قيراط	فدان	
-	-	١٠٠	وقفية حضرة أحمد بك الشريف مركز كوم حمادة مديرية البحيرة.
-	-	٦	وقفية حضرة مصطفى كامل الغمراوى مديرية بنى سويف.
-	-	٥	وقفية الشيخ محمد عبد الحميد حبيب بزاوية الناعورة منوفية.
١٨	١٢	٥٠	وقفية حضرة حسن زايد بك بدراوة مركز أشمون منوفية.
-	-	٧٣	وقفية حضرة عوض عريان المهدى بك بنى سويف.

ذلك عدا بيت فى الزيتون من وقف صالح طاهر بك. ومكتبة الأمير إبراهيم حلمى تحتوى على ٢٠٠٠٠ مجلد وغيره وغيره.

قال جورجى زيدان فى جريدة الهلال[١]: وأصبحت مالية الجامعة المصرية عبارة عن ٢٠٠٠٠ جنيهٍ مودعة فى البنك الألمانى، و١٠٢٨[٢] فدانًا من أجود الأطيان، غير الإعانات المفروضة من جهة الخديوى وهى عشرة آلاف جنيه فى السنة، فقد أصدر أمره لوزارتى المعارف والأوقاف بالمساهمة فى الإعانات المفروضة، منها خمسة آلاف من الأوقاف، وألفان من المعارف، والباقى من ريع النقود والأطيان وغيرها.

وأسرع المشرفون على المشروع، ووضعوا الرسم اللازم للبناء بعد تحديد المكان فى أرض الأميرة فاطمة، ووضعت الأساسات، وجاء دور الاحتفال بوضع الحجر الأول فى البناء، وكان ذلك فى ٣٠ من مارس عام ١٩١٤ للميلاد، وحضر الحفل أخو الأميرة جناب الخديوى عباس حلمى الثانى، الذى كان قد حضر الاحتفال الأول من ست سنوات.

قال أحمد حسين: وفى ٣٠ من مارس أقيم احتفال كبير لوضع حجر الأساس حضره الخديوى والأمراء والكبراء، وتكلم فى الاحتفال (شيخ العروبة) أحمد زكى[٣] باشا بصفته سكرتير مجلس الوزراء، كما خطب حسين باشا رشدى[٤]، الذى أصبح رئيسًا لمجلس الإدارة[٥].

---

(١) الهلال رقم ٥٦٥ لعام ١٩٢٢ للميلاد.

(٢) قبل تبرع الأميرة فاطمة بأرض الدقهلية والجيزة.

(٣) أحمد زكى: عالم لغوى، ومؤرخ عربى، ولد عام ١٨٦٦ للميلاد، كان من رواد البحث العلمى، جمع فى داره (دار العروبة) مجموعة ثمينة من المخطوطات، أشرف على تحقيق بعضها، له مؤلفات، توفى عام ١٩٣٤ للميلاد. (الموسوعة العربية الميسرة).

(٤) صار فى ٢ من أبريل رئيسًا للوزراء.

(٥) موسوعة تاريخ مصر ١٤١٧/٤.

وفى جريدة الأهرام (٢٢ أغسطس عام ١٩٩٨ للميلاد) مقال جاء فيه: أن الأميرة فاطمة تبرعت فى عام ١٩١٤ للميلاد بدواة ومسطرين وقلم وشاكوش من الذهب الخالص، وقطعة من الفضة قدرت وقتها بمبلغ ثمانمائة جنيه.

وهذه الأشياء لاستعمالها فى وضع حجر الأساس الذى توج ـ كما جاء فى برنامج الحفل ـ بتوقيع سمو الجناب العالى عباس حلمى باشا، وصاحبة الدولة والعصمة المحسنة الكبيرة الأميرة فاطمة بالمحضر، وقد وضع المحضر فى حجر منقور وأصناف من العملة المصرية المتداولة ومجموعة من الجرايد التى صدرت يوم الاحتفال، وغُطى كل ذلك برخامة كتب عليها (الجامعة المصرية) الأميرة فاطمة ابنة إسماعيل سنة ١٣٣٢هـ.

وهذه صورة الوثيقة التاريخية التى وقع عليها الخديوى والأميرة، ووضعت فى أساس بناء الجامعة:

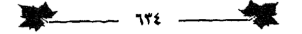
«بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على نبيه العربى الذى بعثه الله بالحكمة وفصل الخطاب.

أما بعد،،،

فإن هذا اليوم المبارك يوم الإثنين الثالث من شهر جمادى الأولى سنة ١٣٣٢هـ بعد الهجرة النبوية، الموافق اليوم الثلاثين من شهر مارس سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف ميلادية ـ سيكون له بفضل الله شأن كبير فى تاريخ النهضة الفكرية وارتقاء الحركة العلمية فى ربوع مصر وبين أهاليها.

فقد تفضل حضرة صاحب الأريكة عزيز مصر الأكرم سمو مولانا الخديوى المعظم الحاج عباس حلمى الثانى محيى العلوم والآداب العربية، فتصدَّر بذاته الشريفة الحفلة التى أقامتها ربيبة المجد وربة الكرم الدرة العصماء صاحبة الأيادى البيضاء فاطمة الزهراء لوضع حجر الأساس لبناء الجامعة المصرية فى البقعة المباركة التى وهبتها لها من أراضيها الكائنة فى بولاق التكرور من أرياض القاهرة.



وقد تفضل الجناب العالى الخديوى الأفخم وصاحبة الدولة والعصمة المحسنة العظيمة فتوجا هذا المحضر بتوقيعهما الكريم بخط يدهما الشريفة، ثم تلاهما توقيع حضرات الأعضاء القائمين بإدارة الجامعة المصرية، والله المسئول فى تمام التوفيق وحسن الختام.

وقد وقعت الأميرة فاطمة بخطها:

كريمة المرحوم إسماعيل باشا ـ خديوى مصر الأسبق.

ثم وقعت باسمها».

وشاءت الظروف أن يتعثر المشروع لمدة خمس سنوات، فترة الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ للميلاد حتى عام ١٩١٩ للميلاد، وفى عهد أخيها السلطان أحمد فؤاد (ملك مصر فيما بعد) أعيد العمل فى إتمام بناء الجامعة.

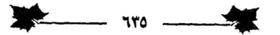
وقد تنقلت الجامعة وإدارتها عام ١٩٠٨ للميلاد بين أربعة أمكنة ـ كما ذكرنا ـ وكانت باسم الجامعة الأهلية، وقد رأسها حسين رشدى باشا، وقد ضمت الجامعة فى عهده سنة ١٩٢٣هـ إلى وزارة المعارف يقول د. لطفى السيد[1]: تم الاتفاق على أن تتنازل الجامعة المصرية إلى وزارة المعارف العمومية، على أن تكون الجامعة المصرية معهدًا عامًّا محتفظة بشخصيتها المعنوية، وتدير شئونها بنفسها بكيفية مستقلة تحت إشراف وزارة المعارف العمومية كما هو الحال فى جامعات أوربا[2].

وفى ١١ من مارس عام ١٩٢٥ للميلاد، تقرر نقل الإشراف عليها للحكومة، وأطلق عليها الجامعة المصرية، ورئيسها د.لطفى السيد، وكانت تضم كليات الآداب والحقوق والعلوم والطب ومقرها قصر الزعفران بالعباسية، حيث إن بناءها لم يكن قد تم بعد.

وفى عام ١٩٢٨ للميلاد، تم نقل الجامعة إلى المكان الذى اختارته الأميرة فاطمة قبل وفاتها، وكانت قد توفيت عام ١٩٢٠ للميلاد، ودفنت فى مسجد

(١) أستاذ الجيل شغل منصب مدير الجامعة لمدة ١٦ سنة من سنة ١٩٢٥م: إلى سنة ١٩٤١ م، ثم وزيرًا للمعارف ثم الداخلية ثم الخارجية ثم رئيسًا للمجمع اللغوى، ولد سنة ١٨٧٠م وتوفى سنة ١٩٦٣م.

(٢) قصة حياتى ١٤٩.



الرفاعى، فلم تشهد تمام الحدث العظيم، الذى بذلت من أجله كل مرتخص وغال مما ملكت يداها.

يقول د. لطفى السيد: وكانت الجامعة سنة ١٩٢٥ مكونة من أربع كليات: الآداب والعلوم والحقوق والطب، وفى عام سنة ١٩٣٥ ضمت مدارس المهندسخانة والزراعة والتجارة لتصبح كليات الهندسة والزراعة والتجارة، وفى سنة ١٩٤٥م ضمت كلية دار العلوم إلى الجامعة(١).

وظلت تحمل اسم الجامعة المصرية حتى ٢٣ من مايو عام ١٩٤٠ للميلاد ثم تغير اسمها من الجامعة المصرية إلى جامعة فؤاد الأول، الذى كان أول رئيس لها فى عام ١٩٠٨ للميلاد، وكان ملك مصر حينئذ نجله الملك فاروق، ولما قامت الثورة فى يوليو عام ١٩٥٢ للميلاد تغير الاسم إلى (جامعة القاهرة)، مع أن الجامعة، وجميع كلياتها - عدا كليتى الطب والصيدلة - تقع فى محافظة الجيزة لا القاهرة.

ولأن المشروع كان جادًا من أول يوم، فقد حظى باهتمام الدول الأجنبية أيضًا التى شاركت الشعب المصرى فرحته بهذا العمل الجليل.

يقول أحمد حسين: وقد كان من حظ الجامعة عام ١٩١٠ للميلاد أنها لقيت مساعدة كبيرة من البلدان الأجنبية، فأهدت إليها الحكومة الإيطالية آلات كاملة مما يلزم للتجارب الطبيعية، وقبلت فرنسا أن تعلم مجانًا ثلاثة من الشبان المصريين الذين ترسلهم الجامعة(٢).

وقد أنشد الشعراء، وخطب الخطباء فى مشروع الجامعة الكثير الكثير، كذلك فى مدح الأميرة فاطمة، وقد اخترنا بعض الأبيات التى قالها أمير الشعراء أحمد شوقى فى رثائها:

حلفتُ بالمُستَّرة(٣)

والروضةِ المعطَّره

---

(١) قصة حياتى ١٤٩.

(٢) موسوعة تاريخ مصر ١٣٥٥/٤.

(٣) الكعبة.

ومجلس الزهراءِ في الـ

ـحظائرِ المنوَّره

مراقد السلالةِ الطيبـ

ـةِ المطهَّره

ما أنزلوا إلى الثرى

بالأمس إلا نَيِّره[1]

سيروا بها تقية

نقيةً مُبَرَّره

نُجِلُّ سِتْرَ نعشِها

كالكسوة المسيَّره

وننشق الجنةَ من

أعواده المنضَّره

في موكب تَمَثُّل الـ

ـحقُّ فكانَ مظهَره

دعِ الجنودَ والبنو

دَ والوفودَ المُحْضَره

وكلَّ دمع كَذِبِ

ولوعةٍ مُزَوَّرَه

لا ينفعُ المْيتَ سوى

صالحةٍ مُدَّخَرَه

قد تُرْفَعُ السُوقَةُ عنـ

ـدَ الله فوقَ القيصره

---

(١) نجمة.

يا جزع العلم على

سُكَيْنَةَ[1] الموقّره

أمسى بربيع موحشٍ

منها ودارٍ مُقْفِرَه

من ذا يُؤَسّي هذه الـ

ـجامعةَ المستعبره[2]

لو عشتِ شِدْتِ مثلَها

للمرأة المحرَّره

بَنَيْتِ رُكْنيها كما

يَبْني أبوكِ المأثُرَه

قرنْتِ كلَّ حَجَرِ

في أُسِّها بجوهره

مفخرة لبيتِكم

كم قبلها من مفخرَه!

يا بنتَ إسماعيلَ، في الـ

ـميْتِ لحيٍّ تَبْصِرَه

أكان عندَ بيتِكم

لهذه الدنيا تِرَه؟[3]

هلا وصَفْتِها لنا

مُقبلَةً ومدبِرَه؟

---

(1) شبه الأميرة فاطمة بالسيدة سكينة بنت الحسين.

(2) الباكية.

(3) ثأر.



ولونها صافية
وطعمها مكدَّره؟
فاطمُ مَنْ يولَدْ يمُتْ
المهدُ جسرُ المقبَره
وكل نفس في غدٍ
ميِّتةٌ فَمُنْشَره
وإنه من يعملِ الـ
ـخيرَ أو الشرَّ يَرَه
وإنما ينبِّه الـ
ـغافلُ عندَ الغرغَره[1]
يلفظُها حنظلةً
كانت بفيهِ سُكَّرَه
ولن تَزَال من يدٍ
إلى يد هذى الكُرَه
أين أبوك؟ مالُه
وجاهُه والمقدره؟
أين الأمورُ والقصو
رُ والبدورُ المخْدَره؟
أين الليالي البيضُ والـ
أصائلُ المزعفَره؟
جرى الزمانُ دونَها
فرده وأغثَره

(١) ساعة الاحتضار.

فإن همت فاذكر المقادر المقدره

من لا يصب فالناس لا يلتمسون المعذره[1]

وقد قال أحمد شوقى قصيدة عصماء أخرى[2] سنة ١٩٣١ بمناسبة تأسيس بقية منشآت الجامعة، وأقيم احتفال كبير أنشد فيه قصيدته منها:

ما هذه الغرف الزواهر كالضحى
الشامخات كأنها الأعلام؟[3]

تتحطم الأمية الكبرى على
عرصاته[4] وتمزق الأوهام

هذا البناء الفاطمى[5] منارة
وقواعد لحضارة ودعام

الجيزة الفيحاء هزت منكبًا
سبغ النوال عليه والإنعام[6]

* * *

(١) الشوقيات ٣/١٨٨.
(٢) كانت الأميرة قد توفيت من أكثر من عشر سنوات.
(٣) الأعلام: الجبال.
(٤) العرصات: الجوانب.
(٥) نسبة إلى الأميرة فاطمة.
(٦) الشوقيات ٤/ ١٣.

ليست وحدها

وجدير بنا أن نشير فى خاتمة الحديث عن الأميرة فاطمة بنت إسماعيل، إلى أن هذا الفيض من العطاء لم يكن مقصورًا فى الأسرة الحاكمة آنذاك ـ على الأميرة فاطمة، بل إن نساء كثيرات سبقنها أو رافقنها أو لحقن بها تألقت فيهن هذه الفضيلة، وإن تفوقت فاطمة عليهن جميعًا.

لقد عرف عن النساء من أول جيل محمد على، وجيل بناته وجيل حفيداته، أن بعضهن كنّ خيرات صالحات متنافسات فى عمل الخير، ومساعدة الرعية والوقوف معهم؛ لبناء المدارس والتكايا والمستشفيات والمساجد والملاجئ، مع تجديد المشروعات القديمة منها، ووقف الأملاك والأموال للإنفاق على الإصلاح والبناء، و لم تكن أغلب هذه المنافسات للتظاهر والتفاخر والترف، وإنما كانت جلها فى الخير، وفى سبيل المصلحة.

ولنبدأ بأولى زوجات محمد على، السيدة أمينة هانم مصرلى، التى حضرت إلى مصر عام ١٨٠٨ للميلاد، بعد استتباب الأمر لزوجها، وبعد ست سنوات حجت[1] عام ١٨١٤ للميلاد، ولجلال موكبها، وإنفاقها وكرمها وبرها، سماها أهل الحجاز (ملكة النيل).

جاء فى كتاب الملكة فريدة طرفة عنها: لما اعتزم ابنها إبراهيم باشا السفر إلى بلاد العرب لمحاربة الوهابيين وإخضاعهم، ذهب إلى والدته ليودعها، فعانقته، ووضعت بيدها الكريمة فى عنقه عقدًا من الجواهر الثمينة، وقالت:

---

(١) ذكر الجبرتى مكرمة لهذه السيدة، قال: لما وصلت امرأة الباشا إلى السويس، وجدت عالمًا كبيرًا من الحجاج المختلفة الأجناس ممنوعين من نزول المراكب، فصرخوا فى وجهها وشكوا إليها تخلفهم وأن أمير البندر مانعهم من النزول فى المراكب، وبذلك المنع يفوتهم الحج الذى تجشموا له الأسفار، وصرفوا أيضًا الأموال من أجله، وهم فى مشقة عظيمة من عدم وجود الماء ولا يمكنهم الرجوع لعدم وجود من يحملهم، وأن أمير البندر يشتط عليهم فى الأجرة... فحلفت أنها لا تنزل إلى المركب حتى ينزل جميع من بالسويس من الحجاج المراكب، ولا يؤخذ منهم إلا القدر الذى جعلته على كل فرد منهم، فكان ما حكمت به هذه الحرمة صار لها منقبة حميدة، وذكر حسن وفرج لهؤلاء الخلائق بعد الشدة. (عجائب الآثار ٧/٢٩١).

لا تنزع هذا العقد من عنقك، لا فى الليل ولا فى النهار، حتى تصل إلى الحجاز، وتضعه بيدك على ضريح رسول الله ﷺ، ففعل[1].

وإحدى جدات الأميرة فاطمة، الأميرة زينب بنت محمد على[2]، كانت من ربات البر والإحسان، أوقفت على الأزهر أوقافًا عظيمة، بلغ ريعها السنوى عشرين ألف جنيه - فى ذلك الزمان.

قال رضا كحالة: ورتبت مدرسى الفقه على المذاهب الأربعة، وأوقفت أوقافًا على أربعة عشر مسجدًا، منها: مسجد الحسين فى مصر، ومسجد السيدة نفيسة والسيدة زينب، وعلى عدة تكايا... وأما مبراتها[3] فأكثر مما ينتظر من فرد مهما وفرت ثروته، فكانت تعول فى الآستانة وحدها أكثر من أربعمائة أسرة من الفقراء والمساكين[4].

أما الأميرة ممتاز قادن[5]، زوج محمد على باشا، فقد اتجهت اتجاهًا آخر غير المدارس والمساجد.

قال رضا كحالة: أنشأت بمصر عام ١٢٧١ للهجرة (١٨٥٥ للميلاد) سبيلاً بشارع جامع البنات، بين قنطرة الموسكى وقنطرة الأمير حسين، وهو فى غاية الحسن، أرضه مفروشة بالرخام، وواجهته بالرخام.. ويصرف عليه من ريع وقفه[6].

وكانت قد أوقفت ريع أربعمائة فدان على قبر ابنها حسين بن محمد على، وعلى السبيل، كذلك جددت جامع البنات - بين السورين - وأجرت فيه تجديدًا وتعميرًا، وجعلت له أوقافًا كثيرة.

وسيدة أخرى فى البيت العلوى، زوج الأمير أحمد طوسون بن محمد على، أم عباس الأول: السيدة بنبا قادن، قد أنشأت عام ١٢٨٤ للهجرة (الموافق عام ١٨٦٧ للميلاد) سبيلاً ما زال موجودًا باسمها، وبنت فوقه كتابًا[7]، متسعًا عامرًا بالأطفال، يتعلمون فيه القراءة والكتابة والعلوم والرياضيات واللغات.

---

(١) الملكة فريدة ٤١.

(٢) ولدت عام ١٢٤٤ للهجرة (الموافق عام ١٨٢٧ للميلاد).

(٣) مستشفيات.

(٤) أعلام النساء ١١٢/٢.

(٥) توفيت فى ٩ من فبراير عام ١٨٦٨ للميلاد.

(٦) أعلام النساء ٢٦٥/١.

(٧) الكتّاب هو المدرسة الأولية بالمعنى الحاضر.

قال على مبارك: وقفت عليه أوقافًا دارَّة... ورتبت للأطفال كسوة سنوية، ومكافآت للمعلمين يأخذونها عند الامتحان السنوى[1].

أما زوجات إبراهيم باشا جد الأميرة فاطمة، فأعمالهن الخيرة كثيرة، منها ما أنشأته الأميرة ألفت قادن[2]، وهو السبيل تجاه جامع بشتك على بركة الفيل فى السيدة زينب، وذلك عام ١٢٩٩ للهجرة (الموافق ١٨٨٢ للميلاد).

قال على مبارك: عمرت أم مصطفى باشا أخى إسماعيل باشا، جامع بشتاك أحسن عمارة، وصار الجامع فى داخل حدود السراية تحيط به من ثلاث جهاته، وجعلت له عمدًا عظيمة من الرخام، وجددت مئذنته ومطهرته، وأقيمت شعائره، وفرشته بالبسط بعد فرشه بالبلاط، وأنشأت تجاه بابه من جهة الشارع، سبيلاً[3] ومكتبًا فى غاية الإتقان، ورتَّبت مرتبات شهرية وسنوية لخدمة الجامع ولأطفال المكتب ومؤدبيهم وعرفائهم، بل رتبت خُوجات لتعليمهم عدة فنون، ووقفت على ذلك أوقافًا ذات ريع كاف، منها ما بجوار الجامع من حوانيت وما عليها من المساكن[4].

كذلك جددت سبيل أبى سبحة، ووقفت عليه، وابتنت جامعًا فى درب الجماميز لابنها الأمير مصطفى فاضل، الذى توفى فى نوفمبر عام ١٨٧٥ للميلاد، ودفن فى هذا الجامع.

وزوجة أحمد باشا بن إبراهيم، الأميرة شويكار قادن، أنشأت سبيل إبراهيم باشا، وفوقه مكتب متسع عامر بالأطفال، ووقفت عليه أوقافًا كثيرة، ورتبت فيه معلمين يعلمون الأطفال القرآن الكريم والفنون، ورتبت للأطفال كسوة فى كل سنة.

أما جدة الأميرة فاطمة، الأميرة خوشيار قادن[5]، أم الخديوى إسماعيل ـ فقد بدأت فى بناء مسجد الرفاعى[6] عام ١٨٦٩ للميلاد (الموافق عام ١٢٨٦ للهجرة)،

---

(١) الخطط التوفيقية ١٨٦/٧.

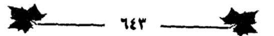
(٢) توفيت باستنبول عام ١٢٨٢ للهجرة (عام ١٨٦٥ للميلاد).

(٣) بدرب الجماميز.

(٤) الخطط التوفيقية ٤/ ١٣٧.

(٥) توفيت بمصر فى ٢١ من يونية عام ١٨٨٦ للميلاد.

(٦) تم بناؤه بعد وفاتها.



الذى بلغت تكلفته أربعمائة وأربعين ألف جنيه ـ فى ذلك الزمان ـ وقد فصل على مبارك الأماكن التى بينتها فى وقفيتها، وجعلت ريعها للصرف على المسجد، الذى لم تنسبه لنفسها، وإنما نسبته لأحد المدفونين على أرضه، وهو الشيخ على أبى شباك الرفاعى[1]، وجعلت له مدفنًا بداخله، ومعه شيخ آخر مدفون معه هو: الشيخ عبد الله الأنصارى.

وكانت قد اشترت هذه الأرض من أصحابها وعملت لها ولأسرتها مدفنًا فى الجزء الشمالى للمسجد، ودفنت فيه عندما توفيت عام ١٨٨٦ للميلاد، كذلك دفن فيه ابنها الخديوى إسماعيل عندما توفى فى استنبول عام ١٨٩٥ للميلاد، ثم نقل إلى مصر فى العام نفسه، ودفن فيه أيضًا جميع أولاد إسماعيل باشا، وزوجاته وأحفاده، وكان آخر من دُفنَ فيه من الأسرة العلوية: الملك فاروق حفيد إسماعيل، وآخر ملوك مصر، الذى توفى فى إيطاليا، ثم نقل إلى مصر عام ١٩٦٥ للميلاد.

والسيدة جشم آفت هانم، الزوجة الثالثة للخديوى إسماعيل، فى عام ١٨٧١ للميلاد أنشأت أول مدرسة للبنات المسلمات، فى السيوفية، وكان بها عند افتتاحها مائتا تلميذة، زدن فيما بعد عام ١٨٧٤ للميلاد إلى أربعمائة تلميذة، وكن يتعلمن بالمجان، وينفق على مأكلهن وملبسهن، ويتعلمن القراءة والكتابة والحساب والتاريخ والتطريز والنسيج ويحفظن القرآن[2].

قال إلياس الأيوبى: اشترت جشم آفت هانم سراى قديمة بالسيوفية.. وجددت بناءها فصيرتها مدرسة، وفتحت أبوابها للطالبات فى ربيع عام ١٨٧٣ للميلاد، وكانت سن البنات من سبع إلى اثنتى عشرة سنة[3].

أما نظام التعليم بالمدرسة كما جاء فى كتاب تاريخ التعليم: فقد كان بها ثلاثة مدرسين للقرآن، ومدرس لغة عربية، ومدرس للرسم، ومدرستان للخياطة، ومدرستان لأشغال الإبرة الأخرى، ومدرسة للغسيل والكى، وأخرى للموسيقى[4].

---

(١) قال على مبارك: أما سيدى أبو شباك، فقد بحثت كل البحث عن ترجمته.. فلم أجد له ترجمة.. ولعله من خلفاء الرفاعية المتأخرين. (الخطط التوفيقية ٤/ ٢٤٤).

(٢) موسوعة تاريخ مصر ٣/١٠٢٩.

(٣) تاريخ مصر ١/٢٠٩.

(٤) تاريخ التعليم فى مصر ٢١٢.



وفى نفس الوقت تقريبًا كان هناك سيدة أخرى، تبارى جشم آفت هانم فى بناء المدارس للبنات، هى زوج الخديوى توفيق، أمينة هانم.

قال رضا كحالة: أوقفت أمينة أم المحسنين[1] ٢٠١٧ فدانًا على وجوه البر، وأنشأت مدرسة للبنات دعتها باسمها[2].

وطبيعى أن تنفق عليها وعلى تلميذاتها، وتعين لها الأوقاف.

وحماة الأميرة فاطمة، الست مهتاب، قال عنها على مبارك: جددت عام ١٢٧٤ للهجرة (الموافق ١٨٥٧ للميلاد) جامع البلد فى منيل الروضة، وله من الأوقاف ثلاثة دكاكين بأسفله ومنزل بجواره[3].

لقد كانت النهضة التعليمية التى أثمرت ثمرتها العظيمة بإنشاء الجامعة المصرية عملاً شعبيًا فى الصميم، ولولا إيمان الصفوة فى المجتمع، ومن أبرزهم الأميرة فاطمة إسماعيل، لما قامت للتعليم قائمة فى مصر، ولما تحققت النهضة التى ورثناها، وبنينا حاضرنا على أساسها.

ونستطيع أن نقول أخيرًا إن أى عمل يراد له النجاح، وأن تتحقق منه الأهداف المرجوة، لابد أن ينبع من عزم الشعب وعطائه، فمعنى ذلك أن الشعب حى ناهض طموح، يريد، ولا يكون بفضل الله إلا ما يريد، فأما أن يعتمد الناس على الحكومة، وينتظروا أن تتحرك من خلال الميزانيات العامة دون مشاركة شعبية، فإن معنى ذلك خطير الدلالة، إذ هو أولاً يمثل انفصامًا بين الشعب والدولة، ثم إنه يشجع الجماهير على الاستهتار بالمشاريع العامة، وعلى السلبية المطلقة، فهم فى واد والدولة فى واد آخر، وعلى ذلك تصبح المشاريع مجرد رقع فى ثوب مهلهل، وتشيع السلبية بين الناس، ولا سيما القادرين منهم، وهم الذين يرجى عطاؤهم دائمًا لصالح الأغلبية الساحقة من المحتاجين والمسحوقين.

* * *

---

(١) زوج الخديوى توفيق الوحيدة، وهى بنت إلهامى بن عباس بن محمد على، توفيت فى ٨ من يوليو عام ١٩٣١ للميلاد.

(٢) أعلام النساء ٩٥/١.

(٣) الخطط التوفيقية ١٣٨/٤.





المـــراجع

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	اسم الناشر
١	أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول	الإسحاق المنوفي	المطبعة العثمانية مصر سنة ١٣٠٤هـ
٢	إخبار العلماء بأخبار الحكماء	القفطي	مكتبة المتنبي ـ مصر
٣	إدوارد وليم لين (حياته ومؤلفاته)	عدلي طاهر نور	دار النشر للجامعات ـ مصر
٤	الأوائل	أبو هلال العسكري تحقيق: محمد الوكيل	دار البشير ـ مصر
٥	الأرواح	الشيخ طنطاوي جوهري	دار النهضة العربية ـ مصر
٦	الإسلام الفاتح	د. حسين مؤنس	الزهراء للإعلام العربي ـ مصر
٧	أسد الغابة	ابن الأثير الجزري	دار الشعب ـ مصر
٨	أطلس الإسلام	د. حسين مؤنس	الزهراء للإعلام العربي ـ مصر
٩	الأعلام	الزريكلي	دار العلم للملايين ـ بيروت
١٠	أعلام النساء	عمر رضا كحالة	مؤسسة الرسالة ـ بيروت
١١	الإعلام بوفاة الأعلام	الذهبي	دار الفكر المعاصر ـ بيروت
١٢	الأغاني	أبو الفرج الأصفهاني	دار الكتب ـ مصر
١٣	بدائع الزهور في وقائع الدهور	ابن إياس الحنفي	الهيئة العامة للكتاب ـ مصر
١٤	البداية والنهاية	الحافظ ابن كثير	مكتبة المعارف ـ بيروت
١٥	بلاغات النساء	أبو الفضل طيفور	مطبعة والدة عباس الأول سنة ١٩٠٨م ـ مصر
١٦	تاج العروس	الزبيدي	المطبعة الخيرية ـ مصر
١٧	التاريخ السياسي	الشيخ محمد فخر الدين	مطبعة الابتهاج سنة ١٩٢٩م ـ مصر
١٨	التاريخ الإسلامي	د. إبراهيم الشريقي	رابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرمة
١٩	تاريخ الإسلام السياسي والديني	د. حسن إبراهيم حسن	مكتبة النهضة سنة ١٩٦٤ ـ مصر
٢٠	تاريخ آداب اللغة العربية	جورجي زيدان	دار الهلال ـ مصر
٢١	تاريخ مصر الحديث	جورجي زيدان	دار الهلال ـ مصر
٢٢	تاريخ مصر من عصر المماليك إلى عصر إسماعيل	جورج يانج ترجمة: على أحمد شكري	مكتبة مدبولي ـ مصر

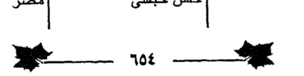
٢٣	تاريخ مصر فى عصر إسماعيل	إلياس الأيوبى	مكتبة مدبولى ـ مصر
٢٤	تاريخ الأمم الإسلامية	الشيخ الخضرى	المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر
٢٥	تاريخ التعليم فى مصر	د. أحمد عزت عبد الكريم	وزارة المعارف سنة ١٩٥٥م ـ مصر
٢٦	تاريخ جامعة القاهرة	د. رءوف عباس أحمد	الهيئة العامة للكتاب ـ مصر
٢٧	تاريخ الرسل والملوك	ابن جرير الطبرى	دار المعارف ـ مصر
٢٨	تاريخ الخلفاء	الإمام السيوطى تحقيق: د. رحاب حضر	مؤسسة عز الدين ـ بيروت
٢٩	تاريخ البيهقى	ترجمة د. يحيى الخشاب ـ صادق نشأت	الأنجلو ـ مصر
٣٠	تاريخ البصروى	علاء الدين البصروى تحقيق: أكرم العلبى	دار المأمون ـ دمشق
٣١	تاريخ الولاة (ولاة مصر)	أبو عمر الكندى المصرى	مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت
٣٢	تاريخ سيناء	د. نعوم شقير	سانت كاترين ـ مصر
٣٣	تاريخ الدولة العربية	د. السيد عبد العزيز سالم	مؤسسة شباب الجامعة ـ الإسكندرية
٣٤	تاريخ الإسلام	الذهبى	مؤسسة الرسالة ـ بيروت
٣٥	تاريخ الكعبة	على حسن الخربوطلى	دار الجيل ـ بيروت
٣٦	التاريخ السياسى للدولة العربية	د. عبد المنعم ماجد	مكتبة الأنجلو ـ مصر
٣٧	تحفة النظار فى غرائب الأمصار (ابن بطوطة)	حققه د. على المنتصر الكتانى	مؤسسة الرسالة ـ بيروت
٣٨	تحفة الناظرين	عبد الله الشرقاوى	المطبعة العثمانية ـ مصر سنة ١٣٠٤هـ
٣٩	تحفة الأشراف	جمال الدين المزى	دار المعرفة ـ بيروت
٤٠	التراتيب الإدارية	عبد الحى الكتانى	دار البيان العربى ـ بيروت
٤١	تقويم دار العلوم	محمد عبد الجواد	مطبعة الجامعة ـ مصر
٤٢	تيجان تهاوت	محمد عبد الغنى حسن	دار المعارف ـ مصر
٤٣	تهذيب التهذيب	ابن حجر العسقلانى	المكتبة العلمية ـ المدينة المنورة
٤٤	تقويم البلدان	السلطان عماد الدين الأيوبى	دار الطباعة العثمانية باريس سنة ١٨٥٨م
٤٥	تقريب التهذيب	ابن حجر العسقلانى	دار صادر ـ بيروت

٤٦	الجغرافية التاريخية الإسلامية	محمد أحمد حسونة بك	لجنة البيان العربى ـ مصر
٤٧	جمهرة أسماء النساء وأعلامهن	هزاع بن عبيد الشمرى	دار أمية ـ دمشق
٤٨	حاضر العالم الإسلامى	لوثروب ستودار ترجمة شكيب أرسلان	دار الفكر ـ بيروت
٤٩	حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة	جلال الدين السيوطى	وزارة الثقافة ـ مصر
٥٠	الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع	آدم متز ترجمة: د. عبد الهادى أبو ريدة	دار الكتاب العربى ـ بيروت
٥١	حضارة العرب	جستاف لوبون ترجمة: عادل زعيتر	عيسى البابى الحلبى ـ مصر
٥٢	الحروب الصليبية	د. على حبيبة	مكتبة الشباب ـ مصر
٥٣	الحركة الصليبية	د. سعيد عاشور	القاهرة
٥٤	حوليات الإسلام	أحمد عطية الله	دار التراث ـ مصر
٥٥	خطط الشام	محمد كرد على	المجمع العلمى ـ دمشق
٥٦	الخطط التوفيقية	على باشا مبارك	الهيئة العامة للكتاب ـ مصر
٥٧	خلاصة تاريخ تونس	حسن حسنى عبد الوهاب	الدار التونسية للنشر ـ تونس
٥٨	دائرة معارف سفير	مؤسسة سفير	مصر
٥٩	دول العرب وعظماء الإسلام	أحمد شوقى بك	مطبعة مصر سنة ١٩٣٣م ـ مصر
٦٠	دولة الإسلام فى الأندلس	د. محمد عبد الله عنان	مكتبة الخانجى ـ مصر
٦١	ديوان البحترى	تحقيق رشيد عطية	المطبعة الأدبية سنة ١٩١١م ـ بيروت
٦٢	ديوان أبى نواس	تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى	دار الكتاب العربى ـ بيروت
٦٣	ديوان حافظ إبراهيم	تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى	محمد أمين دمج ـ بيروت
٦٤	ديوان المعتمد بن عباد	جمعه: د. حامد عبد المجيد، أحمد بدوى	دار الكتب ـ مصر
٦٥	ديوان أبى العتاهية	تحقيق: د. محمد الدش	مكتبة المثنى ـ بغداد

٦٦	ديوان أبى الطيب (المتنبى)	بشرح أبى بقاء العكبَرِى	دار المعرفة ـ بيروت
٦٧	الديارات	أبو الحسن الشابشتى تحقيق: كوركيس عواد	مكتبة المثنى ـ بغداد
٦٨	دير طور سيناء	أفانجلوس بابا يوانو	إصدار دير طور سيناء ـ مصر
٦٩	الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور	زينب فواز	مكتبة ابن قتيبة ـ الكويت
٧٠	الذخائر والتحف	القاضى الرشيد بن الزبير، حققه: محمد حميد الله، راجعه: د. صلاح المنجد	دائرة المطبوعات ـ الكويت
٧١	الذيل والتكملة والصلة	الحسن الصنعائى	دار الكتب ـ مصر
٧٢	ذو النورين (عثمان بن عفان)	محب الدين الخطيب	(المطبعة السلفية) مطبعة الفتح ـ مصر
٧٣	الرأى العام فى القرن الثالث	د. عادل محيى الدين الألوسى	دار الشئون الثقافية ـ بغداد
٧٤	الرحلة الشامية	محمد على باشا	دار الرائد العربى ـ بيروت
٧٥	الروض الأنف	أبو القاسم السهيلى	مطبعة عباس شقرون ـ مصر
٧٦	الرسالة القشيرية	أبو القاسم القشيرى	دار الشعب ـ مصر
٧٧	الروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون	محمد بن غازى العثمانى	المطبعة الملكية ـ الرباط
٧٨	روض التعريف بمفاخر مولاى إسماعيل	محمد الصغير الصنعائى	المطبعة الملكية ـ الرباط
٧٩	رسائل مصرية فرنسية	مصطفى كامل باشا، ترجمها: على فهمى كامل	مطبعة مدرسة مصطفى كامل سنة ١٩٠٩م ـ مصر
٨٠	سير أعلام النبلاء	شمس الدين الذهبى	مؤسسة الرسالة ـ بيروت
٨١	السيادة العربية والشيعة فى عصر بنى أمية	فان فلوتن ترجمة: د. حسن إبراهيم ومحمد إبراهيم	مطبعة السعادة ـ مصر
٨٢	السير والمغازى	ابن إسحق	دار الفكر بيروت
٨٣	الشوقيات	أحمد شوقى بك	المكتبة التجارية ـ مصر
٨٤	شرح حماسة أبى تمام	الأعلم الشنتمرى	دار الفكر ـ بيروت

٨٥	الشيعة والسنة	رجب البنا	دار المعارف ـ مصر
٨٦	شجرة الجامعة فى مصر	د. سليمان حزين	مطبعة جامعة القاهرة ـ مصر
٨٧	شذرات الذهب	ابن عماد الحنبلى	دار الفكر ـ بيروت
٨٨	صبح الأعشى فى صناعة الإنشا	القلقشندى	وزارة الثقافة ـ مصر
٨٩	الطبقات الكبرى	ابن سعد	دار صادر ـ لبنان
٩٠	الظاهرة القرآنية	مالك بن نبى، ترجمة: د. عبد الصبور شاهين	دار العروبة ـ مصر
٩١	عالم الإسلام	د. حسين مؤنس	الزهراء للإعلام العربى ـ مصر
٩٢	العبر فى ديوان المبتدأ والخبر	ابن خلدون	دار الكتاب اللبنانى ـ بيروت
٩٣	العبر فى خبر من غبر	الحافظ الذهبى	المطبوعات والنشر ـ الكويت
٩٤	عجائب الآثار فى التراجم والأخبار	عبد الرحمن الجبرتى	لجنة البيان العربى ـ مصر
٩٥	العباسة أخت الرشيد	جورجى زيدان	دار الجيل ـ بيروت
٩٦	العباسة (مسرحية)	عزيز أباظة	الهيئة العامة للكتاب ـ مصر
٩٧	عصر إسماعيل	عبد الرحمن الرافعى	دار المعارف ـ مصر
٩٨	العقد الثمين	تقى الدين الفاسى	مؤسسة الرسالة ـ بيروت
٩٩	العقد الفريد	ابن عبد ربه الأندلسى	دار الكتاب العربى ـ بيروت
١٠٠	عيون الأنباء فى طبقات الأطباء	ابن أبى أصيبعة	دار الحياة ـ بيروت
١٠١	فتوح البلدان	الإمام البلاذرى	دار مكتبة الهلال ـ بيروت
١٠٢	فتوح مصر وأخبارها	ابن عبد الحكم	مكتبة المثنى ـ بغداد
١٠٣	الفخرى فى الآداب السلطانية	محمد بن على بن طباطبا	مكتبة عز سنة ١٩٢٧م ـ مصر
١٠٤	فى بلاد البقرة المقدسة	أحمد عبد اللطيف محمود	دار الكتاب العربى ـ مصر
١٠٥	الفهرست	ابن النديم	مكتبة الاستقامة ـ مصر
١٠٦	فوات الوفيات	محمد رشاد الكتبى	دار صادر ـ بيروت
١٠٧	القاهرة	د. جمال حمدان	دار الهلال ـ مصر
١٠٨	قراءة جديدة فى تاريخ المغرب	عبد الكريم غلاب	دار الغرب الإسلامى ـ بيروت
١٠٩	قصة الحضارة	وول ديورانت، ترجمة: محمد بدران وآخرون	الهيئة المصرية العامة للكتاب

١١٠	قصة حياتى	لطفى السيد	الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مصر
١١١	القضاة الذين ولوا قضاء مصر	الكندى	طبع بمدينة رومية سنة ١٩٠٨م
١١٢	الكامل فى التاريخ	ابن الأثير	دار الكتاب العربى ـ لبنان
١١٣	الكامل فى الأدب واللغة	المبرد	مطبعة الاستقامة ـ مصر
١١٤	كتاب الوزراء والكتاب	الجهشيارى، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون	مطبعة مصطفى البابى ـ مصر
١١٥	كانت ملكة على مصر	ونفر هولمز، ترجمة: سعد أحمد حسين	الهيئة العامة للكتاب ـ مصر
١١٦	لسان العرب	ابن منظور	دار صادر ـ بيروت
١١٧	مائة امرأة غيرن مجرى التاريخ	مجدى كامل	دار سلمى ـ مصر
١١٨	مآثر الإنافة فى معالم الخلافة	القلقشندى	وزارة الإرشاد ـ الكويت
١١٩	مجالى الإسلام	حيدر بامات، ترجمة: عادل زعيتر	عيسى البابى الحلبى ـ مصر
١٢٠	مجلة وجهات نظر	عدد (٨)	مصر
١٢١	المحبّر	محمد بن حبيب البغدادى	المكتب التجارى ـ بيروت
١٢٢	محاضرات فى النظم الإسلامية	د. محمد عبد الله العربى	الشرق العربى ـ مصر
١٢٣	محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية	الشيخ الخضرى	مطبعة الاستقامة سنة ١٩٤٠م ـ مصر
١٢٤	مروج الذهب	المسعودى	دار الفكر ـ بيروت
١٢٥	المرأة فى تاريخ المغرب الإسلامى	عبد الهادى التازى	نشر الفنك ـ الدار البيضاء
١٢٦	مساجد مصر وأولياؤها	د. سعاد ماهر	وزارة الأوقاف ـ مصر
١٢٧	مساجد مصر	مجموعة علماء سنة ١٩٤٨م	مصلحة المساحة ـ مصر
١٢٨	المستطرف فى كل فن مستظرف	الأبشيهى	دار الكتب العلمية ـ مصر
١٢٩	المسلمون فى الأندلس	رينهوت دوزى، ترجمة: حسن حبشى	الهيئة العامة للكتاب ـ مصر

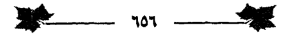


١٣٠	مصطفى كامل	عبد الرحمن الرافعى	دار المعارف ـ مصر
١٣١	مصر فى الإسلام	د. عبد الصبور شاهين، وإصلاح الرفاعى	نهضة مصر ـ مصر
١٣٢	معجم ما استعجم	أبو عبيد البكرى، تحقيق: مصطفى السقا	لجنة التأليف والترجمة ـ مصر
١٣٣	معجم بنى أمية	د. صلاح المنجد	دار الكتاب الجديد ـ بيروت
١٣٤	المعجم الفارسى	د. موسى هنداوى	مكتبة الأنجلو ـ مصر
١٣٥	معجم البلدان	ياقوت الحموى	دار الفكر ـ بيروت
١٣٦	المعجم الوسيط	علماء المجمع اللغوى	مصر
١٣٧	معجم المعانى (الأحجار والمعادن)	مكتب التقريب فى العالم العربى	جامعة الدول العربية
١٣٨	المغرب عبر التاريخ	إبراهيم حركات	دار الرشاد ـ الدار البيضاء
١٣٩	مقاتل الطالبيين	أبو الفرج الأصفهانى	عيسى البابى الحلبى ـ مصر
١٤٠	مقدمة ابن خلدون	ابن خلدون	دار الكتاب اللبنانى ـ بيروت
١٤١	الملكة فريدة	سمير فرج	الزهراء للإعلام العربى ـ مصر
١٤٢	المنزع اللطيف فى مفاخر المولى إسماعيل	عبد الرحمن زيدان	مطبعة إيديال ـ الدار البيضاء
١٤٣	الموسوعة العربية الميسرة	إشراف د. شفيق غربال	مطبوعات الشعب ـ مصر
١٤٤	المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار	المقريزى	رسالة الثقافة الدينية ـ مصر
١٤٥	الموجز فى التراث العلمى	د. على الدفاع	جامعة البترول ـ الظهران
١٤٦	مؤرخو مصر الإسلامية	د. محمد عبد الله عنان	الهيئة العامة للكتاب ـ مصر
١٤٧	موسوعة تاريخ مصر	أحمد حسين	مطبوعات الشعب ـ مصر
١٤٨	موسوعة التاريخ الإسلامى	د. أحمد شلبى	مكتبة نهضة مصر ـ مصر
١٤٩	المرصع فى الآباء والأمهات	ابن الأثير، تحقيق: إبراهيم السامرائى	ديوان الأوقاف ـ بغداد
١٥٠	مختصر تاريخ الأمم الشرقية	حسين أفندى فوزى	مطبعة المقتطف سنة ١٨٩٢م ـ مصر
١٥١	معجم لاروس	معجم فرنسى	مطبعة لاروس ـ باريس
١٥٢	النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة	ابن تغرى بردى	وزارة الثقافة ـ مصر

١٥٣	نسب قريش	المصعب الزبيرى. علق عليه: ليفى بروفنسال	دار المعارف ـ مصر
١٥٤	نفح الطيب	المقرى المغربى التلمسانى، تحقيق: إحسان عباس	دار صادر ـ لبنان
١٥٥	النكت الظراف	ابن حجر العسقلانى	بهيوافوى ـ بومباى ـ الهند
١٥٦	نهر التاريخ الإسلامى	د. إبراهيم العدوى	دار الفكر العربى ـ مصر
١٥٧	نهج البلاغة لعلى بن أبى طالب	الشريف الرضى بشرح ابن أبى الحديد	دار التراث ـ مصر
١٥٨	نهاية الأرب	شهاب الدين النويرى	وزارة الثقافة ـ مصر
١٥٩	النهاية	ابن الأثير	المكتبة العلمية ـ لبنان
١٦٠	نور الدين زنكى	د. حسين مؤنس	الزهراء للإعلام العربى ـ مصر
١٦١	نهر التاريخ الإسلامى	د. إبراهيم العدوى	دار الفكر العربى ـ مصر
١٦٢	هكذا ظهر جيل صلاح الدين	د. ماجد عرسان الكيلانى	دار الفرقان ـ الأردن
١٦٣	ورقات من الحضارة العربية فى إفريقية	حسن حسنى عبد الوهاب	مكتبة المنار ـ تونس
١٦٤	وصف مصر	علماء الحملة الفرنسية، ترجمة: زهير الشايب	مكتبة مدبولى ـ مصر
١٦٥	وفيات الأعيان	ابن خلكان	دار الثقافة ـ بيروت
١٦٦	وقعة صفين	نصر بن مزاحم المنقدى تحقيق: عبد السلام هارون	المؤسسة العربية الحديثة ـ مصر
١٦٧	ولاة مصر	محمد يوسف الكندى، تحقيق: د. حسين نصار	الهيئة العامة للثقافة ـ مصر
١٦٨	اليهود المغاربة	أبو بكر الصديق الشريف	وكالة الصحافة العربية ـ مصر

تم الرجوع إلى الموقع التالى على الإنترنت:

www.rubens.anu.edu.au.



الفهرس


نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع



نساء وراء الأحداث

هذا الكتاب

يصدر هذا الكتاب فى جو مشحون بالتحامل على موقف الإسلام من المرأة، حيث يزعم أعداء الإسلام أنه ظلم المرأة، وأخر مكانتها لحساب الاتجاه الذى يقدم مجتمع الذكورة على مجتمع الأنوثة. مع أن الإسلام لا يعرف هذه التفرقة أبدا، والقائلون بهذا الكلام لا يملكون سوى الأوهام والظنون، والجهالة الجهلاء، فهم أحلاس العلمانية الضالة الذين يرون أن الإسلام يعتبر أكبر عقبة فى طريق استمرار الهيمنة الإلحادية على مقاليد الأمور فى المجتمع الإسلامى.

إن مجموع السير التى يقدمها هذا الكتاب يعتبر من أصدق الشواهد على عظمة الدور الذى قامت به المرأة فى التاريخ الإسلامى. وقد سبق للمؤلفين أن قدما كتابا ضخما بعنوان: «صحابيات حول الرسول» برزت فيه المرأة فى مجتمع النبوة بكل إيجابياتها فقد عرف ذلك المجتمع المرأة المجاهدة، والمقاتلة، والشهيدة، والراوية، والفقيهة، والداعية، وكلهن من صحابيات الرسول ﷺ.

وهذا الكتاب يقدم نماذج للمرأة التى نفخ الإسلام فى روحها من روحه، فكانت صانعة الأحداث فى مختلف قطاعات المجتمع الإسلامى، صاحبة القرارات الح فى مجرى التاريخ المتدفق وهذه النماذج ليست سوى أمثلة لما قامت به المر دور ينافس دور الرجل، بل وقد يتفوق عليه والقارئ مدعو ليتابع هذه السير التى تفوقت فيها المرأة المسلمة، فكانت بكل المقاييس صانعة الأحداث.

النا





